٦٥٩

# التبيان

في

## تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ

الجزء العاشر

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة

٦٥٩

# التبيان

في

# تفسير القرآن

تأليف

شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي ٤٦٠ هـ

الجزء العاشر

تحقيق

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المقدسة

شبكة الفكر
alfeker.net

شابك (دورة) ٥ ـ ٠٧٠ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨
ISBN 978 - 964 - 470 - 070 - 5

# التبيان
## في تفسير القرآن
## (ج ١٠)

■ تأليف : شيخ الطائفة أبي جعفر محمَّد بن الحسن الطوسي ﷺ □
■ الموضوع : التفسير □
■ طبع و نشر : مؤسّسة النشر الإسلامي □
■ عدد الصفحات : ٦٦٨ □
■ الطبعة : الأُولىٰ □
■ المطبوع : ٥٠٠ نسخة □
■ التاريخ : ١٤٣٠ هـ. ق □
■ شابك ج ١٠ : ٠ ـ ٩٤٧ ـ ٤٧٠ ـ ٩٦٤ ـ ٩٧٨ □
ISBN 978 - 964 - 470 - 947 - 0

قم ـ شارع الأمين ـ ابتداء شارع الجمهورية الإسلامية ص . ب ٧٤٩ ـ ٣٧١٨٥
تلفون: ٢٩٣٣٢١٩ ـ ٢٩٣٢٢١٩ فاكس: ٢٩٣٣٥١٧

# سورة سبأ

مكّية في قول مجاهد وقَتادة والحسن وغيرهم. ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقيل: إنّ آيةً واحدةً منها مدنيّة، وهي قوله: ﴿وترى الّذين أُوتُوا...﴾ وهي أربع وخمسون آيةً عند الكلّ إلّا الشامي فإنّها عنده خمس وخمسون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله سبحانه:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأَخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿علّام الغيب﴾ بتشديد اللام وألف بعدها وخفض

الميم. وقرأه أهل المدينة وابن عامر ورويس بألف قبل اللام وتخفيف اللام وكسرها ورفع الميم، الباقون كذلك إلّا أنّهم خفّضوا الميم، وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وخلف وروح. وقرأ ابن كثير وحفص ويعقوب ﴿من رجز أليم﴾ برفع الميم ـ هاهنا ـ وفي الجاثية. و ﴿معجزين﴾ قد مضى ذكره[1]. وقرأ الكسائي وحده ﴿يعزب﴾ بكسر الزاي، الباقون بضمّها. و ﴿الحمد﴾ رفع بالابتداء و ﴿لله﴾ خبره.

و«الحمد» هو الشكر، و«الشكر» هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، و«الحمد» هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم، ونقيضه الذمّ وهو الوصف بالقبيح على جهة التحقير، ولا يستحقّ الحمد إلّا على الإحسان، فلمّا كان إحسان الله لا يوازيه إحسان أحد من المخلوقين، فكذلك لا يستحقّ الحمد أحد من المخلوقين مثل ما يستحقّه، وكذلك يبلغ شكره إلى حدّ العبادة ولا يستحقّ العبادة سوى الله تعالى وإن استحقّ بعضنا على بعض الشكر والحمد.

ومعنى قوله: ﴿الحَمْدُ لله﴾ أي قولوا: الحمدلله ﴿الّذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ معناه الّذي يملك التصرّف في جميع ما في السماوات وجميع ما في الأرض، وليس لأحد منعه منه ولا الاعتراض عليه.

﴿وله الحمد﴾ [في الأُولى يعني بما أنعم عليه من فنون الإحسان و][2] ﴿في الآخرة﴾ بما يفعل بهم من الثواب والعوض وضروب التفضّل في الآخرة، والآخرة وإن كانت ليست دار تكليف فلا يسقط فيها الحمد

(١) راجع تفسير الآية ٥١ من سورة الحجّ.

(٢) مابين المعقوفتين وقع سهواً لأنّه نصّ الآية ٧٠ من سورة القصص لا الآية المذكورة هنا.

والاعتراف بنعم الله تعالى، بل العباد ملجأون إلى شغل ذلك لمعرفتهم الضروريّة بنعم الله تعالى عليهم وما يفعل من العقاب بالمستحقّين فيه أيضاً إحسان لما للمكلّفين به في دار الدنيا من الألطاف والزجر عن المعاصي ويفعل الله تعالى لكونه مستحقّاً على معاصيه في دار الدنيا.

ومن حمد أهل الجنّة قولهم: الحمدلله الّذي صدقنا وعده، وقولهم: الحمدلله الّذي هدانا لهذا. وقيل: إنّما يحمده أهل الآخرة من غير تكليف على وجه السرور به. ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع أفعاله، لأنّها كلّها واقعة موقع الحكمة ﴿الخبير﴾ العالم بجميع المعلومات.

ثمّ وصف نفسه بأنّه ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ من سائر أنواع الأشياء ﴿وما يخرج منها﴾ كذلك. وقال الحسن: معناه يعلم ما يلج في الأرض من المطر وما يخرج منها من النبات. و«الولوج» الدخول، ولج يلج ولوجاً، قال الشاعر:

رأيتُ القوافي يتّلِجنَ مَوالجاً تَضايَقْ عنه أن تولَّجه الإبَرْ[1]

ومعنى ﴿ما ينزل من السماء﴾ قال الحسن: يعني من الماء ﴿وما يعرج فيها﴾ من ملك، فهو يجري جميع ذلك على تدبير عالم به وتوجبه المصلحة فيه.

ثمّ حكى عن الكفّار أنّهم يقولون: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ يعني القيامة تكذيباً للنبيّ صلى الله عليه وآله في ذلك فـ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿بلى﴾ تأتيكم ﴿و﴾ حقّ الله ﴿ربّي﴾ الّذي خلقني وأخرجني من العدم إلى الوجود ﴿لتأتينّكم﴾ الساعة.

---

(١) قائله طرفة بن العبد، راجع ديوانه: ١٦١، وفيه: «تولّجها» بدل «تولّجه».

﴿عالم الغيب﴾ من جرّ «عالم» جعله صفة لقوله: ﴿وربّي﴾ وهو في موضع جرّ بواو القسم. ومن رفعه فعلى أنّه خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هو عالم الغيب. ومن قرأ ﴿علّام﴾ أراد المبالغة في وصفه بأنّه عالم الغيب، والغيب كلّ شيء غاب عن العباد علمه.

﴿لا يعزب عنه﴾ أي لا يفوته ﴿مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض﴾ بل هو عالم بجميع ذلك، يقال: عزب عنه الشيء يَعزُبُ ويَعْزِبُ لغتان، في المضارع ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ أي ولا يعزب عنه علم ما هو أصغر من مثقال ذرّة، ولا علم ما هو أكبر منه.

﴿إلّا في كتاب مبين﴾ يعني اللوح المحفوظ الّذي أثبت الله تعالى فيه جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة ليطلع عليه ملائكته، فيكون لطفاً لهم، ويكون للمكلّفين أيضاً في الإخبار عنه لطف لهم.

ثمّ بيّن أنّه إنّما أثبت ذلك في الكتاب المبين ﴿ليجزي﴾ على ذلك ﴿الّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بنعيم الجنّة وهو قوله: ﴿أولئك لهم مغفرةٌ﴾ لذنوبهم وستر لها، ولهم مع ذلك ﴿رزقٌ كريمٌ﴾ قال قَتادة: الرزق الكريم الجنّة. وقال غيره: هو الهنيء الّذي ليس فيه تنغيص ولا تكدير. ثمّ بيّن أنّ الّذين يسعون في آيات الله وحججه ﴿معاجزين﴾ له أي متعاونين مجاهدين في إبطال آياته ﴿أولئك لهم عذابٌ﴾ على ذلك ﴿من رجزٍ أليم﴾ فمن جرّ «أليم» جعله صفة «رجز» و«الرجز» هو الرجس. وقال قوم: هو سيّء العذاب. وقال آخرون: هو العذاب. و«الرجز» بضمّ الراء الصنم، ومنه قوله: ﴿والرجز فاهجر﴾[1]. وقال أبو عبيدة: ﴿معاجزين﴾ بمعنى سابقين[2].

---

(١) المدّثر: ٥.

(٢) مجاز القرآن ٢: ١٤٢.

و﴿معجزين﴾ معناه مثبّطين، في قول الزجّاج(١).

قوله تعالى:

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ستّ آياتٍ بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿إن يشأ يخسف بهم﴾ بالياء كناية عن الله تعالى أنّه إن شاء خسف، الباقون بالنون كناية على أنّه إخبار منه تعالى عن نفسه.

يقول الله تعالى مخبراً: إنّ الّذين أُوتوا العلم والمعرفة بوحدانيّة الله تعالى، قال قَتادة: هم أصحاب محمّد ﷺ. وقال غيره: يجوز أن يكون المراد كلّ من أُوتي العلم بالدين. وهو الأولى، لأنّه أعمّ. ﴿الّذي أُنزل إليك من ربّك﴾ يعني القرآن ﴿هو الحقّ﴾ فـ﴿الّذي﴾ في موضع نصب بأنّه المفعول بـ«يرى» وقوله: ﴿هو﴾ فصل، ويسمّيه الكوفيّون عماداً، قال الشاعر:

ليتَ الشبابُ هو الرجيع إلى الفتى     والشيب كان هو البديء الأولُ(٢)

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٤٠.

(٢) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٢٥٢ عن الكسائي.

أنشده الكسائي على أنّ «هو»: الأوّل عماد والثاني اسم. و «الحقّ» هو المفعول الثاني، و«يرى» في الآية بمعنى «يعلم» وموضعه يحتمل أن يكون نصباً عطفاً على «ليجزي» ويحتمل أن يكون رفعاً بالاستئناف. و«إيتاء العلم» إعطاؤه إمّا بخلق العلم أو بنصب الأدلّة المسبّبة له، فهو لطف الله تعالى لهم بما أدّاهم إلى العلم، فكان كأنّه قد أتاهم.

﴿الّذي أُنزل إليك﴾ يعني القرآن، وما أنزله الله عليه من الأحكام يعلمونه حقّاً صحيحاً، لمعرفتهم بالله وآياته الدالّة على صدق نبيّه ﴿ويهدي﴾ يعني القرآن ويرشد إلى ﴿صراط العزيز الحميد﴾ يعني إلى دين الله القادر الّذي لا يغالب. و«الحميد» يعني المحمود على جميع أفعاله، وهو الله تعالى.

ثمّ حكى أنّ الكفّار يقول بعضهم لبعض: ﴿هل ندلّكم على﴾ ونرشدكم إلى ﴿رجل ينبّئكم﴾ أي يخبركم ﴿إذا مزّقتم كلَّ ممزَّقٍ﴾ أي مزّقت أعضاؤكم بعد الموت، وصرتم تراباً ورميماً ﴿إنّكم لفي خلقٍ جديدٍ﴾ ابتداء بأن لم يعمل فيها ﴿ينبّئكم﴾ لأنّه لو أعمل فيها لنصبها، يعيدكم ويحييكم، ويقولون: هذا على وجه الاستبعاد له والتعجّب من هذا القول. ومعنى «مزّقتم» بليتم وتقطّعت أجسامكم. والعامل في ﴿إذا﴾ يقول، في قول الزجّاج، وتقديره: هل ندلّكم على رجل يقول لكم: إنكم إذا مزّقتم تبعثون، ويكون «إذا» بمعنى الجزاء تعمل فيها الّتي تليها، قال قيس:

إذا قَصرتْ أسيافُنا كانَ وَصْلُها خُطانا إلى أعدائنا فنضارب[1]

والمعنى يكن وصلها، فلذلك جزم فنضارب[2]. وقيل: العامل فيه معنى

---

(١) ديوان قيس بن الخطيم: ٨٨.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

الجملة كأنّه قيل: يجدّد خلقكم، ولا يجوز أن يعمل فيه ما بعد «لام الابتداء» ولا ما بعد «إنّ» لأنّها حروف لا تتصرّف في نفسها ولا في معمولها.

وقوله: ﴿أفترى على الله كذباً﴾ قال قوم: أسقط ألف الاستفهام من «أفترى» لدلالة «أم» عليه. وقال الرمّاني: هذا غلط، لأنّ ألف الاستفهام لا تحذف إلّا في ضرورة وإنّما القراءة بقطع الألف. فألف الاستفهام ثابتة وألف «افتعل» سقطت لأنّها زائدة، ومثله قوله: ﴿بيديّ أستكبرت﴾[1] وقوله: ﴿أصطفى البنات﴾[2] وقوله: ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم﴾[3] ونظائره كثيرة.

ولم يفصل بينها بمدّة لأنّ الثانية مكسورة ففارق همزة ﴿آلله خيرٌ أمّا يشركون﴾[4] ولو لم تقطع لكان خبراً بعده استفهام.

والمعنى أنّ هؤلاء الكفّار الّذين يتعجّبون من قول النبيّ صلى الله عليه وآله: إنّ الله يعيد الخلق بعد إماتتهم خلقاً جديداً، هل كذّب على الله متعمّداً ﴿أم به جنّةٌ﴾ يعنون جنوناً فيتكلّم بما لا يعلم، فقال الله تعالى: ليس كما يقولون ﴿بل الّذين لا يوقنون﴾ أي لا يصدّقون بالآخرة وبما فيها من الثواب والعقاب ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ يعني العدول البعيد عن الحقّ، فلذلك يقولون ما يقولون، بل نبّههم على صحّة ما يقول النبيّ صلى الله عليه وآله من الإعادة، فقال: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ فيفكّروا فيه ويعتبروا به وأنّ الله تعالى خلقه واخترعه وأنّه ﴿إنّ نشأ نخسف بهم الأرض﴾ من تحت أرجلهم ﴿أو نسقط عليهم كسفاً﴾ يعني قطعة من السماء، ثمّ قال:

---

(١) ص: ٧٥. (٢) الصافّات: ١٥٣. (٣) المنافقون: ٦. (٤) النمل: ٥٩.

﴿إنّ في ذلك لآيةً﴾ ودلالة ﴿لكلّ عبدٍ منيب﴾ أي راجع إلى الله تعالى.

ووجه التنبيه بالآية أن ينظروا فيعلموا أنّ السماء تحيط بهم، والأرض حاملة لهم، فهم في قبضتنا ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أفما يحذرون هذا فيرتدعون عن التكذيب بآيات الله. و«المنيب» المقبل التائب، في قول قَتادة.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿ولقد آتينا داود﴾ يعني أعطاه ﴿منّا فضلاً﴾ من عند الله. وقيل: معناه النبوّة. وقيل: الزبور. وقيل: حسن الصوت. وقيل: هو ما فسّره، أي قلنا: ﴿يا جبال أوّبي معه﴾ ومعناه أنّه نادى الجبال وأمرها بأن أوّبي معه أي ارجعي بالتسبيح معه، قال الشاعر:

يومانِ يوم مقاماتٍ وأنديةٍ ... ويومُ سيرٍ إلى الأعداءِ تأويب[١]

أي رجوع بعد رجوع. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة والضحّاك: أمر الله الجبال أن تسبّح معه إذا سبّح. «والطير» في نصبه وجهان: أحدهما وسخّر الطير. والثاني: بالعطف على موضع المنادى الأوّل، كما قال الشاعر:

ألا يا زيد والضحّاك سِيَرا ... فقد جاوزتما خمر الطريق[٢]

والأوّل أقوى عندهم، لأنّ الحمل على لفظة المنادى أشكل، ويكون كقولهم: «أطعمتها تبناً وماءً بارداً»[٣] أي: وسقيتها.

وقيل: معنى «أوّبي» سيري معه حيث شاء، وليس المعنى أنّ الله خاطب الجبال، وهي جماد بذلك، بل المراد أنّه فعل في الجبال ما لو كانت

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٠، ونسبه إلى سلامة ابن جندل.
(٢) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٥٥.
(٣) أنشده ابن جني في الخصائص ٢: ٤٣١، ولم ينسبه لأحد.

حيّة قادرة لكان يتأتّى منها ذلك.

وقوله: ﴿وألنّا له الحديد﴾ قال قَتادة: كان الحديد في يده مثل الشمع يصرفه كيف يشاء من غير نار ولا تطريق. ثمّ قال: وقلنا له: ﴿أن اعمل سابغاتٍ﴾ وهي الدروع التامّة. و«السابغ» التامّ من اللباس، ومنه إسباغ النعمة إتمامها، وثوب سابغ تامّ. ﴿وقدّر في السرد﴾ معناه لا تجعل الحلقة واسعة لا تقي صاحبها. «وسرد الحديد» نظمه. وقيل: السرد حلق الدرع، في قول ابن عبّاس وابن زيد. قال الشاعر:

أجاد المسدّى سردها وأذالها(١)

وقال قَتادة: السرد المسامير الّتي في حلق الدرع، وهو مأخوذ من سرد الكلام سرده يسرده سرداً: إذا تابع بين بعض حروفه وبعض، كالتابعة في الحلق والمسامير. ومنه السرد للطعام وغيره لأنّه يتتابع فيه خروج ما ليس منه، قال الشاعر:

وعليهما مسرودتانِ قضاهما داود أو صنع السوابغ تُبّع(٢)

ويقولون: درع مسرودة، أي مسمورة الحلق. وقيل: معنى ﴿وقدّر في السرد﴾ عدّل المسمار في الحلقة لا يدق فينكسر أو يغلظ فيفصم، ذكره مجاهد والحكم.

﴿واعملوا صالحاً﴾ أمر لهم بأن يعملوا الأعمال الحسنة الّتي ليست قبيحة وما يكون بفعله مطيعاً لله ﴿إنّي بما تعملون بصيرٌ﴾ أي عالم بما تفعلونه، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، فالبصير العليم بالأمور بما

(١) أنشده الطبري في تفسيره ٢٢: ٤٧، ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٤٣، ونسبه إلى الشاعر أبي ذؤيب.

يتبيّن في تميّزه بعضه من بعض.

وكان الكسائي يدغم الفاء في الباء في قوله: ﴿ان نشأ نخسف بهم﴾ [(١)] وهذا لا يجوز عند البصريّين، لأنّ الفاء من باطن الشفة العليا وأطراف الثنايا العليا والباء يخرج من بين الشفتين، ولأنّ الفاء فيه نفس، فإذا أُدغم في الباء بطل، وأيضاً فهو من مخرج التاء، فكما لا يجوز إدغامه في التاء فكذلك لا يجوز إدغامه في الباء، وأجاز ذلك الفرّاء. وأمّا إدغام التاء في الفاء فلا خلاف فيه.

قوله تعالى:

وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾.

خمس آيات شامي، لأنّهم عدّوا ﴿عن يمين وشمال﴾ وأربع في ما عداه، لأنّهم لم يعدّوا ذلك.

قرأ نافع وأبوعمروٍ ﴿منساته﴾ بغير همز. الباقون ﴿منسأته﴾ بالهمزة. وقرأ الكسائي وحده ﴿مسكنهم﴾ بكسر الكاف، وقرأ حمزة بفتحها، الباقون ﴿مساكنهم﴾ على الجمع. ونصب الريح في قوله: ﴿ولسليمان الريح﴾ على

---

(١) سبأ: ٩.

تقدير: وسخّرنا لسليمان الريح. وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمّ الحاء، والمعنى في ذلك أنّه أضاف الريح إليه إضافة الملك يصرفه كيف شاء.

وقوله: ﴿غدوّها شهر ورواحها شهر﴾ قال قتادة: كان مسيرها به إلى انتصاف النهار مقدار مسير شهر ﴿ورواحها شهر﴾ من انتصاف النهار إلى الليل في مقدار مسير شهر. وقال الحسن: كان يغدو من الشام إلى بيت المقدس فيقيل بإصطخر من أرض إصبهان، ويروح منها فيكون بكابل.

وقوله: ﴿وأسلنا له عين القطر﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: أذبنا له النحاس، والقطر النحاس. ثمّ قال: ﴿ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه﴾ أي بأمر الله ﴿ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾ معناه من يعدل من هؤلاء الجنّ الّذين سخّرناهم لسليمان حتّى يعملوا بين يديه عمّا أمرهم الله به من طاعته ﴿نذقه من عذاب السعير﴾ يعني عذاب النار تقول: زاغ يزيغ زيغاً وأزاغه إزاغة.

ثمّ أخبر تعالى أنّ الجنّ الّذين سخّرهم الله لسليمان ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب﴾ قيل: معناه شريف البيوت. وقال قَتادة: قصور ومساجد، قال المبرّد: لا يسمّى محراباً إلّا ما يرتقى إليه بدرج، لقوله: ﴿إذ تسوّروا المحراب﴾ [1] قال عدي بن زيد:

كدمي العاج في المحاريبَ أو كالـ ... بيض في الروض زَهرُه مستنيرُ [2]

وقال وضّاح اليمن:

ربّة محرابٍ إذا جئتها ... لم ألقها أو أرتقي سُلّما [3]

---

(١) ص: ٢١.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٣٥٤.

(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٤٤.

و ﴿تماثيل﴾ جمع تمثال وهو صورة، فبيّن أنّهم كانوا يعملون أيّ صورة أرادها سليمان. وقال قوم: كانوا يعملون له صورة الملائكة. وقال آخرون: كانوا يعملون له صورة السباع والبهائم على كرسيّه ليكون أهيب له، فذكر أنّهم صوّروا أسدين وفوق عمودي الكرسيّ نسرين، فكان إذا أراد صعود الكرسي بسط له الأسد ذراعه، فإذا علا فوق الكرسيّ نشر النسران جناحيهما، فظلّلا عليه لئلّا يسقط عليه شيء من الشمس. ويقال: إنّ ذلك ممّا لا يعرفه أحد من الناس، فلمّا حاول بخت نصر صعود الكرسيّ بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان، فرفع الأسد ذراعه فضرب ساقه فقدّها فوقع مغشيّاً عليه، فما جسر أحد بعده أن يصعد على ذلك الكرسيّ.

﴿وجفانٍ كالجواب﴾ واحدها جفنة وهي القصعة الكبيرة. و«الجوابي» جمع جابية، وهي الحوض الّذي يجيء الماء فيه، قال أبو عليّ النحوي: إثبات الياء مع الألف واللام أجود، وحذفها يجوز[1] وقال الأعشى في جفنة:

تروحُ على آلِ المحلّقِ جَفنةٌ     كجابيةِ الشَيْخِ العِراقيَّ تَفْهَقُ[2]

وقال آخر:

فصبّحتْ جابية صهارجا     كأنّه جلد السماءِ خارجا[3]

وقال ابن عبّاس: الجوابي الحياض. ﴿وقدور راسياتٍ﴾ يعني عاليات ثابتات لا تنزل. ثمّ نادى آل داود وأمرهم بالشكر على ما أنعم عليهم من

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٩١.
(٢) ديوان الأعشى: ١٢١.
(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٤٤ ولم ينسبه لأحد.

هذه النعمة العجيبة الّتي أنعم بها عليهم، لأنّ نعمته على داود نعمة عليهم، فقال: ﴿اعملُوا آل داود شكراً﴾ ثمّ قال تـعالى: ﴿وقليلٌ من عبادي الشكور﴾ أي من يشكر نعمي قليل، والأكثر يجحدون نعم الله لجهلهم بـه وتـركهم معرفته.

ثمّ أخبر تعالى أنّه لمّا قضى على سليمان الموت وقدّره عليه وقبضه إليه لم يعلموا بذلك من حاله حتّى دلّهم على مـوته دابّـة الأرض وهـي الأرَضَةُ. فأكلت عصاه فانكسرت، فوقع، لأنّه روي أنّه قبض وهـو فـي الصلاة[١] وكان قال للجنّ: اعملوا ما دمتم تروني قائماً، واتّكأ على عصاه من قيام، وقبضه الله إليه وبقي مدّة، فيجيء الجنّ فيطالعونه فيرونه قـائماً فيعودون فيعملون إلى أن دبّت الأرَضَة فأكلت عصاه فوقع وخرّ، فعلموا حينئذٍ موته، وتبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون ما غاب عنهم مـن مـوت سليمان لم يلبثوا في العذاب الّذي أهانهم وأذلّهم. و«المنسأة» العصا الكبيرة الّتي يسوق بها الراعي غنمه.

قال أبو عبيدة: معنى «تبيّنت الجنّ» أي أبانت الجنّ للناس أن لو كان الجنّ يعلمون الغيب لما لبثوا في العذاب المهين[٢]. والمنسأة أصلها الهمزة من نَسَأت أي سقت، وقد يترك الهمز، قال الشاعر:

إذا دببت على المنساة من هرم فقد تباعد عنك اللهو والغَزَل[٣]

إلّا أنّه يترك همزها، كما يترك في «البرية» وهي من برأت. وقيل: إنّه كان متوكّئاً على عصاه سنة لا يدرى أنّه مات. وقيل: المـعنى ﴿فلما خرّ

---

(١) رواه الماوردي في تفسيره ٤: ٤٤١.
(٢) مجاز القرآن ٢: ١٤٦.
(٣) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٣٥٤ ولم ينسبه لأحد.

تبيّنت﴾ جماعة من عوامّ ﴿الجنّ﴾ أغواهم مَرَدَتُهم أنّ المتمرّدين ﴿لو كانوا يعلمونَ الغَيبَ﴾ لأنّهم كانوا يقولون لهم: نحن نعلم الغيب.

وفي قراءة أهل البيت ﴿فلما خرّ تبيّنت الإنس أن لو كان الجنّ يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ قالوا: لأنّ الجنّ كانت تعلم أنّها لا تعلم الغيب قبل ذلك. وإنّما تبيّنت الإنس ذلك من حال الجنّ.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿لقد كان لسبإٍ في مسكنهم آيةٌ﴾ أي دلالة وعلامة فـ«سبأ» قيل: إنّه أبو عرب اليمن كلّها فقد تسمّى به القبيلة نحو هذه تميم.

فمن قرأ على التوحيد فلأنّه يدلّ على القليل والكثير، ومن جمع أراد المساكن المختلفة. والفرق بين فتح الكاف وبين كسرها في «مسكنهم» أنّ الفتح يفيد المصدر والكسر يفيد الموضع، وقيل: إنّهما لغتان في الموضع.

والآيتان قيل: إنّه لم يكن بينهم شيء من هوامّ الأرض، نحو البقّ والبرغوث والعقرب وغير ذلك. وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمل متن فهذه آية. والثانية أنّ المرأة كانت تأخذ على رأسها مكتلاً فيمتلئ بالفواكه من غير أن تمسّ بيدها شيئاً.

ثمّ فسّر الآيتين فقال: ﴿جنّتان﴾ أي هي جنتان ﴿عن يمين وشمال﴾ قيل: عن يمين الوادي وشماله ﴿كلوا من رزق ربّكم﴾ أي كلوا من رزق الله الّذي رزقكم في هاتين الجنّتين، فلفظه لفظ الأمر والمراد به الإباحة ﴿واشكروا له﴾ هذه النعمة الّتي أنعم بها عليكم. ثمّ بيّن أنّ تلك الجنّتين ﴿بلدة طيّبة﴾ التربة. وقيل: البلدة الطيّبة صنعاء أرضها طيّبة ليس فيها سبخة ﴿وربّ غفورٌ﴾.

قوله تعالى:

فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ

خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا
ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا
ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾
خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو ﴿ذواتي أُكُل خمط﴾ مضافاً. الباقون ﴿أكل خمط﴾ منوّناً. والاختيار عندهم التنوين، لأنّ الأكل نعت للخمط والشيء لا يضاف إلى نفسه، ومن أضاف قال: الخمط هو جنس مخصوص من المأكولات، والأكل أشياء مختلفة فأُضيفت إلى الخمط، كما تضاف الأنواع إلى الأجناس. و«الخمط» ثمر الأراك وهو البربر أيضاً، واحدها بربرة وسمّيت به جارية عائشة، و«البربر» شجر السواك. و«الأثل» شجر، واحدها أثلة.

وقرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿وهل نجازي﴾ بالنون ﴿إلّا الكفور﴾ نصباً[1] أضافوا الفعل إلى الله تعالى، الباقون بالياء على ما لم يسمّ فاعله ﴿الكفور﴾ بالرفع.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿بَعِّدْ بين أسفارنا﴾ بالتشديد من التبعيد، الباقون ﴿باعد﴾ من المباعدة على لفظ الأمر، إلّا يعقوب، فإنّه قرأ ﴿باعد﴾ على لفظ الخبر، لأنّهم لما سألوا أن يبعّد الله بينهم ففعل ذلك بينهم جاز حينئذٍ الإخبار بأنّه تعالى فعل ذلك. وقرأ أهل الكوفة ﴿ولقد صدّق﴾ بتشديد الدالّ، الباقون بتخفيفها.

---

(١) في الخطّية: «بنصب الراء».

لمّا أخبر الله سبحانه عن سبأ وهي القبيلة من اليمن أنّه أنعم عليهم بالجنّتين وبالبلدة الطيّبة، وأمرهم بشكر نعمه فأعرضوا عن ذلك، فلم يشكروه وكفروه وجحدوا نعمه، ولم يقبلوا ممّن دعاهم إلى الله من أنبيائه ورسله جازاهم الله على ذلك بأن أرسل عليهم سيل العرم، وسلبهم تلك النعمة وأنزل بهم البليّة، فالسيل الماء الكثير الّذي لا يمكن ضبطه ولادفعه.

وقيل: إنّه كانت تجتمع مياه وسيول في هذا الوادي فسدّوه بين جبلين بالحجارة والقار، وجعلوا له أبواباً يأخذون منه ما شاءوا، فلمّا تركوا أمر الله بعث عليهم جرذاً فنقبه فأغرق الله عليهم جنّتهم وأفسد أرضهم. وقيل: العرم: ماء كثير أرسله الله في السدّ فشقّه وهدمه. قال الراجز:

أَقْبَلَ سيلٌ جاءَ مِن أمر الله يَحْرِدُ حَرْدَ الجَنّةِ المُغِلّه[1]

وقيل: إنّ العرم المسناة الّتي تحبس الماء، واحدها عرمة وهو مأخوذ من عرامة الماء وهو ذهابه كلّ مذهب، قال الأعشى:

ففي ذاكَ للمؤْتَسي أُسوَةٌ وَمأرِبُ قَفّى عليه العَرِمْ
رجامٌ بَنَتْهُ لَهُم حِمْيَرٌ إذا جاء ماؤهم لم يَرِمْ[2]

وقيل: كان سببه زيادة الماء حتّى غرقوا. وقيل: كان سببه نقب جرذ نقب عليهم السكر. وقيل: العرم السكر. وقيل: المطر الشديد. وقيل: هو اسم وادي. وقيل: هو الجرذ الّذي نقب السكر، قال كثيّر:

أيادي سبا يا عَزَّ ما كنتُ بعدكُمْ فلمْ يَحْلَ للعينينِ بعدَكِ مَنظرُ[3]

---

(١) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ١: ١١٥ ولم ينسبه لأحد.

(٢) ديوان الأعشى: ٢٠١. في الخطّيّة والحجريّة: «رُخام».

(٣) ديوان كثيّر عزّة: ١٠٠.

وقال آخر:

من صادرٍ أو واردٍ أيدي سَبَا[١]

وقال جرير:

الواردون وتـــيم فـــي ذرى ســبأ

قد عضّ أعنـاقهم جلدُ الجواميسِ[٢]

ثمّ قال: ﴿وبدّلناهم بجنّتيهم﴾ الّـتي فـيها أنـواع الفـواكـه والخـيرات ﴿جنّتين﴾ أُخراوين وسمّاها جنّتين لازدواج الكلام، كـما قـال: ﴿ومكروا ومكر الله﴾[٣] و ﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾[٤] ﴿ذواتي أكل خمط﴾ أي صاحبتي خمط فالأُكل جني الثمار الّذي يؤكل.

و«الخمط» كلّ نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتّى لا يمكن أكله، في قول الزجّاج[٥]. وقال أبو عـبيدة: هـو كـلّ شـجر ذي شـوك[٦]. وقـال ابن‌عبّاس والحسن: هو شجر الأراك، وهو معروف. والأَثْل الطرفاء.

قال قَتادة: بدّلوا بخير الشجر شرّ الشجر، فالخمط شجر له ثـمر مـرّ، والأَثْل ضرب من الخشب كالطرفاء، إلّا أنّه أكـبر. وقـيل: الأثـل التـمر. ﴿وشيء من سدر قليل﴾ أي فيهما مع الخمط، والأثل قليل من السدرة.

ثمّ قال: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ فـي نـعم الله ﴿وهل نجازي﴾ بـهذا الجزاء ﴿إلّا الكفور﴾ من كفر نعم الله.

فمن قرأ بالنون فلقوله: ﴿جزيناهم﴾ ولا يمكن الاستدلال بذلك على

---

(١) أنشده الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٥١.

(٢) شرح ديوان جرير: ٢٤١، وفيه: «تدعوك يتم» بدل «الواردون». (٣) آل عمران: ٥٤.

(٤) النساء: ١٤٢. (٥) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٤٩. (٦) مجاز القرآن ٢: ١٤٧.

أنّ مرتكب الكبيرة كافر من حيث هو معذّب، لأنّ الله تعالى بيّن أنّه لا يجازي بهذا النوع من العذاب الّذي هو الاستئصال إلّا من هو كافر وإن جاز أن يعذّب الفاسق بغير ذلك من العذاب. وقال الفرّاء: المجازاة المكافأة، ومن الثواب الجزاء، تقول: جازاه على معصيته وجزاه على طاعته[١]. وقال غيره: لا فرق بينهما.

ثمّ بيّن تعالى أنّه جعل بين سبأ وبين القرى الّتي بارك الله فيها ـ قال قَتادة ومجاهد: هي قرى الشام، وقال ابن عبّاس: هي بيت المقدس ـ ﴿قرى ظاهرةً﴾ قال قَتادة: معناه متواصلة، لأنّه يظهر الثانية من الأولى لقربها منها ﴿وقدّرنا فيها السير﴾ معناه جعل بين القرية الأُولى والثانية مسيرة يوم لراحة المسافر ونزوله فيها.

﴿سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين﴾ لا تخافون جوعاً ولا عطشاً ولا ظلماً من أحد، كأنّه قيل لهم: سيروا كذا. فقالوا: ﴿ربّنا باعد بين أسفارنا﴾ معناه أنّهم نظروا وملّوا النعمة، فقالوا: لو كان جني ثمارنا أبعد ممّا هي كان أجدر أن نشتهيه، كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فادع لنا ربّك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها﴾[٢] بدلاً من المنّ والسلوى.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بارتكاب المعاصي ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ فضرب بهم المثل فيقال: «تفرّقوا أيادي سبأ» أي: تشتّتوا أعظم التشتّت. قال الشعبي: أمّا غسان فلحقوا بالشام، وأمّا الأنصار فلحقوا بيثرب، وأمّا خزاعة فلحقوا بتهامة، وأمّا الأُزد فلحقوا بعمان.

وقيل: معنى ﴿جعلناهم أحاديث﴾ أي أهلكناهم وألهمنا الناس حديثهم

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٥٩.
(٢) البقرة: ٦١.

ليعتبروا بها ﴿ومزّقناهم كلّ ممزّق﴾ قال ابن عبّاس: مزّقوا بين الشام وسبأ كلّ ممزّق.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ في﴾ ما ذكر ﴿لآيات﴾ ودلالات ﴿لكلّ صبّار شكور﴾ أي صبّار على الشدائد، شكور على النعماء.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس﴾ صدق ﴿ظنّه﴾ فيهم بإجابتهم إلى معصية الله وقبولهم منه ﴿فاتّبعوه﴾ بأجمعهم ﴿إلّا فريقاً من المؤمنين﴾ العارفين بالله وبوحدانيّته فخالفوه فلم يتّبعوه. فمن شدَّد «صدّق» أسند الفعل إلى إبليس وجعل الظنّ المفعول به، لأنّ إبليس لمّا قال تظنّناً: ﴿ولآمرنّهم فليبتكنّ آذان الأنعام﴾[1] فلمّا تبعه قوم على ذلك صدق ظنّه. ومن خفّف فالمعنى مثله، لأنّهما لغتان يقال: صدقت زيداً وصدّقته، وكذّبته وكذبته، وينشد:

وصدقتني وكذبتني والمَرءُ يَنْفَعُهُ كِذابُهْ[2]

وقرأ أبو الهجهاج: «إبليس» بالنصب «ظنّه» بالرفع جعل الظنّ الفاعل وإبليس المفعول به. وذلك جائز عند النحويّين، لأنّهم يقولون: صدقني ظنّي وكذّبني، إلّا أنّه شاذّ لا يقرأ به. وقيل: إنّ إبليس لمّا أغوى آدم قال: ذرّيته أولى بأن أُغويهم، وقال: ﴿لأحتنكنّ ذرّيته إلّا قليلاً﴾[3] فصدّق ذلك ظنّه حتّى تابعوه. وقال: ﴿فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين﴾[4] وكانت إجابتهم له تصديقاً لظنّه.

---

(١) النساء: ١١٩.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٢٨٣ ونسبه إلى الأعشى، وفيه: «فصدقتها وكذبتها» بدل «وصدقتني وكذبتني».

(٣) الإسراء: ٦٢.

(٤) ص: ٨٢.

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف والأعشى والبرجمي عن أبي‌بكر ﴿أذن له﴾ بضمّ الهمزة، الباقون بفتحها. وقرأ ابن عامر ويعقوب ﴿فزّع﴾ بفتح الفاء والزاي، الباقون «فزّع» بضمّ الفاء وكسر الزاي. فمن فتح الهمزة من ﴿أذن﴾ فمعناه أذن الله له، ومن ضمّها جعله لما لم يسمّ فاعله، يقال: أذنت للرجل في ما يفعله أي أعلمته وأذنته أيضاً، وأذن زيد إلى عمروٍ إذا استمع إليه. روي في الحديث: ما أذن الله لشيء قطّ كإذنه لنبيّ حسن الصوت يتغنّى بالقرآن[1]. ومثل ذلك القول في فزّع عن قلوبهم، ومعنى فزّع قال أبو عبيدة: فزّع عن قلوبهم نفّس عنها[2]. وقال أبوالحسن: المعنى حكي عنها. وقال أبو عبيدة: معناه أذهب[3]. وقال قوم: الّذين فزّع عن قلوبهم الملائكة، ويقال: فزع وفزّع: إذا أُزيل الفزع عنها. ومثله جاء

(١) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٢٧١، سنن الترمذي ١٠: ٢٢٩.

(٢ و٣) مجاز القرآن ٢: ١٤٧.

في «افعل» يقولون: أشكاه: إذا أزال عنه ما يشكو منه، انشد أبوزيد:

تمدّ بالأعناق أو تلويها      وتشتكي لو أنّنا نُشكيها(١)

فكما أنّ اشكيت أزلت الشكوى كذلك فَزّع وفُزع أزال الفزع. وقال قَتادة: معنى فزّع عن قلوبهم خلا من قلوبهم، قال: يوحي الله تعالى إلى جبرائيل فيعرف الملائكة، ويفزع عن أن يكون شيء من أمر الساعة، فإذا خلا عن قلوبهم وعلموا أنّ ذلك ليس من أمر الساعة ﴿قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ﴾ وتقديره: قالوا قال الحقّ، فمن قرأ بفتح الفاء أسند الفعل إلى الله، ومن ضمّها بنى الفعل للمفعول به، وكان الجارّ والمجرور في موضع رفع. وقال الحسن: فزّع بمعنى كشف الفزع عن قلوبهم، وفزّعت منه. والمفزع على ضربين: أحدهما: من ينزل به الإفزاع. الثاني: من يكشف عنه الفزع. وقوله: ﴿وفزّع﴾ له معنيان أحدهما بمعنى ذعر، والثاني أزال الفزع، وقال اليربوعي:

حللنا الكَثيبَ من زَرُودَ لِنَفْزَعا(٢)

أي: لنغيث.

لمّا أخبر الله تعالى أنّ إبليس صدق ظنّه في الكفّار بإجابتهم له إلى ما دعاهم إليه من المعاصي بيّن أنّه لم يكن لإبليس عليهم سلطان. و«من» زائدة تدخل مع النفي نحو قولهم: ما جاءني من أحد. و«السلطان» الحجّة، فبيّن بهذا أنّ الشيطان لم يقدر على أكثر من أن يغويهم ويوسوس إليهم

(١) أنشده ابن جني في الخصائص ٣: ٧٧.

(٢) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ٣: ٥، وصدره: فقلت لكأسٍ ألجميها فإنّما.

ويزيّن لهم المعاصي ويحرّضهم عليها.

وقوله: ﴿إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ﴾ تقديره: إنّا لم نمكّنه من إغوائهم ووسوستهم إلّا لنميّز من يقبل منهم ومن يمتنع ويأبى متابعته، فنعذّب من تابعه ونثيب من خالفه، فعبّر عن تمييزه بين الفريقين بالعلم، وهو التمييز مجرّداً، لأنّه لا يكون العذاب والثواب إلّا بعد وقوع ما يستحقّون به ذلك، فأمّا العلم فالله تعالى عالم بأحوالهم وما يكون منها في ما لم يزل.

وقيل: إنّ معناه إلّا لنعلم طاعاتهم موجودة أو عصيانهم إن عصوا فنجازيهم بحسبها، لأنّه تعالى لا يجازي أحداً على ما يعلم من حاله إلّا بعد أن يقع منهم ما يستحقّ به من ثواب أو عقاب.

وقيل : معناه إلّا لنعامل معاملة من كأنّه لا يعلم، وإنّما نعمل لنعلم من يؤمن بالآخرة، أي من يصدّق بها ويعترفَ ممّن يشكّ فيها ويرتاب.

ثمّ قال: ﴿وربّك﴾ يا محمّد ﴿على كلّ شيء حفيظ﴾ أي رقيب عالم لا يفوته علم شيء من أحوالهم من إيمانهم وكفرهم أو شكّهم. ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بأن يقول لهؤلاء الكفّار: ﴿ادعوا الّذين زعمتم من دون الله﴾ أنّهم آلهة ومعبودة هل يستجيبون لكم إلى ما تسألونهم؟ لأنّه لا يستحقّ العبادة إلّا من كان قادراً على إجابة من يدعوه.

ثمّ أخبر تعالى عنها فقال: ﴿لا يملكون مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك﴾ يعني وما لله في السماوات والأرض شريك ﴿وماله منهم من ظهير﴾[1] أي معاون. و«الملك» هو القدرة على ما للقادر

(١) في الخطّية والحجريّة: «ولاله منهم من ظهير» والصواب ما أُثبت في المطبوع لنصّه نصّ الآية المفسّرة.

عليه التصرّف فيه، وليس لأحد منعه منه، وذلك ـ في الحقيقة ـ لا يستحقّ الوصف به مطلقاً إلّا الله، لأنّ كلّ من عداه يجوز أن يمنع على وجه.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده﴾ أي عند الله ﴿إلّا لمن أذن﴾الله ﴿له﴾ فيالشفاعة من الملائكة والنبيّين والأئمّة والمؤمنين، لأنّهم كانوا يقولون: نعبدهم ليقرّبونا إلى الله زلفى، فحكم الله تعالى ببطلان ذلك.

وقوله: ﴿حتّى إذا فزّع عن قلوبهم﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: حتّى إذا خلّي عن قلوبهم الفزع، كقولك: رغب عنه، أي رفعت الرغبة عنه فلا يرغب، بخلاف رغب فيه، ففي أحد الأمرين وضع وفي الآخر رفع.

وقيل: هم الملائكة يلحقهم غشى عن سماع الوحي من الله بالآية العظيمة، فإذا ﴿فزّع عن قلوبهم﴾ أي خلّي عنها ﴿قالوا ماذا قال ربّكم﴾ ذكره ابن مسعود ومسروق وابن عبّاس في رواية.

وقال الحسن: حتّى إذا كشف عن قلوب المشركين الفزع، قالت الملائكة: ﴿ماذا قال ربّكم﴾ في الدنيا ﴿قالوا﴾ قال: ﴿الحقّ وهو العليّ الكبير﴾ أي الله تعالى المستعلي على الأشياء بقدرته، لا من علوّ المكان ﴿الكبير﴾ في أوصافه دون ذاته، لأنّ كبر الذات من صفات الأجسام.

ثمّ قال له: ﴿قل﴾ لهم ﴿من يرزقكم من السماوات والأرض﴾ فإنّهم لا يمكنهم أن يقولوا يرزقنا آلهتنا الّتي نعبدها، فـ﴿قل﴾ لهم عند ذلك: الّذي يرزقكم ﴿الله﴾ وقل ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبينٍ﴾ وقيل: إنّما قال: ﴿وإنا أو إيّاكم﴾ على وجه الإنصاف في الحجاج دون الشكّ، كما يقول القائل لغيره: أحدنا كاذب، وإن كان هو عالماً بالكاذب. وعلى هذا قال أبو الأسود الدؤلي يمدح أهل البيت:

يقول الأرذلونَ بنو قُشَيْرٍ طِوالَ الدهر ما تَنسى عليّا
أُحبّ محمّداً حبّاً شديداً وعبّاساً وحمزةً والوصيا
بنو عمّ النبيّ وأقربوهُ أحبّ الناس كلّهم إلَيّا
فإن يَك حبّهم رُشداً أُصبْهُ ولست بمخطئ إن كان غيّا(١)

ولم يقل هذا مع أنّه كان شاكّاً في محبّتهم، وأنّه هدى وطاعة. وقال أكثر المفسّرين: إنّ معناه إنّا لعلى هدًى وإيّاكم لعلى ضلال. وقال أبوعبيدة: «أو» بمعنى الواو(٢) كما قال الأعشى:

أثعْلَبَةَ الفوارسِ أو رياحاً عَدَلْتَ بهم طُهيّةَ والخِشابا(٣)

بمعنى أثعْلبةَ ورياحاً.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿لا تسألون﴾ معاشر الكفّار ﴿عمّا أجرمنا﴾ أي عمّا اقترفناه من المعاصي ﴿ولا نسأل﴾ نحن أيضاً ﴿عمّا تعملون﴾ أنتم بل كلّ إنسان يسأل عمّا يعمله، وهو يجازي على أيّ فعل فعله دون غيره.

وتقدير قوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له﴾ أن يشفع له، فزع بسماعه أذنه حتّى إذا فزّع عن قلوبهم وخلّي عنها وكشف الفزع عنهم قالوا: ماذا قال ربّكم، قالت الملائكة: قال الحقّ وهو العليّ الكبير.

قوله سبحانه:

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

(١) أنشده المبرّد في الكامل ٣: ١١٢٥. (٢) مجاز القرآن ٢: ١٤٨.
(٣) البيت موجود في ديوان جرير انظر شرحه: ٥٨، وليس بموجود في ديوان الأعشى فلاحظ.

ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

لمّا أمر الله تعالى نبيّه أن يخاطب الكفّار ويقول لهم: إنّ كلّ إنسان يسأل عمّا عمله دون ما عمل غيره قال له أيضاً: ﴿قُل﴾ لهم: ﴿يجمع بيننا ربّنا﴾ يوم القيامة ﴿ثمّ يفتح بيننا﴾ أي يحكم، و«الفتح» الحكم، و«الفتّاح» الحاكم بالحقّ لا بالظلم ﴿وهو الفتّاح﴾ أي: الحاكم ﴿العليم﴾ بما يحكم به لا يخفى عليه شيء منه.

ثمّ قال: ﴿قل أروني الّذين ألحقتم به شركاء﴾ تعبدونهم معه وتشركون بينهم في العبادة على وجه التوبيخ لهم في ما اعتقدوه من الإشراك مع الله، كما يقول القائل لمن أفسد عملاً: أرني ما عملته، توبيخاً له بما أفسده، فإنّهم سيفتضحون بذلك إذا أشاروا إلى الأصنام والأوثان ويضمّونها إلى الله ويشركون بينهما في العبادة فقال تعالى: ﴿كَلّا﴾ ومعناه الردع والتنبيه أي ارتدعوا عن هذا القول وتنبّهوا عن ضلالكم ﴿بل هو الله﴾ الّذي يستحقّ العبادة وحده لا شريك له ﴿العزيز﴾ يعني القادر الّذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله. وقيل: ﴿العزيز﴾ في انتقامه ممّن كفر به ﴿الحكيم﴾ في تدبيره لخلقه، فكيف يكون له شريك في ملكه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿وما أرسلناك﴾ يامحمّد بالرسالة الّتي حمّلناكها ﴿إلّا كافّةً﴾ ومعناه أرسلناك إلى الخلق كافّة بأجمعهم. وقيل: معناه إلّا مانعاً لهم وكافّاً لهم من الشرك، ودخلت الهاء للمبالغة. ﴿للناس بشيراً﴾ لهم بالجنّة أي مبشّراً بها. ﴿ونذيراً﴾ أي مخوّفاً بالنار ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ صدق قولك وإنّا أرسلناك إليهم لتفريطهم في النظر في معجزك.

ثمّ حكى عن الكفّار أنّهم يستبطئون العذاب الّذي يخوّفهم به النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنون، فإنّهم كانوا يحذّرونهم نزول العذاب عليهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد﴾ الّذي تعدونا به ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ما تقولونه معاشر المؤمنين. ثمّ أمره أن يقول لهم في الجواب عن ذلك: ﴿قل لكم ميعاد يوم﴾ ينزل عليكم ما وعدتم به من الثواب والعقاب ﴿لا تستأخرون عنه ساعةً﴾ أي لاتؤخّرون منذلكاليوم لحظة ﴿ولاتستقدمون﴾ عليه، وهو يومالقيامة.

قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم يقولون لن نصدّق بهذا القرآن الّذي أُنزل عليك وتدّعيه أنّه من عند الله ولا بالّذي بين يدي القرآن من أمر الآخرة والنشأة الثانية، فجحدوا أن يكون القرآن من الله أو أن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقةً. وقيل: معناه الكتب الّتي قبله من التوراة والإنجيل وغيرهما.

ثمّ قال: ﴿ولوترى﴾ يا محمّد ﴿إذ﴾ أي حين ﴿الظالمون موقوفون عند ربّهم يرجع بعضهم إلى بعض القول﴾ أي يردّ بعضهم على بعض ﴿يقول الّذين استضعفوا للّذين استكبروا﴾ قيل: كانوا رؤساء الضلالة يأمرون الأتباع بعبادة الأوثان لضعفهم عن استخراج صواب الرأي عند أنفسهم. فالاستضعاف طلب الضعف فكلّ من عار[1] غيره بما يقتضي ضعفه يقال: قد استضعفه. و«الاستكبار» طلب الكبر بغير حقّ، وكانوا يتعظّمون هؤلاء الكفّار بالجهل الّذي صمموا عليه وصاروا رؤساء فيه ليحقّقهم به.

﴿لولا أنتم لكنّا مؤمنين﴾ لكن بسببكم نمنع، فهؤلاء إذا أخبروا عن ظنّهم فقد صدقوا، كأنّهم قالوا في ما نظنّ، لأنّه هكذا يقتضي ظاهر خبرهم، كما إذا أخبروا عمّا يفعلونه في المستقبل، فهو إخبار عن عزمهم، ولو كان كذباً لأنكر الله ذلك وأتبعه بما يدلّ على إنكاره، كما قال: ﴿انظر كيف كذبوا على أنفسهم﴾[2] ثمّ حكى ما أجابهم به المستكبرون فإنّهم يقولون في جوابهم: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾؟! منكرين عليهم قولهم إنّهم منعوهم من الإيمان بعد تبيّن الحقّ فيه، وليس الأمر على ما تقولونه ﴿بل كُنتم﴾ أنتم ﴿مجرمين﴾ ثمّ حكى تعالى ما يقول الّذين استضعفوا فإنّهم يقولون: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ معناه مكركم في الليل والنهار، في قول الحسن، كما قال الشاعر:

لقد لُمتِنا يا أُمَّ غَيلانَ في السُرى ... وَنمتِ ومَا لَيلُ المطيّ بنائمِ[3]

أي بنائم فيه. وقيل: كأنّ الليل والنهار يمكران بطول السلامة فيهما.

---

(١) كذا في الخطّيّة، وفي الحجريّة: «تجاهر» بدل «عار».

(٢) الأنعام: ٢٤.

(٣) لجرير انظر شرح ديوان جرير: ٤١٩.

و«المترف» المنعم البطر بالنعمة ﴿إذ تأمروننا﴾ أي: حين تأمروننا ﴿أن نكفر بالله﴾ أي أن نجحد بالله ﴿ونجعل له أنداداً﴾ أي أمثالاً في العبادة ﴿وأسرّوا الندامة﴾ أي أخفوا الندامة بينهم ﴿لمّا رأوا العذاب﴾ نزل بهم، ولام بعضهم بعضاً.

وقال الجبّائي: معناه أظهروا الندامة، قال: وهذا مشترك. وهذا غلط، لأنّ لفظة الإخفاء هي المشتركة دون لفظ الإسرار، فحمل أحدهما على الآخر قياس في اللغة ﴿وجعلنا الاغلال في أعناق الّذين كفروا﴾ الأغلال جمع غلّ، والله تعالى يجعل الغلّ في رقاب الكفّار عقوبة لهم.

ثمّ قال موبّخاً لهم: ﴿هل يجزون إلّا ما كانوا يعملون﴾ أي: يجزون على قدر استحقاقهم لا يجازفون، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به النفي، فكأنّه قال: لا يجزون إلّا على قدر أعمالهم الّتي عملوها.

ثمّ أخبر تعالى أنّه لم يرسل في قرية نذيراً أي مخوّفاً بالله في ما مضى إلّا إذا سمع أهلها المترَفون منهم المنعَمُون ﴿قالوا إنّا بما أُرسلتُم به كافرون﴾ أي جاحدون.

ثمّ حكى بأنّهم ﴿قالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ منكم ﴿وما نحن بمعذّبين﴾ على ما تقولونه، لأنّه لو أراد عقابنا لما أنعم علينا في الدنيا وجعلنا أغنياء وجعلكم فقراء. فقال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿قُل إنَّ ربّي يبسط الرزق لمن يشآءُ ويقدر﴾.

قوله تعالى:

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا

فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة وحده ﴿وهم في الغرفة آمنون﴾ لقوله تعالى: ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا﴾[(١)] وفي الجنّة غرفات وغرف، غير أنّ العرب تجتزئ بالواحد عن الجماعة إذا كان اسم جنس، كما قالوا: أهلك الناس الدينار والدرهم. الباقون على الجمع ﴿غرفات﴾ على وزن «ظلمة وظلمات» وحجّتهم ﴿لكن الّذين اتّقوا ربّهم لهم غرف من فوقها غرف﴾[(٢)].

لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم قالوا: إنّ الله لا يعذّبنا على ما تقولونه لأنّه أغنانا في دار الدنيا ولم يجعلنا فقراء فكذلك لا يعذّبنا في الآخرة، قال الله ردّاً عليهم: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿إنّ ربّي﴾ الّذي خلقني ﴿يبسط الرزق﴾ أي يوسّع الرزق لمن يشاء على حسب ما يعلم من مصلحته ومصلحة غيره ﴿ويقدر﴾ أي يضيّق، وهو مثل قوله: ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾[(٣)] أي يوسّع ويضيّق، ومنه قوله: ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾[(٤)] أي ضيق. وعلى هذا يحتمل قوله: ﴿فظنّ أن لن نقدر عليه﴾[(٥)] أي لن نضيّق عليه، فبسط الرزق هو الزيادة فيه على قدر الكفاية، والقدر تضييقه على قدر الكفاية.

ثمّ قال: ﴿ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ما قلناه لجهلهم بالله وبحكمته.

---

(١) الفرقان: ٧٥. (٢) الزمر: ٢٠. (٣) العنكبوت: ٦٢. (٤) الطلاق: ٧. (٥) الأنبياء: ٨٧.

ثمّ قال تعالى: ﴿وما أموالكم﴾ أي ليس أموالكم الّتي خوّلتموها ﴿وأولادكم﴾ الّتي رزقتموها ﴿بالّتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾ قال الفرّاء: «الّتي» يجوز أن يقع على الأموال والأولاد؛ لأنّ الأولاد يعبّر عنها بـ«الّتي» وقال غيره: جاء الخبر بلفظ أحدهما وإن دخل فيه الآخر، ولو قال بالّذي يقرّبكم لكان جائزاً. و﴿زلفى﴾ قربى، وإنّما يقرّبكم إليه تعالى أفعالكم الجميلة وطاعاته الحسنة.

ثمّ قال: ﴿إلّا من آمن وعمل صالحاً﴾ معناه، لكن من آمن بالله وعرفه وصدّق نبيّه وعمل الصالحات الّتي أمره بها، وانتهى عن القبائح الّتي نهاه عنها فإنّ لهؤلاء ﴿جزاء الضعف بما عملوا﴾ ومعناه أنّه تعالى يجازيهم أضعاف ما عملوا، فإنّه يعطي بالواحد عشرة، والضعف من الإضعاف، لأنّه اسم جنس يدلّ على القليل والكثير.

ويجوز في إعراب «جزاء» أربعة أوجه: الرفع والنصب بالتنوين وتركه، وفي «الضعف» ثلاثة أوجه: الجرّ والنصب والرفع. إلّا أنّ القراءة بوجه واحد وهو رفع ﴿جزاء﴾ على الإضافة بلا تنوين، وجرّ ﴿الضعف﴾ بالإضافة إليه. ثمّ قال: إنّ هؤلاء مع أنّ لهم جزاء الضعف على ما عملوه ﴿هم في الغرفات﴾ جمع غرفة وهي العلية ﴿آمنون﴾ فيها لا يخافون شيئاً ممّا يخاف مثله في دار الدنيا.

ثمّ قال: ﴿والّذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي مسابقين، في من قرأه بألف، ومثبّطين غيرهم عن أفعال الخير عند من قرأه بغير ألف ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي يحصلون في عذاب النار.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ يا محمّد: ﴿إنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي يوسّعه

﴿ويقدر﴾ أي يضيّقه لمن يشاء.

وإنّما كرّر قوله: ﴿قل إنّ ربّي يبسط الرزق﴾ لاختلاف الفائدة، لأنّ الأوّل على معنى إنّ ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر من غير أن يعلم أكثر الناس لِمَ فعل ذلك، والثاني بمعنى أنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له على أنّ ما أنفقه في أبواب البرّ فالله يخلفه عليه وهو قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أي يعطيكم عوضه، وليس المراد أن يخلف في دار الدنيا على كلّ حال، لأنّ الله يفعل ذلك بحسب المصلحة، وإنّما أراد أنّه يعوّض عليه إمّا في الدنيا بأن يخلف بدله أو يثيب عليه. ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي الله تعالى خير من يرزق غيره، لأنّه يقال: رزق السلطان الجند.

ثمّ قال: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ يعني يوم القيامة الّذي يبعث الله فيه الخلائق ﴿ثمّ يقول للملائكة﴾ الّذين عبدهم جماعة من الكفار ﴿أهؤلاء﴾ يعني الكفّار الّذين عبدوهم ﴿إيّاكم كانوا يعبدون﴾ على وجه التقرير لهم وإن كان بلفظ الاستفهام، كما قال لعيسى: ﴿أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله﴾[1].

وقرأ حفص ﴿ويوم يحشرهم ثمّ يقول﴾ بالياء ردّاً على قوله: ﴿قل إنّ ربّي﴾ الباقون بالنون على الجمع.

قوله تعالى:

قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ

---

(١) المائدة: ١١٦.

إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

لمّا حكى الله تعالى أنّه يقول للملائكة: إنّ هؤلاء الكفّار إيّاكم كانوا يوجّهون عبادتهم حكى ما يجيب به الملائكة، فإنّهم يقولون: ﴿سبحانك أنت وليّنا﴾ تنزيهاً لك أن نعبد سواك، ونتّخذ معك معبوداً غيرك، ويقولون: أنت يا ربّنا وليّنا، أي ناصرنا وأولى بنا. ﴿من دونهم﴾ يعني دون هؤلاء الكفّار ودون كلّ أحد وأنت الّذي تقدر على ذلك من دونهم، فما كنّا نرضى بعبادتهم مع علمنا بأنّك ربّنا وربّهم، ما أمرناهم بهذا ولا رضينا به لهم ﴿بل كانوا يعبدون الجنّ﴾ بطاعتهم إيّاهم في ما يدعونهم إليه من عبادة الملائكة.

وقيل: إنّهم صوّروا لهم صورة قوم من الجنّ، وقالوا: هذه صورة الملائكة فاعبدوها، وهم وإن عبدوا الملائكة فإنّ الملائكة لم يرضوا بعبادتهم إيّاهم ولا دعوهم إليها، والجنّ دعوهم إلى عبادتهم ورضوا به منهم، فتوجّه الذمّ إلى العابد والمعبود، وفي الملائكة لا يستحقّ الذمّ غير العابد، فلذلك أضرب عن ذكر الملائكة.

ثمّ حكى تعالى ما يقول للكفّار يوم القيامة، فإنّه يقول لهم: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضرّاً﴾ ولا يقدر على ذلك ﴿ونقول للّذين ظلموا﴾ نفوسهم بارتكاب المعاصي: ﴿ذوقوا عذاب النار الّتي كنتم بها تكذّبون﴾ أي تجحدونه ولا تعترفون به.

ثمّ عاد تعالى إلى الحكاية عن حال الكفّار في الدنيا فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات﴾ أي تقرأ عليهم حججنا واضحات من القرآن الّذي أنزله على نبيّه ﴿قالوا﴾ عند ذلك: ﴿ما هذا إلّا رجل يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم﴾ أي يمنعكم عن عبادة ما كان يعبده آباؤكم ﴿وقالوا﴾ أيضاً: ﴿ما هذا﴾ القرآن ﴿إلّا إفك مفترى﴾ يعني كذب يخرصه وافتراه ﴿وقال الّذين كفروا للحقّ﴾ يعني القرآن ﴿لمّا جاءهم إن هذا﴾ أي: ليس هذا ﴿إلّا سحر مبين﴾ أي ظاهر، و«السحر» حيلة خفية توهم المعجزة.

ثمّ قال تعالى: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾ قال الحسن: معناه ما آتيناهم من كتب قبل هذا الكتاب فصدّقوا به وبما فيه، إن هذا كما زعموا. ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾ ويجوز أنيكون المراد وماأرسلنا إليهم قبلك يا محمّد من نذير إلّا وفعلوا به وقالوا له مثل ما قالوا لك، وحذف لدلالة الكلام عليه، ودلّك عليه بقوله: ﴿وكذّب الّذين من قبلهم﴾ بما أتاهم الله من الكتب وبما بعث إليهم من الرسل.

﴿وما بلغوا﴾ أي وما بلغ هؤلاء ﴿معشار ما آتيناهم﴾ أُولئك الكفّار، قال الحسن: معنى معشار أي عُشر. والمعنى ما بلغ الّذين أُرسل إليهم محمّد صلى الله عليه وآله من أهل مكّة عشر ما أُوتي الأُمم قبلهم من القوّة والعدّة، في قول ابن عبّاس وقَتادة. ﴿فكذّبوا رسلي﴾ أي كذّبوا بآيات الله وجحدوا رسله ﴿فكيف كان نكير﴾ أي عقوبتي وتغييري لأنّ الله أهلكهم واستأصلهم، وهو نكير الله تعالى في الدنيا.

قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم

مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَـٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

هذا أمر من الله تعالى لنبيّه ﷺ أن يقول للكفّار: ﴿إنّما أعظكم بواحدة...﴾ والمعنى يكفيني منكم أن يقوم الرجل وحده أو هو وغيره ثمّ تتساءلون هل جرّبنا على محمد كذباً أو هل رأينا به جنّة؟! ففي ذلك دلالة على بطلان ما أنتم عليه وما ذكرتم فيه، فالوعظ الدعاء إلى ما ينبغي أن يرغب فيما ينبغي أن يجوز منه ممّا يليّن القلب للاستجابة إلى الحقّ بالنبيّ ﷺ والنبيّ أجلّ وأعظم وأكبر داعٍ بما أعطاه الله من الحكمة.

وقوله: ﴿مثنى وفرادى﴾ معناه أن تقوموا اثنين اثنين، وواحداً واحداً ليذاكر أحدهما صاحبه، فيستعين برأيه على هذا الأمر، ثمّ يجول بفكرته حتّى يكرّره حتّى يتبيّن له الحقّ من الباطل.

وبني ﴿مثنى﴾ وإن لم يكن صفة لأنّه ممّا يصلح أن يُوحده، كما قال تعالى: ﴿أُولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع﴾[1] وهو هاهنا في موضع حال. وقال مجاهد في قوله: ﴿أعظكم بواحدة﴾ أي بطاعة الله تعالى. وقال غيره: ﴿بواحدة﴾ بتوحيد الله خصلة واحدة، فقولوا: لا إله إلّا الله.

وقوله: ﴿ثمّ تتفكّروا ما بصاحبكم﴾ في موضع نصب عطفاً على ﴿أن تقوموا لله﴾ وتتفكّروا أي وتنظروا وتعتبروا، ليس بصاحبكم يعني محمّداً ﷺ

---

(١) فاطر: ١.

﴿من جنّة﴾ أي جنون، لأنّهم كانوا ينسبونه إلى الجنون وحاشاه من ذلك.

ثمّ بيّن أنّه ليس ﴿إلّا نذيرٌ﴾ أي مخوّف من معاصي الله وترك طاعاته ﴿بين يدي عذاب شديد﴾ يعني عذاب القيامة.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: يا محمّد ﴿قل﴾ لهم: ﴿ما سألتكم من أجر فهو لكم﴾ وليس ﴿أجري إلّا على الله﴾ والمعنى أنّي أبلّغكم الرسالة ولا أجرّ إلى نفسي عرضاً من أعراض الدنيا، بل ثمرة ذلك لكم، وليس أجري إلّا على الله.

وقال ابن عبّاس: ﴿من أجر﴾ أي من مودّة، لأنّ النبيّ ﷺ سأل قريشاً أن يكفّوا عن أذاه حتى يبلّغ رسالات ربّه ﴿وهو على كلّ شيء شهيد﴾ أي عالم به.

ثمّ قال أيضاً: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿إنّ ربّي يقذف بالحقّ﴾ أي يلقيه على الباطل، كما قال تعالى: ﴿بل نقذف بالحقّ على الباطل فيدمغه﴾(١) ﴿علّام الغيوب﴾ إنّما رفع بتقدير هو علّام الغيوب. ولو نصب على أنّه نعت لـ«ربّي» لكان جائزاً، لكنّ هذا أجود، لأنّه جاء بعد تمام الكلام كقوله: ﴿إنّ ذلك لحقّ تخاصم أهل النار﴾(٢) والمعنى أنّه عالم بجميع ما غاب عن جميع الخلائق علمه.

ثمّ أمره ﷺ أن يقول لهم: قد ﴿جاء الحقّ﴾ يعني أمر الله بالإسلام والتوحيد ﴿وما يُبدىءُ الباطل وما يعيد﴾ لأنّ الحقّ إذا جاء أذهب الباطل فلم يبقَ له بقيّة يبدئ بها ولا يعيد. وقال قَتادة: الباطل إبليس لا يبدئ الخلق ولا يعيدهم. وقيل: إنّ المراد به كلّ معبود من دون الله بهذه الصفة. وقال الحسن: وما يبدئ الباطل لأهله خيراً ولا يعيد بخير في الآخرة.

---

(١) الأنبياء: ١٨. (٢) ص: ٦٤.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم: ﴿إن ضللت﴾ أي: إن عدلت عن الحقّ ﴿فإنّما أضلُّ على نفسي﴾ لأنّ ضرره يعود عليّ، لأنّي اُوآخذ به دون غيري ﴿وإن اهتديت﴾ إلى الحقّ ﴿فبما يوحي إليّ ربّي إنّه سميع قريب﴾ أي يسمع دعاء من يدعوه قريب إلى إجابته.

وفي الآية دلالة على فساد قول المجبّرة، لأنّه قال: ﴿إن ضللت﴾ فأضاف الضلال إلى نفسه، ولم يقل فبقضاء ربّي وإرادته.

قال الزجّاج: وما يبدئ الباطل أي أيّ شيء يبدئ الباطل؟ وأيّ شيء يعيد؟ ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ نافية، والمعنى وليس يبدئ إبليس شيئاً ولا يعيده[١].

قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ أربع آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو ﴿التناؤش﴾ بالهمز، الباقون بغير همز.

يقول الله تعالى لنبيّهﷺ: ﴿ولوترى) يا محمّد ﴿إذ فزعوا﴾ من العذاب يوم القيامة ﴿فلا فوت﴾ أي لا مهرب ولا يفوتونه. فالفوت خروج وقت الشيء كفوت الصلاة، وفوت وقت التوبة وفوت عمل اليوم بانقضائه. و«الفزع» و«الجزع» و«الخوف» و«الرعب» واحد. والفزع يتعاظم في الشدّة بحسب أسبابه.

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٥٨.

وقوله: ﴿وأُخذوا من مكان قريب﴾ قال ابن عبّاس والضحّاك: أُخذوا من عذاب الدنيا. وقال الحسن: حين يخرجون من قبورهم. وقيل: من بطن الأرض إلى ظهرها. والمعنى أنّهم إذا بعثوا من قبورهم، ولو ترى فزعهم يا محمّد حين لا فوت ولا ملجأ.

وجواب «لو» محذوف، والتقدير: لرأيت ما تعتبر به عبرة عظيمة.

وقوله: ﴿وقالوا آمنّا به﴾ أي يقولون ذلك الوقت آمنّا به وصدّقنا به، فقال تعالى: ﴿وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ قيل: معناه بفوتهم تناول التوبة في الآخرة إلى الدنيا، والتناوش التناول من قولهم: نشته أنوشه: إذا تناولته من قريب قال الشاعر:

فهي تنوش الحوض نوشاً من عَلاَ نوشاً به تقطع اجواز الفَلاَ[1]

وتناوش القوم: إذا دنا بعضهم إلى بعض ولم يلتحم بينهم قَتال، وقد همّز بعضهم، فيجوز أن يكون من هذا، لأنّ الواو إذا انضمّت همّزت كقوله: ﴿أقّتت﴾[2] ويجوز أن يكون من النش وهو الإبطاء، وانتاشه أخذ به من مكان بعيد، ومثله نأشه، قال الشاعر:

تمنى نئيشاً أن يكون أطاعني وقد حَدَثْت بعد الأُمور أُمورُ[3]

وقال رؤبة:

اقحمني جار أبي الجاموش إليك نأش القدر المنؤش[4]

﴿وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ معناه كيف تقبل

---

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٦٥، ولم يعزه لأحد. (٢) المرسلات: ١١.
(٣) أنشده الجوهري في الصحاح ٣: ١٠٢٠، ولم ينسبه لأحد.
(٤) أنشده أبوعليّ الفارسي في الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٢٩٩، وفيه: «الخاموش» بدل «الجاموش» و«النؤوش» بدل «المنؤش».

توبتهم أو يردّون إلى الدنيا وقد كفروا بالله ورسله من قبل ذلك، وهو قوله: ﴿بالغيب من مكان بعيد﴾ يعني قولهم: هو ساحر وهو شاعر وهو مجنون. وقيل: هو قولهم: لا بعث ولا جنّة ولا نار، ذكره قَتادة. وقال البلخي: يجوز أن يكون أراد أنّهم يفعلون ذلك بحجّة داحضة وأمر بعيد. وقال قوم: يقذفون بالظنّ أنّ التوبة تنفعهم يوم القيامة عن مكان بعيد إلّا أنّ في العقل أنّها لا تقبل. ثمّ قال: ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ أي فرّق بينهم وبين شهواتهم من قبول توبتهم وإيصالهم إلى ثواب الجنّة أو ردّهم إلى دار الدنيا ﴿كما فعل﴾ مثل ذلك ﴿بأشياعهم من قبل﴾ وهو جمع الجمع تقول: شيعة وشيع وأشياع، ولأنّ أشياعهم تمنّوا أيضاً مثل ذلك فحيل بينهم وبين تمنّيهم. ثمّ أخبر ﴿إنّهم كانوا في شكّ﴾ من ذلك في الدنيا ﴿مريب﴾ و«الريب» أقبح الشكّ الّذي يرتاب به الناس.

وقال سعيد بن المسيّب وسعيد بن جبير: قوله: ﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت﴾ نزلت في الجيش الّذي يخسف بهم بالبيداء فيبقى رجل يخبر الناس بما رآه، ورواه حذيفة عن النبيّ ﷺ (١).

---

(١) تفسير الطبري ١٠: ٣٨٧.

## سورة فاطر (١)

مكّية في قول مجاهد وقَتادة، لا ناسخ فيها ولا منسوخ، وبه قال الحسن إلّا آيتين قوله: ﴿إنّ الّذين يتلون كتاب الله﴾ إلى قوله: ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهي خمسٌ وأربعون آيةً في الكوفي والبصري والمدني الأوّل، وفي الآخر ستّ وأربعون آية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى:

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ
مَّثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾
مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِن
بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ
غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن
يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ

---

(١) في الخطّية: «الملائكة» بدل «فاطر».

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴿٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ حمزة والكسائي ﴿هل من خالق غير الله﴾ جرّاً على أنّه صفة لـ«خالق» الباقون بالرفع على تقدير هل من خالق هو غير الله، ويجوز أن يكون التقدير: هل غير الله من خالق، ويجوز أن يكون رفعاً على موضع «من» وتقديره: هل خالق غير الله.

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ قل يا محمّد: ﴿الحمدلله﴾ أي الشكر له على جميع نعمه ﴿فاطر السماوات والأرض﴾ أي خالقهما ومخترعهما. و«الفطر» الشقّ عن الشيء بإظهاره للحسّ، ومعنى فطر السماوات والأرض أي خلقهما وأظهرهما للحسّ بعد أن لم تكونا ظاهرتين.

وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: ما كنت أدري ما معنى «فاطر السماوات» حتّى احتكم إليَّ أعرابيّان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها[١] أي اخترعتها وابتدأتها. ومن كان خالق السماوات والأرض لا يفعل إلّا ما يستحقّ به الشكر والحمد، لأنّه غنيّ حكيم، فلا يعدل عمّا يستحقّ به الحمد إلى ما لا يستحقّ به ذلك.

وقوله: ﴿جاعل الملائكة رسلاً﴾ أي جعل الملائكة رسلاً بعضهم إلى بعض وبعضهم إلى البشر. ثمّ ذكر أوصافهم وهو أنّهم ﴿أُولي أجنحة﴾ أي أصحاب أجنحة ﴿مثنى وثلاث ورباع...﴾ أي اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة، فهذه الألفاظ معدولة عن الاثنين والثلاث والأربع، مع أنّها صفات فلذلك ترك صرفها، قال الشاعر:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٢٦١.

ولكـــنّما أهــلي بــوادٍ أنــيسهُ ذئابٌ تَبغّي الناسَ مثنَى وَموْحَدُ[١]

وإنّما جعلهم أُولي أجنحة ليتمكّنوا بها من العروج إلى السماء ومن النزول إلى الأرض، قال قَتادة: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة. ثمّ قال: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ قيل: حسن الصوت، وقيل: من الأجنحة من حيث خلق للملائكة زيادة ممّا خلق لسائر الخلق من البشر والأُمم.

فإن قيل: الطائر لا يحتاج إلى أكثر من جناحين فما معنى خلق الملائكة أُولي ثلاث وأربع؟ قيل: يجوز أن يكون كلّ جناح يعلوه باثنين، ويجوز أن يكون الزائدة للزينة، وقد يكون للسمكة أجنحة في ظهرها. ثمّ بيّن ﴿إنّ الله على كُلّ شيءٍ قديرٌ﴾ أي لا شيء إلّا وهو تعالى قادر عليه بعينه أو قادر على مثله.

ثمّ قال تعالى: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة﴾ معنى «ما» الّذي وتقديره: الّذي يفتح الله للناس من نعمة ورحمة ﴿فلا ممسك لها وما يمسك﴾ من نعمة على خلقه ﴿فلا مرسل له من بعده﴾ أي من بعد الله ﴿وهو العزيز﴾ يعني القادر الّذي لا يقهر ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله، إن أنعم وإن أمسك، لأنّه عالم بمصالح خلقه لا يفعل إلّا ما لهم فيه مصلحة في دينهم أو دنياهم.

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بأن خلقكم وأوجدكم وأحياكم وأقدركم وشهاكم، وخلق لكم المنافع الّتي تنتفعون بها ﴿هل من خالق غير الله﴾ تقريراً لهم على أنّه لا خالق غير الله في السماوات والأرض ﴿يرزقكم من السماء﴾ بالمطر ومن ﴿الأرض﴾ بالنبات

---

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ٣: ٢٢٦، ونسبه إلى ساعدة بن جوّية.

﴿لا إله إلّا هو﴾ أي لا معبود يستحقّ العبادة سواه تعالى ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي كيف تقلبون عن طريق الحقّ إلى الضلال.

وإنّما قال: ﴿هل من خالق غير الله﴾ وإن كان أحدنا يخلق الشيء لأنّ هذه الصفة لا تطلق إلّا عليه تعالى، فأمّا غيره فإنّها تقيّد له. وأيضاً فقد فسّر ما أراد وهو أنّه هل من خالق رازق للخلق من السماوات والأرض غير الله أي لا خالق على هذه الصفة إلّا هو. وهذا صحيح، لأنّه لا أحد يقدر على أن يرزق غيره من السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات وأنواع الثمار غير الله تعالى.

ثمّ قال تعالى تعزية للنبيّ ﷺ وتسلية له عن تكذيب قومه إيّاه: ﴿وإن يكذّبوك﴾ يا محمّد هؤلاء الكفّار ﴿فقد كذّبت رسل من قبلك﴾ أرسلهم الله فكذّبوهم ولم يقبلوا منهم فلك أُسوة بمن كان قبلك ﴿وإلى الله ترجع الأُمور﴾ يعني تردّ الأمور إلى حيث لا يملك التصرّف فيها مطلقاً غير الله يوم القيامة.

ثمّ خاطب الخلق فقال: ﴿يا أيّها الناس إن وعد الله حقّ﴾ يعني ما وعدهم به من البعث والنشور والجنّة والنار صحيح كائن لا محالة ﴿فلا تغرّنكم الحياة الدنيا﴾ فتغترّون بملاذّها وزينتها وتتركون ما أمركم الله به وترتكبون ما نهاكم عنه ﴿ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾ فالغرور هو الّذي عادته أن يغرّ غيره، والدنيا وزينتها بهذه الصفة، لأنّ الخلق يغترّون بها. وقال الحسن: الغرور الشيطان الّذي هو إبليس، وهو قول مجاهد.

والرزق يطلق على وجهين:

أحدهما: أنّ الله جعله يصلح للغذاء يتغذّى به الحيوان وللملبس

يلبسونه، فالعباد من هذا الوجه لا يأكلون ولا ينتفعون إلّا بما جعله الله رزقاً لهم.

والثاني: أنّه ملكه الله وحكم أنّه له فهم يتظالمون من هذا الوجه.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾.

خمس آياتٍ حجازي وكوفي، وستّ بصري وشامي، عدّ البصريّون والشاميّون ﴿شديد﴾ ولم يعدّه الباقون.

قرأ أبو جعفر ﴿فلا تذهب﴾ بضمّ التاء وكسر الهاء ﴿نفسك﴾ بنصب السين، الباقون بفتح التاء والهاء ورفع السين.

يقول الله تعالى مخبراً لخلقه من البشر: ﴿إنّ الشيطان لكم عدوٌّ﴾ فيعدل بكم عن أفعال الخير ويدعوكم إلى ما فيه الهلكة، فالعداوة ضدّ الولاية. ولا يجوز أن يكون أحد عدوّاً من وجه وليّاً من وجه، كما لا يجوز أن يكون موجوداً من وجه معدوماً من وجه، لأنّ الصفتين متنافيتان.

ثمّ أمرهم بأن يتّخذوا الشيطان عدوّاً كما هو عدوّ لهم. وبيّن تعالى أنّ

الشيطان ليس يدعو إلّا حزبه أي أصحابه وجنده، وهم الّذين يقبلون منه ويتّبعونه، وبيّن أنّه إنّما يدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير بارتكاب المعاصي والكفر بالله تعالى و«السعير» النار المستعرة.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿الّذين كفروا﴾ بآيات الله ويكذّبون رسله ﴿لهم عذابٌ شديد﴾ جزاءً على كفرهم وتكذيبهم، ﴿أنّ الّذين آمنوا وعملوا﴾ الأفعال ﴿الصالحات لهم مغفرةٌ﴾ من الله لذنوبهم ولهم ﴿أجرٌ﴾ أي ثواب ﴿كبير﴾ ثمّ قال مقرّراً لهم: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً﴾ يعني الكفّار زيّنت نفوسهم لهم أعمالهم السيّئة فتصوّروها حسنة أو الشيطان يزيّنها لهم فيميلهم إلى الشبهة وترك النظر في الأدلّة الدالّة على الحقّ وأمّا الشيطان بإغوائه حتّى يتشاغلوا بما فيه اللذّة وطرح الكلفة.

وخبر «من» في قوله: ﴿أفمن زيّن له سوء عمله﴾ محذوف وتقديره: يتحسّر عليه، وقيل: إنّ الخبر قوله: ﴿فإنّ الله يضلّ من يشاء﴾ إلّا أنّه وقع ﴿من يشاء﴾ موقعه. وقيل: جواب ﴿أفمن زيّن﴾ محذوف بتقدير: كمن علم الحسن من القبيح وعمل بما علم. وقيل: كمن هداه الله.

وفي ذلك دلالة على بطلان قول من يقول: إنّ المعارف ضرورة، لأنّه دلّ على أنّهم رأوا أعمالهم السيّئة حسنة. وهذا رأي فاسد.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله ناهياً له: ﴿فلا تذهب نفسك عليهم﴾ يا محمّد ﴿حسرات﴾. ومن فتح التاء جعل الفعل للنفس. و«الحسرة» شدّة الحزن على ما فات من الأمر ﴿إنّ الله عليم بما يصنعون﴾ من المعاصي والطاعات فيجازيهم بحسبها.

ثمّ قال: ﴿والله الّذي أرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ أي تنشئه وتجمعه

وتجيء به وتحرّكه ﴿فسقناه﴾ أي فساقه الله ﴿إلى بلد ميّت﴾ لم يمطر أي قحط وجدب فيمطر على تلك الأرض فيحيي ـ بذلك الماء والمطر ـ الأرض بعد موتها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع.

ثمّ قال: كما فعل هذا بهذه الأرض الجدبة القحطة من إحيائها بالزرع بعد أن لم يكن فيها زرع مثل ذلك ينشر الخلائق بعد موتهم ويحشرهم إلى الموقف للجزاء من ثواب وعقاب. وقيل: إنّ الله تعالى إذا أراد إحياء الخلق أمطر السماء أربعين يوماً، فينبت بذلك الخلق نباتاً.

ثمّ قال تعالى: ﴿من كان يريد العزّة﴾ يعني القدرة على القهر والغلبة ﴿فللّه العزّة جميعاً﴾ أي له القهر على جميع الأشياء لا يقدر أحد أن يمنعه ممّا يريد فعله به. وقيل: معناه من كان يريد علم العزّة لمن هي، فهي لله. وقيل: معناه من أراد العزّة فليطع الله حتّى يعزّه.

وقوله: ﴿إليه يصعد الكلم الطيّب﴾ قيل: معناه أنّه تعالى يقبله ويثيب عليه. وقيل: إليه يصعد اي إلى حيث لا يملك الحكم فيه إلّا الله، كما يقال: ارتفع أمرهم إلى القاضي.

وقوله: ﴿والعمل الصالح يرفعه﴾ أي يقبله. وقيل: في الضمير الّذي في «يرفعه» ثلاثة أوجه: أحدها: يرفع الكلم الطيّب من الفعل. الثاني: يرفعه الكلم الطيّب. الثالث: يرفعه الله.

ثمّ قال: ﴿والّذين يمكرون السيّئات﴾ أي يحتالون لفعل السيّئات من الشرك والكبائر. وقيل: هم أصحاب الرياء ﴿لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور﴾ قال قَتادة: معناه مكرهم يفسد. وقيل: معنى يبور يكسد، فلا ينفذ في ما يريدون. وقال مجاهد: هو ما عمل للرياء فإنّه يفسد، قال ابن الزبعري:

يا رَسولَ المليكِ إنَّ لِسـاني راتِقٌ ما فتقتُ إذ أنَا بُورُ[١]

قوله تعالى:

وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ سبع آيات في الكوفي والمدنيّين وخمس في البصري[٢].

قرأ يعقوب ﴿ولا ينقص من عمره﴾ بفتح الياء وضمّ القاف، الباقون على ما لم يسمّ فاعله. وقرأ قتيبة ﴿والّذين تدعون﴾ بالتاء على الخطاب، الباقون بالياء على الخبر الأوّل وعلى الخطاب الثاني.

هذا خطاب من الله سبحانه لجميع خلقه من البشر أنّـه خـلقهم مـن تراب، ويريد أنّ آدم الّذي هو أبوهم ومنه انتسلوا خلقه من تراب ومـنه

(١) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ١: ٢٧٧.

(٢) كذا في الخطّية، وفي الحجريّة: ستّ آيات بصري وسبع فيما عداه عدّوا ﴿بخلق جديد﴾ ولم يعدّه البصريّون.

توالدوا. وقيل: إنّ المراد به جميع الخلق، لأنّهم إذا خلقهم من نطفة والنطفة تستحيل من الغذاء، والغذاء يستحيل من التراب، فكأنّه خلقهم من تراب، ثمّ جعل التراب نطفة بتدريج.

وعلى الأوّل يكون قوله: ﴿ثمّ من نطفة﴾ معناه ثمّ خلق أولاد آدم من نطفة إلّا من استثناه من عيسى في قوله: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾[1] فقوله: ﴿ثمّ جعلكم أزواجاً﴾ أي أشكالاً لأنّ الزوج هو الّذي معه آخر من شكله، والإثنان زوجان.

﴿وما تحمل من أُنثى ولا تضع إلّا بعلمه﴾ معناه ليس تحمل الأُنثى من حمل يولد ولا تضعه لتمام ولغير تمام إلّا والله تعالى عالم به، لا أنّ علمه آلة في ذلك، ولا يدلّ ذلك على أنّ له علماً يعلم به، لأنّ المراد ما ذكرناه من أنّه لا يحصل شيء من ذلك إلّا وهو عالم به.

وقوله: ﴿وما يعمّر من معمّر﴾ والعمر مدّة الأجل للحياة وهو تفضّل من الله سبحانه وتعالى يختلف مقداره بحسب ما يعلم من مصالح خلقه، كما يختلف الغنى والفقر والقوّة والضعف، والمعنى: وليس يطول عمر أحد ﴿ولا ينقص من عمره﴾ بأن يذهب بعضه بمضيّ الليل والنهار إلّا وذلك في الكتاب المحفوظ أثبته الله تعالى قبل كونه.

وقال الحسن والضحّاك وابن زيد: معنى ﴿ولا ينقص من عمره﴾ أي من عمر معمّر آخر، وقال أبو مالك: معناه ولا ينقص من عمره ينقضي ما ينقضي منه. وقال الفرّاء: هو كقولك: عندي درهم ونصفه، أي ومثل نصف الدرهم من غيره[2].

---

(١) آل عمران: ٥٩.

(٢) معاني القرآن ٢: ٣٦٨.

ثمّ قال: ﴿إنّ ذلك على الله يسيرٌ﴾ يعني تعمير من يعمّره ونقصان من ينقصه، وإثبات ذلك في الكتاب سهل على الله غير متعذّر.

ثمّ قال تعالى: ﴿وما يستوي البحران﴾ أي لا يستويان لأنّ ﴿هذا عذبٌ فرات سائغ شرابه﴾ أي مريء شهيّ ﴿وهذا﴾ الآخر ﴿ملح أجاجٌ﴾ فالفرات أعذب العذب، والأجاج أشدّ المرّ. و«الأُجاج» مشتقّ من أجّة النار كأنّه يحرق من مرارته. واللؤلؤ والمرجان يخرج من الملح دون العذب. وقيل: في الملح عيون عذبة، وفي ما بينهما يخرج اللؤلؤ.

ثمّ قال: ﴿ومن كلّ﴾ يعني من البحرين العذب والأُجاج ﴿تأكلون لحماً طريّاً﴾ يعني سمكاً ﴿وتستخرجون حليةً تلبسونها﴾ من اللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفلك﴾ يعني السفن ﴿فيه مواخر﴾ أي تشقّ الماء في جريانها شقّاً. وقيل: معناه أنّها تذهب وتجئ، بلغة قريش وهذيل. وقال الحسن: يعني مواقير كقوله: ﴿الفلك المشحون﴾[1].

﴿لتبتغوا من فضله﴾ معناه أنّه تعالى خلق ذلك لخلقه ليلتمسوا من فضل الله بركوب البحر للتجارة والمسير فيها طلباً للمنافع وما يخرجون منها من أنواع الأشياء لكي يشكروا الله على نعمه ويحمدوه على فضله.

ثمّ قال: ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ معناه أنّه ينقص من الليل في النهار عند منقلب الصيف، ومن النهار في الليل عند منقلب الشتاء. وقيل: معناه أنّه يدخل كلّ واحد منهما على صاحبه ويتعقّبه.

﴿وسخّر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمّى﴾ قدّره الله لهما بحسب ما علم من مصالح خلقه إلى الوقت الّذي يفنيهما الله فيه. فتسخير الشمس

---

(١) الشعراء: ١١٩، يس: ٤١، الصافّات: ١٤٠.

نزولها في بروج مخصوصة في أوقات مخصوصة كلّ فصل منها لنوع آخر من المنافع لا يختلف الحال فيه، وتسخير القمر جريانه على وتيرة واحدة، فيستدلّ به على السنين والشهور. وذلك يدلّ على أنّ مدبّره عالم حكيم.

ثمّ قال: ﴿ذلكم الله ربّكم﴾ الّذي يقدر على تسخير الشمس والقمر، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وخلق البحرين العذب والمالح، ومنع أحدهما أن يختلط بالآخر لا يقدر عليه غيره ﴿والّذين تدعون من دونه﴾ وتوجّهون عبادتكم إليهم من الأصنام والأوثان ﴿ما يملكون من قطمير﴾ وهو قشر النواة، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة وعطيّة. فدلّ على أنّ من لا يملك هذا القدر لا يستحقّ العبادة ولا يكون إلهاً.

ثمّ قال: ﴿إن تدعوهم﴾ يعني الأصنام ﴿لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ لأنّها جمادات يستحيل ذلك عليها، ولا يقدرون على ضرر ولا نفع ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ قيل: إنّ الله تعالى يحيي الأصنام يوم القيامة لينكروا على المشركين، ويوبّخوهم على عبادتهم إيّاهم. وقال البلخي: يَجوز أن يكون المراد به الملائكة وعيسى.

وقوله: ﴿لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي هم بحيث لا يسمعونه أوهم مشتغلون عنهم لا يلتفتون إليهم ولا يصغون. ويجوز أن يكون المراد بها الأصنام ويكون ما يظهرونه من بطلان ما ظنّوه كفراً بشركهم وجحداً له كما حصل ما في الجماد من الدلالة على الله تسبيحاً له[1] وهو كقولهم: سل الأرض من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً. ﴿ولا ينبّئك﴾ يا محمّد بالشيء على حقيقته ﴿مثل خبير﴾ عالم بما أخبر، والله تعالى هو العالم بالأشياء على حقائقها.

(١) كذا في الخطّيّة، وفي الحجريّة «مسبّحاً له».

ثمّ قال تعالى: ﴿يا أيّها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ أي محتاجون إليه ﴿والله هو الغنيّ﴾ عن جميع المخلوقات لا تجوز عليه الحاجة، لأنّه ليس بجسم فالحاجة من صفة الأجسام ﴿الحميد﴾ يعني المحمود المستحقّ للحمد على جميع أفعاله، والله تعالى لا يفعل إلّا ما يستحقّ به حمداً.

ثمّ أخبر تعالى عن قدرته فقال: ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ معاشر الخلق ويفنيكم ﴿ويأت بخلق﴾ آخر ﴿جديد﴾ وهو ما كان قريب عهد بانقطاع العمل عنه، وأصله القطع من جدّه يجدّه جدّاً: إذا قطعه. و«الجدّ» أبو الأب لانقطاعه عن الولادة بالأب و«الجدّ» المضيّ فيه بقطعه أوّلاً أوّلاً من غير تفتير ﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي بممتنع فالعزيز الممتنع بوجه من الوجوه الّذي يتعذّر معها الفعل.

قوله تعالى:

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴿٢٣﴾.

خمس آيات في الكوفي والمدنيّين خاصّة وثلاث آيات في البصري ﴿المَصير﴾ ﴿الحَرور﴾ ﴿القُبور﴾[1].

---

(١) ستّ آياتٍ حجازي وكوفي، وخمس آياتٍ شامي، وأربع آياتٍ بصري، عدّ الحجازيّون والكوفي والشامي ﴿البصير﴾ و﴿النور﴾ ولم يعدّه البصري، وعدّ الحجازيّون والعراقيّون ﴿القبور﴾ ولم يعدّه الشامي.

يقول الله تعالى مخبراً حسب ما تقتضيه حكمته وعدله: إنّه ﴿لا تزر وازرةٌ وزر أُخرى﴾ معناه أنّه لا تحمل حاملة حمل أُخرى من الذنب. و«الوزر» الثقل، ومنه الوزير لتحمّله ثقل الملك بما يتحمّله من تدبير المملكة، وتقديره: أنّه لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، وإنّما يؤاخذ كلّ مكلّف بما يقترفه من الإثم.

وقوله: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ معناه وإن تدع مثقلة بالآثام غيرها لتحمل عنها بعض الإثم لا يحمل عنها شيئاً من آثامها وإن كان أقرب الناس إليها، لما في ذلك من مشقّة حمل الآثام ولو تحمّلته لم يقبل تحمّلها، لما فيه من مجانبة العدل ومنافاته له، فكلّ نفس بما كسبت رهينة، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ولا يؤخذ إلّا بجنايته.

وقوله: ﴿إنّما تنذر الّذين يخشون ربّهم بالغيب﴾ معناه ليس ينتفع بتخويفك يا محمّد إلّا الّذين يخافون ربّهم في غيبتهم وخلواتهم فيجتنبون معاصيه في سرّهم ويصدّقون بالآخرة.

وقوله: ﴿وأقاموا الصلاة﴾ قال أبو عبيدة في مجازه: أي ويقيمون، فوقع الماضي مقام المستقبل، والمعنى يديمون فعلها ويقومون بشرائطها[١]. وإنّما عطف الماضي على المستقبل إشعاراً باختلاف المعنى، لأنّ الحسنة لازمة في كلّ وقت، والصلاة لها أوقات مخصوصة، وأضاف الإنذار إلى الّذين يخشون ربّهم من حيث كانوا هم المنتفعون بها وإن كان النبيّ ﷺ ينذر كلّ مكلّف.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٥٥.

ثمّ قال: ﴿ومن تزكّى﴾ أي فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات فإنّما يتزكّى لنفسه، لأنّ ثواب ذلك ونفعه عائد عليه. وقوله: ﴿وإلى الله المصير﴾ معناه يرجع الخلق كلّهم إلى حيث لا يملك الأمر والنهي إلّا الله، فيجازي كلّ مكلّف على قدر عمله.

وقوله: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ معناه لا يتساوى الأعمى عن طريق الحقّ والعادل عنها، والبصير الّذي يهتدي إليها قطّ، لأنّ الأوّل يستحقّ العقاب، والثاني يستحقّ الثواب.

﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ يعني وكذلك لا يستوي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، فشبّه الإيمان بالنور والكفر بالظلمات. وكذلك لا يستوي ﴿الظلّ ولا الحرور﴾ فالظلّ هو الستر عن موقع الشمس ومنه الظلّة، وهي السترة عن موقع الشمس، ومنه قولهم: ظلّ يفعل كذا: إذا فعل نهاراً في الوقت الّذي يكون للشمس ظلّ.

والحرور السموم، وهو الريح الحارّة في الشمس، وقال الفرّاء: الحرور يكون بالليل والنهار، والسموم لا يكون إلّا بالنهار. وقيل: الظلّ الجنّة، والحرور النار. ﴿وما يستوي الاحياء ولا الأموات﴾ أي هما أيضاً لا يتساويان ولا يتماثلان، فالاستواء حصول أحد الشيئين على مقدار الآخر، ومنه الاستواء في العود. و«الطريق» خلاف الإعوجاج، لمرّه على مقدار أوّله من غير انعدال. وهذه الأمثال أمثال ضربها الله لعبادة الله وعبادة الأوثان، وبيّن أنّه كما لا تتماثل هذه الأشياء ولا تتشاكل ولا تتساوى فكذلك عبادة الله لا تشبه عبادة الأصنام.

ثمّ قال تعالى ﴿إنّ الله يسمع من يشاء﴾ ومعناه أنّ الله ينفع بإسماع ذلك

من يشاء ممّن يعلم أنّ له لطفاً يفعله به دون غيره ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾ أي لأنّك لا تقدر على نفع الكفّار بإسماعك إيّاهم إذا لم يقبلوا، كمالا تسمع من في القبور من الأموات.

﴿إن أنت إلّا نذير﴾ أي لست إلّا نذيراً مخوّفاً بالله، شبّه الكفّار في تركهم قبول ما يسمعون وذهابهم عن تفهّمه وتدبّره بالموتى، كما شبّههم بالصمّ والعمي، يقال: أصمّهم وأعمى أبصارهم ليس أنّهم كانوا لا يسمعون ولا يفهمون أو كان النبيّ ﷺ لا ينذرهم لكن على ما بيّنّاه من التشبيه.

وقيل في «لا» قولان: أحدهما: أنّها زائدة مؤكّدة للنفي. الثاني: أنّها باقية لاستواء كلّ واحد منهما لصاحبه على التفصيل، فمن قال: إنّها زائدة قال في مثل قولهم: لا يستوي زيد ولا عمرو في هذا المعنى، فلا تكون هنا إلّا زائدة. ومن قال: ليست زائدة قال تقديره: لا يستوي الأعمى والبصير ولا يساوي البصير الأعمى.

قوله تعالى:

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

لمّا قال الله تعالى لنبيّه: إن أنت إلّا نذير ـ ومعناه لست إلّا مخوّفاً من عقاب الله ومعاصيه ـ قال له: ﴿إنّا أرسلناك﴾ يا محمّد ﴿بالحقّ﴾ أي بالدين الصحيح ﴿بشيراً﴾ أي مبشّراً بالجنّة وثواب الله لمن أطاعه ﴿ونذيراً﴾ أي مخوّفاً من عقابه لمن عصاه.

﴿وإن من أمّة﴾ أي: ليس من أمّة في ما مضى إلّا مضى فيها مخوّف من

معاصي الله. وقال قوم: المعنى ﴿إلّا خلا فيها نذير﴾ منهم، وقال آخرون: نذير من غيرهم، وهو رسول إليهم، كما أُرسل نبيّناﷺ إلى العرب والعجم. وقال الجبّائي: في ذلك دلالة على أنّه لا أحد من المكلّفين إلّا وقد بعث الله إليهم رسولاً، وأنّه أقام الحجّة على جميع الأُمم.

ثمّ قال على وجه التسلية له والتعزية عن تكذيب قومه إيّاه: ﴿فإن كذّبوك﴾ يا محمّد ولم يصدّقوك في أنّك نبيّ من قبل الله ﴿فقد كذّب الّذين من قبلهم﴾ من الكفّار أنبياء أُرسلوا إليهم ﴿جاءتهم رسلهم﴾ من الله ﴿بالبيّنات﴾ أي الحجج الواضحات ﴿وبالزبر﴾ يعني بالكتب ﴿وبالكتاب المنير﴾ الموضّح بمنزلة ما فيه من نور يستضاء به. و«الزبر» هي الكتب، وإنّما كرّر ذكر الكتاب وعطف عليه، لاختلاف الصنفين، لأنّ الزبر الكتابة الثابتة كالنقر في الحجر.

ثمّ بيّن تعالى أنّ الكفّار لمّا كذّبوا رسل الله الّذين جاؤوهم بالبيّنات ولم يعترفوا بنبوّتهم أنّه اخذهم بالعذاب وبالعقوبة العاجلة وأهلكهم ودمّر عليهم.

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ أربع آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه ﷺ والمراد به جميع المكلّفين منبّهاً لهم على طريق الاستدلال على وحدانيّته واختصاصه من الصفات بما لا يختصّ به سواه بأن قال: ﴿ألم تر﴾ يا محمّد، ومعناه ألم تعلم ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ يعني غيثاً ومطراً ﴿فأخرجنا به﴾ إخبار منه تعالى عن نفسه بنون التعظيم أنّه أخرج بذلك الماء ﴿ثمرات﴾ جمع ثمرة، وهي ما يجتنى من الشجر.

﴿مختلفاً ألوانها﴾ لأنّ فيها الأحمر والأبيض والأصفر والأخضر وغير ذلك. ولم يذكر اختلاف طعومها وروائحها لدلالة الكلام عليه. و«الاختلاف» هو امتناع الشيء من أن يسدّ مسدّ صاحبه في ما يرجع إلى ذاته، ألا ترى أنّ السواد لا يسدّ مسدّ البياض، وذلك لا يقدر عليه سواه تعالى من جميع المخلوقين.

﴿ومن الجبال جدد بيض﴾ واحده جدّة نحو مدّة ومدد. وأمّا جمع جديد فجدُدُ ـ بضمّ الدال ـ مثل سرير وسرر. و«الجدد» الطرائق ﴿بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ واحد الغرابيب غربيب وهو الّذي لونه كلون الغراب من شدّة سواده، ولذلك قال: ﴿سود﴾ لأنّه دلّ عليه من هذا الوجه، ثمّ بيّن بالإفصاح أنّها سود، قال امرؤ القيس:

كأنَّ سراته وجدّة متنه ... كنائن يجري فوقهنّ دَليصُ[1]

يعني بالجدّة الخطّة السوداء تكون في متن الحمار، و«الكنائن» جمع كنانة، و«الدليص» الّذي يبرق من الذهب والفضّة وما أشبههما، فالجدد هي ألوان الطرق. ثمّ قال: ﴿ومن الناس﴾ أيضاً ﴿و﴾ من ﴿الدوابّ﴾ الّتي تدبّ

(١) ديوان امرئ القيس: ١٢٣، وفيه: «ظهره» بدل «متنه» و«بينهنّ» بدل «فوقهنّ».

على وجه الأرض ﴿والأنعام﴾ كالابل والبقر والغنم ﴿مختلف ألوانه﴾ أيضاً مثل ذلك ممّا في الجبال والثمار ﴿كذلك﴾ أي مثل ما قدّمنا ذكره.

ثمّ قال: ﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾ ومعناه ليس يخاف الله حقّ خوفه ولا يحذر معاصيه خوفاً من عقابه إلّا العلماء الّذين يعرفون حقيقة ذلك. فأما الجهّال ومن لا يعرف الله فلا يخافونه مثل ذلك، وكذلك ينظر العلماء في حجج الله وبيّناته ويفكّرون في ما يفضي بهم إلى معرفته من جميع ما تقدّم ذكره.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿إنّ الله عزيز﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿غفور﴾ لأوليائه والتائبين من خلقه الراجعين إلى طاعته.

ثمّ قال: ﴿إنّ الّذين يتلون كتاب الله﴾ يعني يقرأون القرآن ويعملون بما فيه ﴿وأقاموا الصلاة وانفقوا﴾ في طاعة الله ﴿ممّا رزقناهم﴾ أي ممّا رزقهم الله وملكهم التصرّف فيه ﴿سرّاً وعلانيةً﴾ أي في حال سرّهم، وفي حال علانيتهم ﴿يرجون﴾ في موضع الحال، أي راجين بذلك ﴿تجارةً لن تبور﴾ أي لا تكسد. وقيل: لا تفسد. يقال بارت السوق: إذا كسدت، وبار الطعام وبار الشيء: إذا فسد، قال الشاعر:

يا رسول المليك إنّ لساني راتق ما فتقت إذ أنا بور[١]

ثمّ بيّن أنّهم يقصدون بذلك أن يوفّيهم الله أُجور ما عملوا من الطاعات بالثواب ويزيدهم من فضله زيادة على قدر استحقاقهم، لأنّه وعد بأن يعطي الواحد عشرة ﴿إنّه غفور﴾ لعباده ساتر لذنوبهم ﴿شكور﴾ معناه أنّه يعامل بالإحسان معاملة الشاكر. وقال الجبّائي: وصفه بأنّه شكور مجاز، لأنّ معناه أنّه يجازي على الطاعات.

---

(١) تقدّم في تفسير الآية ١٠ من هذه السورة.

قوله تعالى:

وَالَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ٱلَّذِيَ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥). خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو ﴿يدخلونها﴾ بضمّ الياء على ما لم يسمّ فاعله، ليشاكل قوله تعالى: ﴿يحلّون﴾ الباقون بفتح الياء، لأنّهم إذا أدخلوها فقد دخلوها، والمعنيان متقاربان.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿والّذي أوحينا إليك﴾ يا محمّد وأنزلناه عليك ﴿من الكتاب﴾ يعني القرآن ﴿هو الحقّ﴾ معناه هو الصحيح الّذي معتقده على ما هو به، وضدّه الباطل، وهو ما كان معتقده لا على ما هو به. والعقل يدعو إلى الحقّ ويصرف عن الباطل.

وقوله: ﴿مصدّقاً لما بين يديه﴾ معناه مصدّقاً لما قبله من الكتب بأنّه جاء موافقاً لما بشّرت به تلك الكتب من حاله وحال من أتى به. ثمّ قال: ﴿إنّ الله﴾ تعالى ﴿بعباده لخبيرٌ﴾ أي عالم بهم ﴿بصيرٌ﴾ بأحوالهم لا يخفى عليه شيء منها، فيجازيهم على استعمال الحقّ بالثواب وعلى استعمال الباطل بالنار.

ثمّ قال: ﴿ثمّ أورثنا الكتاب﴾ يعني القرآن أورثناه من اصطفيناه من

عبادنا. ومعنى «الإرث» انتهاء الحكم إليه ومصيره لهم، كما قال تعالى: ﴿وتلك الجنّة الّتي أُورثتموها بما كنتم تعملون﴾[1] وقيل: المراد أورثناهم الإيمان بالكتب السالفة، وكان الميراث انتقال الشيء من قوم إلى قوم. والأوّل أصحّ.

و«الاصطفاء» الاختيار بإخراج الصفوة من العباد، فاصطفى الله المؤمن يحمل على ثلاث طبقات: مؤمن ظالم لنفسه بفعل الصغيرة، ومقتصد بالطاعات في المرتبة الوسطى، وسابق بالخيرات في الدرجة العليا، وهم الّذين لم يرتكبوا شيئاً من المعاصي، وكلّ وعد الله الحسنى. والّذين اصطفاهم الله وأورثهم الكتاب، قيل: هم الأنبياء.

﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ يعني أصحاب الصغائر. وقيل: هم أصحاب النار. هذا من قول من أجاز على الأنبياء الصغائر دون الكبائر، فأمّا من لا يجوّز عليهم شيئاً من المعاصي أصلاً لا صغيرة ولا كبيرة يقول: معنى الآية أنّ الله تعالى أورث علم الكتاب الّذي هو القرآن الّذين اصطفاهم واجتباهم واختارهم على جميع الخلق من الأنبياء المعصومين، والأئمّة المنتجبين الّذين لا يجوز عليهم الخطأ ولا فعل القبيح لا صغيراً ولا كبيراً، ويكون قوله: ﴿فمنهم ظالمٌ لنفسه﴾ راجعاً إلى ﴿عباده﴾ وتقديره: فمن عبادنا ظالم لنفسه، ومن عبادنا مقتصد، ومن عبادنا سابق بالخيرات، لأنّ من اصطفاه الله لا يكون ظالماً لنفسه، فلا يجوز أن ترجع الكناية إلى الّذين اصطفيناه. وقوله: ﴿بالخيرات﴾ يعني يعلم من اقتصد أو ظلم نفسه أو سبق بالخيرات.

ثمّ قال ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ يعني السبق بالخيرات هو الفضل

---

(١) الزخرف: ٧٢.

العظيم الّذي لا شيء فوقه. وقال ابن عبّاس: الّذين أورثهم الله الكتاب هم أُمّة محمّد، ورثهم الله كلّ كتاب أنزله، فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسبهم حساباً يسيراً، وسابقهم يدخلون الجنّة بغير حساب. وقال ابن مسعود بذلك وكعب الأحبار، وقال الثلاث فرق ـ المذكورة في هذه الآية ـ كلّهم في الجنّة. وقال عكرمة عن ابن عبّاس: إنّ المصطفين من هذه الأُمّة الأنبياء، والظالم لنفسه هو المنافق، والمقتصد والسابق بالخيرات في الجنّة، والمنافق في النار.

وقال الحسن ومجاهد: السابق بالخيرات من جميع الناس، والظالم لنفسه أصحاب المشئمة، والمقتصد أصحاب الميمنة من الناس كلّهم. وهذا مثل ما قلناه من أنّ الكناية راجعة إلى العباد دون المصطفين.

وقال البلخي: الاصطفاء ـ هاهنا ـ التكليف دون الثواب. فعلى هذا يجوز أن ترجع الكناية إلى المصطفين.

ثمّ قال: ﴿جنّات عدن يَدخلونها﴾ فرجع جنّات على تفسير الفوز، كأنّه قيل: ما ذلك الفوز؟ فقال: هي جنّات أي جزاء جنّات أو دخول جنّات، ويجوز أن يكون بدلاً من الفوز، كأنّه قال ذلك جنّات أي دخول جنّات. و«الجنّات» هي البساتين الّتي يجنّها الشجر، و«العدن» الإقامة.

﴿يدخلونها﴾ يعني من تقدّم ذكره من الّذين سبقوا بالخيرات والمقتصدين ﴿يحلّون فيها﴾ بمعنى يلبسون فيها الحلي ﴿من أساور من ذهب﴾ وأساور جمع أسوار، ومن قال: سوار جمعه على أسورة ﴿من ذهب ولؤلؤ﴾ فيمن جرّ، ومن نصب ﴿لؤلؤاً﴾ وهو نافع وعاصم فعلى تقدير: ويحلّون فيها لؤلؤاً ﴿ولباسهم فيها حريرٌ﴾ معناه أنّ ما يلبسه أهل الجنّة من

اللباس إبريسم محض.

ثمّ أخبر تعالى عن حال من يدخل الجنّة أنّهم إذا دخلوها ﴿قالوا الحمدلله﴾ أي اعترافاً بنعمة الله وشكراً له على نعمه، وهو الاعتراف منهم على وجه الإلجاء، لهم في ذلك سرور لا على وجه التكليف.

﴿الّذي أذهب عنّا الحزن﴾ ومعناه أذهب الغمّ عنّا بخلاف ما كنّا عليه في دار الدنيا، وقيل: الحزن الّذي أصابهم قبل دخول الجنّة، فإنّهم يخافون من دخول النار إذا كانوا مستحقّين لها، فإذا تفضّل الله عليهم بأن يسقط عقابهم ويدخلهم الجنّة حمدوا الله على ذلك. وقيل: ما كان ينالهم في دار الدنيا من أنواع الأحزان والاهتمام بأمر المعاش والخوف من الموت وغير ذلك.

﴿إنّ ربّنا لغفور شكور﴾ لذنوب عباده إذا تابوا مجازٍ لهم على شكرهم لنعمه. وقيل: إنّ مكافاته لهم على الشكر لنعمه والقيام بطاعاته جرى مجرى أن يشكره لهم وإن كان حقيقة لا يجوز عليه تعالى من حيث كان اعترافاً بالنعمة، ولا يصحّ عليه تعالى أن يكون منعماً عليه، ثمّ وصفوا الله تعالى بأن قالوا ﴿الّذي أحلّنا﴾ أي أنزلنا دار المقامة يعني دار الإقامة وإذا فتحت الميم كان المراد موضع القيام، قال الشاعر:

يَومانِ يَومُ مَقاماتٍ وأنديةٍ ويَومُ سَيرٍ إلى الأعداء تأويبِ[1]

و﴿من فضله لا يمسّنا فيها نصب﴾ يعني تعب. وقال قَتادة: معناه وجع. ﴿ولا يمسّنا فيها لغوب﴾ يعني إعياء. وقيل: اللغوب العناء. ومنه قوله تعالى: ﴿وما مسّنا من لغوب﴾[2].

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٩٠ ونسبه إلى الشاعر سلامة بن جندل.

(٢) ق: ٣٨.

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أبو عمرو وحده ﴿يجزى﴾ بضمّ الياء على ما لم يسمّ فاعله، الباقون بالنون على وجه الإخبار من الله عن نفسه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ﴿على بيّنة﴾ بالتوحيد لقوله: ﴿فقد جاءكم بيّنة من ربّكم﴾[1] الباقون ﴿بيّنات﴾ على الجمع، لأنّها مكتوبة في المصاحف بالألف والتاء. و«البيّنة» و«البيّنات» القرآن. وفيقوله: ﴿حتّى تأتيهم البيّنة ۞ رسول من الله﴾[2] وهو محمّد ﷺ ويقال: بان الشيء وأبان: إذا تبيّن، فهو باين ومبين، وأبنته أنا وبيّنته لا غير، والبيّنة وزنها «فيعلة» فاجتمع ياآن فأُدغم إحداهما في الأُخرى.

لمّا أخبر الله تعالى عن أحوال أهل الآخرة وما أعدّه لأهل الجنّة من أنواع الثواب أخبر ـ هاهنا ـ عن حال الكفّار وما أعدّه لهم من أليم العقاب

---

(١) الأنعام: ١٥٧.

(٢) البيّنة: ١ و٢.

فقال: ﴿والّذين كفروا﴾ بوحدانيّة الله وجحدوا نبوّة نـبيّه ﴿لهم نار جهنّم﴾ عقوبة لهم على كفرهم يعذّبون فيها ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا فيستريحوا، يقال: قضى فلان: إذا مات ﴿ولا يخفّف عنهم من عذابها﴾ معناه ولا ييسّر عليهم عذاب النـار ولا يسـهّل عـليهم، ومثل هذا العذاب ونظيره ﴿نجزي كلّ كفورٍ﴾ جـاحد لوحـدانـيّته تـعالى ومكذّب لأنبيائه.

ثمّ أخبر تعالى عن حال من هو في النار فقال: ﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي يتصايحون بالاستغاثة، فالاصطراخ الصياح والنداء بـالاستغاثة، وهـو افتعال من الصراخ قلبت التاء طاءً لأجل الصاد الساكنة قبلها، وإنّما فعل ذلك لتعديل الحروف بحرف وسط بين حرفين يوافق الصاد بـالاستعلاء والإطباق ويوافق التاء بالمخرج.

ويقولون: ﴿ربّنا أخرجنا﴾ من عذاب النار ﴿نعمل صالحاً﴾ يعني نـعمل بالطاعات والأعمال الصالحات الّتي أُمرنا بـها ﴿غير الّذي كنّا نعمل﴾ مـن المعاصي، فيقول الله لهم ـ في جوابه تبكيتاً لهم وإنكاراً عليهم ـ :

﴿أو لم نعمّركم﴾ في دار الدنيا. وقال ابن عبّاس ومسروق: العمر الّذي ذكره الله أربعون سنة، وفي رواية أُخرى ستّون سنة، وهو قول عليّ عليه السلام[1] ﴿ما يتذكّر فيه من تذكّر﴾ أي عمّرناكم مقدار ما يمكن أن يـتذكّر ويـعتبر وينظر ويفكّر من يريد أن يتفكّر ويتذكّر ﴿وجاءكم النذير﴾ يعني المخوّف من معاصي الله. قال ابن زيد: يعني به محمّداً صلى الله عليه وآله. وقال غيره: أراد الشيب. وقيل: الحمى.

---

(١) رواه الماوردي في تفسيره ٤: ٤٧٦.

﴿فذوقوا﴾ معاشر الكفّار عقاب كفركم ومعاصيكم ﴿فما للظالمين من نصير﴾ أي ليس لمن ظلم ـ وبخس نفسه حقّها بارتكاب المعاصي ـ ناصر يدفع عنه العذاب.

ثمّ أخبر تعالى بأنّه ﴿عالم غيب السماوات والأرض﴾ لا يخفى عليه شيء ممّا غاب عن جميع الخلائق علمه ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ ومعناه اتّقوا واحذروا أن تضمروا في أنفسكم ما يكرهه الله تعالى، فإنّه عليم بما في الصدور لا يخفى عليه شيء منها.

وقوله: ﴿هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ معناه جعلكم معاشر الكفّار أمّة بعد أمّة وقرناً بعد قرن. وهو قول قَتادة ﴿فمن كفر﴾ أي جحد وحدانيّته وأنكر نبوّة نبيّهﷺ ﴿فعليه﴾ عقاب ﴿كفره﴾ دون غيره:

﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلّا مقتاً﴾ أي لا يزيدهم كفرهم بالله عند الله إلّا أشدّ البغض، لأنّ المقت أشدّ البغض ﴿ولا يزيد الكافرين﴾ أيضاً ﴿كفرهم إلّا خساراً﴾ لأنّهم يخسرون الجنّة ويحصل لهم النار بدلاً منها، وذلك هو الخسران المبين.

ثمّ قال موبّخاً لهم: ﴿قل أرأيتم شركاءكم الّذين تدعون من دون الله﴾ قيل: معناه ادعوا شركاءكم في الأموال الّتي جعلتم لها قسطاً من السائبة والوصيلة والأنعام والحر ث، وهي الأوثان. وقيل: شركاؤكم الّذين أشركتموهم في العبادة مع الله.

﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ معناه أيّ شيء اخترعوه وأنشأوه فيدخل عليكم بذلك شبهة ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾؟ أي لهم شركة في خلق السماوات؟ على وجه المعاونة لله؟ ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾؟ أي أعطيناهم

كتاباً أمرناهم فيه بما يفعلونه ﴿فهم على بيّنة منه﴾ أي من ذلك الكتاب، فإنّ جميع ذلك محال لا يمكنهم ادّعاء شيء من ذلك، ولا إقامة حجّة ولا شبهة عليه.

﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلّا غروراً﴾ ومعناه ليس شيء من ذلك لكم، ليس يعد الظالمون أنفسهم بعضهم بعضاً إلّا غروراً يغترّون به وزوراً يتعدّون به. يقال: غرّه يغرّه غروراً: إذا أطمعه في ما لا يطمع فيه.

فإن قيل: الآية تدلّ أنّ الله سبحانه ينفرد بالخلق دون العباد، لأنّه بيّن أنّ من تهيّأ له الخلق فهو إله.

قلنا: هذا كقوله: ﴿ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدٍ يبطشون بها﴾ [1] فكما لا يدلّ على أنّ من كان له يد أو رجل يكون إلهاً فكذلك لا يجب أن يكون من يخلق يكون إلهاً، على أنّه بيّن المراد بالخلق، فقال: ﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾ لا يقدر على خلق الأرض ولا على شيء منه إلّا الله تعالى، على أنّا لا نطلق اسم خالق إلّا على الله، ونقيّده في الواحد منّا.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

---

(١) الأعراف: ١٩٥.

وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾.

خمس آياتٍ كوفي ومكّي ومدني الأوّل، وستّ شامي وفي عدد إسماعيل، وسبع بصري، عدّ البصري والشامي وإسماعيل ﴿تبديلاً﴾ وعدّ البصري قبله ﴿تزولا﴾ ولم يعدّ ذلك الباقون.

لمّا بيّن الله تعالى أنّ الأصنام لا تقدر على شيء وأن ليس لها شرك في شيء من السماوات والأرض أخبر عن عظيم قدرته وسعة سلطانه فقال: ﴿إن الله يمسك السماوات﴾ بأن يسكنها حالاً بعد حال، ولا يقدر على تسكينها غيره تعالى حالاً بعد حال، لأنّه يسكنها بغير عمد، فالأرضون ساكنة بلا عمد والسماوات ساكنة بإسكانه. وهي غير الأفلاك الّتي تجري فيها النجوم. قال عبد الله بن مسعود: إنّ السماوات لا تدور، ولو كانت تدور لكانت قد زالت[1].

ومنعهما بهذا التسكين من أن تزولا عن مواضعها أو تهوي أو تسقط. ومعنى ﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا. وقال الكوفيّون: معناه ألّا تزولا عن مراكزهما، فحذف «لا».

ثمّ قال: ﴿ولئن زالتا﴾ معنى «لئن» «لو» ويوضع كلّ واحد منهما مكان الآخر، لأنّهما يجابان بجواب واحد، ومثله ﴿ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرّاً﴾[2] ومعناه و«لو».

﴿و﴾ معنى ﴿لئن زالتا﴾ يعني عن مقرّهما ﴿إن أمسكهما من أحد من

(١) حكاه الثعلبي في تفسيره ٨: ١١٥.

(٢) الروم: ٥١.

بعده﴾ أي ليس يسكنها أحد ولا يقدر عليه أحد بعد الله تعالى ﴿إنّه كان حليماً﴾ يعني القادر الّذي لا يعاجل واحداً بالعقوبة، ولا يحلم إلّا قادر، لأنّ من ليس بقادر لا يصحّ أن يعاقب فلا يحلم، وإنّما حلمه أناة بمن استحقّ العقوبة ﴿غفوراً﴾ أي ستّاراً لذنوبهم إذا تابوا لا يفضحهم بها على رؤس الأشهاد. و«الغفور» الكثير الغفران لذنوب عباده بالتوبة وبالتفضّل لمن يشاء منهم.

ثمّ حكى عن الكفّار أنّهم ﴿أقسموا بالله﴾ يعني حلفوا به ﴿جهد أيمانهم﴾ أي غاية وسعهم وطاقتهم ﴿لئن جاءهم نذيرٌ﴾ أي مخوّف من جهة الله يخوّفهم من معاصيه ﴿ليكوننّ أهدى﴾ إلى اتّباعه والقبول منه ﴿من إحدى الأمم﴾ الماضية وأسبق إلى اتّباعه ﴿فلمّا جاءهم نذيرٌ﴾ أي محمّد ﷺ جاءهم يخوّفهم بالله ﴿ما زادهم﴾ مجيئه ﴿إلّا نفوراً﴾ أي ازدادوا عند مجيئه نفوراً عن الحقّ وهرباً منه لا أنّ مجيئه زادهم ذلك.

ثمّ بيّن تعالى أنّهم ينفرون عند مجيء النبيّ ﴿استكباراً﴾ أي طلباً للكبر والتجبّر على غيرهم ﴿في الأرض﴾ من أن يقرّوا بالحقّ.

﴿ومكر السيّء﴾ أي وحيلة الأفعال القبيحة والمعاصي لأنّهم قصدوا بذلك الفرار من اتّباع محمّد والإيمان به. و«السيّء» الشرك ـ في قول قتادة ـ وأُضيف إليه كما قال ﴿لحقّ اليقين﴾[1] وفي قراءة عبد الله بن مسعود ﴿ومكراً سيّئاً﴾ وقد سكّن حمزة وحده الهمزة، الباقون جرّوها بالإضافة. والتسكين لحن عندهم ـ أعني البصريّين ـ لا يجوز أن يقرأ به. وقيل: الوجه في تسكين حمزة كثرة الحركات في الكلام، كما قال الشاعر:

---

(١) الحاقّة: ٥١.

إذا اعوجَجْنَ قُلتُ صاحِبْ قَوِّمِ[١]

فسكّن الباء لكثرة الحركات ، والصحيح الأوّل، لأنّ مثل هذا إنّما يجوز في ضرورة الشعر. قال أبو عليّ النحوي: يجوز أن يكون أجراه في الوصل مجرى الوقف، وتقديره: ومكروا المكر السيّء، فأُضيف المصدر إلى صفة المصدر، وتقديره: ومكروا المكر السيّء، بدلالة قوله: ﴿ولا يحيق المكر السيّء إلّا بأهله﴾[٢] ومعناه لا ينزل بأحد جزاء المكر السيّء إلّا بمن فعله.

﴿فهل ينظرون﴾ أي فهل ينتظرون ﴿إلّا سنّة الأوّلين﴾ من نزول العقاب بهم وحلول النقمة عليهم جزاءً على كفرهم، فإن كانوا ينتظرون ذلك ﴿فلن تجد﴾ يا محمّد والمراد به الكفّار ﴿لسنّة الله تبديلاً﴾ أي لا يغيّر الله عادته من عقوبة من جحد ربوبيّته.

﴿ولن تجد لسنّة الله تحويلاً﴾ ولا يبدّلها بغيرها، فالتبديل تصيير الشيء مكان غيره، و«التحويل» تصيير الشيء في غير المكان الّذي كان فيه. و«التغيير» تصيير الشيء على خلاف ما كان.

ثمّ قال: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ يعني هؤلاء الكفّار الّذين أنكروا إهلاك الله الأُمم الماضية، أما ساروا في الأرض ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم وكانوا﴾ أولئك ﴿أشدّ منهم﴾ من هؤلاء ﴿قوّة وما كان الله ليعجزه من شيء﴾ إذ لم يكن يفوته شيء ﴿في السماوات ولا في الأرض إنّه كان عليماً﴾ عالماً بجميع الأشياء ﴿قديراً﴾ قادراً على مالا نهاية له، ويقدر

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٧١، ولم ينسبه لأحد.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٠٢.

على أجناس لا يقدرون عليها.

ثمّ أخبر تعالى ممتّناً على خلقه بتأخير عقابهم بأن قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا﴾ أي جزاءً على معاصيهم عاجلاً ﴿ما ترك على ظهرها﴾ ظهر الأرض ﴿من دابّة﴾ تدبّ على وجهها.

﴿ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى﴾ يعني إلى الوقت المعلوم الّذي قدّره لتعذيبهم ﴿فإذا جاء أجلهم﴾ يعني الوقت المقدّر المعلوم ﴿فإنّ الله﴾ تعالى ﴿كان بعباده بصيراً﴾ أي عالماً بأحوالهم لا يخفى عليه شيء منها، فيجازي كلّ إنسان على قدر فعله من طاعة أو معصية.

والضمير في قوله: ﴿على ظهرها﴾ عائد إلى الأرض وإن لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام عليه، لأنّه معلوم أنّهم على ظهر الأرض دون غيرها، على أنّه قد تقدّم قوله: ﴿أو لم يسيروا في الأرض﴾ وفي قوله: ﴿إنّ الله يمسك السماوات والأرض﴾ فيجوز أن يردّ الكناية إليها.

# سورة يس

في قول مجاهد وقتادة والحسن: ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال ابن عبّاس: آية منها مدنيّة وهي قوله: ﴿وإذا قيل لهم انفقوا ممّا رزقكم الله﴾ وهي ثلاث وثمانون آيةً كوفي، واثنان وثمانون آيةً في البصري والمدنيّين[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله سبحانه:

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾.

عشر آياتٍ الكوفي وتسع في ما عداه، عدّ الكوفي ﴿يس﴾ ولم يعدّه الباقون.

---

(١) كذا في الخطّيّة، وفي الحجريّة: «في ما عداه».

قرأ الكسائي بإمالة الألف من ﴿ياسين﴾ وكذلك حمزة إلّا أنّه أقلّ إمالة، الباقون بغير إمالة. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ بالرفع، الباقون بالنصب. فمن رفع فعلى تقدير: ذلك تنزيل العزيز، ومن نصب، فعلى تقدير نزل تنزيل العزيز الرحيم.

وقرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿سدّاً﴾ بفتح السين في الموضعين، الباقون بضمّهما، وهما لغتان. وقال أبو عمرو: وما كان من فعل الله فهو بالفتح وما كان في العين فهو من فعل الله[١]. وعدّ أهل الكوفة ﴿يس﴾ آية ولم يعدّوا ﴿طس﴾ لأنّ ﴿طاسين﴾ أشبه قابيل وهابيل في الوزن والحروف الصحاح، ولم يشبهها ﴿ياسين﴾ لأنّ أوّله حرف من حروف العلّة وليس مثل ذلك في الأسماء المفردة، فأشبه الجملة والكلام التامّ وشاكل ما بعده من رؤوس الآي.

وقد مضى في ما تقدّم[٢] أنّ افتتاح أوائل السور بأمثال هذه الحروف الأقوى فيها أنّها أسماء للسور. وقيل: إنّها أسماء القرآن، وقيل: إنّها حروف إذا جمعت أنبأت عن اسم الله الأعظم، وغير ذلك من الأقاويل لا نطوّل بذكره.

وقال الحسن: معناه يارجل. وقال محمّد بن الحنفيّة ﴿يس﴾ معناه يا إنسان، يا محمّد. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال سمّى الله تعالى النبيّ صلى الله عليه وآله في القرآن بسبعة أسماء: محمّد، وأحمد، وطه ، ويّس، والمزمّل، والمدّثّر، وعبدالله[٣]. وقيل: معناه بالسريانيّة يا إنسان. وقيل: معناه يا سيّد الأوّلين والآخرين.

---

(١) كذا في الخطّيّة، وفي الحجريّة: «وما كان في الغير فهو من فعل الله، ز».

(٢) تقدّم في تفسير الآية الأُولى من سورة البقرة ١: ٣٥٨ من الكتاب.

(٣) رواه الماوردي في تفسيره ٥: ٥.

وقوله: ﴿والقرآن الحكيم﴾ قسم من الله تعالى بهذا القرآن، وصفه بأنّه حكيم من حيث إنّ فيه الحكمة، فصار ذلك بمنزلة الناطق به للبيان عن الحقّ الّذي يعمل به. والحكمة قد تكون المعرفة، وقد تكون ما يدعو إلى المعرفة، وأصله المنع من الخلل والفساد، فالمعرفة تدعو إلى ما أدّى إلى الحقّ من برهان أو بيان قال الشاعر:

أبني حَنفَيةَ أحكِموا سُفهاءَكـمْ     إنّي أخاف عَليكُمْ أن أغضَبَا[1]

أي أمنعوهم. وقال قوم: إنّما أقسم الله بـالقرآن الحكـيم لعـظم شـأنه وموضع العبرة به والفائدة فيه، والمقسم عليه قـوله: ﴿إنّك لمن المرسلين﴾ أقسم تعالى أنّ النبيّ ﷺ ممّن أرسله الله بـالنبوّة والرسـالة، وأنّـه ﴿على صراط مستقيم﴾ وهو طريق الحقّ المستقيم الّذي يؤدّي إلى الجنّة.

وأخفى النون من ﴿ياسين﴾ الكسائي وأبوبكر عن عـاصم، البـاقون ببيان النون، وهو الأجود؛ لأنّ حروف الهجاء ينوى بها السكت والانقطاع عمّا بعده. ومن قال بالأوّل قال لأنّ النون والتـنوين إنّـما يـظهران عـند حروف الحلق وليس هاهنا شيء منها.

وقوله: ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ من رفع فعلى تقدير: ذلك تنزيل، ومن نصب فعلى تقدير: نزل تنزيل. وموضع ﴿على صراط مستقيم﴾ يـجوز أن يكون رفعاً على أنّه خبر، كأنّه قال: إنّك على صراط مستقيم، ويجوز أن يكون نصباً على الحال للإرسال، كأنّه قال: أرسلوا مستقيماً طريقتهم.

وقوله: ﴿لتنذر قوماً﴾ معناه أنّه أنزل القرآن لتخوّف به من معاصي الله قوماً ﴿ما أنذر آباؤهم﴾ من قيل: أراد به قريشاً أنذروا بنبوّة محمّد. وقيل:

---

(١) للشاعر جرير، راجع ديوانه: ٤٧١.

في معناه قولان:

أحدهما: قال عكرمة: معناه لتنذر قوماً مثل الّذي أُنذر آباؤهم.

الثاني: قال قتادة: معناه لتنذر قوماً لم يُنذر آباؤهم قبلهم، يعني في زمان الفترة بين عيسى ومحمّد عليهما السلام.

﴿فهم غافلون﴾ عمّا تضمّنه القرآن وعمّا أنذر الله من نزول العذاب. ومثل الغفلة «السهو» وهو ذهاب المعنى عن النفس، ومثله «النسيان» وهو ذهاب الشيء عن النفس بعد حضوره فيها.

ثمّ أخبر تعالى مقسماً أنّه ﴿لقد حقّ القول على أكثرهم﴾ أي وجب باستحقاق العقاب بإدخالهم النار ﴿فهم لا يؤمنون﴾ لذلك، وقد سبق في علم الله.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ أي جعل الغلّ في أعناقهم، وهو جمع عنق ﴿فهي إلى الأذقان﴾ و«الأذقان» جمع ذقن، وهو مجمع اللحيين. وقيل بأيمانهم إلى أذقانهم، فكنّى عنها، لأنّها معلومة. وقيل: التقدير بالأغلال بالأيمان إلى الأذقان فهو محذوف، قال الشاعر:

وما أَدري إذا يمّمتُ أَرضاً ... أُريد الخَيرَ أيّهما يَليني

أ ألخير الّذي أنا أبتغيهِ ... أم الشرّ الّذي لا يأتليني[1]

﴿فهم مقمحون﴾ فالمقمح الغاضّ بصره بعد رفع رأسه، وقيل: هو المقنّع وهو الّذي يجذب ذقنه حتّى تصير في صدره ثمّ يرفع. والقمح من هذا، وهو رفع الشيء إلى الفم، والبعير القامح الّذي إذا أورده الماء في الشتاء

---

(١) أنشده الأزهري في تهذيب اللغة ١٥: ٥٠٨ مادّة «أنمّ» ونسبه إلى المثقّب العبدي، وفيه: «هو يبتغيني» بدل «لا يأتليني».

رفع رأسه وشال به نصباً لشدّة البرد، قال الشاعر:

ونــحنُ عــلى جـانبها قُـعودٌ     نغضّ الطرف كالإبل القِماحِ[١]

وقيل: قد رفعوا رؤوسهم وشخصوا بأبصارهم، ذكره مجاهد.

ثمّ قال: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً﴾ ومعناه سدّاً عن الحقّ ـ في قول مجاهد وقتادة ـ أي على جهة الذمّ لهم، وصفهم بذلك لا أنّهم منعوا منه وكذلك ذكر الأغلال، كما قال الأفوه الأودي:

كيف الرشادُ إذا ما كنت في نفرٍ     لهم عن الرشد أغلال وأقيادُ[٢]

وفي تأويل الآيات قولان:

أحدهما: أنّه جعل جهلهم وذهابهم عن معرفة الحقّ غلّاً وسدّاً، إذ كانّ المغلول الممنوع من التصرّف أمامه ووراءه ذاهب عمّا قد منع منه وحيل بينه وبين الدليل عليه، أنّ الله تعالى لم يجعل الكافر مغلولاً في الحقيقة ولا مسدوداً بين يديه ومن خلفه ولا في عينه غشاوة، كقوله تعالى: ﴿وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى مستكبراً كأن لم يسمعها كأنّ في أُذُنيه وقراً﴾[٣] شبّهه بمن في أُذنيه وقر، فعلمنا بهذا التشبيه أنّه إنّما يريد بوصف الكفّار بالوقر والكن والغلّ والسدّ التشبيه الّذي عناه ـ هاهنا ـ ولو كان في أُذن الكافر وقر على الحقيقة لم يجز تشبيهه بمن في أُذنيه وقر، وهو كقولهم للجاهل: «حمار وثور» وإنّما يريدون المبالغة في وصفه بالجهل.

ومعنى «جعلنا» يحتمل وجهين أحدهما: أنّه كما شبّههم بمن جعله مغلولاً مقيّداً أجرى عليه صفة الجعل بأنّه مشبّه للمجعول مغلولاً مقيّداً.

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٥٧، ونسبه إلى بشر بن أبي خازم الأسدي.

(٢) أنشد عجزه النحّاس في إعراب القرآن ٣: ٣٨٥ ولم ينسبه لأحد.

(٣) لقمان: ٧.

والثاني: أنّه أراد البيان عن حاله الّتي شبّه بها المغلول المقيّد، كما يقول القائل: جعلني فلان حماراً وجعلني ميّتاً: إذا وصفه بالحماريّة والموت وشبّهه بالحمار والميّت، وهذا واضح.

والوجه الثاني في تأويل الآيات: أنّه أراد وصف حالهم في الآخرة، لأنّه تعالى يوثقهم في الأغلال والسلاسل، كما قال تعالى: ﴿خذوه فغلّوه * ثمّ الجحيم صلّوه﴾ (١) وقال: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثمّ في النار يسجرون﴾ (٢) وقال في السدّ الّذي جعله لهم: فلا يبصرون كما قال: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للّذين آمنوا أنظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب﴾ (٣) وقال: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنّم﴾ (٤) فلمّا كانت هذه حال الكفّار في الآخرة وصف حالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿فهم مقمحون﴾ فقد فسّرناه في آية أُخرى وهي قوله: ﴿مهطعين مقنعي رءوسهم﴾ (٥) و«الإقناع» هو رفع الرأس وإشخاصه.

فقد صحّ بما بيّنّاه كلا الوجهين في الآية وزالت الشبهة بحمد الله.
وقال السدي: إن ناساً من قريش ائتمروا على قتل النبيّ ﷺ فلمّا جاءوه جعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه يداً. وقال قوم: حال الله بينهم وبين ما أرادوا فعبّر عن ذلك بأنّه غلّت أيديهم.

وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد ﴿جعلنا في أعناقهم اغلالاً﴾ من

---

(١) الحاقّة: ٣٠ ـ ٣١. (٢) المؤمن: ٧١ ـ ٧٢. (٣) الحديد: ١٣.
(٤) الإسراء: ٩٧. (٥) إبراهيم: ٤٣.

الآيـات والبـيّنات ﴿وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً﴾ مـنها ﴿فأغشيناهم﴾ بها ﴿فهم﴾ مع ذلك ﴿لا يبصرون﴾ بدليل قوله: ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ (١).

وقرأ ابن مسعود وابن عبّاس ﴿إنّا جعلنا في أيمانهم أغلالاً﴾ لأنّ الغلّ لا يكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق، والمعنى إنّا جعلنا في أعناقهم وفي أيمانهم أغلالاً، وقوله: ﴿فهي﴾ كناية عن الأيدي لا عن الأعناق، لأنّ الغلّ يجعل اليد تلي الذقن، والعنق هو مقارب الذقن، لأنّ الغلّ يجعل العنق إلى الذقن.

وقرأ الحسن ﴿فأغشيناهم﴾ بالعين المهملة، وهو ما يلحق من ضعف البصر. وقيل: الآية نزلت في أبي جهل، لأنّه همّ بقتل النبيّ صلى الله عليه وآله فكان إذا خرج بالليل لا يراه، ويحول الله بينه وبينه. وقيل: السدّ فعل الإنسان، والسدّ بالضمّ خلقه تعالى.

﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ أي حكمنا عليهم بأنّهم كمن غشي على بصره فهم لا يبصرون لذلك. وقيل : أغشيناهم بظلمة الكفر فهم لا يبصرون الهدى. وقيل: بظلمة الليل فهم لا يبصرون النبيّ صلى الله عليه وآله.

ثمّ قال: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم﴾ يا محمّد وخوّفتهم ﴿أم لم تنذرهم﴾ وتخوّفهم بالعقاب فهم ﴿لا يؤمنون﴾ للعناد وترك الالتفات والفكر في ما يخوّفهم منه، فاستوى علمه تعالى في تركهم الإيمان وعدولهم عنه إلى الكفر بسوء اختيارهم.

---

(١) سبأ: ٩.

قوله تعالى:

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ خمس آيات.

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿فعززنا﴾ مخفّفاً بمعنى فقهرنا من قولهم: من عزّ بزّ، الباقون بالتشديد يعني قوّينا الاثنين بثالث بعثنا.

لمّا قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: إنّ هؤلاء الكفّار لا يؤمنون أبداً وأخبره بأنّه سواء عليهم الإنذار وترك الإنذار بيّن هاهنا حال من ينتفع بالإنذار، فقال: ﴿إنّما تنذر من اتّبع الذكر﴾ ومعناه إنّما ينتفع بإنذارك وتخويفك من اتّبع الذكر، لأنّ نفس الإنذار قد حصل للجميع وأضافه ـ هاهنا ـ إلى من اتّبع الذكر لما كانوا هم المنتفعين به، كما قال: ﴿هدىً للمتّقين﴾[1]. والذكر المذكور ـ هاهنا ـ القرآن، في قول قتادة.

﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: وخشي الرحمن وخاف ارتكاب معاصيه في غيبه عن الناس.

والثاني: وخشي الرحمن في ما غاب عنه من الآخرة وأمرها.

ثمّ قال لنبيّه: من هذه صفته ﴿فبشّره بمغفرة﴾ من الله لذنوبه ﴿وأجر﴾ أي ثواب ﴿كريم﴾ وهو ما يفعله الله على وجه الإجلال والإكرام. وقيل: الأجر الكريم الجنّة.

---

(١) البقرة: ٢.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه فقال: ﴿إنّا نحن نحي الموتى﴾ بعد أن أفنيناهم. ﴿ونكتب ما قدّموا﴾ من طاعاتهم ومعاصيهم في دار الدنيا، وهو قول مجاهد وقتادة ﴿وآثارهم﴾ قال مجاهد: يعني خطاهم إلى المساجد، لأنّ بني سلمة من الأنصار شكوا إلى رسول الله ﷺ بعد منازلهم من المسجد والصلاة مع رسول الله فنزلت فيهم الآية. وقيل: معناه وآثارهم الّتي تبقى بعدهم ويقتدى بهم فيها.

ثمّ قال: ﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ ومعناه أحصيناه في كتاب ظاهر، وهو اللوح المحفوظ. والوجه في إحصاء ذلك في إمام مبين اعتبار الملائكة به إذا قابلوا به ما يحدث من الأُمور، وكان فيه دليل على معلومات الله على التفصيل.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿واضرب لهم مثلاً﴾ معناه اذكر لهم مثلاً. وقيل: معناه مثّل لهم مثلاً، من قولهم: هؤلاء أضراب، أي أمثال. وقوله: ﴿أصحاب القرية﴾ قال عكرمة والفرّاء: هي أنطاكية[1]. ﴿إذ جاءها المرسلون﴾ أي حين بعث الله إليهم بالرسل ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين﴾ يعني رسولين. وقال قوم: كانا رسولي عيسى من حواريّه. وقال آخرون: كانا رسولين من رسل الله. وهو الظاهر ﴿فكذّبوهما﴾ أي جحدوا نبوّتهما.

﴿فعزّزنا بثالث﴾ أي فعزّزهما الله بثالث فيمن قرأ بالتشديد وشدّ ظهرهما به ـ في قول مجاهد وابن زيد ـ ومن خفّف أراد فغلب الله بثالث أرسله إليهم ﴿فقالوا﴾ لهم: يا أهل القرية ﴿إنّا إليكم مرسلون﴾ أرسلنا الله إليكم.

﴿قالوا﴾ لهم: ﴿ما أنتم إلّا بشر مثلنا﴾ أي ليس أنتم إلّا بشر أمثالنا،

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٧٣.

فدخلت عليهم الشبهة فاعتقدوا أنّه من حيث إنّهم أمثالهم في البشريّة لا يصلح أن يكونوا رسلاً كمالا يصلحون هم لذلك ﴿وما أنزل الرحمن من شيءٍ﴾ ممّا تذكرونه وتدعونا إليه.

﴿إن أنتم إلّا تكذبون﴾ أي ليس أنتم إلّا كاذبون على الله ومتخرّصون عليه في ادّعائكم الرسالة، وذهب عليهم[1] معنى ﴿اخترناهم على علم على العالمين﴾[2] وأنّه تعالى علم من حال هؤلاء صلاحهم للرسالة وتحمّلهم لأعبائها ولم يعلم ذلك من حالهم بل علم خلاف ذلك.

قوله سبحانه:

قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

لمّا حكى الله تعالى عن أهل القرية أنّهم قالوا للرسل: ﴿إن أنتم إلّا تكذبون﴾ في ادّعائكم الرسالة على الله حكى ما أجابهم به الرسل فإنّهم ﴿قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون﴾ ووجه الاحتجاج بذلك أنّه يلزمهم بقولهم الحذر من مخالفتهم والنظر في معجزاتهم ليعلموا أنّهم صادقون على الله، ففي ذلك تحذير شديد.

ثمّ قال الرسل لهم أيضاً: ﴿وما علينا إلّا البلاغ المبين﴾ أي ليس يلزمنا أكثر من البلاغ المبين، والمعنى أنّه لو جاءكم رسول غيرنا هل كان عليه إلّا البلاغ؟ على حدّ ما بلّغنا. و«البلاغ» مجيء الشيء إلى حدّ يقف عنده،

---

(١) كذا في الخطّيّة وفي الحجريّة: «ذهب عنهم».

(٢) الدخان: ٣٢.

بلغ الشيء يبلغ بلوغاً وبلاغاً، فهو بالغ. ومنه البلاغة، ومثل الإبلاغ الإفهام والإيصال. والمبين صفة للبلاغ، وهو الظاهر الّذي لا شبهة فيه.

فقالوا لهم في الجواب عن ذلك حين عجزوا عن إيراد شبهتم وعدلوا عن النظر في معجزهم: ﴿إنّا تطيّرنا بكم﴾ أي تشاءمنا بكم، و«التطيّر» التشاؤم. ثمّ هدّدوهم فقالوا: ﴿لئن لم تنتهوا﴾ عن ما تدّعونه من النبوّة والرسالة ﴿لنرجمنّكم﴾ بالحجارة، في قول قتادة. وقال مجاهد: معناه لنشتمنّكم. فالرجم الرمي بالحجارة، يقال : رجم يرجم رجماً، ورجّم بالغيب ترجيماً ﴿وليمسّنّكم منّا عذابٌ أليمٌ﴾ عند ذلك.

فقال لهم الرسل: ﴿طائركم معكم﴾ أي الشوم كلّه معكم بإقامتكم على الكفر بالله. وقال الفرّاء: معنى ﴿طائركم معكم﴾ أي أعمالكم في رقابكم تجازون عليها[1]. وقال المبرّد: معنى ﴿طائركم﴾ حظّكم ونصيبكم من الخير والشرّ، وهو قول أبي عبيدة[2]. و«الطِيَرَة» الشوم. ومنه قوله ﷺ: «لا عدوى ولا هامه ولا صفر ولا غول ولا طِيَرَة»[3]. وفلان لا يطير غرابه وهو ساكن الطائر: إذا كان ساكناً وقوراً، وفلان لا يطور بنا أي لا يقربنا، وما في الدار طوريّ ولا طورانيّ أي لا أحد. وعدا فلان طوره: إذا جاوز قدره.

وقوله: ﴿أئن ذكّرتم﴾ قرأه ابن كثير ونافع وأبو عمرو والمفضّل عن عاصم بهمزة بعدها ياء وهي همزة بين بين، والباقون بهمزتين مخفّفتين: إحداهما همزة الاستفهام، والأُخرى همزة «إن» وجواب «ائن ذكّرتم»

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٧٤. (٢) مجاز القرآن ٢: ١٥٩.

(٣) مسند أحمد بن حنبل ١: ٢٦٩، ٣: ٣٨٢.

محذوف وتقديره: أئن ذكّرتم قلتم هذا القول. وقال قوم: معناه أئن ذكرتم طائركم معكم. وقال قوم: جعله جزاء قدّم خبره عليه، لمّا كان غير مجزوم اللفظ. وقيل: أئن ذكرتم تطيّركم قلتم ما قلتم.

﴿بل أنتم قومٌ مسرفون﴾ على نفوسكم، لأنّكم تجاوزتم حدّ العصيان حين كفرتم بالله وبوحدانيّته. وقيل: كان اسم صاحب «يس» الّذي قتله قومه حبيب بن مري.

حكى الله تعالى أنّه ﴿جاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾ أي رجل من أبعد المدينة جاء يعدو ويشتدّ فقال: ﴿يا قوم اتّبعوا المرسلين﴾ الّذين أرسلهم الله إليكم وأقرّوا بنبوّتهم وبرسالتهم. وقرأ أبو جعفر ﴿أأنْ﴾ بفتح الهمزة الثانية، وبه قال زرّ بن حبيش، ومعناه لأن ذكّرتم، الباقون بكسرها. وقرأ أبو جعفر ﴿ذكرتم﴾ بالتخفيف، الباقون بتشديدها.

قوله تعالى:

ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِن بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

قرأ أبو جعفر ﴿إن كانت إلّا صيحةٌ﴾ بالرفع في الموضعين جعلها اسم كان، الباقون بالنصب على أنّها خبر كان.

لمّا حكى الله تعالى ما قال لهؤلاء الكفّار الرجل الّذي جاءهم من أقصى المدينة وأمرهم بأن يتّبعوا الرسل قال لهم أيضاً: ﴿اتّبعوا﴾ معاشر الكفّار ﴿مَن لا يسألكم أجراً﴾ أي لا يطلب الأجر والجزاء والمكافأة على ما يدعوكم إليه ويحثّكم عليه، وإنّما يدعوكم نصيحة لكم ﴿وَهُم﴾ مع ذلك ﴿مهتدون﴾ إلى طريق الحقّ سالكون سبيله.

ثمّ قال لهم الّذي وعظهم وحثّهم على طاعة الله واتّباع رسله: ﴿ومالي لا أعبد الّذي فطرني﴾ ومعناه ولِم لا أ عبد الله وأتّبع رسله، ومالي لا أعبد الّذي فطرني، ومعناه ولِم لا أ عبد الله الّذي خلقني وابتدأني وهداني ﴿وإليه ترجعون﴾ أي الّذي تردّون إليه يوم القيامة حيث لا يملك الأمر والنهي غيره.

ثمّ قال لهم منكراً على قومه عبادتهم غير الله: ﴿أأتّخذ﴾ أنا على قولكم ﴿من دون الله﴾ الّذي فطرني وأنعم عليَّ ﴿آلهة﴾ أعبدهم؟! فهذه همزة الاستفهام، والمراد بها الإنكار، لأنّه لا جواب لها على أصلهم إلّا ما هو منكر في العقول.

ثمّ قال: ﴿إن يردن الرحمن بضُرّ﴾ ومعناه ان أراد الله إهلاكي والإضرار بي لا ينفعني شفاعة هذه الآلهة شيئاً، ولا يقدرون على إنقاذي من ذلك الضرر، ولا يغنون عنّي شيئاً في هذا الباب، وإذا كانوا بهذه الصفة كيف يستحقّون العبادة؟!

ثمّ قال: ﴿إنّي إذاً لفي ضلالٍ مبينٍ﴾ معناه أي إذاً لو فعلت ما تفعلونه وتدعون إليه من عبادة غير الله أكن في عدول عن الحقّ واضح. والوجه في هذا الاحتجاج أنّ العبادة لا يستحقّها إلّا من أنعم بأُصول النعم ويفعل

من التفضّل مالا يوازيه نعم منعم، فإذا كانت هذه الأصنام لا يصحّ فيها ذلك كيف تستحقّ العبادة؟!

ثمّ قال مخبراً عن نفسه مخاطباً لقومه: ﴿إنّي آمنت﴾ أي صدّقت ﴿بربّكم﴾ الّذي خلقكم وأخرجكم من العدم إلى الوجود فاسمعوا منّي هذا القول. وقيل: إنّه خاطب الرسل بهذا القول ليشهدوا له بذلك عند الله.

وقال ابن مسعود: إنّ قومه لمّا سمعوا منه هذا القول وطؤه بأرجلهم حتّى مات. وقال قتادة: رجموه حتّى قتلوه. وقال الحسن: لمّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله إليه فهو في الجنّة، ولا يموت إلّا بفناء السماء وهلاك الجنّة، قال مجاهد: مثل ذلك. وقالا: الجنّة الّتي دخلها يجوز هلاكها. وقال قوم: إنّهم قتلوه إلّا أنّ الله أحياه وأدخله الجنّة. وقال الحسن: ﴿من بعده﴾ يعني من بعد رفعه. وقال غيره: من بعد قتله.

ثمّ حكى الله تعالى ما يقول الملائكة لهذا الداعي من البشارة له بعد موته فإنّهم يقولون له: ﴿ادخل الجنّة﴾ مثاباً مستحقّاً للثواب الجزيل على إيمانك بالله فيقول حينئذٍ: ﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربّي﴾ من الذنوب ﴿وجعلني من المكرمين﴾ عنده، فهذا المؤمن تمنّى أن يعلم قومه بما أعطاه الله تعالى فيرغبوا فيه ويؤمنوا به لينالوا مثله. و«الإكرام» هو إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم والتبجيل، وقد فاز من أكرمه الله بالرضوان، كما قال تعالى: ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ [1] لأنّه سبب يؤدّي إلى الجنّة.

ثمّ حكى ما قال وأنزل بهؤلاء الكفّار من العذاب والاستئصال، فقال:

---

(١) التوبة: ٧٢.

﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء﴾ أي كان إهلاكهم عن آخرهم بأيسر أمر: صيحة واحدة حتّى صاروا خامدين، ذكره ابن مسعود. ومعنى ﴿خامدين﴾ هالكين بتلف أنفسهم، والمعنى إنّا لم نستعن على إهلاكهم بإنزال الجند من السماء ﴿وما كُنّا منزلين﴾ لهم ليهلكوهم، وما كان إهلاكهم ﴿إلّا صيحةً واحدةً﴾ عظيمةً فحين سمعوها هلكوا من عظمها وماتوا من فزعها.

وقوله: ﴿يا حسرة على العباد﴾ قيل: هو قول الّذي جاء من أقصى المدينة، ذكره البلخي. وقال غيره: معناه يحتمل شيئين:

أحدهما: يا حسرة من العباد على أنفسهم، ذكره قتادة ومجاهد.

الثاني: أنّهم قد حلّوا محلّ من يتحسّر عليه، وقال ابن عبّاس: معناه يا ويلاً للعباد ﴿ما يأتيهم من رسولٍ﴾ أي ليس يأتيهم من رسول من عند الله ﴿إلّا كانوا به يستهزءُون﴾ أي يسخرون منه ويهزؤون به، والّذي حكى الله تعالى عنه مخاطباً قومه هو ما قدّمنا ذكره حبيب بن مري، في أقوال المفسّرين.

قوله تعالى:

أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ﴿لمّا﴾ بتشديد الميم، الباقون بتخفيفها. وقرأ أهل المدينة ﴿الميّتة﴾ بالتشديد، لأنّه يقال لما كان حيّاً ومات: ميّت

بالتشديد، ولما لم يكن حيّاً بالتخفيف، ذكره الفرّاء. وقرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿وما عملت﴾ بغير هاء، الباقون بالهاء.

من قرأ ﴿لما﴾ بالتخفيف فإنّه يكون «ما» في قوله: ﴿لمّا﴾ صلة مؤكّدة، وتكون «إن» هي المخفّفة من الثقيلة وتقديره: وإن كلّ لجميع لدينا محضرون.

ومن قرأ بالتشديد يحتمل شيئين:

أحدهما: أن يكون بمعنى «إلّا» وتقديره: وإن كلّ إلّا لجميع لدينا محضرون وتكون «إن» بمعنى الجحد، وكأنّه جحد دخل على جحد، فخرج إلى معنى الإثبات. ومثله في الاستعمال سألتك لما فعلت، بمعنى ألا فعلت.

والوجه الثاني: أن يكون معنى «لما» بمعنى «لمن ما» فحذفت إحدى الميمات، لأجل التضعيف، كما قال الشاعر:

غداةَ طفتْ علماء بكر بن وائلِ وعجنا صدورَ الخيلِ نحو تميم[١]

أراد على الماء ، فحذف لالتقاء المضاعف.

وأمّا «ما» في قوله: ﴿وما عملت أيديهم﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون بمعنى الجحد، وتقديره: ليأكلوا من ثمره، ولم تعمله أيديهم، ويقوّي ذلك قوله: ﴿أفرأيتم ما تحرثون * أ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[٢].

والثاني: أن يكون بمعنى الّذي.

والثالث: أن يكون مع ما بعده بمعنى المصدر، فعلى هذا يكون في موضع جرّ، وتقديره: ليأكلوا من ثمره ومن الّذي عملته أو من عمل أيديهم

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٤٣٩، ولم ينسبه لأحد.

(٢) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤.

من أنواع الطعوم الّذي أنبتوه والّذي غرسوه، ومن الّذي يطحنونه ويخبزونه، فمن أثبت الهاء أو حذفها تبع المصاحف، لأنّ المصاحف مختلفة. والهاء عائدة على «ما» و «عملت» صلتها. ومن حذف اختصر، لأنّها للمفعول به، وكلّ مفعول يجوز حذفه، كقوله: ﴿ما ودّعك ربّك وما قلى﴾ [١] يريد وما قلاك، ومثله ﴿منهم من كلّم الله﴾ [٢] يريد كلّمه الله، وكقوله: ﴿أهذا الّذي بعث الله رسولاً﴾ [٣] يريد بعثه الله.

يقول الله تعالى منبّهاً للكفّار على وجه الاستدلال على وحدانيّته بأن يقول: ﴿ألم يروا﴾ ومعناه ألم يعلم هؤلاء الكفّار ﴿كم أهلكنا قبلهم من القرون﴾ فمعنى ﴿كم﴾ هاهنا للتكثير. ويفسّرها ﴿من القرون﴾ وتقديره: ألم يروا كم قرناً أهلكنا قبلهم من القرون، وموضع ﴿كم﴾ نصب بـ﴿يروا﴾ في قول الكوفيّين. وعند البصريّين بـ﴿أهلكنا﴾ على تقدير: القرون أهلكنا أو أكثر ﴿أنّهم إليهم لا يرجعون﴾ ونصب ﴿أنّهم﴾ لأنّه مفعول ﴿ألم يروا﴾ وكسره الحسن على وجه الاستئناف.

ووجه الاحتجاج بذلك هو أنّه كأنّه قيل لهم: انظروا لِمَ لا يرجعون فإنّكم تجدون ذلك في قبضة مالكهم يردّهم في الآخرة إذا شاء ردّهم، لأنّه لا يخلو إهلاكهم إمّا بالاتّفاق من غير إضافة أو بالطبيعة أو بحيّ قادر، ولو كان بالاتّفاق أو بالطبيعة لم يمتنع أن يرجعوا إلى الدنيا. فإذا بطل ذلك ثبت أنّ إهلاكهم بحيّ قادر إذا شاء ردّهم وإذا شاء لم يردّهم. ووجه التذكّر بكثرة المهلكين أي أنّكم ستصيرون إلى مثل حالهم، فانظروا لأنفسكم واحذروا أن يأتيكم الإهلاك وأنتم في غفلة عمّا يراد بكم.

---

(١) الضحى: ٣. (٢) البقرة: ٢٥٣. (٣) الفرقان: ٤١.

والقرون جمع قرن وأهل كلّ عصر يسمّى قرناً، لاقترانهم في الوجود. والقرن ـ بكسر القاف ـ هو المقاوم في الحرب. ومنه قرن الشاة لمقارنته القرن الآخر، وكذلك كلّ ذي قرنين. وقال قتادة: ﴿أنّهم إليهم لا يرجعون﴾ عاد وثمود، وقرون بين ذلك كثيرة. ثمّ قال: وهؤلاء الّذين لا يرجعون كلّهم ﴿لدينا محضرون﴾ يوم القيامة يحضرهم الله ويبعثهم ليجازيهم على أعمالهم.

وقوله: ﴿وآية لهم﴾ على ذلك أي دلالة وحجّة قاطعة ﴿الأرض﴾ يعني هي الأرض الميتة القحطة المجدبة وهي الّتي لا تنبت ﴿أحييناها﴾ بالنبات ﴿وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون﴾ من أنواع ما يأكلون ﴿وجعلنا فيها﴾ أي وخلقنا في الأرض ﴿جنّاتٍ﴾ يعني بساتين ﴿من نخيل﴾ جمع نخل ﴿وأعناب﴾ جمع عنب ﴿وفجّرنا فيها﴾ في تلك الجنّات ﴿من العيون﴾ وهي عيون الماء تنبع فيها وتجري.

ثمّ بيّن أنّه إنّما خلق ذلك ﴿ليأكلوا من ثمره﴾ أي غرضنا نفعهم بذلك وانتفاعهم بأكل ثمار تلك الجنّات ﴿وما عملته أيديهم﴾ أي ولم تعمل تلك الثمار أيديهم إذا «ما» كانت بمعنى النفي، وإذا كانت معناها معنى الّذي يكون تقديره: والّذي عملته أيديهم من أنواع الأشياء المتّخذة من النخل والعنب وكثرة منافعه. وقوله: ﴿من ثمره﴾ ردّ الكناية إلى أحدهما كما قال: ﴿والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله﴾[1] وكما

---

(١) التوبة: ٣٤.

قال الشاعر:

نَـحنُ بـما عِـنْدنا وأَنتَ بـما    عِندَكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ[١]

وقوله: ﴿أفلا تشكرون﴾ معناه هلّا تشكرونه على هذه النعم الّتي عددتها.

قوله تعالى:

سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف[٢].

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وروح ﴿والقمر قدّرناه﴾ رفعاً على الاستئناف، لأنّ الفعل مشغول بالضمير العائد إلى القمر. وقال أبو عليّ: الأجود أن يكون رفعاً على تقدير: وآية لهم القمر قدّرناه، لأنّه أشبه بالجمل قبلها، ومن رفعه بالابتداء جعل ﴿لهم﴾ صفة للنكرة والخبر مضمر، وتقديره ﴿وآية لهم﴾ في المشاهدة أو الوجود، ويكون قوله: ﴿الليل نسلخ منه النهار﴾ تفسيراً للآية[٣]. الباقون بالنصب بتقدير فعل مضمر، ما بعده تفسيره، وتقديره: وقدّرنا القمر قدّرناه.

يقول الله تعالى منزّهاً نفسه ومعظّماً لها ودالاًّ بأنّه هو الّذي يستحقّ

(١) البيت منسوب إلى قيس بن الحظيم، راجع الشعر المنسوب إلى قيس من ديوانه: ٢٣٩، وقد تقدّم أيضاً في الجزء الثاني من التفسير: ١٢٤ والجزء الثالث أيضاً: ٣٨٢.

(٢) «بلا خلاف» لم يرد في الخطّيّة، أثبتناه من الحجريّة. (٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٠٧.

الحمد بما نبّه بقوله: ﴿سبحان الّذي﴾ أي تنزيهاً للّذي ﴿خلق الأزواج كلّها﴾ أي تعظيماً وتبجيلاً له بجميع ما خلق من الأزواج، وهي الأشكال، والحيوان على مشاكلة الذكر للأُنثى، وكذلك النخل والحبوب أشكال، والتين والكرم ونحوه أشكال، فلذلك قال: ﴿ممّا تنبت الأرض﴾ يعني من سائر النبات ﴿ومن أنفسهم﴾ من الذكر والأُنثى ﴿وممّا لا يعلمون﴾ ممّا لم يشاهدوه ولم يصل خبره إليهم.

ثمّ قال: ﴿وآية لهم﴾ يعني دلالة وحجّة على صحّة ذلك ﴿الليل نسلخ منه النهار﴾ أي نخرج منه النهار ﴿فإذا هم مظلمون﴾ أي داخلون في الظلمة لا ضياء لهم فيه بالشمس، فالسلخ إخراج الشيء من لباسه، ومنه إخراج الحيوان من جلده، يقال: سلخ يسلخ سلخاً فهو سالخ، ومنه قوله: ﴿فانسلخ منها﴾[1] أي فخرج منها خروج الشيء ممّا لابسه، ثمّ قال: ﴿والشمس تجري لمستقرّ لها﴾ آية أُخرى. وقيل في معنى المستقرّ: ثلاثة أقوال:

أحدها: لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا.

الثاني: قال قَتادة: لوقت واحد لها لا تعدوه ولا تختلف.

الثالث: إلى أبعد منازلها في الغروب. وقال المبرّد: معنى ﴿لمستقرّ لها﴾ أي إلى.

ومن: قال الشمس لا تستقرّ بل تتحرّك أبداً قال: معنى ﴿لمستقرّ لها﴾ أنّها كلّما انتهت إلى منقلب الصيف عادت في الرجوع، وإذا بلغت منقلب الشتاء عادت إلى الصعود. ثمّ قال: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي من قدّر الشمس على ذلك إلّا القادر الّذي لا يضام، العالم بما يفعله.

---

(١) الأعراف: ١٧٥.

ثمّ قال: ﴿والقمر قدّرناه﴾ فمن رفع عطف على قوله: ﴿والشمس تجري﴾ ومن نصب قدّر له فعلاً يفسرّه قوله: ﴿قدّرناه منازل﴾ كلّ يوم ينزل منزلاً غير المنزل الأوّل لا يختلف حاله إلى أن يقطع الفلك ﴿حتّى عاد كالعرجون القديم﴾ فالعرجون العذق الّذي فيه الشماريخ، فإذا تقادم عهده حتّى يبس وتقوّس، فشبّه الهلال به وقيل: إنّ العذق يصير كذلك في كلّ ستّة أشهر. وقيل: في كلّ سنة إذا جفّ وتقوّس. وقال الفرّاء: العرجون ما بين الشماريخ إلى المنابت في النخلة من العذق، والقديم الّذي أشرف على حول[1].

وقوله: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ حتّى يكون نقصان ضوئها كنقصان ضوء القمر. وقال أبو صالح: معناه لا يدرك أحدهما ضوء الآخر. وقيل معناه: ﴿لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر﴾ في سرعة سيره ﴿ولا الليل سابق النهار﴾ أي ولا يسبق الليل النهار. وقيل: إنّ أحدهما لا يذهب إلى معنى الآخر وكلّ على مقادير قدّرها الله عليه.

ثمّ قال: ﴿وكلّ في فلك يسبحون﴾ يعني الشمس والقمر والكواكب يسبحون في الفلك، وإنّما جمعه بالواو والنون لما أضاف إليها أفعال الآدميّين. وقيل: الفلك مواضع النجوم من الهواء الّذي يجري فيه. ومعنى يسبحون يسيرون فيه بانبساط. وكلّ ما انبسط في شيء فقد سبح فيه، ومنه السباحة في الماء.

قوله تعالى:

وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٧٨.

يَرْكَبُونَ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل المدينة وابن عامر ويعقوب ﴿ذرّياتهم﴾ على الجمع، الباقون ﴿ذرّيتهم﴾ على التوحيد.

يقول الله تعالى ممتنّاً على خلقه بضروب نعمه، ودالاًّ لهم على وحدانيّته بأن حمل ذرّيتهم في الفلك المشحون. وقيل: معنى ﴿حملنا ذرّيتهم﴾ أي قوّيناهم وهديناهم، كما يقول القائل: حملني فلان: إذا أعطاه ما يحمل عليه أو هداه إلى ما يحمل عليه. ومن جمع ﴿ذرّياتهم﴾ فلأنّ كلّ واحد له ذرّية. ومن وحّد فلأنّه لفظ جنس يدلّ على القليل والكثير، فالحمل منع الشيء أن يذهب إلي جهة السفل، يقال: حمله يحمله حملاً، فهو حامل والشيء محمول.

و«الذرّية» فعلية من الذرّ. وقيل: هو مشتقّ من «الذرء» الّذي هو الخلق. وقد بيّنّاه في ما مضى. و«الفلك» السفن، لأنّها تدور في الماء، ومنه الفلكة لأنّها تدور بالمغزل، والفلك لأنّه يدور بالنجوم، وفلك ثدي المرأة إذا استدار. و«المشحون» المملوء يقال: شحنت الثغر بالرجال أشحنه شحناً: إذا ملأته، ومنه الشحنة، لأنّه يملأ بهم البلد.

وإنّما خصّ الذرّية ـ وهم الصبيان والنساء ـ باللفظ لأنّهم لا قوّة لهم على السفر كما يقوى الرجال، فسخّر الله لهم السفن بما جعلها على الماء وعدل الريح ليمكن الحمل في البحر، وجعل الإبل في البرّ. وقال قَتادة والضحّاك: المعني بقوله: ﴿حملنا ذرّيتهم في الفلك المشحون﴾ سفينة نوح.

وقال ابن عبّاس ﴿المشحون﴾ الموقد. وقوله ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ قال ابن عبّاس يعني السفن بعد سفينة نوح. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس وهو قول مجاهد: إنّ المراد به الإبل وهي سفن البرّ.

وقوله: ﴿وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم﴾ معناه أنّا لو شئنا إذا حملناهم في السفن أن نغرقهم فعلنا ﴿فلا صريخ لهم﴾ أي لا مغيث لهم ولا صارخ بالاستغاثة، قال الشاعر:

كنّا إذا ما أتانا صارخٌ فَزِع كانَ الصراخُ له قَرْعَ الظنابيبِ[1]

أي لا شيء إغاثته[2] والجدّ في نصرته. و«الظنبوب» عظم الساق. وقيل: معنى الصريخ المعين عند الصراخ بالاستغاثة، وكأنّه قال: لا معين لهم يعينهم عند ذلك. ﴿ولا هم ينقذون﴾ أي ولا يخلّصون أيضاً من الغرق إذا أردناه.

وقوله ﴿إلّا رحمة منّا﴾ معناه إلّا أن نرحمهم رحمة منّا ونمتّعهم ﴿متاعاً﴾ ويحتمل إلّا لرحمة منّا، فيكون مفعولاً له. و﴿إلى حين﴾ أي إلى وقت ماقدّرناه لإهلاكهم وتقضّي آجالهم، ونخلّصهم في الحال من أهوال البحر.

وقوله: ﴿وإذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم﴾ قال قَتادة: معناه اتّقوا ما بين أيديكم من عذاب الله لمن خلا قبلكم اتّقوا مثله باجتناب معاصيه ﴿وما خلفكم﴾ من أمر الساعة ﴿لعلّكم ترحمون﴾ لكي ترحموا عند ذلك وحذف الجواب. كأنّه إذا قيل لهم هذا أعرضوا.

---

(١) أنشده الأزهري في تهذيب اللغة ١٤: ٣٩٠، مادّة «ظنب» ونسبه إلى سلامة بن جندل، وفيه «إنّا» بدل «كنّا».

(٢) كذا في الخطّية، وفي الحجريّة «لا شيء أعانته الجدّ في نصرته».

وقال مجاهد: معنى ﴿ما بين أيديكم﴾ هو ما يأتي من الذنوب اجتنبوه في المستقبل ﴿وما خلفكم﴾ يعني مامضى من ذنوبكم تلافوه بالتوبة لترحموا.

قوله تعالى:

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يخصّمون﴾ بفتح الخاء وتشديد الصاد إلّا أنّ أبا عمرو يختلس حركة الخاء، وقرأ نافع بفتح الياء وتسكين الخاء مشدّدة الصاد يجمع بين ساكنين، وقرأ ابن عامر وعاصم والكسائي بفتح الياء وكسر الخاء وتشديد الصاد، وقرأ حمزة بفتح الياء وتسكين الخاء وتخفيف الصاد. فمعنى هذه القراءة: وهم يخصمون عند أنفسهم في دفع النشأة الثانية، والقراءتان الأُوليتان بمعنى يختصمون، فأُدغمت الياء في الصاد بعد أن أُسكنت. فمن أسكن الخاء فلأنّها في الأصل ساكنة، ومن فتحها نقل حركة الياء إليها. ومن كسر الخاء أتبع كسرتها كسرة الصاد. وفي القرّاء من كسر الياء إتباعاً لكسرة الكسرة، كما قالوا: يِهدّي، وهو يجيء عن أبي بكر.

يقول الله تعالى مخبراً عن عناد هؤلاء الكفّار وشدّة جهلهم بأنّه ﴿ما تأتيهم من آية﴾ أي دلالة وحجّة من حجج الله و«من» تزاد في النفي إذا أُريد بها الاستغراق، كقولهم: ما جاءني من أحد، ومعناه ما جاءني أحد. و«من» الثانية للتبعيض؛ لأنّه ليس كلّ آيات الله جاءتهم، غير أنّه تعالى

قال: ليس تأتيهم آية أيّ آية كانت ﴿من آيات ربّهم إلّا كانوا﴾ هؤلاء الكفّار ﴿عنها معرضين﴾ أي ذاهبين عنها وتاركين لها ومعرضين عن النظر فيها، وكلّ من اعرض عن الداعي إلى كتاب الله وآياته الّتي نصبها لعباده ليعرفوه بها فقد ضلّ عن الهدى وخسر الدنيا والآخرة.

ثمّ أخبر تعالى أنّه إذا قيل لهم أيضاً: ﴿انفقوا ممّا رزقكم الله﴾ في طاعته وأخرجوا ما أوجب الله عليكم في أموالكم ـ من الزكوات وغيرها ـ وضعوها في مواضعها ﴿قال الّذين كفروا﴾ بوحدانيّة الله وجحدوا ربوبيّته وكذّبوا بنبيّه: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه﴾ احتجاجاً منهم في منع الحقوق، بأن يقولوا: كيف نطعم مَن الله تعالى قادر على إطعامه؟! ولو شاء إطعامه أطعمه، فإذا لم يطعمه دلّ على أنّه لم يشأ إطعامه فنحن إذاً أحقّ بذلك. وذهب عليهم أنّ الله تعبّدهم بذلك، لما فيه من المصلحة واللطف في فعل الواجبات وترك المقبّحات، فلذلك كلّفهم إطعام غيرهم.

و«الرزق» هو ما خلق الله لخلقه لينتفعوا به على وجه لا يكون لأحد منعه منه. فعلى هذا الوجه لا يكون الحرام رزقاً، فإنّ الله تعالى قد منع منه بالنهي، وقد سمّي رزقاً ما يصلح للانتفاع به مجازاً، فعلى هذا ليس كلّ ما رزقه الله العبد جعل له الإنفاق منه والتصرّف فيه، وعلى الأوّل ـ وهو الأصحّ ـ جعل له ذلك.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ قل لهم يا محمّد: ﴿إن أنتم إلّا في ضلال مبين﴾ أي ليس لكم هداية وما أنتم إلّا في ذهاب عن الحقّ، وعدول عنه بيّن، فعلى هذا: هو من قول الله تعالى[1]. وقال قوم: هو من قول المشركين كأنّهم لمّا

---

(١) كذا في الخطّيّة، وفي الحجريّة: «فعلى هذا قول من قال: هو من قول الله تعالى صحيح».

قالوا: أنطعم من لو يشاء الله أطعمه؟ قالوا لرسله: ليس أنتم إلّا في ضلال مبين في ما تدعونا إليه.

ثمّ أخبر تعالى عن الكفّار أنّهم ﴿يقولون متى هذا الوعد﴾ الّذي تعدنا به من نزول العذاب بنا استهزاء بخبره ﷺ وخبر المؤمنين وتجرّياً على الله ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ما تدعونا إليه وتخوّفونا منه.

فقال الله تعالى في جوابهم: ﴿ما ينظرون﴾ أي لا ينتظرون ﴿إلّا صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يخصّمون﴾ في هل ينزل العذاب بهم أم لا؟ وإنّما جعلهم منتظرين لمّا قالوا: متى هذا الوعد، لأنّ من يلتمس الوعد يكون منتظراً لما وعد به تأخذهم في حال خصامهم ﴿فلا يستطيعون توصيةً﴾ أي لا يقدر بعضهم على أن يوصي إلى بعض ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾ أي لا يردون إلى أهلهم فيوصون إليهم.

والصيحة الّتي تأخذهم هي الصيحة الأُولى في الدنيا عند قيام الساعة ﴿تأتيهم بغتة﴾[1] والرجل يسقي أبله وآخر يبيع سلعته على عادتهم في تصرّفاتهم، فإذا أخذتهم ونزلت بهم لم يستطيعوا توصية ولم يرجعوا إلى أهلهم للمعاجلة. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «هي ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيام لربّ العالمين»[2].

قوله تعالى:

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا

(١) الأنبياء: ٤٠. (٢) تفسير الطبري ١٠: ٤٤٩.

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾* أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو ﴿في شغل﴾ خفيفة، الباقون بضمّ الغين مثقّلة وهما لغتان. وقرأ أبو جعفر ﴿فكهون﴾ بغير ألف حيث وقع، وافقه حفص والداجوني عن ابن ذكوان في ﴿المطفّفين﴾. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿في ضلل﴾ على أنّه جمع ظلّة مثل ظلمة وظلم وتحفة وتحف، الباقون ﴿في ظلال﴾ مثل برمة وبرام، وقلّة وقلال. وقيل: هو جمع ظلّ وضلال، وهو الكنّ، كما قال: ﴿يتفيّؤا ظلاله﴾[1] وقال أبو عبيدة: هو جمع الظِلّ أظلال[2].

يقول الله تعالى مخبراً: ﴿ونفخ في الصور﴾ وقيل: إنّ الصور قرن ينفخ فيه إسرافيل، فيخرج من جوفه صوت عظيم يميل العباد إليه، لأنّه كالداعي لهم إلى نفسه.

وقال أبو عبيدة: الصور جمع صورة مثل بُسرة وبُسْر، ولو جعلوه مثل «ظلمة وظُلَم» لقالوا: صُوَر بفتح الواو[3]. وهو مشتقّ من الميل، صاره يصوره صوراً: إذا أماله، ومنه قوله: ﴿فصرهُنّ إليك﴾[4] أي: أملهنّ إليك، ومنه الصورة، لأنّها تميل إلى مثلها بالمشاكلة. وقوله: ﴿فإذا هم من الأجداث﴾ وهو جمع جدث، وهو القبر، فلغة أهل العالية بالثاء، ولغة أهل السافلة بالفاء يقولون: جدف إلى ربّهم ينسلون أي يسرعون. و«النسول»

---

(١) النحل: ٤٨. (٢ و٣) مجاز القرآن ٢: ١٦٤. (٤) البقرة: ٢٦٠.

الإسراع في الخروج، كما قال الشاعر:

عَسَلانَ الذئبِ أمسى قارباً ... بردَ الليلُ عـليه فَـنَسلْ[١]

يقال: نسل ينسل وينسل نسولاً، قال امرؤ القيس:

وإنْ تكُ قد ساءَتكِ منّي خَـليقَةٌ ... فسُلّي ثيابي مِـن ثـيابِكِ تَـنْسُلِ[٢]

وقال قَتادة: الموتة بين النفختين. ثمّ حكـى مـا يـقول الخـلائق إذا حشروا فإنّهم يقولون ﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ أي من حشـرنا مـن مـنامنا الّـذي كـنّا فـيه نـياماً، ثـمّ يـقولون: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ في ما أخبرونا عن هذا المقام وعن هذا البعث.

فإن قيل: هذا ينافي قول المسلمين الّذين يقولون: الكافر يعذّب فـي قبره، لأنّه لو كان معذّباً لما كان في المنام!.

قيل: يحتمل أن يكون العذاب في القبر ولا يـتّصل إلى يـوم البـعث، فتكون النومة بين الحالين. ويحتمل لو كان متّصلاً أن يكون ذلك عـبارة عن عظم ما يشاهدونه ويحضرون فيه يوم القيامة، فكأنّهم كانوا قبل ذلك في مرقد. وإن كانوا في عذاب لما كان قليلاً بالإضافة إلى الحاضر.

وقال قَتادة: قوله: ﴿هذا ما وعد الرحمن﴾ حكاية قول المؤمن. وقـال ابن زيد والجبّائي: هو قول الكفّار. وهو أشبه بالظاهر، لأنّه تعالى حكى عنهم أنّهم يقولون: يا ويلنا، والمؤمن لا يدعو بالويل لعلمه بماله من نعيم الجنّة. وقال الفرّاء: هو من قول الملائكة[٣].

وقال تعالى مخبراً عن سرعة بعثهم وسرعة اجـتماعهم: ﴿إن كانت إلّا

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٤٢، ونسبه إلى الجعدي.

(٢) ديوان امرئ القيس: ٣٧.

(٣) معاني القرآن ٢: ٣٨٠.

صيحةً واحدة﴾ والمعنى ليست المدّة إلّا مدّة صيحة واحدة ﴿فإذا هم جميع لدينا محضرون﴾.

ثمّ حكى تعالى ما يقوله ـ عزّ وجلّ ـ يومئذٍ للخلائق فإنّه يقول لهم: ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ أي لا ينقص من له حقّ من حقّه شيئاً من ثواب أو عوض أو غير ذلك. ولا يفعل به ما لا يستحقّه من العقاب بل الأُمور جارية على العدل ﴿ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون﴾ ومعناه لا يجازى الإنسان إلّا على قدر عمله، إن كان عاملاً بالطاعة جوزي بالثواب، وإن كان عاصياً جوزي بالعقاب على قدر عمله من غير زيادة عليه ولا نقصان، إلّا أن يتفضّل الله بإسقاط عقابه.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون﴾ يعني يشغلهم النعيم الّذي يغمرهم بسروره عن غيره[1]. وقال ابن مسعود وابن عبّاس: الشغل كناية عن افتضاض الأبكار. وقيل: استماع الألحان.

﴿فاكهون﴾ قال ابن عبّاس: معناه فرحون. وقال مجاهد: عجبون. وقيل: ذو فاكهة، كما يقال: لاحم شاحم أي ذو لحم وشحم، وعاسل ذو عسل، قال الحطيئة:

وأغـررتني وَزَعـمْت أنّـ ... ـك لابنٌ في الصيف تأمر[2]

أي: ذو لبن وتمر. وقيل: فاكه وفكه مثل حاذر وحذر. والفكه الّذي يتمرّى بالشيء.

ثمّ أخبر عن حال أهل الجنّة فقال: ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك﴾ فالأزواج جمع زوجة، وهي حرّة الرجل الّذي يحلّ له وطؤها.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٨٠.

(٢) ديوان الحطيئة: ٣٣.

ويقال للمرأة: زوج أيضاً بغير هاء في الموضع الّذي لا يلتبس بالذكر. و«الظلال» الستار عن وهج الشمس وسمومها. فأهل الجنّة في مثل ذلك الحال في الطيبة مثل الظلال الّذي لا حرّ فيه ولا برد. وقيل: الظلّ الكِنّ وجمعه ظلال. وقيل: هو جمع ظلّة وظلال، مثل قلّة وقلال. ومن قرأ ظلل فعلى وزن ظلمة وظلم، وقلّة وقلل. و«الأرائك» جمع أريكة وهي الوسادة، وجمعها وسائد، ويجمع أيضاً أرك كقولهم: سفينة وسفن وسفائن. وهذه جلسة الملوك العظماء من الناس. وقيل الأرائك الفرش، قال ذوالرمّة:

خدوداً جَفَتْ في السيرِ حتّى كأنّما يُباشرنَ بالمَعزاء مَسَّ الأرائِكِ[١]

وقال عكرمة وقَتادة: الأرائك الحجال على السرر ﴿متّكئونَ﴾ فمتّكئ مفتعل من توكّأت، إلّا أنّ الواو أبدلت تاء. ثمّ قال: ﴿لهم فيها﴾ في الجنّة ﴿فاكهةٌ ولهم ما يدّعون﴾ أي ما يتمنّون. وقال أبو عبيدة: يقول العرب: ادّعِ على ما شئت أي: تمنَّ ما شئت[٢]. وقيل: معناه إنّ من ادّعى شيئاً فهو له بحكم الله تعالى، لأنّه قد هذبت طباعهم، فلا يدّعون إلّا ما يحسن منهم.

وقوله: ﴿سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم﴾ معناه ولهم سلام قولاً من ربّ رحيم يسمعونه من الله تعالى، ويؤذنهم بدوام الأمن والسلامة ودوامهما مع سبوغ النعمة والكرامة.

ثمّ يقول للعصاة: ﴿امتازوا اليوم أيّها المجرمون﴾ ومعناه انفصلوا معاشر العصاة وامتازوا الّذين اجترموا وارتكبوا المعاصي من جملة المؤمنين. وقال قَتادة: معناه اعتزلوا معاشر العصاة عن كلّ خير، يقال: تميّز الشيء تميّزاً وميّزته تمييزاً، وانماز انميازاً.

---

(١) ديوان ذي الرمّة: ٥٨١.

(٢) مجاز القرآن ٢: ١٦٤.

ثمّ حكى ما يقول تعالى لهم فإنّه يقول لهم: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم﴾ يعني على لسان أنبيائه ﴿أن لا تعبدوا الشيطان﴾ فجعل عبادتهم للأوثان بأمر الشيطان عبادة له ﴿إنّه لكم عدوّ مبين﴾ أي وقلت لكم: إنّ الشيطان لكم عدوّ مبين، أي ظاهرة عداوته لكم.

قوله تعالى:

وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس ﴿جبلاً﴾ بضمّ الجيم والباء خفيفة اللام، وقرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بكسر الجيم والباء مشدّدة. وقرأ أبو عمروٍ وابن عامر بضمّ الجيم ساكنة الباء خفيفة. هذه كلّها لغات والمعنى واحد. قال التوزي يقال: جُبُلاً وجُبُلا وجِبْلاً وجَبْلاً. وحكى غيره التشديد.

لما حكى الله تعالى ما يقوله الكفّار يوم القيامة ويواقفهم عليه من أنّه عهد إليهم ألّا يعبدوا الشيطان وأنّه عدوّهم حكى أنّه كان أمرهم أيضاً بأن يعبدوا الله وأنّ عبادته صراط مستقيم، فوصف عبادته تعالى بأنّه طريق مستقيم من حيث كان طريقاً مستقيماً إلى الجنّة، وأنّه لا تخليط فيه ولا تعريج.

ثمّ قال: ﴿ولقد أضلّ منكم﴾ يعني أضلّ عن الدين الشيطان منكم ﴿جبلاً كثيراً﴾ أي خلقاً كثيراً وإضلاله إيّاهم هو إغواؤه لهم، كما أضلّ السامري

قوم موسى لمّا دعاهم إلى عبادة العجل، فكان الإضلال على هذا الوجه قبيحاً. فأمّا إضلال الله تعالى للكفّار عن طريق الجنّة إلى طريق النار أو إضلالهم بمعنى الحكم عليهم بالضلال فهو حسن. وأمر الشيطان بالضلال الّذي يقع معه القبول إضلال كما يسمّى الأمر بالاهتداء الّذي يقع عنده القبول هدى.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة في إرادة الله إضلالهم، لأنّ ذلك أضرّ عليهم من إرادة الشيطان وأشدّ عليهم في إيجاد العداوة قبل أن يكفروا.

و«الجُبْل» الجمع الّذين جُبِلُوا على خليقة، وجُبِلُوا أي طُبِعُوا. وأصل الجَبل الطبع، ومنه جبلت التراب بالماء: إذا صيّرته طيناً يصلح أن يطبع فيه، ومنه الجَبَل لأنّه مطبوع على الثبات. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أنّه يغويكم ويصدّكم عن دين الحقّ فتنتبهون عليه، فهو بصورة الاستفهام ومعناه الإنكار عليهم والتبكيت لهم.

ثمّ يقول الله لهم: ﴿هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون﴾ بها في دار التكليف حاضرة تشاهدونها ﴿اصلوها اليوم بماكنتم تكفرون﴾ معناه الزموا العذاب بها.

وأصل الصلو اللزوم، فمنه المصلّي الّذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره، والصلوان مكتنفاً ذنب الفرس للزومها وموضعها، وقولهم: صلى على عادتها للزومه الدعاء، وسمّيت الصلاة صلاة للزوم الدعاء فيها. وقوله: ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أي جزاء على كفركم بالله وجحدكم لوحدانيّته وتكذيبكم أنبياءه.

ثمّ أخبر تعالى بأنّه يختم على أفواه الكفّار يوم القيامة فلا يقدرون

على الكلام والنطق ﴿وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾ قيل في معنى شهادة الأيدي قولان:

أحدهما: أنّ الله تعالى يخلقها خلقة يمكنها أن تتكلّم وتنطق وتعترف بذنوبها.

والثاني: أنّه يجعل الله فيها كلاماً، ونسبه إليها لما ظهر من جهتها. وقال قوم: إنّه يظهر فيها من الأمارات ما تدلّ على أنّ أصحابها عصوا وجنوا بها أقبح الجنايات فسمّى ذلك شهادة، كما يقال: عيناك تشهد لسهرك، وقال الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قَطْني مهلاً رُوَيداً قد ملأتَ بطني[1]

وغير ذلك ممّا قد بيّنّاه في ما تقدّم، وكلّ ذلك جائز، وقال آخر:

وقالتْ له العَينانِ سمعاً وطاعةً وحدّرتا كالدرّ لمّا يثقبِ[2]

قوله تعالى:

وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿مكاناتهم﴾ على الجمع، الباقون على التوحيد، لأنّه يدلّ على القليل والكثير. وقرأ عاصم وحمزة ﴿ننكّسه﴾ بضمّ النون

---

(١) أنشده الجوهري في الصحاح ٣: ١١٥٣، مادّة «قطط».

(٢) أنشده ابن جني في الخصائص ١: ٢٢، وفيه: «وأبدت كمثل الدرّ» بدل «وحدّرتا كالدرّ».

الأُولى وفتح الثانية وتشديد الكاف، الباقون بفتح النون الأُولى وتخفيف الثانية وتخفيف الكاف، وهما لغتان تقول: نكّست ونكست، مثل ردّدت ورددت، غير أنّ التشديد للتكثير، والتخفيف يحتمل القليل والكثير. وقال أبو عمرو بالتشديد إن ترك الرجل من دأبه[1] وبالتخفيف أن يردّه إلى أرذل العمر، ففرّق بينهما.

وقرأ نافع وأبو جعفر والداجوني عن هشام والنقّار ويعقوب ﴿أفلا تعقلون﴾ بالتاء، الباقون بالياء، والأوّل على الخطاب، والثاني على الخبر عن الغائب. وقرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿لتنذر﴾ بالتاء، الباقون بالياء.

يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته على إهلاك هؤلاء الكفّار الّذين جحدوا وحدانيّته وعبدوا سواه وجحدوا رسله: إنّا ﴿لو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ قال ابن عبّاس: معناه إنّا لو شئنا أعميناهم عن الهدى. وقال الحسن وقَتادة: معناه لتركناهم عمياً يتردّدون. «والطمس» محو الشيء حتّى يذهب أثره، فالطمس على العين كالطمس على الكتاب، ومثله الطمس على المال: إذهابه حتّى لا يقع على إدراكه.

﴿فاستبقوا الصراط﴾ ومعناه طلبوا النجاة والسبق إليها ولا بصر لهم ﴿فأنّى يبصرون﴾ وقيل: معناه فاستبقوا الطريق إلى منازلهم فلم يهتدوا إليها. وقال ابن عبّاس: معناه طلبوا طريق الحقّ وقد عُموا عنها. والطمس على العين إذهاب الشقّ الّذي بين الجفنين، كما تطمس الريح الأثر يقال: أعمى مطموس، وطمس أي: عمي ﴿فاستبقوا﴾ معناه فابتدروا، وهذا بيان من الله أنّهم في قبضته، وهو قادر على ما يريد بهم، فليحذروا تنكيله بهم.

---

(١) كذا في الحجريّة، وفي الخطّيّة: من دابّة.

ثمّ قال زيادة في التحذير والإرهاب: ﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم﴾ و«المسخ» قلب الصورة إلى خلقة مشوّهة كما مسخ قوماً قردة وخنازير. والمسخ نهاية التنكيل. وقال الحسن وقَتادة: معناه لمسخناهم على مقعدهم على أرجلهم. و«المكانة» و«المكان» واحد. ولو فعلنا بهم ذلك ﴿فما استطاعوا مضيّاً﴾ أي لما قدروا أن يذهبوا أصلاً ولا أن يجيئوا.

ثمّ قال: ﴿ومن نعمّره ننكّسه في الخلق﴾ معناه أنّ من طوّلنا عمره نصيّره بعد القوّة إلى الضعف وبعد زيادة الجسم إلى النقصان وبعد الجدّة والطراوة إلى البلى والخلاقة. وقيل معناه: نصيّره ونردّه إلى حال الهرم الّتي تشبه حال الصبيّ وعزوب العلم وضعف القوى، ذكره قَتادة.

وقوله: ﴿أفلا يعقلون﴾ يعني ما ذكرناه بأن يفكّروا فيعرفوا صحّة ما قلناه.

ثمّ أخبر تعالى عن نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وما علّمناه الشعر وما ينبغي له﴾ ومعناه ما علّمناه الشعر لأنّا لو علمناه ذلك لدخلت به الشبهة على قوم في ما أتى به من القرآن وأنّه قدر على ذلك لما في طبعه من الفطنة للشعر. وقيل: لمّا لم يعط الله نبيّه العلم بالشعر وإنشائه لم يكن قد علّمه الشعر، لأنّه الّذي يعطي فطنة ذلك من يشاء من عباده.

ثمّ قال: ﴿إن هو إلّا ذكر وقرآن مبين﴾ يعنى ليس الّذي أنزلناه عليه شعراً بل ليس إلّا ذكر من الله. ﴿وقرآن مبين﴾ يعني واضح، وفعلنا ذلك وغرضنا أن تنذر به، أى تخوّف به من معاصي الله ﴿من كان حيّاً﴾ قيل: معناه من كان مؤمناً، لأنّ الكافر شبّهه ومثّله بالأموات في قوله: ﴿أموات غير أحياء﴾ [1]

---

(١) النحل: ٢١.

ويقوّيه قوله: ﴿ويحقّ القول على الكافرين﴾.

ويجوز أن يكون أراد من كان حيّاً عاقلاً دون من كان جماداً لا يعقل، ويحقّ القول على الكافرين إذا لم يقبلوه وخالفوا فيه.

ومن قرأ بالتاء وجّه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّه الّذي يخوّف، ومن قرأ بالياء معناه أنّ الله الّذي يخوّفهم ويرهبهم بالقرآن لأنّه الّذي أنشأه، ويجوز أن يكون القرآن هو الّذي ينذر من حيث تضمّن الإنذار.

قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ خمس آياتٍ بلا خلاف.

يقول الله تعالى منبّهاً لخلقه على الاستدلال على معرفته: ﴿أولم يروا﴾ ومعناه أولم يعلموا ﴿أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاماً﴾ ومعناه أنّا عملناه من غير أن نكله إلى غيرنا، فهو بمنزلة ما يعمله العباد بأيديهم في أنّهم تولّوا فعله ولم يكلوه إلى غيرهم، وتقديره: أنّا تولّينا خلق الانعام منفعة لهم بأنفسنا. و«الأنعام» جمع النعم، وهي الإبل والبقر والغنم.

﴿فهم لها مالكون﴾ معناه لو لم نخلق ذلك لما صحّ ملكهم لها، وكذلك سائر أملاك العباد بهذه الصفة فهو المنعم على عباده بكلّ ما ملكوه، وبحسب ما ينتفعون به يكون حاله حال المنعم.

و«اليد» في اللغة على أربعة أقسام: أحدها: الجارحة. والثاني: النعمة. والثالث: القوّة. والرابع: بمعنى تحقيق الإضافة. تقول: له عندي يد بيضاء:

أي نعمة، وتلقى قولي باليدين: أي بالقوّة والتقبّل، وقول الشاعر:

دَعَوْتُ لِما نـابَني مِسْـوَرَاً فَلَبَّى فَلَبَّى يَدَيْ مِسْوَرِ[1]

فهذا بمعنى تحقيق الإضافة، وتقول: هذا ما جَنَتْ يدك، وما كسبت يدك: أي ما كسبت أنت.

وقوله: ﴿وذلّلناها لهم﴾ فتذليل الأنعام تسخيرها بالانقياد ورفع النفور، لأنّ الوحشي من الحيوان نفور، والإنسي مذلّل بما جعله الله فيه من الأُنس والسكون، ورفع عنه من الاستيحاش والنفور.

وقوله: ﴿فمنها ركوبهم ومنها يأكلون﴾ قسمة الأنعام، فإنّ الله تعالى جعل منها ما يركب ومنها ما يذبح وينتفع بلحمه ويؤكل. فالرَكوب ـ بفتح الراء ـ صفة، يقال: دابّة ركوب: أي تصلح للركوب. والرُكوب ـ بضمّ الراء ـ مصدر ركبت، وقرأت عائشة ﴿فمنها ركوبتهم﴾ مثل الحلوبة.

وقوله: ﴿ولهم فيها منافع ومشارب﴾ فمن منافعها لبس أصوافها وشرب ألبانها وأكل لحومها وركوب ظهورها إلى غير ذلك من أنواع المنافع الكثيرة فيها. ثمّ قال: ﴿أفلا يشكرون﴾ الله على هذه النعم المختلفة المتقنة.

ثمّ أخبر تعالى عن حال الكفّار فقال: ﴿واتّخذوا من دون الله آلهةً لعلّهم ينصرون﴾ يعبدونها لكي ينصروهم. ثمّ قال تعالى: ﴿فلا يستطيعون نصرهم﴾ يعني هذه الآلهة الّتي اتّخذوها وعبدوها لا تقدر على نصرهم والدفع عنهم ما ينزل بهم من عذاب الله.

﴿وهم لهم جند محضرون﴾ ومعناه أنّ هذه الآلهة معهم في النار محضرون، لأنّ كلّ حزب مع ما عبد من الأوثان في النار، كما قال: ﴿إنّكم

---

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ١: ٣٥٢، ولم ينسبه لأحد.

وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم﴾[١] إلّا من استثناه بقوله: ﴿إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾[٢] فأمّا الأصنام فإنّ الله تعالى يجعلها مع من عبدها في النار. فلا الجند يدفعون عنها الإحراق بالنار ولا هم يدفع عنهم العذاب. وقال قَتادة: يعني ﴿وهم لهم جند محضرون﴾ أي وهم يغضبون للأوثان في الدنيا.

قوله تعالى:

فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ثمان آياتٍ بلا خلاف.

قرأ رويس ﴿يقدر﴾ بالياء وجعله فعلاً مستقبلاً. وقرأ الكسائي وابن عامر ﴿فيكون﴾ نصباً عطفاً على ﴿أن نقول... فيكون﴾ الباقون بالرفع بتقدير: فهو يكون.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه ﷺ على وجه التسلية له عن تكذيب قومه إيّاه، فقال: ﴿فلا يحزنك قولهم﴾ وضمّ الياء نافع. وحزن وأحزن لغتان. و«الحزن» ألم القلب بما يرد عليه ممّا ينافي الطبع، ومثله الغمّ، وضدّه

---

(١) الأنبياء: ٩٨.

(٢) الأنبياء: ١٠١ و١٠٢.

السرور والفرح. والمعنى في صرف الحزن عن النبيّ صلى الله عليه وآله في كفر قومه هو أنّ ضرر كفرهم عائد عليهم، لأنّهم يعاقبون به دون غيرهم.

ثمّ قال: ﴿إنّا نعلم ما يسرّون وما يعلنون﴾ أي ما يظهرونه وما يبطنونه فنجازي كلّاً منهم على قدره، لا يخفى علينا شيء منها.

ثمّ قال منبّهاً لخلقه على الاستدلال على صحّة الإعادة والنشأة الثانية، فقال: ﴿أولم ير الإنسان﴾ ومعناه أولم يعلم ﴿أنّا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ﴾ ومعناه أنّا نقلناه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقاً سويّاً وجعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن أُمّه وربّيناه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلّماً خصيماً عليماً، فمن قدر على جميع ذلك كيف لا يقدر على الإعادة، وهي أسهل من جميع ذلك؟!

ولا يجوز أن يكون خلق الإنسان ولا خالق له، ولا أن يكون واقعاً بالطبيعة، لأنّها في حكم الموات في أنّها ليست حيّة قادرة، ومن كان كذلك لا يصحّ منه الفعل ولا أن يكون كذلك بالاتّفاق، لأنّ المحدث لابدّ له من محدث قادر، وإذا كان محكماً فلابد من كونه عالماً.

وفي الآية دلالة على صحّة استعمال النظر، لأنّ لله تعالى أقام الحجّة على المشركين بقياس النشأة الثانية على النشأة الأُولى، وأنّه يلزم من أقرّ بالأُولى أن يقرّ بالثانية.

ثمّ حكى تعالى عن بعض الكفّار أنّه ﴿ضرب لنا﴾ أي ضرب لله ﴿مثلاً ونسي خلقه﴾ كيف كان في الابتداء فقال: ﴿من يُحي العظام وهي رميم﴾ فقال قَتادة ومجاهد: كان القائل أُبيّ بن خلف. وقال سعيد بن جبير: هو العاص

بن وائل السهمي. وقال ابن عبّاس: هو عبد الله بن أُبي ابن سلول.

وقال الحسن: جاء أُميّة إلى النبيّ ﷺ بعظمٍ بالٍ قد بلي، فقال: يا محمّد أتزعم أنّ الله يبعث هذا بعدما بلي؟! قال: نعم، فنزلت الآية ـ و«الرميم» هو البالي ـ فقال الله تعالى في الردّ عليه: ﴿قل﴾ يا محمّد لهذا المتعجّب من الإعادة: ﴿يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة﴾ لأنّ من قدر على الاختراع لما يبقى من غير تغيير عن صفة القادر فهو على إعادته قادر لا محالة ﴿وهو بكلّ خلق عليم﴾ أي عالم بكلّ جنس من أجناس الخلق.

ثمّ وصف نفسه فقال: ﴿الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ فبيّن أنّ من قدر على أن يجعل في الشجر الأخضر الّذي هو في غاية الرطوبة ناراً حاميةً مع تضادّ النار للرطوبة حتّى إذا احتاج الإنسان حكّ بعضه ببعض وهو المرخ والعفار وغير ذلك من أنواع الشجر، فيخرج منه النار وينقدح فمن قدر على ذلك لا يقدر على الإعادة؟!

ثمّ نبّههم على دليل آخر فقال: ﴿أوليس الّذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم﴾ ومعناه من قدر على اختراع السماوات والأرض كيف لا يقدر على أمثاله؟! وقد ثبت أنّ من شأن القادر على الشيء أن يكون قادراً على جنس مثله وجنس ضدّه.

ودخول الباء في خبر «ليس» لتأكيد النفي.

ثمّ قال تعالى مجيباً عن هذا النفي فقال: ﴿بلى وهو الخلّاق العليم﴾ أي هو خالق لذلك عالم بكيفيّة الإعادة.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ والمعنى بذلك الإخبار عن سهولة الفعل عليه وأنّه إذا أراد فعل شيء فعله بمنزلة

ما يقول للشيء: كن فيكون في الحال، وهو مثل قول الشاعر:

وقالتْ له العينانِ سمعاً وطاعةً وحدّرتا كـالدرّ لمّـا يـثقبِ(١)

وإنّما أخبر عـن سـرعة دمـعه دون أن يكـون قـولاً عـلى الحـقيقة ولا يجوز فيكون بالنصب على أن يكون جواباً للأمر؛ لأنّ الفـعل واحـد وإنّما ينتصب الثاني الّذي يجب بوجوب الأوّل، كقولك: أتيتني فأُكرمك. وقال قتادة: هذا مثل وليس من كلام العرب شيء هـو أخـفّ مـن ذلك ولا أهون فأمر الله كذلك.

ثمّ قال: ﴿فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء﴾ ومعناه تنزيهاً له عن نفي القدرة على الإعادة وغير ذلك ممّا لا يليق به الّذي يقدر على ملكوت كلّ شيء. و«الملكوت» هو الملك، وفيه مبالغة ﴿وإليه ترجعون﴾ يوم القـيامة بمعنى تردّون إلى حيث لا يملك أحد الأمر والنهي سواه، فيجازيكم على قدر أعمالكم من الطاعات والمعاصي بالثواب والعقاب.

---

(١) أنشده ابن جنّي في الخصائص ١: ٢٢. وفيه: «وأبدت كمثل الدرّ» بدل «وحدّرتا كالدرّ».

# سورة الصّافات

مكّية في قول مجاهد وقَتادة والحسن، وهي مائة واثنان وثمانون آيةً في المدنيّين، وإحدى وثمانون في البصريّ، وليس فيها ناسخ ومنسوخ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

أدغم أبو عمرو ـ إذا أدرج ـ التاء في الصاد والتاء في الزاي والتاء في الذال في قوله: ﴿والصافّات صفّاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً﴾ لقرب مخرجهما إذا كانا من كلمتين، وافقه حمزة في جميع ذلك. الباقون بالإظهار، لأنّ قبل التاء حرفاً ساكناً، وهو الألف، لأنّ مخارجهما متغايرة.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿بزينَةِ الكواكبِ﴾ على الإضافة، وهو إضافة إلى المفعول. وقيل: إنّه مضاف إلى الفاعل، والمعنى

بزينتها للكواكب، ولذلك كان يجوز أن يقرأ برفع الكواكب غير أنّه لم يقرأ به أحد، ولو قرئ به لجاز.

وقرأ أبو بكر عن عاصم ﴿بزينة﴾ منوّناً ﴿الكواكب﴾ نصباً على معنى تزييننا الكواكب، الباقون ﴿بزينة﴾ منوّناً ﴿الكواكب﴾ خفضاً على البدل، وهو بدل الشيء من غيره وهو بعينه، لأنّ الزينة هي الكواكب، وهو بدل المعرفة من النكرة، ومثله قوله: ﴿لنسفعاً بالناصيةِ ❊ ناصية﴾[1] فأبدل النكرة من المعرفة.

وقرأ الكسائي وحمزة وخلف وحفص عن عاصم ﴿لا يسمّعون﴾ بالتشديد، وأصله لا يتسمّعون، فأُدغم التاء في السين، والباقون بالتخفيف، لأنّ معنى سمعت إلى فلان وتسمّعت إلى فلان واحد، وإنّما يقولون: تسمّعت فلاناً، بمعنى أدركت كلامه بغير «إلى». ومن شدّد كرّر لئلّا يشتبه، وقال ابن عبّاس: كانوا لا يتسمّعون ولا يسمعون.

هذه أقسام من الله تعالى بالأشياء الّتي ذكرها، وقد بيّنّا أنّ له تعالى أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلقه أن يحلفوا إلّا بالله. وقيل: إنّما جاز أن يقسم تعالى بهذه الأشياء، لأنّه ينبئ عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدالّة على ربّها.

وقال قوم: التقدير: وربّ الصافّات، وحذف لما ثبت من أنّ التعظيم بالقسم لله. وجواب القسم قوله: ﴿إنّ الهكم لواحد﴾ وقال مسروق وقتادة والسدي: إنّ الصافّات هم الملائكة مصطفون في السماء يسبّحون الله. وقيل: صفوف الملائكة في صلاتهم عند ربّهم، ذكره الحسن.

(١) العلق: ١٥ ـ ١٦.

وقيل: هم الملائكة تصفّ أجنحتها في الهواء واقفة حتّى يأمرها الله بما يريد، كما قال: ﴿وإنّا لنحن الصافّون﴾ [١] وقال أبو عبيدة: كلّ شيء من السماء والأرض لم يضمّ قُطريه فهو صافّ [٢]. ومنه قوله: ﴿والطير صافّات﴾ [٣] إذا نشرت أجنحتها، والصافّات جمع الجمع، لأنّه جمع صافّة.

وقوله: ﴿فالزاجرات زجراً﴾ قال السدي ومجاهد: هم الملائكة يزجرون الخلق عن المعاصي زجراً، يوصل الله مفهومه إلى قلوب العباد، كما يوصل مفهوم إغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصحّ التكليف. وقيل: إنّها تزجر السحاب في سوقها. وقال قَتادة: ﴿الزاجرات زجراً﴾ آيات القرآن تزجر عن معاصي الله تعالى.

و«الزجر» الصرف عن الشيء لخوف الذمّ والعقاب، وقد يكون الصرف عن الشيء بالذمّ فقط على معنى أنّه من فعله استحقّ الذمّ.

وقوله: ﴿فالتاليات ذكراً﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال مجاهد والسدي: هم الملائكة تقرأ كتب الله تعالى.

وقال قَتادة: هو ما يتلى في القرآن. وقال قوم: يجوز أن يكون جماعة الّذين يتلون القرآن.

وإنّما قال: ﴿فالتاليات ذكراً﴾ ولم يقل تلواً، كما قال: ﴿فالزاجرات زجراً﴾ لأنّ التالي قد يكون بمعنى التابع تقول: تلوت فلاناً: إذا تبعته بمعنى جئت بعده، ومنه قوله: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ [٤] فلمّا كان مشتركاً بيّنه بما يزيل الإيهام، وكلّ هذه أقسام على أنّ الإله الّذي يستحقّ العبادة واحد لا شريك له.

وقوله: ﴿ربّ السماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق﴾ معناه أنّ

---

(١) الصافّات: ١٦٥.　(٢) مجاز القرآن ٢: ١٦٦.　(٣) النور: ٤١.　(٤) الشمس: ٢.

إلهكم الّذي يستحقّ العبادة واحد، وهو الّذي خلق السماوات والأرض وما بينهما من سائر الأجناس من الحيوان والنبات والجماد ﴿وربّ المشارق﴾ ومعناه ويملك التصرّف فيها، و«المشارق» هي مشارق الشمس، وهي مطالعها بعدد أيّام السنة ثلاثمائة وستّون مشرقاً وثلاثمائة وستّون مغرباً، ذكره السدي.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه فقال: ﴿إنّا زيّنا السماءَ الدنيا﴾ و«التزيين» التحسين للشيء وجعله صورة تميل إليها النفس، فالله تعالى زيّن السماء الدنيا على وجه يمتّع الرائي لها، وفي ذلك النعمة على العباد مع ما لهم فيها من المنفعة بالفكر فيها والاستدلال على صانعها. و«الكواكب» هي النجوم كالبدر والسماء بها زينة، قال النابغة:

بأنّك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يبقَ منهنّ كوكب[1]

وقوله: ﴿وحفظاً من كلّ شيطان مارد﴾ معناه وحفظناها حفظاً. و«الحفظ» المنع من ذهاب الشيء، ومنه حفظ القرآن بالدرس المانع من ذهابه. و«المارد» الخارج إلى الفساد العظيم، وهو وصف الشياطين وهم المردة، وأصله الانجراد، ومنه الأمرد، والمارد المتجرّد من الخير.

وقوله: ﴿لا يسّمّعون﴾ من شدّد أراد لا يتسمّعون وأدغم التاء في السين، ومن خفّف أراد أيضاً لا يتسمّعون في المعنى ﴿إلى الملأ الأعلى﴾ يعني الملائكة الّذين هم في السماء.

وقوله: ﴿ويقذفون من كلّ جانب دحوراً﴾ معناه يرمون بالشهب من كلّ جانب إذا أرادوا الصعود إلى السماء للاستماع ﴿دحوراً﴾ أي دفعاً لهم بعنف،

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٤٧.

يقال: دحرته دحراً ودحوراً، وإنّما جاز أن يريدوا استراق السمع مع علمهم بأنّهم لا يصلون، وأنّهم يحرقون بالشهب، لأنّهم تارةً يسلمون إذا لم يكن من الملائكة هناك شيء لا يجوز أن يقفوا عليه، وتارةً يهلكون كراكب البحر في وقت يطمع في السلامة.

وقوله: ﴿ولهم عذاب واصبٌ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة وابن زيد: معناه أنّ لهم مع ذلك أيضاً عذاباً دائماً يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: ﴿وله الدين واصباً﴾ [١] أي دائماً، قال أبو الأسود:

لا ابتغي الحمد القليل بقاؤه يوماً بذمّ الدهر أجمع واصِبا [٢]

أي دائماً.

وقوله: ﴿إلّا من خطف الخطفة﴾ لمّا أخبر الله تعالى أنّ الشياطين لا يستمعون إلى الملأ الأعلى ولا يصغون إليهم أخبر أنّهم متى راموا رموا من كلّ جانب، دفعاً لهم على أشدّ الوجوه. ثمّ قال: ﴿إلّا من خطف الخطفة﴾ أي استلب السماع استلاباً، و«الخطفة» الاستلاب بسرعة، فمتى فعل ذلك ﴿أتبعه شهاب ثاقب﴾ قال قَتادة: والشهاب كالعمود من نار، وثاقب مضيء كأنّه يثقب بضوئه، يقال: أثقب نارك واستثقبت النار: إذا استوقدت وأضاءت، ومنه قولهم: حسب ثاقب أي مضيء شريف، قال أبو الأسود:

أذاعَ به في الناس حتّى كأنّه بعلياءَ نارٌ أُوقدت بثُقُوبِ [٣]

أي: بحيث يضيء ويعلو.

---

(١) النحل: ٥٢.
(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٦٧.
(٣) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ١: ١٣٣ و٢: ١٦٧.

قوله تعالى:

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ عشر آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿بل عجبت﴾ بضمّ التاء، الباقون بفتحها. قال أبو عليّ: من فتح التاء أراد بل عجبت يا محمّد من إنكارهم البعث أو من نزول الوحي على قلبك وهم يسخرون، ومن ضمّ قال معناه أنّ إنكار البعث مع بيان القدرة على الابتداء وظهور ذلك من غير استدلال عجيب عندك[1]. وقال قوم: إنّ ذلك إخبار من الله عن نفسه بأنّه عجيب، وذلك كما قال: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾[2]. وهذا غير صحيح، لأنّ الله تعالى عالم بالأشياء كلّها على تفاصيلها، وإنّما يعجب من خفي عليه أسباب الأشياء، وقوله: ﴿فعجب قولهم﴾ معناه عندكم.

وقرأ ابن عامر ﴿إذا﴾ على الخبر، الباقون على الاستفهام على أُصولهم في التحقيق والتخفيف والفصل. وقرأ ﴿إنّا﴾ على الخبر أهل المدينة والكسائي ويعقوب، وقرأ الباقون بهمزتين على أُصولهم في التحقيق والتليين والفصل. وقرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿أو آباؤنا﴾ بسكون الواو ـ هنا وفي الواقعة ـ إلّا أنّ ورشاً على أصله في إلقاء حركة الهمزة على الواو، الباقون بفتح الواو.

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣١٥.

(٢) الرعد: ٥.

وهذا خطاب من الله تعالى لنبيّه يأمره بأن يستفتي هؤلاء الكفّار وهو أن يسألهم أن يحكموا بما تقتضيه عقولهم، ويعدلوا عن الهوى واتّباعه، فالاستفتاء طلب الحكم.

﴿أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا﴾ يعني من قبلهم من الأُمم الماضية والقرون الخالية، فإنّه تعالى قد أهلك الأمم الماضية الّذين هم أشدّ خلقاً منهم لكفرهم، ولهم مثل ذلك إن أقاموا على الكفر. وقيل: المعنى أهمّ أشدّ خلقاً منهم بكفرهم، وهم مثل ذلك أم من خلقنا من الملائكة والسماوات والأرضين، فقال: ﴿أم من خلقنا﴾ لأنّ الملائكة تعقل، فغلب ذلك على مالا يعقل من السماوات. و«الشدّة» قوّة الفتل وهو بخلاف القدرة والقوّة. وكلّ شدّة قوّة، وليس كلّ قوّة شدّة، وأشدّ خلقاً ما كان فيه قوّة يمنع بها فتله إلى المراد به.

ثمّ أخبر تعالى أنّه خلقهم من طين لازب. والمراد أنّ خلق آدم من طين، وأنّ هؤلاء نسله وذرّيته، فكأنّهم خلقوا من طين. ومعنى «لازب» لازم فأبدلت الميم الباء، لأنّها من مخرجها، يقولون: طين لازب وطين لازم، قال النابغة:

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ... ولا يحسبون الشرَّ ضربة لازبِ[١]

وبعض بني عقيل يبدلون من الزاي تاءً. فيقولون: لاتب، ويقولون: لزب، ولتب، ويقال: لزب يلزب لزوباً. وقال ابن عبّاس: اللازب الملتصق من الطين الحرّ الجيّد. وقال قَتادة: هو الّذي يلزق باليد. وقال مجاهد: معناه لازق. وقيل: معناه من طين علك خُلِق آدم منه ونسب ولده إليه.

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٥٣.

وقوله: ﴿بل عجبت ويسخرون﴾ فمن ضمّ التاء أراد أنّ النبيّ ﷺ أمره الله أن يخبر عن نفسه أنّه عجب من هذا القرآن حين أُعطيه، وسخر منه أهل الضلالة. قال المبرّد: وتقديره: قل بل عجبت. ومن فتح التاء أراد أنّ الله تعالى خاطبه بذلك.

و«العجب» تغيّر النفس بما خفي فيه السبب في ما لم تجرِ به العادة، يقال: عجب يعجب عجباً وتعجّب تعجّباً.

والمعنى في الضمّ على ما روي عن عليّ عليه السلام وابن مسعود ليس على أنّه يعجب كما يعجب، لأنّ الله تعالى عالم بالأشياء على حقائقها، وإنّما المعنى أنّه يجازي على العجب كما قال: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم﴾(١) ﴿ومكروا ومكر الله﴾(٢) ويجوز أن يكون المعنى قد حلّوا محلّ من يعجب منهم. والفتح على عجب النبيّ ﷺ ﴿ويسخرون﴾ معناه يهزؤن بدعائك إيّاهم إلى الله، والنظر في دلائله وآياته.

﴿وإذا ذكّروا﴾ بآيات الله وحججه وخوّفوا بها ﴿لا يذكرون﴾ أي لا يتفكّرون، ولا ينتفعون بها ﴿وإذا رأوا آيةً﴾ من آيات الله تعالى ﴿يستسخرون﴾ أي يسخرون وهما لغتان. وقيل: معناه يطلب بعضهم من بعض أن يسخروا ويهزؤا بآيات الله، فيقولون: ليس هذا الّذي تدعونا إليه من القرآن وتدّعيه أنّه من عند الله ﴿إلّا سحرٌ مبينٌ﴾ أي ظاهر بيّن.

وحكى أنّهم يقولون أيضاً: ﴿أئذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أئِنا لمبعوثون﴾ بعد ذلك ومحشورون ومجازون؟! ﴿أو آباؤنا الأوّلون﴾ الّذين تقدّمونا بهذه الصفة، واللفظ لفظ الاستفهام والمراد بذلك التهزّي والاستبعاد لأن يكون

---

(١) التوبة: ٨٠. (٢) آل عمران: ٥٤.

هذا حقيقةً وصحيحاً. فمن فتح الواو فلأنّها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام، فقال الله تعالى لنبيّهﷺ: ﴿قل﴾ لهم ﴿نعم﴾ الأمر على ذلك، فإنّكم تحشرون وتسألون وتجازون على أعمالكم من الطاعات بالجنّة والثواب، وعلى المعاصي بالنار والعقاب فيها ﴿وأنتم داخرون﴾ أي صاغرون أذلّاء ـ وهو قول الحسن وقتادة والسدي ـ وقيل: الداخر الصاغر الذليل أشدّ الصغر، والصاغر الذليل لصغر قدره.

ثمّ قال أيضاً: وقل لهم: ﴿فإنّما هي زجرةٌ واحدةٌ﴾ فقال الحسن: يعني النفخة الثانية. و«الزجرة» الصرفة عن الشيء بالمخافة، فكأنّهم زجروا عن الحال الّتي هم عليها إلى المصير إلى الموقف للجزاء والحساب.

﴿فإذا هم ينظرون﴾ أي يشاهدون ذلك ويرونه. وقيل: معناه فإذا هم أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله وعقابه، ويقولون معترفين على نفوسهم بالعصيان: ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ يعني يوم الجزاء والحساب. و«الويل» كلمة يقولها القائل إذا وقع في الهلكة، ومثله يا ويلتى ويا حسرتى ويا عجبا.

وقال الزجّاج: والمعنى في جميع ذلك أنّ هذه الأشياء حسن نداؤها على وجه التنبيه والتعظيم على عظم الحال، والمعنى يا عجب أقبل ويا حسرة أقبلي، فإنّه من أوانك وأوقاتك، ومثله قوله: ﴿يا ويلتى أألد وأنا عجوز﴾ (١) وقوله: ﴿يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله﴾ (٢).

قوله تعالى:

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

---

(١) هود: ٧٢. (٢) الزمر: ٥٦.

وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾
وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾
وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾
قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾.

عشر آيات في الكوفي والمدنيّين، عدّوا قوله: ﴿وما كانوا يعبدون﴾ رأس آية. والبصريّون لم يعدّوها، فهي عندهم تسع آيات.

لمّا أخبر الله تعالى عن الكفّار أنّهم إذا حشروا وشاهدوا القيامة وقالوا ﴿يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ يعني الجزاء حكى ما يقول الله لهم فإنّه تعالى يقول لهم: ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين الخلائق والحكم وتميّز الحقّ من الباطل على وجه يظهر لجميعهم الحال فيه، وأنّه تعالى يدخل المطيعين الجنّة على وجه الإكرام والإعظام، ويدخل العصاة النار على وجه الإهانة والإذلال.

﴿هذا﴾ هو ﴿يوم الفصل﴾ وهو اليوم ﴿الّذي كنتم﴾ معاشر الكفّار ﴿به تكذّبون﴾ وتجحدونه وتقابلون من أخبر عنه بالتكذيب وتنسبونه إلى ضدّ الصدق.

ثمّ حكى ما يقول الله للملائكة المتولّين لسوق الكفّار إلى النار، فإنّه يقول لهم: ﴿احشروا الّذين ظلموا﴾ أنفسهم بارتكاب المعاصي بمعنى أجمعوهم من كلّ جهة. فالكفّار يحشرون من قبورهم إلى أرض الموقف للجزاء والحساب، ثمّ يساق الظالمون مع ما كانوا يعبدون من الأوثان والطواغيت إلى النار، وكذلك أزواجهم الّذين كانوا على مثل حالهم من

الكفر والضلال.

وقال ابن عبّاس ومجاهد وابن زيد: معنى ﴿وأزواجهم﴾ أشباههم، وهو من قوله: ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثةً﴾ (١) أي أشكالاً وأشباهاً. وقال قَتادة: معناه وأشياعهم من الكفّار. وقيل: من الأتباع. وقال الحسن: يعني ﴿وأزواجهم﴾ المشركات. وقيل: أتباعهم على الكفر من نسائهم.

وقوله: ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ إنّما عبّر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلاً من الهداية إلى الجنّة، كما قال: ﴿فبشّرهم بعذاب أليم﴾ (٢) لهذه العلّة من حيث إنّ البشارة بالعذاب الأليم وقعت لهم بدلاً من البشارة بالنعيم، يقال: هديته الطريق: أي دللته عليها وأهديت الهديّة.

ثمّ حكى الله تعالى ما يقوله للملائكة الموكّلين بهم فإنّه يقول لهم: ﴿وقفوهم﴾ أي قفوا هؤلاء الكفّار أي: احبسوهم ﴿إنّهم مسؤولون﴾ عمّا كلّفهم الله في الدنيا من عمل الطاعات واجتناب المعاصي هل فعلوا ما أمروا به أم لا؟ على وجه التقرير لهم والتبكيت دون الاستعلام، يقال: وقفت أنا ووقفت الدابّة بغير ألف. وبعض بني تميم يقولون: أوقفت الدابّة والدار. وزعم الكسائي أنّه سمع ما أوقفك هاهنا، وأنشد الفرّاء:

ترى الناسَ ما سِرنا يسيرون خلفنا
وإن نحن أومأنا إلى الناس أوقفوا(٣)

بألف. ويقال لهم أيضاً على وجه التبكيت: ﴿مالكم﴾ معاشر الكفّار ﴿لا تناصرون﴾ بمعنى لا تتناصرون، ولذلك شدّد بعضهم التاء، ومن لم يشدّد

---

(١) الواقعة: ٧.
(٢) آل عمران: ٢١.
(٣) قائله الفرزدق، راجع شرح ديوان الفرزدق، وفيه: «وقّفوا» بدل «أوقفوا».

حذف إحداهما، والمعنى لِمَ لا يدفع بعضكم عن بعض إن قدرتم عليه.

ثمّ قال تعالى: إنّهم لا يقدرون على التناصر والتدافع لكـن ﴿هم اليوم مستسلمون﴾ ومعناه مسترسلون مستحدثون يقال: استسلم استسلاماً: إذا ألقى بيده غير منازع في ما يراد منه. وقيل: معناه مسترسلون لما لا يستطيعون له دفعاً ولا منه امتناعاً.

وقوله: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ إخبار منه تعالى أنّ كلّ واحد من الكفّار يقبل على صاحبه الّذي أغواه على وجه التأنيب والتعنيف له يسأله لِمَ غرّرتني؟ ويقول ذاك: لِمَ قبلت منّي.

وقوله: ﴿قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين﴾ حكاية ما يقول الكفّار لمن قبلوا منهم: إنّكم كنتم تأتوننا من جهة النصيحة واليمن والبركة، فلذلك اغتررنا بكم، والعرب تتيمّن بما جاء من جهة اليمين. وقال الفرّاء: معناه أنّكم كنتم تأتوننا من قبل اليمين، فتخدعوننا من أقوى الوجوه. واليمين القوّة ومنه قوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ (١) أي بالقوّة (٢).

ثمّ حكى ما يقول أُولئك لهم في جواب ذلك: ليس الأمر على ما قلتم بل لم تكونوا مصدّقين بالله فرددناكم عن أيمانكم ولم يكن لنا عليكم في ترك الحقّ من سلطان ولا قدرة فلا تسقطوا اللوم عن أنفسكم، فإنّه لازم لكم ولاحق بكم.

وقال قَتادة: أقبل الإنس على الجنّ يتساءلون بأن كنتم أنتم معاشر الكفّار قوماً طاغين أي باغين، تجاوزتم الحدّ إلى أفحش الظلم، وأصله تجاوز الحدّ في العظم، ومنه قوله: ﴿إنّا لمّا طغا الماء حملناكم في

---

(١) الصافّات: ٩٣.

(٢) معاني القرآن ٢: ٣٨٤.

الجارية﴾ [١] وطغيانهم كفرهم بالله، لأنّهم تجاوزوا في ذلك الحدّ إلى أعظم المعاصي. وقال الزجّاج: معنى لا تناصرون ما لكم غير متناصرين فهو نصب بأنّه حال [٢].

قوله تعالى:

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ عشر آيات.

هذا تمام ما حكى الله عن الغاوين للكفّار يوم القيامة بأنّهم إذا قالوا لهم: لم يكن لنا عليكم من سلطان، وإنّما أنتم كنتم قوماً طاغين أخبروا أيضاً وقالوا: ﴿فحقّ علينا﴾ أي وجب علينا ﴿قول ربّنا﴾ بأنّا لانؤمن، ونموت على الكفر أو وجب علينا قول ربّنا بالعذاب الّذي يستحقّ على الكفر والاغواء ﴿إنّا لذائقون﴾ العذاب يعني إنّا ندركه كما ندرك المطعوم بالذوق.

ثمّ يعترفون على أنفسهم بأنّهم كانوا غاوين أي دعوناكم إلى الغيّ. وقيل: معناه خيبناكم طرق الرشاد فغوينا نحن أيضاً وخيّبنا. فالإغواء الدعاء إلى الغيّ، والغيّ نقيض الرشد، وأصله الخيبة من قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيراً يحمَدِ النَاسُ أمرَه
ومَن يغْوِ لا يعدَم على الغَيّ لائِما [٣]

(١) الحاقّة: ١١. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٠٢.

(٣) أنشده ابن السكّيت في إصلاح المنطق: ٢٨٣، وحكى نسبته إلى المرقّش، وقد تقدّم في تفسير الآية ٢٥٦ من سورة البقرة، وسيأتي في موارد أُخرى.

ويكون «أغوى» بمعنى خيّب، ومنه قوله: ﴿ربّ بما أغويتني﴾[1] أي خيّبتني.

ثمّ أخبر تعالى أنّهم في ذلك اليوم مشتركون في العذاب، ومعنى اشتراكهم اجتماعهم في العذاب الّذي هو يجمعهم.

ثمّ أخبر تعالى فقال: إنّ مثل فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين، وبيّن أنّه إنّما فعل بهم ذلك لأنّهم كانُوا إذا قِيلَ: لا معبود يستحقّ العبادة إلّا الله استكبروا عن قبول ذلك، وطلبوا التكبّر، وهذه لفظة ذمّ من حيث استكبروا عن قول الحقّ.

وحكى ما كانوا يقولون إذا دعوا إلى عبادة الله وحده فإنّهم كانوا ﴿يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا﴾ ومعنى ذلك إنّا نترك عبادة آلهتنا ﴿لشاعر مجنون﴾ يدعونا إلى خلافه، يعنون بذلك النبيّ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ يرمونه بالجنون تارةً وبالشعر أُخرى ـ وهو قول الحسن وقَتادة ـ لفرط جهلهم حتّى قالوا هذا القول الفاحش الّذي يفضح قائله؛ لأنّ المعلوم أنّه عَلَيْهِ‌السَّلَامُ كان بخلاف هذا الوصف.

والجنون آفة تغطّي على العقل حتّى يظهر التخليط في فعله، وأصله تغطية الشيء، جنّ عليه الليل: إذا غطّاه، ومنه المجنّ لأنّه يستر صاحبه، ومنه الجنان الروح لأنّها مستورة بالبدن، ومنه الجنّة لأنّها تحت الشجر.

ثمّ أخبر تعالى تكذيباً لهم بأن قال: ليس الأمر على ما قالوه ﴿بل﴾ النبيّ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ ﴿جاء بالحقّ﴾ من عند الله وهو ما يجب العمل به ﴿وصدّق﴾ مع ذلك ﴿المرسلين﴾ جميع من أرسله الله قبله.

ثمّ خاطب الكفّار فقال: ﴿إنّكم لذائقوا العذاب الأليم﴾ يعني المؤلم

(١) الحجر: ٣٩.

الموجع جزاءً على تكذيبكم بآياتنا وليس ﴿تجزون إلّا﴾ على قدر ﴿ما كنتم تعملون﴾ من المعاصي ثمّ استثنى من جملة المخاطبين ﴿عباد الله المخلصين﴾ وهم الّذين أخلصوا العبادةلله وأطاعوه في كلّ ما أمرهم به، فإنّهم لا يذوقون العذاب وإنّما ينالون الثواب الجزيل.

قوله تعالى:

أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ عشر آيات.

قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ينزفون﴾ بكسر الزاي على إسناد الفعل إليهم، الباقون بفتح الزاي على ما لم يسمّ فاعله. ومن فتح فإنّه مأخوذ من نزف الرجل، فهو منزوف ونزيف: إذا ذهب عقله بالسكر، وأنزف فهو منزف به: إذا فنيت خمره، ويقال: أنزف أيضاً: إذا سكر.

لمّا استثنى الله تعالى من جملة من يعاقبهم من الكفّار المخلصين الّذين أخلصوا عبادتهم لله وحده بيّن ما أعدّ لهم من أنواع الثواب، فقال: ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ يعني عطاء جعل لهم التصرّف فيه وحكم لهم به في الأوقات المستأنفة في كلّ وقت شيئاً معلوماً مقدّراً.

ثمّ فسّر ذلك الرزق، فقال: ذلك الرزق ﴿فواكه﴾ وهي جمع فاكهة وهي تكون رطباً ويابساً يتفكّهون. بها وينتفعون بالتصرّف فيها ﴿وهم﴾ مع ذلك ﴿مكرمون﴾ أي معظّمون مبجّلون ـ وضدّ الإكرام الإهانة وهي الانتقام ـ وهم مع ذلك ﴿في جنات النعيم﴾ أي بساتين فيها أنواع النعيم الّتي يتنعّمون

بها ﴿على سُرُر﴾ وهو جمع سرير ﴿متقابلين﴾ يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض ﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي بكأس من خمر جارية في أنهار ظاهرة للعيون، في قول الحسن وقَتادة والضحّاك والسدي. و«الكأس» إناء فيه شراب، وقيل: لا يسمّى كأساً إلّا إذا كان فيه شراب وإلّا فهو إناء.

وقوله: ﴿معين﴾ يحتمل أن يكون «فعيلاً» من العين، وهو الماء الشديد الجري من أمعن في الأمر: إذا اشتدّ دخوله فيه. ويحتمل أن يكون وزنه «مفعولاً» من عين الماء، لأنّه يجري ظاهراً للعين.

ثمّ وصف الخمر الّذي في الكأس، فقال ﴿بيضاء﴾ ووصفها بالبياض لأنّها تجري في أنهار كأشرف الشراب. وهي خمر فيها اللذّة والإمتاع فترى بيضاء صافية في نهاية الرقّة واللطافة مع النوريّة الّتي لها والشفافة، لأنّها على أحسن منظر ومخبر. وقال قوم: بيضاء صفة للكأس، وهي مؤنّثة. و«اللذّة» نيل المشتهى بوجود ما يكون به صاحبه ملتذّاً. و«الشراب» مأخوذ من الشرب.

وقوله: ﴿لا فيها غول﴾ معناه لا يكون في ذلك الشراب غول أي فساد يلحق العقل خفياً، يقال: اغتاله اغتيالاً: إذا أفسد عليه أمره، ومنه الغيلة وهي القتل سرّاً. وقال ابن عبّاس: ﴿لا فيها غول﴾ معناه لا يكون فيها صداع ولا أذى، كما يكون في خمر الدنيا، وقال الشاعر:

وما زالتِ الكأسُ تغتالُنا وتذهبُ بالأولِ الأوّلِ[1]

هذا من الغيلة أي تصرع واحداً بعد واحدٍ ﴿ولا هم عنها ينزفون﴾ أي

(١) أنشده الطبري في تفسيره ٢٣: ٣٥ ولم ينسبه لأحد.

لا يسكرون، والنزيف السكران، لأنّه ينزف عقله، قال الأُبيرد الرياحي:

لَعَمري لئن انـزفتُمُ أوصحوتُمُ لبئس النَدامَى كُنتُم آل أبـجرا[1]

فالبيت يدلّ على أنّ أنزف لغة في نزف: إذا سكر، لأنّـه جـعله فـي مقابلة الصحو. ومن قرأ بالكسر فعلى معنى: أنّهم لا ينزفون خـمرهم أي لا يفنى عندهم.

وقوله: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ معنى قاصرات الطرف تـقصر طرفهنّ على أزواجهنّ، في قول الحسـن وغـيره. وقـال بـعضهم: مـعنى ﴿قاصرات﴾ راضيات من قـولهم: اقـتصرت عـلى كـذا. ومـعنى ﴿عين﴾ الشديدة كبياض العين الشديدة سوادها، في قول الحسن. و«العين» النجل الأعين وهي الواسعة العين.

وقوله: ﴿كأنّهنّ بيضٌ مكنونٌ﴾ شبّههنّ ببيض النعام يكنّ بالريش مـن الريح والغبار، في قول الحسن وابن زيد. وقال سعيد بن جبير والسـدي: شبّههن ببطن البيض قبل أن يقشر وقبل أن تمسّه الأيـدي، و«المكـنون» المصون يقال: كننت الشيء: إذا صنته، وأكننته: إذا سترته من كلّ شـيء، قال الشاعر:

وهـــي زَهــراء مـــثل لُـؤلؤة الغـ ـوّاص ميزَت منجوهرمكنون[2]

ثمّ قال: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ يعني أنّ أهل الجنّة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن أحوالهم وما تفضّل الله عليهم من أنواع الكرامات.

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٦٩.

(٢) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢ : ١٧٠، ونسبه إلى أبي دَهْبَل.

قوله تعالى:

قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ عشر آيات.

لمّا حكى الله تعالى أنّ أهل الجنّة يقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن أخبارهم وأحوالهم ذكر أنّ قائلاً منهم يقول: ﴿إنّي كان لي قرين﴾ في دار الدنيا أي صاحب يختصّ بي إمّا من الإنس ـ على ما قال ابن عبّاس ـ أو من الجنّ على ما قال مجاهد ﴿يقول﴾ لي على وجه الإنكار عليّ والتهجين لفعلي: ﴿أءنّك لمن المصدّقين﴾ بيوم الدين بأنّ الله يبعث الخلق بعد أن يصيروا تراباً وعظاماً وأنّهم يحشرون بعد ذلك ويحاسبون ويجازون إنّ هذا لبعيد، فألف الاستفهام دخلت ـ هاهنا ـ على وجه الإنكار، وإنّما دخلت ألف الاستفهام للإنكار من حيث إنّه لا جواب لقائله إلّا ما يفتضح به، وهؤلاء الكفّار غلطوا في هذه الإنكار وتوهّموا أنّ من يقول في جواب ذلك: نعم، يأتي بقبيح من القول.

وقوله: ﴿أءنا لمدينون﴾ معناه لمجزيّون مشتقّ من قولهم: كما تدين تدان. أي كما تجزي تجزى، والدين الجزاء، والدين الحساب، ومنه الدين لأنّ جزاءه القضاء. وقال ابن عبّاس: القرين، الّذي كان له شريكاً من الناس. وقال مجاهد: كان شيطاناً.

ثمّ حكى أنّه يقال لهذا القائل على وجه العرض عليه: ﴿هل أنتم

مطّلعون﴾ أي يؤمرون أن يروا مكان هذا القرين في النار، فيقول: نعم، فيقال له: اطّلع في النار، فيطّلع في الجحيم فيراه في سوائه أي وسطه، في قول ابن عبّاس والحسن وقَتادة. وإنّما قيل للوسط: سواء لاستواء المسافة منه إلى الجوانب كلّها، ويقال لغير الإنسان سواه لاستوائه في مكانه بأن صار بدلاً منه، وقد كثر حتّى صار بمعنى غير.

وروى حسين عن أبي عمرو ﴿مطلعون * فأُطلع﴾ بكسر النون وقطع الألف، وهو شاذّ، لأنّ الاسم إذا أُضيف حذفت منه النون، كقولك: مطلعي، وإنّما يجوز في الفعل على حذف إحدى النونين، وقد أنشد الفرّاء على شذوذه قول الشاعر:

وما أدري وظنّي كلّ ظنٍّ أمسلُمني إلى قَومٍ شَرَاحِ[1]

يريد شراحيل، وأنشده المبرّد «أأسلمني» أمسلُمني وأنشد الزجّاج:

هم القائلونَ الخيرَ والآمردونه
إذا ما خشوا من محدث الأمر معظما[2]

وقيل: إنّ لأهل الجنّة في توبيخ أهل النار لذّة وسروراً. وقال الحسن: الجنّة في السماء والنار في الأرض، فلذلك صحّ منهم الاطّلاع.

ثمّ حكى تعالى ما يقوله المؤمن إذا اطّلع عليه ورآه في وسط الجحيم فإنّه يقول: ﴿تالله إن كدتَّ لتردين﴾ ومعنى ﴿تالله﴾ القسم على وجه التعجّب وإنّما كان كذلك لأنّ التاء بدل من الواو في القسم على وجه النادر، ولذلك اختصّت باسم الله ليدلّ على المعنى النادر.

وقوله: ﴿إن كدتّ﴾ فهذه إن المخفّفة من الثقيلة بدليل مصاحبة لام

(١) معاني القرآن ٢: ٣٨٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٠٥.

الابتداء لها في قوله: ﴿لتردين﴾ وهي الّتي في قوله: ﴿إن كلّ نفس لمّا عليها حافظٌ﴾ (١) إلّا أنّها دخلت في هذا على «فعل» ومعنى ﴿لتردين﴾ لتهلكني كهلاك المتردّي من شاهق، ومنه قوله: ﴿وما يغني عنه ماله إذا تردّى﴾ (٢) في النار، وتقول: ردي يردى: إذا هلك وأرداه غيره إرداءً: إذا أهلكه.

ثمّ يقول: ﴿ولو لا نعمة ربّي﴾ عليَّ ورحمته لي بأن لطف لي في ترك متابعتك والقبول منك ﴿لكنت﴾ أنا أيضاً ﴿من المحضرين﴾ معك في النار، فالإحضار الإتيان بالشيء إلى حضرة غيره، وقال الشاعر:

أفي الطوفِ خِفتَ علـيَّ الرِدَى وَكمْ من رَدٍ أهـلَهُ ولم يَـرِمْ(٣)

أي من هالك.

وقوله: ﴿أفما نحن بميّتين إلّا موتتنا الأُولى وما نحن بمعذّبين﴾ هذا تقريع لهم وتوبيخ، لأنّ هذا الكافر كان يقول كثيراً ذلك في دار الدنيا، ومثله قول الشاعر:

قالتْ له وهو بضيقٍ ضَـنكٍ لا تكثري لومي أُخلّي عَنْكِ

ومعناه إنّها كانت تلومه على الإنفاق، فكان يقول لها: لا تكثري لومي فأُطلّقك. فلمّا أنفق عيّرته بذلك ووبّخته وحكت ما كان يقول عند توبيخها وعذلها. وقال الجبّائي: هذا يقوله المؤمن على وجه الإخبار بأنّه لا يموت بعد هذا النعيم لكن الموتة الأُولى قد مضت. فتلخيص معنى الآية قولان:

أحدهما: أنّه يقوله المؤمن على وجه السرور بنعم الله في أنّه لا يموت ولا يعذّب.

الثاني: أنّ المؤمن يقوله على وجه التوبيخ لقرينة بما كان ينكره.

---

(١) الطارق: ٤. (٢) الليل: ١١. (٣) قائله الأعشى راجع ديوانه: ٢٠٢.

وقوله: ﴿إنّ هذا لهو الفوز العظيم﴾ إخبار منه تعالى بأنّ هذا الثواب الّذي حصل له لهو الفلاح العظيم.

قوله تعالى:

لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ عشر آيات.

يقول الله تعالى في تمام الحكاية عن قول المؤمن للكافر: ﴿لمثل هذا﴾ يعني لمثل ثواب الجنّة ونعيمها ﴿فليعمل العاملون﴾ في دار التكليف، ويحسن من العامل أن يعمل العمل للثواب إذا أوقعه على الوجه الّذي تدعو إليه الحكمة من وجوب أو ندب.

قال الرماني: ألا ترى أنّه لو عمل القبيح ليثاب على ما تدعو إليه الحكمة لاستحقّ الثواب إذا خلص من الإحباط. وهذا الّذي ذكره غير صحيح، لأنّ القبيح لا يجوز أن يستحقّ عليه الثواب على وجه وإن عرض في القبيح وجوه كثيرة من وجوه الحسن، فإنّه لا يعتدّ بها، فإن علمنا في ما ظاهره القبيح أنّه وقع على وجه يستحقّ فيه الثواب علمنا أنّه خرج من كونه قبيحاً.

ومثال ذلك إظهار كلمة الكفر عند الإكراه عليها أو الإنكار لكون نبيّ بحضرته لمن يطلبه ليقتله فإنّ هذا وإن كان كذباً في الظاهر فلابدّ أن يورّي المظهر بما يخرجه عن كونه كاذباً، ومتى لم يحسن التورية منع الله من

إكراهه عليه. وفي الناس من يقول: يجب عليه الصبر على القتل، ولا يحسن منه الكذب، ومتى كان من يحسن التورية، ولم يورِّ كان القول منه كذباً وقبيحاً ولا يستحقّ به الثواب.

فأمّا الإكراه على أخذ مال الغير وإدخال ضرر عليه دون القتل متى كان قد علمنا بالشرع وجوب فعل ذلك عند الإكراه أو حسنه علمنا أنّه خرج بذلك عن كونه قبيحاً وأنّ الله تعالى ضمن من العوض عليه ما يخرجه عن كونه قبيحاً، كما تقول في ذبح البهائم، ومتى لم يعلم بالشرع ذلك فإنّه يقبح إدخال الضرر على الغير وأخذ ماله.

فأمّا إدخال الضرر على الغير ونفسه ببذل مال أو تحمّل خراج ليدفع بذلك عن نفسه ضرراً أعظم منه فإنّه يحسن، لأنّه وجه يقع على الإثم فيصير حسناً، وهذا باب أحكمناه في كتاب الأُصول. لا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا.

وقوله: ﴿أذلك خيرٌ نزلاً أم شجرة الزقوم﴾ إنّما جاز ذلك مع أنّه لا خير في شجرة الزقّوم لأمرين:

أحدهما: على الحذف بتقدير: أسبب هذا الّذي أدّى إليه خير أم سبب أدّى إلى النار، كأنّهم قالوا: هو فيه خير، لما عملوا ما أدّى إليه. و«النزل» الفضل طعام له نزل، ونزل أي فضل وريع. وقيل: معناه خير نزلاً من الإنزال الّتي تقيم الأبدان وتبقي عليها الأرواح. و«الزقّوم» قيل: هو ثمر شجرة منكرة جدّاً من قولهم: يزقم هذا الطعام: إذا تناوله على تكرّهٍ ومشقّةٍ شديدةٍ. وقيل: شجرة الزقّوم ثمرة مرّة خشنة منتنة الرائحة.

وقوله: ﴿إنّا جعلناها فتنةً لظالمين﴾ معناه أنّا جعلنا شجرة الزقّوم محنة

لشدّة التعبّد، وقال قَتادة: لمّا نزلت هذه الآية قال المشركون: النار تحرق الشجرة وكيف تنبت هذه في النار، فكان ذلك تغليظاً للمحنة، لأنّه يحتاج إلى الاستدلال على أنّه قادر لا يمتنع عليه أن يمنع النار من إحراقها حتّى تنبت الشجرة فيها.

وقيل: معناه أنّها عذاب للظالمين من قوله: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾(١) أي يعذّبون. وقيل: هو قول أبي جهل في التمر والزبد إنّه يتزقّمه. روي أنّه لمّا سمع هذه الآية دعا الكفّار وأحضر التمر والزبد وقال: تعالوا نتزقّم هذا بخلاف ما يهدّدنا به محمّد.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّها شجرة﴾ يعني الزقّوم ﴿تخرج في أصل الجحيم﴾ أي تنبت في قعر جهنّم ﴿طلعها كأنّه رءُوس الشياطين﴾ قيل: في تشبيه ذلك برؤوس الشياطين مع أنّ رؤوس الشياطين لم ترَ قطّ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ قبح صورة الشياطين متصوّر في النفس ولذلك يقولون لشيء يستقبحونه جدّاً: كأنّه شيطان، وقال امرؤ القيس:

أيقتُلُني والمشرَفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ(٢)

فشبّه النصول بأنياب الأغوال، وهي لم ترَ. ويقولون: كأنّه رأس شيطان وانقلب عليّ كأنّه شيطان.

الثاني: أنّه شبّه برأس حيّة يسمّيها العرب شيطاناً، قال الراجز:

منجرد تحلف حين أحلِفُ كمثلِ شيطانِ الحَمَاطِ أعرَفُ(٣)

الثالث: أنّه شبّه بنبت معروف برؤوس الشياطين. وقيل: قد دلّ الله أنّه

(١) الذاريات: ١٣.
(٢) ديوان امرئ القيس: ١٤٢.
(٣) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٨٧ ولم ينسبه لأحد.

يشوّه خلق الشياطين في النار حتّى لو رآهم راءٍ من العباد لاستوحش منهم غاية الاستيحاش، فلذلك يشبّه برؤوسهم.

ثمّ أخبر تعالى أنّ أهل النار ليأكلون من تلك الشجرة ويملأون بطونهم منها لشدّة ما يلحقهم من ألم الجوع، و«الملء» الطرح في الوعاء مالا يحتمل الزيادة عليه، فهؤلاء حشيت بطونهم من الزقّوم بمالا يحتمل زيادة عليه.

ثمّ قال: ﴿إنَّ لهم عليها﴾ يعني الزيادة على شجرة الزقّوم ﴿لشوباً من حميمٍ﴾ فالشوب خلط الشيء بما ليس منه ممّا هو شرّ منه، ويقال: هذا الطعام مشوب، وقد شابه شيء من الفساد، والحميم إذا شاب الزقّوم اجتمعت المكاره فيه من المرارة والخشونة ونتن الرائحة، والحرارة المحرقة ـ نعوذ بالله منها ـ و«الحميم» الحارّ الّذي له من الإحراق المهلك أدناه، قال الشاعر:

أحــمّ الله ذلك مــن لقــاءٍ     أُحادَ أُحادَ في الشهرِ الحَلالِ[1]

أي أدناه. وحمم ريش الفرخ: إذا نبت، حتّى يدنو من الطيران، و«المحموم» المقترب من حال الإحراق. وقال ابن عبّاس: يشربون الحميم المشروب من الزقّوم أي قد شيب مع حرارته بما يشتدّ تكرهه. و«الحميم» الصديق القريب، أي: الداني من القلب.

وقوله: ﴿ثمّ إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ معناه أنّهم يردّون بعد ذلك إلى النار الموقدة. وفي ذلك دلالة على أنّهم في وقت ما يطعمون الزقّوم

(١) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ١: ٦٤، مادّة «حمم» ونسبه إلى عمرو ذو الكلب بن عجلان الهذلي.

بمعزل عنها، كما قال: ﴿يطوفون بينها وبين حميم آنٍ﴾[١].

ثمّ حكى تعالى أنّ هؤلاء الكفّار ﴿ألفوا﴾ يعني صادفوا ﴿آباءهم ضالّين﴾ عن الطريق المستقيم الّذي هو طريق الحقّ ﴿فهم على آثارهم يهرعون﴾ في الضلال أي يقلّدونهم ويتّبعونهم. قال أبو عبيدة: معنى يهرعون يستحثون من خلفهم[٢]. وقيل: معناه يزعجون إلى الإسراع، هرع وأهرع لغتان.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ عشر آيات.

أقسم الله تعالى أنّه ﴿لقد ضلّ قبلهم﴾ قبل هؤلاء الكفّار الّذين هم في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله عن طريق الحقّ واتّباع الهدى ﴿أكثر الأوّلين﴾ من كان قبلهم لأنّ اللام في «لقد» هي لام القسم وتدخل على جوابه كقولك: والله لقد كان كذا، وقد تدخل للتأكيد. و«الضلال» الذهاب عن الحقّ إلى طريق الباطل، تقول: ضلّ عن الحقّ يضلّ ضلالاً.

والإضلال قد يكون بمعنى الذمّ بالضلال والحكم عليه به، وقد يكون بمعنى الأمر به والإغراء كقوله: ﴿وأضلّهم السامريّ﴾[٣]. والأكثر هو الأعظم في العدد، والأوّل الكائن قبل غيره. وأوّل كلّ شيء هو الله تعالى،

---

(١) الرحمن: ٤٤. (٢) مجاز القرآن ٢: ١٧١. (٣) طه: ٨٥.

لأنّ كلّ ما سواه فهو موجود بعده.

ثمّ أقسم أنّه أرسل فيهم منذرين من الأنبياء والرسل يخوّفونهم بالله ويحذّرونهم معاصيه.

ثمّ قال: ﴿فانظر﴾ يا محمّد ﴿كيف كان عاقبة المنذرين﴾ والتقدير: أنّ الأنبياء المرسلين لمّا خوّفوا قومهم فعصوهم ولم يقبلوا منهم أهلكهم وأنزل عليهم العذاب، فانظر كيف كان عاقبتهم.

ثمّ استثنى من المنذَرين في الإهلاك عباده المخلصين الّذين قبلوا من الأنبياء، وأخلصوا عبادتهم لله تعالى، فإنّ الله تعالى خلّصهم من ذلك العذاب ووعدهم الثواب.

ثمّ أخبر أنّ نوحاً نادى الله ودعاه واستنصره على قومه، وأنّه تعالى أجابه، وأنّه ـ جلّ وعزّ ـ نعم المجيب لمن دعاه. وتقديره: فلنعم المجيبون نحن له، ولمّا أجابه نجّاه وخلّصه وأهله من الكرب العظيم.

فالنجاة هي الرفع من الهلاك وأصله الرفع، فمنه النجوة المرتفع من المكان، ومنه النجا النجا كقولهم: الوحا الوحا. و«الاستنجاء» رفع الحدث. و«الكَرْب» الحزن الثقيل على القلب، قال الشاعر:

عَسَى الكربُ الّذي أمسيتَ فيهِ      يَكُون وراءهَ فَرَجٌ قريب[1]

و«الكَرْب» تحرير الأرض بإصلاحها للزراعة. و«الكَرَب» هو الّذي يحمي قلب النخلة بإحاطته بها وصيانته لها. و«العظيم» الّذي يصغر مقدار غيره عنه. وقد يكون التعظيم في الخير والعظيم في الشرّ، والعظم في النفس.

---

(١) أنشده المبرّد في المقتضب ٣: ٧٠ ولم ينسبه لأحد.

وقال السدي: معناه نجّيناه وأهله من الغرق. وقال غيره: بل نجّاهم من الأذى والمكروه الّذي كان ينزل بهم من قومه، لأنّه بذلك دعا ربّه فأجابه. وقيل: الّذين نجوا مع نوح شيعته.

وقوله: ﴿وجعلنا ذرّيته هم الباقين﴾ قال ابن عبّاس وقَتادة: الناس كلّهم من ذرّية نوح بعد نوح. وقال قوم: العجم والعرب أولاد سام بن نوح، والترك والصقالبة والخزر أولاد يافث بن نوح، والسودان أولاد حام بن نوح.

وقوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ يعني ذكراً جميلاً، وأثنينا عليه في أُمّة محمّد. ومعنى «وتركنا» أبقينا فحذف، فيكون ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ من قول الله على غير جهة الحكاية.

الثاني: قال الفرّاء: تركنا عليه قولاً هو أن يقال في آخر الأُمم: سلام على نوح في العالمين[١].

ثمّ قال: ﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾ كما فعلنا بنوح من الثناء الجميل، مثل ذلك نجزي من أحسن أفعاله وتجنّب المعاصي.

قوله تعالى:

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ عشر آيات.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٨٧ ـ ٣٨٨.

هذا رجوع من الله تعالى إلى ذكر وصف نوح بأنّه كان ﴿من عبادنا المؤمنين﴾ الّذين يصدّقون بتوحيدالله ووعده ووعيده وجميع أخباره. و«العباد» جمع عبد، وهو الذليل لملكه بالعبوديّة. والخلق كلّهم عباد الله فمنهم عابد له ومنهم عابد لغيره تضييعاً منهم لحقّ نعمه وجهلاً بما يجب له عليهم. و«المؤمن» هو المصدّق بجميع ما أوجب الله عليه أو ندبه إليه. وقال قوم: هو العامل بجميع ما أوجب الله عليه العامل بما يؤمنه من العقاب.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أغرق الباقين من قوم نوح بعد إخلاصه نوحاً وأهله المؤمنين.

ثمّ قال: ﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم﴾ فالشيعة الجماعة التابعة لرئيس لهم، وصاروا بالعرف عبارة عن شيعة عليّعليه السلام الّذين معه على أعدائه. وقيل: من شيعة نوح إبراهيم، يعني أنّه على منهاجه وسنّته في التوحيد والعدل واتّباع الحقّ.

وقال الفرّاء: معناه وإن من شيعة محمّدصلى الله عليه وآله لإبراهيم، كما قال: ﴿أنّا حملنا ذُرّيتهم﴾[1] أي ذرّية من هو أب لهم، فجعلهم ذرّية لهم وقد سبقوهم[2] وقال الحسن: معناه على دينه وشريعته ومنهاجه. قال الرمّاني: هذا لا يجوز، لأنّه لم يجر لمحمّد ذكر، فهو ترك الظاهر.

وقد روي عن أهل البيتعليهم السلام أنّ من شيعة عليّ لإبراهيم[3]. وهذا جائز إن صحّ الخبر المرويّ في هذا الباب، لأنّ الكناية عمّن لم يجر له ذكر جائزة إذا اقترن بذلك دليل، كما قال: ﴿حتّى توارت بالحجاب﴾[4]

---

(١) يس: ٤١.
(٢) معاني القرآن ٢: ٣٨٨.
(٣) انظر بحار الأنوار ٣٦: ٢١٣ ـ ٢١٤.
(٤) ص: ٣٢.

ولم يجرِ للشمس ذكر. ويكون المعنى أنّه على منهاجه وطريقته في اتّباع الحقّ والعدول عن الباطل، وكان إبراهيم وعليّ عليهما السلام بهذه المنزلة.

وقوله: ﴿إذ جاء ربّه بقلبٍ سليم﴾ معناه حين جاء إلى الموضع الّذي أمره الله بالرجوع إليه بقلب سليم عن الشرك بريء من المعاصي في الوقت الّذي قال لأبيه وقومه حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله على وجه التهجين لفعلهم والتقريع لهم: ﴿ماذا تعبدون﴾ أي أيّ شيء تعبدون من هذه الأصنام الّتي لا تنفع ولا تضرّ، وقال لهم: ﴿أئفكاً آلهة دون الله تريدون﴾ فالإفك هو أشنع الكذب وأفظعه، و«الافك» قلب الشيء عن جهته الّتي هي له، فلذلك كان الإفك كذباً. وإنّما جمع الآلهة مع أنّه لا إله إلّا إله واحد على اعتقادهم في الإلهيّة وإن كان توهّمهم فاسداً لما اعتقدوا أنّها تستحقّ العبادة، وكان المشركون قد أوغروا باتّخاذ الآلهة إلى أن جاء دين الإسلام وبيّن الحقّ فيه وعظم الزجر.

وقوله: ﴿دون الله تريدون﴾ معناه أنّكم أتريدون عبادة آلهة دون عبادة الله، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، كما قال: ﴿وسئل القرية﴾ [1] أي أهلها، لأنّ الإرادة لا تتعلّق إلّا بما يصحّ حدوثه. وهذه الأجسام ليست ممّا يحدث، فلا يصحّ إرادتها.

وقوله: ﴿فما ظنّكم بربّ العالمين﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: أي سيّء ظنّكم به أسوء ظنّ؟! الثاني: ﴿فما ظنّكم بربّ العالمين﴾ يصنع بكم مع أنّكم تعبدون غيره. وقوله: ﴿فنظر نظرة في النجوم فقال إنّي سقيم﴾ قيل: معناه نظر نظرة في النجوم أنّه استدلّ بها على وقت حمّى كانت تعتاده

---

(١) يوسف: ٨٢.

﴿فقال إنّي سقيم﴾ ومن أشرف على شيء جاز أن يقال: إنّه فيه، كما قال تعالى: ﴿إنّك ميّتٌ وإنّهم ميّتون﴾[١] ولم يكن نظره في النجوم على حسب المنجّمين طلباً للأحكام، لأنّ ذلك فاسد، ومثله قول الشاعر:

اسهري ما سهرتِ أُمّ حكيمِ    واقعدي مرّة لذاك وقومي[٢]
وافتحي البابَ فانظري في النجوم    كم علينا من قِطَع لَيلٍ بهيمِ

وقال الزجّاج: نظره في النجوم كنظرهم، لأنّهم كانوا يتعاطون علم النجوم فتوهمهم أنّه يقول مثل قولهم، فقال عند ذلك: ﴿إنّي سقيم﴾ فتركوه ظنّاً منهم أنّ نجمه يدلّ على سقمه[٣]. وقال أبو مسلم: معناه أنّه نظر فيها نظر مفكّر فاستدلّ بها على أنّها ليست آلهة له، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي...﴾. تمام الآيات[٤] وكان هذا منه في زمان مهلة النظر. وهذا الّذي ذكره يمنع منه سياق الآية، لأنّ الله تعالى حكى عن إبراهيم أنّه ﴿جاء ربّه بقلب سليم﴾ يعني سليم من الشرك، وذلك لا يليق بزمان مهلة النظر. ثمّ إنّه قال لقومه على وجه التقبيح لفعلهم: ﴿ماذا تعبدون أئفكا آلهةً دون الله تريدون * فما ظنّكم بربّ العالمين﴾ وهذا كلام عارف بالله مستبصر، وكيف يحمل على زمان مهلة النظر.

وقيل في معنى قوله: ﴿إنّي سقيم﴾ إنّي سقيم القلب ممّا أرى من أحوالكم القبيحة من عبادة غير الله وعدولكم عن عبادته مع وضوح الأدلّة الدالّة على توحيده واستحقاقه للعبادة منفرداً بها.

---

(١) الزمر: ٣٠.

(٢) أنشد الخليل البيت الثاني منه ولم ينسبه لأحد، انظر العين ١: ١٣٩، مادّة «قطع».

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٠٨.

(٤) الأنعام: ٧٦.

وقيل: إنّه كان عرضت له علّة في الحال، وكان صادقاً في ذلك. وقيل: معناه أنّ عاقبتي الموت، ومن كان عاقبته الموت جاز أن يعبّر عن حال حياته بأنّه مريض. وقيل: معناه أنّي سأسقم في المستقبل. وقيل: إنّه أراد بقوله: ﴿سقيم﴾ مطعون، فلذلك تركوه خوفاً من أن يتعدّى إليهم الطاعون.

فأمّا من قال: إنّه لم يكن سقيماً وإنّما كذب فيه ليتأخّر عن الخروج معهم إلى عيدهم لتكسير أصنامهم وأنّه يجوز الكذب في المكيدة والتقيّة فقوله باطل، لأنّ الكذب قبيح لا يحسن على وجه.

فأمّا ما يروونه من أنّ النبيّ ﷺ قال: «ما كذب أبي إبراهيم إلّا ثلاث كذبات يحاجز بها عن ربّه: قوله: ﴿إني سقيم﴾ [١] ولم يكن كذلك، وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ [٢] وقوله في سارة: إنّها أُختي وكانت زوجته» [٣].

فأوّل ما فيه أنّه خبر واحد لا يعوّل عليه، والنبيّ ﷺ أعرف بما يجوز على الأنبياء وما لا يجوز من كلّ واحد، وقد دلّت الأدلّة العقليّة على أنّ الأنبياء لا يجوز أن يكذّبوا في ما يؤدّونه عن الله من حيث إنّه كان يؤدّي إلى أن لا يوثق بشيء من أخبارهم وإلى أن لا ينزاح علّة المكلّفين، ولا في غير ما يؤدّونه عن الله من حيث إنّ تجويز ذلك ينفر عن قبول قولهم، فإذاً يجب أن يقطع على أنّ الخبر لا أصل له. ولو سلّم لجاز أن يكون المعنى مع ظاهره مظاهر للكذب وإن لم يكن في الحقيقة كذلك، لأنّ قوله: ﴿إنّي سقيم﴾ قد بيّنّا [٤] الوجه فيه. وقوله: ﴿بل فعله كبيرهم﴾ بيّنّاه في موضعه [٥]. وقوله في سارة: «إنّها أُختي» معناه أنّها أُختي في الدين، وقد قال الله تعالى: ﴿إنّما المؤمنون إخوة﴾ [٦] وإن لم يكونوا بني أب واحد.

(١) الصافّات: ٨٩. (٢) الأنبياء: ٦٣. (٣) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٠٣ ـ ٤٠٤.
(٤) تقدّم آنفاً. (٥) تقدّم في تفسير الآية ٦٣ من سورة الأنبياء. (٦) الحجرات: ١٠.

وقوله: ﴿فتولّوا عنه مدبرين﴾ إخبار منه تعالى أنّه حين قال لهم إنّي سقيم أعرضوا عنه وتركوه وخرجوا إلى عيدهم وهو متخلّف عنهم.

قوله تعالى:

فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ إحدى عشر آية.

قرأ حمزة والمفضّل عن عاصم ﴿يزفّون﴾ بضمّ الياء، الباقون بفتحها، وهما لغتان، وزففت أكثر. ويجوز أن يكون المراد زفّ الرجل في نفسه وأزفّ غيره، والتقدير: فأقبلوا إليه يزفّون أنفسهم.

قوله: ﴿فراغ إلى ءالهتهم﴾ معناه مال إليها بحدّة، تقول: راغ يروغ روغاً وروغاناً مثل حاد يحيد حيداً وحيداناً، والرواغ الحياد، قال عدي بن زيد:

حين لا ينفع الرواغ ولا ينفع إلّا الصادقُ النحريرُ[1]

وإنّما مال إليها بحدّة غضباً على عابديها، وقوله: ﴿إلى آلهتهم﴾ معناه إلى ما يدعون أنّها آلهتهم أي إلى ما اتّخذوها آلهة لهم، كما تقول للمبطل: «هات حجّتك» مع علمك أنّه لا حجّة له.

وقوله: ﴿فقال ألا تأكلون﴾ إنّما جاز أن يخاطب الجماد بذلك تهجيناً لعابديها وتنبيهاً على أنّ من لا يتكلّم ولا يقدر على الجواب كيف تصحّ عبادتها، فأجراها مجرى من يفهم الكلام ويحسن ذكر الجواب، استظهاراً

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٥٠٢.

في الحجّة وإيضاحاً للبرهان لكلّ من سمع ذلك ويبلغه.

وقوله: ﴿ما لكم لا تنطقون﴾ معناه تهجيناً لعابديها كأنّهم حاضرون بها.

وقوله: ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّه مال عليهم بيده اليمنى، لأنّها أقوى على العمل من الشمال.

الثاني: بالقسم ليكسرنّها، لأنّه كان قال: ﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم﴾[١] وقال الفرّاء: اليمين القوّة، ومنه قول الشاعر:

تلقّاها عَرَابةُ باليَمينِ[٢]

أي بالقوّة.

وقوله: ﴿فاقبلوا إليه يزفّون﴾ قال ابن زيد: معناه يسرعون. وقال السدي: يمشون. وقيل: يتسلّلون بحال بين المشي والعدو، ومنه زفّت النعامة، وذلك أوّل عدوها، وهو بين العدو والمشي، وقال الفرزدق:

وَجاءَ قَرِيعُ الشَولِ قَبلَ إفالِها يَزِفّ وجاءت خلفه وهي زُفّفُ[٣]

ومنه زَفَفْتُ العروسَ إلى زوجها، ومعنى يزفّون يمشون على مهل، قال الفرّاء: لم أسمع إلّا زَفَفْت، قال: ولعلّ من قرأ بالضمّ أراد من قولهم: طردت الرجل: إذا أخسأته، وأطردته جعلته طريداً[٤]. وقرأ بعضهم ﴿يزفون﴾ بفتح الياء وتخفيف الفاء من «وزف يزف» قال الكسائي والفرّاء: لا أعرف هذه إلّا أن يكون أحدهم سمعها.

فلما رآهم إبراهيم عليه السلام أقبلوا عليه قال لهم على وجه الإنكار عليهم

---

(١) الأنبياء: ٥٧.

(٢) أنشده ابن جنّي في الخصائص ٣: ٢٤٩ عجز بيت صدره: إذا ما راية رفعت لمجد.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢: ١٢٠.

(٤) معاني القرآن ٢: ٣٨٨ ـ ٣٨٩.

والتبكيت لهم بفعلهم: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ فالألف ألف الاستفهام ومعناها الإنكار، ووجه التوبيخ أنّه كيف يصحّ أن يعبد الإنسان ما يعمله بيده!، فإنّهم كانوا ينحتون الأصنام بأيديهم، فكيف تصحّ عبادة من هذه حاله، مضافاً إلى كونها جماداً!.

ثمّ نبّههم فقال: ﴿والله﴾ تعالى هو الّذي ﴿خلقكم﴾ وخلق الّذي ﴿تعملون﴾ فيه من الأصنام، لأنّها أجسام والله تعالى هو المحدث لها.

وليس للمجبّرة أن تتعلّق بقوله: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ فتقول: ذلك يدلّ على أنّ الله خالق لأفعالنا لأُمور:

أحدها: أنّ موضوع كلام إبراهيم لهم بني على التقريع لهم لعبادتهم الأصنام، ولو كان ذلك من فعله تعالى لما توجّه عليهم العيب، بل كان لهم أن يقولوا: لِمَ توّبخنا على عبادتنا للأصنام والله الفاعل لذلك، فكانت تكون الحجّة لهم لا عليهم.

الثاني: أنّه قال لهم: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾ ونحن نعلم أنّهم لم يكونوا يعبدون نحتهم الّذي هو فعلهم، وإنّما كانوا يعبدون الأصنام الّتي هي الأجسام وهي فعل الله بلا شكّ. فقال لهم: ﴿والله خلقكم﴾ وخلق هذه الأجسام. ومثله قوله: ﴿فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ (١) ومثله قوله: ﴿وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا﴾ (٢) وعصا موسى لم تكن تلقف إفكهم، وإنّما كانت تتلقّف الأجسام الّتي هي العصا والحبال.

ومنها أنّ «ما» في قوله: ﴿وما تعملون﴾ لا يخلو أن تكون بمعنى «الّذي» أو تقع مع ما بعدها بمنزلة المصدر، فإن كانت بمعنى «الّذي»

---

(١) الأعراف: ١١٧. (٢) طه: ٦٩.

و«تعملون» صلتها، ولابدّ لها من عائد يعود إليها، فليس لهم أن يقدّروا فيها ضميراً لها ليصحّ ما قالوه، لأنّ لنا أن نقدّر ضميراً فيه فيصحّ ما نقوله، ويكون التقدير: وما يعملون فيه، والّذي يعملون فيه هي الأجسام.

وإن كانت مصدريّة فإنّه يكون تقديره: والله خلقكم وعملكم، ونفس العمل يعبّر به عن المعمول فيه، بل لا يفهم في العرف إلّا ذلك، يقال: فلان يعمل الخوص، وفلان يعمل السروج، وهذا الباب من عمل النجّار، والخاتم من عمل الصانع، ويريدون بذلك كلّه ما يعملون فيه.

فعلى هذا تكون الأوثان عملاً لهم بما يحدثون فيها من النحت والنجر، على أنّه تعالى أضاف العمل إليهم بقوله: ﴿وما تعملون﴾ فكيف يكون ما هو مضاف إليهم مضافاً إلى الله تعالى وهل يكون ذلك إلّا متناقضاً.

ومنها: أنّ الخلق في أصل اللغة هو التقدير للشيء وترتيبه، فعلى هذا لا يمتنع أن نقول: إنّ الله خالق أفعالنا بمعنى أنّه قدّرها للثواب والعقاب، فلا تعلّق للقوم على حال.

ثمّ حكى تعالى ما قال قوم إبراهيم بعضهم لبعض فإنّهم ﴿قالوا ابنوا له بنياناً﴾ قيل: إنّهم بنوا له شبه الحظيرة. وقيل: مثل التنّور وأجّجوا ناراً ليلقوه فيها. و«البناء» وضع الشيء على غيره على وجه مخصوص. ويقال لمن ردّ الفرع إلى الأصل: بناه عليه ﴿فالقوه في الجحيم﴾ بمعنى اطرحوه في النار الّتي أجّجوها له. و«الجحيم» عند العرب النار الّتي تجتمع بعضها على بعض.

ثمّ أخبر تعالى أنّ كفّار قوم إبراهيم أرادوا به كيداً وحيلةً وهو ما أرادوا من إحراقه بالنار ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ بأن أهلكهم الله ونجّا إبراهيم. وقيل:

منع الله ـ عزّ وجلّ ـ النار منه بل صرفها في خلاف جهته، فلمّا أشرفوا على ذلك علموا أنّهم لا طاقة لهم به.

ثمّ حكى ما قال إبراهيم حين كادوه، فإنّه قال: ﴿إنّي ذاهب إلى ربّي﴾ ومعناه إلى مرضاة الله ربّي بالمصير إلى المكان الّذي أمرني ربّي بالذهاب إليه. وقيل : إلى الأرض المقدّسة. وقيل: إلى أرض الشام. وقال قَتادة: معناه ﴿إني ذاهب إلى ربّي﴾ أي بعملي ونيّتي. ومعنى ﴿سيهدين﴾ يعني يهديني في ما بعد إلى الطريق الّذي أمرني بالمصير إليه أو إلى الجنّة بطاعتي إياه.

ثمّ دعا إبراهيم ربّه فقال: ﴿رَبِّ هَب لِي مِنَ الصالِحينَ﴾ يعني ولداً صالحاً من الصالحين، كما تقول: أكلت من الطعام، وحذف لدلالة الكلام عليه، فأجابه الله تعالى إلى ذلك وبشّره بغلام حليم أي حليماً لا يعجل في الأُمور قبل وقتها، وفي ذلك بشارة له على بقاء الغلام حتّى يصير حليماً. وقال قوم: المبشّر به إسحاق. وقال آخرون: إسماعيل. ونذكر خلافهم في ذلك في ما بعد.

قوله تعالى:

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ عشر آيات.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿ماذا ترى﴾ بضمّ التاء وكسر الراء، الباقون بفتح التاء. من ضمّ التاء أراد ماذا تشير، وقال الفرّاء: يجوز أن يكون المراد ماذا ترى من صبرك وجلدك، لأنّه لا يستشيره في أمر الله[١]. وأصله ترئي فنقلوا كسرة الهمزة إلى الراء، وحذفت الهمزة لسكونها وسكون الياء. ومن فتح جعله من الرأي والرؤية، لا من المشورة.

لمّا أخبر الله تعالى أنّه أجاب دعوة إبراهيم في طلب الولد وبشّره بولد حليم أخبر أنّ من وعده به ولد له وكبر وترعرع. ﴿فلمّا بلغ مع﴾ أبي﴿ه﴾ السعي يعني في طاعة الله. قال الحسن: سعى للعمل الّذي تقوم به الحجّة. وقال مجاهد: بلغ معه السعي، معناه أطاق أن يسعى معه ويعينه على أُموره، وهو قول الفرّاء، قال: وكان له ثلاث عشرة سنة[٢]. وقال ابن زيد: السعي في العبادة. ﴿قال يا بنيّ انّي أرى في المنام انّي أذبحك فانظر ماذا ترى﴾ وكان الله تعالى أوحى إلى إبراهيم في حال اليقظة، وتعبّده أن يمضي ما يأمره به في حال نومه من حيث إنّ منامات الأنبياء لا تكون إلّا صحيحة، ولو لم يأمره به في اليقظة لما جاز أن يعمل على المنامات.

أحبّ أن يعلم حال ابنه في صبره على أمر الله وعزيمته على طاعته فلذلك قال له: ماذا ترى، وإلّا فلا يجوز أن يوآمر في المضيّ في أمر الله ابنه، لأنّه واجب على كلّ حال. ولا يمتنع أيضاً أن يكون فعل ذلك بأمر الله أيضاً، فوجده عند ذلك صابراً مسلّماً لأمر الله.

و﴿قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ أي ما أمرت به ﴿ستجدني إنْ شاءَ الله من الصابرين﴾ ممّن يصبر على الشدائد في حبّ الله ويسلّم لأمره إليه.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٩٠.
(٢) معاني القرآن ٢: ٣٨٩.

﴿فلمّا أسلما﴾ يعني إبراهيم وابنه اي استسلما لأمر الله ورضيا به أخذ ابنه ﴿وتلّه للجبين﴾ معنى تلّه صرعه. و«الجبين» ما عن يمين الجبهة أو شمالها وللوجه جبينان الجبهة بينهما. وقال الحسن: معنى وتلّه أضجعه للجبين. ومنه التلّ من التراب وجمعه تلول. و«التليل» العنق، لأنّه يتلّ له.

﴿وناديناه أن يا إبراهيم﴾ و ﴿ناديناه﴾ هو جواب ﴿فلمّا﴾ قال الفرّاء: العرب تدخل الواو في جواب «فلمّا» و «حتّى» و «إذا» كما قال: ﴿حتّى إذا جاؤها فتحت أبوابها﴾[١] وفي موضع آخر ﴿وفتحت﴾[٢] وفي قراءة عبدالله ﴿فلمّا جهّزهم بجهازهم وجعل السقاية﴾[٣][٤] وفي المصاحف ﴿جعل﴾ بلا واو، وموضع «أن» نصب بوقوع النداء عليه وتقديره: وناديناه بأن يا إبراهيم أي هذا الضرب من القول فلمّا حذف الباء نصب. وعند الخليل أنّه في موضع الجرّ.

﴿قد صدّقت الرؤيا﴾ ومعناه فعلت ما أمرت به في الرؤيا، واختلفوا في الذبيح، فقال ابن عبّاس وعبد الله بن عمر ومحمّد بن كعب القرظي وسعيد ابن المسيّب والحسن في إحدى الروايتين عنه والشعبي: إنّه كان إسماعيل، وهو الظاهر في روايات أصحابنا[٥].

ويقوّيه قوله بعد هذه القصّة وتمامها: ﴿وبشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصالحين﴾ فدلّ على أنّ الذبيح كان إسماعيل. ومن قال: إنّه بشّر بنبوّة إسحاق دون مولده فقد ترك الظاهر، لأنّ الظاهر يقتضي البشارة بإسحاق دون نبوّته.

---

(١ و ٢) الزمر: ٧١ و٧٣. (٣) يوسف: ٧٠. (٤) معاني القرآن ٢: ٣٩٠.
(٥) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٦٧، ٢: ٨٩ ـ ٩٠، التوحيد: ٦٤، ٣٣٦، الكافي ٦: ٣١٠.

ويدلّ أيضاً عليه قوله: ﴿فبشّرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ولم يذكر إسماعيل، فدلّ على أنّه كان مولوداً قبله، وأيضاً فإنّه بشّره بإسحاق وأنّه سيولد له يعقوب فكيف يأمره بذبحه مع ذلك. وأجابوا عن ذلك بأنّ الله لم يقل: إنّ يعقوب يكون من ولد إسحاق. وقالوا أيضاً: يجوز أن يكون أمره بذبحه بعد ولادة يعقوب.

والأوّل هو الأقوى على ما بيّنّاه. وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّا ابن الذبيحين»[١] ولا خلاف أنّه كان من ولد إسماعيل، والذبيح الآخر عبد الله أبوه. وروي عن ابن عبّاس وعليّ وابن مسعود وكعب الأحبار أنّه كان إسحاق[٢]. وروي ذلك أيضاً في أخبارنا[٣].

وفي الناس من استدلّ بهذه الآية على جواز النسخ قبل وقت فعله من حيث إنّ الله تعالى كان قد امره بذبح ولده ثمّ نسخ عنه قبل أن يفعله، ولا يمكننا أن نقول: إنّ الوقت كان قد مضى، لأنّه لو أخّره عن الوقت الّذي امره به فيه لكان عاصياً، ولا خلاف أنّ إبراهيم لم يعصِ بذلك. فدلّ على أنّه نسخ عنه قبل وقت فعله.

ومن لم يجز النسخ قبل وقت فعله أجاب عن ذلك بثلاثة أجوبة:

أحدها: أنّ الله تعالى أمر إبراهيم أن يقعد منه مقعد الذابح ويشدّ يديه ورجليه ويأخذ المدية ويتركها على حلقه وينتظر الأمر بإمضاء الذبح على ما رأى في منامه وكلّ ذلك فعله، ولم يكن أمره بالذبح، وإنّما سمّي مقدّمات الذبح بالذبح لقربه منه وغلبة الظنّ أنّه سيؤمر بذلك على ضرب

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٦٧.

(٢) المستدرك للحاكم ٢: ٥٥٧ ـ ٥٥٨، تفسير الثعلبي ٨: ١٤٩.

(٣) الكافي ٦: ٣١٠ ح ٣.

من المجاز.

الثاني: أنّه إنّما أمره بالذبح وذبح، وكلّ ما فري جزء من حلقه وصله الله بلا فصل حتّى انتهى إلى آخره فاتّصل به، وصله الله تعالى ، فقد فعل ما أمر به ولم يبن الرأس ولا انتفى الروح.

الثالث: أنّه أمر بالذبح بشرط التخلية والتمكين، فكان كما روي أنّه كلّما أعمد بالشفرة انقلبت وجعل على حلقه صفحة من نحاس. وهذا الوجه ضعيف، لأنّ الله تعالى لا يجوز أن يأمر بشرط، لأنّه عالم بالعواقب، وإنّما يأمر الواحد منّا بشرط ذلك لأنّه لا يعلم العواقب، ولأنّ فيه أنّه أمر بما منع منه وهذا عيب.

فأمّا قول من قال: إنّه فداه بذبح فدلّ ذلك على أنّه كان مأموراً بالذبح على الحقيقة، اعتراضاً على الوجه الأوّل، لأنّ من شأن الفداء أن يكون من جنس المفدى.

فليس بشيء، لأنّه لا يلزم ذلك، ألا ترى أنّ من حلق رأسه وهو محرم يلزمه ذلك، وكذلك إذا لبس ثوباً مخيطاً أو شمّ طيباً أو جامع وإن لم يكن جميع ذلك من جنس المفدى.

وقوله: ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ معناه أنّا جازينا إبراهيم على فعله بأحسن الجزاء. ومثل ذلك نجزي كلّ من فعل طاعة، فإنّا نجازيه على فعله بأحسن الجزاء.

ثمّ أخبر تعالى بأنّ هذا الّذي تعبّد به إبراهيم هو البلاء المبين أي الاختبار الظاهر. وقيل: هو النعمة البيّنة الظاهرة، وتسمّى النعمة بلاء، والنقمة أيضاً بلاء من حيث إنّها سمّيت بسببها المؤدّي إليها، كما يقال

لأسباب الموت: هو الموت بعينه. و«المبين» هو البيّن في نفسه الظاهر، ويكون بمعنى الظاهر، ويكون بمعنى المظهر ما في الأمر من خير أو شرّ.

ثمّ قال تعالى: ﴿وفديناه﴾ يعني ولد إبراهيم ﴿بذبح عظيم﴾ فالفداء جعل الشيء مكان غيره لدفع الضرر عنه، ومنه فداء المسلمين بالمشركين لدفع ضرر الأشدّ عنهم، فكذلك فداء الله ولد إبراهيم بالكبش لدفع ضرر الذبح عنه. و«العظيم» هو الكبير.

وقيل: لأنّ الكبش الّذي فدى به يصغر مقدار غيره من الكباش عنه بالإضافة إليه. وقال ابن عبّاس: فدي بكبش من الغنم، وهو قول مجاهد والضحّاك وسعيد بن جبير. وقال الحسن: فدي بوعل أهبط به عليه جبرائيل.

وقيل: إنّه لا خلاف أنّه لم يكن من الماشية الّتي كانت لإبراهيم أو غيره في الدنيا. وقيل: إنّه رعى في الجنّة أربعين خريفاً. وقال مجاهد: وصفه بأنّه عظيم، لأنّه متقبّل. والذبح بكسر الذال المهيّأ لأن يذبح، وبفتح الذال المصدر.

وقوله: ﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ يعني على إبراهيم في الآخرين يعني أثبتنا عليه الثناء الحسن في أُمّة محمّد لأنّهم آخر الأُمم بأن قلنا: ﴿سلام على إبراهيم﴾ وقد بيّنّا ما في ذلك، ثمّ قال مثل ذلك: نجزي كلّ محسن، فاعل لما أمر الله به كما جازينا إبراهيم عليه السلام.

ثمّ أخبر تعالى أنّ إبراهيم كان من جملة عباده الّذين يصدّقون بتوحيد الله وبجميع ما أوجبه عليهم، ومن جملة المصدّقين بوعد الله ووعيده والبعث والنشور والجنّة والنار.

وإنّما قال: ﴿إنّه من عبادنا المؤمنين﴾ مع أنّه أفضل المؤمنين ترغيباً في

الإيمان بأنّه مدح مثله في جلالته بأنّه من المؤمنين، كما يقال: «هو من الكرماء» وكذلك قوله: ﴿ونبيّاً من الصالحين﴾[1] وإذا مدح بأنّه يسبّح وحده فلأنّه لا يقوم غيره مقامه ويستغنى به عنه.

قوله تعالى:

وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ احدى عشرة آية.

يقول الله تعالى بعد أن ذكر قصّة إبراهيم وولده الّذي أخبر الله بذبحه على ما فسّرناه: إنّه بشّره بإسحاق ولداً له آخر، نعمة عليه مجدّدة لما فعل من المسارعة إلى ما أمره الله به وصبره على احتمال المشقّة فيه، وبيّن أنّه نبيّاً من الصالحين وأنّه بارك عليه يعني على يعقوب وعلى إسحاق وخلق من ذرّيتهما الخلق الكثير، فمنهم محسن بفعل الطاعات، ومنهم ظالم لنفسه بارتكاب المعاصي بسوء اختياره ﴿مبين﴾ أي بيّن ظاهر.

ثمّ أقسم تعالى بأنّه مَنَّ على موسى وهارون أي أنعم عليهما نعمة قطعت عنهما كلّ أذيّة، فأصل المنّ القطع من قوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾[2] أي غير مقطوع، وحبل منين متقطّع، والمنيّة الموت، لأنّها قاطعة عن تصرّف الحيّ. والبركة ثبوت الخير النامي على مرور الأوقات،

---

(١) آل عمران: ٣٩. (٢) التين: ٦.

فبركته على إبراهيم وإسحاق باللطف في دعائهما إلى الحقّ، وبالخبر عن أحواله الجليلة في التمسّك بطاعة الله.

﴿ونجّيناهما وقومهما﴾ ومعناه أنّا خلّصنا موسى وهارون، ومن كان آمن بهما ﴿من الكرب العظيم﴾ أي: الأذى الّذي كان يؤذونهم بأن أهلك الله فرعون وقومه وغرقهم ﴿ونصرناهم﴾ يعني موسى وهارون وقومهما ﴿فكانوا هم الغالبين﴾ لأعدائهم بالحجج الظاهرة وبالقهر، من حيث إنّ الله غرق أعداءهم.

﴿وآتيناهما﴾ يعني موسى وهارون ﴿الكتاب المستبين﴾ يعني التوراة الداعي إلى ما فيه من البيان بالمحاسن الّتي تظهر منه في الاستماع، فكلّ كتاب الله بهذه الصفة من ظهور الحكمة فيه.

﴿وهديناهما الصراط المستقيم﴾ يعني أرسلنا موسى وهارون ودللناهما على الطريق المؤدّي إلى الحقّ الموصل إلى الجنّة بإخلاص الطاعة لله تعالى. وقال قَتادة: الطريق المستقيم الإسلام. ﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ أي الثناء الجميل. بأن قلنا: ﴿سلام على موسى وهارون﴾ كما قلنا: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾ (١).

ثمّ أخبر تعالى أنّ مثل ما فعل بهما يفعل بالمحسنين المطيعين ويجزيهم بمثل ذلك على طاعاتهم، ودلّ ذلك على أن ما ذكره الله كان على وجه الثواب على الطاعات لموسى وهارون ومن تقدّم ذكره، لأنّ لفظ «الجزاء» يفيد ذلك.

ثمّ أخبر أنّ موسى وهارون من جملة عباده المصدّقين بجميع ما

---

(١) الصافّات: ٧٩.

أوجبه الله عليهم العاملين بذلك.

قوله تعالى:

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا
وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

عشر آيات.

قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿الله ربّكم وربّ آبائكم﴾ نصباً، الباقون بالرفع. من نصب جعله بدلاً من قوله: ﴿أحسن الخالقين﴾ ومن رفع استأنف الكلام.

وقرأ نافع وابن عامر ويعقوب ﴿سلام على آل ياسين﴾ على إضافة «آل» إلى «ياسين» الباقون ﴿على الياسين﴾ موصولة. من أضاف أراد به على آل محمّد صلى الله عليه وآله لأنّ «يس» اسم من أسماء محمّد على ما حكيناه. وقال بعضهم: أراد آل إلياس عليه السلام. وقال الجبّائي: أراد أهل القرآن، ومن لم يضف أراد إلياس، وقال: إلياسين، لأنّ العرب تغيّر الأسماء العجميّة بالزيادة كما يقولون: ميكائيل وميكائين، وميكال وميكائل، وفي إسماعيل إسماعين، قال الشاعر:

يقول أهلُ السوق لماجينا هذا وربّ البيت إسرائينا(١)

أي إسرائيل، وفي قراءة عبد الله ﴿وإنّ إدريس لمن المرسلين سلام على إدراسين﴾.

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٣٩١، ولم ينسب لأحد.

وقيل أيضاً: إنّه جمع، لأنّه أراد الياس ومن آمن معه من قومه، وقال الشاعر:

قَدِني من نصرِ الخُبَيْبين قَدِي[١]

فجعل ابن الزبير أبا خُبيبٍ ومن كان على رأيه عدداً ولم يضفهم بالياء فيقول: خبيبيون، فخفّف في الشعر مثل الأشعرين، وكما قالوا: سيرة العمرين وخير الزهدمين، وإنّما أحدهما زهدم والآخر كردم. وقال قوم: تقديره: على ﴿آل ياسين﴾ فخفّف، لأنّه أراد إلياساً وقومه، كما قالوا: الأشعرون والمهلّبون. قال الشاعر:

أنا ابنُ سَعْدٍ أكْرَمَ السّعدِينا[٢]

وكلّهم قرأ ﴿وإنّ إلياس﴾ بقطع الهمزة إلّا ابن عامر، فإنّه فصل الهمزة وأسقطها في الدرج، فإذا ابتدأ فتحها، قال أبو عليّ النحوي: يجوز أن يكون حذف الهمزة حذفاً، كما حذفها أبو جعفر في قوله: ﴿إنّها لإحدى الكُبَر﴾[٣] ويحتمل أن تكون الهمزة الّتي تصحب لام التعريف[٤]. وهي تسقط في الدرج، وأصله «ياس».

أخبر الله تعالى أنّ الياس من جملة من أرسله الله إلى خلقه نبيّاً داعياً إلى توحيده وطاعته حين ﴿قال لقومه ألا تتّقون﴾ الله بترك معاصيه وفعل طاعاته، فاللفظ لفظ الاستفهام والمراد به الإنكار، كما يقول القائل: ألا تتّقي الله يا فلان في أن تظلم أو تزني، وما أشبه ذلك، وإنّما يريد بذلك الإنكار.

---

(١) أنشده الثعلبي في تفسيره ٨: ١٦٩، ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشده سيبويه في الكتاب ٢: ١٥٣ وحكى نسبته إلى رؤبة.

(٣) المدّثر: ٣٥.

(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣١٩.

ثمّ قال لهم: ﴿أتدعون بعلاً﴾ قال الحسن والضحّاك وابن زيد: المراد بالبعل ـ هاهنا ـ صنم كانوا يعبدونه، والبعل في لغة أهل اليمن هو الربّ، يقولون من بعل هذا الثوب أي من ربّه ـ وهو قول عكرمة ومجاهد وقَتادة والسدي ـ ويقولون هو بعل هذه الدابة أي ربّها، كما يقولون: ربّ الدار وربّ الفرس، وزوج المرأة بعلها، والنخل والزرع إذا استقى بماء السماء فهو بعل، وهو العذي، خلاف السقي. والأصل في الربّ المالك، فالزوج ربّ البضع لأنّه مالكه.

ومعنى الآية أتدعون بالإلهيّة صنماً عادلين عن أحسن الخالقين، وهذا إنكار عليهم أن يعتقدوا أنّ غير الله إله أو يقولون لغيره: يا إلهي. وقال قَتادة: إلياس وهو إدريس. وقال ابن إسحاق: هو من ولد هارون، وهو اسم نبيّ وهو أعجمي، فلذلك لم ينصرف، ولو جعل «أفعالاً» من الأليس ـ وهو الشجاع الجريء ـ لجاز.

ثمّ بيّن لهم الّذي هو أحسن الخالقين، فقال: ﴿الله ربّكم﴾ الّذي خلقكم ﴿وربَّ آبائكم﴾ أي: الّذي دبّركم وخلقكم وخلق آباءكم ﴿الأوّلين﴾ يعني من مضى من آبائكم وأجدادكم.

ثمّ حكى أنّ قومه كذّبوه ولم يصدّقوه، وأنّ الله أهلكهم وأنّهم لمحضرون عذاب النار، ثمّ استثنى من جملتهم عباده الّذين أخلصوا عبادتهم لله وبيّن أنّه أثنى عليهم في آخر الأُمم بأن قال: ﴿سلام على إل ياسين﴾ وآل محمّدﷺ هم كلّ من آل إليه بحسب أو بقرابة. وقال قوم: آل محمّد كلّ من كان على دينه.

ولا خلاف بين النحويّين أنّ أصل «آل» أهل فقلبوا الهاء همزة

وجعلوها مدّة لئلّا يجتمع ساكنان، ألا ترى أنّك إذا صغّرت قلت: أُهيل ولا يجوز أُويل، لأنّه ردّ إلى الأصل لا إلى اللفظ.

وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ معناه تتدبّرون وتتفكّرون في ما نزل بهؤلاء القوم وتعتبرون به لتجتنبوا ما كانوا يفعلونه من الكفر والضلال. وفي قوله: ﴿لمحضرون﴾ حذف، لأنّ تقديره: فإنّهم لمحضرون العقاب وأليم العذاب لتكذيبهم والجزاء بما تقتضيه الحكمة فيهم.

وهذا الإبهام تغليظ في الوعيد بالعذاب، لأنّه لعظمه معلوم لا يخفى أمره، ووجه الحجّة عليهم في قوله: ﴿وربّ آبائكم الأوّلين﴾ أنّه إذا كان الربّ واحداً وجب إخلاص العبادة لواحد، لأنّه الّذي يملك الضرّ والنفع في جميع الأُمور، وذلك يبطل عبادة الأوثان.

ثمّ قال: كما جازينا هؤلاء بهذا الجزاء وهو أن أثنينا عليهم في آخر الأُمم مثل ذلك نجزي من فعل الطاعات واجتنب المعاصي.

ثمّ أخبر أنّ إلياس كان من جملة عباده المصدّقين بجميع ما أخبر الله به من وعد ووعيد وغير ذلك، العاملين بما أوجب الله عليهم.

قوله تعالى:

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ * فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا

﴿فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨﴾ ستّ عشرة آية.

أخبر الله تعالى أنّ لوطاً كان من جملة من أرسله الله نبيّاً إلى خلقه داعياً لهم إلى طاعة الله ومنبّهاً لهم على وجه وحدانيّته، وأنّ قومه كذّبوه وجحدوا نبوّته فأهلكهم الله ونجّا لوطاً وأهله أجمعين.

واستثنى من جملة أهله الناجين عجوزاً أهلكها الله، لكونها على مثل ما كان قومه عليه ﴿في الغابرين﴾ أي في الباقين الّذين أُهلكوا. فالغابر الباقي قليلاً بعد ما مضى، ومنه الغبار، لأنّه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً. والتغبير التلحين لأنّه يبقى الصوت فيه بالترديد قليلاً، ومنه قول الشاعر:

به غَبَرٌ من دأبِهِ وهو صالِحُ

ثمّ إنّه لمّا نجّا لوطاً وأهله وخلّصهم، دمّر الآخرين من قومه. و«التدمير» الإهلاك على وجه التنكيل، دمّر عليهم: إذا غيّر حالهم إلى حال التشويه، فالله تعالى أهلك قوم لوط بما أرسل عليهم من الحجارة، وبما فعل بهم من انقلاب قراهم.

وقوله: ﴿وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ توبيخ من الله للكفّار الّذين عاصروا النبيّ ﷺ وتعنيف لهم على ترك اعتبارهم وإيقاظهم بمواضع هؤلاء الّذين أهلكهم الله ودمّر عليهم، مع كثرة مرورهم عليهم صباحاً ومساءً وليلاً ونهاراً وفي كلّ وقت. ومن كثر مروره بمواضع العبرة فلم يعتبر كان ألوم ممّن قل ذلك منه.

وقوله: ﴿أفلا تعقلون﴾ معناه أفلا تتدبّرون فتتفكّرون في ما نزل بهؤلاء القوم فتعتبرون به لتجتنبوا ما كان يفعله القوم من الكفر والضلال. وقيل: وجه القصص وتكريرها هو التشويق إلى مثل ما كانوا عليه من مكارم

الأخلاق ومحاسن الأفعال وصرف الناس عن مساوئ الأخلاق وقبائح الأفعال، قال الشاعر:

تلكَ المكارِمُ لاقَعْبانِ من لَبَنٍ شِيبَا بماءٍ فَعادا بَعْدُ أبوالا[١]

ثمّ قال تعالى مخبراً عن يونس عليه السلام: إنّه كان من جملة من أرسله الله إلى خلقه وجعله نبيّاً يدعو إلى توحيده وخلع الأنداد دونه.

وقوله: ﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾ معناه حين هرب إلى السفن المملوءة، فالإباق الفرار، فالآبق الفارّ إلى حيث لا يهتدي إليه طالبه، يقال: أبق العبد يأبق إباقاً فهو آبق: إذا فرّ من مولاه. والآبق والهارب والفارّ واحد. قال الحسن: فرّ من قومه ﴿إلى الفلك المشحون﴾ أي المحمل الموقر.

وقوله: ﴿فساهم﴾ قال ابن عبّاس: معناه قارع، وهو قول السدي ﴿فكان من المدحضين﴾ قال مجاهد: يعني من المسهومين. و«المساهمة» المقارعة، فلمّا ساهم يونس قومه وقع السهم عليه، فأُلقي في البحر فالتقمه الحوت، فكان من المدحضين. قال الحسن: كان من المقروعين.

وقيل: معناه فكان من الملقين في البحر. و«الدحض» الزلق لأنّه يسقط عنه المارّ فيه. ومنه قوله: ﴿حجّتهم داحضة﴾[٢] أي ساقطة، ودحض يدحض دحضاً فهو داحض، وأدحضته إدحاضاً.

وقيل: كان يونس عليه السلام قد توعّدهم بالعذاب إن أقاموا على ما هم عليه، فلمّا رأوا مخايل العذاب وأماراته دعوا الله أن يكشف عنهم وتابوا إليه، فكشفه. وكان يونس قد خرج قبل أن يأمره الله ـ عزّ وجلّ ـ بالخروج من بين قومه استظهاراً، فلمّا كشف الله عنهم لام نفسه على الخروج ومضى

---

(١) أنشده الخليل في العين ١ : ١٨٢، ولم ينسبه لأحد.

(٢) الشورى: ١٦.

على وجهه إلى أن ركب البحر.

وقيل : إنّما تساهموا لأنّهم أشرفوا على الغرق فرأوا أنّ طرح واحد أيسر من غرق الجميع.

وقيل: لا بل لمّا رأوا الحوت قد تعرّضت لهم قالوا: فينا مذنب مطلوب فتقارعوا، فلمّا خرج على يونس رموا به في البحر فالتقمه الحوت، ومعناه ابتلعه، يقال: التقمه التقاماً ولقم يلقم لقماً وتلقّم تلقّماً.

وقوله: ﴿وهو مليم﴾ معناه أتى بما يلام عليه وإن وقع مكفّراً عند من قال بتجويز الصغائر على الأنبياء، وعندنا قد يلام على ترك الندب، يقال: ألام الرجل إلامة فهو مليم. وقال مجاهد وابن زيد: المليم المذنب قال لبيد:

سَفَهاً عَذَلتِ وَلمتِ غَيرَ مُليمِ وهداكِ قَبلَ اليومِ غيرُ حَكيمِ(١)

ثمّ قال: ﴿فلولا أنّه كان من المسبّحين﴾ قال قَتادة: كان من المصلّين في حال الرخاء فنجّاه الله من البلاء. وقال سعيد بن جبير: كان يقول: لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين. و«التسبيح» التنزيه عمّا لا يليق ولا يجوز في صفته. ويقال: سبّح الله يسبّح تسبيحاً، إذا قال: سبحان الله معظّماً له بما هو عليه من صفات التعظيم، نافياً عنه مالا يليق به ولا يجوز عليه من صفات المخلوقين والمحتاجين.

وقوله: ﴿للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ إخبار منه تعالى أنّه لولا تسبيح يونس لتركه إليه أي كان يبقى في بطنه إلى يوم القيامة الّذي يحشر الله فيه الخلائق.

وقوله: ﴿فنبذناه بالعراء وهو سقيمٌ﴾ إخبار منه تعالى أنّه لمّا أراد تخليصه

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٨٨.

طرحه بالعراء، وهو الفضاء الّذي لا يواريه شجر ولا غيره. قال الشاعر:

فرفعتُ رِجْلاً لا أخاف عِثارَها ونبذتُ بالبلدِ العراءِ ثيابي[١]

وقال السدي: لبث في بطن الحوت أربعين يوماً. ﴿وهو سقيمٌ﴾ أي هو مريض حين ألقاه الحوت.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أنبت عليه شجرة من يقطين تكنّه من حرّ الشمس. و«اليقطين» كلّ شجرة ليس لها ساق يبقى من الشتاء إلى الصيف، فهي يقطين. وقال ابن عبّاس وقَتادة: هو القرع. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: كلّ شجر لا يقوم على ساق كالبطيخ والدباء والقرع فهو يقطين، وهو تفعيل من قطن بالمكان: إذا أقام به إقامة زائل لا إقامة راسخ كالنخل والزيتون ونحوه، والقَطَان من الحبوب الّتي تقيم في البيت مثل العدس والخُلوّه والحمص واحدها قُطنِية وقِطنية وقطينة سمّيت بذلك لقطونة البيت. قال أُمية بن أبي الصلت.

فأنبت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا الله ألقى ضاحيا[٢]

وروي عن ابن عبّاس: أنّ اليقطين كلّ شجرة لها ورق عريض. وقوله: ﴿وأرسلناه إلى مائة الف أو يزيدون﴾ قيل: أرسل الله يونس إلى أهل نينوى من أرض الموصل، في قول قَتادة. وقال ابن عبّاس: كانت رسالته بعدما نبذه الحوت، فيجوز على هذا أنّه أرسل إلى قوم بعد قوم. ويجوز أن يكون أُرسل إلى الأوّلين بشريعة فآمنوا بها.

وقيل: إنّ قوم يونس لمّا رأوا أمارات العذاب ولم يكونوا قد بلغوا حدّ

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٧٥، ونسبه إلى الخزاعي.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره ١٠: ٥٣٠.

الإجبار واليأس من البقاء آمنوا، وقبل الله إيمانهم، لأنّهم لو كانوا حصلوا في العذاب لكانوا ملجئين، ولما صحّ إيمانهم على وجه يستحقّ به الثواب.

وقوله: ﴿أو يزيدون﴾ قيل في معنى ﴿أو﴾: ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تكون بمعنى الواو، وتقديره: إلى مائة ألف وزيادة عليهم.

الثاني: أن تكون بمعنى «بل» على ما قال ابن عبّاس.

الثالث: أن تكون بمعنى الإبهام على المخاطبين، كأنّه قال: أرسلناه إلى إحدى العدّتين.

ثمّ حكى تعالى عنهم أنّهم آمنوا بالله وأقرّوا له بالوحدانيّة وراجعوا التوبة، وكشف الله عنهم العذاب ومتّعهم إلى وقت فناء آجالهم، فالتمتيع والإمتاع هو التعريض للمنافع الحاصلة كالإمتاع بالبساتين والرياض وشهي الطعام والشراب.

قوله تعالى:

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ اثنتا عشرة آية.

كلّهم قرأ ﴿أصطفى﴾ بفتح الهمزة إلّا ورشاً وإسماعيل عن نافع فإنّهما وصلاه على الخبر، وبه قرأ أبو جعفر قال أبو عليّ الفارسي: يجوز أن يكون على تقدير: لكاذبون في قولهم قالوا: اصطفى، ويجوز أن يكون

اصطفى البنات على ما يقولونه، والوجه قطع الهمزة، لأنّه على وجه التقريع، ويقوّيه قوله: ﴿أم اتّخذ ممّا يخلق بناتٍ﴾[1].

قال قَتادة والسدي: إنّ قريشاً كانت تقول: الملائكة بنات الله تعالى، فأمر الله نبيّهﷺ أن يستفتيهم بمعنى أن يطلب الحكم منهم في هذه القضيّة على وجه التقريع لهم والتوبيخ على قولهم بأن يقول لهم: ألربّكم البنات؟! يعني كيف يقولوا لربّك البنات يا محمّد ولهم البنون؟ ومن أين علموا أنّ الملائكة إناثاً أشاهدوا خلق الله لهم فرأوهم إناثاً؟ فإنّهم لا يمكنهم ادّعاء ذلك.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿ألا إنّهم من إفكهم﴾ أي من كذبهم ـ في قول قَتادة والسدي ـ هذا القول، وهو ان يقولوا: ﴿ولد الله وإنّهم لكاذبون﴾ في هذا القول.

ثمّ قال تعالى: ﴿أصطفى البنات على البنين﴾ من قطع الهمزة أراد الإنكار بلفظ الاستفهام، والمعنى كيف يكون هذا، وكيف يختار البنات على البنين. ومن وصل الهمزة أراد الإخبار بذلك، فالاصطفاء إخراج الصفوة من الشيء، وهي خالصته.

وإنّما يصطفي الله تعالى أفضل الأشياء، ومن اصطفى الأدون على الأفضل مع القدرة على الأعلى كان ناقصاً، والله تعالى لا يليق بصفات النقص في اصطفاء البنات على البنين مع استحالة اتّخاذ الولد عليه، لما في ذلك من معنى التشبيه، لأنّه إنّما يتّخذ الولد من يجوز أن يكون مثل ذلك ولداً له، ولذلك لا يجوز أن يتّخذ الشابّ شيخاً ولداً، ولا أن يتّخذ الإنسان

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٢١ ـ ٣٢٢ مع اختلاف يسير.

بعض البهائم ولداً، لمّا لم يكن ذلك ممكناً، فإذاً استحال الولد عليه تعالى، فما هو مشبّه به أولى بأن يستحيل عليه.

وأصل «اصطفى» اصتفى فقلبت التاء طاء لتعدل الحروف في الإطباق والاستعلاء بما هو من مخرج التاء، فالطاء وسط بين الحرفين لمناسبتها التاء بالمخرج والصاد بالاستعلاء والإطباق.

قوله: ﴿مالكم كيف تحكمون﴾ تهجين لهم بوضعهم الشيء في غير موضعه، لأنّهم وضعوه موضع الحكمة، وليس الأمر كذلك، إذ أنتم على فاحش الخطأ الّذي يدعو إليه الجهل.

وقوله: ﴿أم لكم سلطان مبينٌ﴾ معناه هل لكم حجّة ظاهرة وبرهان بيّن في ما تدّعونه وتحكمون به. وسمّي البرهان سلطاناً لأنّه يتسلّط به على الإنكار لمخالفة الحقّ والصواب. و«البيان» إظهار المعنى للنفس.

ثمّ قال على وجه الإنكار عليهم: ﴿فأتوا بكتابكم﴾ إن كان معكم حجّة من كتاب أنزله الله إليكم فهاتوه ﴿إن كنتم صادقين﴾ في هذا القول، فإنّهم لا يقدرون على ذلك أبداً.

ثمّ أخبر تعالى عن هؤلاء الكفّار أنّهم ﴿جعلوا بينه وبين الجنّة نسباً﴾ قال الحسن: أشركوا الشيطان في عبادة الله، فهو النسب الّذي جعلوه. وقال قوم: بل لأنّهم قالوا: إنّه تعالى تزوّج من الجنّ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقيل: سمّيت الملائكة جِنّة لاستتارهم عن العيون. ومعنى الآية أنّ هؤلاء الكفّار بجعلهم الملائكة بنات الله جعلوا بينه وبينهم نسباً، وهو قول مجاهد وقَتادة.

ثمّ قال تعالى على وجهالردّ عليهم: ﴿ولقد علمت الجنّة إنّهم لمحضرون﴾ وقال مجاهد وقَتادة: قال ذلك لأنّهم علموا أنّهم يحضرون الحساب. وقال السدي: علموا أنّ قائل هذا القول يحضر الحساب والعذاب.

ثمّ نزّه تعالى نفسه عن قولهم وصفتهم، فقال: ﴿سبحان الله عمّا يصفون إلّا عباد الله المخلصين﴾ استثنى عباده الّذين أخلصوا نفوسهم فوجّهوا العبادة إليه تعالى ووصفوه بما يليق به من جملة الكفّار القائلين بمالا يليق به.

قوله تعالى:

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّـآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ عشر آيات.

قرأ الحسن ﴿صائل الجحيم﴾ بالرفع وهي تحتمل شيئين: أحدهما: الجمع. والثاني: القلب، كقولهم: شاكٍ، وشائك في السلاح، وهارٍ وهائر، الباقون ﴿صال﴾ بكسر اللام على وزن «فاعل».

هذا خطاب من الله تعالى للكفّار الّذين كانوا يعبدون الأصنام بأن قال لهم: ﴿فإنّكم وما تعبدون﴾ فموضع «ما» نصب عطفاً على الكاف والميم، وهو في موضع نصب بـ«أن» والتقدير: إنّكم يا معشر الكفّار والّذين تعبدونه ﴿ما أنتم عليه بفاتنين﴾ وقال الفرّاء: تقديره: وإنّكم وآلهتكم ما أنتم عليه بفاتنين أي بمفتنين ﴿وما أنتم عليه﴾ أي وما أنتم على ذلك الدين بمضلّين عليه. وبه وله سواء في المعنى، وأهل نجد يقولون: أفتننت، وأهل الحجاز فتننت أي لستم عليه بفاتنين[1].

(١) معاني القرآن ٢: ٣٩٤.

و«الفاتن» الداعي إلى الضلالة بتزيينه له، فكلّ من دعا إلى عبادة غير الله بالإغواء والتزيين فاتن، لأنّه يخرجه إلى الهلاك. وأصل الفتنة من قولهم: فتنت الذهب بالنار: إذا أخرجته إلى حال الخلاص ﴿وفتناك فتوناً﴾[1] أي أخرجناك بالأمر الحقّ إلى حال الخلاص.

وقوله: ﴿إلّا من هو صال الجحيم﴾ أي لستم تفتنون إلّا من يصلى الجحيم، ومعناه إلّا من يلزم النار ويحترق بها، ومنه المصطلي، وهو المستدفئ بالنار، ومنه الصلاة للزوم الدعاء فيها، والمصلّي الّذي يجيء بعد السابق للزومه أثره. والمعنى أنّ من يقبل من هذا الفاتن وينقاد له فهو يصلى الجحيم.

وقوله: ﴿وما منّا إلّا له مقام معلوم﴾ معناه ما منّا ملك إلّا له مقام فحذف، ومعناه لا يتجاوز ما أُمر به ورتّب له، كما لا يتجاوز صاحب المقام مقامه الّذي حدّ له، فكيف يجوز أن يعبد من هو بهذه الصفة وهو عبد مربوب ووصف المقام بأنّه معلوم، لأنّه معلوم لله على ما تقتضيه الحكمة، وهو محدود لا يتجاوز ما علم منه ولا يخرج منه.

وقوله: ﴿وإنّا لنحن الصافّون﴾ قيل: صافّون حول العرش ينتظرون الأمر والنهي من الله تعالى. وقيل: الصافّون في الصلاة. وقوله: ﴿وإنّا لنحن المسبّحون﴾ معناه المصلّون من قولهم: فرغت من سبحتي أي من صلاتي، وسمّيت الصلاة تسبيحاً لما فيها من تسبيح الله وتعظيم عبادته. و«المسبّحون» القائلون: سبحان‌الله على وجه التعظيم له تعظيم العبادة.

وقوله: ﴿وإن كانوا ليقولون﴾ فـ«إن» هذه المخفّفة من الثقيلة بدلالة

---

(١) طه: ٤٠.

دخول اللام في خبرها، كما قال: ﴿وإن ربّك ليحكم بينهم﴾[(١)] ويلزمها هذه اللام ليفرق بين «إنّ» الثقيلة والخفيفة الّتي للجحد في مثل قوله: ﴿إن الكافرون إلّا في غرور﴾[(٢)].

والمعنى إنّ هؤلاء الكفّار كانوا يقولون: ﴿لو أنّ عندنا ذكراً﴾ أي كتاباً فيه ذكر من كتب الأوّلين الّذي أنزله على أنبيائه. وقيل: يعني علماً يسمّى العلم ذكراً، لأنّ الذكر من أسبابه، فسمّي باسمه ﴿من الأوّلين﴾ الّذين تقدّمونا وما فعل الله بهم ﴿لكُنّا﴾ نحن أيضاً من ﴿عباد الله المخلصين﴾ الّذين أخلصوا العبادة له، فجعلوا العذر في امتناعهم من الإيمان أنّهم لا يعرفون أخبار من تقدّمهم، وهل حصلوا في جنّة أو نار.

فقال الله تعالى: ﴿فكفروا به﴾ يعني بالذكر، لأنّهم طلبوا كتاباً كما للأوّلين التوراة دالّاً على توحيد الله، فلمّا جاءهم القرآن كفروا به، وبمن جاء بالقرآن ـ في قول ابن عبّاس والسدي ـ فهدّدهم الله على هذا الكفر فقال: ﴿فسوف يعلمون﴾ في ما بعد إذا عاقبناهم بعقاب النيران.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ اثنتا عشرة آية بلا خلاف.

---

(١) النحل: ١٢٤.
(٢) الملك: ٢٠.

أقسم الله تعالى ـ لأنّ هذه اللام لام القسم ـ بأنّه ﴿سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين﴾ الّذين بعثهم الله إلى خلقه بأنّهم سينصرون بنصرهم على أقوامهم بالحجج، وإنّما قدّم الله تعالى الكلمة للمرسلين بأنّهم سينصرون لما في ذلك من اللطائف للملائكة والسامعين لها، وسمّيت جملة من الكلام بأنّها كلمة لانعقاد بعض معانيه ببعض حتّى صار يلحقه صفة التوحيدكخبر واحد وقضيّة واحدة. وقالالسدي: النصرللمرسلين بالحجّة، لأنّ منهم من قتل. وقال الحسن: ما غلب نبيّ في حرب ولا قتل فيها قطّ.

ثمّ أخبر تعالى أنّ جنود الله للكفّار لغالبون أي يقهرونهم تارةً بالحجّة، وأُخرى بالقتل. ثمّ قال لنبيّهﷺ ﴿فتولّ عنهم﴾ يعني أعرض عن هؤلاء الكفّار ﴿حتّى حين﴾ إلى أن آمرك بقتالهم، يعني يوم بدر، في قول السدي. وقال قَتادة: إلى الموت. وقال قوم: إلى يوم القيامة. وقال قوم: إلى انقضاء مدّة الإمهال.

وقوله: ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ معناه انظرهم فسوف يرون العذاب، في قول ابن زيد. وقال غيره: أبصر حالهم بقليل. وقيل: أبصرهم في وقت البصر. وفي الآية دلالة على المعجز، لأنّه تعالى وعد نبيّه بالنصر، فكان الأمر على ما قال.

وقوله: ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ معناه الإنكار عليهم بأنّهم يطلبون العذاب عاجلاً قبل وقته. ثمّ قال: ﴿فإذا نزل﴾ يعني العذاب ﴿بساحتهم﴾ أي بفنائهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ أي بئس الصباح صباح من خوّف وحذّر فلم يحذر ولم يخف. فالساحة ناحية الدار، وهو فناؤها، وهو الفناء الواسع، فلذلك وصف بأنّه نازل به العذاب لعظمه ولا يسعه إلّا الساحة

ذات الفناء الواسع.

وقال السدي: نزل بساحتهم أي بدارهم. وساء إذا كانت بمعنى بئس لا تتصرّف مثل هذه، ومثل قوله: ﴿ساء مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا﴾ (١) ولو كان بمعنى الإخبار المحض لجاز أن يقال: ساءه يسوءه سوءاً أي أوقع به ما يسوؤه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فتولّ عنهم حتى حين﴾ أي أعرض عنهم إلى حين، وقد فسّرناه. ﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾ وقد مضى معناه، وإنّما كرّر لأنّهما عذابان عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فكأنّه قال: وأبصرهم في عذاب الآخرة وأبصرهم في عذاب الدنيا.

ثمّ قال: ﴿سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون﴾ أي التنزيه لربّك عمّا لايليق به من الصفات، ربّك الّذي خلقك ويملك التصرّف فيك ربّ العزّة يعني العزّة الّتي يعزّ الله بها الأنبياء والمرسلين، وهي صفة القادر الّذي لايضام ولا يرام، فالعزّة لله ـ عزّ وجلّ ـ وهو ربّها، لأنّه القادر الّذي لايعجزه شيء منها، ولا من غيرها جلّ وعلا.

﴿عمّا يصفون﴾ يعني ما يصفه به الكفّار من اتّخاذ الأولاد واتّخاذ الشريك. ﴿وسلام على المرسلين﴾ الّذين أرسلهم الله إلى عباده ﴿والحمدلله ربّ العالمين﴾ أي والشكر والحمدلله الّذي خلق جميع العالم وملك التصرّف فيهم.

---

(١) الأعراف: ١٧٧.

# سورة ص

هي مكّية في قول مجاهد وقَتادة والحسن، ليس فيها ناسخ ولامنسوخ وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وخمس وثمانون في البصري وستّ في المدني.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله:

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ (٥) خمس آيات.

قرأ الحسن ﴿صادِ﴾ بكسر الدال، وقال عيسى بن عمر بفتحها، الباقون بالوقف. وهو الصحيح، لأنّ حروف الهجاء يوقف عليها. ومن كسر فلاجتماع الساكنين. وقيل: إنّه جعل من المصاداة وهي المعارضة. ومن فتح فلأنّ الفتحة أخفّ من الكسرة.

ولم يعدّوا ﴿صاد﴾ آية، لأنّه يشبه الاسم المفرد في أنّه على ثلاثة

أحرف في هجاء حروف المعجم، نحو «باب وذات وناب» وإنّما يعدّ آية ما يشبه الجملة وشاكل آخره رؤوس الآي الّتي بعده بالردف ومخرج الحروف. وليس ـ هاهنا ـ شيء من ذلك.

واختلفوا في معنى «صاد» فقال قوم: هو اسم من أسماء السورة على ما أخبرناه في ما مضى[1]. وقال ابن عبّاس: هو اسم من أسماء الله أقسم به. وقال السدي: هو من حروف المعجم. وقال الضحّاك: معناه صدق. وقال قَتادة: هو اسم من أسماء القرآن أقسم الله تعالى به. وقال الحسن: هو من المصاداة وهو «صاد» بالكسر أمر للنبيّ ﷺ أي عارض القرآن بعملك.

﴿والقرآن﴾ قسم، فلذلك جرّ ﴿ذي الذكر﴾ قال ابن عبّاس: ذي الشرف. وقال الضحّاك وقَتادة : ذي التذكّر. وقيل: معناه ذي الذكر للبيان والبرهان، المؤدّي إلى الحقّ الهادي إلى الرشد الرادع عن الغيّ. وفيه ذكر الأدلّة الّتي من تمسّك بها سعد، ومن عدل عنها شقي، ومن عمل بها نجا، ومن ترك العمل بها هلك.

واختلفوا في جواب القسم، فقال قوم: هو محذوف وتقديره: لجاء الحقّ وظهر، لأنّ حذف الجواب في مثل هذا أبلغ، لأنّ الذكر يقصر المعنى على وجه والحذف يصرف إلى كلّ وجه فيعمّ.

وقال قوم: جوابه ما دلّ عليه قوله: ﴿بل الّذين كفروا﴾ كأنّه قال: والقرآن ذي الذكر ما الأمر على ما قالوا، ذكر ذلك قَتادة.

وقال الفرّاء والزجّاج: الجواب «كم» وتقديره: لكم أهلكنا. فلمّا طال الكلام حذفت اللام وصارت «كم» جواباً للقسم واليمين. ومثله قوله:

---

(١) تقدّم في ج ١ ص ٣٥٨.

﴿ونفس وماسوّاها * فألهمها﴾ [1] فصارت﴿قد أفلح﴾ تابعة لقوله: ﴿فألهمها﴾ وكفى عن جواب القسم، وكأنّه قال: والشمس وضحاها لقد أفلح[2]. وقال قوم: الجواب قوله: ﴿إنّ ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النار﴾ [3] إلّا أنّه قد بعد عن أوّل الكلام.

وقوله: ﴿بل الّذين كفروا في عزّة وشقاق﴾ إخبار منه تعالى أنّ الكفّار في عزّة وحمية وفراق في قول قتادة. وقال ابن زيد: الشقاق الخلاف، والعزّة المنعة في اقتدار فالله تعالى أقدر هؤلاء الكفّار ومكّنهم ليقوّوا بها على الطاعات، فتقوّوا ـ بسوء اختيارهم ـ بها على المعاصي وعلى دفع الحقّ الّذي أتاهم وصاروا في شقّ غير شقّ رسولهم الّذي من قبل ربّهم.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أهلك أُمماً كثيرة قبل هؤلاء الكفّار حين عصاه الّذين كفروا، فلمّا نزل بهم العذاب نادوا واستغاثوا ﴿ولات حين مناص﴾ معناه لات حين فرار من العذاب. وقيل: المناص المنجاة، يقال: ناص ينوص نوصاً: إذا تأخّر. وباص يبوص بوصاً: إذا تقدّم، قال امرؤ القيس:

أمِنْ ذِكرِ ليلى أن نأتكَ تَنوصُ ... فتقصُرُ عنها خُطوةً وتَبوصُ[4]

ونصب ﴿لات حين﴾ لأنّها مشبّهة بـ«ليس» من جهة أنّها نفي ولا تعمل إلّا في «الحين» خاصّة لضعف الشبه عن منزلة «ما» إذ كانت «ما» تشبه «ليس» من جهة النفي والحال، قال الشاعر:

تَذكّر حبّ ليلى لاتَ حينَا ... وأضحَى الشَيبُ قد قطعَ القرينَا[5]

(١) الشمس: ٧و٨.
(٢) معاني القرآن ٢: ٣٩٧، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣١٩.
(٣) ص: ٦٤.
(٤) ديوان امرئ القيس: ١٢٢، وفيه: «سلمى» بدل «ليلى».
(٥) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢ : ٣٩٧، وحكي إنشاده عن المفضّل.

والوقف على «لات» بالتاء على قياس نظيرها من «ثمت وربت» لأنّ ما قبلها ساكن، وهو قول الفرّاء[١] والكسائي يقف بـالهاء «لاه» يـجعل الألف في نيّة الحركة. ومن زعم أنّه «لا تحين» موصوله فقد غلط، لأنّها في المصحف وتأويل العلماء مفصولة. وقيل: إنّ «مناص» جـرّ بـ«لات» وانشدوا لأبي زُبَيْد.

طـلبوا صـلحنا ولات أوان فاجبنا أن ليس حِينَ بقاءِ[٢]

وقال الزجّاج: أنشده أبو العبّاس بالرفع، وقـد روي بـالكسر. وقـال الزجّاج: من كسر رأى أن يجعله مبنيّاً بـمنزلة نـداء ذلك الأقـوام وبـناه، فحذف المضاف إليه وكسر دون أن يضمّ، لأنّه نوّنه، فأجراه على نـظائره من المنوّن المبنيّ وأراد ولات أواننا[٣].

ثمّ أخبر تعالى أنّ الكفّار عجبوا حين ﴿جاءهم منذر﴾ أي مخوّف من جهة الله يحذّرهم معاصيه ويدعوهم إلى طاعته، وقالوا: هذا شيء عجاب، وعجيب وعجاب وعجّاب بمعنى واحد، مثل كريم وكرام وكرّام. فـعجب هؤلاء الكفّار من أنّ الله بعث نبيّهم وهو منهم، وقالوا: كيف خصّ بـذلك وليس بأشرفنا ولا أغنانا.

وقيل: إنّ أبا جهل وجماعة من أشراف قريش مشوا إلى أبي طـالب وشكوا إليه النبيّ ﷺ وقالوا له: قد سفّه أحـلامنا وشـتم الآلهـة، فـدعاه أبوطالب وقال له: ما لأهلك يشكـونك؟ فـقال النـبيّ ﷺ: أدعـوهم إلى كلمتين حقيقتين يسودون على العرب بها، ويؤدّي الخراج إليهم بها العجم،

---

(١) معاني القرآن ٢: ٣٩٨.
(٢) أنشده الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٢٠.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٢٠ ـ ٣٢١.

فقال أبو جهل وغيره: ما هما؟ فقالﷺ: تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسولالله. فقال أبو جهل: أتجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! فأنزل الله الآية.

قوله تعالى:

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَـٰبِ ۝١٠﴾.

خمس آياتٍ في الكوفي وأربع في الباقي.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفّار الّذين ذكرهم أنّهم انطلقوا أي ذهبوا فالانطلاق ذهاب بسهولة، ومنه طلاقة الوجه وهي سهولة وبشر خلاف العبوس.

وقوله: ﴿أن امشوا﴾ قال الزجّاج: أي بهذا القول، وتقديره بأن امشوا. وقال قوم: معنى ﴿أن﴾ أي الّتي للتفسير، لأنّه صار انطلاقهم لدلالته على هذا المعنى بمنزلة الناطق به، كما يقولون: قام يصلّي أي أنا رجل صالح. وقال بعضهم: معناه الدعاء لهم بأن يكثر ماشيتكم. وهذا باطل لفظاً ومعنًى فاللفظ لأنّه لو كان كما قالوه لكانت الهمزة من ﴿أن امشوا﴾ إذا أمر منها مفتوحة، لأنّه من أمشى يمشي: إذا كثرت ماشيته، والأمر منه أمشوا بقطع الهمزة، والقراءة بكسرها، قال الشاعر:

وكلّ فتى وإن أثرى وأمشى ستسلخه من الدنيا المنون[1]

---

(١) أنشده ابن دريد في الجمهرة ١: ١٥٩، ونسبه إلى النابغة الذبياني. وفيه: «ستخلجه» بدل «ستسلخه».

وأمّا المعنى، فلأنّه لا يشاكل ما قبله ولا ما بعده.

وقوله: ﴿واصبروا على آلهتكم﴾ أمر منهم بعضهم لبعض أن يصبروا على عبادة آلهتهم وتحمّل المشاقّ لأجلها. وقال مجاهد: القائل لذلك عقبة بن أبي معيط. فالصبر محمود إذا كان في حبس النفس عن المحارم، فهؤلاء الجهّال اعتقدوا أنّ الحقّ في الصبر على آلهتهم، ولم يعلموا أنّ ذلك كفر. وفي ذلك دلالة على فساد قول من يقول: إنّ المعارف ضرورة، قال الحسن: إنّ هذا يكون في آخر الزمان.

وقوله: ﴿إنّ هذا لشيءٌ يراد﴾ معناه هذا الّذي يدّعيه محمّد ويدعوهم إليه لشيء يراد به أمر ما من الاستعلاء علينا والرياسة فينا والقهر لنا.

ثمّ حكى ما قالوه فإنّهم قالوا: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ يعنون ما يدعوهم إليه النبيّ ﷺ من التوحيد وخلع الأنداد من دون الله ﴿في الملّة الآخرة﴾ قال ابن عبّاس: يعنون في النصرانيّة، لأنّها آخر الملل. وقال مجاهد: يعنون في مكّة وقريش.

ثمّ قالوا: ﴿إن هذا إلّا اختلاقٌ﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد: معناه ليس هذا إلّا تخرّص وكذب. ثمّ تعجّبوا فقالوا: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾ يعنون كيف خصّ محمّد بإنزال القرآن دوننا؟! فقال الله تعالى: ﴿بل هم في شكٍّ من ذكري﴾ معناه ليس يحملهم على هذا القول إلّا الشكّ في الذكر الّذي أنزلت على رسولي ﴿بل لمّا يذوقوا عذاب﴾.

ثمّ قال: ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربّك﴾؟ قال الفرّاء: الاستفهام إذا توسّط الكلام ابتدئ بألف وبـ«أم» وإذا لم يسبق كلام لم يكن إلّا بألف أو بـ«هل».

ووجه اتّصال هذا القول بما تقدّم هو اتّصال الإنكار لما قالوا فيه، أي ذلك ليس إليهم وإنّما هو إلى من يملك هذه الأمور. و﴿خزائن رحمة ربّك﴾

معناه مقدوراته الّتي يقدر بها على أن ينعم بها عليهم. وقوله: ﴿العزيز﴾ يعني القادر الّذي لا يغالب ولا يقهر ﴿الوهّاب﴾ لضروب الأنعام.

﴿أم لهُم ملكُ السماوات والأرض وَمَا بينهما﴾ فإن كان لهم ذلك ﴿فليرتقوا في الأسباب﴾ وهي جمع سبب وكلّ ما يتوصّل به إلى المطلوب ـ من حبل أو سلّم أو وسيلة أو رحم أو قرابة أو طريق أو جهة ـ فهو سبب، ومنه قيل: تسبّبت بكذا إلى كذا أي توصّلت إليه.

قوله تعالى:

جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ خمس آيات.

قرأ حمزة والكسائي ﴿فواق﴾ بضمّ الفاء، الباقون بفتحها. فالفواق بفتح الفاء معناه مالها من راحة، وإذا ضممت الفاء فالمعنى مالها من فواق ناقة وهو قدر ما بين الحَلبتين. وقيل: هو ما بين الرضعتين. وقيل: هما لغتان مثل قصاص الشعر وقصاصه، وحَمام الماء وحمامه، وهو الإفاقة، وهو الإنابة بعد الفترة.

و«ما» في قوله: ﴿جندٌ ما﴾ صلة، وتقديره: جندما هنالك، و «هنالك» للمكان البعيد و«هناك» للمتوسّط بين القرب والبعد و«هنا» للقريب، ونظيره «ذا» و«ذاك» و«ذلك». ومثل «ما» في كونها صلة قولهم: «لأمر ما جدع قصير أنفه». وعندي طعام ما، قال الأعشى:

فاذْهِبَي ما إليكِ أدركني الحـ ـلمُ عَداني عن هيجكم أشغالي[1]

(١) ديوان الأعشى: ١٦٨، وفيه: «ذكركم» بدل «هيجكم».

وقيل: إنّها تقوية للنكرة المبتدأة في «ما» و«الجند» جمع معدٌّ للحرب وجمعه أجناد وجنود، وجند الأجناد أي جيش الجيوش. ومنه قوله ﷺ: «الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».(١)

وقوله: ﴿مهزومٌ﴾ يعني مغلوب عن أن يصعدوا إلى السماء. والمهزوم من وقعت بهم الهزيمة، وهي الفرار من الحرب، ولو فرّ إنسان من ضرب لم يكن ذلك هزيمة، وكذلك من فرّ من الحبس. وقوله: ﴿من الأحزاب﴾ معناه من حزب إبليس وأتباعه.

ثمّ أخبر تعالى أنّه كذّب مثل هؤلاء الكفّار، فأنّث لأنّه أراد العشيرة ﴿قوم نوح﴾ فأغرقهم الله، وقوم ﴿عادٌ﴾ فأهلكهم الله ﴿وفرعون﴾ وقوم فرعون ﴿ذُوَ الأوتاد﴾ وقيل في معناه أقوال:

منها: أنّه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها، وهو قول ابن عبّاس وقَتادة. وقال السدّي والربيع بن أنس: إنّه كانت له أوتاد يعذّب الناس بها. وقال الضحّاك: معناه ذو البنيان، والبنيان أوتاد.

ثمّ قال: ﴿وثمود وقوم لوطٍ وأصحاب الأيكة﴾ أيضاً هم الأحزاب يعني أحزاب إبليس. و«الأيكة» الغيضة. وقال أبو عمرو بن العلا: هي الملتفت من النبع والسدر. وقال السدي: هي الحرجة، قال الشاعر:

أَفَمِنْ بكاءِ حَمامةٍ في أَيكَةٍ ... يَرفَضّ دمعُكَ فَوقَ ظَهرِ المِحْمَلِ(٢)

يعني محمل السيف.

وقوله: ﴿إن كلّ إلّا كذّب الرسل﴾ معناه ليس كلّهم إلّا كذّبوا أنبياء الله

---

(١) الاعتقادات للصدوق: ٢٦.

(٢) قائله عنترة بن شدّاد، انظر ديوانه: ١١٠، وفيه: «ذرفت دموعك» بدل «يرفضت دمعك».

وجحدوا نبوّتهم فاستحقّوا عقابي.

ثمّ قال: ﴿وما ينظر هؤلاء إلّا صيحةً واحدةً﴾ أي ليس ينظر هـؤلاء إلّا صيحة عذاب لا يكون لتلك الصيحة ﴿من فواقٍ﴾ أي مـالها مـن إفـاقة بالرجوع إلى الدنيا، وهو قول قَتادة والسدي. وقال ابـن زيـد: ﴿مالها من فواقٍ﴾ أي من فتور كما يفيق المريض.

قوله تعالى:

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ خمس آيات.

يقول الله مخبراً عن هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم بأنّهم يقولون عـلى وجه الاستهزاء بعذاب الله: يا ﴿ربّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا﴾ أي قدّم لنا نصيبنا من العذاب، قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة: طلبوا حظّهم من العذاب تـهزّءاً بخبر الله وشكّاً فيه. وقال السدي: إنّما سألوا أن يريهم حظّهم [من] النعيم في الجنّة حتّى يؤمنوا. وقيل: إنّما سألوا أن يعجّل كتبهم الّتي يقرؤونها في الآخرة استهزاءً منهم بهذا الوعيد. و«القطّ» الكتاب، قال الأعشى:

وَلا المَلِكُ النُـعمانُ يـومَ لَـقَيتَهُ بنعمته يعطي القُطُوط وَيَأفِقُ[1]

أي كتب الجوائز، لأنّها قطع نصيب لكلّ واحد بما كتب. و«التعجيل» فعل الشيء قبل وقته الّذي ينبغي أن يفعل فيه. و«القطّ» النصيب وأصله

(١) ديوان الأعشى: ١٢٢، وفيه: «بإمّته» بدل «بنعمته».

القطع من قولك: قطّه يقطّه قطّاً مثل قدّه يقدّه قدّاً، ومنه قولهم: ما رأيته قطّ أي قطع الدهر الّذي مضى.

﴿قبل يوم الحساب﴾ أي قبل اليوم الّذي يحاسب فيه الخلق ويجازون فيه على أعمالهم على ما يقولونه. فقال الله تعالى لنبيّهﷺ: ﴿اصبر على ما يقولون﴾ أي احبس نفسك على أذاهم وصبّرها على أقوالهم ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾ ترغيباً له في الصبر المأمور به وأنّ لك يا محمّد فيه من إحسان الله إليك على نحو إحسانه إلى داود قبلك، وأنّه لو شاء لأعطاك في الدنيا مثل ما أعطى داود ولكنّه دبّر لك ما هو أعود لك.

وقوله: ﴿ذا الأيْد﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة: معناه ذا القوّة، ومنه قوله: ﴿والسماء بناها بأيدٍ﴾[1] أي بقوّة. وقوله: ﴿إنّه أوّاب﴾ قال ابن زيد: معناه توّاب، وبه قال مجاهد، وهو من آب يؤب أي رجع إلى الله فلذلك مدحه.

ثمّ أخبر تعالى عن نعمه الّتي أنعم بها على داود، فقال: ﴿إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق﴾ ومعناه أنّها كانت تسير بأمر الله معه حيث سار بالغداة والعشيّ، فسمّى الله ذلك تسبيحاً لما في ذلك من دلالته على قدرته وغناء من خلقه وصفاته الّتي لا يشاركه فيها غيره. و«الإشراق» وقت طلوع الشمس يقال: شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت.

﴿والطير محشورةً﴾ وتقديره: وسخّرنا الطير محشورة، أي مجموعة من كلّ ناحية إليه يعني الطير والجبال ﴿له أوّاب﴾ أي رجّاع إلى ما يريد.

(١) الذاريات: ٤٧.

وقيل: مسخّرة، ذكره قَتادة. وقال الجبّائي: لا يمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم به مراده وأمر داود من نهيه، فتطيعه في ما يريده منها وإن لم تكن كاملة العقل ولا مكلّفة.

ثمّ قال: ﴿وشدّدنا ملكه﴾ يعني قوّينا ملكه بالجنود والهيبة ﴿وآتيناه الحكمة﴾ أي علّمناه الحكمة ﴿وفصل الخطاب﴾ ومثله قوله: «البيّنة على المدّعي واليمين على المدّعى عليه» أي إصابة الحكم بالحقّ.

وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد بتسبيح الجبال معه هو ما أعطى الله تعالى داود من حسن الصوت بقراءة الزبور، فكان إذا قرأ الزبور أو ذكر ما هو تسبيح لله ورفع صوته بين الجبال ردّ الجبال عليه مثله كما يردّ الصدى، فسمّى الله ذلك تسبيحاً لما تضمّنه من الدلالة. والأوّل أحسن.

قوله تعالى:

وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ خمس آيات.

هذا خطاب من الله تعالى لنبيّه وصورته صورة الاستفهام، والمراد إخباره بما كان من قصّة داود من الحكم بين الخصمين وتنبيهه على موضع إخلاله ببعض ما كان ينبغي أن يفعله فقال: ﴿وهل أتاك نبؤُا الخصم﴾

يعني خبره، فالنبأ الخبر بما يعظم حاله.

﴿إذ تسوَّروا المحراب﴾ يعني حين صعدوا إليه. و«الخصم» هو المدّعي على غيره حقّاً من الحقوق المنازع له فيه، ويعبّر به عن الواحد والاثنين والجماعة بلفظ واحد، لأنّ أصله المصدر، فتقول: رجل خصم، ورجلان خصم، ورجال خصم، ولذلك قال: ﴿إذ تسوّروا المحراب﴾ لأنّه أرادالمدّعي والمدّعى عليه ومن اتّبعهما، فلا يمكن أن يتعلّق به في أنّ أقلّ الجمع إثنان لما قال: ﴿خصمان بغى بعضنا على بعضٍ﴾ لأنّه أراد بذلك الفريقين.

والخصم من خصمته أخصمه خصماً. والتسوّر الإتيان من جهة السور، يقال: تسوّر فلان الدار: إذا أتاها من قبل سورها، وكانوا أتوه من أعلى المحراب، فلذلك فزع منهم. و«المحراب» مجلس الأشراف الّذي يحارب دونه لشرف صاحبه، ومنه سمّي المصلّى محراباً، وموضع القبلة أيضاً محراب.

وقوله: ﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ معناه أنّ هؤلاء حين دخلوا على داود من غير الجهة الّتي اعتاد الدخول عليه منها فزع منهم، لأنّه ظنّهم أعداء يريدون به سوء فقالوا له: ﴿خصمان﴾ أي نحن خصمان يعني فريقان بغى بعضنا على بعض، قولهما: خصمان بغى بعضنا على بعض لأنّهما كانا ملكين ولم يكونا خصمين ولا بغى أحدهما على الآخر، وإنّما هو على المثل.

﴿فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطط﴾ معناه ولا تجاوز الحقّ ولا تجر ولاتسرف في حكمك بالميل مع أحدهما على الآخر، يقال: أشَطّ في حكمه: إذا جار، يشطّ فهو مشطّ، وشططت عليَّ في السوم تَشطّ شططاً، قال الشاعر:

ألا يا لِقَومي قد أشـطّتْ عـواذلي ويزعمنَ أن أودى بحقّي باطلي [١]

وقال آخر:

يُشـطّ غـداً دار جـيرانـنا وللـدار بـعد غـدٍ أبْـعَدُ [٢]

وقوله: ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ معناه أرشدنا إلى قصد الطريق الّذي هو طريق الحقّ ووسطه، كما قال: ﴿فاطّلع فرآه في سواء الجحيم﴾ [٣].

ثمّ حكى تعالى ما مكان أحد الخصمين لصاحبه، فقال: ﴿إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجةٌ ولي نعجةٌ واحدةٌ﴾ قال وهب بن منبّه: يعني أخي في ديني. وقال أكثر المفسّرين: إنّه كنّى بالنعاج عن تسع وتسعين امرأة كانت له وإنّ الآخر له نعجة واحدة يعني امرأة واحدة. وقال الحسن: لم يكن له تسع وتسعون امرأة وإنّما هو على وجه المثل.

وقال أبو مسلم محمّد بن بحر الإصفهاني: أراد النعاج بأعيانها. وهـو الظاهر غير أنّه خالف أقوال المفسّرين، وقال: هما من ولد آدم ولم يكونا ملكين وإنّما فزع منهما لأنّهما دخلا عليه في غير الوقت المـعتاد. وهـو الظاهر غير أنّه خلاف أقوال المفسّرين على ما قلناه.

وقوله: ﴿فقال أكفلنيها﴾ معناه اجعلني كفيلاً بها أي ضامناً لأمرها، ومنه قوله: ﴿وكفّلها زكريّا﴾ [٤] وقال أبو عبيدة: معناه ضمّها إليها، وقال ابن‌عبّاس وابن مسعود: معنى أكفلنيها أنزل لي عنها. ﴿وعزّني في الخطاب﴾ أي غلبني في المخاطبة من قولهم: من عزّ بزّ، أي من غلب سلب. وقال ابن زيـد:

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٨٠، ونسبه إلى الأحوص.

(٢) قائله عمر بن أبي ربيعة، انظر ديوانه: ٣٠٨.

(٣) الصافّات: ٥٥.

(٤) آل عمران: ٣٧.

معناه قهرني. وقال أبو عبيدة: معناه صار أعزّ منّي[1].

فقال له داود: ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه * وإنّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ﴾ ومعناه إن كان الأمر على ما تدّعيه لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، فأضاف السؤال إلى المفعول به وهي النعجة وإن أُضيف إليها. ثمّ أخبر أنّ كثيراً من الشركاء والخلطاء ليبغي بعضهم على بعض فيظلمه.

وقال أصحابنا: كان موضع الخطيئة أنّه قال للخصم: لقد ظلمك من غير أن يسأل خصمه عن دعواه وفي آداب القضاء ألّا يحكم بشيء ولا يقول حتّى يسأل خصمه عن دعوى خصمه، فما أجاب به حكم به، وهذا ترك الندب في ذلك.

وفي ذلك قول آخر، وهو أنّ في الناس من قال: إنّ ذلك كان صغيرة منه وقعت مكفّرة، والشرط الّذي ذكرناه لابدّ فيه ، لأنّه لا يجوز أن يخبر النبيّ أنّ الخصم ظلم صاحبه قبل العلم بذلك على وجه القطع، وإنّما يجوز مع تقرير الشرط الّذي ذكرناه.

ثمّ استثنى من جملة الخلطاء الّذين بعضهم يبغي على بعض الّذين آمنوا بالله وعملوا بما يوجب عليهم، فإنّهم لا يفعلون ذلك. ثمّ قال: ﴿وقليل﴾ الّذين كذلك، فروي أنّ الملكين غابا من بين يديه فظنّ عند ذلك أنّ الله اختبره بهذه الحكومة وابتلاه. وقرئ ﴿فتناه﴾ بالتخفيف بمعنى أنّ الملكين فتناه بها. وقال قوم: الظنّ العلم كأنّه قال: وعلم داود ذلك. وقال آخرون: إنّما ظنّ ظنّاً قويّاً. وهو الظاهر. وقوله: ﴿فاستغفر ربّه﴾ معناه سأل

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٨١.

الله المغفرة والستر عليه ﴿وخرَّ راكعاً وأناب﴾ إليه أي رجع إليه بالتوبة.

ثمّ أخبر تعالى أنّه أجاب دعوته وغفر له ذلك، وأخبر أنّ له مع المغفرة عند الله لزلفى، و«الزلفى» القربة من رحمة الله، وثوابه في جنّته ﴿وحسن مآبٍ﴾ فالمآب و«المرجع» و«المصير» و«المآل» واحد. ومن قال: إنّ ذلك كان صغيرة وقعت مكفّرة يقول: معنى قوله: ﴿فغفرنا له﴾ بعد الإنابة وإن كانت الخطيئة غفرت في الدنيا.

وقيل: إنّه خطب امرأة كان أُوريا ابن حيّان قد خطبها فدخل في سومه فاختاروه عليه، فعاتبه الله على ذلك، لأنّ الأنبياء يتنزّهون عن ذلك وإن كان مباحاً، لأنّه ممّا ينفر على بعض الوجوه.

وقيل: بل أنفذ به إلى غزوة، وكان يحبّ أن يستشهد ليتزوّج امرأته، لأنّهما كانا تحاكما إليه فوقعت امرأته في قلبه واشتهاها شهوة الطباع من غير أن يحدث أمراً قبيحاً.

وأولى الوجوه ما قدّمناه أنّه ترك الندب في ما يتعلّق بأدب القضاء، لأنّ باقي الوجوه ينبغي أن ينزّه الأنبياء عنها، لأنّها تنفّر في العادة عن قبول أقوالهم.

فأمّا ما يقول بعض الجهّال من القصّاص: إنّ داود عشق امرأة أُوريا وأنّه أمره بأن يخرج إلى الغزو وأن يتقدّم أمام التابوت وكان من يتقدّم التابوت من شرطه ألّا يرجع إلى أن يغلب أو يقتل، فخبر باطل موضوع، وهو مع ذلك خبر واحد لا أصل له، ولا يجوز أن تقبل أخبار الآحاد في ما يتضمّن في الأنبياء ما لا يجوز على أدون الناس، فإنّ الله نزّههم عن هذه المنزلة وأعلى قدرهم عنها. وقد قال الله

تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾[١] وقال: ﴿ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين﴾[٢] فكيف يختار تعالى من يتعشّق نساء أصحابه ويعرّضهم للقتل من غير استحقاق؟ ولا يجوز مثل هذا على الأنبياء إلّا من لا يعرف مقدارهم ولا يعتقد منزلتهم الّتي خصّهم الله فيها نعوذ بالله من سوء التوفيق.

وقد روي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: «لا أُوتى برجل يقول: إنّ داود ارتكب فاحشة إلّا ضربته حدّين: أحدهما للقذف، والآخر لأجل النبوّة»[٣].

وقرأ ابن مسعود ﴿تسع وتسعون نعجةً أنثى﴾ قال النحويّون: هذا تأكيد، كما قال النبيّ: «ابن لبون ذكر»[٤]. وكما قال: ﴿طائر يطير بجناحيه﴾[٥] وقال ابن جرير: معناه تسع وتسعون نعجة أُنثى أي: حسناء، قال ابن خالويه: هذا حسن جدّاً.

قوله تعالى:

يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾ أربع آيات.

قرأ يحيى عن أبي بكر ﴿لتدبّروا﴾ بالتاء وتقديره: لتتدبّروا من التدبّر

---

(١) الحجّ: ٧٥. (٢) الدخان: ٣٢. (٣) تنزيه الأنبياء: ٩٢.
(٤) انظر المصنّف للصنعاني: ٤: ٤، الحاوي الكبير ٣: ٧٩. (٥) الأنعام: ٣٨.

فحذف تاء الفعل وبقي تاء المضارعة، وتقديره: لتتدبّر أنت يا محمّد والمسلمون. ومن قرأ بالياء فعلى ليتدبّر المسلمون فيتقرّر عندهم صحّتها وتسكن أنفسهم إلى العلم بها.

لمّا أخبر الله تعالى عن داود أنّه رجع إليه وتاب واستغفر ربّه عن التقصير الّذي وقع منه في الحكم، وأنّه تعالى غفر له ذلك وأجاب دعوته، ووعده بالزلفى عنده والقربة من ثوابه ناداه أيضاً فقال له: ﴿يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض﴾ و«الخليفة» هو المدبّر للأُمور من قبل غيره بدلاً من تدبيره، فداود لمّا جعل الله إليه تدبير الخلق فكان بذلك خليفة، ولذلك يقال: فلان خليفة الله في أرضه: إذا جعل إليه تدبير عباده بأمره. وقيل: معناه جعلناك خليفة لمن كان قبلك من رسلنا.

ثمّ أمره فقال: ﴿فاحكم بين الناس﴾ ومعناه افصل بين المختلفين من الناس والمتنازعين ﴿بالحقّ﴾ بوضع الأشياء مواضعها على ما أمرك الله ﴿ولا تتّبع الهوى﴾ أي: ما يميل طبعك إليه ويدعوك هواك إليه إذا كان مخالفاً للحقّ، فلا تمل إليه ﴿فيضلّك عن سبيل الله﴾ ومعناه أنّك متى اتّبعت الهوى في ذلك عدل بك الهوى عن سبيل الله الّذي هو سبيل الحقّ.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله﴾ يعنى يعدلون عن العمل بما أمرهم الله به ﴿لهم عذاب شديد﴾ يعني شديد ألمه ﴿بما نسوا يوم الحساب﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: لهم عذاب شديد يوم الحساب بما تركوا طاعاته في الدنيا، فعلى هذا يكون يوم الحساب متعلّقاً بـ﴿عذاب شديد﴾ وهو قول عكرمة والسدي.

الثاني: قال الحسن ﴿لهم عذابٌ شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ أي

بما أعرضوا عنه صاروا بمنزلة الناسي، فيكون على هذا العامل في «يوم» قوله: ﴿نسوا﴾.

ثمّ أخبر تعالى أنّه لم يخلق السماء والأرض وما بينهما باطلاً لا غرض في حكمي، بل خلقهما وما بينهما بالحقّ لغرض حكمي، وهو ما في ذلك من إظهار الحكمة وتعريض أنواع الحيوان للمنافع الجليلة وتعريض العقلاء لمنافع الثواب، وذلك يفسد قول المجبّرة الّذين قالوا: إنّ كلّ باطل وضلال من فعل الله.

وقوله: ﴿ذلك ظنّ الّذين كفروا﴾ معناه أنّ خلق السماء والأرض ومابينهما باطلاً ظنّ من يكفر بالله ويجحد وحدانيّته وحكمته. ثمّ توعّد من هذه صفته فقال: ﴿فويل للّذين كفروا من النار﴾.

ثمّ قال على وجه التوبيخ والتقريع للكفّار بلفظ الاستفهام: ﴿أم نجعل الّذين آمنوا...﴾ معناه هل نجعل الّذين صدّقوا بالله وأقرّوا برسله وعملوا الصالحات مثل الّذين أفسدوا في الأرض وعملوا بالمعاصي؟! أم هل نجعل الّذين أتّقوا معاصي الله خوفاً من عقابه كالفجّار الّذين عملوا بمعاصيه وتركوا طاعته؟! فهذا لا يكون أبداً. وكيف يكون كذلك وهؤلاء يستحقّون الثواب بطاعتهم وأولئك يستحقّون العقاب بمعاصيهم.

وقال أبو عبيدة: ليس لها جواب استفهام فخرجت مخرج الوعيد[1]. وقال الزجّاج: تقديره: أنجعل الّذين آمنوا وعموا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار، فهو استفهام بمعنى التقرير.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ أي هذا كتاب

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٨١.

أنزلناه، يعني القرآن الّذي أنزله الله عليه، ووصفه بأنّه مبارك، لأنّ به يستديم الناس ما أنعم الله عليهم به، وبيّن أنّ غرضه تعالى بإنزال هذا القرآن ﴿ليدبّروا آياته﴾ بأن يتفكّروا في أدلّته ﴿وليتذكّر أُولُوا الألباب﴾ يعني أُولو العقول.

وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة في خلق القبائح من حيث بيّن الله أنّه إنّما يعاقبهم جزاءً بما نسوا طاعاته في الدنيا.

وقوله: ﴿ذلك ظنّ الّذين كفروا﴾ يدلّ على فساد قول من يقول: «إنّ المعارف ضرورة» لأنّهم لو كانوا عارفين ضرورة لما كانوا ظانّين.

قوله تعالى:

وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ إحدى عشرة آية.

قرأ ابن كثير وحده ﴿بالسؤق﴾ مهموزة. وقال ابن مجاهد: الرواية الصحيحة عنه ﴿بالسوق﴾ على فعول، ولمّا ضمنت الواو همزها. مثل وفيت وأفيت فهذه رواية قنبل. وقرأ البزي ﴿بالسوق﴾ مثل أبي عمرو، جمع ساق مثل باح وبوح. و«الباحة» و«الصرحة» و«العرصة» و«الفناء» واحد، ومثله

«قارة» و«قور» للخيل الصغير. ومن همز «سوق» فعلى لغة من قال: «أُحبّ المؤقدين إليَّ موسى»[١] فهمز أنشده أبو الحسن لأبي حيّة النميري، ولأنّه لمّا لم يكن بينها وبين الضمّة حاجز صار كأنّ الضمّة عليه فهمّز.

أخبر الله تعالى أنّه وهب لداود سليمان، فقال: ﴿نعم العبد﴾ كان سليمان ﴿إنّه أوّاب﴾ أي رجّاع إلى طاعة الله وطلب ثوابه. وقوله: ﴿إذ عرض﴾ يجوز أن يتعلّق بقوله: ﴿نعم العبد﴾ أي نعم العبد حين عرض عليه، ويجوز أن يكون العامل فيه واذكر يا محمّد إذ عرض على سليمان ﴿بالعشيّ﴾ يعني آخر النهار.

﴿الصافنات الجياد﴾ و«الصافنات» جمع صافنة، قال ابن زيد: صفن الخيل قيامها على ثلاث مع رفع رجل واحدة. يكون طرف الحافر على الأرض. وقال مجاهد: صفون الفرس رفع إحدى يديه حتّى يكون على طرف الحافر صفنت الخيل تصفن صفوناً: إذا وقفت كذلك، قال الشاعر:

ألف الصفون فما يزال كأنّه    ممّا يقوم على الثلاث كسيرا[٢]

وقال الزجّاج والفرّاء وغيرهما: كلّ قائم على ثلاث صافن[٣] و«الجياد» السرّاع من الخيل، فرس جواد كأنّه يجود بالركض، كأنّه جمع جود، كما يقال: مطر جود: إذا كان مدراراً، ونظيره سوط وسياط. و«العرض» إظهار الشيء بحيث يرى ليميّز من غيره، ومنه قوله:

---

(١) صدر بيت عجزه: «وجعدة إذ أضاءَها الوَقود» والبيت لجرير من قصيدة فمدح بها هشام بن عبدالملك. راجع شرح ديوان جرير: ١١٢. وانظر الحجّة للقرّاء السبعة ١: ١٥٨، ٣: ٣٢٤.

(٢) أنشده الزجّاج في معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٣٠.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٣٠، معاني القرآن ٢: ٤٠٤.

﴿وعرضوا على ربّك صفاً﴾[(١)] وأصله الإظهار، قال عمرو بن كلثوم:

وأعرضَتِ اليَمامةُ واشمخَرّتْ كأسيافٍ بـأيْدي مُـصْلِتينا[(٢)]

أي ظهرت وأعرض عنّي معناه أظهر جـفوة بـتولّيه عـنّي، وعـرض الشيء: إذا صار عريضاً.

وقوله تعالى: ﴿إني أحببت حبّ الخير﴾ قال قَتادة والسدي المراد بالخير ـ هاهنا ـ الخيل، والعرب تسمّي الخيل الخير، وبذلك سمّي «زيد الخيل» أي زيد الخير. وقيل في ذلك وجهان:

أحدهما: أنّه أراد أحببت حبّاً الخيرَ، ثمّ أضاف الحبّ إلى الخير.

والثاني: أنّـه أراد أحـببت اتّـخاذ الخـير، لأنّ ذوات الخـير لا تـراد ولاتحبّ فلابدّ من شيء يتعلّق بها، والمعنى آثرت حبّ الخيل على ذكر ربّي، ويوضع الاستحباب موضع الإيثار، كما قال تعالى: ﴿الّذين يستحبّون الحياة الدنيا على الآخرة﴾[(٣)] أي يؤثرون.

وقوله ﴿عن ذكر ربّي﴾ معناه أنّ هذا الخيل شغلني عن صلاة العـصر حتّى فات وقتها، وهو قول عليّ عليه السلام وقَتادة والسدي. وروى أصحابنا أنّه فاته الوقت الأوّل[(٤)] وقال الجبّائي: إنّه لم يفته الفرض وإنّما فاته نفل كان يفعله آخر النهار ففاته لاشتغاله بالخيل.

وقوله: ﴿حتّى توارت بالحجاب﴾ معناه توارت الشمس بالحجاب يعنى بالغيبوبة، وجاز الإضمار قبل الذكر لأنّه معلوم، قال لبيد:

---

(١) الكهف: ٤٨.
(٢) ديوان عمرو بن كلثوم: ٥٦.
(٣) إبراهيم: ٣.
(٤) الكافي ٣: ٢٩٤ ح ١٠، علل الشرائع ٢: ٦٠٥ ح ٧٩.

حــتّى إذا ألقتْ يَـداً فـي كـافرٍ     وأجنّ عَوراتِ الثغور ظَـلامُها[١]

وقال أبو مسلم محمد بن بحر وغيره: وذكر الرماني أنّ الكناية عـن الخيل وتقديره: حتّى توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنّها شغلت فكره إلى تلك الحال.

ثمّ قال لأصحابه: ﴿ردّوها عليّ﴾ يعني الخيل، ﴿فـ﴾ردّت عليه طفق ﴿مسحاً بالسوق والأعناق﴾. وقيل: إنّ الخيل هذه حَرَبها من غنيمة جيش فشاغل باعتراضها حتّى غابت الشمس وفاتته العصر، قال الحسن: كشف عراقيبها وضرب أعناقها، وقال: لا تشغلني عن عبادة ربّي مرّة أُخرى.

وقيل: إنّه إنّما فعل ذلك على وجه القربة إلى الله تـعالى بـأن ذبـحها ليتصدّق بلحومها لا لعقوبتها بذلك، وإنّما فعل ذلك لأنّها كانت أعزّ مـاله فأراد بذلك ما قال الله تعالى: ﴿لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون﴾[٢].

وقال أبو عبيدة: يقولون: مسح علاوته أي ضربها[٣]. وقال ابن عبّاس: جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حبّاً لها. وقال أبو مسلم مـحمّد بـن بحر: غسل أعرافها وعراقيبها إكراماً لها، قال: لأنّ المسـح يـعبّر بـه عـن الغسل من قولهم: تمسّحت للصلاة.

ثمّ قال تعالى على وجه القسم: ﴿ولقد فتنّا سليمان﴾ ومعناه اخـتبرناه وابتليناه وشدّدنا المحنة عليه ﴿وألقينا على كرسيّه جسداً﴾ قال ابن عبّاس: ألقى شيطاناً اسمه صخر على كرسيّه. وقال مجاهد: كان اسمه أصف. وقال السدي: كان اسمه خنفيق.

---

(١) ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ١٧٦.

(٢) آل عمران: ٩٢.

(٣) مجاز القرآن ٢: ١٨٣.

وكان ملكه في خاتمه يخدمه الجنّ والشياطين ما دام في يده، فلما أذنب سليمان نزع الله منه الخاتم، وجعل مع الجنّي فاجتمعت عليه الجنّ والشياطين. وقيل: إنّه كان ذنبه أنّه وطئ في ليلة عدّة كثيرة من جواريه حرصاً على كثرة الولد. وقيل: كان ذنبه أنّه وطئ امرأته في الحيض.

وقوله: ﴿ثمّ أناب﴾ يعني تاب إلى الله من خطيئته، فردّ الله عليه الملك، لأنّ الجنّي لمّا أخذ خاتمه رمى به في البحر فردّه عليه من بطن سمكة، ذكر ما قلناه المفسّرون.

والّذي قاله المفسّرون من أهل الحقّ ومن نزّه الأنبياء عن القبائح ونزّه الله تعالى عن مثل ذلك: هو أنّه لا يجوز أن يمكّن الله تعالى جنّياً ليتمثّل في صورة نبيّ لما في ذلك من الاستبعاد، وأنّ النبوّة لا تكون في الخاتم وأنّه تعالى لا يسلب النبيّ نبوّته، وليس في الآية شيء من ذلك، وإنّما قال فيها: إنّه ألقى على كرسيّه جسداً.

وقيل في معنى ذلك الجسد أقوال:

منها: أنّ سليمان قال يوماً في مجلسه وفيه جمع كثير: لأطوفنّ الليلة على مائة امرأة تلد كلّ امرأة منها غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله، وكان له في ما يروى عدد كثير من السراري، فأخرج الكلام على سبيل المحبّة لهذا الحال، فنزّهه الله عمّا ظاهره الحرص على الدنيا، لئلّا يقتدى به في ذلك، فلم يحمل من نسائه إلّا امرأة واحدة ولداً ميتاً، فحمل حتّى وضع على كرسيّه جسداً بلا روح، تنبيهاً له على أنّه ما كان يجب أن يظهر منه ما ظهر، فاستغفر الله وفزع إلى الصلاة والدعاء على وجه الانقطاع، لا على أنّ ذلك كان صغيرة. ومن قال من حيث إنّه لم يستثن مشيئة الله في

ذلك فقوله فاسد، لأنّه وإن لم يذكر مشيئة الله لفظاً فلابدّ من تقديرها في المعنى، وإلّا لم يأمن أن يكون خبره كذباً، وذلك لا يجوز على الأنبياء عند من جوّز الصغائر عليهم. قال الحسن وغيره: لا يجوز على الأنبياء.

ومنها: أنّه روي أنّ الجنّ لمّا ولد لسليمان ولد قالوا: لنلقينّ منه ما لقينا من سليمان، فلما ولد له ولد أشفق منهم، فاسترضعه في المزن، فلم يشعر إلّا وقد وضع على كرسيّه ميّتاً تنبيهاً على أنّ الحذر لا ينفع مع القدر.

ومنها: أنّه ذكر أنّه ولد لسليمان ولد ابتلاه بصبره في إماتة ولده على كرسيّه. وقيل: إنّه أماته في حجره وهو على كرسيّه، فوضعه من حجره.

ومنها: ما ذكره أبو مسلم فإنّه قال: يجوز أن يكون الجسد جسد سليمان وأن يكون ذلك لمرض امتحنه الله به، وتقديره: وألقينا منه على كرسيّه جسداً، لشدّة المرض، كما يقولون: «فلان لحم على وضم» إذا كان ضعيفاً، و«جسد بلا روح» تغليظاً للعلّة، وقوّة الضعف.

ثمّ حكى ما قاله سليمان حين أناب إلى الله، فإنّه سأل الله تعالى، وقال: ﴿ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي﴾ أي لا تسلبنّه كما سلبته في الدفعة الأُولى.

وقال أبو عبيدة: معنى ﴿لا ينبغي﴾ لا يكون، وأنشد لابن أحمر:

مـا أُم غُـفْرٍ عـلى دَعْـجاء ذي عَـلَقٍ
تنفي القراميدَ عنها الأعْـصَمُ الوَقِـلُ[1]

في رأس خـلقاء مـن عـنقاء مشـرفة
لا يـــنبغي دونـــها ســـهلٌ ولا جَـــبَلُ

(١) مجاز القرآن ٢: ١٨٣.

وقال أبو عبيدة: أي لا يكون فوقها سهل ولا جبل أحصن منها[١].

فإن قيل: أليس ظاهر هذه الآية يقتضي الشحّ والضنّ لأنّه لم يرضَ بأن سأل الملك، حتّى أضاف إلى ذلك ألّا يكون لأحد بعده مثله؟!

قلنا: قد ثبت أنّ الأنبياء لا يجوز أن يسألوا بحضرة قومهم ما لم يأذن الله لهم في ذلك، فعلى هذا لِمَ لا يجوز أن يكون الله تعالى أعلم سليمان أنّه إن سأل ملكاً لا يكون لغيره كان لطفاً له في الدين، وأعلمه أنّ غيره لو سأل ذلك لم يجب إليه، لأنّه يكون مفسدة لغيره ولا صلاح له فيه.

ولو أنّ أحدنا صرّح بمسألة بهذا الشرط بأن يقول: اللّهمّ اجعلني أيسر أهل زماني وارزقني مالا يساويني فيه أحد إذا كانت المصلحة لي في ذلك لكان هذا جائزاً حسناً، ولم يكن منسوباً إلى بخل، فلا يمتنع أن يسأل النبيّ أيضاً مثل ذلك.

وقيل: إنّه لا يمتنع أن يسأل النبيّ مثل هذه المسألة من غير إذن إذا لم يكن بمحضر من قومه بعد أن يكون الشرط فيه مقدّراً.

وقيل فيه وجه آخر: وهو أنّه عليه السلام إنّما سأل أن يكون ملكه معجزة لنبوّته يبيّن بها من غيرها ممّن ليس بنبيّ.

وقوله: ﴿لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾ معناه لا ينبغي لأحد غيري ممّن أنا مبعوث إليه، ولم يرد من بعدي إلى يوم القيامة من النبيّين.

وقيل: إنّه لا يمتنع أن يكون المراد أنّه سأل ملك الآخرة وثواب الجنّة الّذي لا يناله المستحقّ إلّا بعد انقطاع التكليف. ومعنى ﴿لا ينبغي لأحدٍ من بعدي﴾ لا يستحقّه بعد وصولي إليه أحد من حيث لا يصحّ أن يعمل ما يستحقّ به الثواب لانقطاع التكليف.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٨٣.

ثمّ بيّن بعد ذلك أنّه أعطاه ما سأله فقال: ﴿فسخّرنا له الريح﴾ أي ذلّلناها له، و«التسخير» التذليل ﴿تجري بأمره﴾ يعني الريح تتوجّه إلى حيث شاء ﴿رخاء﴾ قال قَتادة: معناه طيّبة سريعة. وقال ابن زيد: ليّنة. وقال ابن عبّاس: مطيعة، وبه قال الضحّاك والسدي. و«الرخاء» الريح الليّنة وهو رخاوة المرور سهولته ووصفت باللين، لأنّها إذا عصفت لم يتمكّن منها، وإذا لانت أمكنت.

وقوله: ﴿حيث أصاب﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك والسدي: معناه حيث أراد، يقول القائل: أصاب الله بك الرشاد أي أراد الله، والمعنى أنّها تنطاع له كيف أراد. وقال الحسن: كان يغدو من إيليا ويقيل بقزوين ويبيت بكابل. و«الإصابة» لحاق البغية، يقال أصاب الهدف بالسهم يصيبه إصابة. ومنه الصواب إدراك الحقّ بالميل إليه.

وقوله: ﴿والشياطين﴾ نصبه بالعطف على مفعول ﴿فسخّرنا﴾ وتقديره: وسخّرنا له الشياطين كلّ بنّاء وغوّاص. ونصب ﴿كلّ﴾ على البدل من الشياطين وهو بعضه.

فالغوّاص هو الّذي يغوص في الماء أي: ينزل فيه، تقول: غاص يغوص غوصاً فهو غائص وغوّصه تغويصاً، وكلّ الشياطين يغوصون له في البحار وغيرها من الأنهار بحسب ما يريد منهم ويبنون له الأبنية العجيبة الّتي يعجز الناس عن مثلها. وقال قَتادة: كانوا يغوصون في البحار يستخرجون له الحلي منها، وغير ذلك.

﴿وآخرين مقرّنين في الأصفاد﴾ الأصفاد واحدها صِفاد، وهو الغلّ وجمعه أغلال. وقال السدي: السلاسل تجمع اليدين إلى العنق. و«الصفد»

الغلّ. و«الصفد» العطاء. وبعضهم يقول: أصفدني، قال الأعشى:

وأصفَدَني على الزمَانَةِ قَائِدا[١]

وذلك أنّه ارتبط من شكره بمثل الغلّ. و ﴿مقرّنين﴾ هم الّذين قرن بعضهم إلى بعض بالسلاسل.

ثمّ قال تعالى: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾ قال الحسن: معناه هذا الملك الّذي أعطيناك، فأعط ما شئت وامنع ما شئت. وقال قَتادة والضحّاك: معناه لا تحاسب على ما تعطي وتمنع منه يوم القيامة ليكون أهنأ لك، ومعناه ليس عليك تبعة. وقيل: معناه بغير مقدار يجب عليك إخراجه من يدك، ويكون بغير حساب، فامنن أو أمسك. وقال الزجّاج: المعنى سخّرنا لك الشياطين عطاءً لك منّا فأطلق منهم من شئت واحبس من شئت فلا حساب عليك منه[٢].

ثمّ قال تعالى: ﴿وإنّ له﴾ يعني سليمان ﴿عندنا لزلفى﴾ أي لقربي زيادة على ما أعطيناه في الدنيا ﴿وحسن مآبٍ﴾ أي وحسن مآل في العاقبة.

قوله تعالى:

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ أربع آيات.

قرأ أبو جعفر ﴿بنصب﴾ بضمّ النون والصاد، وقراءة يعقوب بفتحهما.

---

(١) عجز بيت صدره: تضيفته يوماً فقرّب مقعدي، راجع ديوان الأعشى: ٤٤.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

الباقون بضمّ النون وإسكان الصاد، وهي لغات أربع. وقراءة هبيرة بفتح النون وإسكان الصاد.

يقول الله تعالى لنبيّه محمدﷺ: ﴿واذكر﴾ يا محمّد ﴿عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه﴾ فقال: يا ربّ، لأنّ النداء هو الدعاء بطريقة يا فلان، ومتى قال: اللّهمّ افعل بي وارزقني وعافني كان داعياً ولا يكون منادياً ﴿أنّي مسّني الشيطان﴾ ﴿أنّي﴾ في موضع نصب، لأنّ تقديره: أنّه نادى بهذا القول، وتقديره: بأنّي مسّني، فلمّا حذف الياء نصب ﴿أنّي﴾ و﴿مسّني الشيطان﴾ أي وسوسني وذكّرني ما كنت فيه من نعم الله في الأهل والولد والمال، وكيف زال ذلك كلّه وما حصل فيه من البليّة طمعاً فيه ليزلّه بذلك ويجد طريقاً إلى إضلاله وتضجّره وتبرّمه، فوجده صابراً عند ذلك مسلّماً لأمر الله تعالى.

وقيل: إنّه كان وسوس إلى قومه أن يستقذروه ويخرجوه من بيتهم ولا يتركوا امرأته الّتي تخدمه أن تدخل عليهم، لأنّ فيه برصاً وجذاماً ربّما عدا إليهم وكان أيوّب ينادى بذلك ويألم به. و«النصب» و«الوصب» و«التعب» نظائر، وفيه لغات أربع على ما حكيناه نُصب ونَصَب مثل حُزُن وحَزَن ورُشْد ورَشْد ورُشُد، وعُدُم وعَدَم، ثمّ تسكن الصاد مع فتح النون تخفيفاً وتضمّ النون والصاد إتباعاً لما قبله. ونقيض النصب الراحة، وأصله الإنصاب يقال: أنصبني أي عذّبني، وبرح بي، ومنهم من يقول: نصبني، قال بشر بن أبي حازم:

تَعْنَاكَ نَصْبٌ من أُميمةَ مُنْصِبُ(١)

---

(١) أنشده ابن دريد في الجمهرة ١: ٢٩٩ مادّة «بصن» وفيها «عميرة» بدل «أُميمة» وهو صدر بيت عجزه: وجاء من الأخبار ما لا يُكذَّب.

وقال النابغة:

كِليني لهمٍّ يا أُمَيمَةُ ناصب ـــ وليلٍ أُقاسية بِطيء الكَواكِبِ[١]

و«عذاب» أراد به ما كان يدخل عليه من ألم الوسوسة، فأجاب الله تعالى دعاه وقال: ﴿اركضْ برجلك﴾ أي ادفع برجلك الأرض، فالركض الدفع بالرجل على جهة الإسراع، ومنه ركض الفرس لإسراعه: إذا دفعه برجله. يقال: ركضت الدابّة وركضتها أنا مثل جبر العظم وجبرته أنا، وحزن وحزنته أنا، وفي الكلام حذف وتقديره: فركض برجله وظهر عين ماء، فقال الله له: ﴿هذا مغتسلٌ﴾ أي ماء مغتسل ﴿بارد وشراب﴾ وقال الحسن وقَتادة: نبعت له عينان، فاغتسل من إحداهما وشرب من الأُخرى، فالمغتسل موضع الاغتسال. وقيل: كلّ ماء يغتسل فيه فهو مغتسل وغسول، ذكره أبو عبيدة[٢]. وفي الكلام حذف، وتقديره: أنّ أيّوب اغتسل من تلك العين، فأزال الله تعالى عنه جميع ما كان فيه من الأمراض.

ثمّ أخبر بما منّ عليه زيادة على صلاح جسمه وزوال ألمه فقال: ﴿ووهبنا له أهله﴾ لأنّه لمّا ردّ عليه أهله كان ذلك هبة منه مجدّدة ﴿ومثلهم معهم﴾ وتقديره: ووهبنا له مثل أهله دفعة أُخرى.

وقد ذكرنا اختلاف المفسّرين في ذلك، في سورة الأنبياء[٣] وأنّ فيهم من قال: أعطاه بكلّ امرأة امرأتين وبكلّ ولد ولدين في دار الدنيا. ومنهم من قال: ذلك إخبار عمّا يهبه الله له في الآخرة. وقيل: إنّ الله تعالى أمطر عليه جراداً من ذهب.

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ٤٨. (٢) مجاز القرآن ٢ : ١٨٥.

(٣) تقدّم في تفسير الآية ٤٨ من سورة الأنبياء فراجع.

وقوله: ﴿رحمةً منّا﴾ معناه فعلنا ذلك لرحمتنا إيّاه، فهو نصب على أنّه مفعول له، ويجوز أن يكون نصباً على المصدر ﴿وذكرى لأولي الألباب﴾ أي وليتذكّر به ويعتبر ذوو العقول فيصبروا كما صبر.

ثمّ حكى ما قال له فإنّه قال له: ﴿خُذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث﴾ فالضغث ملء الكفّ من الحشيش أو الشماريخ وما أشبه ذلك، قال عوف ابن الجزع:

وأسفل منّي نهدةً قد ربطتها     وألقيتُ ضغثاً مِن خليً متطيّبِ[١]

أي تطيّبت لها. وقيل: إنّه كان حلف على امرأته لأمر أنكره من قولها لئن عوفي ليضربنّها مائة، فقيل له: ﴿خُذ ضغثاً﴾ بعدد ما حلفت، فاضرب به دفعة واحدة، فإنّك إذا فعلت ذلك فقد بررت قسمك ولم تحنث، وهو قول قَتادة والضحّاك.

وقوله: ﴿ولا تحنث﴾ نهي له عن الحنث.

ثمّ أخبر تعالى عن حال أيّوب وعظم منزلته فقال: ﴿إنّا وجدناه صابراً﴾ لبلائنا مسلّماً لأمرنا. ثمّ أثنى عليه فقال: ﴿نعم العبد إنّه أوّاب﴾ أي رجّاع إلى الله منقطع إليه، وعندنا أنّ من حلف أن يضرب غيره مائة فضربه بشمراخ فيه مائة طاقة فقد برّ في يمينه، وفيه خلاف بين الفقهاء[٢].

قوله تعالى:

وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٨٥، وفيه: «عون ابن الخَرِع».

(٢) انظر الخلاف ٦: ١٧٥ ـ ١٧٦.

وَاذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ عشر آيات.

قرأ ابن كثير ﴿واذكر عبدنا إبراهيم﴾ على التوحيد، والباقون على الجمع. وقرأ نافع ﴿بخالصة ذكرى الدار﴾ مضافاً، الباقون بالتنوين. من نوّن جعل ﴿ذكرى﴾ بدلاً من ﴿خالصة﴾ وموضعه جرّ، ويجوز أن يكون نصباً بإضمار «أعني» أو يكون معمول خالصة، في قول أبي عبيدة[1]. ويجوز أن يكون رفعاً بإضمار هي ذكرى، كما قال: ﴿قل أفأنبّئكم بشرٍّ من ذلكم النار﴾[2] أي هي النار.

قال أبو عليّ: «الدار» يحتمل أن يكون الدنيا، ويحتمل أن يكون الآخرة أي بإخلاصهم ذكرى في الدنيا، فإذا حملت على دار الآخرة فعلى تقدير: إخلاصهم ذكرى الدار. ويكون ذكرهم لها وجل قلوبهم منها ومن حسابها، كما قال: ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾[3] فالدار عندهم على هذا مفعول به، وليست كالوجه المتقدّم. فأمّا من أضاف فإنّه يكون قد أضاف إلى المفعول، كأنّهم بإخلاصهم ذكرى الدار والخوف منها أخلصوا ذكرها والخوف منها لله تعالى، ويكون على إضافة المصدر إلى الفاعل، وتقديره: بأن خلصت لهم ذكرى الدار[4].

وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿والليسع﴾ بلامين، الباقون بلام واحدة.

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٨٥.
(٢) الحجّ: ٧٢.
(٣) الأنبياء: ٤٩.
(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٢٧ ـ ٣٢٨.

من قرأ بلامين أدخل على اللام الألف واللام، ثمّ أدغم إحداهما في الأُخرى كما قال الشاعر:

وجدنا الوليد بن اليزيد مباركاً     شديداً بأَعباءِ الخِلافَةِ كاهِلُهْ[1]

لأنّه قدّره تقدير النكرة.

وقرأ ﴿هذا ما يوعدون﴾ بالياء ابن كثير وأبو عمرو وفي سورة ق ابن‌كثير وحده، الباقون بالتاء. من قرأ بالياء فللغيبة، ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب.

ومن قرأ ﴿عبدنا﴾ على التوحيد يجوز أن يكون خصّ به إبراهيم بكونه عبداً له كما خصّه بالخلّة، ويجوز أن يكون لأنّ لفظه يدلّ على القليل والكثير. ومن جمع فلأنه ذكر جماعة.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيّه: ﴿واذكر﴾ يا محمّد ﴿عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ فمن قرأ بالجمع فلأنّه ذكر جماعة، ومن قرأ بالتوحيد فلأن لفظة «عبد» لفظ جنس يقع على القليل والكثير.

ثمّ وصفهم فقال: ﴿أُولي الأيدي﴾ يعني أُولي القوّة على العبادة ﴿والأبصار﴾ الفقه في الدين، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة. وقيل: ﴿أُولي الأيدي﴾ معناه أُولي الأعمال الصالحة، وقيل: معناه أُولي النعم في الدين، قال الشاعر:

فاعملْ لما يعلو فمالك بالـ     ـذي لا تستطيع من الأُمور تُدانُ

ثمّ أخبر تعالى عن حال هؤلاء الّذين وصفهم فقال: ﴿إنّا أخلصناهم﴾ فالإخلاص إخراج كلّ شائب من الشيء ليس من شكله، فهؤلاء الأبرار

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٤٠٨، ولم ينسبه لأحد.

قد أخلصهم الله لنعيم الجنان بلطفه في ما لازموه من الإحسان.

وقوله: ﴿بخالصةٍ ذكرى الدار﴾ معناه أنّا أخلصنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب بخلّة خلصت لهم، ثمّ قال: ﴿ذكرى الدار﴾ بدلاً من «خالصة» أي يذكرون بدار الآخرة ويزهدون في الدنيا، ويجوز أن يكون المعنى أنّهم يكثرون ذكر الآخرة والرجوع إلى الله.

ومعنى ﴿أخلصناهم﴾ أصفيناهم، قال الطبري: معناه أخلصناهم بأفضل ما في الآخرة[١] هذا على قول من أضاف، وهو قول ابن زيد. ومن نوّن فالمعنى الخالصة الّتي أخلصناهم بها هي ذكرى الدار للعمل لها فناهيك بها من خالصة أدّت إليها وهي الجنّة.

ثمّ قال: ﴿وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ و«الاصطفاء» إخراج الصفوة من كلّ شيء، فهم صفوة وغيرهم كدر، فالله تعالى اصطفى هؤلاء الأنبياء بأن اختارهم لنبوّته بحسب ما سبق في علمه أنّه يكون منهم من القيام بأعباء النبوّة والمسارعة إلى الخير والتبرّز في الفضل.

والذكر الّذي يحتاج إليه على وجهين: أحدهما: ذكر ما يحبّ بالرغبة فيه والدعاء إليه. وذكر ما يتّقى بالرهبة منه والتحذير منه، وفي ذلك تمام الداعي والصارف اللذين تقتضيهما الحكمة.

و﴿الأخيار﴾ جمع خيّر على وزن «أموات» جمع «ميّت» وهو من يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة.

وقيل: هو جمع «خير» ومثله «الأبرار» جمع «برّ» وصفوا بالمصدر.

وقال مجاهد وقتادة: ﴿ذكرى الدار﴾ دار الآخرة. وقال ابن زيد: هي

---

(١) تفسير الطبري ١٠: ٥٩٣.

دار الجنّة، كما قال تعالى: ﴿ولنعم دار المتّقين﴾[١] قيل: إنّهم كانوا يذكرونها للعمل لها ودعاء الناس إليها.

وقيل: ذكرى الدار بالثناء الّذي ليس لغيرهم من أجل قيامهم بالنبوّة. وقيل: الاصطفاء الاختصاص بمدحهم بأنّهم هم الصفوة. وقيل: إنّما خاطب الله النبيّ ﷺ أن يذكرهم بصبرهم وفضلهم ليسلك طريقهم.

ثمّ قال له ﷺ: ﴿واذكر﴾ أيضاً ﴿إسماعيل واليسع وذا الكفل﴾ بمثل ذلك. ثمّ أخبر عنهم بأنّهم كلّهم من الأخيار. وقيل: ذو الكفل ذو الضعف من الثواب. وقيل: كان اسمه ذلك. وقيل: سمّي بذلك لأنّه تكفّل بأمر أنبياء خلّصهم الله من القتل به. وقيل: تكفّل بعمل صالح فسمّي به.

ثمّ قال تعالى: ﴿هذا ذكرٌ﴾ ومعناه أنّ ما أخبرنا عنهم ذكر أي شرف لهم وذكر جميل وثناء حسن يذكرون به في الدنيا ﴿وإن للمتّقين لحسن مآب﴾ يعني حسن المرجع في الآخرة، لأنّهم يرجعون إلى الجنّة. ثمّ بيّن ذلك المآب، فقال: ﴿جنّات عدنٍ﴾ وهو في موضع جرّ على البدل من «مآب» و«الجنّات» جمع جنّة وهي البستان الّتي يجنّها الشجر ﴿عدن﴾ يعني موضع إقامة وخلود ﴿مفتّحة لهم الأبواب﴾ قيل: تنفتح من غير كلفة، قال الحسن: تكلّم انفتحي انغلقي. ورفعت «الأبواب» لأنّ تقديره: مفتّحة لهم أبوابها، فدخلت الألف واللام بدلاً من الإضافة، كما يقولون: مررت برجل حسنة عينه قبيح أنفه، يريدون قبيح الأنف، ذكره الفرّاء[٢]. وقال الزجّاج: تقديره: مفتّحة لهم الأبواب منها[٣] ولو نصب «الأبواب» لجاز، كقول الشاعر:

---

(١) النحل: ٣٠. (٢) معاني القرآن ٢: ٤٠٨. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٣٧.

فما قَومي بثعلَبَةَ بـن سَـعْدٍ ولا بفَزارَةَ الشعث الرِقَابَا[١]

هذا على شبه المفعول.

ثمّ وصف تعالى الّذين يحصلون في الجنّة فقال: ﴿متّكئين فيها﴾ على الأرائك فالاتّكاء الاستناد إلى المساند، ومنه الوكاء لأنّـه يستمسك بـه ما في الوعاء ﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرةٍ وشراب﴾ أي يستدعون الفـواكـه للأكل والشراب للشرب.

﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ يعني قصرن على أزواجهنّ فمالهنّ في غيرهم بغية، فالقاصر نقيض المادّ، يقال: هو قاصر طرفه عـن فـلان ومادّ عينه إلى فلان، قال امرؤ القيس:

من القاصراتِ الطرفِ لودَبَّ مُحْوِلٌ من الذرِّ فَوقَ الإتب منها لأثّـرا[٢]

والأتراب الأقران على سنٍّ واحد ليس فيهنّ هرمة ولا عجوز. قـال الفرّاء: لايقال الأتراب إلّا في الإناث، ولا يقال في الذكران، قال ابن أبي ربيعة:

أبرزوها مثل المهاةِ تَـهادَى بين عشر كواعب أترابِ[٣]

و«الترب» اللذّة وهو مأخوذ من اللعب بالتراب. وقيل: أتـراب عـلى مقدار سنّ الأزواج من غير زيادة ولا نقصان.

ثمّ قال تعالى: ﴿هذا ما توعدون﴾ فمن قرأ بالتاء فعلى أنّه يـقال لهـم ويخاطبون بهذا القول، ومن قرأ بـالياء فـعلى الخـبر عـن حـالهم ﴿ليوم الحساب﴾ يعني يوم الجزاء. ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ هذا﴾ يعني الّذي وصـفته

---

(١) أنشده سيبويه في الكتاب ١: ٢٠١ ونسبه إلى الحارث بن ظالم، وفيه: «الشعري رقابا» بدل «الشعث الرقابا».

(٢) ديوان امرئ القيس: ٩٦.

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة: ٣٧، وفيه: «خمس» بدل «عشر».

من الجنّة وما فيها من أنواع اللذّات ﴿لرزقنا ماله من نفاد﴾ يعني من انقطاع لأنّه على سبيل الدوام، وهو قول قتادة.

قوله تعالى:

هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ستّ آياتٍ بلا خلاف.

لمّا وصف الله تعالى أهل الجنّة وما أعدّه لهم من أنواع النعيم فيها وصف ما أعدّه لأهل النار والعصاة من أنواع العقاب، فقال: ﴿هذا﴾ يعني هذا ما ذكرنا لأهل الجنّة. ثمّ ابتدأ فقال: ﴿وإنّ للطّاغين﴾ وهم الّذين طغوا في معاصي الله ﴿لشرُّ مآب﴾ يعني شرّ مرجع.

ثمّ بيّن ذلك المرجع فقال: ﴿جهنّم يصلونها فبئس المهاد﴾ وإنّما وصف جهنّم بأنّها مهادٍ، لمّا كانت عوضاً لهم عن المهاد فسمّيت باسمه، كما قال: ﴿فبشّرهم بعذابٍ أليم﴾ [1] وقال قوم: هو على تقدير: بئس موضع المهاد.

و«المهاد» الفراش الموطأة تقول: مهّدت له تمهيداً كقولك: وطّأت له توطئة، ومنه مهد الصبيّ، لأنّه يوطأ له.

ثمّ قال: ﴿هذا فليذوقوه حميمٌ وغسّاق﴾ وتقديره: هذا عذاب جهنّم فليذوقوه حميم وغسّاق. ويجوز أن تجعله مستأنفاً كأنّك قلت: هذا فليذوقوه، ثمّ قلت: منه حميم وغسّاق.

أمرهم الله بذواق الحميم، لأنّ الذواق ابتداء إدراك الطعم على طلبه

---

(١) آل عمران: ٢١.

بالفم، ولذلك يقال: ذقته فلم أجد له طعماً، لما فيه من طلب إدراك الطعم بالفم. ومن طلب إدراك الشيء كان أشدّ إحساساً بـه. و«الحـميم» الحـارّ الشديد الحرارة، ومنه الحمّى لشدّة حرارتها. وحمّ الشيء: إذا دنا، وأحمّه لهذا أي أدناه، قال الشاعر:

أحـــمَّ الله ذَلِكَ مـن لقــاء    أُحادَ أُحادَ في الشهرِ الحَلالِ[1]

و«الغسّاق» ما يسيل من صديد أهـل النـار. وقـال ابـن عـمر: هـو القيح الّذي يسيل منهم يجمع فيسقونه. وقال كعب الأحبار: الغسّاق عين في جهنّم يسيل إليها سمّ كلّ ذات حمّة من عقرب وحيّة. وقيل: هو قيح شديد النتن، يقال: غسقت القرحة تغسق غسـوقاً، والتشـديد والتـخفيف لغتان. وقيل: الغسّاق الزمهرير ـ في قول ابن مسعود ـ فلبرده يحرق كما تحرق النار.

ثمّ قال: ﴿وآخر من شكله أزواجٌ﴾ معناه أنواع أُخر من شكل العـذاب أزواج أي أمثال. وقال الحسن: ذكر السلاسل والأغلال ونحوه، ثمّ قـال ﴿وآخر من شكله﴾ ممّا لم ير في الدنيا. و«الشكل» ـ بفتح الشين ـ الضرب المشابه. و«الشكل» ـ بكسر الشين ـ النظير في الحسن وهو الدَلّ أيـضاً ومن قرأ ﴿وآخر﴾ أراد الواحد، ومـن قـرأ ﴿وأُخر﴾ أراد الجـمع ﴿أزواج﴾ معناه أشكال.

ثمّ قال: ﴿هذا فوجٌ مقتحم معكم﴾ قال الحسن: يعني به بـني إبـليس، والآخر بـنو آدم يـقتحمون مـعكم النـار وعـذابـها. ﴿لا مرحباً بهم﴾ أي

---

(١) أنشده ابن دريد في جمهرة اللغة ١ : ٦٤ مادّة «حمم» ونسبه إلى الشاعر عمرو ذو الكلب بن عجلان الهذلي.

لا اتّسعت لهم أماكنهم ﴿إنّهم صالوا النار﴾ أي لازموها، قال الفرّاء: هي الأُمّة بعد الأُمّة تدخل النار[١].

وقوله: ﴿لا مرحباً بهم﴾ من قول أهل النار، كما قال: ﴿كلّما دخلت أُمّة لعنت أُختها﴾[٢] وقيل: هم أتباع الرؤساء في الضلالة قيل لهم: لا مرحباً بهم، وهو نصب على المصدر.

﴿قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدّمتموه لنا فبئس القرار﴾ حكاية مايردّون عليهم من الجواب فإنّهم يقولون: بل أنتم لااتسعت عليكم أماكنكم قدّمتموه لنا فبئس القرار الّذي استقررنا عليه، وهو مثل قوله: ﴿ربّنا إنّا أطعنا سادتنا وكُبراءنا فأضلّونا السبيلا * ربّنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾[٣].

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿غسّاق﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف، وهما لغتان. وقرأ أبو عمرو وابن كثير ﴿وأُخر﴾ مضمومة الألف على الجمع، الباقون ﴿وآخر﴾ بفتح الألف ممدودة على التوحيد. ومن قرأ على الجمع، فلقوله: ﴿أزواج﴾ وهما لا ينصرفان، لأنّ «آخر» وزنه أفعل.

وأمّا أُخر فلأنّه معدول عن الألف والام، لأنّه لا يستعمل في الجارية الكبرى والمرأة الأُخرى إلّا بالألف واللام، فلمّا عدلوه وعرفوه تركوا صرفه مثل «سحر» إذا أردت سحر يوم بعينه تركت صرفه، لأنّه معدول عن الألف واللام في السحر.

قوله تعالى:

قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ

---

(١) معاني القرآن ٢: ٤١١. (٢) الأعراف: ٣٨. (٣) الأحزاب: ٦٧ و٦٨.

ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ خمس آيات.

قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿اتّخذناهم﴾ موصولة على وجه الإخبار، الباقون بقطع الهمزة على الاستفهام. وقرأ نافع وحمزة والكسائي ﴿سخريّاً﴾ بضمّ السين، الباقون بكسرها.

حكى الله تعالى عن الكفّار الّذين اتّبعوا غيرهم في الضلال وانقادوا لرؤسائهم فيه أنّهم يقولون يوم القيامة إذا حصلوا في عذاب جهنّم: يا ﴿ربّنا من قدّم لنا هذا﴾ أي من سبّب لنا هذا العذاب ودعانا إلى ما قد استوجبنا به ذلك ﴿فزده عذاباً ضعفاً﴾ أي مثلاً مضاعفاً إلى مثل ما يستحقّه ﴿في النار﴾ أحد الضعفين لكفرهم بالله تعالى، والضعف الآخر لدعائهم إيّانا إلى الكفر.

ثمّ حكى عنهم أيضاً أنّهم يقولون: ﴿مالنا لا نرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار﴾ قال مجاهد: نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة وذويهما أنّهم يقولون مع قرنائهم: ما لنا لا نرى عمّاراً وخبّاباً وصهيباً وبلالاً الّذين كنّا نعدّهم في الدنيا من جملة الأشرار الّذين يفعلون الشرّ والقبيح ولا يفعلون الخير.

وفي تفسير أهل البيت أنّ هذا حكاية عمّا يقوله أعداء أهل الحقّ، فإنّهم لا يرون أهل الحقّ يوم القيامة لكونهم في الجنّة وكون أعدائهم في النار وكانوا يعدّونهم في الدنيا من الأشرار[1].

ثمّ حكى أنّهم يقولون أيضاً: ﴿اتّخذناهم سخريّاً﴾ فمن قطع الهمزة أراد

---

(١) انظر الكافي ٨: ٧٨ ح ٣٢، تفسير القمّي ٢: ٢٤٣.

الاستفهام الّذي معناه التعجّب والتوبيخ، ومن وصل أراد الإخبار، يعنون الّذين كنّا نعدّهم من الأشرار ﴿اتّخذناهم سخريّاً﴾ فمن كسر السين جعله من الهزء أي كنّا نسخر منهم في الدنيا، ومن ضمّ السين جعله من السخرة أي كنّا نسخرهم ونستذلّهم ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ ومن قطع الهمزة جعل «أم» معادلة، ومن وصلها جعل «أم» بمعنى بل، قال مجاهد والضحّاك؟ ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ أي أبصارنا، فلا ندري أين هم؟! وقال الحسن: كلّ ذلك قد مثلوا بهم اتّخذوها سخريّاً وزاغت عنهم أبصارهم محقّرة لهم.

ثمّ أقسم تعالى أنّ الّذي حكاه من تخاصم أهل النار ومجادلة بعضهم لبعض ﴿لحقّ﴾ أي كائن لا محالة.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿قل﴾ يا محمّد: ﴿إنّما أنا منذر﴾ أي مخوّف من معاصي الله ومحذّر من عقابه ﴿وما من إله﴾ أي وليس من يحقّ له العبادة ﴿إلّا الله الواحد﴾ الفرد ﴿القهّار﴾ لجميع خلقه المستعلي عليهم بسعة مقدوره لا يقدر أحد على الخلاص من عقوبته إذا أراد عقابه.

ومن اختار وصل الهمزة في قوله: ﴿اتّخذناهم﴾ قال: لأنّهم علموا أنّهم اتّخذوهم سخريّاً في دار الدنيا، وإنّما اعترفوا بذلك يوم القيامة، يقولون: اتّخذناهم سخريّاً بل زاغت عنهم أبصارنا محقّرة لهم. ومن قطع الهمزة قال: هذا على وجه التوبيخ لنفوسهم والتبكيت لها. ثمّ قال ذلك أي ثمّ يقولون: بل زاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم.

قوله تعالى:

رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ

إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ أربع آيات.

قرأ أبو جعفر ﴿إنّما أنا نذير مبين﴾ بكسر الهمزة، الباقون بفتحها. لمّا وصف الله تعالى نفسه بأنّه الواحد القهّار وصفها أيضاً بأنّه ﴿ربّ السماوات والأرض﴾ أي مالكهما ومدبّرهما ﴿و﴾ مدبّر ﴿ما بينهما العزيز﴾ الّذي لا يغالب لسعة مقدوراته ﴿الغفّار﴾ لذنوب عباده إذا تابوا.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿هو نبأ عظيم﴾ قال مجاهد والسدي يعني القرآن ﴿هو نبأ عظيم﴾ أي الخبر العظيم. وقال الحسن: هو يوم القيامة.

ثمّ خاطب الكفّار فقال: ﴿أنتم﴾ معاشر الكفّار ﴿عنه معرضون﴾ عن هذا النبأ العظيم لا تعملون بما يوجب مثله من اجتناب المعاصي وفعل الطاعات.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يقول أيضاً: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ يعني بالملأ الأعلى الملائكة اختصموا في آدم حين قيل لهم: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً﴾ [1] في قول ابن عبّاس وقَتادة والسدي، فما علمت ما كانوا فيه إلّا بوحي من الله تعالى. وقيل: كان اختصام الملائكة في ما كان طريقة الاجتهاد. وقيل: بل طريقه استخراج الفائدة، ولا يجوز أن يختصموا في دفع الحقّ.

وقوله: ﴿إن يوحى إليَّ إلّا أنّما أنا نذيرٌ مبينٌ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: ليس يوحى إليَّ إلّا لأنّي أنا نذير مبين أي مخوّف من المعاصي مظهر للحقّ.

الثاني: ليس يوحى إليَّ إلّا الإنذار البيّن الواضح.

---

(١) البقرة: ٣٠.

قوله تعالى:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ ﴿٧٥﴾ خمس آيات.

يقول الله تعالى لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله قل: يا محمّد: ﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى﴾ من الملائكة ﴿إذ يختصمون﴾... أي حين ﴿قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين﴾ يعني آدم عليه السلام لأنّ الله تعالى خلقه من طين، فالخلق فعل الشيء على تقدير وترتيب، وكان جعل آدم على مقدار ما تقتضيه الحكمة، وأصل الخلق التقدير. و«البشر» مأخوذ من البشرة، وهي الجلدة الظاهرة، و«الإنسان» مأخوذ من الأنس، لأنّه يأنس بمثله في ما يؤنس به، فجرى عليه الاسم، لأن هذا من شأنه.

﴿فإذا سوّيته﴾ أي سوّيت خلق هذا البشر وتمّمت أعضاءه وصوّرته ﴿فقعوا له ساجدين﴾ أي اسجدوا له. وقد بيّنّا[1] في ما مضى أنّ السجود كان لله تعالى وعبادة له، فيه تفضيلاً لآدم على الملائكة.

وقوله: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ فالروح جسم رقيق هوائي بها يتمّ كون الحيّ حيّاً لتخرقه في مخارق الإنسان وهو مشتقّ من الريح، ومنه الراحة والاستراحة من الكد للخفّة على النفس كالريح، ومنه الأريحة، والراحة كفّ الإنسان لما يتراوح الناس إليها في العمل، ومنه الرواح إلى المنزل للاستراحة.

---

(١) تقدّم في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة، ج ٢ ص ٨٦ فراجع.

ومعنى ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ أي تولّيت خلقها من غير سبب كالولادة الّتي تؤدّي إليها، لأنّ الله تعالى شرّف آدم بهذه الحال وكرّمه، وفي الكلام حذف وتقديره: أنّ الله خلق آدم الّذي وعدهم بخلقه.

ثمّ إنّ الملائكة سجدت بأجمعها له إلّا إبليس الّذي امتنع، وقد بيّنّا[1] اختلاف الناس في أنّ إبليس هل كان من جملة الملائكة ومن قبلهم أو كان في جملتهم يتناول الأمر له بالسجود فلا نطوّل بإعادته، فمن قال لم يكن منهم قال «إلّا» بمعنى «لكن» وتقديره: لكن إبليس استكبر وتجبّر وامتنع من السجود له، وكان بذلك الإباء والمخالفة من جملة الكافرين.

ثمّ حكى ما خاطب الله تعالى إبليس به حين امتنع من السجود لآدم ﴿ما منعك ان تسجد لما خلقت بيديّ﴾ على وجه التقريع له والتهجين لفعله، وإنّما قال: ﴿بيدي﴾ على وجه تحقيق الإضافة لخلقة الله تعالى، لا أنّه أمر به أو كان على سبب أدّى إليه تعالى، والتثنية أشدّ مبالغة، كما قال الشاعر:

دَعوتُ لِما نابَني مِسْوَراً فَلبّي فَلبّي يَدَيْ مِسْوَرِ[2]

لتحقيق إضافة المبالغة إلى مسور، ومثله قولهم: «هذا ما كسبت يداك» أي ما كسبته أنت، قال الشاعر:

أيّها المبتغي فَناء قُريشٍ بيدِ الله عُمرها والفَنَاءُ[3]

فوحّد لتحقيق الإضافة. ثمّ قال له بلفظ الاستفهام والمراد به الإنكار: ﴿استكبرت﴾ يا إبليس أي طلبت التكبّر بامتناعك من السجود له ﴿أم كنت

(١) تقدّم في تفسير الآية ٣٤ من سورة البقرة، ج ٢ ص ٨٧ فراجع.
(٢) أنشده سيبويه في الكتاب ١ : ٣٥٢، ولم ينسبه لأحد.
(٣) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٤١٢، ولم ينسبه لأحد.

من العالين﴾ الّذين يعلون على الخلق تجبّراً وتكبّراً.

وقرئ في الشواذّ ﴿بيدي استكبرت﴾ على وصل الهمزة. وروي ذلك عن مجاهد عن شبل ابن كثير اجتزاء بـ«أم» عن ألف الاستفهام.

ويحتمل أن يكون على اليمين، كأنّه أقسم فقال بنعمتي الدينيّة والدنياويّة تكبّرت بل كنت من العالين بهذا الفعل، فتكون على هذا «أم» منقطعة. وعلى الأوّل وهو المعروف تكون معادلة لهمزة الاستفهام:

قوله تعالى:

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيَ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾.

ثلاث عشرة آيةً في الكوفي، واثنتا عشرة آية في ما عداه. عدّ الكوفي ﴿فالحقّ أقول﴾ ولم يعدّه الباقون.

قرأ عاصم إلّا هبيرة وخلف وحمزة ﴿قال فالحق﴾ بالرفع ﴿والحقّ﴾ بالنصب، الباقون بالنصب فيهما. من رفع تقديره: فأنا الحقّ، ويجوز على تقدير فالحقّ لأملأنّ كما تقول: عزيمة صادقة لآتينّك، ويجوز على تقدير حذف الخبر، وتقديره: فالحقّ منّي لأملأنّ.

ومن نصب فعلى فالحقّ لأملأنّ على القسم، كما تقول: والله لأفعلنّ، ويجوز في مثله حقّاً لأملأنّ، ويكون ﴿والحقّ أقول﴾ اعتراضاً بين

الكلامين، ويجوز أن يكون النصب على تقدير: اتّبعوا الحقّ، أو أقول الحقّ. وقال أبو عليّ: من نصب «الحقّ» الأوّل فعلى إضمار «فعل» نحو ما ظهر في قوله: ﴿ليحقّ الحقّ﴾ (١) وفي قوله ﴿ويحقّ الله الحقّ﴾ (٢)(٣).

لمّا حكى تعالى ما قال لابليس على وجه الإنكار عليه ﴿أستكبرت أم كنت من العالين﴾ حكى ما أجاب به إبليس، فإنّه قال: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ وقيل: إنّ الله تعالى خلق الملائكة من الريح فسمّوا بذلك روحانيّين، وخلق آدم من الطين وخلق إبليس من النار، فظنّ إبليس أنّ النار أشرف من الطين لما فيها من النور، ولما يكون بها من الانضاج لأكثر ما يحتاج إليه، ومن الإحراق الّذي يقع به الزجر من العقاب فدخلت عليه الشبهة بهذا، وظنّ أنّه أفضل منه من حيث كان أصله أفضل من أصل آدم، وكيف يجوز أن يفضّل آدمعليه السلام عليه. وهذا يدلّ على أنّ السجود لآدم كان على وجه التفضيل له على جميع من أمر بالسجود له، وإلّا لم يكن يمتنع من ذلك، ولم يعلم إبليس أنّ الله تعالى إنّما أمرهم بالسجود لآدم عبادة له وإن كان تفضيلاً لآدم، وأنّ لهم في ذلك لطفاً في تكليفهم فلذلك أمرهم الله بالسجود له، ولو أنعم النظر في ذلك لزالت شبهته.

فقال الله تعالى له: ﴿فاخرج منها﴾ قال الحسن: يعني من السماء. وقال غيره: من الجنّة ﴿فإنّك رجيم﴾ أي مرجوم إن رجعت إليها بمثل الشهب الّتي ترجم به الشياطين. وأصل الرجيم المرجوم، وهو المرميّ بالحجر ﴿وإن عليك لعنتي﴾ يا إبليس إبعادي لك من رحمتي ﴿إلى يوم الدين﴾ يعني يوم القيامة الّذي هو يوم الجزاء.

---

(١) الأنفال: ٨. (٢) يونس: ٨٢. (٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٣٦.

فقال إبليس عند ذلك: يا ﴿ربّ فانظرني﴾ أي أخّرني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ أي يوم يحشرون للحساب، وهو يوم القيامة، فقال الله تعالى له: ﴿فإنّك من المنظرين﴾ أي من المؤخّرين ﴿إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي اليوم الّذي قدر الله فيه إماتتك.

فعلى هذا لا يلزم أن يكون إبليس مغرى بالقبائح لعلمه بأنّه يبقى، لأنّه لا وقت إلّا وهو يجوز أن يخترم فيه، ولا يقدر على التوبة فالزجر حاصل له. ومن قال: إنّه أجابه إلى يوم القيامة يقول: كما أعلمه أنّه يبقيه إلى يوم يبعثون أعلمه أيضاً أنّه من أهل النار لا محالة، وأنّه لا يتوب، وصحّ مع ذلك تكليفه، لأنّه يلزمه بحكم العقل أن لا يفعل القبيح من حيث إنّه متى فعله زاد عقابه، ويضاعف على ما يستحقّ له. وتخفيف العقاب عن النفس واجب بحكم العقل، كما يجب إسقاط العقاب جملة.

ثمّ حكى تعالى ما قال إبليس فإنّه أقسم وقال: ﴿فبعزّتك﴾ يا الهي ﴿لأغوينّهم أجمعين﴾ فالعزّة القدرة الّتي يقهر بها غيره من القادرين، و«الإغواء» التخيّب، وإبليس يغوي الخلق بأن يزيّن لهم القبيح ويرغّبهم فيه. و«الغيّ» خلاف الرشد، وهو الخيبة، يقال: أغواه يغويه إغواءً، فهو مغويّ: إذا دعاه إلى ما فيه الخيبة.

ثمّ استثنى من جملة من يغويهم عباد الله المخلصين مع حرصه على إغواء الجميع من حيث إنّه يئس منهم من حيث علم أنّهم لا يقبلون منه ولا ينقادون لإغوائه، وأنّه ليس له عليهم سلطان إلّا بالإغواء، فإذا علم أنّ منهم من لا يقبل منه عرف ذلك عنه ليأسه منه. ومن فتح اللام من «المخلصين» أراد أنّ الله تعالى أخلصهم بما فعل لهم من اللطف الّذي

امتنعوا عنده من القبائح، ومن كسر اللام أراد أنّهم أخلصوا عبادتهم لله لم يشركوا معه غيره.

ثمّ حكى تعالى ما أجاب به ـ عزّ وجلّ ـ لإبليس، فإنّه قال له: ﴿فالحقُّ والحق أقول لأملأنّ﴾ فمن رفع الأوّل أراد فأنا الحقّ أو فالحقّ لأملأنّ وأقول الحقّ. ومن نصب فعلى تقدير: فالحقّ لأملأنّ، كما تقول: حقّاً لأملأنّ، ويكون ﴿والحقّ أقول﴾ اعتراض بين الكلامين، ويكون العامل في «الحقّ» الثاني قوله: ﴿أقول لأملأنّ جهنّم منك﴾ يا إبليس ﴿وممّن تبعك منهم أجمعين﴾ أي من تابعك على دعائك إلى المعاصي.

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ فقال: ﴿قل﴾ يا محمّد ﴿ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي ليس أسألكم أجراً على دعائكم إلى الله ﴿وما أنا من المتكلّفين﴾ أي ولست ممّن يتعسّف في طلب الأمر الّذي لا يقتضيه العقل، وصفة «متكلّف» صفة تجري مجرى الذمّ، فلذلك قال: ﴿وما أنا من المتكلّفين﴾ لأنّه لا يدعو إلّا إلى الأمر الجميل الّذي يقتضيه الحقّ.

ثمّ قال: ﴿إن هو إلّا ذكر للعالمين﴾ أي ليس هذا القرآن إلّا شرف للعالمين ﴿ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾ قال الفرّاء: معناه ولتعلمنّ خبر القرآن وأنّه حقّ أو خبر محمّد أنّه صادق بعد حين[1]. قال الحسن: عند الموت يأتيك الخبر اليقين. وقال ابن زيد: يوم القيامة. و«الحين» الوقت، وقال عكرمة: هو كقوله: ﴿تؤتي أكلها كلّ حين باذن ربّها﴾[2] وذلك حين تصرم النخلة إلى حين تطلع ستّة أشهر وهو مثل ما رواه أصحابنا سواء.

---

(١) معاني القرآن ٢: ٤١٣.

(٢) إبراهيم: ٢٥.

# سورة الزمر

وتسمّى أيضاً (سورة الغرف)

وهي مكّية في قول مجاهد وقتادة والحسن، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. عدد آياتها خمس وسبعون آيةً في الكوفي، وثلاث وسبعون شامي، وسبعون حجازي وبصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾

خمسُ آياتٍ كوفي وستّ في ما عداه، عدّ الكوفي ﴿يختلفون﴾ رأس آية، ولم يعدّه الباقون.

(١)قوله: ﴿تنزيل الكتاب﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿من الله﴾. ويجوز أن يكون رفعاً على أنّه خبر الابتداء، والابتداء محذوف، وتقديره: هذا تنزيل. والمراد بالكتاب القرآن في قول قتادة، وسُمّي كتاباً لأنّه ممّا يُكتب. و﴿العزيز﴾ هو القادر الّذي لا يُقهر ولايُمنع. و ﴿الحكيم﴾ هو العليم بما تدعو إليه الحكمة وما تصرف عنه. وعلى هذا يكون من صفات ذاته تعالى. وقد يكون بمعنى: أنّ أفعاله كلّها حكمة ليس فيها وجه من وجوه القبح، فيكون من صفات الأفعال. وعلى الأوّل يكون تعالى موصوفاً في ما لم يزل بأنّه حكيم، وعلى الثاني لا يوصف إلّا بعد الفعل.

وقيل: ﴿العزيز﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الحكيم﴾ في ما يفعله بهم من أنواع العقاب(٢). والّذي اقتضى ذكر ﴿العزيز الحكيم﴾ في إنزال الكتاب: أنّه تعالى يحفظ هذا الكتاب حتّى يصل إليك على وجهه من غير تغيير ولا تبديل لموضع جهته(٣) ولا لشيء منه. وفي قوله: ﴿العزيز الحكيم﴾ تحذير عن مخالفته.

ثمّ أخبر تعالى عن نفسه: أنّه أنزل الكتاب الّذي هو القرآن ﴿إليك﴾ يا محمّد ﴿بالحقّ﴾ أي بالدين الصحيح.

ثمّ أمره فقال: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾ ومعناه: توجّه عبادتك إليه تعالى وحده، مخلصاً من شرك الأوثان والأصنام. وقوله:﴿مخلِصاً له الدين﴾ نصب ﴿مخلصاً﴾ على الحال، ونصب ﴿الدين﴾ بأنّه مفعول لـ﴿مخلصاً﴾.

وقال الفرّاء: يجوز أن يرفع ﴿الدين﴾(٤) ولم يجزه الزجّاج، قال: لأنّه

(١) في الحجريّة زيادة: أقول.
(٢) النكت والعيون ٥: ١١٣.
(٣) في الحجريّة: حجّته.
(٤) معاني القرآن ٢: ٤١٤.

يصير ما بعده تكريراً(١).

ثمّ قال تعالى: ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ والإخلاص لله: أن يقصد العبد بطاعته وعمله وجه الله، لا يقصد الرياء والسمعة، ولا وجهاً من وجوه الدنيا. والخالص في اللغة: مالا يشوبه شيء غيره، ومنه خلاصة السمن، لأنّه تخلّصه. وقال الحسن: معناه: الإسلام. وقال غيره: معناه: أنّ له التوحيد في طاعة العباد الّتي يستحقّ بها الجزاء، فهذا لله وحده لا يجوز أن يكون لغيره، لاستحالة أن يملك هذا الأمر سواه(٢).

وقوله: ﴿والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾ معناه: الحكاية عمّا يقول الكافرون الّذين يعبدون الأصنام، فإنّهم يقولون: ليس نعبد هذه الأصنام إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى أي قربى، في قول ابن زيد. وقال السدّي: الزلفى المنزلة(٣). و«الأولياء» جمع وليّ، وهو من يقوم بأمر غيره في نصرته. وحذف «يقولون» لدلالة الكلام عليه، وهو أفصح وأوجز.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿إنّ الله يحكم بينهم﴾ يوم القيامة ﴿في ما هم فيه يختلفون﴾ من إخلاص العبادة الله والإشراك به.

ثمّ قال: ﴿إنّ الله لا يهدى من هو كاذب كفّار﴾ معناه: إنّ الله تعالى لا يهديه إلى طريق الجنّة، أو لا يحكم بهدايته إلى الحقّ. ﴿من هو كاذب﴾ على الله في أنّه أمره باتّخاذ الأصنام، كافر بما أنعم الله عليه، جاحد لإخلاص العبادة. ولم يرد الهداية إلى الايمان، لأنّه قال ﴿وأمّا ثمود فهديناهم﴾(٤).

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٤٤.

(٢) تفسير الطبري: ١٠: ٦١١.

(٣) راجع تفسير الطبري ١٠: ٦١٢. النكت والعيون ٥: ١١٤.

(٤) فصّلت: ١٧.

ثمّ قال تعالى: ﴿لو أراد الله أن يتّخذ ولداً﴾ على ما يقول هؤلاء: من أنّ الملائكة بنات‌الله، أو على مايقوله النصارى: من أنّ‌عيسى ابن‌الله، أومايقوله اليهود: من أنّ عزيراً ابن الله، ﴿لاصطفى﴾ أي لاختار ﴿ممّا يخلق ما يشاء﴾.

ثمّ نزّه نفسه عن ذلك فقال: ﴿سبحانه هو الله الواحد القهّار﴾ الّذي لانظير له، القهّار لجميع‌خلقه. ومن‌هذه‌صفته كيف يجوز أن‌يتّخذ الأولاد؟؟!.

ثمّ بيّن عن قدرته فقال: ﴿خلق السموات والأرض بالحقّ﴾ أي لغرض حِكَمي دون العبث وما لافائدة فيه. ﴿يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل﴾ أي يدخل كلّ واحد منهما على صاحبه، ومنه كور العمامة. وقال قتادة: معناه: يغشي[1]. ﴿وسخّر الشمس والقمر﴾ بأن أجراهما على وتيرة واحدة وتقدير واحد. و ﴿كلّ﴾ ذلك ﴿يجري لأجل مسمّى﴾ يعني إلى مدّة قدّرها الله لهما أن يجريا إليها. وقيل: إلى قيام الساعة[2].

ثمّ قال: ﴿ألا هو العزيز الغفّار﴾ يعني: الله الّذي لا يقهر ولا يغالب، الغفّار لمعاصي عباده إذا تابوا وأقلعوا عن ذنوبهم. وفائدة الآية: أنّ من قدر على خلق السموات والأرض وتسخير الشمس والقمر وإدخال الليل فى النهار، ينبغي أن ينزّه عن اتّخاذ الولد وإضافة شريك إليه، لأنّ جميع ذلك لا يليق به، لأنّه من صفات المحتاجين.

قوله تعالى:

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ

(١) راجع تفسير الطبري ١٠: ٦١٣. النكت والعيون ٥: ١١٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ١٧٧، تفسير الطبري ١٠: ٦١٣.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧
آيتان بلا خلاف:

أقول: قرأ السوسي وابن فرج وهبة عن الأخفش والترمذي [إلّا من طريق بكر عن اليزيدي واليجبي والكسائي عن أبي بكر ﴿يرضه لكم﴾ بسكون الهاء وقرأ ابن كثير والكسائي وأبو جعفر من طريق النهرواني وإسماعيل من طريق ابن فرج وهبة عن الأخفش واليزيدي][1] إلّا ابن فرج ومدين من طريق عبدالله بن سلام والسوسي، والبرجمي وخلف، بضمّ الهاء ووصلها بواو في اللفظ. الباقون بضمّ الهاء من غير إشباع.

وهذا خطاب من الله تعالى لجميع خلقه من البشر، يقول لهم على وجه تعداد نعمه عليهم وامتنانه لديهم: هو الّذي ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ يعني: آدم لأنّ جميع البشر من نسل آدم.

وقوله: ﴿ثمّ جعل منها زوجها﴾ قيل: إنّه خلق حوّاء من ضلع من أضلاع آدم[2]. وقال قوم: خلقها من فضل طينته[3].

وفي قوله: ﴿ثمّ جعل منها زوجها﴾ و «ثمّ» تقتضي التراخي والمهلة وخلق الوالدين قبل الولد، وذلك يقتضي أنّ الله تعالى خلق الخلق من آدم ثمّ بعد ذلك خلق حوّاء، وذلك بخلاف المعلوم، لأنّ خلق حوّاء كان قبل خلق ولد آدم. فيه ثلاثة أقوال:

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في الحجريّة.
(٢) تفسير الطبرى ١٠: ٦١٣.
(٣) كما ورد في تفسير العيّاشي ١: ٢١٦ من سورة النساء.

أحدها: إنّ الله تعالى أخرج ذرّيّة آدم من ظهره كالذرّ، ثمّ خلق بعد ذلك حوّاء من ضلع من أضلاع آدم على ما روي في الأخبار[١] وهذا ضعيف لما بيّنّاه في غير موضع في ما مضى.

والثاني: إنّ ذلك وإن كان مؤخّراً في اللفظ مقدّم في المعنى، ويجري مجرى قول القائل: قد رأيت ما كان منك اليوم ثمّ ما كان منك أمس، وإن كان ماكان أمس قبل ما يكون اليوم.

والثالث: إنّه معطوف على معنى واحدة، كأنّه قال: من نفس واحدة بمعنى أوجدها[٢].

وقيل: إنّه لا يمتنع أن يكون المراد بقوله: ﴿زوجها﴾ غير حوّاء، بل يريد المزدوج من نسل آدم من الذكور والاناث، فكأنّه قال تعالى: هو الّذي ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ وهي آدمعليه السلام ثمّ جعل المزدوج من نسل هذه النفس، وهذا لا محالة متأخّر عن خلق النفس الواحدة الّتي هي آدم.

وقيل أيضاً: إنّ سبب دخول «ثمّ» أنّ الاعتداد بهذه النعمة والذكر لها على الامتنان إنّما كان بعد ذكر خلقنا من نفس واحدة، فكأنّه قال: هو الّذي ذكر لكم واعتدّ عليكم بأنّه خلقكم من نفس واحدة، ثمّ عطف على هذا الاعتداد والامتنان ذكر نعمة أُخرى، وهي أنّ زوج هذه النفس المخلوقة مخلوقة منها. فزمان الخلق للزوج وإن كان متقدّماً، فزمان ذكره والاعتداد به متزاوج، وزمان الذكر للنعم والاعتداد بها غير زمان وجودها وحصولها، فلا يمتنع أن يكون الترتيب في زمان الذكر والاعتداد غير

---

(١) راجع تفسير العيّاشي ٢: ١٠٤/٣٧و ١٠٩/٣٩و ١١٠/٤٠.

(٢) تفسير الطبري ١٠: ٦١٣، معاني القرآن ٢: ٤١٤.

الترتيب في زمان الإيجاد والتكوين. كما يقول أحدنا لغيره: لي عليك من النعم كذا اليوم ثمّ كذا أمس، وإن كان المعطوف متقدّماً على المعطوف عليه إذا كان زمان الامتنان بذلك على خلاف ترتيب زمان إيصال النعم.

وقيل: إنّ المراد بـ«ثمّ» الواو، فإنّه قد يستعمل «الواو» بمعنى ثمّ و«ثمّ» بمعنى الواو، لأنّ معنى الجمع: الانضمام وإن أراد بعضه على بعض، قال الله تعالى: ﴿فإلينا مرجعهم ثمّ الله شهيد﴾[1] ومعناه: والله شهيد.

وقوله: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ قال الحسن: معناه: وجعل لكم منها، وقال: أنزلها بعد أن خلقهما في الجنّة ويعني بها: الإبل، والبقر، والضأن، والمعز من كلّ صنف اثنين. وهما زوجان[2]. وهو قول قَتادة ومجاهد والضحّاك.

وقوله: ﴿يخلقكم في بطون أُمّهاتكم خلقاً من بعد خلق﴾ قال: قتاده ومجاهد والضحّاك والسُدّي: معناه: نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاماً ثمّ يكسي العظام لحماً ثمّ ينشئ خلقاً آخر. وقال ابن زيد: معناه: الخلق في بطون الأُمّهات بعد الخلق في ظهر آدم[3].

وقوله: ﴿في ظلمات ثلاث﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة والضحّاك والسُدّي وابن زيد: يعني: ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة. وقيل: صلب الرجل وظلمة الرحم[4].

ثمّ خاطب خلقه فقال: ﴿ذلكم الله ربّكم﴾ يعني: الّذي خلق ما ذكره هو الّذي أنشاكم وهداكم ويملك التصرّف فيكم ﴿له الملك﴾ على جميع المخلوقات ﴿لا إله إلّا هو﴾ مستحقّ للعبادة ﴿فأنّى تصرفون﴾ المعنى:

---

(١) يونس: ٤٦.

(٢ و٣ و٤) النكت والعيون ٥: ١١٥.

تؤفكون، أي: كيف تنقلبون عن ذلك إلى اتّخاذ الآلة سواه.

ثمّ قال تعالى مخاطباً لهم: ﴿إن تكفروا فإنّ الله غنيّ عنكم﴾ ومعناه: إن تجحدوا نعم الله فلا تشكروه فإنّ الله غنيّ عن شكركم ﴿ولا يرضى لعباده الكفر﴾ وفي ذلك دلالة على أنّ الكفر ليس من فعل الله ولا بإرادته، لأنّه لو كان مريداً له لكان راضياً به، لأنّ «الرضا» هو الإرادة إذا وقعت على وجهه.

ثمّ قال: ﴿وإن تشكروا يرضه لكم﴾ أي: إن تشكروا نِعمَه وتعترفوا بهايرضه لكم ويريده منكم ويثيبكم عليه. وإشباع الهاء أجود، لأنّ الهاء أوّلها متحرّك مثل ﴿شراً يره * و... خيراً يره﴾ [(١)]. والهاء إذا انفتح ماقبلها في نحو الفعل لم يجز إلّا الإشباع، كقولهم كلّمهو[(٢)]. والهاء في ﴿يرضه﴾ كناية عن المصدر الّذي دلّ عليه ﴿وإن تشكروا﴾ كقولهم: من كذّب كان شرّاً له، أي كان الكذب شرّاً له. وشكر الله لعبده هو إثابته على الشكر والطاعات، والشكر من العبد الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم. ومن أسكن الهاء قال أبو الحسن: هي لغة كقول الشاعر:

وَنَضْوايَ[(٣)] مُشْتاقانِ لَهْ أرِقانِ[(٤)]

فعلى هذه اللغة يحمل دون أن يجري الوصل مجرى الوقف.

وقوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر اخرى﴾ معناه: لا يؤاخذ بالذنب إلّا مَنْ يفعله ويرتكبه ولا يؤاخذ به غيره، وذلك نهاية العدل. وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبّرة في أنّ الله تعالى يعذّب أطفال الكفّار بكفر آبائهم.

---

(١) الزلزال: ٧ و٨.
(٢) في الحجريّة، كهلمّوا.
(٣) في الخطّية: مطواي.
(٤) أنشده الإصفهاني في الأغاني ٢٢: ١٤٣ ونسبه إلى يعلى بن الأحول، وفيه: مطواي.

وقوله: ﴿ثمّ إليه مرجعكم﴾ ومعناه: إنّ مصيركم يوم القيامة إلى حيث لا يملك الأمر والنهي سواه ﴿فينبّئكم بما كنتم تعملون﴾ أي: يخبركم بما عملتموه ويواقفكم عليه ويجازيكم بحسب ذلك ﴿إنّه عليم بذات الصدور﴾ لا يخفى عليه شيء لا سرّ ولا علانية.

قوله تعالى:

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

ثلاث آيات بلاخلاف.

قرأ ابن كثير ونافع وحمزة ﴿أمن هو قانت﴾ بتخفيف الميم. الباقون بتشديدها، من خفّف أراد النداء وتقديره يامن هو قانت(١).

قال ابن خالويه: سمعت ابن الأنباري يقول: ينادي العرب بسبعة ألفاظ: زيد أقبل وأزيد أقبل ويا زيد أقبل وهازيد أقبل وأيازيد أقبل وأي زيد أقبل وهيا زيد أقبل. وأنشد:

هَيا ظَبيَةَ الوُعشاء بينَ جلايدٍ وبين النَقَاء أنتِ أم أمُّ سالِمِ(٢)

---

(١) راجع تفسير السمر قندي ٣: ١٧٩.

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح ٤: ١٦٥٩ ونسبه إلى ذي الرُمَّة. ديوان ذي الرُّمَّة: ٦٥٨. وفيه:
أيا ظَبيَةَ الوُعساءِ بينَ جلاجل وبين النَقا آأنتِ أم أمُّ سالِمِ

ويجري ذلك مجرى قول القائل: فلان لا يصوم ولا يصلّي فيا من يصوم ويصلّي أبشِر.

وقال أبو عليّ: النداء هنا لاوجه له. والمعنى ﴿أمّن هو قانت﴾ كمن هو بخلاف ذلك؟! لأنّه موضع معادلة، وإنّما يقع في مثل هذا الموضع الجمل الّتي تكون إخباراً وليس كذلك النداء. ويدلّ على الحذف قوله: ﴿قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون﴾ لأنّ التسوية لا تكون إلّا بين شيئين وفي جملتين من الخبر والمعنى ﴿أمّن هو قانت﴾ كمن جعل لله أنداداً ليضلّ عن سبيله. وقال أبو الحسن: القراءة بالتخفيف ضعيفة لأنّ الاستفهام إنّما يبني على ما بعده[١] ولا يحمل على ما قبله، وهذا الكلام ليس قبله ما يبنى عليه إلّا في المعنى[٢].

ومن شدّد احتمل أمرين:

أحدهما: أن يريد أهذا خير أم من هو قانت.

والثاني: أن يكون جعل «أم» بمنزلة «بل» وألف الاستفهام، وعلى هذا يكون الخبر محذوفاً لدلالة الكلام عليه، كما قال الشاعر:

فَأقسِمُ لَو شيءٌ أتانا رَسُولُه سِوَاكَ ولكِنْ لم نَجِد لَكَ مَدْفَعا[٣]

والمعنى: لو أتانا غيرك ما صدّقناه، ولا اهتدينا فحذف[٤].

وقال تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت﴾[٥] و﴿أفمن يتّقى بوجهه سوء العذاب﴾[٦] كلّ ذلك محذوف الجواب.

---

(١) في المصدر: يبتدأ ما بعده. (٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٣٩.

(٣) ديوان امرئ القيس: ١٣٠، وفيه: وَجَدِّك مكان فَأُقسِمُ.

(٤) راجع تفسير الطبري ١٠: ٦٢٠، الكشف والبيان ٨: ٢٢٣.

(٥) الرعد: ٣٣. (٦) الزمر: ٢٤.

و«القانت»الداعي، و«القانت»الساكت، و«القانت»المصلّي قائماً وأنشد:

قـــانتاً لله يـــتلو كُـــتُبَه وعلى عَمْدٍ مِنْ النّاسِ اعتزل

وقيل «القانت» الدائم على الطاعة لله تعالى في قول ابن عبّاس والسدّي[١].

يقول الله عزّ وجلّ مخبراً عن حال الإنسان وضعف يقينه وشدّة تحوّله من حال إلى حال إنّه إذا مسّه ضرّ من شدّة و فقر ومرض وقحط: ﴿دعا﴾ عند ذلك ﴿ربّه منيباً إليه﴾ أي: راجعاً إليه راغباً فيه. ﴿ثمّ إذا خوّله نعمةً منه﴾ فإنّه إذا أعطاه نعمةً عظيمةً، «فالتخويل» العطيّة العظيمة على جهة الهبة، وهي المنحة قال أبو النجم:

أعْــطىَ فـلم يَـبخُل ولم يُـبَخّلِ كُومُ الذُّرَى من خَوَل المُخَوَّلِ[٢]

﴿نسي ما كان يدعو إليه من قبل﴾ يعني: ترك دعاء الله، كما كان يدعو في حال ضرّه. قال الفرّاء: ويجوز أن تكون «ما» بمعنى مَن، كما قال: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾[٣].

﴿وجعل لله أنداداً﴾ أي: وسمّى له تعالى أمثالاً في توجيه عبادته إليها من الأصنام والأوثان ﴿ليضلّ عن سبيله﴾ فمن ضمّ «الياء» أراد ليضلّ بذلك غيره عن سبيل الحقّ. ومن فتح «الياء» أراد ليضلّ هو عن ذلك و «اللام» لام العاقبة، لأنّهم لم يفعلوا ما فعلوه وغرضهم أن يضلّوا عن سبيل الله، لكن عاقبتهم كان إليه. فقال الله تعالى لنبيّه: ﴿قل﴾ له يا محمّد على وجه التهديد ﴿تمتّع بكفرك قليلاً﴾ يعني: مدّة حياتك ﴿إنّك من أصحاب النار﴾ في العاقبة، وهم الّذين يلزمون عذاب جهنّم.

---

(١) النكت والعيون ١: ١٧٨.

(٢) أنشده الزبيدي في تاج العروس ١٤: ١٦. حكاه عنه الطبري في تفسيره ١٠: ٦١٨.

(٣) النساء: ٣.

ثمّ قال: ﴿أمّن هو قانت آناء الّيل ساجداً وقائماً﴾ فآناء الليل ساعات الليل، واحدها آن وإني بالياء ﴿ساجداً وقائماً﴾ أي في هاتين الحالتين ﴿يحذر الآخرة﴾ أي: يخاف عذاب الآخرة ﴿ويرجو رحمة ربّه﴾ كمن خالف ذلك، فإنّهما لا يتساويان أبداً.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم على وجه الإنكار عليهم ﴿هل يستوي الّذين يعلمون﴾ الحقّ ويعملون به ﴿والّذين لا يعلمون﴾ ولا يعملون به، فإنّهما لا يتساويان أبداً ﴿إنّما يتذكّر﴾ في ذلك ﴿أولوا الألباب﴾ أي: ذوو العقول. وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير هذه الآية إنّه قال: «نحن الّذين يعلمون وعدوّنا الّذين لا يعلمون»[١].

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿يا عبادِ الّذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوا بوحدانيّته وأقرّوا برسله ﴿اتّقوا ربّكم﴾ أي: عقاب ربّكم باجتناب معاصيه.

ثمّ قال ﴿للّذين أحسنوا﴾ يعني: فعلوا الأفعال الحسنة وأحسنوا إلى غيرهم جزاء لهم على ذلك ﴿فى هذه الدنيا حسنة﴾ يعني: ثناء حسن وذكر جميل ومدح وشكر، وقيل: صحة وسلامة وعافية، ذكره السدّي[٢] ﴿وأرض الله واسعة﴾ فتهاجروا فيها عن دار الشرك في قول مجاهد[٣] وقيل: أرض الله يعني: أرض الجنّة واسعة[٤] ﴿إنّما يوفّى الصابرون أجرهم﴾ وثوابهم على طاعتهم وصبرهم على شدائد الدنيا ﴿بغير حساب﴾ أي: لكثرته لا يمكن عدّه وحسابه.

وقيل: إنّ معناه إنّهم يعطون من المنافع زيادة على ما يستحقّونه

(١) تفسير الطبري ١٠: ٦٢٢. (٢ و٣) تفسير الطبري ١٠: ٦٢٢.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ١٧٩.

على وجه التفضّل، فكان ذلك بغير حساب أي: بغير مجازاة بل تفضّل من الله تعالى[١].

قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

ستّ آيات في الكوفي وخمس[٢] [بصري وأربع في ما عداه عدّ الكوفيّون والبصريّون ﴿له الدين﴾ وعدّ الكوفيّون ﴿له ديني﴾ ولم يعدّ الباقون شيئاً من ذلك][٣].

هذا أمر من الله تعالى لنبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم: ﴿إنّي أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾ أي: أُخلص طاعتي له وأُوّجه عبادتي نحوه، دون الأصنام والأوثان. والآية وإن توجّهت إلى النبيّ ﷺ فالمراد بها جميع المكلّفين ﴿وأُمرت﴾ أيضاً ﴿لأن أكون أوّل المسلمين﴾ أي: المستسلمين لما أمر الله به ونهى عنه، وإنّما أمر بأن يكون أوّل المسلمين وإن كان قبله مسلمون كثيرون لأنّ المراد به أوّل المسلمين من هذه الأُمّة، ففي ذلك أنّه دعاهم إلى ما رضيه الله له ورضيه لنفسه وأن يقول لهم أيضاً: ﴿إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم﴾ يعني: عذاب

(١) النكت والعيون ٥: ١١٩.
(٢) في الخطّية زيادة «في الباقي».
(٣) ما بين المعقوفتين أثبتناه من الحجريّة.

يوم القيامة.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم ﴿الله أعبد﴾ أي: أعبد الله ﴿مخلصاً﴾ بعبادتي ﴿له﴾ تعالى ﴿ديني﴾ وطاعتي ﴿فاعبدوا﴾ أنتم معاشر الكفّار ﴿ما شئتم من دونه﴾ من الأصنام والأوثان على وجه التهديد بذلك.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم ﴿إنّ الخاسرين﴾ في الحقيقة هم ﴿الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ بأن فعلوا المعاصي، فخسروا بذلك أهاليهم الّذين كانوا لهم في الدنيا في قول مجاهد وإبن دريد. وقيل خسروا أهاليهم الّذين كانوا معدّين لهم من الحور العين لو أطاعوه، في قول الحسن ﴿وخسروا أنفسهم﴾ أي: أهلكوها بالعذاب المهين الظاهر، لمن أدركه، ولا يخفى على أحد الحال فيه.

ثمّ قال تعالى: ﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾ يعني: الظاهر الّذي لا يخفى.

ثمّ بيّن ذلك الخسران بأن قال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ «فالظلّة» السترة القائمة وجمعها ظلل، ولذلك قيل من فوقهم ظلل ومن تحتهم ظلل إذ النار أدراك فهم بين أطباقها ـ نعوذ بالله منها ـ فما هو تحت هؤلاء ظلل لمن دونهم ويجوز أن يكون المراد من تحتهم مثل تلك الظلل لأنّ الظلّة لا تسمّى كذلك إلّا إذا كانت عالية فوق من هي ظلّة له.

ثمّ قال: ﴿ذلك يخوّف الله به عباده﴾ أي: ما أخبركم به من الوعيد وما أعدّه للكفّار يحذّر الله به عباده من ارتكاب معاصيه. ثمّ ناداهم فقال: ﴿يا عباد فاتّقون﴾ أي: اتّقوا معاصي وافعلوا طاعاتي و«التخويف» الإعلام بموضع المخافة ليتّقى ومثله «التحذير» و«الترهيب». وقرأ رُويس

﴿يا عبادي﴾ بإثبات الياء في الحالين، الباقون بحذفها، لأنّ الكسرة تدلّ على الياء(١).

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

أربع آيات [بلا خلاف، في جملتها، وقد اختلفوا في تفصيلها فقال(٢) العراقيّون والشامي وإسماعيل ﴿فبشّر عبادي﴾ ولم يعدّها المكّي، ولا المدني الأوّل، وعدّ المكّي والمدني الأوّل ﴿من تحتها الأنهار﴾ ](٣).

لمّا أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفّار وما أعدّه لهم من أنواع العقاب، أخبر هاهنا عن حال المؤمنين وما أعدّه لهم من الثواب فقال: ﴿والّذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ يعني: الّذين اجتنبوا عبادة الطاغوت والتقرّب إليها بأنواع القرب. و«الطاغوت» جماعة الشياطين في قول مجاهد والسدّي وابن زيد(٤). وإنّما أنّث تأنيث الجماعة، ولفظه لفظ المذكّر. وقيل: إنّ كلّ ما عُبد من دون الله، فهو طاغوت(٥) ﴿أن يعبدوها﴾ أي اجتنبوا

---

(١) راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢: ٢٣٧.

(٢) في المطبوع: فعدّ.

(٣) مابين المعقوفتين أثبتناه من الحجريّة، وفي الخطّية «في الكوفي والبصري والمدني الأوّل دون الأخير وإنّما الخلاف في تفصيلها».

(٤) راجع النكت والعيون ٥: ١٢٠.

(٥) تفسير الطبري ١٠: ٦٢٤.

عبادتها ﴿وأنابوا إلى الله﴾ أي: تابوا إليه، وأقلعوا عمّا كانوا عليه ﴿لهم البشرى فبشّر عباد﴾ جزاءً على ذلك و«البشرى» و«البشارة» واحد وهو الإعلام بما يظهر السرور به في بشرة الوجه، وضدّه «السوءى» وهو الإعلام بما يظهر الغمّ به في الوجه بما يسوء صاحبه.

ثمّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿فبشّر عبادِ﴾ فمن أثبت الياء وفتحها فلأنّه الأصل، ومن حذف الياء اجتزأ بالكسرة الدالّة عليها.

ثمّ وصف عباده الّذين أضافهم إلى نفسه على وجه الاختصاص فقال: ﴿الّذين يستمعون القول﴾ يعني: يصغون إلى تلاوة القرآن والأقوال الدالّة على توحيده ﴿فيتّبعون أحسنه﴾ إنّما قال: ﴿أحسنه﴾ ولم يقل حَسنَه لأنّه أراد ما يستحقّ به المدح والثواب، وليس كلّ حسن يستحقّ به ذلك، لأنّ المباح حسن ولا يستحقّ به مدح ولا ثواب. و«الأحسن» الأولى بالفعل في العقل والشرع.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿أولئك﴾ يعني: هؤلاء الّذين وصفهم من المؤمنين هم ﴿الّذين هداهم الله﴾ يعني: إلى الجنّة وثوابها، وحكم بأنّهم مهتدون إلى الحقّ ﴿وأولئك هم أُولوا الالباب﴾ يعني: أُولو العقول على الحقيقة، لأنّهم الّذين انتفعوا بعقولهم من حيث اتّبعوا مايجب اتّباعه، والكفّار وإن كان لهم عقول فكأنّهم لا عقول لهم من حيث إنّهم لم ينتفعوا بما دعوا اليه

ثمّ قال تعالى على وجه التنبيه: ﴿أفمن حقّ عليه كلمة العذاب﴾ أي: وجب عليه الوعيد بالعقاب جزاءً على كفره كمن وجب له الوعد بالثواب

جزاءً على إيمانه وحذف لدلالة الكلام عليه تنبيهاً على أنّهما لا يستويان.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿أفأنت تنقذ من فى النار﴾ وتقديره: أفأنت تنقذه، لايمكنك ذلك، لأنّ العقاب وجب له بكفره. وأخبر تعالى أنّه لا يغفر له وإنّما أتى بالاستفهام مرّتين تأكيداً، للتنبيه على المعنى.

قال الزجّاج: معناه: معنى الشرط والجزاء، وألف الاستفهام هاهنا معناها: التوقيف، والثانية في قوله: ﴿أفانت تنقذ﴾ جاءت مؤكّدةً لما طال الكلام، لأنّه لايصلح أن يأتي بألف الاستفهام تارة فى الاسم والأُخرى في الخبر، والمعنى: أفمن حقّ عليه كلمة العذاب أنت تنقذه أو في سياق الكلام حذف. وفيه دليل على المحذوف. والمعنى: أفمن حقّ عليه كلمة العذاب، فيتخلّص منه أو ينجو منه أفأنت تنقذه أي: لاتقدر أحد(١) أن تنقذه(٢).

وقال الفرّاء: هما استفهام واحد وتقديره: أفأنت تنقذ من حقّت عليه كلمة العذاب من النار. ومثله ﴿أيعدكم أنكم إذا متّم ..... أنكم مخرجون﴾(٣) وتقديره: أيعدكم إنّكم تخرجون إذا متّم(٤). ثمّ فسّر وبيّن ما أعدّه للمؤمن كما فسّر وبيّن ما أعدّه للكافر(٥).

فقال: ﴿لكن الّذين اتّقوا ربّهم﴾ يعني: اتّقوا معاصيه ﴿لهم غرف من فوقها غرف مبنيّة﴾ فى مقابلة ما قال للكافر لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل لأنّها تنقلب عليهم. وقيل: المعنى: لهم منازل رفيعة فى الجنّة وفوقها منازل أرفع منها، فللمؤمنين الغرف ﴿تجري من تحتها الأنار﴾

---

(١) في الحجريّة: عليه. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٤٩. (٣) المؤمنون: ٣٥.
(٤) معاني القرآن ٢: ٤١٨. (٥) في الحجريّة: للكافرين.

وتقديره: تجري من تحت أشجارها الأنهار، ثمّ بيّن تعالى: أنّ الّذي ذكره من ثواب المؤمن ﴿وعد﴾ من ﴿الله﴾ وعد به المؤمن ﴿لا يخلف الله﴾ ميعاده ولا يكون بخلاف ما أخبر به، ونصب ﴿وعد الله﴾ على المصدر.

قوله تعالى:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَـٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وآله: والمراد به جميع المكلّفين على وجه التنبيه لهم على الأدلّة الدالّة على توحيده واختصاصه بصفات لايشركه فيها غيره ﴿ألم تر﴾ يا محمّد ومعناه: ألم تعلم ﴿أنّ الله أنزل من السماء ماءً﴾ يعني: مطراً ﴿فسلكه ينابيع فى الأرض﴾ معنى «سلكه» أدخله في عيون الأرض ومنابعها.

وقيل: «السلوك» دخول بمرور على الشيء، ولهذا حسن في صفة الماء الجاري، فقيل: فسلكه ينابيع في الأرض. ويقولون: دَخَل في الإسلام، ولا يقال سلك في الإسلام. و«الينابيع» جمع ينبوع، وهو خروج

الماء من العيون.

وقيل: «الينبوع» المكان الّذي ينبع منه الماء[١] تقول: نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه، و«عيون الماء» مستودع الماء، و«نبع الماء» إذا انفجرت به العين[٢].

وقوله: ﴿ثمّ يخرج به﴾ يعني: بذلك الماء ﴿زرعاً﴾ وهو كلّ ما ينبت[٣] على غير ساق، والشجر ماله ساق وأغصان. والنبات يعمّ الجميع، يقال: تنبت النخلة والشجرة والحبّة تنبت نباتاً.

وقوله: ﴿مختلفاً ألوانه﴾ يعني: صُنوفُه، وقيل: مختلف الألوان من أخضر وأصفر وأحمر وأبيض، من البُرّ والشعير والسمسم والأرزّ والذرّة والدخن وغير ذلك[٤].

وقوله: ﴿ثمّ يهيج فتراه مصفرّاً﴾ معناه: يجفّ ويضطرب، «فالهيج» شدّة الاضطراب بالانقلاب عن حال الاستقامة والصلاح، هاج يهيج هيجاً وهيجاناً وهاج البعير هيجاً. وقيل: معنى «يهيج» أي: يحمى[٥] ويجفّ، مكانه يحماً[٦] يلحق الجميع يخرج إلى تلك الحال فيتغيّر عن لون الخضرة إلى لون الصفرة. وقوله: ﴿ثمّ يجعله حطاماً﴾ «فالحطام» فتات التبن والحشيش.

ثمّ قال: ﴿إنّ في ذلك﴾ يعني: في ما ذكره من إنزال الماء من السماء وإنبات الزرع به ونقله من حال إلى حال ﴿لذكرى﴾ أي: ما يتذكّر به

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٥٠. (٢) في الحجريّة والمطبوعة: العيون.

(٣) في الحجريّة والمطبوعة: ثبت.

(٤) راجع تفسير السمرقندي ٣: ١٨٢، تفسير الطبري ١٠: ٦٢٧.

(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٥٠. (٦) في الحجريّة والمطبوعة: فكأنّه عمّا.

ويفكّر فيه ﴿لأولي الألباب﴾ يعني: ذوي العقول السليمة.

ثمّ قال تعالى على وجه التنبيه للحقّ: ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾ أي: من لطف الله له حتّى آمن وعرف الله ووحّده وصدّق نبيّه ﴿فهو على نور من ربّه﴾ يعني: فهو على هداية من الله ودين صحيح، كمن كان بخلاف ذلك، وحذف لدلالة الكلام عليه.

ثمّ قال: ﴿فويل للقاسية قلوبهم﴾ يعني: الويل والعقاب للّذين قست قلوبهم ﴿من ذكر الله﴾ حتّى لم يعرفوه ولا وحّدوه. يقال: قسى الشيء، إذا طلب، كما قال: ﴿ثمّ قست قلوبكم من بعد ذلك﴾[1] ويقال: غسا وعثا وقسا بمعنىواحد، ويقال: ماأقسى قلبه إذاكان لا يلين لشيء. والمعنى: كلّما تلي عليه ذكر الله قسى قلبه. وقوله: ﴿من ذكر الله﴾ معناه: غلظ قلبه عن ذكر الله. فالقاسية قلوبهم هم الّذين ألفوا الكفر وتعصّبوا له فلذلك قست قلوبهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿أولئك﴾ يعني: القاسية قلوبهم عن ذكر الله ﴿في ضلال﴾ أي: عدول عن الحقّ ﴿مبين﴾ أي: واضح ظاهر.

ثمّ قال تعالى: ﴿الله نزّل أحسن الحديث﴾ يعني: القرآن ﴿كتاباً متشابهاً﴾ نصب «كتاباً» على البدل من قوله «أحسن» ومعناه: متشابهاً في الحِكَم الّتي فيه من الحجج والمواعظ والأحكام الّتي يعمل عليها في الدين وصلاح التدبير يشبه بعضه بعضاً لا تناقض فيه ﴿مثاني﴾ أي: يثنى فيه الحِكَم والوعد والوعيد بتصريفها في ضروب البيان، ويثنى أيضاً في التلاوة فلا يملّ بحسن مسموعه في القراءة[2]. ﴿تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم﴾ أي: تقشعرّ جلود المؤمنين الّذين يخافون عذاب الله

(١) البقرة: ٧٤.

(٢) في الحجريّة والمطبوعة: لحسن مسموعه في القرآن.

لمـا يسـمعونه فـيه مـن الوعـيد ﴿ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ وما ضمنه الله على ذلك من الثواب.

ثمّ قال تعالى: ﴿ذلك﴾ يعني: ما وصف به المؤمن من اقشعرار قلوب المؤمنين تارةً ولينها أُخرى ﴿هدى الله يهدي به من يشاء﴾ أي لطف الله الّذى يلطف به لمن يشاء من عباده الّذين يعلم أنّه لطف لهم. وقال الجبائي: إنّه خصّ به أُمّة محمّد ﷺ.

ثمّ قال: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ ومعناه: من أضلّه الله عن طريق الجنّة لا يقدر أحد على هدايته إليها. ويحتمل أن يكون المراد من حكم الله بأنّه ضالّ لا يقدر أحد أن يحكم بأنّه هاد.

ثمّقال منبّهاً لخلقه: ﴿أفمن يتّقي بوجهه سوءالعذاب يوم القيامة﴾ وتقديره: كمن يدخل الجنّة؟! وجاء في التفسير أنّ الكافر يلقى في النار مغلولاً، لا يمكنه أن يتّقي النار إلّا بوجهه. ومعنى «يتّقي» يتوقّاها كما قال الشاعر:

إذ يتّقون بـي الأسِـنَّةِ لم أُخـم عنها ولكنّي تضايقَ مُقْدمي[1]

أي: يُقدّمونني إلى القتال فَيَتوقَّون بي حَرَّها. وحذف كمن كان بخلاف ذلك لدلالة الكلام عليه، فإنّ هذا لا يكون أبداً. ثمّ حكى الله تعالى ما يقال: للكفّار[2] الظالمين نفوسهم بالكفر بالله يوم القيامة إذا دخلوا النار ﴿ذوقوا ما كنتم﴾ أي: جزاء ما كنتم ﴿تكسبون﴾ من المعاصي.

ثمّ أخبر تعالى عن الأُمم الماضية من أمثالهم من الكـفّار بـأن قـال: ﴿كذّب الّذين من قلبهم﴾ بآيات الله وجحدوا توحيده وكذّبوا رسله ﴿فأتاهم العذاب﴾ جزاءً لهم على فعلهم وعقوبة عاجلة ﴿من حيث لا يشعرون﴾ أي

---

(١) ديوان عنترة بن شدّاد: ١٧.

(٢) في الحجريّة والمطبوعة: للكافرين.

حيث لا يعلمون به ولا يحتسبون.

قوله تعالى:

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٢٨) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩) إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٣١) ستّ آيات بلاخلاف.

قال المبرّد: العرب تقول: لكلّ شيء يصل إليك بجارحة من الجوارح: ذق، أي: يصل معرفته إليك، كما يصل إليك معرفة ما تذوقه بلسانك من حلو ومرّ، ومنه قوله: ﴿فذاقوا وبال أمرهم﴾ [١] وقوله: ﴿ذق إنّك أنت العزيز الكريم﴾ [٢] و«الخزي» هو المكروه والهوان، و«خزي فلان» إذا وقع في المكروه. و«الخزاية» [٣] إفراط الاستحيا، يقال: ما استحيا وما تخزى، ورأيته خزيان نادماً، قال الشاعر:

ولا أنت ديّاني فتخزوني [٤]

قرأ ابن‌كثير وأبو عمرو ويعقوب ﴿ورجلاً سالماً﴾ على وزن «فاعل» [٥] معناه: خالصاً لا يشركه فيه غيره لأنّ الله تعالى ضرب مثلاً للمؤمن والكافر، فشبّه الكافر بشركاء متنازعين مختلفين، و«المؤمن» مَن عبد إلهاً

---

(١) التغابن: ٥. (٢) الدخان: ٤٩. (٣) في الحجريّة والمطبوعة: فالخزى.

(٤) أنشده الرضي في شرحه على الكافية ٣: ٢٣١ ونسبه إلى ذي الأصبع العدواني.

(٥) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٤٠.

واحداً. الباقون ﴿سلماً لرجل﴾ على المصدر من قولهم: سلم فلان لله سلماً بمعنى: خلص له خلوصاً، كما يقولون: رَبِحَ الرجل في تجارته رِبْحاً ورَبَحاً، وسلم سِلْماً وسَلْماً وسَلامةً، وتقديره: ذا سَلم، فمعنى: ﴿أذاقهم الله﴾ أي: جعلهم يدركون الألم، كما يدرك الذائق الطعام، و«الخزي» الذلّ الّذي يستحيا من مثله بما فيه من الفضيحة، و«خزيهم في الحياة الدنيا» هو ما فعله بهم من العذاب العاجل من إهلاكهم واستيصالهم الّذي يبقى ذكره على الأبد.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولعذاب الآخرة أكبر﴾ ممّا فعل بهم في دار الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ صدق ما أخبرنا به.

ثمّ أقسم تعالى بأن قال: ﴿ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكّرون﴾ فـ«التذكّر» طلب الذكر بالفكر، وهذا حضّ على طلب الذكر المؤدّي إلى العلم، والمعنى: لكي يتذكّروا ويتّعظوا فيجتنبوا ما فعل من تقدّم من الكفر والمعاصي لئلّا يحلّ بهم كما حلّ بأُولئك.

وقوله: ﴿قرآنا عربيّاً﴾ أي: أنزلناه قرآناً عربيّاً ﴿غير ذي عوج﴾ أي: غير ذي ميل عن الحقّ بل هو مستقيم موصل إلى الحقّ، ويقال في الكلام عوج بكسر العين إذا عدل به عن جهة الصواب. و«المَثلُ» عَلَم شبّه به حال الثاني بالأوّل. والمثال مقياس يحتذى عليه، وإنّما قال: ضربنا مثلاً واحداً ولم يقل مثلين لأنّهما جميعاً ضربا مثلاً واحداً، ومثاله قوله تعالى: ﴿وجعلنا ابن مريم وأُمّه آية﴾[1] ولو ثني لكان حسناً في قول الفرّاء[2] وقوله: ﴿لعلّهم يتّقون﴾ معناه: لكي يتّقوا معاصي الله خوفاً من عقابه.

---

(١) المؤمنون: ٥٠. (٢) معاني القرآن ٢: ٤١٩.

ثمّ قال تعالى: ﴿ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون﴾ «فالتشاكس» التمانع والتنازع، تشاكسوا في الأمر تشاكساً، وفي الشركاء تشاكس في البيع، وتدبير المملوك ونحو ذلك ﴿ورجلاً سلماً لرجل﴾ فضرب المثل للموحّد بعبادته الله تعالى وحده ـ عزّ وجلّ ـ والمشرك بعبادته غير الله، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وابن زيد ﴿هل يستويان مثلاً﴾ في حسن الحال[1] لا يستويان، لأنّ الخالص لمالك واحد، يستحقّ من معونته وحياطته ما لا يستحقه صاحب الشركاء المختلفين في أمره.

ثمّ قال: ﴿الحمد لله﴾ يعني: المستحقّ للشكر والثناء على الحقيقيّة هو الله تعالى ﴿بل أكثر هم لا يعلمون﴾ حقيقة، لجهلهم بالله ومواضع نعمه.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿إنّك﴾ يا محمّد ﴿ميّت﴾ أي: عاقبتك الموت، وكذلك عاقبة هؤلاء لأنّ ﴿كلّ نفس ذائقة الموت﴾[2].

﴿ثمّ إنّكم﴾ يبعثكم الله ﴿يوم القيامة﴾ ويحشركم يوم القيامة فتختصمون عند الله. ومعناه: كلّ طائفة منكم تردّ على صاحبتها يوم القيامة وتخاصمها فـ«الاختصام» ردّ كلّ واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه. وقد يكون أحدهما محقّاً والآخر مبطلاً كالموحّد والملحد، وقد يكونان جميعاً مبطلين كاختصام اليهودي والنصراني، وقد يكونان جميعاً محقّين إذا قطع كلّ واحد منهما على صواب اعتقاده دون غيره، ويكون اختصامهم في الآخرة بذمّ رؤساء الضلالة في ما دعوهم إليه ودفع أُولئك عن أنفسهم، فيقول الأوّلون: ﴿لولا أنتم لكنّا مؤمنين﴾[3] ويقول

(١) في الخطّية: حال العبد.

(٢) آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧.

(٣) سباء: ٣١.

الرؤسا: ﴿ما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾ (١) و﴿أقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ (٢).

وقال ابن زيد: الاختصام يكون بين المؤمنين والكافرين، وقال ابن‌عبّاس: يكون بين المهتدين والضالّين والصادقين والكاذبين، وقال أبوالعالية: يكون بين أهل القبلة. و«رجل مِشْكَس» (٣) إذا كان سيّء الخلق. وقال السدّي: هذا مثل ضربه الله لأوثانهم، وقال قتادة: هذا للمشرك تنازعه الشياطين بمعونة (٤) بعضهم ببعض ﴿ورجلاً سالماً﴾ وهو المؤمن أخلص الدعوة لله والعبادة. وقال أبو عبيدة: «متشاكسون» الرجل الشكس و«رجلاً سالماً» الرجل الصالح (٥) وقال أبو عمرو: معناه: خالصاً لله، وقال أبو عليّ: رجلاً فيه شركاء يعني: في أتباعه أو في شيعته (٦).

قوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أربع آيات بلاخلاف.

قوله: ﴿فمن أظلم﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به التقريع والتوبيخ، والمعنى: فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً فادّعى أنّ له ولداً وصاحبةً، أو أنّه حرّم ما لم يحرّمه، أو أحلّ ما لم يحلّه، وإنّما كان من كذب على الله وكذّب بالحقّ أظلم الخلق، لأنّه ظلم نفسه بأفحش الظلم

---

(١) إبراهيم: ٢٢. (٢) القلم: ٣٠. (٣) في الخطّية: شكس.
(٤) كذا في ظاهر الخطّية، وفي الحجريّة، مغرية. (٥) مجاز القرآن ٢: ١٨٩.
(٦) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٤١.

من جهة كفره بربّه وجحوده لحقّ نعمه حين أشرك به تعالى من لانعمة له يستحقّ بها عبادته.

وقال قتادة: ﴿وكذّب بالصدق إذ جاءه﴾ يعني: بالقرآن.

ثمّ قال تعالى مهدّداً لمن هذه صفته: ﴿أليس في جهنّم مثوىً للكافرين﴾ و«المثوى» المقام يقال: أثوَى يُثوِي إثواءً[١] وقال الشاعر:

طالَ الثَّواءِ على ربعٍ بِـيَمْؤُودِ أَوْدَى وَكُلُّ جديد مَرَّةً مُودِ[٢]

وقوله: ﴿والّذي جاء بالصدق وصدّق به﴾ قال قتادة وابن زيد: ﴿والّذي جاء بالصدق وصدّق به﴾ هم المؤمنون جاؤوا بالصدق الّذي هو القرآن وصدّقوا به، وهو حجّتهم في الدنيا والآخرة. وقيل: الّذي جاء بالصدق «جبرئيل» وصدّق به «محمّد»صلى الله عليه وآله[٣]. وفي قراءة ابن مسعود ﴿والّذي جاؤا بالصدق﴾ قال الزجّاج: الّذي هاهنا والّذين بمعنى واحد يراد به الجمع. وقال: لأنّه غير موقّت[٤]. وقيل: الّذي جاء بالصدق النبيّصلى الله عليه وآله من قول لا إله إلا الله، وصدّق به أيضاً هوصلى الله عليه وآله[٥]. والصحيح أنّ قوله: ﴿وصدّق به﴾ من صفة الّذين جاؤوا بالصدق، لأنّه لو كان غيرهم لقال: والّذي جاء بالصدق والّذي صدّق به.

وقوله: ﴿أُلئك هم المتّقون﴾ يعني: من جاء بالصدق وصدّق به هم المتّقون معاصي الله خوف عقابه، وإنّما جاء بلفظ الجمع ﴿هم المتّقون﴾ مع أنّ لفظ «الّذي» واحد، لأنّه أراد به الجنس. ومعناه الجمع، كقوله: ﴿والعصر إنّ الانسان لفي خسر إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[٦] وقال الأشهب بن رميلة:

---

(١) أضاف في الحجريّة والمطبوعة: ثوى يثوي ثواء.

(٢) ديوان الشمّاخ، ٤٢. يَمْؤود: وادٍ لغطفان. (٣) النكت والعيون ٥: ١٢٦.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٥٤. (٥) الكشف والبيان ٨: ٢٣٦. (٦) العصر: ١ ـ ٣.

إنّ الّذي خـانَتْ بِـفَلْجٍ دِمـاؤُهم هُمُ القَومُ كلُّ القومِ يا أُمَّ خالدِ(١)

ثمّ بيّن ما أُعدّ لهـم مـن النـعيم فـقال: ﴿لهم ما يشاؤن عند ربّهم﴾ جـزاءً عـلى تـقواهـم، وبـيّن: أنّ لهـم ﴿ذلك﴾ وأنّـه ﴿جزاء المحسنين﴾ الّـذين يفعلون الطاعات.

وقوله: ﴿ليكفّر الله عنهم أسوء الّذي عملوا﴾ أي: يسـقط عـنهم عـقاب الشرك والمـعاصي الّـتي فـعلوها قـبل ذلك بـتوبتهم ورجـوعهم إلى الله ﴿ويجزيهم أجرهم بأحسن الّذي كانوا يعملون﴾ يعني: يثيبهم على طـاعاتهم من الفرض والنفل، وهي أحسـن أفـعالهم لأنّ المـباح وإن كـان حسـناً لا يستحقّ به ثواب ولا مدح لأنّ الثواب والمدح إنّما يستحقّ على الطاعات.

قوله تعالى:

أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾

[خمس آيات كوفي وثلاث في ما عداه عـدّ الكـوفيّون ﴿من هاد﴾ وعدّوا ﴿فسوف تعلمون﴾ ولم يـعدّه البـاقون](٢). قـرأ حـمزة والكسـائي

---

(١) أنشده الجوهري في الصحاح ١: ٣٣٥. الفَلْج: موضع قرب البصرة.

(٢) ما بين المعقوفتين ليس في الخطّية.

وخلف ﴿بكاف عباده﴾ على الجمع. الباقون بكاف عبده على التوحيد. من قرأ على التوحيد، أراد النبيّ ﷺ لقوله: ﴿ويخوّفونك﴾ ومن جمع، أراد النبيّ وسائر الأنبياء، لأنّ أُمّة كلّ نبيّ خاطبوا نبيّهم بمثل ذلك، كما قال تعالى مخبراً عن قوم هود: ﴿إنّ نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾[1] وقرأ أبو عمرو والكسائي عن أبي بكر ﴿كاشفات ضرّه... ممسكات رحمته﴾ منوّن فيهما، الباقون بالإضافة. فمن أضاف فللتخفيف. ومن نوّن فلأنّه غير واقع، واسم الفاعل إنّما يعمل إذا كان لما يستقبل قوله: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾[2] على الحكاية[3].

وقوله: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ لفظه لفظ الاستفهام والمراد به التقرير يقرّر الله عباده، فيقول: أليس الله الّذي يكفي عبده كيد أعدائه ويصرف عنه شرّهم، فمن وحّد، أراد محمّد ﷺ وهو قول السدّي وابن زيد. ومن جمع أراد أنبياءه كـ«إبراهيم ولوط وشعيب».

وقوله: ﴿ويخوّفونك بالّذين من دونه﴾ خطاب للنبيّ ﷺ بأنّ الكفّار يخوّفونه بالأوثان الّتي كانوا يعبدونها، في قول قتادة والسدي وابن زيد. لأنّهم قالوا له: أما تخاف أن تخبلك[4] آلهتنا. وقيل: إنّه لمّا قصد خالد لكسر العزّى بأمر النبيّ ﷺ قالوا له ساداتها: إيّاك يا خالد إنّ بأسها شديد.

ثمّ قال ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يحتمل معناه شيئين:

أحدهما: انّ من أضلّه عن طريق الجنّة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه إليها.

---

(١) هود: ٥٤. (٢) الكهف: ١٨.

(٣) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٤١، الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢: ٢٣٩.

(٤) في الحجريّة: تهلكك.

والثاني: أنّ من حكم الله بضلالته وسمّاه ضالاً إذا ضلّ هو عن الحقّ فليس له من يحكم بهدايته وتسميته هادياً.

ثمّ عكس ذلك فقال: ﴿ومن يهدي الله فما له من مضلّ﴾ وهو يحتمل أمرين:

أحدهما: من يهديه الله إلى طريق الجنّة فلا أحد يضلّه عنها.

والثاني: من يحكم بهدايته ويسمّيه هادياً فلا أحد يمكنه أن يحكم بضلالته على الحقيقة.

ثمّ قرّر خلقه فقال: ﴿أليس الله بعزيز﴾ أي: قادر قاهر لا يقدر أحد على مغالبته ﴿ذي انتقام﴾ من أعدائه والجاحدين لنعمته.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿ولئن سألتهم﴾ يا محمّد يعني: هؤلاء الكفّار ﴿من خلق السموات والأرض﴾ فأنشأها واخترعها وأوجدها بعد أن كانت معدومة ﴿ليقولنّ الله﴾ الفاعل لذلك، لأنّهم لو أحالوا على غيره لبان كذبهم وافتراؤهم بأوهن شيء، لأنّه لا يقدر على ذلك إلّا القادر لنفسه الّذي لا يعجزه شيء.

ثمّ قال ﴿قل﴾ لهم ﴿أفرأيتم ماتدعون من دون الله إن أرادني الله بضرّ هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته﴾ فمن أضاف لم يعمل اسم الفاعل ومن نوّن أعمله، وهما جميعاً جيّدان. والمعني: إنّ من يعجز عن النفع والضرّ وكشف الكرب عمّن يتقرّب إليه ولا يتأتّى منه ذلك كيف يحسن عبادته؟! وإنّما تحسن العبادة لمن يقدر على جميع ذلك ولا يلحقه عجز ولا منع، وهو الله تعالى.

والوجه في إلزام من خَلَق السماوات والأرض إخلاص العبادة له،

أنّ من خلق السماوات والأرض هو القادر على النفع والضرّ بما لا يمكن أحد منعه ويمكنه منع كلّ أحد من خير أو شرّ، فـ«العبادة» أعلى منزله الشكر، لأجل النعم الّتي لايقدر عليها غير الله، فمن أقرّ بخلق السماوات والأرض لزمه إخلاص العبادة لمن خلقهما، ومن لم يقرّ دلّ عليه بما يلزمه الإقرار به.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿حسبي الله﴾ أي: يكفيني الله ﴿عليه يتوكّل المتوكّلون﴾ فـ«التوكّل» ردّ التدبير إلى من يقدر على الإحسان فيه[1] فلمّا كان لا يقدر على الإحسان في جميع التدبير الّذي يصلح الإنسان إلّا الله تعالى وجب على كلّ عاقل التوكّل عليه بما هو حسبه منه.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يامحمّد ﴿يا قوم إعملوا على مكانتكم﴾ قال مجاهد: على ناحيتكم، وقيل: على مكانكم من العمل، وقيل: على مكانتكم أي: ديانتكم على وجه التهدّد لهم، وقيل: على مكانتكم أي: جهتكم الّتي اخترتموها وتمكّنتم في العمل بها[2].

ثمّ قال: ﴿إنّي عامل﴾ بما أدعوكم إليه ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة أعمالكم وآخر كفركم وتعرفون ﴿من يأتيه عذاب يخزيه﴾ في الدنيا ويهينه في الآخرة ﴿ويحلّ عليه﴾ أي: ينزل عليه ﴿عذاب مقيم﴾ أي: دائم لايزول، وذلك غاية الوعيد والتهديد.

قوله تعالى:

إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى

(١) في الخطّية: منه.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٥٦.

لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

قرأ حمزة والكسائي إلّا قتيبة وخلف ﴿فيمسك الّتي قضي عليها﴾ على ما لم يسمّ فاعله. الباقون ﴿قضى﴾ بفتح القاف، وهو الأجود لأنّ اسم «الله» تعالى قد تقدّم في قوله: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها﴾ وقيل: إنّ «الموت» هاهنا المراد به النوم(١). و«التوفّي» هاهنا توفّي النفس لا الروح، لأنّ ابن‌عبّاس قال: في ابن آدم نفس وروح، فإذا نام قبضت نفسه وبقيت روحه. و«الروح» هو الّذي يكون بها الغطيط. و«النفس» هي الّتي يكون بها التميز، فإذا مات قبضت نفسه وروحه.

فإن قيل: كيف قال هاهنا ﴿الله يتوفّى الأنفس﴾ وقال في موضع آخر: ﴿توفّته رسلنا﴾ (٢) ﴿وقل يتوفّاكم ملك الموت﴾ (٣).

قيل: إنّ الّذي يتولّى قبض الأرواح ملك الموت بأمر الله، ومعه رسل وأعوان، فلذلك قال: ﴿توفّته رُسلنا﴾.

وحجّة مَنْ بنى الفعل للفاعل قوله: ﴿ويرسل الأُخرى﴾ ومن بنى للمفعول به، فلأنّ المعنى يؤول إليه. وقال الفرّاء: تقديره: الله يتوفّى الأنفس حين موتها ويتوفّى الّتي لم تمت في منامها عند انقضاء أجلها. وقيل:

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٢٣٨. (٢) الأنعام: ٦١. (٣) الم السجدة: ١١.

«توفّها»[١] نومها لقوله: ﴿وهوالّذي يتوفّاكمبالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار﴾[٢].

يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه: ﴿إنّا أنزلنا عليك﴾ يا محمّد ﴿الكتاب﴾ يعني: القرآن ﴿للنّاس بالحقّ﴾. ومعناه: أنزلناه على أنّه حقّ، فهذه فائدة الباء. وفي ذلك حجّة على من زعم أنّ الله سبحانه يريد بإنزاله إضلال الكافرين عن الإيمان، لأنّه لو كان كذلك لم يكن منزلاً على أنّه حقّ وجب النظر في موجبه ومقتضاه، فما رغب فيه وجب العمل به وما حذر منه وجب اجتنابه، وما صحّحه وجب تصحيحه وما أفسده وجب إفساده، وما دعا إليه فهو الرشد، وما صرف عنه فهو الضلال.

ثمّ قال: ﴿فمن اهتدى﴾ يعني: بما فيه من الأدلّة ﴿فلنفسه﴾ لأنّ منفعة عاقبته من الثواب تعود عليه ﴿ومن ضلّ﴾ عنه وحاد ﴿فإنّما يضلّ عليها﴾ يعني: على نفسه، لأنّ وخيم عاقبته من العقاب تعود عليه.

ثمّ قال: ﴿وما أنت﴾ يامحمّد ﴿عليهم بوكيل﴾ أي: بحفيظ ولا رقيب وإنّما عليك البلاغ والوكيل القائم بالتدبير. وقيل ﴿ما أنت عليهم بوكيل﴾ معناه: وما أنت عليهم برقيب فى إيصال الحقّ إلى قلوبهم وحفظه عليهم حتّى لا يتركوه ولا ينصرفوا عنه، ولا تقدر على إكراههم على الإسلام، وإنّما الله تعالى القادر عليه.

قوله: ﴿الله يتوفّى الأنفس حين موتها﴾ معناه: إنّه يقبضها إليه إذا أراد إماتتها بأن يقبض روحها بأن يفعل فيها الموت ﴿والّتي لم تمت في منامها فيمسك الّتي قضى عليها الموت﴾ فلا يردّها إليه ﴿ويرسل الأُخرى...﴾ الّتي يريد إبقاءها إلى أن تستوفي أجلها الّذي قدّره لها. وقد ذكرنا ماروى عن

---

(١) كذا في النسخ، وفي المصدر: إنّ توفّيها.

(٢) الأنعام: ٦٠، معاني القرآن ٢: ٤٢٠.

ابن عبّاس: من أنّ قبض الروح يكون منه ميتاً، وقبض النفس يكون بـه فاقداً للتمييز والعقل، وإن لم يفقد حياته.

والفرق بين قبض النوم والموت: إنّ قبض النوم يضادّ اليقظة، وقبض الموت يضادّ الحياة، وقبض النوم تكون الروح معه فـي البـدن، وقـبض الموت يخرج الروح منه عن البدن. وقال سعيد بـن جـبير والسـدّي: إنّ أرواح الأحياء إذا ناموا تجتمع مع أرواح الأموات، فإذا أرادت الرجوع إلى الأجساد أمسك الله أرواح الأموات وأرسل أرواح الأحياء.

ثمّ قال: ﴿إنّ في ذلك﴾ يعني: في قبض الأرواح تارة بالموت، وقبض الأنفس بالنوم أُخرى ﴿لآيات﴾ أي: دلالات واضحات على تـوحيد الله، فإنّه لا يقدر عليه سواه ﴿لقوم يتفكّرون﴾ أي: يستعملون عقولهم بالفكر في ذلك فيعرفون الله تعالى بذلك.

ثمّ أخبر عن هؤلاء الكفّار فقال: ﴿أم اتّخذوا﴾ معناه: بل اتّخذ هؤلاء الكفّار ﴿من دون الله شفعاء﴾ بزعمهم، من الأصنام والأوثان فـقال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون﴾ تنبيهاً لهم على أنّهم يتّخذونهم شفعاء وإن كانوا لا يقدرون على شيء من الشفاعة ولا غيرها ولا يعقلون شيئاً. و«الألف» في ﴿أو لو﴾ ألف الاستفهام يراد به: التنبيه.

ثـمّ قـال: ﴿قل﴾ لهـم يـا مـحمّد ﴿لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض﴾ أي: الشفاعة لمن له التدبير والتصرّف في السـموات والأرض ليس لأحد الاعتراض عليه فـي ذلك ﴿ثمّ إليه ترجعون﴾ مـعاشر الخـلق أي: إلى حيث لا يملك أحد التصرّف والأمر والنهي سواه، وهو يوم القيامة فيجازي كلّ إنسان على عمله على الطاعات بـالثواب وعـلى المـعاصي بالعقاب.

ثمّ أخبر عن حالهم وشدّة عنادهم، فقال: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزّت قلوب الّذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ يعني: نفرت نفوسهم عن التوحيد وانقبضت عنه يقال: «فلان مشمئزّ عن كذا» إذا انقبض عنه. وفي قوله: «اشمأزّت قلوبهم» دليل على فساد قول من يقول: المعارف ضرورة ﴿وإذا ذكر الّذين من دونه﴾ قال السدّي: يعني: أوثانهم ﴿إذا هم يستبشرون﴾ أي: يفرحون ويسرّون حتّى يظهر السرور في وجوههم.

قوله تعالى:

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَافْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ خمس آيات.

[أقول](١) هذا أمر من الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ والمراد به جميع المكلّفين أن يدعوه بهذا الدعاء فيقولوا: ﴿اللّهمّ فاطر السموات والارض﴾ أي: خالقهما ومنشئهما ومبتدئهما ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي: عالم ما غاب علمه عن جميع الخلائق وعالم ما شهدوه(٢) وعملوه، لايخفى عليك شيء من الأشياء ﴿أنت تحكم بين عبادك﴾ يوم القيامة ﴿في ما كانوا فيه يختلفون﴾ في دار الدنيا من أمر دينهم ودنياهم وتفصل بينهم بالحقّ.

---

(١) من الحجريّة.
(٢) في الحجريّة: يشهدوه.

و﴿فاطر السموات﴾ عند سيبويه لايجوز أن يكون صفة ﴿اللهمّ﴾ قال لأنّه غير الاسم في النداء، ولأنّه لا يذكر بهذا الذكر إلّا بعد ما عرف كما لا يضمر الاسم إلّا بعد ما عرف، فكما لا توصف المضمرات، فكذلك هذا الاسم، وليس يجب مثل ذلك في قولنا: ﴿الله﴾ لأنّه قد يذكره العارف لمن لا يعرفه فيعرفه إيّاه بصفته، فيقول: الله فاطر السموات والأرض وخالق الخلق وربّ العالمين ومالك يوم الدين. وقال أبو العبّاس: يجوز أن يكون صفة ﴿اللّهمّ﴾ حملاً له على «يا الله فاطر السموات والأرض».

ثمّ أخبر تعالى على وجه المبالغة في وقوع عقاب الكفّار وعظمه بأنّه لو كان لهم مُلك جميع ما في الأرض، ومثله معه، زيادة عليه وأراد الظالم لنفسه بارتكاب المعاصي أن يفتدي نفسه من شدّة ذلك العذاب يوم القيامة لما قبل منه، ولما فودي به، وحذف الجواب لدلالة الكلام عليه.

ثمّ قال: ﴿وبدالهم﴾ يعني: الكفّار ما لم يكونوا يحتسبونه ولا يظنّونه واصلاً إليهم، و«الاحتساب» الاعتداد بالشيء من جهة دخوله في ما يحسبه، فلمّا كان أهل النار لم يكونوا يدرون ما ينزل بهم من العذاب صحّ أن يقال: ﴿بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾ ولا قدّروا أنهم يصيرون إليه.

ثمّ قال: ﴿وبدالهم﴾ أي: ظهر لهم أيضاً ﴿سيّآت ماكسبوا﴾ أي: جزاء سيّآت ما كسبوا من أعمالهم ﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل بهم ﴿ماكانوا به يستهزؤن﴾ في الدنيا من قول الله ووعده ووعيده.

ثمّ أخبر تعالى عن شدّة تقلّب الإنسان وتحوّله من حال إلى حال بأنّه إذا مسّه ضرّ من مرض ومصيبة وبلاء ﴿دعانا﴾ وفزع إلينا ﴿ثمّ﴾ بعد ذلك

﴿إذا خوّلناه﴾ أي: أعطيناه ﴿نعمة منّا﴾ و«التخويل» العطاء بلا مكافاة ولا مجازاة بل تفضّلاً محضاً ﴿قال إنّما أُوتيته على علم﴾ قال الحسن: معناه: أنّي أُوتيته بحيلتي وعملي، وقال غيره: معناه: على علم برضاه عنّي(١) فلذلك أعطاني ما أولاني من النعمة. وقال آخرون: معناه: على علم بأن تسبّبت به للعافية وكشف البليّة وأنّه لم ينلها من قبل ربّه(٢).

ثمّ قال: ليس الأمر على ما يقوله ﴿بل هي فتنة﴾ أي: بليّة واختبار يبتليه الله بها فيظهر كيف شكره في مقابلتها، فيجازيه بحسبها، لأنّه وإن كان عالماً بحاله لم يجز أن يجازيه على علمه، وإنّما يجازيه على فعله ﴿ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ صحّة ما قلناه من أنّ ذلك محنة واختبار لقلّة معرفتهم بالله وبصفاته.

ثمّ قال: ﴿قد قالها الّذين من قبلهم﴾ يعني: قد قال كلمة مثل ما قال هؤلاء ﴿فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون﴾ من الأموال ويجمعونه بل صارت وبالاً عليهم.

قوله تعالى:

فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾

---

(١) كما حكاه في النكت والعيون ٥: ١٣٠.

(٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ١٩٠.

وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴿٥٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١]: يقول الله تعالى مخبراً عن حال هؤلاء الكفّار في الآخرة وما يصيرون إليه فقال: ﴿فأصابهم سيّآت ماكسبوا﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: فأصابهم عقاب سيّآت ما كسبوا وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه لدلالة الكلام عليه[٢].

الثاني: أنّه أراد فأصابهم عقاب ما كسبوا من المعاصي وسمّاه سيّآت لازدواج الكلام، كما قال: ﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾[٣].

ثمّ قال: ﴿والّذين ظلموا من هؤلاء﴾ يعني: كفّار قوم النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿سيصيبهم﴾ أيضاً ﴿سيّآت ماكسبوا وما هم بمعجزين﴾ أي: ليس يفوتون الله ثمّ قال على وجه التنبيه لهم على معرفته: ﴿أو لم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي: يوسعه على من يشاء من عباده بحسب ما يعلم من مصلحته ﴿ويقدر﴾ أي: ويضيق على من يشاء منهم بمثل ذلك ﴿إنّ فى ذلك لآيات﴾ أي: دلالات واضحات ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي: يصدّقون بتوحيد الله ويقرّون بأنبيائه. وأضاف الآيات إلى المؤمنين لأنّهم الّذين انتفعوا بها.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم﴾ بارتكاب المعاصي ﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي: لاتيأسوا من رحمة الله، يقال: قنط يقنط قنوطاً إذا يئس ﴿إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم﴾ وفى ذلك دلالة واضحة على أنّه يجوز أن يغفر الله بلاتوبة تفضّلاً منه وبشفاعة النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّه لم يشرط التوبة بل أطلقها.

---

(١) من الحجريّة. (٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ١٩٠. (٣) الشورى: ٤٠.

وروي عن فاطمة عليها السلام أنّها قالت: «إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً ولا يبالي»[١].

وروي عن عليّ عليه السلام وابن عبّاس أنّهما قالا: لأرجى آية في كتاب الله قوله: ﴿وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾[٢] فقال عبدالله بن عمرو بن العاص بل أرجى آية في كتاب الله قوله: ﴿قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم﴾[٣] وهو المرويّ عن عليّ أيضاً[٤].

وقوله: ﴿وأنيبوا إلى ربّكم﴾ أمر مستأنف من الله لخلقه بالرجوع إلى الله والتوبة من معاصيهم. و«الإنابة» هي الرجوع ﴿وأسلموا له﴾ معناه: آمنوا به وسلِّموا لأوامره ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون﴾ عند نزول العذاب بكم.

﴿واتّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم﴾ إنّما قال: ﴿أحسن ما أنزل﴾ لأنّه أراد بذلك الواجبات والنفل الّتي هي الطاعات دون المباحات والمقبّحات الّتي لايأمر بها. وقال السدّي: ﴿أحسن﴾ أي: ما أمر الله تعالى به في الكتاب. وقال قوم: ﴿أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم﴾ يريد به الناسخ دون المنسوخ[٥] وهذا خطأ، لأنّ المنسوخ لايجوز العمل به بعد النسخ وهو قبيح، ولا يكون الحسن أحسن من قبيح، وقال الحسن: أحسنه أن يأخذوا بما أمرهم الله به وأن ينتهوا عمّا نهاهم عنه ﴿من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة﴾

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٢٤٣. الحديث عن أسماء بنت يزيد.

(٢) الرعد: ٦. راجع الجامع لأحكام القرآن ٨: ١٩٤.

(٣) تفسير السمرقندي ٣: ١٩١.

(٤) الكشف والبيان ٨: ٢٤٤. فيه: أوسع، وكذا في تفسير الطبري ١١: ١٦.

(٥) النكت والعيون ٥: ١٣٢. حكاه عن ابن عيسى.

أي: فجأة في وقت لا تـتوقّعونه ﴿وأنتم لاتشعرون﴾ أي: لاتـعرفون وقت نزوله بكم.

قوله تعالى:

أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنبِ ٱللَّهِ وَإِنْ كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ خمس آيات.

[أقول]:(١) قرأ أبو جعفر من طريق ابن العـلّاف ﴿يا حسرتاي﴾ بـياء ساكنة بعد الألف(٢). وفتح الياء النهرواني عن أبي جعفر. الباقون بلا ياء.

لمّا أمر الله تعالى باتبّاع طاعاته والانتهاء عن مـعاصيه تـحذيراً مـن نزول العذاب بهم بغتة وهم لا يعلمون، بيّن الغرض بذلك وهو لئلّا تقول نفس يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله. وحذف «لا» كما حذف من قوله: ﴿يبيّن الله لكم أن تضلّوا﴾(٣) وقال الزجّاج: معناه: كراهـية أن تـقول نفس(٤) ومثله قوله ﴿وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾(٥) في قـول الفرّاء(٦). وعلى قول الزجّاج: كراهية أن تميد بكم، و«النفس» نفس الإنسان.

والفرق بين النفس والروح: أنّ «النفس» من النفاسة، و«الروح» مـن الريح. وأنفس ما في الحيوان نفسه، وهي جسم رقيق روحاني من الريح، ونفس الشيء هو الشيء بعينه. و«التفريط» إهمال مايجب أن يتقدّم فـيه

---

(١) من الحجريّة. (٢) راجع الكشف والبيان ٨: ٢٤٦. (٣) النساء: ١٧٦.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٥٩. (٥) النحل: ١٥. (٦) معاني القرآن ٢: ٤٢١.

حتّى يفوت وقته، ومثله التقصير، وضدّه الأخذ بالحزم، يقال: فلان حازم وفلان مفرّط.

وقوله: ﴿في جنب الله﴾ معناه: فرّطت في طاعة الله أو في أمر الله إلّا أنّه ذكر الجنب كما يقال: هذا صغير في جنب ذلك الماضي في أمره، وفي جهته، فإذا ذكر هذا دلّ على الاختصاص به من وجه قريب من معنى جنبه.

وقال مجاهد والسدّي: معنى ﴿في جنب الله﴾ أي: في أمر الله[1]. و«الألف» في قوله: ﴿ياحسرتى﴾ منقلبة عن «ياء» الإضافة. ويفعل ذلك في الاستفهام والاستغاثة بمدّ الصوت. و«التحسّر» الاغتمام على مافات وقته لانحساره عنه بما لا يمكنه استدراكه، ومثله التأسّف.

وقوله: ﴿وإن كنت لمن الساخرين﴾ قال قتادة والسدّي: معناه: المستهزئين بالنبيّ والكتاب الّذي معه[2]. وقيل: معناه: كنت ممّن يسخر لمن يدعونني[3] إلى الإيمان، ومعناه: وما كنت إلّا من جملة الساخرين إعترافاً منهم على نفوسهم.

وقوله تعالى: ﴿أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين﴾ معناه: فعلنا ذلك لئلّا يقول: لو أراد الله هدايتي لكنت من المتّقين لمعاصيه خوفاً من عقابه ﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة فأكون من المحسنين﴾ ومعناه: إنّا فعلنا ذلك لئلّا يتمنّوا إذا نزل بهم البلاء والعذاب يوم القيامة لو أنّ لي رجعة إلى دار الدنيا لكنت ممّن يفعل الطاعات.

ونصب «فأكون» على أنّه جواب «لو» ويجوز أن يكون نصباً بإضمار

---

(١) كما في تفسير الطبري ١١:١٩.
(٢) راجع تفسير الطبري ١١: ١٩.
(٣) في المطبوعة والحجريّة: بمن يدعوني.

«أن» بمعنى لو أنّ لي كرّة فأن اكون.

وفي ذلك دليل على بطلان مذهب المجبّرة في أنّ الكافر لا يقدر على الإيمان لأنّه لو كان إذا ردّ لا يقدر إلّا على الكفر لم يكن لتمنّيه معنى.

ثمّ قال تعالى منكراً عليهم: ﴿بلى قد جاءتك آياتي﴾ أي: حججي ودلالاتي ﴿فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ الجاحدين لنعمي عليك. وإنّما خاطب بالتذكير و«النفس» مؤنّثة لأنّه أراد يا إنسان.

ثمّ أخبر تعالى عن حال الكفّار في الآخرة، فقال: ﴿ويوم القيامة ترى الّذين كذبوا على الله وجوههم مسودّة﴾ جزاءً على كفرهم.

ثمّ قال: ﴿أليس في جهنّم مثوى﴾ أي: موضع إقامة ﴿للمتكبّرين﴾ الّذين تكبّروا عن طاعة الله وعصوا أوامره.

قوله تعالى:

وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

ستّ آيات بلاخلاف.

[أقول][١]: قرأ روح ﴿وينجي الله﴾ بالتخفيف، الباقون بالتشديد. وقرأ ابن كثير ﴿تأمرونّي أعبد﴾ مشدّدة النون مفتوح الياء. وقرأ نافع وابن عامر في رواية الداجوني خفيفة النون، وفَتَحَ الياء نافع، ولم يفتحها ابن عامر.

(١) من الحجريّة.

وقرأ ابن عامر في غير رواية الداجوني ﴿تأمرونني﴾ بنونين، الباقون مشدّدة النون ساكنة الياء. وقرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿بمفازاتهم﴾ جماعة، الباقون ﴿بمفازتهم﴾ على واحدة. فمن وحّده قال: هو بمنزلة السعادة والنجاة، كما قال الله تعالى: ﴿بمفازة من العذاب﴾ (١) وقال قوم: «المفازة» الصحراء، فهي مهلكة وتسمّى مفازة تفاؤلاً، كما قالوا: لمعوجّ الرجلين أحنف، وللحبشي أبو البيضاء. وقال ابن الأعرابي: ليست مقلوبةً بل المفازة المهلكة، يقولون: فوز الرجل إذا هلك ومات. ومن قرأ ﴿تأمرونني﴾ فلأنّه الأصل. ومن شدّد أدغم إحدى النونين في الأُخرى. ومن خفّف حذف إحدى النونين، كما قال الشاعر:

تراه كالثَّغام يُعَلّ مِسْكاً ... بِسوء الفاليات إذا قَلَيني (٢)

أراد قلينني فحذف، لمّا أخبر الله تعالى عن حال الكفّار وأنّ الله يحشرهم يوم القيامة مسودّة وجوههم، وأنّ مقامهم في جهنّم، أخبر أنّه ينجّي الّذين اتّقوا معاصي الله خوفاً من عقابه، ويخلّصهم.

وقوله: ﴿بمفازتهم﴾ بمنجاتهم من النار بطاعاتهم الّتي أطاعوا الله بها. وأصل «المفازة» المنجاة، وبه سمّيت الفلاة مفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها، كما سمّوا «اللديغ» سليماً. ومن وحّد فلأنّه اسم جنس أو مصدر يقع على القليل والكثير. ومن جمع أراد تخلّصهم من مواضع كثيرة فيها هلاك الكفّار وأنواع عذابهم.

وقوله: ﴿لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون﴾ معناه: إنّ هؤلاء المؤمنين

---

(١) آل عمران: ١٨٨.

(٢) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن ١: ٣٥٢، ونسبه الى عمرو بن معديكرب.

الّذين يخلّصهم الله من عقاب الآخرة وأهوالها لا يـمسّهم عـذاب أصـلاً، ولا هم يغتمّون على وجه. وقوله: ﴿لا يمسّهم السوء﴾ معناه[١]: نفياً عامّاً لسائر أنواع العذاب، والعموم في قوله: ﴿ولا هم يحزنون﴾ فيه تـأكـيد له. وقيل: لئلّا يظنّ ظانّ أنّه لما لم يمسّهم العذاب جاز أن يمسّهم بعض الغمّ، ففي ذلك تفصيل واضح يزيل الشبهة.

ثمّ أخبر تعالى أنّه خلق كلّ شيء. ومعناه: إنّه يقدر على كـلّ شـيء ﴿وهو على كلّ شيء وكيل﴾ أي: له التصرّف في ما يريد حافظ له وإن حملنا معنى الخلق على الإحداث، فالمراد به ﴿خالق كلّ شيء﴾ من مقدوراته من الأجسام والأعراض.

وقوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ و«المـقاليد» المـفاتيح واحـده «مقليد» كقولك: «منديل» و«مناديل»، ويقال في واحده أيـضاً: «إقـليد» وجمعه «أقاليد» وهو من التقليد، والمعنى: له مفاتيح خـزائـن السـموات والأرض يـفتح الرزق عـلى مـن يشـاء ويـغلقه عـمّن يشـاء. وقـوله: ﴿والّذين كفروا بآيات الله﴾ يـعني: كـفروا بآيـاته مـن مـقاليد السـموات والأرض وغيرها. وقوله: ﴿أُولئك هم الخاسرون﴾ يعني: هؤلاء الّذين كفروا بـأدلّة الله وحـججه ﴿هم الخاسرون﴾ لأنّـهم يـخسرون الجـنّة ونـعيمها ويحصلون في النار وسعيرها.

وقوله: ﴿قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيّها الجاهلون﴾ أمـر للـنبيّ ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفّار تأمروني[٢] أيّها الكفّار أن أعبد الأصنام من دون الله أيّها الجاهلون بالله وبآياته؟! والعامل في قوله: ﴿أفغير﴾ على أحد وجهين:

---

(١) في الحجريّة زيادة: وإن كان.

(٢) في الحجريّة: تأمرون.

أحدهما: أن يكون ﴿تأمرونّي﴾ اعتراضاً فيكون التقدير: أفغير الله أعبد أيّها الجاهلون في ما تأمرونّي.

الثاني: أن لا يكون اعتراضاً ويكون تقديره: أتأمروني أعبد غير الله أيّها الجاهلون في ما تأمروني فإذا جعلت ﴿تأمروني﴾ اعتراضاً فلا موضع لقوله ﴿أعبد﴾ من الإعراب، لأنّه على تقدير أعبد أيّها الجاهلون، وإذا لم تجعله اعتراضاً يكون موضعه نصباً على الحال، وتقديره أتأمرونّي عابداً غير الله، فمخرجه مخرج الحال ومعناه أن أعبد، كما قال طرفة:

ألا أيُّهذا الزَّاجِري أحْضُر الوَغَى
وَأن أشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنْتَ مُخْلِدِي[1]

أي: الزاجر أن احضر، وحذف «أن» ثمّ جعل الفعل على طريقة الحال.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿ولقد أُوحي إليك﴾ يا محمّد ﴿وإلى الّذين من قبلك﴾ من الأنبياء والرسل ﴿لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين﴾ لثواب الله. وقال قوم: فيه تقديم وتأخير وتقديره: ولقد أُوحي إليك لئن أشركت ليحبطنّ عملك، وإلى الّذين من قبلك مثل ذلك[2]. وقال آخرون: هذا ممّا اجتزئ بأحد الخبرين عن الآخر[3] كما يقول القائل: لقد قيل لزيد وعمرو ليذهبنّ، ومعناه: لقد قيل لزيد: ليذهبنّ وعمرو ليذهبنّ فاستغني بقوله وعمرو عن أن يقال ليذهبنّ بما صار لزيد.

وليس في ذلك ما يدلّ على صحّة الإحباط على ما يقوله أصحاب الوعيد، لأنّ المعنى في ذلك لئن أشركت بعبادة الله غيره من الأصنام لوقعت عبادتك على وجه لا يستحقّ عليها الثواب، ولو كانت العبادة

(١) ديوان طرفة بن العبد: ٣١. (٢) تفسير الطبري ١١: ٢٣. (٣) مجاز القرآن ٢: ١٩١.

خالصة لوجهه لاستحق عليها الثواب، فلذلك وصفها بأنّها محبطة، وبيّن ذلك بقوله: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: وجّه عبادتك إليه تعالى وحده دون الأصنام و دون كلّ وثن تكن من الشاكرين الّذين يشكرون الله على نعمه ويخلصون العبادة له. ونصب قوله: ﴿بل الله﴾ بفعل فسّره قوله: ﴿فاعبد﴾ وتقديره: أعبد الله فاعبد، وقال الزجّاج: هو نصب بقوله: ﴿فاعبد﴾ وتقديره: قد بلغت فاعبد الله[1] وقال المبرّد: ومعنى «ليحبطنّ» ليفسدنّ يقولون: حبط بطنه وحبج إذا فسد من داء معروف.

قوله تعالى:

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ أربع آيات بلاخلاف.

[أقول][2]: يقول الله تعالى مخبراً عن حال الكفّار: إنّهم ما عظّموه حقّ عظمته إذ دعوك إلى عبادة غيره. وقال الحسن: معناه: إذ عبدوا الأوثان من دونه. والأوّل أقوى وهو قول السدّي. قال محمّد بن كعب القرطي ﴿ما قدروا الله حقّ قَدْره﴾ معناه: ما علموا كيف حقّ الله. قال المبرّد: اشتقاقه من قولك: فلان عظيم القدر، يريد بذلك جلالته. و«القدر» اختصاص الشيء بعظم حجم أو صغر أو مساواة.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٦١.

(٢) من الحجريّة.

وقوله: ﴿والأرض جميعاً قبضته﴾ قال الفرّاء: كان يجوز في «قبضته» النصب[١]. وقال الزجّاج: لايجوز أن يقال: زيد دارك، أي: في دارك على حذف «في» كقولهم شهر رمضان انسلاخَ شعبان أي: في انسلاخه[٢]. قال المبرّد: الناصب لـ«جميعاً» محذوفة تقديره: والأرض إذا كانت جميعاً قبضته، وخبر الإبتداء «قبضته» كأنّه قال: والأرض قبضته إذا كانت جميعاً. ومثله: هذا بسر الطيب منه تمراً أي: إذا كان. ومذهب سيبويه أي: ثبتت جميعاً في قبضته كقولك هنيئاً مريئاً أي: ثبت ذلك، لأنّه دعاء في موضع المصدر، كما قلت سقياً، ومثل الآية قول الشاعر:

إذا المرؤ أعيته المروءة ناشئاً فمطلبها كهلاً عليه شديد[٣]

أي: إذا كان كهلاً. وقال الزجّاج: هونصب على الحال. والمعنى: ﴿والأرض﴾ في حال اجتماعها ﴿قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه﴾ على الابتداء والخبر[٤]. ومعنى الآية: أنّ الأرض بأجمعها في مقدوره كما يقبض عليه القابض، فيكون في قبضته وكذلك قوله: ﴿والسموات مطويّات بيمينه﴾ معناه أي: في مقدوره طيّها، وذكرت اليمين مبالغة في الاقتدار والتحقيق للملك. وقيل: «اليمين» القوّة، قال الشاعر:

إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لمجد تَلَقّاها عَرَابَةُ باليمين[٥]

ثمّ نزّه نفسه تعالى عن أن يكون له شريك في العبادة أو معين في خلق شيء من الأشياء. وقال: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يشركون﴾ يعني: ما يضيفه إليه الكفّار من الأصنام والأوثان.

وقوله: ﴿ونفخ في الصور﴾ قال قتادة: هو جمع صورة، فكأنّه ينفخ في

---

(١) معاني القرآن ٢: ٤٢٥. (٢ و ٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٦٢ و ٣٦١.
(٣) أنشده الرضي في شرحه على الكافية ٢: ٣٠ ولم ينسبه إلى أحدٍ. (٥) ديوان الشمّاخ: ١١٥.

صور الخلق، وروي في الخبر «إنّ الصور قرن ينفخ فيه الصور»[١]. ووجه الحكمة في ذلك أنّه علامة جعلها الله تعالى ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف، ثمّ تجديد الخلق، فشبّه بما يتعارفونه من بوق الرحيل والنزول، ولا يتصوّر ذلك للنفس بأحسن من هذه الطريقة.

وقوله: ﴿فصعق من في السموات ومن في الأرض﴾ قيل: معناه: يموت من شدّة تلك الصيحة الّتي تخرج من الصور جميع من في السماوات والأرض، ومنه الصواعق الّتي تأتي عند شدّة الرعد، و«صعق فلان» إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة الشديدة.

وقوله: ﴿إلّا من شاء الله﴾ استثنى من جملة الّذين يهلكون قوماً من الملائكة، لأنّ الملك الّذي ينفخ فيه يبقى بعده، ويجوز أن يبقى غيره من الملائكة. وقال السدّي: المستثنى جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وهو المرويّ في حديث مرفوع، وقال سعيد بن جبير: هم الشهداء الّذين قتلوا في سبيل الله[٢].

وقوله: ﴿ثمّ نفخ فيه أُخرى فاذا هم قيام ينظرون﴾ فهذه النفخة الثانية للحشر. وقال قتادة: وروي أيضاً أنّ صاحب الصور إسرافيل عليه السلام وقيل: يُفني الله تعالى بعد الصعق وموت الخلق الأجسام كلّها ثمّ يعيدها. ومعنى ﴿فاذا هم قيام ينظرون﴾ إخبار عن سرعة إيجادهم، لأنّه إذا نفخ النفخة الثانية أعادهم عقيب ذلك فيقومون من قبورهم أحياء ينظرون ما يراد ويفعل بهم.

وقوله: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربّها﴾ قيل: معناه: أضاءت بعدل ربّها والحكم بالحقّ فيها[٣]. وقال الحسن: معناه: بعدل ربّها ﴿و وضع الكتاب﴾

(١) تفسير الطبري ٥: ٢٣٨. (٢) تفسير الطبري ١١: ٢٧. (٣) تفسير السمرقندي ٣: ١٩٤.

يعني: الكتب الّتي أعمالهم فيها مكتوبة ﴿وجيء بالنبيّين والشهداء﴾ لأنّهم يؤتى بهم. و «الشهداء» هم الّذين يشهدون على الأمم للأنبياء بأنّهم قد بلّغوا، وأنّهم كذّبتهم أممهم وهو قول ابن عبّاس وسعيد بن جبير ﴿وقضي بينهم بالحقّ﴾ أي: يفصل بينهم بالحقّ ولا ينقص أحد منهم شيئاً ممّا يستحقّه من الثواب ولا يفعل به ما لا يستحقّه من العقاب.

وقوله: ﴿ووفّيت كلّ نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ معناه: أنّه يعطي كلّ نفس عاملة بالطاعات جزاء ما عملته على الكمال دون النقصان والله تعالى أعلم من كلّ أحد بما يفعلون من طاعة أو معصية لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى:

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا الكسائي عن أبي بكر ﴿فتحت﴾ و ﴿فتحت﴾ بالتخفيف فيهما. الباقون بالتشديد. من خفّف قال: لأنّها تفتح دفعة واحدة،

ومن شدّد قال: لأنّها تفتح مرّة بعدأُخرى. ولقوله: ﴿مفتّحة لهم الأبواب﴾[١].

لمّا أخبر الله تعالى عن حال الكافرين والمؤمنين وأنّه يحشر الخلق في أرض الموقف، وأنّه يعاقب كلّ أحد على قدر استحقاقه، أخبر هاهنا عن قسمة أحوالهم فقال: ﴿وسيق الّذين كفروا إلى جهنّم زمراً﴾ و «السوق» الحثّ على السير يقال: ساقه يسوقه سوقاً فهو سائق وذاك مسوق، ومنه قولهم: الكلام يجري على سياقة واحدة، ومنه السوق لأنّ المعاملة فيها تساق بالبيع والشراء، ومنه الساق لأنّه ينساق به البدن، و «الزمر» جمع زمرة وهي الجماعة لها صوت كصوت المزمار، ومنه مزامير داود عليه السلام يعني: أصوات له كانت مستحسنة، وقال الشاعر:

له زَجَلٌ كأنّهُ صوتُ حادٍ إذا طَلَبَ الوَسِيقةَ أو زَمِيرُ[٢]

قال أبو عبيدة: معناه: جماعات في تفرقة بعضهم في أثر بعض[٣] ﴿حتّى إذا جاؤها﴾ يعني: جاؤا جهنّم ﴿فتحت أبوابها﴾ أي: أبواب جهنّم ﴿وقال لهم خزنتها﴾ الموكّلون بها على وجه الإنكار عليهم والتهجين لفعلهم ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ يعني: من أمثالكم من البشر ﴿يتلون﴾ أي: يقرؤن ﴿عليكم آيات ربّكم﴾ أي: حجج ربّكم، وما يدلّكم على معرفته ووجوب عبادته ﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: ويخوّفونكم من مشاهدة هذا اليوم وعذابه، فيقول الكفّار لهم: ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربّنا، وخوّفونا لأنّه لا يمكنهم جحد ذلك لحصول معارفهم الضروريّة ﴿ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين﴾ ومعناه: أنّه وجب العقاب على من كفر بالله، لأنّه تعالى أخبر بذلك وعلم من يكفر ويوافي بكفره فقطع على عقابه، فلم يكن

---

(١) ص: ٥٠. (٢) ديوان الشمّاخ: ٥٦. (٣) مجاز القرآن ٢: ١٩١.

يقع خلاف ما علمه وأخبر به، فصار كوننا في جهنّم موافقاً لما أخبر به تعالى وعلمه.

فيقول لهم عند ذلك الملائكة الموكّلون بجهنّم ﴿أُدخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها﴾ أي: مؤبّدين لا آخر لعقابكم ثمّ قال تعالى: ﴿فبئس مثوى﴾ أي: بئس مقام ﴿المتكبّرين﴾ جهنّم.

ثمّ أخبر تعالى عن حال أهل الجنّة بعد حال أهل جهنّم فقال: ﴿وسيق الّذين اتّقوا ربّهم﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿إلى الجنّة زمراً حتّى إذا جاؤها وفتحت أبوابها﴾ وإنّما جاء في الجنّة، وفتحت أبوابها «بالواو» وفي النار فتحت بغير «واو» لأنّه قيل: أبواب النار سبعة وأبواب الجنّة ثمانية، ففرّق بينهما للإنذار بهذا المعنى، قالوا: لأنّ العرب تعدّ من واحد إلى سبعة وتسمّيه عشراً ويزيدون واواً تسمّى «واو» العشر كقوله ﴿التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف﴾ ثمّ قال: ﴿والناهون عن المنكر﴾ [١] فأتى بالواو بعد السبعة، وقال: ﴿مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيّبات وأبكاراً﴾ [٢] فأتى بالواو في الثامنة. وقيل: إنّ المعنى واحد، وإنّما حذفت تارةً وجيء بها أُخرى تصرّفاً في الكلام. قال الفرّاء: الواو لا تقحم إلّا مع «لمّا» و «حتّى» و «إذا» وأنشد.

فلمّا أجزنا ساحَةَ الحَيّ وانْتَحى [٣]

أراد انتحى وقيل: دخلت «الواو» لبيان أنّها كانت مفتّحةً قبل مجيئهم وإذا كان بغير «واو» أفاد أنّها فتحت في ذلك الوقت [٤] وجواب «حتى إذا»

(١) التوبة: ١١٢. (٢) التحريم: ٥. (٣) ديوان امرؤ القيس: ٤١.

(٤) الكشف والبيان ٨: ٢٥٧. تفسير السمرقندي ٣: ١٩٦.

في صفة أهل الجنّة محذوف وتقديره: حتى إذا جاؤها قالوا: المُنى، أو دخلوها: أو تمّت سعادتهم أو ما أشبه ذلك وحذف الجواب، أبلغ لاحتماله جميع ذلك ومثله قول عبد مناف بن ربيع.

حتّى إذا سلكوهم في قُتائِدةٍ شَلًّا كـما تـطرد اَلجَّمالةُ الشُرُدا[1]

وهو آخر القصيدة، فحذف الجواب. وقوله: ﴿وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم﴾ أي: طابت أفعالكم من الطاعات وزكت ﴿فادخلوها﴾ أي: الجنّة جزاءً على ذلك ﴿خالدين﴾ مؤبّدين لا غاية له ولا انقطاع. وقيل: معناه: طابت أنفسكم بدخول الجنّة[2].

ثمّ حكى تعالى ما يقول أهل الجنّة إذا دخلوها، فإنّهم يقولون اعترافاً بنعم الله عليهم: ﴿الحمدلله الّذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ يعنون أرض الجنّة. وقيل: ورثوها عن أهل النار وقيل: لمّا صارت الجنّة عاقبة أمرهم كما يصير الميراث، عبّر عن ذلك بأنّه أورثهم[3] وقوله: ﴿نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء﴾ معناه: نتّخذ متبوّءاً، أي: مأوى حيث نشاء وأصله الرجوع من قولهم: باء بكذا أي رجع به. ثمّ قال ﴿فنعم أجر العاملين﴾ يعني: المقام فى الجنّة والتنعّم فيها.

ثمّ قال تعالى: ﴿وترى الملائكة حافّين من حول العرش﴾ أي: محدقين به في قول قتادة والسدّي ﴿يسبّحون بحمد ربّهم﴾ أي: ينزّهون الله تعالى عمّا لا يليق به ويذكرونه بصفاته الّتي هو عليها. وقيل: تسبيحهم ذلك الوقت على سبيل التنعّم والتلذّذ ثواباً على أعمالهم لاعلى وجه التعبّد، لأنّه ليس

(١) أنشده أبو عبيدة فى مجاز القرآن ١: ٣٧، ٢: ١٩٢. (٢) تفسير السمرقندي ٣: ١٩٦.
(٣) النكت والعيون ٥: ١٣٨.

هناك دار تكليف[١]. وقيل: الوجه في ذلك تشبيه حال الآخرة بحال الدنيا، فإنّ السلطان الأعظم إذا أراد الجلوس للمظالم والقضاء بين الخلق قعد على سريره وأقام حشمه وجنده قدّامه وحوله تعظيماً لأمره فلذلك عظّم الله أمر القضاء في الآخرة بنصب العرش وقيام الملائكة حوله معظّمين له تعالى مسبّحين وإن لم يكن تعالى على العرش، لأنّ ذلك يستحيل عليه لكونه غير جسم، والجلوس على العرش من صفات الأجسام.

ثمّ قال تعالى: ﴿وقضي بينهم بالحقّ﴾ أي: فصّل بين الخلائق بالحقّ لاظلم فيه على أحد. ﴿وقيل الحمدلله ربّ العالمين﴾ إخبار منه تعالى أنّ جميع المؤمنين يقولون عند ذلك معترفين بأنّ المستحقّ للحمد والشكر الّذي لا يساويه حمد ولا شكر «الله» الّذي خلق العالمين ودبّرها. وقيل: إنّه من كلام الله فقال في ابتداء خلق الأشياء: ﴿الحمدلله الّذي خلق السموات والأرض﴾[٢] فلمّا أفنى الخلق ثمّ بعثهم واستقرّ أهل الجنّة في الجنّة ختم بقوله: ﴿الحمدلله ربّ العالمين﴾.

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٢٦٠.

(٢) الأنعام: ١.

# سورة المؤمن

مكّيّة في قول مجاهد وقتادة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ. وقال الحسن: هي مكّيّة إلّا آية واحدة وهي قوله: ﴿وسبّح بحمد ربّك بالعشي والإبكار﴾[1] يعني بذلك: صلاة الفجر والمغرب وقد بيّن[2] أنّ فرض الصلاة نزل بالمدينة. وهي خمس وثمانون آية في الكوفي وأربع في المدنيّين واثنتان في البصري.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾

خمس آيات في الكوفي وأربع في [ما عداه عدّ الكوفيّون (حم) آية

(١) الآية: ٥٥.

(٢) في الحجريّة والمطبوعة: ثبت.

ولم يعدّها الباقون][١].

[أقول][٢] قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً وابن ذكوان ﴿حمٓ﴾[٣] بإمالة الألف. الباقون بالفتح من غير إمالة وهما لغتان فصيحتان. وقال قوم: ﴿حمٓ﴾ موضعه نصب، وتقديره: أُتل ﴿حمٓ﴾ [اقرأ ﴿حمٓ﴾][٤] وقال آخرون: موضعه جرّ بالقسم. ومن جزم قال: لأنّها حروف التهجّي وهي لا يدخلها الإعراب. وقد فتح الميم عيسى بن عمر، وجعله اسم السورة، فنصبه ولم ينوّن، لأنّه على وزن «هابيل» ويجوز أن يكون فتح لالتقاء الساكنين. والقرّاء على تسكين الميم وهو الأجود لما بيّنّاه.

وقد بيّنّا اختلاف المفسّرين وأهل العربيّة في مبادئ السور بحروف التهجّي ومعناها، وأنّ أقوى ما قيل في ذلك إنّها أسماء للسور، وذكرناها في الأقوال، فلا نطول بإعادته.

وقال قتادة والحسن: ﴿حمٓ﴾ اسم السورة. وقال شريح بن أوفي العبسي:

يُذكِّرني (حمٓ) والرمُح شاجرٌ فهلّا تلا (حمٓ) قبل التقدّمِ[٥]

وقال الكميت:

وَجدنا لَكُم في آلِ حم آيةً تأولها مِنّا تَقيٌّ ومُعْرِبُ[٦]

وقوله: ﴿تنزيل الكتاب﴾ أي: هو تنزيل ﴿من الله﴾ أنزله على نبيّه ﴿العزيز﴾ معناه: القادر الّذي لا يُغالَب ولا يُقهَر، المنيع بقدرته على غيره

(١) مابين المعقوفتين ليس في الخطيّة. وفيها بدل «ما عداه»، «غيره».

(٢) من الحجريّة.

(٣) في الحجريّة والمطبوعة: حاميم.

(٤) مابين المعقوفتين ليس في الخطيّة.

(٥) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١٩٣.

(٦) ديوان الكميت بن زيد الأسدي: ١٨ وفيه: حاميم... تأمّلَها.

ولا يقدر عليه غيره. وهذه الصفة لا تصحّ إلا لله تعالى وأصل الصفة المنع من قولهم: عزّ كذا وكذا أي امتنع، وفلان عزيز أي: منيع[1] بسلطانه أو عشيرته أو قومه و﴿العليم﴾ الكثير العلوم والعالم الّذي له معلوم.

وقوله: ﴿غافر الذنب﴾ جرّ بأنّه صفة بعد صفة، ومعناه: من شأنه غفران الذنب في ما مضى وفي مايستقبل، فلذلك كان من صفة المعرفة ﴿وقابل التوب﴾ قال الفرّاء: إنّما جعلها نعتاً للمعرفة وهي نكرة، لأنّ المعنى ذيالغفران وذي قبول التوبة كقوله: ﴿ذي الطول﴾ وهو معرفة[2] وإن جعلته بدلاً كانت النكرة والمعرفة سواء، ومعنى ﴿قابل التوب﴾ إنّه يقبل توبة من تاب إليه من المعاصي بأن يثيب عليها ويسقط عقاب معاصي ما تقدّمها تفضّلاً منه، ولذلك كان صفة مدح، ولو كان سقوط العقاب عندها واجباً لما كان فيه مدح. و ﴿التوب﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون جمع توبة كدوم ودومة وعوم وعومة.

والثاني: أن يكون مصدر تاب يتوب توباً.

وقوله: ﴿شديد العقاب﴾ معناه: شديد عقابه وذكر ذلك عقيب قوله: ﴿غافر الذنب﴾ لئلّا يعوّل المكلّف على العفو بل يخاف عقابه أيضاً لأنّه كما أنّه يغفر لكونه غافراً فقد يعاقب لكونه شديد العقاب. وفرّق بين شدّة العقاب وتضاعف أجزاء الآلام بأنّ الخصلة الواحدة من الألم قد يكون أعظم من خصال كثيرة من ألم آخر كالغمّ على شيءٍ وأجزاء كثيرة من قرص برغوث.

وقوله: ﴿ذي الطول﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: معناه: ذي النعم. وقال ابن

---

(١) وفي الخطيّة: ممتنع. (٢) معاني القرآن ٣: ٥.

زيد: معناه: ذي القدرة. وقال الحسن: ذي التفضّل على المؤمنين. وقيل: ﴿الطول﴾ الإنعام الّذي تطول مدّته على صاحبه كما أنّ التفضّل النفع الّذي فيه إفضال على صاحبه. ولو وقع النفع على خلاف هذا الوجه لم يكن تفضّلاً. ويقال: لفلان على فلان طول، أي: فضل[١].

وقوله: ﴿لا إله إلّا هو﴾ نفي منه تعالى أن يكون معبود على الحقيقة يستحقّ العبادة غيره تعالى. ثمّ قال: ﴿إليه المصير﴾ ومعناه: تؤول الأُمور إلى حيث لايملك أحد الأمر والنهي والضرّ والنفع غيره تعالى، وهو يوم القيامة، لأنّ دارالدنيا قد ملّكالله كثيراً منخلقه الأمر والنهي والضرّ والنفع.

ثمّ قال: ﴿ما يجادل في آيات الله إلّا الّذين كفروا﴾ معناه: لا يخاصم في دفع حجج الله وإنكارها وجحدها إلّا الّذين يجحدون نعم الله ويكفرون بآياته وأدلّته. ثمّ قال لنبيّه: ﴿فلا يغررك﴾ يامحمّد ﴿تقلّبهم في البلاد﴾ أي: تصرّفهم لقولهم: لفلان مال يتقلّب فيه، أي: يتصرّف فيه. والمعنى: لا يغررك سلامتهم وإمهالهم، فإنّ عاقبتهم تصير إليّ ولا يفوتونني[٢] وفي ذلك غاية التهديد.

ثمّ بيّن ذلك بأن قال: ﴿كذّبت قبلهم﴾ أي: قبل هؤلاء الكفّار ﴿قوم نوح﴾ بأن جحدوا نبوّته ﴿والأحزاب من بعدهم﴾ أيضاً كذّبوا رسلهم ﴿وهمّت كلّ أُمّة برسولهم﴾ وإنّما قال برسولهم لأنّه أراد الرجال. وفي قراءة عبدالله برسولها ﴿ليأخذوه﴾ قال قتادة: همّوا به ليقتلوه ﴿وجادلوا بالباطل﴾ أي: وخاصموا في دفع الحقّ بباطل من القول. وفي ذلك دليل على أنّ الجدال إذا كان بحقّ كان جائزاً ﴿ليدحضوا به الحقّ﴾ أي: ليبطلوا الحقّ

---

(١) الكشف والبيان: ٨: ٢٦٤، النكت والعيون ٥: ١٤٢.

(٢) في الحجريّة: لا يفوتوني.

الّذي بيّنه الله وأظهره ويزيلوه، يقال: أدحض الله حجّته. وقال تعالى: ﴿حجّتهم داحضة عند ربّهم﴾[1] أي: زائلة. ثمّ قال: ﴿فأخذتهم﴾ أي: فأهلكتهم ودمّرت عليهم ﴿فكيف كان عقاب﴾ فما الّذي يؤمّن هؤلاء من مثل ذلك؟!

قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][2]: قرأ نافع وابن عامر «حقّت كلمات» على الجمع. الباقون على التوحيد. من وحّد فلأنّ الكلمة تقع على القليل والكثير مفردةً، ومن جمع فلأنّ ذلك قد يجمع إذا اختلف أجناسها، كما قال: ﴿وصدّقت بكلمات ربّها﴾[3] يعني: شرائعه لأنّ ﴿كتبه﴾ قد ذكرت. والمعنى: وحقّت كلمات ربّك، كقولهم: الحقّ لازم.

ووجه التشبيه في قوله: ﴿وكذلك حقّت كلمة ربّك على الّذين كفروا﴾ أنّ الكفّار يعاقبون في الآخرة بالنار، كما عوقبوا في الدنيا بعذاب الاستيصال

---

(١) الشورى: ١٦. (٢) من الحجريّة. (٣) التحريم: ١٢.

إلّا أنّهم في الآخرة على ملازمة النار والحصول فيها، وقد حقّت الكلمة عليهم في الأمرين جميعاً، فحقّت الكلمة على هؤلاء كما حقّت الكلمة على أُولئك، وموضع ﴿أنّهم أصحاب النار﴾ يحتمل أن يكون نصباً على تقدير بأنّهم أو لأنهّم. ويحتمل أن يكون رفعاً على البدل من «كلمة». وقال الحسن: حقّت كلمة ربّك على مشركي العرب كما حقّت على من قبلهم.

ثمّ أخبر تعالى عن حال الملائكة وعظم منزلتهم بخلاف ما عليه الكفّار من البشر، فقال: ﴿الّذين يحملون العرش﴾ عباة لله تعالى وامتثالاً لأمره ﴿ومن حوله﴾ يعني: الملائكة الّذين حول العرش يطوفون به ويلجئون إليه ﴿يسبّحون بحمد ربّهم﴾ أي: ينزّهونه عمّا لا يليق به ويحمدونه على نعمه ﴿ويؤمنون به﴾ أي: ويصدّقون به ويعترفون بوحدانيّته ﴿ويستغفرون للّذين آمنوا﴾ أي: يسألون الله المغفرة للّذين آمنوا من البشر، أي صدّقوا بوحدانيّته واعترفوا بالإلهيّة. ويقولون: أيضاً مع ذلك ﴿ربّنا وسعت كلّ شيء رحمةً وعلما﴾ ونصبهما على التميز ومعناه: وسعت رحمتك أي: نعمتك ومعلومك كلّ شيء، فنقل الفعل إلى الموصوف على وجه المبالغة، كما قالوا: طبت به نفساً، وجعل العلم فى موضع المعلوم، كما قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه﴾[١] أي: بشيء من معلومه على التفصيل، وتقديره: وسعت رحمتك وعلمك كلّ شيء، ويقولون أيضاً: ربّنا ﴿فاغفر للّذين تابوا﴾ من معاصيك ورجعوا إلى طاعتك ﴿واتّبعوا سبيلك﴾ الّذي دعوت خلقك إليه من التوحيد وإخلاص العبادة ﴿وقِهم عذاب الجحيم﴾ أمنع منهم عذاب جهنّم لا يصل إليهم، وحذف «يقولون» قيل قوله:

---

(١) البقرة: ٢٥٥.

﴿ربّنا﴾ لأنّه مفهوم من الكلام. واستغفارهم للّذين تابوا يدلّ على أنّ إسقاط العقاب غير واجب لأنّه لو كان واجباً لما كان يحتاج إلى مسألتهم بل الله تعالى كان يفعله لامحالة.

ثمّ حكى تمام ما يدعو به حملة العرش والملائكة للمؤمنين، فإنّهم يقولون أيضاً: ﴿ربّنا وأدخلهم﴾ مع قبول توبتك منهم ووقاية النار ﴿جنّات عدن الّتي وعدتهم﴾ أي: الجنّة الّتي وعدت المؤمنين بها وهي جنّة عدن أي: إقامة وخلود ودوام ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم﴾ كلّ ذلك في موضع نصب. ويحتمل أن يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿وأدخلهم﴾ وتقديره: وأدخل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّيّاتهم الجنّة أيضاً. ويحتمل أن يكون عطفاً على الهاء والميم في ﴿وعدّتهم﴾ وتقديره: أدخلهم جنّات عدن الّتي وعدتّ المؤمنين ووعدتّ من صلح من آبائهم ﴿إنّك أنت العزيز﴾ في انتقامك من أعدائك ﴿الحكيم﴾ في ما تفعل بهم وبأُولئك، وفي جميع أفعالك. وقولهم ﴿وقِهم السيّئات﴾ معناه: وقهم عذاب السيّئات، ويجوز أن يكون العذاب هو السيّئات وسمّاه سيّئات، كما قال: ﴿وجزاء سيّئة سيّئة﴾[1] للاتّساع، وقوله: ﴿ومن تق السيّئات﴾ أي: تصرف عنه شرّ عاقبة سيّئاته من صغير اقترفه[2] أو كبير تاب منه فتفضّلت عليه ﴿يؤمئذ﴾ يعني: يوم القيامة ﴿فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم﴾ أي: صرف العذاب عنهم هو الفلاح العظيم والفوز الظاهر.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الّذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ قال مجاهد وقتادة والسدّي وابن زيد: مقتوا

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) في الحجريّة: افترقه.

أنفسهم حين عاينوا العقاب، فقيل لهم: مقت الله إيّاكم أكبر من ذلك. وقال الحسن: لمّا رأوا أعمالهم الخبيثة مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم، وقال البلخي: لمّا تركوا الإيمان وصاروا إلى الكفر فقد مقتوا أنفسهم أعظم المقت، كما يقول أحدنا لصاحبه: إذا كنت لاتبالي بنفسك فلما أُبالي بك! وليس يريد أنّه لا يبالي بنفسه لكنّه يفعل فعل من هو كذلك. وقال قوم: لمقت الله أكبر من مقت بعضكم لبعض[1]. و«المقت» أشدّ العداوة والبغض، ثمّ بيّن أنّ مقت الله إيّاهم حين دعاهم إلى الأيمان على لسان رسله فكفروا به ويرسلهم فمقتهم الله عند ذلك، وتقدير ﴿ينادون لمقت الله﴾ ينادون إنّ مقت الله إيّاكم، ونابت «اللّام» مناب «إنّ» كما تقولون: ناديت إنّ زيداً لقائم وناديت لزيد قائم. وقال البصريّون: هذه لام الابتداء، كما يقول القائل: لزيد أفضل من عمرو أي: يقال لهم والنداء قول.

قوله تعالى:

قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾

---

(١) حكاه عن ابن عيسى في النكت والعيون ٥: ١٤٥.

سبع آيات عند الكلّ إلّا أنّ الشامي قد خالفهم في التفصيل، وهي عندهم سبع عدّوا ﴿يوم التلاق﴾ ولم يعدّه الشامي، وعدّ الشامي ﴿يوم هم بارزون﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول][1]: حكى الله تعالى عن الكفّار الّذين تقدّم وصفهم أنّهم يقولون بعد حصولهم في النار والعذاب يا ﴿ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾ قال السدّي: الإماتة الأُولى في الدنيا والثانية في البرزخ إذا أحيي للمسألة قبل البعث يوم القيامة، وهو اختيار الجبائي والبلخي. وقال قتادة: الإماتة الأُولى حال كونهم نطفاً فأحياهم الله ثمّ يميتهم ثمّ يحيهم يوم القيامة.

وفي الناس من استدلّ بهذه الآية على صحّة الرجعة بأن قال: الإماتة الأُولى في دار الدنيا والإحياء الأوّل حين إحيائهم للرجعة، والإماتة الثانية بعدها والإحياء الثاني يوم القيامة، فكأنّهم اعتمدوا قول السدّي، إنّ حال كونهم نطفاً لا يقال له إماتة، لأنّ هذا القول يفيد إماتة عن حياة والإحياء يفيدعن إماتة منافية للحياة وإن سمّوا في حال كونهم نطفاً مواتاً.

وهذا ليس بقوّي لأنّه لو سلّم ذلك لكان لابدّ من أربع إحياآت وثلاث إماتات، أوّل إحياء حين أحياهم بعد كونهم نطفاً، لأنّ ذلك يسمّى إحياء بلاشك. ثمّ إماتة بعد ذلك في حال الدنيا. ثمّ أحياء في القبر ثمّ إماتة بعده ثمّ إحياء في الرجعة ثمّ إماتة بعدها ثمّ إحياء يوم القيامة، لكن يمكن أن يقال: إنّ إخبار الله عن الإحياء مرّتين والإماتة مرّتين لايمنع من إحياء آخر وإماتة أُخرى. وليس في الآية إنّه أحياهم مرّتين وأماتهم مرّتين بلازيادة، فالآية محتملة لما قالوه ومحتملة لما قاله السدّي، وليس للقطع

---

(١) من الحجريّة.

على أحدهما سبيل. قال ابن عبّاس وعبدالله والضحّاك: هو كقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون﴾ (١).

وقوله: ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ إخبار منه تعالى أنّ الكفّار يعترفون بذنوبهم الّتي اقترفوها في الدنيا لا يمكنهم جحدها، وإنّما تمنّوا الخروج ممّا هم فيه من العذاب، فقالوا: ﴿فهل إلى خروج من سبيل﴾ والمعنى: فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك واتّباع مرضاتك.

ولو علم الله تعالى إنّهم يفلحون لردّهم إلى حال التكليف، لأنّه لا يمنع إحساناً بفعل ما ليس بإحسان، ولا يؤتى أحد من عقابه إلّا من قبل نفسه، وكذلك قال في موضع آخر: ﴿ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه إنّهم لكاذبون﴾ (٢) تنبيهاً أنّهم لو صدقوا في ذلك لأجابهم إلى ما تمنّوه، وإنّما يقولون هذا القول على سبيل التمنّي بكلّ ما يجدون إليه سبيلاً في التلطّف للخروج عن تلك الحال، وإنّه لا يمكن أحداً أن يتجلّد على عذاب الله، كما يمكن أن يتجلّد على عذاب الدنيا.

ووجه اتّصال قوله: ﴿فاعترفنا بذنوبنا﴾ بما قبله هو الإقرار بالذنب بعد الإقرار بصفة الربّ، كأنّه قيل: فاعترفنا بانّك ربّنا الّذي أمتّنا وأحييتنا وطال إمهالك لنا فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج لنا من سبيل فنسلكه في طاعتك واتبّاع مرضاتك.

وفي الكلام حذف وتقديره: فاجيبوا ليس من سبيل لكم إلى الخروج ﴿ذلكم بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم﴾ أي: إذا دعي الله وحده دون آلهتكم جحدتم ذلك ﴿وإن يشرك به تؤمنوا﴾ أي: إن يشرك به معبوداً آخر من

---

(١) البقرة: ٢٨. (٢) الأنعام: ٢٨.

الأصنام والأوثان تصدّقوا. ثمّ قال: ﴿فالحكم لله﴾ في ذلك والفاصل بين الحقّ والباطل ﴿العليّ الكبير﴾ فـ«العلّي» القادر على كلّ شيء يجب أن يكون قادراً عليه ويصحّ ذلك منه وصفة القادرين تتفاضل، فـ«العليّ» القادر الّذي ليس فوقه من هو أقدر منه ولا من هو مساو له في مقدوره، وجاز وصفه تعالى بالعليّ لأنّ الصفة بذلك قد تقلّب من علوّ المكان إلى علوّ الشأن يقال: استعلى عليه بالقوّة، واستعلى عليه بالحجّة وليس كذلك الرفعة فلذلك لا يسمّى بأنّه رفيع. و «الكبير» العظيم في صفاته الّتي لا يشاركه فيها غيره. وقال الجبائي: معناه: السيّد الجليل.

ثمّ قال تعالى: ﴿هو الّذي يريكم آياته﴾ يعني: حججه ودلائله ﴿وينزّل من السماء رزقاً﴾ من الغيث والمطر الّذي ينبت ما هو رزق للخلق ﴿وما يتذكّر إلّا من ينيب﴾ أي: ليس يتفكّر في حقيقة ذلك إلّا من يرجع إليه. وقال السدّي: معناه: إلّا من يقبل إلى طاعة الله.

ثمّ أمر الله تعالى المكلّفين، فقال: ﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي: وجّهوا عبادتكم إليه تعالى وحده ﴿ولو كره﴾ ذلك ﴿الكافرون﴾ فلا تبالوا بهم.

ثمّ رجع إلى وصف نفسه فقال: ﴿رفيع الدرجات﴾ وقيل: معناه: رفيع طبقات الثواب الّتي يعطيها الأنبياء والمؤمنين في الجنّة[1] و ﴿رفيع﴾ نكرة أجراها على الاستئناف أو على تفسير المسألة الأُولى، وتقديره: وهو رفيع ﴿ذو العرش﴾ بأنّه مالكه وخالقه ومعناه: عظيم الثواب لهم والمجازاة على طاعاتهم ﴿يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده﴾ قيل: «الروح»

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٢٦٩.

القرآن وكلّ كتاب أنزله الله على نبيّ من أنبيائه[١] وقيل: معنى: «الروح» هاهنا الوحي، لأنّه يحيا به القلب بالخروج من الجهالة[٢] إلى المعرفة[٣] ومنه قوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾[٤] ذكره قتادة والضحّاك وابن زيد. وقيل: «الروح» هاهنا النبوّة، وتقديره: لينذر من يلقي عليه الروح يوم التلاق، من يختاره لنبوّته ويصطفيه لرسالته.

وقوله: ﴿لينذر يوم التلاق﴾ أي: ليخوّف يوم يلتقي فيه أهل السماء وأهل الأرض في قول قتادة والسدّي وابن زيد[٥]. وقيل: يوم يلقى فيه المرؤ عمله، وهو يوم القيامة حذر منه[٦]. وقيل: يوم يلتقي فيه الأوّلون والآخرون[٧]. والضمير في قوله: ﴿لينذر﴾ كناية عن النبيّ ﷺ ويحتمل أن يكون فيه ضمير «الله» والأوّل أجود، لأنّه قد قرئ بالتاء، وهو حسن. ومن أثبت الياء فلأنّها الأصل، ومن حذف اجتزأ بالكسرة الدالّة عليها.

وقوله: ﴿يوم هم بارزون﴾ أي: يظهرون من قبورهم ويهرعون إلى أرض المحشر وهو يوم التلاق ويوم الجمع ويوم الحشر. ونصب «يوم» على الظرف. وقوله: ﴿لايخفى على الله منهم شيء﴾ إنّما خصّهم بأنّه لا يخفى عليه منهم شيء، وإن كان لا يخفى عليه لا منهم ولا مِنْ غيرهم شيء لأحد أمرين:

أحدهما: أن تكون «من» لتبيين الصفة لا للتخصيص والتبعيض.

والآخر: أن تكون بمعنى يجازيهم مَن لا يخفى عليه شيء منهم،

---

(١) تفسير الطبرى ١١: ٤٦.
(٢) وفي الخطّية: الحياة.
(٣) الكشف والبيان ٨: ٢٧٠.
(٤) الشورى: ٥٢.
(٥) النكت والعيون ٥: ١٤٧ ـ ١٤٨، تفسير الطبري ١١: ٤٧.
(٦) الكشف والبيان ٨: ٢٧٠.
(٧) النكت والعيون ٥: ١٤٨.

فذكر بالتخصيص لتخصيص الجزاء بمن يستحقّه دون ما لايستحقّه ولا يصحّ له من المعلوم. وقيل: لايخفى على الله منهم شيء فلذلك صحّ أنّه أنذرهم جميعاً[١].

وقوله: ﴿لمن الملك اليوم﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّه تعالى يقرّر عباده، فيقول لمن الملك فيقرّ المؤمنون والكافرون بأنّه لله الواحد القهّار.

والثاني: أنّه القائل لذلك وهو المجيب لنفسه[٢] ويكون في الإخبار بذلك مصلحة للعباد في دار التكليف. والأوّل أقوى لأنّه عقيب قوله: ﴿يوم هم بارزون﴾ وإنّما قال: ﴿لمن الملك اليوم﴾ مع أنّه يُملّك الأنبياء والمؤمنين في الآخرة المُلكَ العظيم لأحد وجهين:

أحدهما: لأنّه على تخصيص يوم القيامة قبل تمليك أهل الجنّة ما يملّكهم.

والثاني: أنّه لا يستحقّ إطلاق الصفة بالملك إلّا الله تعالى، لأنّه يملك جميع الأُمور من غير تمليك مملّك، فهو أحقّ بإطلاق الصفة.

وقوله: ﴿اليوم تجزى كلّ نفس ماكسبت لاظلم اليوم﴾ إخبار منه تعالى أنّ يوم القيامة تجزى كلّ نفس على قدر عملها لا يؤاخذ أحد بجرم غيره، لا يظلم ذلك اليوم أحد ولايُبخس حقّه ﴿إنّالله سريع الحساب﴾ أي لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره، فحساب جميعهم على حدّ واحد.

قوله تعالى:

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٧.

(٢) النكت والعيون ٥: ١٤٨.

وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

ثلاث آيات في الكوفي وأربع في ما سواه عدّوا ﴿كاظمين﴾ رأس آية [ولم يعدّه الكوفيّون][1].

قرأ نافع وهشام عن ابن عامر ﴿والّذين تدعون﴾ بالتاء. الباقون بالياء. من قرأ بالتاء فعلى الخطاب، وتقديره: قل لهم يا محمّد. ومن قرأ بالياء جعل الإخبار عن الغائب.

أمر الله تعالى نبيّه محمّداً أن يخوّف المكلّفين عقاب يوم الآزفة، ويخبرهم بما فيه من الثواب والعقاب. و«الآزفة» الدانية من قولهم: أزف الأمر إذا دنا، وأزف الوقت إذا دنا يأزف أزفاً، ومنه ﴿أزفت الآزفة﴾[2] أي: دنت القيامة. والمعنى: دنوا المجازاة، وهو يوم القيامة.

وقوله: ﴿إذ القلوب لدى الحناجر﴾ أي: في الوقت الّذي تنتزع فيه القلوب من أمكنتها. وهي الصدور، فكظمت به الحناجر، فلم تستطيع أن تلفظها ولم تعد إلى أماكنها، وقيل: «الكاظم» الساكت على امتلائه غيظاً أو غمّاً. ونصب «كاظمين» على الحال في قول الزجّاج[3] وتقديره: قلوب الظالمين لدى الحناجر ﴿كاظمين﴾ أي: في حال كظمهم. و«الحناجر» جمع حنجرة وهي الحلقوم. وقيل: إنّما خصّت الحناجر بذلك لأنّ الفزع ينتفخ منه سَحره [أي: رئته][4] فيرتفع القلب من مكانه لشدّة انتفاخه حتّى يبلغ الحنجرة. والكاظم للشيء الممسك على ما فيه، ومنه قوله: ﴿والكاظمين

---

(١) مابين المعقوفتين ليس في الخطّية.
(٢) النجم: ٥٧.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٦٩.
(٤) ما بين المعقوفتين ليس في الخطّية.

الغيظ﴾[١] ومنه قولهم: كظم قِربته إذا شدّ رأسها، لأنّ ذلك الشدّ يـمسكها على ما فيها، فهؤلاء قد أطبقوا أفواههم على ما في قلوبهم لشدّة الخوف.

وقوله: ﴿ما للظّالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ نفي من الله أن يكـون للظالمين شفيع يطاع، ويحتمل أن يكون المراد بالظالمين الكفّار، فـهؤلاء لا يلحقهم شفاعة شافع أصلاً. وإن حملنا على عموم كلّ ظالم من كـافر وغيره جاز أن يكون إنّما أراد نفي شفيع يطاع، وليس في ذلك نفي شفيع يجاب، ويكون المـعنى: إنّ الّـذين يشـفعون يـوم القـيامة مـن الأنـبياء والملائكة والمؤمنين إنّما يشفعون على وجه المسألة إليه والاستكانة إليه لا أنّه يجب على الله أن يطيعهم فيه. وقد يطاع الشافع بأن يكون الشافع فوق المشفوع إليه. ولذلك قال النبيّ صلى الله عليه وآله لبريرة: «إنّما أنا شافع»[٢] لكونه فوقها في الرتبة ولم يمنع من إطلاق اسم الشـفاعة عـلى سـؤاله. وليس لأحد أن يقول: الكلام تامّ عند قوله ﴿ولا شفيع﴾ ويكون قـوله ﴿يطاع﴾ ابتداء بكلام آخر، لأنّ هذا خلاف لجميع القرّاء لأنّهم لايختلفون أنّ الوقف عند قوله: ﴿يطاع﴾ وهو رأس آية وهو يسقط السؤال. وأيضاً فلو وقفت[٣] عند قوله: ﴿ولا شفيع﴾ لما كان لقوله: ﴿يطاع﴾ تعلّق بـه ولا مـعنى، لأنّ الفعل لايلي فعلاً، فإن قدّر يطاع «الّذي» يعلم كان ذلك شرطاً ليس هو في الظاهر، فحمل الآية على ما لا يحتاج إلى زيادة أولى.

وقوله تعالى: ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ أي: يعلم ماتختتان به الأعين مـن النظر إلى غير مايجوز النظر إليه على وجه السرقة ﴿وما تخفي الصدور﴾ أي: تضمره لايخفى عليه شيء من جميعه. وقيل: النظرة الأُولى مـباحة

---

(١) آل عمران: ١٣٤. (٢) سنن الدارمي ٢: ١٧٠. (٣) في الخطيّة: وقفنا.

والثانية محرّمة. فقوله: ﴿خائنة الأعين﴾ في النظرة الثانية ﴿وما تخفي الصدور﴾ في النظرة الأُولى، فإن كانت الأُولى تعمّداً كان فيها الإثم أيضاً، وإن لم تكن تعمّداً فهي مغفورة[١].

ثمّ قال: ﴿والله يقضي بالحقّ﴾ أي: يفصل بين الخلائق بمرّ الحقّ فيوصل كلّ واحد إلى حقّه ﴿والّذين يدعون من دونه﴾ من الأصنام ﴿لا يقضون بشيء﴾ من الحقّ. ومن قرأ بالياء فعلى الإخبار عنهم. ومن قرأ بالتاء فعلى الخطاب للكفّار.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الله هو السميع﴾ أي: من يجب أن يسمع المسموعات إذا وجدت المسموعات ﴿البصير﴾ أي: يجب أن يبصر المبصرات إذا وجدت المبصرات، وحقيقتهما يرجع إلى كونه حيّاً لا آفة به. وقال قوم: معناه: العالم بالمسموعات العالم بالمبصرات[٢].

قوله تعالى:

أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ كَانُواْ
هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ
مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُواْ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ
أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

قرأ ابن عبّاس ﴿أشدّ منكم﴾ بالكاف. الباقون بالهاء. قال أبو عليّ: من

---

(١) معاني القرآن ٣: ٧.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٥١.

قرأ بالهاء فلأنّ ما قبله ﴿أو لم يسيروا﴾ على أنّ لفظه لفظ الغيبة، فحمله على ذلك فقرأ ﴿أشدّ منهم﴾ ومن قرأ بالكاف انصرف من الغيبة إلى الخطاب، كقوله: ﴿إيّاك نعبد﴾ بعد قوله ﴿الحمد لله﴾[(١)] وحسن هاهنا لأنّه خطاب لأهل مكّة[(٢)].

يقول الله تعالى منبّهاً لهؤلاء الكفّار: على النظر في ما نزل بالماضين جزاءاً على كفرهم فيتّعظوا بذلك وينتهوا عن مثل حالهم، فقال: ﴿أو لم يسيروا في الأرض﴾ والسير والمسير واحد، وهو الجواز في المواضع، يقال: سار يسير سيراً وسايَرَه مُسايَرة وسَيَّرَه تسييراً، ومنه قوله ﴿السيَّارة﴾[(٣)] و«الثياب المُسيَّرة» ما فيها خطوط.

وقوله: ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم﴾ أي: فيتفكّروا في عواقب الكفّار من قوم عاد وقوم لوط، فيرون بلادهم هالكة وآثارهم دارسة ومنازلهم خالية بما حلّ بهم من عذاب الله ونكاله جزاءً على جحودهم نعم الله واتخاذهم معه إلهاً غيره، وكان الأُمم الماضية أشدّ قوّة من هؤلاء. «القوّة» هي القدرة، ومنه قوله: ﴿القوّي العزيز﴾[(٤)] وقد يعبّر بالقوّة عن الصلابة، فيقال: خشبة قويّة وحبل قويّ أي: صلب، وأصله من قوى الحبل، وهو شدّة الفتل ثمّ نقل إلى معنى القدرة، كما نقل «كبير»[(٥)] عن كبر الجثّة إلى كبر الشأن. والأثر حدث يظهر به أمر، ومنه الآثار الّتي هي الأحاديث عمّن تقدّم بما يظهر بها[(٦)] من أحوالهم وطرائفهم في أمر الدنيا والدين. وقوله: ﴿فاخذهم الله بذنوبهم﴾ ومعناه: فأهلكهم الله جزاءً

---

(١) الحمد: ٣ و١.
(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٤٨.
(٣) يوسف: ١٠.
(٤) هود: ٦٦، والشورى: ١٩.
(٥) في الحجريّة والمطبوعة: كبر.
(٦) في الحجريّة والمطبوعة: بما تقدّم بها.

على معاصيهم ﴿وما كان لهم من الله من واق﴾ في دفع العذاب عنهم ومنعهم من نزوله بهم وهو قول قتادة.

ثمّ بيّن تعالى أنّه إنّما فعل بهم ذلك لأنّهم جاءتهم رسلهم بالبيّنات يعني بالمعجزات الظاهرات والدلالات الواضحات فكذّبوهم وجحدوا رسالتهم فاستحقّوا العذاب ﴿فأخذهم الله بذنوبهم﴾ أي: أهلكهم الله جزاءً على معاصيهم ﴿إنّه قويّ شديد العقاب﴾ أي: قادر شديد عقابه.

ثمّ ذكر قصّة موسى عليه السلام فقال: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا﴾ أي: بعثناه بحججنا وأدلّتنا ﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجّة ظاهرة نحو قلب العصا حيّةً وفلق البحر وغير ذلك ﴿إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذّاب﴾ يعني: موسى.

ثمّ قال تعالى: ﴿فلمّا جاءهم﴾ يعني: موسى عليه السلام ﴿بالحقّ من عندنا قالوا﴾ يعني: فرعون وهامان وقارون ﴿اقتلوا أبناء الّذين آمنوا﴾ بموسى ومن معه ﴿واستحيوا نساءهم﴾ أي: استبقوهم، قال قتادة: كان هذا الأمر بقتل الأبناء والاستحياء للنساء أمراً من فرعون بعد الأمر الأوّل. وقيل استحياء نسائهم للمهنة[1]. وقيل: معناه: استحيوا نساءهم وقتلوا الأبناء ليصدّوهم بذلك عن اتّباعه ويقطعوا عنه من يعاونه[2]. وإنّما ذكر قصّة موسى ليصبر محمّد صلى الله عليه وآله على قومه كما صبر موسى قبله.

ثمّ أخبر تعالى إنّ مافعله من قتل الرجال واستحياء النساء لم ينفعه، وأنّ كيده وكيد الكافرين لا يكون إلّا في ضلال عن الحقّ. واسم «كان» الأُولى قوله: «عاقبة» و خبرها «كيف» وإنّما قدّم لأنّ الاستفهام له صدر

---

(١) راجع تفسير الطبرى ١١: ٥٢.

(٢) الكشف والبيان ٨: ٢٧٢.

الكلام، واسم «كان» الثانية الضمير الّذي دلّ عليه «الواو» وخبره «من قبلهم» واسم «كان» الثالثة الضمير، و «هم» فصل عند البصريّين، وعماد عند الكوفيّين «وأشدّ» خبر «كان» الثالثة. فإن قيل: الفصل لا يكون إلّا بين معرفتين و«أشدّ» نكرة كيف صار «هم» فصلاً؟ قيل: إنّ «أفعل» الّذي معه «من» بمنزلة المضاف إلى المعرفة. قال الله تعالى: ﴿وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً﴾[1] لأنّ خيراً أفعل[2] في الأصل فحذفت الهمزة تخفيفاً.

قوله تعالى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ خمس آيات [بلا خلاف][3].

قرأ عاصم وحمزة والكسائي ويعقوب ﴿أو أن﴾ بألف قبل الواو. الباقون ﴿وأن﴾ بغير ألف. وقرأ نافع ويعقوب وأبو جعفر وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿يظهر﴾ بضمّ الياء ﴿الفساد﴾ نصباً. الباقون ﴿يظهر﴾

---

(١) المزّمّل: ٢٠.
(٢) في المطبوعة والحجريّة: كان خير «أخير».
(٣) لم يرد في الخطّية.

بفتح الياء ﴿الفساد﴾ رفعاً. من نصب ﴿الفساد﴾ أشركه مع التبديل، وتقديره: إنّي أخاف أن يبدّل دينكم وأخاف أن يظهر الفساد. ومن رفع لم يشركه، وقال تقديره: إنّي أخاف أن يبدّل دينكم، فإذا بدّل ظَهَر في الأرض الفساد. وكلتا القراءتين حسنة فأمّا «أو» فقد تستعمل بمعنى «الواو» كما قلناه في ﴿وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون﴾[1] أي: ويزيدون أو بل يزيدون. ولا تكون «الواو» بمعنى «أو» في قول أبي عبيدة. وقال ابن خالويه: إذا كانت «أو» إباحة كانت الواو بمعناها، لأنّ قولك: جالس الحسن أو ابن‌سيرين، بمنزلة الإباحة. وكذلك قوله: ﴿ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً﴾[2] لأنّ معناه: ولا كفوراً. وقال أبو عليّ: من قرأ ﴿أو أن﴾ فالمعنى: إنّي أخاف هذا الضرب منه كما تقول: كُل خبزاً أو تمراً أي: هذا الضرب. ومن قرأ ﴿وأن﴾ المعنى: إنّي أخاف هذين الأمرين، وعلى الأوّل يجوز أن يكون الأمرانُ يخافا، ويجوز أن يكون أحدهما، وعلى الثاني هما معاً يخافان. ومن ضمّ الياء في قوله: ﴿ويظهر﴾ فلأنّه أشبه بما قبله، لأنّ قبله يُبدّل فأسند الفعل إلى موسى و هم كانوا في ذكره، ومن فتح الياء أراد أنّه إذا بدّل الدين ظهر الفساد بالتبديل أو أراد يظهر الفساد بمكانه[3]. وقال قوم: أراد بـ«أو» الشكّ لأنّ فرعون قال: إنّي أخاف أن يبدّل موسى عليكم دينكم، فإن لم يفعله فيوقع الفساد بينكم، ولم يكن قاطعاً على أحدهما به[4]. وروي رواية شاذّة عن أبي عمرو: إنّه قرأ «وقال رجل» بإسكان الجيم. الباقون بضمّها وذلك لغة، قال الشاعر:

---

(١) الصافّات: ١٤٧.
(٢) الدهر (الإنسان): ٢٤.
(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٤٩.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٢٠٣.

رَجْلانِ مِنْ ضَبّة أخـبَرنا          إنّا رايـنا رَجُـلاً عـرياناً

أراد رجلين فأسكن وهو مثل قولهم: كرْمَ فلان بمعنى كَرُمَ.

حكى الله تعالى عن فرعون إنّه قال لقومه: ﴿ذروني﴾ ومعناه: اُتركوني ﴿أقتل موسى﴾ و ذلك يدلّ على أنّ في خاصّة فرعون كان قوم يمنعونه من قتل موسى ومن معه ويخوّفونه أن يدعو ربّه فيهلك، فلذلك قال ذرونـي أقتله وليدع ربّه، كما يقولون. وقال قوم: إنّما قال ذلك حين قالوا له هـو ساحر فإن قتلته قويت الشبهة بمكانه بـل ﴿أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾[١] ﴿وليدع ربّه﴾ في دفع القتل عنه، فإنّه لا يخشى[٢] من دعائه شيء، وهذا عتوّ من فرعون وتمرّد وجرأة عـلى الله وإيـهام لقـومه بـأنّ ما يدعو به موسى لا حقيقة له.

ثمّ قال فرعون: ﴿إنّي أخاف أن يبدّل﴾ يعني: مـوسى ﴿دينكم﴾ وهـو ما تعتقدونه من إلهيّتي ﴿أو أن يظهر فى الأرض الفساد﴾ بأن يتبعه قوم نحتاج ان نقاتله فيخرب في مابين ذلك البلاد، ويظهر الفساد. وقال قتادة: الفساد عند فرعون أن يعمل بطاعة الله. فمن قرأ ﴿أو أن﴾ فإنّه جعل المخوف أحد الأمرين، وإن جعل ﴿أو﴾ بمعنى الواو جعل الأمرين مخوفين معاً. ومن قرأ بالواو جعل المخوف الأمرين معاً، تبديل الدين وظهور الفساد. و«التبديل» رفع الشيء إلى غيره في ما يقع موقعه إلّا أنّه بالعرف لا يستعمل إلّا في رفع الجيّد بالرديء، و«الفساد» انتقاض الأمر بما ينافى العقل أو الشرع أو الطبع، ونقيضه «الصلاح». و«الإظهار» جعل الشيء بحيث يقع عليه الإدراك.

ثمّ حكى تعالى ما قال موسى عند ذلك فـإنّه قـال: ﴿إنّي عذت بربّي

---

(١) الشعراء: ٣٦.

(٢) في ظاهر الخطّيّة: لايجيء.

وربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ و«العياذ» هو الاعتصام بالشيء من عارض الشرّ، عذت بالله من شرّ الشيطان واعتصمت منه بمعنى واحد. ومن أظهر ولم يدغم، قال: لأنّ مخرج الذال غير مخرج التاء. ومن أدغم فلقرب مخرجهما، والمعنى: إنّي اعتصمت بربّي وربّكم الّذي خلقني وخلقكم من كلّ متكبّر على الله متجبّر عن الانقياد له [لا يصدّق بيوم الحساب يعني: يوم المجازاة وإنّما خصّ من لايؤمن بالمعاد لأنّه][1] لا يصدّق بالثواب والعقاب فلايخاف.

وقوله: ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله وقد جاءكم بالبيّنات﴾ يعني: الحجج الواضحة ﴿من ربّكم﴾ قال السدّي: كان القائل ابن عمّ فرعون، فعلى هذا يكون قوله: ﴿أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾[2] مخصّصاً، وقال غيره: كان المؤمن اسرائيليّاً يكتم ايمانه عن آل فرعون، فعلى هذا يكون الوقف عند قوله: ﴿وقال رجل مؤمن﴾ ويكون قوله ﴿من آل فرعون﴾ متعلّقاً بقوله ﴿يكتم﴾ أي: يكتم إيمانه من آل فرعون. والأوّل أظهر في أقوال المفسّرين. وقال الحسن: كان المؤمن قبطيّاً. وقوله: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه﴾ معناه: إنّ المؤمن قال لفرعون إن يك موسى كاذباً في ما يدعوكم إليه فوبال ذلك عليه وإن يك صادقاً في ما يدّعيه يصيبكم بعض الّذي يعدكم، قيل: إنّه كان يتوعّدهم بأمور مختلفة [بكونهم على أوصاف مختلفة قيل: إنّه[3]

(١) مابين المعقوفتين لم يرد في الحجريّة والمطبوعة.
(٢) غافر: ٤٦.
(٣) النكت والعيون ٥: ١٥٣.

كان][١] ذلك مظاهرة في الحجاج والمعنى أنّه يكفي بعضه. والمراد يصيبكم بعضه في الدنيا. وقيل: هو من لطيف الكلام، كما قال الشاعر:

قد يُدرك المتأنّي بعضَ حاجتِهِ وقَدْ يكونُ مَع المُستعجلِ الزَّلَلُ[٢]

ثمّ قال: ﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب﴾ أي: لا يحكم بهداية من كان مسرفاً على نفسه ومتجاوزاً الحدَّ في معصية الله كذّاباً على الله. ويحتمل أن يكون المراد إنّ الله لايهدي إلى طريق الثواب والجنّة من هو مسرف كذّاب. ويجوز أن يكون ذلك حكاية عمّا قال المؤمن من آل فرعون. ويجوز أن يكون ذلك ابتداء خبر من الله تعالى بذلك.

ثمّ قال ـ يعني مؤمن آل فرعون ـ: ﴿ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا﴾ أي: لكم الملك والسلطان على أهل الأرض وذلك لايمنع من بأس الله ﴿قال فرعون ما أُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد﴾ في ما أدعوكم من إلهيّتي وتكذيب موسى.

ثمّ حكى ماقال المؤمن فقال: ﴿وقالالّذي آمن يا قومإنّي أخاف عليكم﴾ عذاباً ﴿مثل﴾ عذاب ﴿يوم الأحزاب﴾ قال قوم: القائل لذلك موسى نفسه، لأنّ مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه، وهذا ضعيف لأنّ قوله هذا كقوله: ﴿أتقتلون ر جلاً أن يقول ربّي الله﴾[٣] فكما أظهر هذا جاز أن يظهر ذلك.

قوله تعالى:

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَالَكُم مِّنَ

---

(١) مابين المعقوفتين لم يرد في الحجريّة والمطبوعة، وفيهما: قال ذلك مظاهرة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٢.

(٣) غافر: ٢٨.

ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ أبو عمرو والأخفش والداجوني عن هشام وقتيبة ﴿على كلّ قلب متكبّر﴾ منوّن. الباقون على الإضافة. من نوّن جعله نعتاً للقلب، لأنّ القلب إذا تكبّر تكبّر صاحبه، كما قال: ﴿فظلّت أعناقهم لها خاضعين﴾[2] لأنّ الأعناق إذا خضعت خضع أربابها، وتكبّر القلب قسوته وإذا قسا القلب كان معه ترك الطاعة. ومن أضاف قال: لأنّ في قراءة ابن مسعود ﴿على قلب كلّ متكبّر جبّار﴾ قال الفرّاء: وسمعت بعض العرب يقول: إنّ فلاناً يرجّل شعره يوم كلّ جمعة يقوم[3]. و«الجبّار» هو الّذي يقتل على الغضب، ويقال: أجبر فهو جبّار مثل أدرك فهو درّاك. قال الفرّاء: ولا ثالث لهما، قال ابن خالويه: وجدت لهما ثالثاً أسأر فهو سئّار.

لمّا حكى الله تعالى عن مؤمن آل فرعون إنّه حذّر قومه بالعذاب مثل عذاب يوم الأحزاب، فسّر ذلك فقال: ﴿مثل دأب قوم نوح﴾ [يعني: كعادته مع قوم نوح]

و«الدأب» العادة يقال: دأب يدأب دأباً فهو دائب في عمله إذا استمرّ فيه. و«العادة» تكرّر الشيء مرّةً بعد مرّة. وإنّما فعل بهم ذلك حين كفروا

(١) من الحجريّة.
(٢) الشعراء: ٤.
(٣) معاني القرآن ٣: ٩.
(٤) مابين المعقوفتين ليس في الخطّية.

به، فأغرقهم الله، وكقوم هود وهم عاد، وكقوم صالح وهم ثمود، والّذين من بعدهم من الأنبياء وأُممهم الّذين كذّبوهم، فأهلكهم الله بأن استأصلهم جزاءً على كفرهم.

ثمّ أخبر أنّه تعالى لايريد ظلماً لعباده ولا يؤثره لهم. وذلك دالّ على فساد قول المجبّرة الّذين يقولون إنّ كلّ ظلم في العالم بإرادة الله.

ثمّ حكى أيضاً ما قال لهم المؤمن المقدّم ذكره، فإنّه قال: ﴿يا قوم إنّي أخاف عليكم﴾ عقاب ﴿يوم التناد﴾ وقيل: هو اليوم الّذي ينادي بعض الظالمين بعضاً بالويل والثبور لما يرى من سوء عقاب الكفر والمعصية[١]. وقيل: إنّه اليوم الّذي ينادي أصحاب الجنّة أصحاب النار ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً﴾[٢] وينادي أصحاب النار أصحاب الجنّة ﴿أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله﴾[٣] في قول الحسن وقتادة وابن زيد[٤]. وقيل: ﴿يوم التناد﴾ هو اليوم الّذي يدعى فيه ﴿كلّ أناس بإمامهم﴾[٥] ومن أثبت الياء في ﴿التنادي﴾ فلأنّها الأصل، ومن حذفها فلاجتزائه بالكسرة الدالّة عليها، ولأنّها آخر الآية، فهي فصل شبّهت بالقوافي. وقرئ ﴿يوم التنادّ﴾ بالتشديد من قولهم ندّ البعير إذا هرب، روي ذلك عن ابن عبّاس[٦].

وقوله: ﴿يوم تولّون مدبرين﴾ قال الحسن وقتادة: معناه: منصرفين إلى النار، وقال مجاهد: مارّين غير معوجين ولا معجزين. وقيل: يولّون مدبرين والمقامع تردّهم إلى ما يكرهونه من العقاب[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥: ١٥٤. (٢) الأعراف: ٤٤. (٣) الأعراف: ٥٠.
(٤) تفسير الطبري ١١: ٥٦. (٥) الإسراء: ٧١.
(٦) راجع معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٣. (٧) راجع معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٤.

وقوله: ﴿مالكم من الله من عاصم﴾ أي: مانع من عذاب ينزل بكم وأصله المنع، وشبّه بذلك من فعل به ذلك اللطف الّذي يمتنع عنده، يقال عصمه فهو عاصم وذاك معصوم إذا فعل به ذلك اللطف. ومنه قوله: ﴿لاعاصم اليوم من أمر الله إلّا من رحم﴾ [١] أي: لا مانع.

ثمّ قال: ﴿ومن يضلل الله فماله من هاد﴾ أي من يحكم الله بضلاله فليس له من يحكم بهدايته على الحقيقة. ويحتمل أن يكون المراد ومن يضلّه الله عن طريق الجنّة فما له من يهديه إليها.

ثمّ قال تعالى حاكياً ما قال لهم موسى فإنّه قال لهم: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل﴾ قيل: هو يوسف ابن يعقوب كان قبل موسى جاءهم ﴿بالبيّنات﴾ يعني: الحجج الواضحات ﴿فمازلتم في شك﴾ من موته حتّى إذا هلك ومات ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً﴾ آخر [٢].

ثمّ قال: ﴿كذلك يضلّ الله﴾ أي: مثل ما حكم الله بضلال أولئك يحكم بضلال كلّ ﴿من هو مسرف﴾ على نفسه بارتكاب معاصيه ﴿مرتاب﴾ أي: شاكّ في أدلّة الله.

ثمّ بيّنهم فقال: ﴿الّذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي: يسْعون بغير سلطان، أي: بغير حجّة آتاهم الله، وموضع ﴿الّذين﴾ نصب لأنّه بدل من ﴿مَنْ﴾ ويجوز أن يكون رفعاً بتقدير ﴿هم﴾ ثمّ قال: ﴿كبر مقتاً﴾ أي: كبر ذلك الجدال منهم مقتاً ﴿عندالله﴾ أي: عداوة من الله. ونصبه على التمييز ﴿وعند الّذين آمنوا﴾ بالله مثل ذلك.

ثمّ قال: ﴿كذلك﴾ أي: مثل ما طبع على قلوب أُولئك بأن ختم عليها

---

(١) هود: ٤٣.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٥٨.

علامةً لكفرهم يـفعل مـثله ﴿ويطبع على كلّ قلب متكبّر جبّار﴾ مـن نـوّن ﴿قلب﴾ جعل ﴿متكبّر جبّار﴾ من صفة القلب ومن أضافه جعل ﴿القلب﴾ للمتكبّر الجبّار. قال أبو عليّ: من أضاف لا يخلو أن يترك الكـلام عـلى ظاهره أو يقدر فيه حذفاً، فإن تركه على ظاهره كان تقديره: يطبع الله على كلّ قلب متكبّر، أي: على جملة القلب من المـتكبّر، وليس ذلك المـراد وإنّما المراد يطبع على قلب كلّ متكبّر، والمعنى: إنّه يطبع على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كلّ متكبّر بمعنى: إنّه يختم عليها[١].

قوله تعالى:

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ خـمس آيات [بلاخلاف][٢].

قرأ حفص وعاصم ﴿فأطّلعَ﴾ نصباً على جواب (لعلّي) الباقون رفـعاً عطفاً على قوله تعالى: ﴿لعلّي أبلغ الأسباب... فأطّلع﴾ وقيل: إنّ هامان أوّل من طبخ الآجر لبناء الصرح[٣]. وقرأ أهل الكوفة ﴿وصدّ﴾ بـضمّ الصـاد على مالم يسمّ فاعله. الباقون بفتحها. فمن ضمّ أراد صدّه الشيطان عـن

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٥٠. (٢) لم يرد في الخطيّة، وفي الحجريّة زيادة: أقول.

(٣) تفسير الطبري ١١: ٦٠، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٥.

سبيل الحقّ وطابق قوله تعالى: ﴿زيّن لفرعون سوء عمله﴾ ومن فتح الصاد أراد إنّه صدّ غيره عن سبيل الحقّ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبوبكر عن عاصم ﴿يدخلون﴾ بالضمّ كقوله: ﴿يرزقون﴾. الباقون بفتح الياء، لأنّهم إذا أُدخلوا فقد دخلوا.

حكى الله تعالى إنّ فرعون قال لهامان: ﴿ياهامان﴾ وقيل: إنّه كان وزيره[1] ﴿ابن لي صرحاً﴾ أي: بناءً ظاهراً عالياً لايخفى على الناظر وإن بعد، وهو من التصريح بالأمر وهوإظهاره بأتمّ الإظهار ﴿لعلّي أبلغ الأسباب﴾.

ثمّ فسّر تلك الأسباب فقال: ﴿أسباب السموات﴾ وقال ابن عبّاس[2] أراد به منزل السماء. وقال قتادة: معناه: أبواب طرق السماوات. وقال السدّي: طرق السماوات. وقيل: هي الأُمور الّتي يستمسك بها[3] فهي أسباب لكونها على ما هي به ولا تضطرب ولا تسقط إلى الأرض بثقلها، ولا تزول إلى خلاف جهتها. وقوله: ﴿فاطّلع إلى إله موسى﴾ معناه: فأشرف عليه لأراه. وقيل: إنّ فرعون كان مشبّهاً فطلب رؤية الإله في السماء كماترى الأشخاص إذا أشرف عليها. وقيل: يجوز أن يكون أراد، فاطّلع إلى بعض الآيات الّتي يدّعيها موسى الدالّة على إله موسى، لأنّه كان يعلم أنّ الصرح لا يبلغ السماء فكيف يرى من الصرح من هو في السماء، ولو كان فيها على قول المجسّمة، ويجوز أن يكون قال ذلك تمويهاً لما علم من جهل قومه.

وقوله: ﴿وإنّي لاظنّه كاذباً﴾ حكاية ما قال فرعون وإنّه يظنّ أنّ ما يقوله موسى: «من إله خالق السماء والأرض» كاذب في قوله. وقال الحسن:

---

(١ و٣) تفسير الطبري ١١: ٦٠.

(٢) في الحجريّة والمطبوعة: ابن عامر.

إنّما قال فرعون هذا على التمويه وتعمّد الكذب وهو يعلم أنّ له إلهاً. وقوله: ﴿وكذلك زيّن لفرعون سوء عمله﴾ أي: مثل ما زيّن لهؤلاء الكفّار أعمالهم كذلك زيّن لفرعون سوء عمله، وقال: المزيّن له سوء عمله جهله بالله تعالى والشيطان الّذي أغواه ودعاه إليه لأنّ الجهل بالقبح في العمل يدعو إلى أنّه حسن وصواب، فلمّا جهل فرعون إنّ له إلهاً يجب عليه عبادته وتوهّم كذب ما دعاه إليه نبيّه موسى، سوّلت له نفسه ذلك من أمره. وقد بيّن الله تعالى ذلك في موضع آخر فقال: ﴿زيّن لهم الشيطان أعمالهم﴾[١].

وقوله: ﴿وصدّ عن السبيل﴾ من ضمّ أراد أنّه صدّه غيره. ومن فتح أراد أنّه صدّ نفسه أو صدّ غيره. ثمّ قال تعالى: ﴿وما كيد فرعون إلّا فى تباب﴾ يعني: في هلاك. و«التباب» الهلاك بالانقطاع، ومنه قوله: ﴿تبّت يدا أبي لهب﴾[٢] أي: خسرت بانقطاع الرجاء، ومنه قولهم: تبّاً له. وقال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة: معنى «تباب» خسران.

ثمّ حكى تعالى ما قال مؤمن آل فرعون في قوله: ﴿وقال الّذي آمن ياقوم اتّبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾ وهو الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص العبادة له والإقرار بموسى عليه السلام.

وقال أيضاً على وجه الوعظ لهم والزجر عن المعاصي: ﴿يا قوم إنّما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ يعني: انتفاع قليل، ثمّ يزول بأجمعه ويبقى وزره وآثامه ﴿وإنّ الآخرة هي دارالقرار﴾ أي: دارمقام، وسمّيت دار قرار لاستقرار الجنّة بأهلها واستقرار النار بأهلها. و«القرار» المكان الّذي يستقرّ فيه.

ثمّ قال: ﴿من عمل سيّئة فلايجزى إلّا مثلها﴾ ومعناه: أي من عمل معصية

---

(١) الأنفال: ٤٨. (٢) المسد: ١.

فليس يجازى إلّا مقدار ما يستحقّه عليها من العقاب لا أكثر من ذلك ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأُولئك يدخلون الجنّة﴾ جزاءً على إيمانهم ﴿يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي: زيادة على ما يستحقّونه تفضّلاً منه تعالى، ولو كان على مقدار العمل فقط لكان بحسابه. قال الحسن: هذا كلام مؤمن آل فرعون. ويحتمل أن يكون ذلك إخباراً منه تعالى من نفسه.

قوله تعالى:

وَيَـٰقَوْمِ مَالِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَاْ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيَ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَـٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ستّ آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: قرأ أهل الكوفة إلّا أبابكر ﴿أدخلوا آل فرعون﴾ بقطع الهمزة على أنّه يؤمر الملائكة بإدخالهم النار. الباقون بوصلها بمعنى أنّهم يؤمرون بدخولها، وعلى الأوّل يكون ﴿آل فرعون﴾ نصباً على أنّه مفعول به ﴿وأشدّ﴾ المفعول الثاني. وعلى الثاني يكون نصباً على النداء.

حكى الله تعالى إنّ مؤمن آل فرعون قال لهم: ﴿مالي أدعوكم إلى النجاة﴾ يعني: إلى ما فيه خلاصكم، من توحيد الله وإخلاص العبادة له

---

(١) من الحجريّة.

والإقرار بموسى عليه السلام وهو قول الحسن وابن زيد، و﴿تدعونني﴾ أنتم ﴿إلى النار﴾ لأنّهم إذا دعوا إلى عبادة غير الله الّتي يستحقّ بها النار، فكأنّهم دعوا إلى النار، لأنّ من دعا إلى سبب الشيء فقد دعا إليه، ومن صرف عن سبب الشيء فقد صرف عنه، فمن صرف عن معصية الله فقد صرف عن النار، ومن دعا إليها فقد دعا إلى النار. و«الدعا» طلب الطالب الفعل من غيره، فالمحقّ يدعو إلى عبادة الله وطاعته وكلّ ما أمر الله به أو نهى عنه والمبطل يدعو إلى الشرّ والعصيان، فمنهم من يدري أنّه عصيان ومنهم من لا يدري.

ثمّ بينّ ذلك فقال: ﴿تدعونني لأكفر بالله﴾ وأجحد نعمه ﴿وأُشرك به﴾ في العبادة ﴿ماليس لي به علم﴾ مع حصول العلم ببطلانه، لأنّه لايصحّ أنْ يعلم شريك له وما لا يصحّ أن يعلم باطل، فدلّ على فساد اعتقادهم للشرك من هذه الجهة.

ثمّ قال: ﴿وأنا أدعوكم﴾ معاشر الكفّار ﴿إلى﴾ عبادة ﴿العزيز﴾ يعني: القادر الّذي لا يقهر ولايمنع لاستحالة ذلك عليه ﴿الغفّار﴾ لمن عصاه إذا تاب إليه تفضّلاً منه على خلقه.

وقوله: ﴿لاجرم أنّما تدعونني إليه﴾ قال الزجّاج: هو ردّ الكلام كأنّه قال لامحالة إنّ لهم النار[١].

وقال الخليل: لاجرم لا يكون إلّا جواباً تقول: فعل فلان كذا، فيقول المجيب: لاجرم إنّه عوتب[٢] والفعل منه جرم يجرم. وقال المبرّد: معناه: حقّ واستحقّ ﴿ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ والمعنى: ليس له

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٦.

(٢) في المطبوعة: عوين.

دعوة ينتفع بها في أمر الدنيا ولا في الآخرة فأطلق ليس له دعوة، لأنّه أبلغ وإن توهّم جاهل إنّ له دعوة ينتفع بها، فإنّه لا يعتدّ بذلك لفساده وتناقضه. وقال السدّي وقتادة والضحّاك: معناه: ليس لهذه الأصنام استجابة دعاء أحد في الدنيا ولا في الآخرة. وقيل: معناه: ليس لها دعوة تجاب بالآلهيّة في الدنيا، ولا في الآخرة[1] ﴿وإنّ مردّنا إلى الله﴾ أي: وجب أنّ مردّنا إلى الله، ووجب ﴿أن المسرفين﴾ بارتكاب المعاصي. وقال مجاهد: يعني بقتل النفس من غير حلّها. وقال قتادة بالإشراك بالله: ﴿هم أصحاب النار﴾ يعني: الملازمون لها. قال الحسن: هذا كلّه من قول مؤمن آل فرعون.

ثمّ قال لهم على وجه التخويف والوعظ: ﴿فستذكرون﴾ صحّة ﴿ما أقول لكم﴾ إذا حصلتم في العقاب يوم القيامة. ثمّ أخبر عن نفسه فقال: ﴿وأُفوّض أمري إلى الله﴾ أي: أُسلّمه إليه ﴿إنّ الله بصير بالعباد﴾ أي: عالم بأحوالهم وما يفعلونه من طاعة ومعصية. وقال السدّي: معنى أُفوّض أُسلّم إليه.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿فوقاه الله سيّئات مامكروا﴾ وقال قتادة: صرف الله عنه سوء مكرهم، وكان قبطيّاً من قوم فرعون فنجا مع موسى. وقوله: ﴿وحاق بآل فرعون﴾ أي: حلّ بهم ووقع بهم ﴿سوء العذاب﴾ لأنّ الله تعالى غرقهم مع فرعون.

وبيّن أنّهم مع ذلك في ﴿النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً﴾ يعني: صباحاً ومساءً، ورفع النار بدلاً من قوله: ﴿سوء العذاب﴾ ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ يعني: إذا كان يوم القيامة يقال للملائكة: ﴿أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب﴾ فيمن قطع الهمزة. ومن وصلها أراد إنّ الله يأمرهم بذلك.

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٦٣.

و«العرض» إظهار الشيء ليراه الّذي يظهر له، ومنه قوله: ﴿وعرضوا على ربّك﴾ [١] أي: أظهروا ﴿صفّاً﴾ كما يظهرون للرائي لهم. ومنه قولهم: عرضت الكتاب على الأمير، فهؤلاء يعرضون على النار لينالهم من ألمها والغمّ بالمصير إليها. و«الغدوّ» المصير إلى الشيء بالغداة، غدا يغدو غدوّاً. وقولهم: تغدّى أي: أكل بالغداة، وغدا أي: سابق إلى الأمر بالغداة. و«قيام الساعة» وجودها ودخولها على استقامة بما يقوم من صفتها، وقامت السوق إذا حضر أهلها على ما جرت به العادة و ﴿أشدّ العذاب﴾ أغلظه.

وفي الآية دلالة على صحّة عذاب القبر لأنّه تعالى أخبر أنّهم يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً. وقال الحسن: آل فرعون أراد به من كان على دينه. وكان السدّي يقول: أرواحهم في أجواب طير سود يعرضون على النار غدوّاً وعشيّاً، ويجوز أن يحييهم الله بالغداة والعشيّ ويعرضهم على النار، ووجه الاحتجاج على رؤساء الضلال بالأتباع أنّهم كانوا يدعونهم إلى اتّباعهم بما يدعون من صواب مذاهبهم. وهذا يلزمهم الرفع بها عنهم وأن يسْعوا في تخفيف عذابهم، فإذا هي سبب عذابهم.

وقال الفرّاء وقوم من المفسّرين، ذكره البلخي، في الكلام تقديماً وتأخيراً وتقديره ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب﴾ ويوم تقوم الساعة يقال لهم: ﴿أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً﴾ [٢] ويكون معنى غدوّاً وعشيّاً مع أنّهم فيها أبداً أنّه تتجدّد جلودهم بعد الاحتراق غدوّاً وعشيّاً. وقال قوم: يجوز أن يكون المراد أنّهم بعرضها، كما يقال: فلان يعرضه شرّ شديد أي: يقرب من ذلك، وقال قوم: يجوز أن

---

(١) الكهف: ٤٨.
(٢) النكت والعيون ٥: ١٥٩.

يكون المراد إنّ أعمالهم أعمال من يستحقّ النار، فكأنّهم يغدون ويروحون إليها بأعمالهم. وقال قوم: المعنى: يعرضون عليها وهم أحياء بالزجر والتحذير والوعد والوعيد، فإذا كان يوم القيامة وماتوا على كفرهم، أُدخلوا أشدّ العذاب.

قوله تعالى:

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ أربع آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: يقول الله تعالى لنبيّه: واذكر يا محمّد ﴿إذ﴾ أي: الوقت الّذي ﴿يتحاجّون فى النار﴾ ويخاصم بعضهم بعضاً يعني: الرؤساء والأتباع ﴿فيقول الضعفاء﴾ وهم الأتباع ﴿للّذين استكبروا﴾ وهم الرؤساء ﴿إنّا كنّا لكم﴾ معاشر الرؤساء ﴿تبعاً﴾ ويحتمل أن يكون ذلك جمع تابع كغايب وغيّب وحايل وحوّل، ويجوز أن يكون مصدراً أي: تبعناكم تبعاً ﴿فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار﴾ لأنّه يلزم الرئيس الدفع عن أتباعه والمنقادين لأمره، فيسألونهم هؤلاء أن يغنوا عنهم قسطاً من النار أي: طائفة منها.

فيقول الرؤساء الّذين استكبروا:﴿إنّا كلّ فيها﴾ أي: نحن وأنتم في النار فكيف ندفع عنكم. ورفع ﴿كلّ فيها﴾ على أنّه خبر ﴿إنّا﴾ كقوله:﴿إنّ الأمر كلّه لله﴾[2] ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء وخبره ﴿فيها﴾ ﴿إنّ الله قد

---

(١) من الحجريّة.

(٢) آل عمران: ١٥٤.

حكم﴾ بذلك ﴿بين العباد﴾ وانّه يعاقب من أشرك به وعبد معه غيره.

ثمّ حكى ما يقوله: ﴿الّذين﴾ حصلوا ﴿في النار﴾ من الأتباع والمتبوعين ﴿لخزنة جهنّم﴾ وهم الّذين يتولّون عذاب أهل النار ﴿أُدعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب﴾ ويقولون ذلك لأنّه لاصبر لهم على شدّة العذاب لا أنّهم يطمعون في التخفيف، لأنّ معارفهم ضروريّة يعلمون أنّ عقابهم لا ينقطع ولا يخفّف عنهم.

ثمّ حكى ما يجيب به الخزنة لهم فإنّهم يقولون لهم ﴿أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات﴾ يعني: بالحجج والدلالات على صحّة توحيده ووجوب إخلاص العبادة له، فيقولون في جوابهم ﴿بلى﴾ قد جاءتنا الرسل بالبيّنات فكذّبناهم وجحدنا نبوّتهم وأنكرنا بيّناتهم فيقول لهم الخزنة إذاً: ﴿فادعوا﴾ بما لاينفعكم ويقولون أيضاً: ﴿وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال﴾ لأنّه في وقت لاينفع.

قوله تعالى:

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾.

أربع آيات في الشامي وفي عدد إسماعيل وخمس في ما عداهما عدّوا ﴿بني إسرائيل الكتاب﴾ ولم يعدّه الأوّلان.

[أقول][1]: قرأ نافع وأهل الكوفة ﴿يوم لا ينفع الظالمين﴾ بالياء، لأنّ

(١) من الحجريّة.

المعذرة ليس تأنيثها حقيقيّاً ولأنّهم أرادوا عذرهم. الباقون بالتاء لتأنيث المعذرة.

أخبر الله تعالى عن نفسه بأنّه ينصر رسله الّذين بعثهم بالحقّ إلى خلقه وينصر الّذين آمنوا به وصدّقوا رسله في دار الدنيا، وينصرهم أيضاً يوم يقوم الأشهاد. و«النصر» المعونة على العدوّ، وهو على ضربين: نصر بالحجّة ونصر بالغلبة في المحاربة بحسب مايعلم الله تعالى من المصلحة وتقتضيه الحكمة، هذا إذا كان في دار التكليف. فأمّا نصره إيّاهم يوم القيامة فهو إعلاء كلمتهم وظهور حقّهم وعلوّ منزلتهم وإعزازهم بجزيل الثواب وإذلال عدوّهم بعظيم العقاب. والأشهاد جمع شاهد مثل صاحب وأصحاب، وهم الّذين يشهدون بالحقّ للمؤمنين وأهل الحقّ، وعلى المبطلين والكافرين بما قامت به الحجّة يوم القيامة، وفي ذلك سرور المحقّ وفضيحة المبطل في ذلك المجمع العظيم والمحفل الكبير. وقال قتادة: «الأشهاد» الملائكة والأنبياء والمؤمنون وقال مجاهد: هم الملائكة.

ثمّ بيّن سبحانه وتعالى اليوم الّذي يقوم فيه الأشهاد، فقال: ﴿يوم لاينفع الظالمين معذرتهم﴾ فالمعذرة والاعتذار واحد. وإنّما نفى أن تنفعهم المعذرة في الآخرة مع كونها نافعة في دار التكليف لأنّ الآخرة دار الإلجاء إلى العمل، والملجأ غير محمود على العمل الّذي اُلجيء إليه، لأنّه لا يعمله لداعي الحكمة إلى ما يمكنه أن يعمله ولا يعمله فيضمن الحمد على فعله. وقيل: إنّما لم يقبل معذرتهم، لأنّهم يعتذرون بالباطل، في قولهم: ﴿والله ربّنا ما كنّا مشركين﴾ [1].

---

(١) الأنعام: ٢٣.

ثمّ بيّن تعالى إنّ لهم مع بطلان معذرتهم «اللعنة» وهي الإبعاد من رحمة الله والحكم عليهم بدوام العقاب ولهم سوء الدار وهو عذاب النار نعوذ بالله منها. و«الظالمين» الّذين لا تنفعهم المعذرة هم الّذين ظلموا أنفسهم أو غيرهم بارتكاب المعاصي الّتي يستحقّ بها دوام العقاب.

ثمّ أخبر تعالى على وجه القسم فقال: ﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ أي: أعطيناه التوراة، فيها أدلّة واضحة على معرفة الله وتوحيده وأنزلنا عليه الكتاب وأورثناه بني إسرائيل يعني: التوراة، وهدى يعني: أدلّة واضحة على معرفة الله وتوحيده و﴿ذكرى﴾ أي: مايتذكّر به أولو الألباب، وإنّما خصّ العقلاء بذلك لأنّهم الّذين يتمكّنون من الانتفاع به دون من لا يعقل.

ثمّ أمر الله نبيّهﷺ فقال: ﴿فاصبر﴾ يا محمّد على أذى قومك وتحمّل المشقّة في تكذيبهم إيّاك ﴿إنّ وعد الله حقّ﴾ الّذي وعدك به من الثواب والجنّة لمن أطاعك والنار والعقاب لمن عصاك حقّ لا خلف له. واطلب أيضاً المغفرة لذنبك. ويجوز أن يكون الخطاب له والمراد به أُمّته ﴿وسبّح بحمد ربّك﴾ أي: نزّه الله تعالى واعترف بشكره بما أنعم الله عليك ﴿بالعشيّ والابكار﴾ أي: صباحاً ومساءً. وقيل: ﴿وسبّح بحمد ربّك﴾ معناه: صلّ بحمد ربّك و ﴿بالعشيّ﴾ معناه: من زوال الشمس إلى الليل. و ﴿الإبكار﴾ من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس[1].

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَـىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّاهُم بِبَـٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ

(١) تفسير الطبري ١١: ٧٠.

وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ خمس آيات وستّ في المدني الأخير.

[أقول][١]: قرأ أهل الكوفه ﴿تتذكّرون﴾ بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الإخبار عنهم. وقرأ أبو جعفر وابن كثير ورويس ويحيى والبرجمي وابن غالب ﴿سيدخلون﴾ بضمّ الياء على مالم يسمّ فاعله. الباقون بفتح الياء على إسناد الفعل إليهم.

يقول الله تعالى: ﴿إنّ الّذين يجادلون﴾ أي: يخاصمون ﴿في﴾ دفع ﴿آيات الله﴾ وإبطالها ﴿بغير سلطان﴾ أي: بغير حجّة ﴿أتاهم﴾ الله إيّاها يتسلّط بها على إنكار مذهب يخالف مذهبهم ﴿إن في صدورهم إلّا كبر ما هم ببالغيه﴾ أي: ليس في صدورهم إلّا كبر. قال مجاهد: معناه: إلّا عظمة وجبريّة ماهم ببالغي تلك العظمة، لأنّ الله تعالى مذّلهم. وقيل: معناه: إلّا كبر بحسدك على النبوّة الّتي أكرمك الله بها ﴿ماهم ببالغيه﴾ لأنّ الله يرفع بها من يشاء[٢]. وقيل: معناه: إلّا كبرماهم ببالغي مقتضاه ولانالوه لأنّ الكبر إنّما يعمله صاحبه لمقتضى أن يعظم حاله، وهؤلاء يصير حالهم إلى الإذلال والتحقير بكفرهم فلا يبلغون ما في صدورهم من مقتضي كبرهم[٣].

وقيل: الآية نزلت في اليهود وإنّ الكبر الّذي ليس هم ببالغيه توقّعهم أمر الدجّال، فاعلم الله تعالى أنّ هذه الفرقة الّتي تجادل ألّا تبلغ خروج

---

(١) من الحجريّة. (٢) تفسير الطبرى ١١: ٧١. (٣) راجع معاني القرآن ٣: ١٠.

الدجّال، فلذلك قال تعالى: ﴿فاستعذ بالله﴾ ثمّ أمر نبيّه بأن يستعيذ بالله من شرّ هؤلاء المخاصمين[١] ﴿إنّه هو السميع البصير﴾ ومعناه: إنّه يسمع ما يقول هؤلاء الّذين يخاصمون في دفع آيات الله، بصير بما يضمرونه، وفي ذلك تهديد لهم في ما يقدمون عليه. وقيل: فيه وعْدٌ له بكفاية شرّهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ معناه: إنّ خلق السموات والأرض على ما هما عليه من العظم والثقل مع وقوفهما من غير عمد، وجريان الفلك والكواكب من غير سبب أعظم في النفس وأهول في الصدر من خلق الناس، وإن كان عظيماً لما فيه من الحياة والحواسّ المهيّأة لأنواع مختلفة من الإدراكات إلّا أنّ أمر السماوات والأرض خارج من مقتضى الطبيعة، أو أن يكون فاعلهما وخالقهما يجرى مجرى العباد في الجسميّة، فهو أكبر شأناً من هذه الجهة ﴿ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ لعدولهم عن الفكر فيه والاستدلال على صحّته وإدخال الشبهة على نفوسهم فيه. وذكر كبر خلق السماوات والأرض وما هو خارج عن الطبيعة حجّة على المشركين في إنكار النشأة الثانية بما هو خارج عن عادة الولادة.

ثمّ قال: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير﴾ أي: لا يتساوى من عمي عن طريق الرشد والصواب فلم يهتد إليها، والبصير الّذي أبصرها واهتدى إليها ﴿والّذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ أي: ولا يتساوى أيضاً الّذين آمنوا بالله تعالى وعملوا الصالحات من الأعمال والّذين أساؤا وظلموا نفوسهم بارتكاب المعاصي.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٧.

ثمّ قال: ﴿قليلاً ماتتذكّرون﴾ أي: ما أقلّ ما تتفكّرون في ذلك والوقف على قوله: ﴿قليلاً﴾ وقوله: ﴿ما تتذكّرون﴾ يجوز أن تكون «ما» صلة ويجوز أن تكون بمعنى المصدر وتقديره: قليلاً ما تذكّركم. ومن قرأ بالتاء أراد قُل لهم وخاطبهم به. ومن قرأ بالياء فعلى وجه الإخبار عنهم بذلك.

ثمّ أخبر: ﴿إنّ الساعة﴾ يعني: القيامة ﴿لآتية لاريب فيها﴾ أي: جائية واقعة لاشكّ في مجيئها ﴿ولكنّ أكثر الناس لايؤمنون﴾ أي: لا يصدّقون بذلك لجهلهم بالله وشكّهم في إخبار.

ثمّ قال: ﴿وقال ربّكم أُدعوني أستجب لكم﴾ يعني: أستجب لكم إذا اقتضت المصلحة إجابتكم. ومن يدعو الله ويسأله فلا بدّ أن يشترط المصلحة إمّا لفظاً أو إضماراً وإلّا كان قبيحاً، لأنّه إذا دعا بما يكون فيه مفسدة ولا يشترط انتفاؤها، كان قبيحاً.

ثمّ قال تعالى مخبراً: ﴿إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي﴾ أي: بمن يتكبّر، ويتعظّم عن إخلاص العبادة لله تعالى ﴿سيدخلون جهنّم داخرين﴾ من ضمّ الياء ذهب إلى أنّهم تدخلهم الملائكة كرهاً، ومن فتح الياء قال: لأنّهم إذا دخلوا فقد دخلوا، فأضاف الفعل إليهم. ومعنى ﴿يستكبرون عن عبادتي﴾ أي: عن دعائي بالخضوع لي. وقال السدّي ﴿داخرين﴾ معناه صاغرين.

قوله تعالى:

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم

مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: يقول الله تعالى مخبراً عن نفسه: بأنّه ﴿الله الّذي جعل لكم﴾ معاشر الخلق ﴿الليل﴾ وهو مابين غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني ﴿لتسكنوا فيه﴾ أي: وغرضه منه، سكونكم واستراحتكم فيه من كدّ النهار وتعبه ﴿وجعل لكم النهار﴾ أيضاً وهو ما بين طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس ﴿مبصراً﴾ تبصرون فيه مواضع حاجاتكم فجعله «مبصراً» لما كان يبصرون فيه المبصرون. ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الله لذوفضل﴾ أي: لذو زيادة كثيرة من نعمه ﴿على الناس ولكنّ أكثر الناس لايشكرون﴾ نعمه أي: لا يعترفون بها بل يجحدونها ويكفرون بها.

ثمّ قال مخاطباً لخلقه: ﴿ذلكم الله﴾ يعني: الّذي قدّم وصفه لكم هو الّذي خلقكم ﴿ربّكم خالق كلّ شيء﴾ من مقدوراته من السموات والأرض وما بينهما ممّا لا يقدر عليه سواه ﴿لاإله إلّا هو﴾ أي: لايستحقّ العبادة سواه تعالى ﴿فأنّى تؤفكون﴾ أي: فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع وضوح الدلالة على توحيده.

ثمّ قال: مثل ما انقلب وانصرف هؤلاء ﴿كذلك يؤفك﴾ أي: يصرف ﴿الّذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ ومعناه: كما خدع هؤلاء بما كذّب لهم كذّب من كان قبلهم من الكفّار ﴿الّذين كانوا بآيات الله يجحدون﴾ أي: بدلالات الله وبيّناته، ولا يفكّرون فيها.

---

(١) من الحجريّة.

ثمّ عاد إلى ذكر صفاته تعالى فقال: ﴿الله الّذى جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي: هيّأها لكم بحيث تستقرّون عليها ﴿والسماء بناء﴾ أي: وجعل السماء بناءً مرتفعاً فوقنا ولو جعلهما رتقاً لما أمكن الخلق الانتفاع في ما بينهما.

ثمّ قال: ﴿وصوّركم فأحسن صوركم﴾ لأنّ صور ابن آدم أحسن من صور الحيوان. والصور جمع صورة مثل سورة وسُوَر ﴿ورزقكم من الطيّبات﴾ لأنّه ليس لشيء من الحيوان من الطيّبات المآكل والمشارب مثل ما خلق الله لابن آدم، فإنّ أنواع الطيّبات واللذّات الّتي خلقها الله لهم لا تحصى لكثرتها[1] من الثمار وفنون النبات واللحوم وغير ذلك.

ثمّ قال: ﴿ذلكم﴾ يعني: الّذي تقدّم وصفه هو الّذي يحقّ له العبادة على الحقيقة وهو ﴿الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين﴾ أي: جلّ بأنّه الثابت الدائم الّذي لم يزل ولا يزال.

ثمّ قال: ﴿هو الحيّ﴾ ومعناه: الحيّ على الإطلاق هو الّذي يستحقّ الوصف بأنّه حيّ لا إلى أجل ﴿لا إله إلّا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله ربّ العالمين﴾ قال ابن عبّاس وسعيد بن جبير: إذا قال أحدكم «لا إله إلّا الله وحده» فليقل في آخرها ﴿الحمدلله ربّ العالمين﴾.

قوله تعالى:

قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ

(١) في الحجريّة: ليس تحصى كثرتها.

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١]. هذا أمر من الله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ أن يقول لكفّار قومه ﴿إنّي نهيت﴾ أي: نهاني الله ﴿أن أعبد﴾ أي: أوّجه العبادة إلى ﴿الّذين تدعون من دون الله﴾ الّتي تجعلونها آلهة ﴿لمّا جاءني ٱلبيّنات من ربّي﴾ أي: حين أتاني الحجج والبراهين من جهة الله دلّتني على ذلك ﴿وأُمرت﴾ مع ذلك ﴿أن أُسلم لربّ العالمين﴾ أي: أستسلم لأمر ربّ العالمين الّذي خلقكم وأوجدكم ويملك تدبير الخلائق أجمعين.

ثمّ وصفه فقال: ﴿وهو الّذين خلقكم﴾ معاشر البشر ﴿من تراب﴾ ومعناه: خلق أباكم آدم من تراب وأنتم نسله وإليه ترجعون وإليه تنتمون ﴿ثمّ من نطفة...﴾ أي: ثمّ أنشأ من ذلك الأصل الّذي خلقه من تراب «النطفة» ثمّ قلّبها إلى ﴿علقة﴾ وهي القطعة من الدم لأنّها تعلّق بما يمرّ به لظهور أثرها فيه وخلقكم منها ﴿ثمّ يخرجكم طفلاً﴾ أي: أطفالاً واحداً واحداً، فلهذا ذكره بالتوحيد، كما قال: ﴿بالأخسرين أعمالاً﴾[٢] لأنّ لكلّ واحد منهم أعمالاً قد خسر بها ﴿ثمّ لتبلغوا أشدّكم﴾ وهو حال استكمال القوّة وهو جمع شدّة وأشدّ كنعمة وأنعم. وأصل «الشدّة» اللفّ الّذي يصعب منه الانحلال، ثمّ ﴿لتكونوا شيوخاً﴾ بعد ذلك ﴿ومنكم من يتوفّى من قبل﴾ أن يصير شيخاً ومن قبل أن يبلغ أشدّه ﴿ولتبلغوا أجلاً مسمّى﴾ أي: يبلغ كلّ واحد منكم ما سمّى له من الأجل. وقال الحسن: هو النسل الّذى يقوم عليه القيامة، والأجل

---

(١) من الحجريّة.
(٢) الكهف: ١٠٣.

المسمّى القيامة ﴿ولعلّكم تعقلون﴾ أي: خلقكم لهذه الأغراض الّتي ذكرها ولكي تفكّروا في ذلك فتعقلوا ما أنعم الله عليكم من أنواع النعم وأراده منكم من إخلاص العبادة.

ثمّ قال: ﴿هو الّذي يحيي ويميت﴾ يعني: من خلقكم على هذه الأوصاف الّتي ذكرها هو الّذي يحييكم وهو الّذي يميتكم فأوّلكم من تراب وآخركم إلى تراب تعودون ﴿فإذا قضى أمراً﴾ أي: أراد أمراً من الأمور ﴿فإنّما يقول له كن فيكون﴾ ومعناه: إنّه يفعل ذلك من غير أن يتعذّر عليه ولا يمتنع منه، فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون، لا إنّه خاطب المعدوم بالتكوين لأنّ ذلك محال. والله لا يأمر بالمحال.

ثمّ قال: ﴿الّذين يجادلون في آيات الله﴾ يعني: المشركين الّذين يخاصمون في دفع آيات الله وإبطالها ﴿أنّى يصرفون﴾ أي: كيف ومن أين ينقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال ولو كانوا يخاصمون في آيات الله بالنظر في صحّتها والفكر فيها لما ذمّهم الله. قال ابن زيد: أراد بذلك المشركين.

ثمّ وصفهم فقال: ﴿الّذين كذّبوا بالكتاب﴾ يعني: بالقرآن جحدوه وكذّبوا بما أرسلنا به من الكتب في الشرائع رسلنا قبلك ﴿فسوف يعلمون﴾ عاقبة أمرهم إذا حلّ بهم وبال ما جحدوه ونزل بهم عقاب ما ارتكبوه ويعرفون أنّ ما دعوتهم إليه حقّ وما ارتكبوه ضلال وفساد.

قوله تعالى:

إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ

تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾

خمس آيات كوفي وشامي وأربع في ما عداهما سوى البصري عدّ إسماعيل والكوفي والشامي ﴿يسحبون﴾ وعدّ المدني الأوّل والمكّي ﴿في الحميم﴾ وعدّ الكوفي والشامي ﴿تشركون﴾ وهي ثلاث آيات بصري لأنّه عندهم آخر الأُولى ﴿يسجرون﴾ والثانية ﴿الكافرين﴾ والثالثة ﴿تمرحون﴾.

قوله: ﴿إذ الأغلال﴾ متعلّق بقوله: ﴿فسوف يعلمون... إذ الأغلال﴾ أي: يعلمون في حال ما تجعل الأغلال وهي جمع غُلّ، وهو طوق يدخل في العنق للألم والذلّ. وأصله الدخول من قولهم: انغلّ في الشيء إذا دخل فيه. والغلول الخيانة الّتي تصير كالغلّ في عنق صاحبها، والأعناق جمع عنق وهو مركب الرأس بين البدن وبينه، وقوله: ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾[1] أي: أصل الرأس وما والاه، وقوله: ﴿والسلاسل﴾ أي: وتجعل السلاسل أيضاً في أعناقهم. وقرأ ابن عبّاس ﴿والسلاسل﴾ بالنصب ﴿يسحبون﴾ بفتح الياء بمعنى يسحبون السلاسل. وحكي عنه الجرّ أيضاً بتقدير: وهم في السلاسل يسحبون. والجرّ ضعيف عند النحويّين، لأنّ حرف الجرّ لايجوز إضماره وأجاز بعضهم ذلك على ضعفه بأن يتوهّم أنّ التقدير إذ الأغلال في الأعناق. و«السلاسل» جمع سلسلة وهي حلق منتظمة في جهة الطول مستمرّة، ويقال: تسلسلت المعاني إذا استمرّت شيئاً قبل شيء كالسلسلة الممدودة. وقوله: ﴿يسحبون﴾ أي: يجرّون على الأرض. وموضع ﴿يسحبون﴾ النصب على الحال، وتقديره: إذ الأغلال والسلاسل في أعناقهم مسحوبين على النار[2] و«السحب» جرّ الشيء على الأرض، هذا

(١) الأنفال: ١٢.

(٢) في الحجريّة زيادة: «مسجورين نصب على الحال».

أصله يقال: سحب عليه ما يلزمه من الأصل الفاسد، ويسحب الكافر على وجهه في النار سحباً.

﴿فى الحميم﴾ وهو الماء الّذي يبلغ الغاية في الحرارة ﴿ثمّ فى النار يسجرون﴾ «فالسجر» إلقاء الحطب في معظم النار كالتنّور الّذي يسجر بالوقود، فهؤلاء الكفّار لجهنّم كالسجار للتنّور.

﴿ثمّ قيل لهم﴾ على وجه التوبيخ لإيلام قلوبهم كإيلام أبدانهم بالتعذيب ﴿أين ما كنتم تشركون من دون الله﴾ فتوجّهون العبادة إليه من الأصنام والأوثان فيخلّصوكم وينصروكم من عذاب الله فيقولون في الجواب ﴿ضلّوا عنّا﴾ ثمّ يستدركون فيقولون: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ ومعناه: لم نكن ندعو من قبل شيئاً يستحقّ العبادة وما ينتفع بعبادته، فلذلك أطلق القول فقال الله تعالى: ﴿كذلك يضلّ الله الكافرين﴾ قال الحسن: معناه: كذلك يضلّ أعمالهم بأن يبطلها. وقيل: معناه: كذلك يضلّ الله الكافرين عن نيل الثواب. وقيل: كذلك يضلّ الله الكافرين عمّا اتّخذوه إلهاً بأن يصرفهم عن الطمع في نيل منفعته من جهتها.

ثمّ يقول موبّخاً لهم: ﴿ذلكم﴾ أي: ما فعل بكم جزاءً ﴿بما كنتم تفرحون فى الأرض﴾ والفرح والمرح والبطر والأشر نظائر ﴿بغير الحقّ﴾ أي: كنتم تفرحون بالباطل والفرح بالحقّ لا يوبّخ عليه ﴿وبما كنتم تمرحون﴾ أي: وجزاءً بما كنتم تبطرون في معاصي الله. و«المرح» الاختيال في السرور والنشاط قال الشاعر:

ولا يُنسِني الحَدثانُ عِرضي ... ولا أُرخي من الفَرَحِ الإزارا[1]

---

(١) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ١١١، ونسبه إلى ابن أحْمر وفيه: أُلقى مكان أُرخي.

قوله تعالى:

ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُواْ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: لما حكى الله تعالى ما يقال للكفّار من قوله: ﴿ذلكم بماكنتم تفرحون فى الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تمرحون﴾ حكى أيضاً إنّه يقال لهم: ﴿أُدخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها﴾ أي: مؤبّدين فيها لا انقطاع لكونكم فيها ولا نهاية لعقابكم. وقيل: إنّما جعل لجهنّم أبواب كما جعل فيها الإدراك تشبيهاً بما يتصوّر الإنسان في الدنيا من المطابق والسجون والمطامير، فإنّ ذلك أهول وأعظم في الزجر. وقيل: لجهنّم أبواب، كما قال تعالى: ﴿لها سبعة أبواب﴾[2] وقوله: ﴿فبئس مثوى المتكبّرين﴾ أي: بئس مقام الّذين تكبّروا عن عبادة الله وتجبّروا عن الانقياد له، وإنّما أطلق عليه اسم بئس مع كونه حسناً لأنّ الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل عن القبيح بالذمّ عليه، فحسن لهذه العلّة إطلاق اسم بئس عليه. ووصف الواحد منّا بأنّه متكبّر اسم ذمّ.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ ﴿فاصبر﴾ يا محمّد على أذى قومك وتكذيبهم إيّاك

---

(١) من الحجريّة. (٢) الحجر: ٤٤، راجع تفسير الطبري ١١: ١٩.

ومعناه: أثبت على الحقّ، فسمّاه صبراً للمشقّة الّتي تلحق فيه كما تلحق بتجرّع المرّ، ولذلك لا يوصف أهل الجنّة بالصبر وإن وصفوا بالثبات على الحقّ. وكان في الوصف به في الدنيا فضل، ولكن يوصفون بالحلم، لأنّه مدح ليس فيه صفة نقص. وقوله: ﴿إنّ وعد الله حقّ﴾ معناه: إنّ ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب في الجنّة وتوعّد الكفّار من العقاب ﴿حقّ﴾ لا شكّ فيه بل هو كائن لا محالة.

ثمّ قال: ﴿فإمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم أو نتوفّينّك فإلينا يرجعون﴾ معناه: إنّا إن أريناك يا محمّد بعض ما نعدهم من العقاب عاجلاً وإهلاكهم في دار الدنيا، وإن لم نفعل ذلك بهم وقبضناك إلينا فإلينا يرجعون يوم القيامة، فنفعل بهم ما وعدناهم من العقاب وأليم العذاب. وقال الحسن: تقديره: إمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم فنرينّك ذلك في حياتك أو نتوفّينّك فيكون ذلك بعد موتك، فأيّ ذلك كان ﴿فإلينا يرجعون﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولقد أرسلنا﴾ يا محمّد ﴿رسلاً من قبلك منهم﴾ أي: من جملتهم ﴿من قصصنا عليك﴾ قصّتهم ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾ وروي عن عليّ عليه السلام إنّه قال: «بعث الله نبيّاً أسود لم يذكره الله»[1] وقيل: بعث الله ثمانية آلاف نبيّ أربعة آلاف من بني إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم[2]. ولم يذكر إلّا نفراً يسيراً.

ثمّ قال: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية﴾ أي: بمعجزة ولا دلالة ﴿إلّا بإذن الله﴾ وأمره ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ يعني: قيام الساعة ﴿قضي بالحقّ﴾ أي: فصّل بين الخلائق ﴿وخسر هنا لك المبطلون﴾ لأنّهم يخسرون الجنّة ويحصلون

---

(١) أورده في مناقب آل أبي طالب ٢: ٥٤ ولم يذكر مصدره. (٢) تفسير الطبري ١١: ٨.

في النار بدلاً منها و ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾[١].

ثمّ قال تعالى على وجه تعداد نعمه على الخلق: ﴿الله الّذي جعل لكم الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم ﴿لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ أي: خلقها لتنتفعوا بركوبها وتأكلوا منها، فإنّه جعلها للأمرين. وقال قوم: المراد بالأنعام هاهنا الإبل خاصّة، لأنّها الّتي تركب ويحمل عليها في أكثر العادات. و«اللام» في قوله: ﴿لتركبوا﴾ لام الغرض.

فإذا كان الله تعالى خلق هذه الأنعام وأراد أن ينتفع خلقه بها، وكان تعالى لايريد القبيح ولا المباح، فلا بدّ أن يكون أراد انتفاعهم بها على وجه الطاعة والقربة إليه ﴿ولكم فيها منافع﴾ أُخرى من ألبانها وأصوافها وأشعارها ﴿ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم﴾ أن تركبوها وتبلغوا المواضع الّتي تقصدونها لحوائجكم ﴿وعليها﴾ يعني: على الأنعام ﴿وعلى الفلك﴾ وهي السفن ﴿تحملون﴾ أيضاً لأنّه تعالى هو الّذي يسيّرها في البحر بالريح إلى حيث تقصدون وتبلغون أغراضكم منها. وقال أبو عبيدة: معنى ﴿وعلى الفلك﴾ في الفلك كما قال: ﴿ولأُصلّبنّكم في جذوع النخل﴾[٢] وأراد عليها، فحروف الجرّ يقوم بعضها مقام بعض[٣].

قوله تعالى:

وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ

(١) الحجّ: ١١، والزمر: ١٥. (٢) طه: ٧١. (٣) مجاز القرآن ٢: ١٩٥.

ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى مخاطباً للكفّار الّذين جحدوا آياته وأنكروا أدلّته الدالّة على توحيده وإخلاص العبادة له: ﴿ويريكم آياته﴾ أي: يعلّمكم حججه ويعرّفكم إيّاها، منها إهلاك الأُمم الماضية على ما أخبر عنهم ووجه الآية فيه إنّهم بعد النعمه العظيمة صاروا إلى النقم لأنّهم عصوا فاقتضى ذلك عصيان المنعم أوّلاً، المنتقم ثانياً. وكان فيه أوضح الدليل على تثبيت القديم تعالى الّذي لولاه لم يصحّ فعل ولا تدبير. ومنها الآية في خلق الأنعام الّتي قدّم ذكرها، ووجه الآية فيه تسخيرها لمنافع العباد بالتصرّف في الوجوه الّتي قد جعل كلّ شيء منها لما يصلح له وذلك يقتضي أنّ الجاعل لذلك قادر على تصريفه عالم بتدبيره، وإنّما بري الآيات بالبيان عنها الّذي يحضر للناس معناه ويخطرها ببالهم، وينبّه عليها، فإنّه يحتاج أوّلاً في الآية إحضارها للنفس ثمّ الاستدلال عليها والتمييز بين الحقّ والباطل منها، فأوّل الفائدة إخطارها بالبال والتنبيه عليها والثاني الاستدلال عليها إلى الحقّ.

ثمّ قال: ﴿فأيّ آيات الله تنكرون﴾ توبيخاً لهم على جحدها، وقد يكون الإنكار للآية تارة بجحدها أصلاً. وقد يكون تارة بجحد كونها دالّة على صحّة ما هي دالّة عليه، والخلاف في الدلالة يكون من ثلاثة أوجه: إمّا في صحّتها في نفسها، أو في كونها دلالة، أو فيهما، وإنّما يجوز من الجهّال دفع الآية بالشبهة مع قوّة الآية وضعف الشبهة لأُمور:

منها: اتبّاع الهوى ودخول الشبهة الّتي تغطّي الحجّة حتّى لا يكون لها في النفس منزلة.

ومنها: التقليد لمن ترك النظر في الأُمور.

ومنها: السبق إلى اعتقاد فاسد لشبهة فيمتنع ذلك من توليد النظر للعلم.

ثمّ نبّههم فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بأن يمرّوا في جنباتها ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم كانوا أكثر منهم﴾ عدداً ﴿وأشدّ قوّة﴾ أي: وأعظم آثاراً في الأرض بالأبنية العظيمة الّتي بنوها والقصور المشيّدة الّتي شيدّوها. وقال مجاهد: بمشيهم على أرجلهم على عظم خلقهم، فلمّا عصوا وكفروا بالله أهلكهم الله واستأصلهم ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ معناه: لم يغن عنهم ما كسبوه من الأموال والبنيان. وقيل إنّ «ما» بمعنى: أيّ، وتقديره: فأيّ شيء أغنى عنهم كسبهم على وجه التهجين لفعلهم والتقريع لهم، فتكون «ما» الأُولى نصباً وموضع الثانية رفعاً[١].

ثمّ قال تعالى: ﴿فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات﴾ يعني: لمّا أتى هؤلاء الكفّار رسلهم الّذين دعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ وفي الكلام حذف، وتقديره: لمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات فجحدوها وأنكروا دلالتها وعد الله تعالى الرسل بإهلاك أُممهم ونجاة الرسل فرح الرسل بما عندهم من العلم بذلك. وقيل: إنّ المعنى فرحوا بما عندهم من العلم يعني: الكفّار بما اعتقدوا إنّه علم إذ قالوا: نحن أعلم منهم لن نعذّب ولن نبعث[٢] فكان ذلك جهلاً واعتقدوا أنّه علم، فأُطلق الإسم عليه بالعلم على اعتقادهم، كما قال: ﴿حجّتهم داحضة﴾[٣] وقال: ﴿ذق إنّك أنت

---

(١ و٢) تفسير الطبري ١١: ٨١ ـ ٨٢.

(٣) الشورى: ١٦.

العزيز الكريم﴾[١] يعني: عند نفسك وعند قومك، فالأوّل قال به الجبائي، والثاني قول الحسن ومجاهد. وقيل: المعنى إنّ الكفّار فرحوا بما عند الرسل فرح استهزاء وسخريّة لا فرح سرور وغبطة[٢] وقوله: ﴿وحاق بهم﴾ أي: حلّ بهم ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ أي: جزاء ما كانوا به يسخرون برسلهم من الهلاك والعذاب.

ثمّ أخبر تعالى عنهم أنّهم ﴿فلمّا رأوا بأسنا﴾ بأس الله ونزول عذابه ﴿قالوا آمنّا بالله وحده﴾ وخلعنا الأنداد من دونه ﴿وكفرنا بما كنّا به مشركين﴾ في عبادة الله من الأصنام والأوثان.

فقال الله سبحانه: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم﴾ عند رؤيتهم بأس الله وعذابه، لأنّهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحقّ به الثواب. ثمّ قال: ﴿سنّة الله الّتي قد خلت في عباده﴾ نصب ﴿سنّة الله﴾ على المصدر، والمعنى: طريقة الله المستمرّة من فعله بأعدائه والجاحدين لنعمه واتّخاذ الولايج من دونه في ما مضى مع عباده الّذين كفروا به ﴿وخسر هنالك الكافرون﴾ لنعمه لفوتهم الثواب والجنّة واستحقاقهم العذاب والكون فى النار.

---

(١) الدخان: ٤٩.
(٢) النكت والعيون ٥: ١٦٦.

# سورة حمٓ السجدة

هي مكّيّة في قول قتادة ومجاهد ليس فيها ناسخ ولا منسوخ وهي أربع وخمسون آية كوفي وثلاث في المدنيّين واثنتان وخمسون في البصري والشامي.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ (٢) كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ (٥)

خمس آيات في الكوفي وأربع في الباقي عدّ الكوفيّون ﴿حمٓ﴾ ولم يعدّه الباقون قرأ بعض الكوفيّين ﴿حمٓ﴾ رفع بـ﴿تنزيل﴾ و ﴿تنزيل﴾ رفع بـ﴿حم﴾ وقال الفرّاء: ارتفع ﴿تنزيل﴾ بإضمار ذلك أو هذا تنزيل[1]. وقال البصريّون: ﴿تنزيل﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿كتاب فصّلت آياته﴾ و ﴿قراناً﴾ نصب على المصدر أو الحال ذهب إليه قوم[2].

---

(١) معاني القرآن ٢: ٤١٤ في اوّل سورة الزمر.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٩.

قد بيّنّا اختلاف المفسّرين في معني قوله ﴿حمٓ﴾ فلا وجه لإعادته. وقيل: في وجه الاشتراك في أسماء هذه السور السبع بـ﴿حمٓ﴾ إنّه للمشاكلة الّتي بينها بما يختصّ به ليس لغيرها، لأنّه اسم عَلَم أُجري على الصفة الغالبة بما يصحّ فيه الاشتراك. والتشاكل الّذي اختصّت به هو أنّ كلّ واحدة منها استفتحت بصفة الكتاب مع تقاربها في الطول والقصر ومع شدّة تشاكل الكلام في النظام، وفصل الكتاب البيان عن طريق النجاة الّذي يصغر كلّ شيء في جنب الفائدة به من طريق الهلاك الّذي لا صبر للنفس عليه، وهو على وجوه: منها تبيين الواجب ممّا ليس بواجب، وتبيين الأُولى في الحكمة ممّا ليس بأولى، وتبيين الجائز ممّا ليس بجائز، وتبيين الحقّ في الدين من الباطل، وتبيين الدليل على الحقّ ممّا ليس بدليل، وتبيين مايرغب فيه ممّا لا يرغب فيه، وما يحذر منه ممّا لايحذر مثله. وغير ذلك من وجوه أحكامه وهي أكثر من أن تحصى.

وقوله: ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ وصف الكتاب بأنّه تنزيل لأنّ جبرائيل عليه السلام نزل به على محمّد صلى الله عليه وآله وفي ذلك دلالة على حدوثه، لأنّ التنزيل لا يكون إلّا محدثاً.

وقوله: ﴿كتاب فصّلت آياته﴾ أي: هذا كتاب، وإنّما وصف القرآن بأنّه كتاب وإن كان المرجع فيه إلى كلام مسموع، لأنّه ممّا ينبغي أن يكتب ويدوّن لأنّ الحافظ ربّما نسيه أو نسي بعضه، فيتذكّر، وغير الحافظ فيتعلّم منه. وقوله: ﴿فصلّت آياته﴾ معناه: ميّزت دلائله. وإنّما وصفه بالتفصيل دون الإجمال، لأنّ التفصيل يأتي على وجوه البيان، لأنّه تفصيل جملة عن جملة أو مفرد عن مفرد، ومدار أمر البيان على التفصيل والتمييز في ما يحتاج إليه من أُمور الدين إذ العلم علمان: علم دين وعلم دنيا، وعلم

الدين أجلّهما وأشرفهما لشرف النفع بـه. وقـيل: ﴿فصّلت آياته﴾ بـالأمر والنهي والوعد والوعيد والترغيب والترهيب[١].

ونصب قوله: ﴿قرآناً عربيّاً﴾ على الحال في قول الزجّـاج، وتـقديره: فصّلت آياته في حال جمعه[٢]. ووصف بأنّه قرآن لأنّه جمع بـعضه إلى بعض، وبأنّه عربي لأنّه يخالف جميع اللغات الّتي هي ليست عربيّة ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لمن يعلم العربيّة.

وقوله: ﴿بشيراً﴾ أي: مبشّراً بالجنّة وثوابها ﴿ونذيراً﴾ أي: مخوّفاً مـن النار وعقابها. وقوله: ﴿فأعرض أكثرهم﴾ إخبار منه تعالى عـن الكـفّار أنّ أكثرهم يعدل عن التفكّر فيه وعن سماعه ﴿فهم لا يسمعون﴾ لعدولهم عنه. ويجوز أن يكون مع كونهم سامعين إذا لم يفكّروا فيه ولم يقبلوه فكأنّهم لم يسمعوه. وقال البلخي: معناه: إنّهم يفعلون فعل من لا يسمعه، لأنّهم مع سماعه يستثقلونه ويعرضون عن الفكر فيه.

ثمّ حكى ما قاله الكفّار من قولهم: ﴿قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه﴾ قال مجاهد والسدّي: معناه: في أغطية وإنّما قالوا ذلك ليؤيسوا النبيّ صلى الله عليه وآله من قبولهم دينه فهو على التمثيل، فكأنّهم شبّهوا قلوبهم بما يكون في غطاء فلايصل إليه شيء ممّا وراءه، وفيه تحذير من مثل حالهم في كلّ من دعي إلى أمر لايمتنع أن يكون هوالحقّ، فلايجوز أن يدفعه بـمثل ذلك الدفـع ﴿وفي آذاننا وقر﴾ أي ثـقل عـن اسـتماع هـذا القـرآن ﴿ومن بيننا وبينك حجاب﴾ قيل الحجاب الخلاف الّذي يقتضي أن يكون بمعزل عنك[٣]. قال

(١) النكت والعيون ٥: ١٦٧.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٩ـ٣٨٠.
(٣) الكشف والبيان ٨: ٢٨٦.

الزجّاج: معناه: حاجز في النحلة والدين أي: لا نوافقك في مذهب ﴿فاعمل إنّنا عاملون﴾ معناه: فاعمل بما يقتضيه دينك فإنّا عاملون بما يقتضيه ديننا[١]. وقال الفرّاء: معناه: فاعمل في هلاكنا فإنّنا عاملون في هلاكك، تهديداً منهم[٢].

قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾* قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][٣]: قرأ أبو جعفر ﴿سواء﴾ رفعاً. وقرأ يعقوب خفضاً. وقرأه الباقون نصباً. فمن رفعه فعل الاستيناف. ومن خفضه جعله نعتاً للأيّام. ومن نصبه فعلى المصدر.

أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفّار: ﴿إنّما أنا بشر مثلكم﴾ لحم ودم، ومن ولد آدم، وإنّما خصّني الله بنبوّته وأمرني برسالته وميّزني منكم بأنّي ﴿يوحى إليّ أنّما إلهكم﴾ الّذي يستحقّ العبادة ﴿إله واحد﴾ لاشريك له في العبادة ﴿فاستقيموا إليه﴾ أي: استمرّوا على وجه واحد في الطاعة له وإخلاص العبادة له على ما تقتضيه الحكمة ﴿واستغفروه﴾ أي:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٧٩ـ٣٨٠.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٢.
(٣) من الحجريّة.

واطلبوا المغفرة من جهته لذنوبكم.

ثمّ أخبر فقال: ﴿وويل للمشركين﴾ الّذين أشركوا بعبادة الله غيره من الأصنام والأوثان ووصفهم بأنّهم ﴿الّذين لا يؤتون الزكاة﴾ وقال الحسن: معناه: لا يؤتون ما يكونون به أزكياء أتقياء من الدخول في دين الله. وقال الفرّاء: الزكاة في هذا الموضع إنّ قريشاً كانت تطعم الحاجّ وتسقيهم فحرّموا ذلك على من آمن بمحمّدﷺ[1]. وقال قوم: إنّما توعّدهم على ترك الزكاة الواجبة عليهم لأنّهم متعبّدون بجميع العبادات ويعاقبون على تركها وهو الظاهر. وقال الزجّاج: معناه: وويل للمشركين الّذين لا يؤمنون بأنّ الزكاة واجبة[2]. وإنّما خصّ الزكاة بالذكر تقريعاً لهم على شحّهم الّذي يأنف منه أهل الفضل ويتركون ما يقتضي أنّهم أن يعملوه عملوه لأجله. وفي ذلك دعاء لهم إلى الايمان وصرف لهم عن الشرك. وكان يقال: الزكاة قنطرة الإيمان فمن عبّرها نجا. وقال الطبري: معناه: الّذين لا يعطون الله الطاعة الّتي يطهّرهم بها ويزكّي أبدانهم، ولا يوحّدون. وقال عكرمة: هم الّذين لا يقولون: لا إله إلّا الله. وقد بيّنّا أنّ الأقوى قول من قال إنّ الّذين لا يؤدّون زكاة أموالهم[3]، لأنّ هذا هو حقيقة هذه اللفظة ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ معناه: وهم مع ذلك يجحدون ما أخبر الله به من الثواب والعقاب في الآخرة.

ثمّ أخبر الله تعالى عن المؤمنين فقال: إنّ الّذين يؤمنون بالآخرة أي: يصدّقون بأمر الآخرة من الثواب والعقاب ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي:

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٢. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٠.

(٣) تفسير الطبري ١١: ٨٦.

الطاعات ﴿لهم أجر غير ممنون﴾ أي: لهم جزاء على ذلك غير مقطوع، بل هو متّصل دائم، ويجوز أن يكون معناه: إنّه لا أذى فيه من المنّ الّذي يكدّر الصنيعة.

ثمّ أمر النبيّ صلى الله عليه وآله أن يقول لهم على وجه الإنكار عليهم بلفظ الاستفهام: ﴿أئنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين﴾ أي: تجحدون نعمه من خلق الأرض في يومين ﴿وتجعلون له أنداداً﴾ أي: تجعلون له أشباهاً وأمثالاً في استحقاق العبادة.

ثمّ قال الّذي يستحقّ العبادة ﴿ذلك ربّ العالمين﴾ الّذي خلق الخلائق وملك التصرّف فيهم.

وقوله: ﴿وجعل فيها رواسي من فوقها﴾ أي: وخلق في الأرض جبالاً راسيات ثابتات فوق الأرض ﴿وبارك فيها﴾ بما خلق فيها من المنافع ﴿وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين﴾ روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله إنّه قال «إنّ الله خلق الأرض يوم الأحدو الاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وخلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك أربعة أيّام وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة الشمس والقمر والنجوم والملائكة وآدم»[1]. وقال الحسن والسدّي وابن زيد ﴿قدّر فيها أقواتها﴾ أي: أرزاقها. وقال قتادة: معناه: قدّر فيها ما فيه صلاحها. قال أبو عبيدة: الأقوات جمع قوت وهي أرزاق الخلق ومايحتاجون إليه[2]. وقيل: إنّما خلق ذلك شيئاً بعد شيء في هذه الأربعة الأيّام لتعتبر به الملائكة وقيل: لاعتبار العباد في الإخبار عن ذلك إذا تصوّروه على تلك الحال[3]. وقال

---

(١) النكت والعيون ٥: ١٧١، تفسير الطبري ١١: ٨٧.

(٢) مجاز القرآن ٢: ١٩٦.

(٣) النكت والعيون ٥. ١٧١.

الزجّاج: الوجه فيه تعليم الخلق التأنّي في الأُمور وألّا يستعجلوا فيها بأنّ الله تعالى كان قادراً على أن يخلق ذلك في لحظة، لكن خلقها في هذه المدّة لما قلنا[1]. وقال قوم: إنّما خلق ذلك في هذه المدّة ليعتبروا بذلك على أنّها صادرة من قادر مختار عالم بالمصالح وبوجوه الأحكام إذ لو كان صادراً عن مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة[2]. وقال الزجّاج: ﴿في أربعة أيّام﴾ معناه: في تتمّة أربعة أيّام[3].

وقوله ﴿سواء للسائلين﴾ قال قتادة والسدّي: معناه: سواء للسائلين عن ذلك لأنّ كلّاً يطلب القوت ويسأله. وفي قراءة عبدالله ﴿وقسّم فيها أقواتها﴾ ومعناه: خلق في هذه هذه البلدة ما ليس في هذه ليتعايشوا ويتّجروا. ومن نصب ﴿سواء﴾ فعلى تقدير: استوت سواء واستواء لمن سأل في كم خلقت السماوات والأرض؟ فقيل في أربعة أيّام سواء لازيادة ولا نقصان.

قوله تعالى:

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾.

أربع آيات في البصري والشامي وخمس في ماعداه. اختلفوا في قوله

---

(١ و٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٠ ـ ٣٨١. (٢) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢١٩.

﴿وثمود﴾ فلم يعدّها البصريّون والشاميّون، وعدّها الباقون.

أخبر الله تعالى إنّه بعد خلق الأرض والجبال وتقدير الأقوات فيها ﴿استوى إلى السماء وهي دخان﴾ قال الحسن: معناه: استوى أمره ولطفه إلى السماء. وقال غيره: معنى الاستواء إلى السماء: العمد والقصد إليها، كأنّه قال: ثمّ قصد إليها[1]. وأصل﴿الاستواء﴾ الاستقامة والقصدللتدبيرالمستقيم تسوية له. وقوله: ﴿ثمّ استوى على العرش﴾[2] معناه: ثمّ استوى تدبيره بتقدير القادر عليه. وقيل: إنّ الاستواء بمعنى الاستبلاء[3] كما قال الشاعر:

ثُمّ استَوى بِشرٌ علـى العَـراق　　　من غير سيفٍ و دمٍ مُهرَاقِ[4]

فأمّا الاستواء عن اعوجاج فمن صفات الأجسام لايجوز ذلك على الله تعالى.

وقوله: ﴿ثمّ استوى إلى السماء﴾ يفيد أنّه خلق السماء بعد خلق الأرض وخلق الأقوات فيها، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها﴾ إلى قوله: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾[5] لأنّ ذلك يفيد أنّ الأرض كانت مخلوقة غير مدحوّة، فلمّا خلق الله السماء دحا بعد ذلك الأرض فبسطها، وإنّما جعل الله السماوات أوّلاً دخاناً ثمّ سبع سماوات طباقاً ثمّ زيّنها بالمصابيح، لما في ذلك من الدلالة على أنّ صانعها وخالقها ومدبّرها ليس كمثله شيء من الموجودات غنيّ عن كلّ شيء سواه، وإنّ كلّ ما سواه يحتاج إليه من حيث إنّه قادر لنفسه لايعجزه شيء، عالم

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٢٨٧، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨١.

(٢) الأعراف: ٥٤ ويونس: ٣ والرعد: ٢ والفرقان: ٥٩ والسجدة: ٤ والحديد: ٤.

(٣) تفسير السمرقندي ١: ٥٢١.

(٤) أنشده الجوهري في الصحاح ٦: ٢٣٨٥ ولم ينسبه إلى أحدٍ.

(٥) النازعات: ٢٧ـ٣٠.

لنفسه لا يخفى عليه شيء. و«الدخان» جسم لطيف مظلم، فالله تعالى خلق السماوات أوّلاً دخاناً ثمّ نقلها إلى حال السماء من الكثافة والالتيام لما في ذلك من الاعتبار واللطف لخلقه.

وقوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ قال ابن عبّاس: أتت السماء بما فيها من الشمس والقمر والنجوم وأتت الأرض بمافيها من الأنهار والأشجار والثمار، وليس هناك أمر بالقول على الحقيقة ولا لطاعته، ولا جواب لذلك القول بل أخبر تعالى عن اختراعه السماوات والأرض وإنشائه لهما من غير تعذّر ولا مشقّة ولا كلفة ومن غير ملابسة ولا معاناة بمنزلة ما قيل للمأمور: افعل، ففعل من غير تلبّث ولا توقّف، فعبّر عن ذلك بالأمر والطاعة وهو كقوله: ﴿كن فيكون﴾ (١) وقد بيّنّا الوجه في ذلك ويكون التقدير كأنّه قيل: أتينا بمن فينا طائعين أي: سبحانه فعل الطبايع في ما أمر به وإنّما قلنا ذلك لأنّه تعالى لا يأمر المعدوم ولا الجماد، لأنّ ذلك قبيح يتعالى الله عن ذلك ومثل ذلك قوله الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قَطْني مهلارُوَيداً قد ملأت بطني (٢)

ونظائر ذلك كثيرة بيّنّاها في ما مضى وإنّما قال: ﴿طائعين﴾ ولم يقل طائعتين، لأنّه لمّا أسند الفعل إليهما وهو ما لا يكون إلّا من العقلاء أخبر عنهما بالياء والنون، وقال قطرب: لأنّ المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء. وقال الشاعر:

فأجْهَشتُ للـمواتِ حِينَ رَأيتُه وكَبَّر لِلرَحْمن حين رَآني

---

(١) البقرة: ١١٧ وفي سور أُخرى.

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح ٣: ١١٥٣ ولم ينسبه إلى أحدٍ.

فـقُلتُ له أيـن الّـذين رأيتُهم  بجنبك في ما خفض وطيبِ زمانِ
فَقالَ مَضَوا واستَودَعُوني بِـلادَهُم  ومَن ذاالَّذِي يَبقَى علىالحدثانِ[1]

وقوله: ﴿فقضاهنّ سبع سموات في يومين﴾ معناه: جعلهنَّ سبع سماوات على إتمام خلقهنَّ لأنّ «القضاء» جعل الشيء على إتمام وإحكام ولذلك قيل: انقضى أي: قد تمّ ومضى، وقضى فلان إذا مات لأنّ عمره تمّ ومضى. وقيل: إنّ السماء موج مكفوف روي ذلك في الخبر عن النبيّ صلى الله عليه وآله[2]. وقال الحسن: هي سبع أرضين بين كلّ أرضين مسيرة خمسمائة عام. وقـوله: ﴿في يومين﴾ قال السدّي: خلق الله السماوات وسوّاها يوم الخميس والجمعة وسمّي جمعة لأنّه جمع فيه خلق السماوات والأرض، وإنّما خلقها في يومين نظير خلق الأرض في يومين، فإن قيل: قوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾[3] وخلق الجبال والأقوات في أربعة أيّام وخلق السماوات في يومين يكون ثمانية أيّام، وذلك مناف لقوله: ﴿إنّ ربّكم الله الّذي خلق السموات والأرض في ستّة أيّام﴾[4] قلنا: لا تنافي بين ذلك، لأنّه خلق السماوات والارض وخلق الجبال والأشجار والأقوات في ارئبعة أيّام منها اليومان المتقدّمان، كما يقول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيّام ثمّ إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي: في تمام هذه المدّة، ويكون قوله: ﴿فقضاهنَّ سبع سموات في يومين﴾ تمام ستّة أيّام. وهو الّذي ذكره في قوله في ستّة أيّام. وزال الإشكال.

---

(١) ديوان مجنون ليلى: ١٩٢. مع اختلاف.
(٢) راجع الدرّ المنثور ١: ١٠٩ ذيل الآية ٢٩ سورة البقرة.
(٣) حم السجدة: ٩.
(٤) الأعراف: ٥٤ ويونس: ٣.

وقوله: ﴿وأوحى في كلّ سماء أمرها﴾ قال السدّي: بمعناه: جعل فيها ما أراده من ملك وغيره. وقيل: معناه أوحى في كلّ سماء بما يصلحها[١] ﴿وزيّنّا السماء الدنيابمصابيح﴾ روي إنّ الكواكب في السماء الدنيا، وهي الأقرب إلى الأرض دون ما فوقها من السماوات.

وقوله: ﴿وحفظاً﴾ منصوب على المعني وتقديره: جعلناها زينةً وحفظاً أي: وجعلناها حفظاً من استراق الشياطين السمع بالكواكب الّتي جعلت فيها. وقيل: حفظاً من أن تسقط على الأرض ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ يعني: القادر الّذي لا يغالب، العليم بجميع الأشياء لايخفى عليه شيء منها.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني: إن عدل الكفّار عن الفكر في ما ذكرنا والتدبّر لما بيّنّا وأبوا إلّا الشرك والجحود ﴿فقل﴾ لهم مخوّفاً لهم ﴿أنذرتكم صاعقة﴾ أي: خوّفتكم إيّاها أن ينزل بكم كما نزل بمن قبلكم ونصب ﴿صاعقة﴾ على أنّه مفعول ثان ﴿مثل صاعقة عاد وثمود﴾ الّتي أرسلها الله عليهم وأهلكهم بها. فقال السدّي: الصاعقة أراد بها العذاب، وقال قتادة: معناه وقيعة. وقيل: إنّ عاداً أُهلكت بالريح والصاعقة جميعاً.

وقوله: ﴿إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم﴾ فـ﴿إذ﴾ متعلّقة بقوله: ﴿صاعقة﴾ أي: نزلت بهم إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، منهم من تقدّم زمانه ومنهم من تأخّر عنه. وقال الفرّاء: أتت الرسل إيّاهم[٢] ومن كان قبلهم ومن خلفهم أي: وجاءتهم أنفسهم رسل من بعد أُولئك الرسل فيكون الهاء والميم في ﴿خلفهم﴾ للرسل ويكون لهم بجعل من خلفهم لما معهم[٣]. وقال قوم: معناه: قبلهم وبعد أن بلغوا وتعبّدوا بأمر

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٢.
(٢) في المصدر: آبائهم.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٣.

الرسل الّذين تقدّموهم، قال البلخي: ويجوز أن يكون المراد أتتهم أخبار الرسل من هاهنا وهاهنا مع ماجاءهم منهم ﴿ألّا تعبدوا إلّا الله﴾ أي: أرسلناهم بأن لايعبدوا إلّا الله وحده لاشريك له وألّا يشركوا بعبادته غيره، فقال المشركون عند ذلك ﴿لوشاء ربّنا﴾ أن نؤمن ونخلع الأنداد ﴿لأنزل ملائكة﴾ يدعوننا إلى ذلك ولم يبعث بشراً مثلنا، فكأنّهم أنِفوا من الانقياد لبشر مثلهم وجهلوا أنّ الله يبعث الأنبياء على ما يعلم من مصالح عباده ويعلم من يصلح للقيام بها وقالوا لهم أيضاً ﴿إنّا﴾ معاشر قومنا ﴿بما أرسلتم به﴾ من إخلاص العبادة والتوحيد ﴿كافرون﴾ جاحدون.

ثمّ فصّل تعالى أخبارهم فقال: ﴿فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحقّ﴾ أي: تجبّروا وعتوا وتكبّروا على الله بغير حقّ جعله الله لهم بل للكفر المحض والظلم الصراح ﴿وقالوا من أشدّ منّا قوّة﴾ لمّا كان الله تعالى أعطاهم من فضله قوّة [تقوّوا بها][1] على أهل زمانهم، فقال الله تعالى: ﴿أو لم يروا﴾ ومعناه: أو لم يعلموا ﴿أنّ الله الّذي خلقهم﴾ واخترعهم وخلق فيهم هذه القوّة ﴿أشدّ منهم قوّة﴾ وأعظم اقتداراً ﴿وكانوا﴾ مع ذلك ﴿بآيات الله﴾ وأدلّته ﴿يجحدون﴾ أي: ينكرونها، ولا يعترفون بها.

قوله تعالى:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَاسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ

(١) لايوجد في الحجريّة.

فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع ﴿نحسات﴾ ساكنة الحاء، الباقون يكسرها، لأنّ ﴿نحسات﴾ صفة، تقول العرب، يوم نحس مثل رجل هرم. وقيل: هما لغتان[2]، وقرأ نافع ويعقوب ﴿ويوم نحشر﴾ بالنون كقوله: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾[3] وقوله: ﴿ونجيّنا الّذين آمنوا﴾ بالنون. الباقون بضمّ الياء على مالم يسمّ فاعله، لأنّه عطف عليه. قوله: ﴿فهم يوزعون﴾ فطابق بينهما.

لمّا حكى الله عن عاد وثمود أنّه أرسل إليهم رسلاً وأمرهم بعبادة الله وحده وأن لايشركوا به شيئاً وإنّهم كفروا بذلك وجحدوه، أخبر إنّه أهلكهم بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً أي: شديداً صوته واشتقاقه من الصرير ولذلك ضوعف اللفظ إشعاراً بمضاعفة المعنى، يقال صرّيصِرّ صريراً، وصرصر يصرصر صرصرة وريح صرصر، شديد هبُوبها. وقال قتادة: يعني: باردة. وقال السدّي: باردة ذات صوت. وقال مجاهد: شديدة السموم. وقيل: أصله صرّر قلبت الراء صاداً، كما قيل: ردّه، وردّده[4] ونهّهه ونهنهه. وقال رؤبة:

فَاليَومَ قدْ نَهْنَهني تَـنَهْنُهي ... وأوّلُ عِلمٍ لَيس بالتّسفه[5]

وكما قيل: كففه وكفكفه، قال النابغة:

---

(١) من الحجريّة.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٩٦، معاني القرآن للأخفش ٢: ٦٨٢.
(٣) طه: ١٢٤.
(٤) تفسير الطبري ١١: ٩٥. فيه: كما قيل في ردّده: رددره.
(٥) أنشده الطبري في تفسيره ١١: ٩٥، مع اختلاف يسير.

أُكَفْكِفُ عَبرةً غَـلَبَتْ عـزائـي إذا نَـهْنَتُها عـادَتْ ذُبـاحا[1]

ومنه سمّي نهر صرصر لصوت الماء الجاري فيه.

وقوله: ﴿في أيّام نحسات﴾ قال مجاهد وقتادة والسدّي: يعني مشومات، والنحس سبب الشرّ والسعد سبب الخير، وبذلك سمّيت سعود الأيّام ونحوسها وسعود النجوم ونحوستها، ومن سكن الحاء خفّفه ومن جرّها فعلى الأصل. وقال أبوعبيدة: معناه: أيّام ذات نحوس أي مشائيم العذاب[2].

وقوله: ﴿لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا﴾ إخبار منه تعالى إنّه إنّما يفعل بهم ذلك ليذيقهم حال الهوان في الدنيا، و«الخزي» الهوان الّذي يستحيا منه خوفاً من الفضيحة، يقال: خزي يخزى خزياً وأخزاه الله إخزاءً فهو مُخزي.

ثمّ بيّن تعالى إنّ عذاب الآخرة أخزى وأفضح من ذلك فقال: ﴿ولعذاب الآخرة أخزىٰ وهم لا ينصرون﴾ أي: لا يدفع عنهم العذاب الّذي ينزل بهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿وأمّا ثمود فهديناهم﴾ فالّذي عليه القرّاء رفع الدال، وقرأ الحسن بالنصب على تقدير هدينا ثمود هديناهم والرفع أجود، لأنّ «أمّا» لايقع بعدها إلّا الأسماء فالنصب ضعيف. والمعنى: وأمّا ثمود دللناهم على طريق الرشاد فعدلوا عنها إلى طريق الغيّ والفساد، والهدي يتصرّف على وجوه بيّنّاها في ما مضى. وقال ابن عبّاس وقتادة والسدّي وابن زيد: معناه: بيّنّا لهم، وإنّما لم يصرف ثمود لأنّه اسم القبيلة أُو الأُمّة، وهو معرفة. وإنّما رفع لأنّ «أمّا» رفع الاسم بعدها أولى.

وقوله: ﴿فاستحبّوا العمى على الهدى﴾ معناه: اختاروا العمى على طريق

---

(١) أنشده الطبري في تفسيره ١١: ٩٥ مع اختلاف في الشعر. (٢) مجاز القرآن ٢: ١٩٧.

الحقّ والاهتداء إليها وبئس الاختيار ذلك، وهو قول الحسن.

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبّرة في أنّ الله يضلّ الكفّار عن الدين ولا يهديهم إليه لأنّه صرّح بأنّه هدى ثمود إلى الدين وأنّهم اختاروا العمى على الهدى، وذلك واضح لا إشكال فيه. وقوله: ﴿فأخذتهم صاعقة العذاب الهون﴾ أي: أرسل عليهم الصاعقة الّتي بعثها للعذاب دون غيره، والهون والهوان واحد في قول أبي عبيدة[1]. وقال السدّي: معناه: الهوان ﴿بما كانوا يكسبون﴾ أي: جزاءً على ما كسبوه من الشرك والكفر.

وقوله: ﴿ونجّينا الّذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ إخبار من الله تعالى أنّه خلص من جملتهم من آمن بالله واتّقى معاصيه خوفاً من عقابه نجّاهم الله من ذلك العذاب.

ثمّ قال تعالى: ﴿ويوم يحشر أعداء الله﴾ يبعثون وهو يوم القيامة. فمن قرأ بالنون فعلى الإخبار من الله عن نفسه بذلك. ومن قرأ بالياء المضمومة فعلى أنّهم يبعثون ويجمعون إلى النار ﴿فهم يوزعون﴾ أي: يمنعون من التفرّق ويحبسون ويكفّون، يقال: وزعت الرجل إذا منعته، ومنه قول الحسن: لابدّ للناس من وزعة، وقوله: ﴿اوزعني﴾[2] أي: ألهمني. وقول الشاعر:

وإنّي بها ياذا المعارج موزع

ويروى موزّع ﴿حتّى إذا ماجاؤها﴾ معناه: حتّى إذا أتى هؤلاء الكفّار النار، وأراد الله إلقاءهم فيها ﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون﴾ وقيل: في شهادة هذه الجوارح قولان:

---

(١) مجاز القرآن ٢: ١٩٧.
(٢) النمل: ١٩، الأحقاف: ١٥.

أحدهما: إنّها تبنى بنية حيّ وتلجأ إلى الشهادة والاعتراف بما فعله أصحابها[1].

والآخر: أن يفعل فيها الشهادة ويضاف إليها مجازاً.

ووجه ثالث: قال قوم: إنّه يظهر فيها أمارات تدلّ على كون أصحابها مستحقّين للنار فسمّي ذلك شهادة مجازاً، كما يقال: عيناك تشهد بسهرك، أي: فيها ما يدلّ على سهرك. وقيل: المراد بالجلود الفروج على طريق الكناية[2]. وقيل: لا بل الجلود المعروفة وهو الظاهر[3].

قوله تعالى:

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][4]: هذا حكاية من الله عن الكفّار في الآخرة بعد ما شهدت عليهم أبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون من المعاصي في دار الدنيا أنّهم يقولون: ﴿لجلودهم لم شهدتّم علينا﴾ منكرين عليهم إقامة تلك الشهادة. وقيل: اشتقاق الجلد من التقوية من قولهم: فلان يتجلّد على كذا،

---

(١و٣) تفسير الطبري ١١: ٩٩، النكت والعيون ٥: ١٧٦.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٤.

(٤) من الحجريّة.

وهو جَلِد أي: قويّ، فتقول جلودهم في الجواب عن ذلك ﴿أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء﴾ «الإنطاق» جعل القادر على الكلام ينطق إمّا بالإلجاء إلى النطق أو الدعاء إليه. فهؤلاء يلجئهم الله إلى أن ينطقوا بالشهادة. و«النطق» إدارة اللسان في الفم بالكلام، ولذلك لا يوصف تعالى بأنّه ناطق، وإن وصف بأنّه متكلّم. ومعنى ﴿أنطق كلّ شيء﴾ أي: كلّ شيء لا يمتنع منه النطق كالأعراض والموات، والفائدة في الإخبار عنهم بذلك التحذير من مثل حالهم في ما ينزل بهم من الفضيحة بشهادة جوارحهم عليهم بما كانوا يعملون من الفواحش. فلم يكن عندهم في ذلك أكثر من هذا القول الّذي لا ينفعهم، وقال قوم: إنّ الجوارح تشهد عليهم حين يجحدون ما كان منهم[١].

وقوله: ﴿وهو خلقكم أوّل مرّة﴾ إخبار منه تعالى وخطاب لخلقه بأنّه الّذي خلقهم في الابتداء ﴿وإليه ترجعون﴾ في الآخرة إلى حيث لا يملك أحد النهي والأمر سواه.

وقوله: ﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ قال مجاهد: ﴿وما كنتم تستترون﴾ أي: تتّقون. وقال السدّي: معناه: لم تكونوا في دار الدنيا تستخفّون عن معاصي الله بتركها. وقيل: إنّ الآية نزلت في ثلاثة نفر تسارّوا، فقال بعضهم لبعض: أترى الله يسمع إسرارنا[٢]؟ وقال الفرّاء: معناه: لم تكونوا تخافون أن تشهد عليكم جوارحكم فتستتروا منها ولم تكونوا تقدروا على الاستتار منها، ويكون على وجه التعيير أي: ولم يكونوا تستترون منها[٣].

(١) تفسير الطبري ١١: ٩٩.
(٢) تفسير الطبري ١١: ١٠١.
(٣) معاني القرآن ٣: ١٦.

وقـوله: ﴿ولكن ظننتم أنّ الله لا يَعلَمُ كثيراً ممّا تعملون﴾ وصـف لهـؤلاء الكفّار بأنّهم ظنّوا أنّه تعالى يخفى عليه أسرارهـم ولا يـعلمها، فـبيّن الله بذلك جهلهم به تعالى، وإنّهم وإن علموه من جهة أنّه قـادر غـير عـاجز وعالم بما فعلوا فإذا ظنّوا أنّه يخفى عليه شيء مـنها فـهو جـاهل عـلى الحقيقة، [تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً][1] وفـي قـراءة عـبدالله ﴿ولكن زعمتم﴾ قال الفرّاء: الزعم والظنّ يكونان بمعنى واحد وقد يختلفان[2].

ثمّ حكى ما يخاطبهم به فإنّه يقال لهم: ﴿وذلكم ظنّكم﴾ معاشر الكفّار ﴿الّذي ظننتم بربّكم أرادكم﴾ أي: أهلككم يقال: ردى فلان يردي إذا هلك قال الأعشى:

أفي الطوفِ خِفْتِ عـليّ الردىَ وَكَمْ مِـنْ رَدٍ أهـلَهُ لم يَـرِمِ[3]

وقوله: ﴿فأصبحتم من الخاسرين﴾ معناه: فظللتم من جملة من خسـر في تجارته لأنّكم خسرتم الجنّة وحصل لكم النار.

ثمّ قال: ﴿فإن يصبروا فالنار مثوى لهم﴾ قال البلخي: معناه: فإن يتخيّروا المعاصي فالنار مصير لهم، وقال قوم: معناه: وإن يصبروا في الدنيا عـلى المعاصي فالنار مثواهم ﴿وإن يستعتبوا﴾ بضمّ «الياء» قرأ به عمرو، ومعناه: إن طلب منهم العتبى لم يعتبوا أي: لم يرجعوا ولم يـنزعوا. وقـال قـوم: المعنى فإن يصبروا أو يجزعوا فالنار مثوى لهم، ﴿وإن يستعتبوا﴾ مـعناه: فإن يجزعوا فيستعتبوا ﴿فماهم من المعتبين﴾ لأنّه ليس يستعتب إلّا من قد جزع ممّا قد أصابه، فطلب العتبى حينئذ، كما قـال: ﴿اصلوها فاصبروا أو

---

(١) مابين المعقوفتين ليس في الحجريّة.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٦.
(٣) شرح ديوان الأعشى : ٢٠٢.

لا تصبروا سواء عليكم﴾[١] ومعنى الآية ﴿فإن يصبروا﴾ على ماهم فيه فمقامهم في النار ﴿وإن يستعتبوا﴾ أي: وإن يطلبوا العتبى وهي الرضا ﴿فماهم من المعتبين﴾ أي: ليس بمرضيّ عنهم، لأنّ السخط من الله تعالى بكفرهم قد لزمهم وزال التكليف عنهم، فليس لهم طريق إلى الإعتاب، و«المعتب» الّذي قبل عتابه وأُجيب إلى ما سأل[٢].

وقوله: ﴿وقيّضنا لهم قرناء فزيّنوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ قال الحسن: معناه: خلّينا بينهم وبين الشياطين الّذين أغووهم ودعوهم إلى مااستوجبوا العقاب به. ولم نمنعهم منهم جزاءً على ما استحقّوه من الخذلان، فمعنى ﴿قيّضنا﴾ خلّينا ومكّنّا. قال الجبائي: «التقييض» إحواج بعض العباد إلى بعض كحاجة الرجل إلى المرأة، والمرأة إلى الرجل، وكحاجة الغنيّ إلى الفقير يستعمله وحاجة الفقير إلى أن يستعمله الغنيّ وغير ذلك من إحواج بعضهم إلى بعض. وقال قوم: «التقييض» المماثلة، و«المقايضة» المقايسة، قال الشمّاخ:

تذكّرت لما اثقل الدين كاهلي ... وغاب يزيد ما أردت تعذّرا
رجالاً مضواعنّي فلست مقايضاً ... بهم أبداً من سائر الناس معشرا[٣]

فالمعنى على هذا إنّا نضمّ إلى كلّ كافر قريناً له من الجنّ مثله في الكفر في نار جهنّم كما قال: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾[٤] ومعنى ﴿فزيّنوا لهم﴾ يعني: فعل أهل الفساد الّذين في زمانهم وفعل من كان قبلهم، وقيل: ﴿ما بين أيديهم﴾ من أمر الدنيا ﴿وما خلفهم﴾

---

(١) الطور: ١٦.
(٢) النكت والعيون ٥: ١٧٧.
(٣) ديوان الشمّاخ: ٤٨.
(٤) الزخرف: ٣٦.

من أمر الآخرة في قول الحسن والسدّي، وذلك بدعائهم إلى أنّه لابعث ولا جزاء[١]. وقال الفرّاء: ﴿فزيّنوا لهم ما بين أيديهم﴾ من أمر الآخرة فقالوا: لاجنّة ولا نار ولا بعث ولا حساب ﴿وماخلفهم﴾ من أمر الدنيا فزيّنوا لهم اللذّات وجمع الأموال وترك إنفاقها في سبيل الله[٢]. وقيل: زيّنوا لهم أعمالهم الّتي يعملونها، وهي ﴿ما بين أيديهم﴾ وزيّنوا لهم ما عزموا عليه أن يعملوه وهو ﴿ما خلفهم﴾[٣].

وقوله: ﴿وحقّ عليهم القول﴾ يعني: وجب عليهم القول بتصييرهم إلى العذاب الّذي كان أخبر أنّه يعذّب به من عصاه ﴿فى أمم قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس﴾ أي: حقّ على هؤلاء الكفّار وعلى أمم من الجنّ والإنس أنّهم متى عصوا الله حقّ القول بأنّهم يعاقبون. ثمّ قال تعالى: ﴿إنّهم كانوا خاسرين﴾ خسروا الجنّة وحصلت لهم النار.

قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾
فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ
جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ
أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

خمس آيات بلاخلاف.

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٢٩٢.
(٢) معاني القرآن ٣: ١٧.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٤.

[أقول][١] حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم يقول بعضهم لبعض ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن﴾ الّذي يقرؤه محمّدﷺ ولا تصغوا إليه ﴿والغوا فيه﴾ لكي تغلبوه، ويجوز أن تغلبوه، فـ«اللغو» هو الكلام الّذي لا معنى له يستفاد، وإلغاء الكلمة إسقاط عملها، ويقال: لغا يلغو لغواً ولغاً، قال الراجز:

عن اللغا ورفث التكلّم[٢]

وإذا كانت جملة الكلام لغواً لا فائدة فيه لم يحسن وإذا كان تأكيداً لمعنى تقدّم ـ وإن لم يكن له معنى نفسه مفرد ـ حسن لأنّه يجري مجرى المتمّم للكلمة الّتي تدلّ معها على المعنى، وإن لم يكن له معنى في نفسه. وقال مجاهد: قالوا خلطوا عليهم القول بالمكاء والصفير، وقال غيره: هو الضجيج والصياح[٣] وأقسم تعالى فقال: ﴿فلنذيقنّ الّذين كفروا﴾ بالله وجحدوا آياته ﴿عذاباً شديداً ولنجزينّهم أسوأ الّذي كانوا يعملون﴾ أي: المعاصي من جملة ما كانوا يعملون قيل: معناه: أسوأ الّذي كانوا يعملون من المعاصي من جملة ما كانوا يعملون دون غيرها ممّا لا يستحقّ به العقاب. وقال قوم: خصّ بذلك الكبائر زجراً وتغليظاً بعينها. واقتصر في الصغير على الجملة في الوعيد.

ثمّ قال: ﴿ذلك﴾ يعني: ما تقدّم الوعيد به ﴿جزاء أعداء الله﴾ الّذين عادوه بالعصيان وكفروا به وعادوا أولياءه من الأنبياء والمؤمنين وهي ﴿النار﴾ والكون فيها. فـ﴿النار﴾ رفع بأنّه بدل من قوله: ﴿ذلك﴾ جزاؤهم

(١) من الحجريّة.

(٢) مرّ في ٢/ ١٣٢، ١٦٤، ٢٣٠ و ٧/ ١٣٨ و ٨/ ١٦٣ أنشده في الصحاح ٦: ٢٤٨٣ ونسب في الهامش إلى العجّاج.

(٣) الكشف والبيان ٨: ٢٩٢.

وهو دخولهم فيها ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ أي: منزل دوام وتأبيد ﴿جزاء﴾ لهم وعقوبةً على كفرهم به تعالى في الدنيا وجحدهم لآياته. قال الفرّاء: هو كقولهم: لأهل الكوفة فيها دار صالحة، والدارهي الكوفة، وحسن ذلك لما اختلف لفظاهما، فكذلك قوله: ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار﴾ ثمّ قال: ﴿لهم فيها دار الخلد﴾ وهي النار بعينها(١). وفي قراءة عبدالله ﴿ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد﴾ فهذا بيّن لاشيء فيه لأنّ الدار هي النار، فأعداء الله العصاة الّذين يعاديهم الله ـ عزّ وجلّ ـ وليس هو من عداوة الإنسان لغيره إلّا أن يراد به أنّه يعمل عمل المعادي، كما قال: ﴿يخادعون الله والّذين آمنوا...﴾(٢).

ثمّ حكى ما يقول الكفّار أيضاً، فإنّهم يقولون: ﴿ربّنا أرنا اللذين أضلّانا من الجنّ والإنس﴾ قيل: أراد به إبليس الأبالسة وهو رأس الشياطين، وابن آدم الّذي قتل أخاه وهو قابيل، روي ذلك عن عليّ عليه السلام(٣) لأنّ قابيل أسّس الفساد في ولد آدم. وقيل: هم الدعاة إلى الضلال من الجنّ والإنس(٤).

وقوله: ﴿نجعلهما تحت أقدامنا﴾ إنّهم لشدّة عداوتهم وبغضهم لهم بما أضلّوهم وأغووهم يتمنّون أن يجعلوهما تحت أقدامهم ويطؤهم ﴿ليكونا من الأسفلين﴾ وقيل: المعنى فيكونا في الدرك الأسفل من النار(٥).

وقوله: ﴿إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا﴾ إخبار منه تعالى أنّ الّذين يقرّون بلسانهم بتوحيد الله ويصدّقون أنبياءه ويعترفون بالله يقولون: ﴿ربّنا الله ثمّ استقاموا﴾ أي: استمرّوا على ما توجبه الربوبيّة. وقال الحسن وقتادة

---

(١) معاني القرآن ٣: ١٧.
(٢) البقرة: ٩.
(٣) تفسير الطبري ١١: ١٠٥، الكشف والبيان ٨: ٢٩٣.
(٤) النكت والعيون ٥: ١٧٨.
(٥) تفسير الطبري ١١: ١٠٦.

وابن زيد: معناه: ثمّ استقاموا على طاعة الله ﴿تتنزّل عليهم الملائكة﴾ قال مجاهد والسدي: يعني عند الموت. وقال الحسن: تتنزّل عليهم الملائكة تستقبلهم إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة. ويقولون لهم: ﴿لاتخافوا﴾ عقاب الله ﴿ولاتحزنوا﴾ لفوات الثواب ﴿وأبشروا بالجنّة الّتي كنتم توعدون﴾ بها في دار الدنيا جزاءً على الطاعات. وموضع ﴿أن لا تخافوا﴾ النصب وتقديره: تتنزّل عليهم والملائكة بأن لا تخافوا فلمّا حذف الباء نصب، وفي قراءة عبدالله ﴿لاتخافوا﴾ بلا «أن» قبلها، وتقديره يقولون لهم: لاتخافوا، وقال مجاهد: معنى لاتخافوا على ما تقدّمون عليه من أمر الآخرة، ولاتحزنوا على ماتخلفونه في دار الدنيا. وقيل البشرى في ثلاثة مواضع: عند الموت، وفي القبر، وفي البعث[١].

قوله تعالى:

نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][٢]: لمّا حكى الله تعالى أنّ الملائكة تتنزّل على المؤمنين المستقيمين على طاعة الله التاركين لمعصيته وتبشّرهم بالجنّة وتؤمنهم من عقاب الله. ذكر أيضاً أنّهم يقولون لهم مع ذلك ﴿نحن أولياؤكم﴾ وهو جمع

(١) النكت والعيون ٥: ١٨٠.

(٢) من الحجريّة.

وليّ أي: أنصاركم وأحبّاؤكم في الحياة الدنيا وأولياؤكم أيضاً في الآخرة، ففي ذلك البشارة للمؤمنين بمودّة الملائكة لهم، وفي الآية بشارة لهم بنيل مشتهاهم في الجنّة. وتفيد الآية وجوب اعتقاد تودّد الملائكة إلى من كان مستقيماً على طاعاته. وفيها حجّة على شرف الاستقامة بالطاعة على كلّ ما عداه من أعمال العباد يتولّى الملائكة لصاحبه من أجله.

وقوله: ﴿ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم﴾ يعني: ما تشتهونه وتتمنّونه من المنافع والملاذّ حاصلة لكم ﴿ولكم فيها ما تدّعون﴾ أي: ما تستدعونه. وقيل معناه: ما تدّعي أنّه لك فهو لك بحكم الله لك بذلك[١].

وقوله: ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ تقديره: أنزلكم ربّكم في ما تشتهون من النعمة نزلاً، فيكون نصباً على المصدر. ويجوز أن يكون نصباً على الحال، وتقديره: لكم فيها ما تشتهي أنفسكم منزلاً كما تقول: جاء زيد مشياً تريد ماشياً. وقال الحسن: ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾ ليس منّا[٢]. وقيل: معناه: إنّ هذا الموعود به مع جلالته في نفسه له جلالة لمعطيه بعد أن غفر الذنب حتّى صار بمنزلة مالم يكن رحمة منه لعباده فهو أهنأ لك وأكمل للسرور به.

وقوله: ﴿ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنّني من المسلمين﴾ صورته صورة الاستفهام، ونصب ﴿قولاً﴾ على التفسير، ومعناه: النفي، وتقديره: وليس أحد أحسن قولاً ممّن دعا إلى طاعة الله وأضاف إلى ذلك أن يعمل الأعمال الصالحات، ويقول مع ذلك إنّني من المسلمين

---

(١) النكت والعيون ٥: ١٨٠.

(٢) في الحجريّة زيادة: «فهو أهنألك وأكمل للسرور به وهماً».

الّذين استسلموا لأمر الله وانقادوا إلى طاعته. وقيل: المعنيّ بالآية النبيّ ﷺ لأنّه الداعي إلى الله. وروي أنّها نزلت في المؤذّنين[١]. وفي الآية دلالة على من يقول: أنا مسلم إن شاء الله من أصحاب عبدالله بن مسعود، لأنّه لا أحد أحسن قولاً منه فيجب عليه أن يقول: إنّي مسلم ويقطع في الحكم إذا لم يكن فاسقاً.

ثمّ قال: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيّئة﴾ أي: لا يتماثلان، ودخلت «لا» في ﴿ولا السيّئة﴾ تأكيداً. وقيل: دخلت لتحقيق أنّه لا يساوي ذا ذاك، ولا ذاك ذا، فهو تبعيد المساواة[٢].

وقوله: ﴿أدفع بالّتي هي أحسن﴾ أمر للنبيّ ﷺ أن يدفع بالّتي هي أحسن، وقيل: معنى الحسنة هاهنا المداراة. والسيّئة المراد بها الغلظة. فأدّب الله تعالى عباده بهذا الأدب[٣]. ثمّ قال: ﴿فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم﴾ معناه: دارِ القوم ولا تغلظ عليهم حتّى كأنّ عدوّك الّذي يعاديك في الدين بصورة وليّك من حسن عشرتك له وبشرك له. ويدعو ذلك أيضاً عدوّك إلى أن يصير لك كالوليّ الحميم. وقيل: المراد إنّ من أساء إليك فأحسن إلى ليعود عدوّك وليّك وكأنّه حميمك. و«الحميم» القريب الّذي يحم لغضب صاحبه[٤].

وقوله: ﴿وما يلقّاها إلّا الّذين صبروا﴾ [معناه: ما يعطى هذه الخصلة في رفع السيّئة بالحسنة إلّا ذو نصيب فى الخير عظيم. وقيل][٥] معناه: وما يلقّاها يعني البشرى بالجنّة والأمان من العذاب إلّا الّذين صبروا على

---

(١ و٢) تفسير الطبري ١١: ١١٠.

(٣) النكت والعيون ٥: ١٨٢.

(٤) تفسير الطبري ١١: ١١١.

(٥) ما بين المعقوفتين ليس في الحجريّة.

طاعة الله والجهاد في دينه ﴿وما يلقّاها﴾ أيضاً ﴿إلّا ذو حظّ عظيم﴾ من الثواب والخير وقد لقي الله تعالى جميع الخلق مثل ما لقي من صبر، غير أنّ فيهم من لم يتلقّه كما يتلقّاه من صبروا وقبلوا ما أمرهم الله به.

قوله تعالى:

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِالَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: قوله: ﴿وإمّا ينزغنّك﴾ أصله «إن» الّتي للشرط وزيد عليها «ما» تأكيداً فأشبه ذلك القسم، فلذلك دخلت نون التأكيد في قوله: ﴿ينزغنّك﴾ كما تقول: والله ليخرجنّ. و«النزغ» النخس بما يدعو إلى الفساد ومنه قوله: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾[2] فنزغ الشيطان وسوسته ودعاؤه إلى معصية الله بإيقاع العداوة بين من يجب موالاته، يقال نزغ نزغاً فهو نازغ بين رجلين. وفلان ينزغ فلاناً كأنّه ينخسه بما يدعوه إلى خلاف الصواب. والمعنى وإنّ ما يدعوك إلى المعاصي نزغ من الشيطان بالإغواء والوسوسة ﴿فاستعذ بالله﴾ ومعناه:

---

(١) من الحجريّة.

(٢) يوسف: ١٠٠.

أُطلب الاعتصام من شرّه من جهة الله واحذر منه وامتنع من جهته بقوّة الله، فنحن نستعيذ بالله من شرّ كلّ شيطان وشرّ كلّ ذي شرّ من إنس وجانّ.

وقوله: ﴿إنّه هو السميع العليم﴾ يعني: إنّه سميع لأقوالكم من الاستعاذة وغيرها عليم بضمائركم قادر على إجابة دعائكم. وقوله: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر﴾ معناه: ومن أدلّته وحججه الباهرة الدالّة على توحيده وصفاته الّتي باين بها خلقه الليل بذهاب الشمس عن بسيط الأرض والنهار بطلوعها على وجهها بالمقادير الّتي أجريا عليه ورتّبا فيه بما يقتضي تدبير عالم بهما قادر على تصريفهما، لأنّ ذلك لايقدر عليه غير الله. والشمس والقمر وجه الدلالة فيهما أنّ الأجرام الثقيلة لاتقف بغير عمد ولاتنصرف على غير قرار ولا عماد إلّا أن يصرفهما قادر ليس كالقادرين من الأجسام الّتي تحتاج في نقلها وتمسّكها إلى غيرها، وكلّ جسم ثقيل يصرّف من غير عماد فمصرّفه هو الله تعالى. والأفعال الدالّة على الله تعالى على وجهين:

أحدهما: ما لا يقدر عليه إلّا هو كخلق الحياة والقدرة والأجسام وغير ذلك.

والآخر: أنّه إذا وقع على وجه مخصوص لا يتأتّى من القادر بقدرة وإن كان جنسه مقدوراً للعباد كتسكين الأرض من غير عمد وتصرّف الشمس والقمر بكونها مرّة صاعدة ومرّة هابطة ومرّة طالعة ومرّة غاربة مع ثقل أجرامهما وبُعدهما من عماد لها أعظم دلالة على أنّ لهما مصرّفاً ومدبّراً لايشبههما ولايشبهه شيء. قال تعالى: ﴿لاتسجدوا للشمس ولا للقمر﴾ كما يفعل قوم من المجوس، بل ﴿اسجدوا لله الّذي خلقهنّ﴾ وأنشأهنّ. وإنّما

قال: ﴿خلقهنّ﴾ لأنّه أُجري مجرى جمع التكسير، ولم يغلب المذّكر على المؤنّث، لأنّه في مالا يعقل. وقال الزجّاج: تقديره الّذي خلق هذه الآيات[١] ﴿إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ أي: إن كنتم تقصدون بعبادتكم الله فوجّهوا العبادة إليه دون الشمس والقمر.

ثمّ قال: ﴿فإن استكبروا﴾ يعني: هؤلاء الكفّار أي: تكبّروا عن توجيه العبادة إلى الله وأبوا إلّا عبادة الأصنام ﴿فالّذين عند ربّك﴾ يعني: من الملائكة ﴿يسبّحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون﴾ أي: لا يفترون من عبادته ولا يملّونه. والسجود عند أصحابنا عند قوله: ﴿إن كنتم إيّاه تعبدون﴾ وهو مذهب أبي عمرو بن العلا. وعند الباقين عند قوله: ﴿وهم لا يسأمون﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿ومن آياته﴾ أي: من أدلّته الدالّة على توحيده وإخلاص العبادة له ﴿إنّك ترى الأرض خاشعة﴾ يعني غبراء دارسة متهشّمة في قول قتادة والسدّي، و«الخاشع» الخاضع فكان حالها حال الخاضع المتواضع ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت﴾ أي: تحرّكت بالنبات ﴿وربت﴾ قال السدّي: معناه: انفتحت وارتفعت قبل أن تنبت. وقرئ ﴿ربأت﴾ بمعنى: عظمت، ومعنى ربأت ارتفعت ذكره الزجّاج[٢].

ثمّ قال: ﴿إنّ الّذي أحياها﴾ يعني: من أحيا الأرض بما أنزله من الماء حتّى تنبت ﴿لمحيي الموتى﴾ مثل ذلك بعد أن كانوا أمواتاً ويردّ فيها الأرواح، لأنّه قادر على ذلك. ومن قدر على ذلك قدر على هذا، لأنّه ليس أحدهما بأعجب من الآخر ﴿إنّه على كلّ شيء قدير﴾ يصحّ أن يكون مقدوراً له، وهو قادر لا تتناهى مقدوراته.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٧.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٨٨.

ثمّ قال: ﴿إنّ الّذين يلحدون في آياتنا﴾ معناه: الّذين يميلون عن الحقّ في أدلّتنا يقال: ألحد يلحد إلحاداً وقيل: لحد يلحَد أيضاً. وقال مجاهد: معناه: ما يفعلونه من المكاء والصفير. وقال أبو روق: يعني الّذين يقعون فيه ﴿لايخفون علينا﴾ بل نعلمهم على التفصيل لايخفى علينا شيء من أحوالهم.

ثمّ قال على وجه الإنكار عليهم والتهجين لفعلهم والتهديد لهم: ﴿أفمن يلقى في النار﴾ جزاء على كفره ومعاصيه ﴿خير أم من يأتي آمناً﴾ من عذاب الله جزاء على معرفته بالله وعمله بالطاعات. ثمّ قال: ﴿اعملوا ماشئتم﴾ ومعناه: التهديد وإن كان بصورة الأمر، لأنّه تعالى لم يخيّرنا[1] أن نفعل ما شئنا بل نهانا عن القبائح كلّها. ثمّ قال: ﴿إنّه بما تعملون بصير﴾ أي: عالم بأفعالكم لايخفى عليه شيء منها فيجازيكم بحسبها.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][2]: قرأ ﴿أعجميّ وعربيّ﴾ على الخبر حفص والحلواني عن

---

(١) في الحجريّة، لم يبحنا.

(٢) من الحجريّة.

هشام وابن مجاهد عن قنبل في غير رواية ابن الحمامي عن بكّار. الباقون بهمزتين. وخفّفهما أهل الكوفة إلّا حفصاً وروح. والباقون بتخفيف الأُولى وتليين الثانية. وفصّل بينهما بألف أهل المدينة إلّا ورشاً وأبوعمر. ومن قرأ بلفظ الاستفهام أراد الإنكار فأدخل حرف الاستفهام على ألف ﴿أعجمي﴾ وهي ألف قطع، ومن حقّقها فلأنّها الأصل. ومن خفّفهما أو فصّل بينهما فلكراهة اجتماع الهمزتين. ومن قرأ على الخبر، فالمعنى هلّا كان النبيّ عربيّاً والقرآن أعجميّاً. والنبيّ أعجميّاً والقرآن عربيّاً، فكأن يكون أقهر في باب الإعجاز.

يقول الله تعالى مخبراً: ﴿إنّ الّذين كفروا بالذكر﴾ الّذي هو القرآن وجحدوه وسمّي القرآن ذكراً، لأنّه تذكر به وجوه الدلائل المؤدّية إلى الحقّ، والمعاني الّتي يعمل عليها فيه. وأصل «الذكر» ضدّ السهو وهو حضور المعنى للنفس ﴿لمّا جاءهم﴾ أي: حين جاءهم، وخبر «إنّ» محذوف، وتقديره: إنّ الّذين كفروا بالذكر هلكوا به وشقوا به نحوه. وقيل تقديره: إنّ الّذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم كفروا به، فحذف لدلالة الكلام عليه[١]. وقيل خبره ﴿أولئك ينادون من مكان بعيد﴾ وقيل قوله: ﴿وإنّه لكتاب عزيز﴾ في موضع الخبر، وتقديره: الكتاب الّذي جاءهم عزيز[٢] وقوله: ﴿وإنّه﴾ الهاء كناية عن القرآن، والمعني: وإنّ القرآن لكتاب عزيز بأنّه لايقدر أحد من العباد على أن يأتي بمثله، ولا يقاومه في حججه على كلّ مخالف فيه. وقيل: معناه: إنّه عزيز بإعزاز الله ـ عزّ وجلّ ـ إيّاه إذ حفظه من التغيير والتبديل[٣]. وقيل: هو عزيز حيث جعله على أتمّ صفة

---

(١) الكشف والبيان ٨: ٩٩.

(٢) معاني القرآن للأخفش ٢: ٦٨٤.

(٣) تفسير الطبري ١١: ١١٦.

الإحكام وقيل: معناه: إنّه منيع من الباطل بما فيه من حسن البيان ووضوح البرهان، ولأنّ أحكامه حقّ يقضي بصحّتها العقل[١].

وقوله: ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ قيل في معناه أقوال خمسة:

أحدها: إنّه لا تعلّق به الشبهة من طريق المشاكلة، ولا الحقيقة من جهة المناقضة وهو الحقّ المخلص والّذي لا يليق به الدنس.

والثاني: قال قتادة والسدّي: معناه: لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقّاً ولا يزيد فيه باطلاً.

الثالث: إنّ معناه: لا يأتي بشيء يوجب بطلانه ممّا وجد قبله ولا معه ولا ممّا يوجد بعده. وقال الضحّاك: لا يأتيه كتاب من بين يديه يبطله ولا من خلفه أي: ولا حديث من بعده يكذبه.

الرابع: قال ابن عبّاس: معناه لا يأتيه الباطل من أوّل تنزيله ولا من آخره.

والخامس: إنّ معناه: لا يأتيه الباطل في إخباره عمّا تقدّم ولا من خلفه ولا عمّا تأخر[٢].

ثمّ وصف تعالى القرآن بأنّه ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ فالحكيم هو الّذي أفعاله كلّها حكمة فيكون من صفات الفعل، ويكون بمعنى العالم بجميع الأشياء وأحكامها فيكون من صفات الذات. و ﴿الحميد﴾ هو المحمود الّذي يستحقّ الحمد والشكر على جميع أفعاله لأنّ أفعاله كلّها نعمة يجب بها الشكر.

---

(١) راجع تفسير السمر قندي ٣: ٢٢٩.

(٢) النكت والعيون ٥: ١٨٥.

وقوله: ﴿ما يقال لك إلّا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: من الدعاء إلى الحقّ في عبادة الله تعالى ولزوم طاعته.

والثاني: ما حكاه تعالى بعده من ﴿إنّ ربّك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾ فيكون على جهة الوعد والوعيد.

والثالث: قال قتادة والسدّي: وهو تعزية للنبيّ ﷺ بأنّ ما يقول لك المشركون مثل ما قال من قبلهم من الكفّار لأنبيائهم من التكذيب والجحد لنبوّتهم[١].

وقوله: ﴿إنّ ربّك لذو مغفرة وذو عقاب أليم﴾ أي: وقد يفعل العقاب بالعصاة من الكفّار قطعاً ومن الفسّاق على تجويز عقابهم، فلا ينبغي أن يغترّوا ويجب عليهم أن يتحرّزوا بترك المعاصي وفعل الطاعات.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولو جعلناه﴾ يعني الذكر الّذي قدّم ذكره ﴿قرآناً أعجميّاً﴾ أي: مجموعاً بلغة العجم، يقال: رجل أعجمي إذا كان لا يفصح وإن كان عربي النسب، وعجمي إذا كان من ولد العجم وإن كان فصيحاً بالعربيّة. قال أبو علي: يجوز أن يقال: رجل أعجمي يراد به أعجم بغير «ياء» كما يقال: أحمري وأحمر، ودوّاري ودوّار[٢]. ﴿قالوا لولا فصّلت آياته﴾ ومعناه: هلّا فصّلت آياته وميّزت. وقالوا: ﴿أعجميّ وعربيّ﴾ أي: قالوا القرآن أعجمي ومحمّد عربي ـ ذكره سعيد بن جبير ـ وقال السدّي: قالوا أعجمي وقوم عرب. ومن قرأ على الخبر حمله على أنّهم يقولون ذلك مخبرين. ومن قرأ على الاستفهام أراد أنّهم يقولون ذلك على وجه الإنكار. وإنّما قوبل الأعجمي في الآية بالعربي، وخلاف العربي العجمي

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٢٣٠.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٥٧.

لأنّ الأعجمي في أنّه لا يبيّن مثل العجمي عندهم من حيث اجتمعا في أنّهما لا يبيّنان، قوبل به العربي في قوله: ﴿أعجمي وعربي﴾ وحكى إنّ الحسن قرأ ﴿أعجمي﴾ بفتح العين قابل بينه وبين قوله: ﴿وعربي﴾ فقال الله تعالى لنبيّه: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿هو﴾ يعني: القرآن ﴿للّذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوا بتوحيده وأقرّوا بنبوّة نبيّه ﴿هدى﴾ يهتدون به ﴿وشفاء﴾ من سقم الجهل ﴿والّذين لا يؤمنون﴾ بالله ولا يصدّقون بتوحيده ﴿فى آذانهم وقر﴾ يعني: ثقل إذ هم بمنزلة ذلك من حيث لم ينتفعوا بالقرآن فكأنّهم صمّ أو في آذانهم ثقل ﴿وهو عليهم عمىً﴾ حيث ضلّوا عنه وحاروا عن تدبّره فكأنّه عمىً لهم. وقوله: ﴿أُولئك ينادون من مكان بعيد﴾ على وجه المثل، فكأنّهم الّذين ينادون من مكان بعيد ويسمعوا الصوت ولا يفهموا المعنى من حيث لم ينتفعوا به. وقال مجاهد: لبُعده عن قلوبهم. وقال الضحّاك: ينادون الرجل في الآخرة بأشنع أسمائه. وقيل: معناه: أُولئك لا يفهمون ذلك كما يقال لمن لا يفهم شيئاً: كأنّك تنادى من مكان بعيد[1].

ثمّ أقسم تعالى بأنّه آتى ﴿موسى الكتاب﴾ يعني التوراة ﴿فاختلف فيه﴾ لأنّه آمن به قوم وجحدوه آخرون، تسلية للنبيّ ﷺ عن جحود قومه وإنكارهم نبوّته.

ثمّ قال: ﴿ولو لا كلمة سبقت من ربّك﴾ في أنّه لا يعاجلهم بالعقوبة وأنّه يؤخّرهم إلى يوم القيامة ﴿لقضي بينهم﴾ أي: لفصّل بينهم بما يجب من الحكم. ثمّ أخبر عنهم فقال: ﴿وإنّهم لفي شكّ منه﴾ يعني: ممّا ذكرناه ﴿مريب﴾ يعني: أقبح الشكّ لأنّ الريب أفظع الشكّ. وفي ذلك دلالة على

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٢٣١.

جواز الخطأ على أصحاب المعارف، لأنّه تعالى بيّن أنّهم في شكّ وأنّهم يؤاخذون مع ذلك.

قوله تعالى:

مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١] قرأ اهل المدينة وابن عامر وحفص ﴿ثمرات﴾ على الجمع. الباقون ﴿ثمرة﴾ على التوحيد. من قرأ على الجمع فلاختلاف أجناس الثمار، ولأنّه في المصاحف مكتوباً بتاء ممدودة. ومن وحّده قال: الثمرة تفيد الجمع والتوحيد فلا يحتاج إلى الجمع، لأنّه في مصحف عبدالله مكتوب بالهاء. والأكمام جمع «كمّ» في قول الفرّاء[٢] و «كمّة» في قول أبي عبيدة[٣]. وهي الكُفرّي. قال ابن خالويه: يجوز أن يكون الأكمام جمع «كمّ» و «كمّ» جمع كمّة، فيكون جمع الجمع.

يقول الله تعالى: ﴿من عمل صالحاً﴾ أي: فعل فعلاً، هي طاعة ﴿فلنفسه﴾ لأنّ ثوابه واصل إليه، وهو المنتفع به دون غيره ﴿ومن أساء﴾

---

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠.
(٣) مجاز القرآن ٢: ١٩٨.

يعني: فعل فعلاً قبيحاً، من الإساءة إلى غيره أو غيرها ﴿فعليها﴾ أي: فعلى نفسه لأنّ وبال ذلك وعقابه يلحقه دون غيره.

ثمّ قال تعالى على وجه النفي عن نفسه: ما لا يليق به من فعل القبيح والتمدّح به ﴿وما ربّك﴾ أي: وليس ربّك ﴿بظلّام للعبيد﴾ وإنّما قال: ﴿بظلّام﴾ على وجه المبالغة في نفي الظلم عن نفسه مع أنّه لا يفعل مثقال ذرّة لأمرين:

أحدهما: إنّه لو فعل فاعل الظلم، وهو غير محتاج إليه مع علمه بقبحه وبأنّه غنيّ لكان ظلّاماً، وما هو تعالى بهذه الصفة لأنّه غنيّ عالم.

الثاني: إنّه على طريق الجواب لمن زعم أنّه يفعل ظلم العباد. فقال: ماهو بهذه الصفة الّتي يتوهّمها الجّهال، فيأخذ أحداً بذنب غيره. و«الظلّام» هو الفاعل لما هو من أفحش الظلم. و«الظالم» من فعل الظلم، وظالم صفة ذمّ، وكذلك قولنا فاعل الظلم هما سواء، وكذلك آثم فاعل الإثم، وسيّء فاعل الإساءة.

وقوله: ﴿إليه يردّ علم الساعة﴾ معناه: إليه يردّ علم الساعة الّتي يقع فيها الجزاء للمطيع والعاصي فاحذروها قبل أن تأتي، كما يردّ إليه علم إخراج الثمار وما يكون من الأولاد والنتاج، فذاك غائب عنكم وهذا مشاهد لكم، وقد دلّ عليه ولزم، وكلّ من سئل متى قيام الساعة؟ وجب أن يقول: الله تعالى العالم به حتّى يكون قد ردّه إلى الله ﴿وما تخرج من ثمرات من أكمامها﴾ معناه: وعنده علم ذلك. و«أكمام الثمرة» وعائها الّذي تكون فيه. وقيل: الأكمام جمع كمّة، وهو الطرف المحيط بالشيء. وقال الحسن: الأكمام هاهنا: ليف النخيل. وقيل: من أكمامها معناه: خروج الطلع من قشره[1]

(١) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩٠، تفسير السمرقندي ٣: ٢٣١.

﴿وما تحمل من أنثى وما تضع إلّا بعلمه﴾ أي: وعنده تعالى علم ما تحمله كلّ أُنثى من حمل ذكراً كان أو أُنثى ولا تضع الأُنثى إلّا بعلمه أي: إلّا في الوقت الّذي علمه أنّه تضع فيه.

وقوله: ﴿ويوم يناديهم أين شركائي﴾ أي: ويوم يناديهم مناد أين شركاء الله الّذين كنتم تعبدونهم من دون الله ﴿قالوا آذنّاك مامنّا من شهيد﴾ معناه: إنّهم يقولون أعلمناك مامنّا من شهيد لمكانهم.

ثمّ بيّن ذلك فقال: ﴿وضلّ عنهم ماكانوا يدعون من قبل وظنّوا ما لهم من محيص﴾ قال السدّي: معناه: أيقنوا. وقال ابن عبّاس: آذنّاك معناه: أعلمناك. وقيل: المنادي هو الله تعالى(١) وقال السدّي: ما منّا من شهيد إنّ لك شريكاً. وقيل: معنى «آذنّاك» أقررنا لك ما منّا من شهيد بإله معك. وقيل: قوله: آذنّاك من قول المعبودين ما منّا من شهيد لهم بما قالوا(٢) وقيل هذا: من قول العابدين ما منّا من شهيد بأنّهم آلهة(٣). وقال آخرون: يجوز أن يكون العابدون والمعبودون يقولون ذلك(٤) وقوله: ﴿وظنّوا ما لهم من محيص﴾ أي: أيقنوا ليس لهم من مخلص. ودخل الظنّ على «ما» الّتي للنفي كما تدخل «علمته» على لام الابتداء، وكلاهما له صدر الكلام.

وقوله: ﴿لا يسأم الإسنان من دعاء الخير﴾ أي: لا يملّ الإنسان من طلب المال وصحّةالجسم وهو قول ابن‌زيد. وقال‌بعضهم: معناه: لا يملّ الإنسان من الخير الّذي يصيبه(٥) ﴿وإن مسّه الشرّ﴾ أي: إن ناله بذهاب مال أو سقم في جسمه ﴿فيؤس قنوط﴾ أي: يقنط من رحمة الله وييأس من روحه، ففي

---

(١ و٤) الكشف والبيان ٨: ٢٩٩.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٠.
(٣) تفسير الطبري ١١: ١٢٢.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٣٩١.

ذلك إخبار عن سرعة تحوّل الإنسان وتنقّله من حال إلى حال.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه رحمة منّا﴾ يعني: لئن أذقنا الإنسان نعمة وأنلناه إيّاها ﴿من بعد ضرّاء مسّته﴾ أي: من بعد شدّة لحقته ﴿ليقولنّ هذا لي﴾ قال مجاهد: يقول أنا حقيق بهذا الفعل ﴿وما أظنّ الساعة قائمة...﴾ ولو قامت لكان لي الحسنى يعني الجنّة. فقال الله تعالى على وجه التهديد لمن هذه صفته فلنذيقنّ الّذين كفروا عذاباً شديداً أي: فلنجزينّهم يعني الكفّار بعد أن نعلمهم ما عملوه من كفرهم ومعاصيهم ثمّ نجازيهم عليها بأن نذيقهم من عذاب غليظ قدر ما يستحقّونه.

قوله تعالى:

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ (٥٤) أربع آيات بلاخلاف.

[أقول][١] أخبر الله تعالى عن جهل الإنسان الّذي تقدّم وصفه بمواضع نعم الله وما يجب عليه من الاعتراف بشكره، بتركه النظر المؤدّي إلى معرفته فقال: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بنعمة من إعطاء مال أو ولد أو صحّة جسم ﴿أعرض﴾ عن القيام بشكر الله على ذلك حسب ما يلزمه ﴿وَنَأَ بجانبه﴾ أي: بَعد بجانبه كبراً وتجبّراً عن الاعتراف بنعم الله. وقيل: معناه: وبعد عن الواجب[٢] ﴿وإذا مسّه الشرّ﴾ يعني: إذا ناله مرض أو مصيبة في

---

(١) من الحجريّة.
(٢) راجع النكت والعيون ٥: ١٨٨.

مال أو نفس ﴿فذو دعاء عريض﴾ قال السدّي: يدعو الله كثيراً عند ذلك. وإنّما قال: ﴿فذو دعاء عريض﴾ ولم يقل طويل، لأنّه أبلغ، لأنّ العَرض يدلّ على الطول، ولا يدلّ الطول على العرض إذ قد يصحّ طويل ولا عرض له. ولا يصحّ عريض ولا طول له، لأنّ العرض الانبساط في خلاف جهة الطول، والطول الامتداد في أيّ جهة كان.

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبّرة: إنّه ليس لله على الكافر نعمة، لأنّه أخبر تعالى بأنّه ينعم عليه وأنّه يعرض عن موجبها من الشكر وفي دعائه عند الشدّة حجّة عليه، لأنّه يجب من أجل قلّة صبره على الشدّة أن يشكر برفعها عنه إلى النعمة.

فقال الله تعالى لهم على وجه الإنكار عليهم: ﴿قل أرأيتم إن كان﴾ هذه النعمة ﴿من عند الله وكفرتم به﴾ أي: وجحدتموه ﴿من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد﴾ أي: في مشاقّة الله بخلافه له بعيد عن طاعته. و«الشقاق» الميل إلى شقّ العداوة لأهل الحق[1] كأنّه قال لا أحد أضلّ ممّن هو في شقاق بكفره، وبه يذمّ من كان عليه، كما قال عليّ عليه السلام: «يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الاخلاق»[2] وقيل: الشقاق فراق الحقّ إلى العداوة وأهله.

وقوله: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ معناه: إنّ الدلائل في آفاق السماء بسير النجوم وجريان الشمس والقمر فيها بأتمّ التدبير، وفي

(١) في الحجريّة: للحقّ.

(٢) لم نجد هذا الكلام منسوباً إلى عليّ عليه السلام بل وجدناه منسوباً إلى الحجّاج كما في البيان والتبيين ٢: ١٢٠.

أنفسهم جعل كلّ شيء لما يصلح له من آلات الغذاء ومخارج الأنفاس ومجاري الدم وموضع العقل والفكر وسبب الإفهام وآلات الكلام. وقال السدّي: آياتنا في الآفاق بصدق ما يخبر به النبيّ ﷺ من الحوادث عنها وفي ما يحدث من أنفسهم، وإذا رأوا ذلك تبيّنوا وعلموا أنّ خبره حقّ، وأنّه من قبل الله تعالى.

وقوله: ﴿أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد﴾ أي: هو عالم لجميع ذلك والباء زائدة، والتقدير: أو لم يكف ربّك أنّه عالم بجميع الأشياء. والمعنى: أليس في الله كفاية في معاقبة هؤلاء الكفّار على كفرهم إذ كان عالماً بكلّ شيء مشاهداً لجميع ما يفعلونه قادراً على مجازاتهم عليه، وكما أنّه شهيد على ذلك، هو شهيد على جميع الحوادث ومشاهد لجميعها وعالم بها لا يخفى عليه شيء من موضعها.

وقوله: ﴿إنّه﴾ يحتمل أن يكون موضعه رفعاً بـ﴿يكف﴾ ويحتمل أن يكون جرّاً بالباء. وتقديره: بأنّه على كلّ شيء شهيد.

ثمّ قال: ﴿ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم﴾ أي: هم في شكّ من لقاء ثواب ربّهم وعقابه، لأنّهم في شكّ من البعث والنشور ﴿ألا إنّه بكل شيء محيط﴾ أي: هو عالم بكلّ شيء قادر عليه.

# سورة الشورى

مكّية في قول قتادة ومجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ، وهي ثلاث وخمسون آية في الكوفي، وخمسون في البصري والمدنيّين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَافِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥

خمس آيات في الكوفي وثلاث في ما عداه عدّ الكوفيّون ﴿حمٓ﴾ وعدّوا ﴿عٓسٓقٓ﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول][1]: قال أبو عبدالله بن خالويه سألت ابن مجاهد فقلت: إنّ القاف أبعد من الميم، فَلِم أظهر حمزةُ النونَ عند الميم في ﴿طسٓمٓ﴾[2] ولم يظهرها عند القاف في ﴿عٓسٓقٓ﴾ فقال: والله ما فكّرت في هذا قطّ. قال أبوعبدالله: الحجّة في ذلك إنّ ﴿طسٓمٓ﴾[3] أوّل سورة النمل ثمّ جاءت

---

(١) من الحجريّة. (٢) الشعراء: ١، القصص: ١.

(٣) كذا، ولكن في أوّل سورة النمل ﴿طسٓ﴾.

سورتان فيهما الميم، فبيّن ليعلم أنّ الميم زائدة على هجاء السين واتّفق أهل الكوفة على أن لم يفردوا السين بين حرفين في الكلام هذا على الأصل. وأمّا الحجّة من جهة التخفّي، فإنّ النون تُدغم في الميم وتخفى عند القاف والمخفيّ بمنزلة المظهر[١] فلمّا كره التشديد في ﴿طسٓمٓ﴾ أظهروا لما كان المخفيّ بمنزلة الظاهر ولم يحتج إلى إظهار القاف، قال الفرّاء: ذكر عن ابن عبّاس إنّه قال: ﴿حمٓسٓقٓ﴾ بلا عين. وقال السين كلّ فرقة تكون والقاف كلّ جماعة تكون. قال الفرّاء: وكانت في بعض مصاحف عبدالله مثل ذلك[٢]. وقرأ ابن كثير وحده ﴿يوحى إليك﴾ بفتح الحاء على ما لم يسمّ فاعله، فعلى هذا يكون اسم الله مرتفعاً بمحذوف يدلّ عليه المذكور قال الشاعر:

لِيُبكَ يَزيدُ ضارعٌ لخُصومةٍ ومُختبِطٌ ممّا تُطيحُ الطَّوائحُ[٣]

أى يبكيه ضارع، فيكون التقدير يوحى إليك يوحي الله. قال أبو عليّ: ذكر أنّ مثل هذه السورة أُوحي إلى من تقدّم من الأنبياء، فعلى هذا يكون التقدير يوحي إليك هذه السورة كما أُوحي إلى الّذين[٤]. وقال الزجّاج والفرّاء: يقال إنّ ﴿حمٓعٓسٓقٓ﴾ أُوحيتْ إلى كلّ نبيّ كما أُوحيتْ إلى محمّد صلى الله عليه وآله قال ابن عبّاس: وبها كان عليّ عليه السلام يعلم الفتن. وقرأ الباقون يوحي بكسر «الحاء» فيكون على هذا اسم الله مرتفعاً بأنّه فاعل ﴿يوحي﴾[٥] وقد قرئ شاذّاً ﴿نوحي﴾ بالنون مع كسر الحاء، فعلى هذا يحتمل رفع اسم الله لوجهين:

---

(١) في الحجريّة: الظاهر.
(٢ و ٤) معاني القرآن ٣: ٢١،١.
(٣) أنشده سيبويه في كتابه ١: ٢٨٨، ٣٦٦، ٣٩٨ ونسبه إلى حارث بن نَهيك والصواب أنّه لنهشل ابن حرّى كما في خزانة الأدب ١: ٣٠٣ و ٣٠٩.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٣.

أحدهما: أن يكون رفعاً بالابتداء.

والثاني: أن يكون مرتفعاً بفعل مقدّر يدلّ عليه ﴿يوحى﴾ الأوّل، كما قلناه في من فتح الحاء. ويجوز أن يكون بدلاً من الضمير. ويجوز أن يجعل اسم الله خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هو الله العزيز الحكيم. وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر ﴿يكاد﴾ بالياء ﴿يتفطّرن﴾ بالياء والنون، لأنّ تأنيث السماوات غير حقيقي، وقد تقدّم الفعل ولذلك أنت ﴿يتفطّرن﴾ لما تأخّر الفعل عن السماوات، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة في رواية حفص ﴿تكاد﴾ بالتاء لتأنيث السماوات ﴿ويتفطّرن﴾ بالياء والنون لما قدّمناه. وقرأ نافع والكسائي ﴿يكاد﴾ بالياء لما قلناه من أنّ التأنيث غير حقيقي ﴿يتفطّرن﴾ بياء وتاء، و ﴿يتفطّرن﴾ في معني تنفطر وهو مضارع فطرته فتفطّر وفطرته بالتخفيف فانفطر. ومعنى: يتفطّرن يتشقّقن.

قيل: إنّما عدّوا ﴿حمٓ﴾ و ﴿عٓسٓقٓ﴾ آية ولم يعدّ ﴿طسٓ﴾ لأنّ ﴿طسٓ﴾ لمّا انفرد عن نظيره من ﴿طسٓمٓ﴾ فأشبه الاسم حمل عليه، ولمّا لم ينفرد ﴿حمٓ﴾ عن نظيره جرى عليه حكم الجملة التامّة الّتي تعدّ آية من أجل أنّها آية. فلمّا اجتمع في ﴿طسٓ﴾ الانفراد عن النظير وأشبه قابيل وكلّ واحد من هذين الوجهين يقتضي مخالفة حكم ﴿طسٓمٓ﴾ وجب الخلاف. وأمّا انفراد ﴿حاميم﴾ بالزنة فقط، لم يجب الخلاف كما وجب في ما اجتمع فيه سببان. وفي ﴿حمٓ﴾ من الفائدة تعظيم الله ـ عزّ وجلّ ـ السورة وتسميتها وتشريفاً لها وتنويهاً باسمها وإجراؤها في التفصيل مجرى ما يعقل في فضله على ما لا يعقل من الأجسام والأعراض. وقيل: إنّ ﴿حمٓ

عٓسٓقٓ﴾ انفردت بأنّ معانيها أُوحيت إلى سائر الأنبياء، فلذلك خصّت بهذه التسمية. وقيل: إنّما فصل ﴿حمٓ عٓسٓقٓ﴾ من سائر الحواميم بـ﴿عٓسٓقٓ﴾ لأنّ جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح به إلّا هذه السورة فإنّه دلّ عليه دلالة التضمين بذكر الوحي الّذي يرجع إلى الكتاب، والوحي أعمّ من الكتاب في معناه إلّا أنّه دالّ في هذا الموضع على الكتاب بهذه الصفة.

وقوله: ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الّذين من قبلك﴾ قيل: في المشبّه به في قوله: ﴿كذلك﴾ وجهان:

أحدهما: كالوحي الّذي تقدّم يوحي إليك.

والثاني: هذا الوحي الّذي يأتي في هذه السورة يوحى إليك، لأنّ ما لم يكن حاضراً يراه صلح فيه «هذا» لقرب وقته و«ذلك» لبعده في نفسه. ومعنى التشبيه في ﴿كذلك﴾ أنّ بعضه كبعض في أنّه حكمة وصواب بما تضمّنه من الحجج والمواعظ والفوائد الّتي يعمل عليها في الدين ﴿وإلى الّذين من قبلك﴾ معناه: مثل ذلك أُوحى إلى الّذين من قبلك من الأنبياء وتعبّدهم[1] بشريعة كما تعبّدك بمثل ذلك.

وقوله: ﴿العزيز الحكيم﴾ معناه: القادر الّذي لا يغالب، الحكيم في جميع أفعاله. ومن كان بهاتين الصفتين خلصت له الحكمة في كلّ ما يأتي به، لأنّه العزيز الّذي لا يغالب والغنيّ الّذي لايحتاج إلى شيء، ولا يجوز أن يمنعه مانع ممّا يريده، وهو الحكيم العليم بالأُمور لايخفى عليه شيء منها لايجوز أن يأتي إلّا بالحكمة. فأمّا الحكيم غيره يحتاج فلايوثق بكلّ ما يأتي به إلّا أن يدلّ على ذلك الحكمة دليل.

(١) في الحجريّة: أبعثهم.

قوله: ﴿له ما في السموات والأرض﴾ معناه: أنّه مالكهما ومدبّرهما وله التصرّف فيهما ولا أحد له منعه من ذلك ويكون ﴿العليّ﴾ مع ذلك بمعنى المستعلي على كلّ قادر العظيم في صفاته الّتي لا يشاركه فيها أحد.

وقوله: ﴿تكاد السموات يتفطّرن من فوقهنّ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال ابن عبّاس وقتادة والضحّاك: يتفطّرن من فوقهنّ من عظمة الله وجلاله.

والثاني: إنّ السماوات تكاد تتفطّرن من فوقهنّ استعظاماً للكفر بالله والعصيان له مع حقوقه الواجبة على خلقه وذلك على وجه التمثيل، ليس لأنّ السماوات تفعل شيئاً أو تنكر شيئاً، وإنّما المراد أنّ السماوات لو انشقّت لمعصيته استعظاماً لها أو لشيء من الأشياء لتفطّرت استعظاماً لكفر من كفر بالله وعبد معه غيره[1].

وقوله: ﴿الملائكة يسبّحون بحمد ربّهم﴾ معناه: ينزّهونه عمّا لا يجوز عليه من صفات، ومالا يليق به من أفعال ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ من المؤمنين. وفي ذلك صرف الإهلاك لهم ولغيرهم من أهل الأرض يصرفه عنهم.

ثمّ قال: ﴿ألا إنّ الله هو الغفور﴾ لعباده عصيانهم، تارة بالتوبة وتارة ابتداءً منه، كلّ ذلك تفضّلاً منه ورأفة بهم ورحمة لهم.

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ

---

(١) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٦٢.

لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول]: هذا إخبار من الله تعالى إنّ ﴿الّذين اتّخذوا من دونه أولياء﴾ يعني: الكفّار الّذين اتّخذوا الأصنام آلهة ووجّهوا عبادتهم إليها. وجعلوهم أولياء لهم وأنصاراً من دونه. وإنّما قال: ﴿من دونه﴾ لأنّ من اتّخذ وليّاً بأمر الله لم يتّخذه من دون الله.

وقوله: ﴿الله حفيظ عليهم﴾ أي: حافظ عليهم أعمالهم وحفيظ عليها بأنّه لا يعزب عنه شيء منها، وأنّه قد كتبها في اللوح المحفوظ مظاهرة في الحجّة عليهم وما هو أقرب إلى أفهامهم إذا تصوّروها مكتوبة لهم وعليهم.

وقوله: ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ معناه: إنّك لم توكل بحفظ أعمالهم، فلا يظنّ ظانّ هذا، فإنّه ظنّ فاسد وإنّما بعثك الله نذيراً لهم وداعياً إلى الحقّ ومبيّناً لهم سبيل الرشاد. وقيل: معناه: إنّك لم توكل عليهم أي: تمنعهم من الكفر بالله، لأنّه قد يكفر من لا يتهيّأ له منعه من كفره بقتله[1].

وقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيّاً﴾ معناه: مثل ما أوحينا إلى من تقدّمك من الأنبياء بالكتب الّتي أنزلناها عليهم أوحينا إليك أيضاً قرآناً عربيّاً ﴿لتنذر أُمّ القرى﴾ أي: لتخوّفهم بما فيه من الوعيد وتبشّرهم بما فيه من الوعد. قال السدّي: أُمّ القرى مكّة والتقدير: لتنذر أهل أُمّ القرى ﴿ومن

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٣٧.

حولها﴾ من سائر الناس. وسمّيت أُمّ القرى، لأنّه روي «أنّ الله تعالى دحا الأرض من تحت الكعبة»[١] قال المبرّد: كانت العرب تسمّي مكّة أُمّ القرى ﴿ومن حولها﴾ ومن يطيف بها ﴿وتنذر يوم الجمع﴾ معناه: وتخوّفهم يوم الجمع أيضاً، ونصب ﴿يوم﴾ لأنّه مفعول ثان وليس بظرف، لأنّه ليس ينذر في يوم الجمع، وإنّما يخوّفهم عذاب الله يوم الجمع. وقيل: هو يوم القيامة ﴿لاريب فيه﴾ أي: لا شكّ فيه وفي كونه ثمّ قسم أهل يوم القيامة فقال: ﴿فريق﴾ منهم ﴿في الجنّة﴾ بطاعتهم ﴿وفريق﴾ منهم ﴿في السعير﴾ جزاءً على معاصيهم.

ثمّ قال: ﴿ولو شاء الله لجعلهم أُمّة واحدة﴾ معناه: الإخبار عن قدرته بأنّه لوشاء أن يلجئهم إلى الإيمان ودين الإسلام، لكان قادراً على ذلك وفعله، لكن ذلك يبطل الغرض بالتكليف وهو أن يفعلوا العبادة على وجه يستحقّون بها الثواب، ومع الإلجاء لايمكن ذلك، فلذلك لم يشأ ذلك. فالآية تفيد قدرته على الإلجاء وتأتّي ذلك.

ثمّ قال: ﴿ولكن يدخل من يشاء في رحمته﴾ أي: يدخلهم في الجنّة وثوابها من يشاء منهم إذا أطاعوا واجتنبوا معاصيه وبيّن أنّ الظالمين نفوسهم بارتكاب معصية الله ﴿مالهم من وليّ﴾ يواليهم ﴿ولا نصير﴾ يمنعهم من عذاب الله إذا أراد فعله بهم جزاءً على معاصيهم.

ثمّ قال: ﴿أم اتّخذوا من دونه أولياء﴾ معناه: بل هؤلاء الكفّار اتّخذوا من دون الله أولياء من الأصنام والأوثان يوالونهم وينصرونهم. ثمّ قال: ﴿فالله هو الوليّ﴾ معناه: المستحقّ في الحقيقة للولاية والتقرّب إليه هو الله تعالى

---

(١) الفقيه ٢: ٢٤١.

دون غيره ﴿وهويحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير﴾ يصحّ أن يكون مقدوراً له قادر. ومن كان بهذه الصفة فهو الّذي يجب أن يتّخذ وليّاً.

وقوله: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله﴾ معناه: أنّ الّذي تختلفون فيه من أمر دينكم ودنياكم وتتنازعون فيه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يعني: أنّه الّذي يفصل بين المحقّ فيه وبين المبطل، لأنّه العالم بحقيقة ذلك، فيحكم على المحقّ باستحقاق الثواب وعلى المبطل باستحقاق العقاب.

وقيل: معناه: فحكمه إلى الله، لأنّه يجب أن يرجع إلى أمره في الدنيا وفصل القضاء في الآخرة[1]. ثمّ قال لنبيّه: قل لهم ﴿ذلك﴾ الّذي وصفته من أنّه يحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير ﴿هو الله ربّي﴾ ومدبّري ﴿عليه توكّلت﴾ بمعنى فوّضت أمري إليه وأسندت ظهري إليه ﴿وإليه أُنيب﴾ أي: أرجع إليه في جميع أُموري وأحوالي.

قوله تعالى:

فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ * شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١: ١٣١.

أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١]: لمّا قال الله تعالى لنبيّه ﷺ قل لهم الّذي وصفته بأنّه الّذي يحيي ويميت هو ربّي وإليه أرجع في أُموري كلّها، زاد في صفاته تعالى ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي: هو فاطر السماوات، ومعني «فاطر» خالق السماوات ابتداء. وحكي عن ابن عبّاس أنّه قال: لم أكن أعرف معنى فاطر حتّى تحاكم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرته بمعنى أنا ابتدأته، و«الفطر» أيضاً الشقّ. ومنه قوله تعالى: ﴿تكاد السموات يتفطّرن منه﴾[٢] وقوله: ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ يعني: أشكالاً مع كلّ ذكر أُنثى يسكن إليها ويألفها. ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن البقر اثنين ومن الإبل اثنين، ذكوراً وإناثاً ووجه الاعتبار بجعل الأزواج ما في ذلك من إنشاء الشيء حالاً بعد حال على وجه التصريف الّذي يقتضي الاختيار، وجعل الخير له أسباب تطلب كما للشرّ أسباب تجتنب، فجعل لكلّ حيوان زوجاً من شكله على ما تقتضيه الحكمة فيه.

وقوله: ﴿يذرؤكم فيه﴾ أي: يخلقكم ويكثركم فيه يعني في التزويج وفي ما حكم فيه. وقال الزجّاج والفرّاء: معناه: يذرؤكم به أي: بما جعل لكم أزواجاً[٣] وأنشد الأزهري قول الشاعر يصف امرأة:

---

(١) من الحجريّة. (٢) مريم: ٩٠.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٥، معاني القرآن ٣: ٢٢.

وأرغَبُ فـيها عـن لَـقيطٍ ورَهـطِه ولكِنَّني عَنْ سِنْبِسٍ لستُ أرْغَبُ[١]

أي: أرغب بها عن لقيط. فالذرء إظهار الشيء بإيجاده يـقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً وأصله الظهور، ومـنه مـلح ذرآنـي لظـهور بـياضه. والذرّية لظهورها ممّن هي منه. وقوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّ الكاف زائدة وتقديره: ليس مثل الله شيء من الموجودات ولا المعدومات كما قال أوس بن حجر:

وَقَتْلى كَمِثلِ جُذوعِ النخيلِ يَـغشَّاهُمُ سَـيلٌ مُـنهِر[٢]

وقال آخر:

سـعد بـن زيـد إذا بـصرت فـضلهم
ما إن كمثلهم فـي النـاس مـن أحـد

وقال الراجز:

وصالياتٍ ككما يُؤَثْفَيْنْ[٣]

الثاني: قال الرماني: إنّه أبلغ في نفي الشبيه إذا نفى مثله، لأنّه يوجب نفي الشبه على التحقيق والتقدير، وذلك أنّه لو قدّر له مثل، لم يكن له مثل صفاته ولبطل أن يكون له مثل ولتفرّده بتلك الصفات، وبطل أن يكون مثلاً له فيجب أن يكون من له مثل هذه الصفات على الحقيقة لا مثل له أصلاً إذ لو كان له مثل لم يكن هو بصفاته وكان ذلك الشيء الآخر هو الّذي له

(١) أنشده الفرّاء في معاني القرآن ٢: ٧٠. ولم يعرف قائله، معجم تهذيب اللغة ٢: ٢٧٣، مادّه ذرأ.
(٢) ديوانه ٣٠، وفيه: تَغَشَّاهُمُ مُسْبِلٌ مُنْهَمِرْ.
(٣) أنشده سيبويه في الكتاب ١: ٣٢ ونسبه إلى خطام المجاشعي، راجع تفسير الطبري ١١: ١٣٣.

تلك الصفات، لأنّها لا تصّح إلّا لواحد في الحقيقة وهذا لايجوز أن يشبّه بشبه حقيقة، ولا بلاغة فوجب التبعيد من الشبه لبطلان شبه الحقيقة.

الثالث: وجه كان المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي ـ رحمة الله عليه ـ جارانا فيه فاتّفق لي بالخاطر وجه قلته فاستحسنه واستجاده، وهو أن لاتكون الكاف زائدة ويكون المعنى أنّه نفى أن يكون لمثله مثل وإذا ثبت أنّه لا مثل لمثله فلا مثل له أيضاً[1]. لأنّه لو كان له مثل لكان له أمثال، لأنّ الموجودات على ضربين: أحدهما: لا مثل له، كالقدرة فلاأمثال لها أيضاً. والثاني: له مثل كالسواد والبياض وأكثر الأجناس فله أمثال أيضاً وليس في الموجودات ماله مثل واحد فحسب، فعلم بذلك أنّ المراد أنّه لا مثل له أصلاً من حيث لا مثل لمثله.

وقوله: ﴿وهو السميع البصير﴾ معناه: أنّه على صفة يجب أن يسمع المسموعات إذا وجدت ويبصر المبصرات إذا وجدت وذلك يرجع إلى كونه حيّاً لا آفة به، وفائدة ذكره هاهنا: هو أنّه لمّا نفى أن يكون له شبه على وجه الحقيقة والمجاز، وعلى وجه من الوجوه بيّن أنّه مع ذلك سميع بصير، لئلّا يتوهّم نفي هذه الصفة له على الحقيقة فقط، فإنّه لا مدحة في كونه ممّا لا مثل له على الانفراد، لأنّ القدرة لا مثل لها. وإنّما المدحة في أنّه لا مثل له مع كونه سميعاً بصيراً، وذلك يدلّ على التفرّد الحقيقي.

وقوله: ﴿له مقاليد السموات والأرض﴾ معناه: له مفاتيح الرزق منها بإنزال المطر من السماء واستقامة الهواء فيها وإنبات الثمار والأقوات من الأرض. ثمّ قال: ﴿يبسط الرزق لمن يشاء﴾ أي: يوسعه له ﴿ويقدر﴾ أي:

---

(١) أمالي المرتضى ٢: ٣١١.

يضيق لمن يشاء ذلك على ما يعلمه من مصالحهم ﴿إنّه بكلّ شيء عليم﴾ ممّا يصلحهم أو يفسدهم.

ثمّ خاطب تعالى خلقه فقال: ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً﴾ معنى «شرع» بيّن وأظهر، وهو ﴿الّذي أوحينا إليك﴾ يا محمّد ﷺ وهو ﴿ما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى﴾ وسائر النبيّين، وهو أنّا أمرناهم بعبادة الله والشكر له على نعمه وطاعته في كلّ واجب وندب مع اجتناب كلّ قبيح، وفعل ما أمر به ممّا أدّى إلى التمسّك بهذه الأُصول ممّا تختلف به شرائع الأنبياء.

ثمّ بيّن ذلك فقال: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه﴾ وموضع ﴿أن أقيموا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من الإعراب:

أحدها: أن يكون نصباً بدلاً من «ما» في ﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً﴾.

الثاني: أن يكون جرّاً بدلاً من الهاء في «به».

الثالث: أن يكون رفعاً على الاستيناف، وتقديره: هو أن أقيموا الدين[1]. وقوله: ﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ معناه: كبر عليهم واستعظموا كونك داعياً إلى الله، ودعاؤك يا محمّد وأنت مثلهم بشر ومن قبيلتهم إنّك نبيّ، وليس لهم ذلك لأنّ الله يجتبي لرسالته من يشاء على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة وتحمّله لها، فاجتباك الله تعالى كما اجتبى موسى ومن قبلك من الأنبياء، ومعنى ﴿يجتبى﴾ يختار. وقوله: ﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ معناه: ويهديه إلى طريق الثواب ويهدي المؤمنين

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٦.

الّذين أنابوا إليه وأطاعوه. وقيل: يهديه إلى طريق الجنّة والصواب بأن يلطّف له في ذلك إذا علم أنّ له لطفاً[١].

ثمّ قال: ﴿وما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ ومعناه: إنّ هؤلاء الكفّار لم يختلفوا عليك إلّا بعد أن أتاهم طريق العلم بصحّة نبوّتك، فعدلوا عن النظر فيه بغياً بينهم للحسد والعداوة والحرص على طلب الدنيا واتّباع الهوى. وقيل: إنّ هؤلاء لم يختلفوا إلّا عن علم بأنّ الفرقة ضلالة، لكن فعلوا ذلك للبغي[٢].

ثمّ قال: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربّك﴾ بأن أخبر بأنّه يبعثهم ﴿إلى أجل مسمّى﴾ ذكر أنّه يبقيهم إليه لم يجز مخالفته، لأنّه يصير كذباً ﴿لقضي بينهم﴾ أي: لفصل بينهم الحكم وأنزل عليهم ما يستحقّونه من العذاب عاجلاً. ثمّ قال: ﴿وإنّ الّذين أُورثوا الكتاب من بعدهم﴾ قال السدّي: يعني: اليهود والنصارى من بعد الّذين أُورثوا الكتاب الّذي هو القرآن ﴿لفي شكّ منه مريب﴾ أي: من الدين. وقال غيره: الّدين أُورثوا الكتاب من بعد اليهود والنصارى في شكّ من الدين مريب، وهم الّذين كفروا بالقرآن وشكّوا في صحّته وأنّه من عند الله من سائر الكفّار والمنافقين[٣].

وقوله: ﴿فلذلك فادع واستقم﴾ معناه: فإلى ذلك فادع، كما قال: ﴿بأنّ ربّك أوحى لها﴾[٤] أي: أوحى إليها يقال دعوته لذا وبذا وإلى ذا. وقيل: معناه: فلذلك الدين فادع. وقيل: معناه فلذلك القرآن فادع. والأوّل أحسن وأوضح[٥].

وقوله: ﴿ولا تتّبع أهواءهم﴾ نهى النبيّ ﷺ عن اتّباع ما هو به

(١) انظر تفسير الطبري ١١: ١٣٦.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٦.
(٣) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٣٩.
(٤) الزلزال: ٥.
(٥) تفسير الطبري ١١: ١٣٧.

المشركون والمراد به أُمّته. وقيل: ثلاث من كنّ فيه نجا: العدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والخشية في السرّ والعلانية. وثلاث من كنّ فيه هلك: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وعجب المرء بنفسه[1].

وقوله: ﴿وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: قل لهم صدّقت بما أنزل الله من القرآن وبكلّ كتاب أنزله الله على الأنبياء قبلي ﴿وأُمرت لأعدل بينكم﴾.

وقيل في معناه قولان، أحدهما: أُمرت بالعدل. والثاني: أُمرت كي أعدل[2]. وقل لهم أيضاً: ﴿الله ربّنا وربّكم﴾ أي: مدبّرنا ومدبّركم ومصرّفنا ومصرّفكم ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ ومعناه: أنّ جزاء أعمالنا لنا من ثواب أو عقاب وجزاء أعمالكم لكم من ثواب أو عقاب، لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، كما قال: ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾[3] ﴿لا حجّة بيننا وبينكم﴾ أي: لا خصومة بيننا في قول مجاهد وابن زيد، أي: قد ظهر الحقّ فسقط الجدال والخصومة. وقيل: معناه: إنّ الحجّة بيننا وبينكم لظهور أمركم في البغي علينا والعداوة لنا والمعائدة لا على طريق الشبهة، وليس ذلك على جهة تحريم إقامة الحجّة، لأنّه لم يلزم قبول الدعوة إلّا بالحجّة الّتي يظهر بها الحقّ من الباطل فإذا صار الإنسان إلى البغي والعداوة سقط الحجاج بينه وبين أهل الحقّ. ثمّ قال: ﴿الله يجمع بيننا يوم القيامة وإليه المصير﴾ أي: المرجع حيث لا يملك أحد الحكم فيه ولا الأمر والنهي غيره، فيحكم بيننا بالحقّ. وفي ذلك غاية التهديد. وقيل: إنّ ذلك كان قبل الأمر بالقتال والجهاد[4].

---

(١ و ٢) الكشف والبيان ٨: ٣٠٧.

(٣) الأنعام: ١٦٤، الإسراء: ١٥، فاطر: ١٨، الزمر: ٧.

(٤) النكت والعيون ٥: ١٩٩، راجع الكشف والبيان ٨: ٣٠٧.

قوله تعالى:

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَالَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

يقول الله تعالى إنّ ﴿الّذين يحاجّون فى الله﴾ أي: يجادلون في الله بنصرة مذهبهم ﴿من بعد ما استجيب له﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: من بعد ما استجاب له الناس لظهور حجّته بالمعجزات الّتي أقامها الله ـ عزّ وجلّ ـ والآيات الّتي أظهرها الله فيه، لأنّهم بعد هذه الحال في حكم المعاندين بالبغي والحسد. قال مجاهد: كانت محاجّتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم ونبيّنا قبل نبيّكم ونحن أولى بالحقّ منكم، فلذلك قال الله تعالى: ﴿حجّتهم داحضة﴾ لأنّ ما ذكروه لا يمنع من صحّة نبوّة نبيّنا بأن ينسخ الله كتابهم وما شرعه النبيّ الّذي كان قبله[1].

والثاني: معناه: من بعدما استجيب للنبيّ دعاءه بالمعجزات الّتي أجاب الله تعالى دعاءه في إقامتها له[2]. قال الجبائي: أجاب الله تعالى دعاءه في كفّار بدر حتّى قتلهم الله بأيدي المؤمنين، وأجاب دعاءه عليهم بمكّة

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٤٠، الكشف والبيان ٨: ٣٠٧.

(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٢٠٠.

وعلى مضر من القحط والشدائد الّتي نزلت بهم، وما دعا به من إنجاء الله المستضعفين من أيدي قريش فأنجاهم الله وخلصهم من أيديهم وغير ذلك ممّا يكثر تعداده، فقال الله تعالى: ﴿حجّتهم داحضة عند ربّهم﴾ وهي شبهة، وإنما سمّاها حجّة على اعتقادهم، فلشبهها بالحجّة أجرى عليها اسمها من غير إطلاق الصفة بها، و ﴿داحضة﴾ معناه: باطلة ﴿عند ربّهم وعليهم غضب من الله﴾ أي: لعن واستحقاق عقاب والإخبار به عاجلاً ﴿ولهم﴾ مع ذلك ﴿عذاب شديد﴾ يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿الله الّذي أنزل الكتاب﴾ يعني: القرآن ﴿بالحقّ والميزان﴾ فقوله: ﴿بالحقّ﴾ فيه دلالة على بطلان مذهب المجبّرة: بأنّ الله أنزله ليكفروا به وأراد منهم الضلال والعمل بالباطل. وأنزل ﴿الميزان﴾ يعني: العدل، لأنّ الميزان إظهار التسوية من خلافها في ما للعباد إليه الحاجة في المعاملة أو التفاضل ومثل الموازنة المعارضة والمقابلة والمقايسة، فالقرآن إذا قوبل بينه وبين ما يدعونه وقويس بينهما ظهرت فضيلته وبانت حجّته وعلمت دلالته، فلذلك وصفه بالميزان. وقال مجاهد وقتادة: الميزان هاهنا: العدل. وقال الجبائي: أنزل الله عليهم الميزان من السماء وعرّفهم كيف يعملون به بالحقّ وكيف يزنون به. وقيل: إنّ الحقّ الّذي أُنزل به الكتاب وصفه على عقد معتقده على ما هو به من ثقة. و«الحقّ» قد يكون بمعنى حكم، ومعنى أمر أو نهي، ومعنى وعد أو وعيد، ومعنى دليل.

وقوله: ﴿وما يدريك﴾ يا محمّد ولا غيرك ﴿لعلّ الساعة قريب﴾ إنّما قال: ﴿قريب﴾ مع تأنيث الساعة، لأنّ تأنيثها ليس بحقيقي. وقيل: التقدير

لعلّ مجيئها قريب[١]. وإنّما أخفى الله تعالى الساعة ووقت مجيئها عن العباد، ليكونوا على خوف ويبادروا بالتوبة، ولو عرفهم عنها لكانوا مغرين بالقبيح قبل ذلك تعويلاً على التأنّي بالتوبة.

وقوله: ﴿يستعجل بها﴾ يعني: بالساعة ﴿الّذين لا يؤمنون بها﴾ أي: لا يقرّون بها ولا يصدّقون لجهلهم بما عليهم في مجيئها من استحقاق العقاب وما للمؤمنين من الثواب. وقال: ﴿والّذين آمنوا﴾ أي: صدّقوا بها ﴿مشفقون منها﴾ أي: خائفون من مجيئها لعلمهم بما فيها من استحقاق العقاب والأهوال فيحذرونها ﴿ويعلمون أنّها الحقّ﴾ أي: ويعلمون أنّ مجيئها الحقّ الّذي لاخلاف فيه. ثمّ قال تعالى: ﴿ألا إنّ الّذين يمارون فى الساعة لفي ضلال بعيد﴾ أي يجادلون في مجيئها على وجه الإنكار لها لفي ضلال عن الصواب وعدول عن الحقّ بعيد.

ثمّ قال تعالى: ﴿الله لطيف بعباده﴾ فلطفه بعباده إيصاله المنافع إليهم من وجه يدقّ على كلّ عاقل إدراكه، وذلك في الأرزاق الّتي قسّمها الله لعباده وصرف الآفات عنهم، وإيصال السرور إليهم والملاذّ، وتمكينهم بالقدرة والآلات إلى غير ذلك من ألطافه الّتي لا تدرك على حقيقتها ولا يوقف على كنهها لغموضها. ثمّ قال تعالى: ﴿يرزق من يشاء وهو القويّ﴾ يعني: القادر الّذي لا يعجزه شيء ﴿العزيز﴾ الّذي لا يغالب.

وقوله: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه﴾ قيل: معناه: إنّا نعطيه بالحسنة عشراً إلى ما شئنا من الزيادة[٢] ومن عمل للدنيا ﴿نؤته﴾ أي: نعطيه نصيبه ﴿منها﴾ من الدنيا لا جميع ما يريده بل على ما تقتضيه

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٦. (٢) الكشف والبيان ٨: ٣٠٩، النكت والعيون ٥: ٢٠١.

الحكمة دون الآخرة، وشبّه الطالب بعمله الآخرة بالزارع في طلب النفع لحرثه، وكذلك الطالب بعمله نفع الدنيا. ثمّ قال: ﴿وماله﴾ يعني: لمن يطلب الدنيا دون الآخرة ﴿فى الآخرة من نصيب﴾ من الثواب والنعيم في الآخرة. وقيل: إنّ الّذي وعدهم الله به أن يؤتيهم من الدنيا إذا طلبوا حرث الدنيا هو ما جعل لهم من الغنيمة والفيء إذا قاتلوا مع المسلمين، لأنّهم لا يمنعون ذلك مع إظهارهم الإيمان لكن ليس لهم في الآخرة نصيب من الثواب.

قوله تعالى:

أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول]: قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿يفعلون﴾ بالياء. الباقون بالتاء.

من قرأ بالياء، فعلى أنّ الله يعلم ما يفعله الكفّار فيجازيهم عليه. ومن قرأ بالتاء فعلى وجه الخطاب لهم بذلك.

لمّا أخبر الله تعالى أنّ من يطلب بأعماله الدنيا أنّه يعطيه شيئاً منها،

وأنّه ليس له حظّ من الخير فى الآخرة. وقال: ﴿أم لهم شركاء﴾ يعني: بل هؤلاء الكفّار لهم شركاء في ما يفعلونه أي أشركوهم معهم في أعمالهم بأن ﴿شرعوا لهم من الدين﴾ الّذي قلّدوهم فيه ﴿ما لم يأذن به الله﴾ أي لم يأمر به ولا أذن فيه. ثمّ قال: ﴿ولو لا كلمة الفصل﴾ أي: كلمة الحكم الّذي قال الله: إنّي أُؤخّر عقوبتهم، ولا أُعاجلهم به في الدنيا ﴿لقضي بينهم﴾ وفصل الحكم فيهم وعوجلوا بما يستحقّونه من العذاب. ثمّ قال: ﴿وإنّ الظالمين﴾ لنفوسهم بارتكاب المعاصي ﴿لهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم أي: هم مستحقّون لذلك يوم القيامة.

ثمّ قال: ﴿ترى الظالمين﴾ يا محمّد ﴿مشفقين﴾ أي: خائفين ﴿ممّا كسبوا﴾ يعني من جزاء ما كسبوا من المعاصي وهو العقاب الّذي استحقّوه ﴿وهو واقع بهم﴾ لا محالة لا ينفعهم إشفاقهم منه ولا خوفهم من وقوعه. و«الإشفاق» الخوف من جهة الرقّة على المخوف عليه من وقوع الأمر، وأصل الشفقة الرقّة من قولهم ثوب مشفق أي: رقيق رديء، ودين فلان مشفق أي: رديء.

ثمّ قال: ﴿والّذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوا رسله ﴿وعملوا﴾ الأفعال ﴿الصالحات﴾ من الطاعات ﴿فى روضات الجنّات﴾ فـ«الروضة» الأرض الخضرة بحسن النبات، و«الجنّة» الأرض الّتي تجنّها الشجر، و«البستان» الّتي عمّها النبات أي: هممستحقّون للكون فيها ﴿لهم ما يشاءون عند ربّهم﴾ ومعناه: لهم ما يشتهون من اللذّات، لأنّ الإنسان لا يشاء الشيء إلّا من طريق الحكمة أو الشهوة أو الحاجة في دفع ضرر ودفع الضرر لايحتاج إليه في الجنّة، وإرادة الحكمة تتبع التكليف فلم يبق بعد ذلك إلّا أنّهم

يشاؤون ما يشتهون. وقوله: ﴿عند ربّهم﴾ يعني: يوم القيامة الّذي لا يملك فيه الأمر والنهي غيره. وليس يريد بـ﴿عند ربّهم﴾ من قرب المسافة، لأنّ ذلك من صفات الأجسام. ثمّ قال: ﴿ذلك﴾ يعني: الكون عند ربّهم وأنّ لهم ما يشاؤون ﴿هو الفضل﴾ يعني: الزيادة الّتي لا يوازيها شيء في كثرتها.

ثمّ قال ﴿ذلك﴾ يعني ما تقدّم ذكره ممّا يشاؤونه هو ﴿الّذي يبشّر الله عباده﴾ به ومن شدّد الشين أراد التكثير، ومن خفّف فلأنّه يدلّ على القليل والكثير[١]. وقيل: هما لغتان. وحكى الأخفش لغة ثالثة: أبشرته[٢]. ثمّ وصفهم فقال: ﴿الّذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوا رسله ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّدﷺ ﴿لا أسئلكم عليه﴾ أي: على أدائي إليكم ﴿أجراً﴾ عن الرسالة وما بعثني الله به من المصالح ﴿إلّا المودّة في القربى﴾ وقيل في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما: إنّه استثناء منقطع لأنّ المودّة في القربى ليس من الأجر ويكون التقدير لكن أذكركم المودّة في قرابتي[٣].

الثاني: إنّه استثناء حقيقة ويكون أجري المودّة فى القربي كأنّه أجر، وإن لم يكن أجر. واختلفوا في ﴿المودّة فى القربى﴾ فقال عليّ بن الحسينعليه‌السلام وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب: معناه: أن تودّوا قرابتي[٤] وهو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبداللهعليهما‌السلام[٥] وقال الحسن: معناه ﴿إلّا

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٢٤٢، التيسير في القراءات السبع: ٤٣.

(٢ و٣) معاني القرآن، ٦٨٦.

(٤) النكت والعيون ٥: ٢٠٢.

(٥) راجع قرب الإسناد ١٢٨/ ٤٠٥، تفسير القمّي ٢: ٢٧٥، المحاسن ٢: ٢٤٠.

المودّة في القربى﴾ إلى الله تعالى والتودّد بالعمل الصالح إليه. وقال ابن عبّاس وقتادة ومجاهد والسدّي والضحّاك وابن زيد وعطاء بن دينار: معناه: إلّا أن تودّوني لقرابتي منكم. وقالوا: كلّ قرشي كانت بينه وبين رسول الله ﷺ قرابة، ويكون المعنى إن لم تودّوني لحقّ النبوّة أفلا تودّوني لحقّ القرابة. والأوّل هو الاختيار عندنا، وعليه أصحابنا. وقال بعضهم: إلّا أن تصلوا قرابتكم. وقال آخرون: معناه إلّا أن تتقرّبوا إلى الله بالطاعات[١].

ثمّ قال تعالى: ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً﴾ أي من فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له عليها الثواب. و«الاقتراف» الاكتساب وأصله من قرفت الشيء إذا كشفت عنه، كقولك: قرفت الجلد وهو من الاعتماد والاكتساب ﴿إنّ الله غفور﴾ أي: ستّار على عباده معاصيهم بالتوبة وغير التوبة تفضّلاً منه تعالى وإحساناً منه إلى عباده ﴿شكور﴾ ومعناه: أنّه يعاملهم معاملة الشاكر في توفية الحقّ حتّى كأنّه ممّن وصل إليه النفع فشكره. وقيل: معناه: يجازيهم على شكرهم إيّاه فسمّاه شكراً على عادتهم في تسمية الشيء باسم ما كان سببه مجازاً، كما قال: ﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾[٢].

ثمّ قال: ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً﴾ بمعنى: بل يقولون هؤلاء الكفّار إنّك يا محمّد افتريت على الله كذباً في ادّعائك رسالة على الله فقال له تعالى: ﴿فإن يشأ الله يختم على قلبك﴾ قال قتادة: معناه: يختم على قلبك بأن ينسيك القرآن. وقيل المعنى: إنّه قال لنبيّه ﷺ: لوحدثت نفسك بأن تفتري على الله كذباً لطبعت على قلبك وأذهبت الوحي الّذي أتيتك، لأنّي

(١) تفسير الطبري ١١: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٢) الآية ٤٠ من هذه السورة. راجع معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٨.

أمحو الباطل وأُحقّ الحقّ[١]. وقال الزجّاج: معناه: فإن يشأ الله أن يربط على قلبك بالصبر على أذاهم لك وعلى قولهم: «افترى على الله كذباً» يمح الله الباطل[٢]. وقوله: ﴿ويمحوا الله الباطل﴾ رفع إلّا أنّه حذف الواو من المصاحف كما حذف من قوله: ﴿سندع الزبانية﴾[٣] على اللفظ وذهابه لالتقاء الساكنين، وليس بعطف على قوله: ﴿يختم﴾ لأنّه رفع، وبيّن ذلك بقوله ﴿ويحقّ الحقّ بكلماته﴾ أي: ويثبت الحقّ بأقواله الّتي ينزلها على أنبيائه يبيّن بها كذب من ادّعى على الله كذباً في أنّه نبيّ، ولا يكون كذلك ﴿إنّه عليم بذات الصدور﴾ أي: بأسرار ما في الصدور، لايخفى عليه شيء منها. ثمّ قال: ﴿وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيّئات ويعلم ما تفعلون﴾ وفي مدحه بأن يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيّئات بأن لا يعاقب عليها دليل على أنّ إسقاط العقاب عندها تفضّل، ويعلم ما تفعلونه من التوبة وغيرها فيجازيكم عليها. فمن قرأ بالتاء فعلى الخطاب، ومن قرأ بالياء فعلى وجه الإخبار عن الغائب.

قوله تعالى:

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦) ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ (٣٠)

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٠٣. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٣٩٩. (٣) العلق: ١٨.

خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١]: قرأ ابن عامر ونافع ﴿بما كسبت﴾ بلافاء، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام. الباقون بالفاء وكذلك في مصاحفهم فعلى هذا يكون جزاء، وعلى الأوّل يكون المعنى الّذي أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم.

لمّا أخبر الله تعالى أنّه يقبل التوبة عن عباده وأنّه يعلم ما يفعلونه من طاعة أو معصية وأنّه يجازيهم بحسبها، ذكر أنّه ﴿يستجيب الّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بمعنى: يجيبهم و﴿الّذين﴾ في موضع نصب، وأجاب واستجاب بمعنى واحد، قال الشاعر:

وداع دعايا من يجيب إلى الندا فلم يستجبه عند ذاك مجيب[٢]

وقيل: «الاستجابة» موافقة عمل العامل ما يدعو إليه، لأجل دعائه إليه، فلما كان المؤمن يوافق بعمله ما يدعو النبيّ ﷺ من أجل دعائه كان مستجيباً له، وكذلك من وافق بعمله داعي عقابه كان مستجيباً للداعي بالفعل. وعن معاذ بن جبل: إنّ الله تعالى يجيب الّذين آمنوا وعملوا الصالحات في دعاء بعضهم لبعض. وقيل: معناه: ويجيب المؤمنون ربّهم في ما دعاهم إليه، فيكون ﴿الّذين﴾ في موضع رفع[٣]. ويكون قوله: ﴿ويزيدهم﴾ راجعاً إلى الله أي: يزيدهم الله من فضله. وقيل: معناه: ويستجيب دعاء المؤمنين ولا يستجيب دعاء الكافرين، لأنّه ثواب ولا ثواب للكافرين[٤]. وقيل: بل يجوز أن يكون ذلك إذا كان فيه لطف

(١) من الحجريّة.
(٢) أنشده في مجاز القرآن ١: ٦٧.
(٣) معاني القرآن ٣: ٢٤.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٢٤٣.

للمكلّفين. وقوله: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ معناه: ويزيدهم زيادة من فضله على ما يستحقّونه من الثواب. وقال الرّماني: الزيادة بالوعد تصير أجراً على العمل إذا كان ممّن يحسن الوعد بها من طريق الوعد، كما لو كان إنسان يكتب مائة ورقة بدينار، ورغّبه ملك في نسخ مائة ورقة بعشرة دنانير، فإنّه يكون الأُجرة حينئذٍ عشرة دنانير وإذا بلغ غاية الأجر في مقدار لا يصلح عليه أكثر من ذلك، فإنّما تستحقّ الزيادة بالوعد. وقوله: ﴿والكافرون لهم عذاب شديد﴾ إخبار عمّا يستحقّه الكافر على كفره من العقاب المؤلم الشديد.

وقوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ إخبار منه تعالى بأنّه لو وسع رزقه على عباده وسوّى بينهم لبطروا النعمة وتنافسوا وتغالبوا، وكان ذلك يؤدّي إلى وقوع الفساد بينهم والقتل وتغلّب بعضهم على بعض واستعانة بعضهم ببعض ببذل الأموال، ولكن دبّرهم على ما علم من مصلحتهم في غناء قوم وفقر آخرين، وإحواج بعضهم إلى بعض وتسخير بعضهم لبعض، فلذلك قال: ﴿ولكن ينزّل بقدر ما يشاء﴾ ممّا يعلمه مصلحة لهم ﴿إنّه بعباده خبير بصير﴾ يعني: عالم بأحوالهم بصير بما يصلحهم ممّا يفسدهم.

ثمّ قال: ﴿وهو الّذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا﴾ أي: ينزّله عليهم من بعد إياسهم من نزوله، ووجه إنزاله بعد القنوط إنّه أدعى إلى شكر الآتي به وتعظيمه والمعرفة بمواقع إحسانه، وكذلك الشدائد الّتي تمرّ بالإنسان ويأتي الفرج بعدها، تعلّق الأمل بمن يأتي به وتكسب المعرفة بحسن تدبيره في ما يدعو إليه من العمل بأمره والانتهاء إلى نهيه. ونشر الرحمة

عمومها لجميع خلقه، فهكذا نشر رحمة الله مجدّدة حالاً بعد حال. ثمّ يضاعفها لمن يشاء، وكلّ ذلك على مقتضى الحكمة وحسن التدبير الّذي ليس شيء أحسن منه ﴿وهو الوليّ الحميد﴾ معناه: هو الأولى بكم وبتدبيركم المحمود على جميع أفعاله لكونها منافع وإحساناً.

ثمّ قال: ﴿ومن آياته﴾ أي: من حججه الدالّة على توحيده وصفاته الّتي باين بها خلقه ﴿خلق السموات والأرض﴾ لأنّه [لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب والأجناس الّتي](١) لا يقدر عليها قادر بقدرة ﴿وما بثّ فيهما من دابّة﴾ أي: من سائر أجناس الحيوان ﴿وهو على جمعهم﴾ يوم القيامة وحشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر، لا يتعذّر عليه ذلك.

ثمّ قال: ﴿وما أصابكم من مصيبة﴾ معاشر الخلق ﴿فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير﴾ قال الحسن: ذلك خاصّ في الحدود الّتي تستحقّ على وجه العقوبة. وقال قتادة: هو عامّ، وقال قوم: ذلك خاصّ وإن كان مخرجه مخرج العموم [لما يلحق من](٢) المصائب على الأطفال والمجانين ومن لاذنب له من المؤمنين. وقال قوم: هو عامّ بمعنى أنّ ما يصيب المؤمنين والأطفال إنّما هو من شدّة محنة تلحقهم، وعقوبة للعاصين كما يهلك الأطفال والبهائم مع الكفّار بعذاب الاستيصال. ولأنّه قد يكون فيه استصلاح اقتضاه وقوع تلك الأجرام.

وقيل قوله: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده﴾ بحسب ما يطلبونه ويقترحونه ﴿لبغوا فى الأرض﴾ لم يمنعهم ذلك لعجز ولابخل. وقوله: ﴿إذا يشاء﴾ يدلّ

---

(١) مابين المعقوفتين ليس في الحجريّة.

(٢) لم يرد في الحجريّة، وفيه: مخرج العموم مصائب الأطفال.

على حدوث المشيئة، لأنّه [لا] يجوز أن يكون إذا قدر على شيء فعله ولا يجوز إذا علم شيئاً فعله. ويجوز إن شاء أن يفعل شيئاً فعله.

وقوله: ﴿أصابكم﴾ قال أبو عليّ النحوي: يحتمل أمرين أحدهما: أن يكون صلة لـ﴿ما﴾. والثاني: أن يكون شرطاً في موضع جزم، فمن قدّره شرطاً لم يجز سقوط «الفاء» على قول سيبويه، وأجاز ذلك أبو الحسن والكوفيّون. وإن كان صلة فالإثبات والحذف جائزان على معنيين مختلفين، فإذا ثبت «الفاء» كان ذلك دليلاً على أنّ الأمر الثاني وجب بالأوّل كقوله: ﴿الّذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فلهم أجرهم﴾ (١) فثبوت «الفاء» يدلّ على وجوب الإنفاق (٢) وإذا حذف احتمل الأمرين (٣).

قوله تعالى:

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

خمس آيات كوفي وأربع في ما عداه عدّ الكوفيّون ﴿كالأعلام﴾ ولم يعدّ الباقون.

قرأ أبو عمرو ونافع ﴿الجواري فى البحر﴾ بياء في الوصل، ووقف ابن كثير بياء أيضاً. الباقون بغير ياء في الوصل والوقف. وقرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر ﴿ويعلم الذين﴾ رفعاً على الاستيناف لأنّ الشرط

(١) البقرة: ٢٧٤.

(٢) كذا في الحجريّة، والظاهر: وجوب الأجر بالإنفاق.

(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٦٣.

والجزاء قد تمّ، فجاز الابتداء بما بعده. الباقون بالنصب. فمن نصبه فعلى الصرف، كما قال النابغة:

فإن يهلك أبو قابوسَ يهلك ربيعُ النّاسِ والبلدُ الحرامُ
ونأخذَ بعدهُ بذنابِ عيشٍ أجبِّ الظّهرِ ليسَ له سنامُ(١)

قال الكوفيّون: هو مصروف من مجزوم إلى منصوب، وقال البصريّون: هو نصب بإضمار «أن» وتقديره أن يعلم، كما قال الشاعر:

ولبس عباءة وتقرّ عيني احبّ إليّ من لبس الشفوف

وتقديره: وأن تقرّ عيني، قال أبو عليّ: ومن نصب ﴿ويعلم﴾ فلأنّ قبله شرط وجزاء، وكلّ واحد منهما غير واجب، تقول في الشرط إن تأتني وتعطيني أكرمْك فينصب وتعطيني، وتقديره: أن يكون(٢) منك إتيان وإعطاء أكرمك، والنصب بعد الشرط إذا عطفته بالفاء أمثل من النصب بالفاء بعد جزاء الشرط فأمّا العطف على الشرط نحو إن تأتني وتكرمني أكرمك، فالّذي يختار سيبويه في العطف على الشرط نحو إن تأتني وتكرمني الجزم، فيختار ﴿ويعلم الّذين﴾ إذا لم يقطعه عن الأوّل فيرفعه، وإن عطف على جزاء الشرط، فالنصب أمثل(٣). ومن أثبت الياء في الحالين في قوله: ﴿الجواري﴾ فلأنّها الأصل لكن خالف المصحف، ومن أثبتها وصلاً دون الوقف استعمل الأصل وتبع المصحف،ومن حذفها في الحالين يتبع المصحف واجتزأ بالكسرة الدالّة على الياء. وواحد الجواري «جارية» وهي السفينة، وحكي عن ابن مسعود أنّه قرأ بضمّ الراء كأنّه

---

(١) ديوانه: ٢١٤، وفيه: الشهر الحرام مكان البلد الحرام ونمسك مكان نأخذ.

(٢) في المصدر: إن يكن.

(٣) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٦٤.

قلب. كما قالوا: «شاك» في «شائك» فأراد الجوائر بقلب.

قوله: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ خطاب من الله تعالى للكفّار بأنّكم لستم تفوتون الله بالهرب منه في الأرض ولا في السماء، فإنّه يقدر عليكم في جميع الأماكن ولا يمكن النجاة من عذابه إلّا بطاعته، فواجب عليكم طاعته، ففي ذلك استدعاء إلى عبادة الله وترغيب في كلّ ما أمر به وتحذير عمّا نهى عنه. ووجه الحجّة بذلك على العبد أنّه إذا كان لا يعجز الله، ولايجد دافعاً عن عقابه خفّ عليه عمل كلّ شيء في جنب ما توعّد به.

وقوله: ﴿وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير﴾ أي: ليس لكم من يدفع عنكم عقاب الله إذا أراد فعله بكم ولا ينصركم عليه، فيجب أن ترجعوا إلى طاعة مَن هذه صفته.

وقوله: ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ معناه: من آياته الدالّة على أنّه تعالى مختصّ بصفات لا يشركه فيها أحد، السفن الجارية في البحر مثل الجبال، لأنّه تعالى يسيّرها بالريح لا يقدر على تسييرها غيره، ووجه الدلالة في السفن الجارية هو أنّ الله خلق الماء العظيم وعدل الريح بما يمكن أن يجري فيه على حسب المراد لأنّه إذا هبّت الريح في جهة وسارت بها السفينة فيها، فلو اجتمعت الخلائق على صرفها إلى جهة أُخرى لما قدروا، وكذلك لو سكنت الريح لوقفت. وما قدر أحد على تحريكها ولا إجرائها غيره تعالى.

ثمّ بيّن ذلك بأن قال: ﴿إن يشأ يسكن الريح﴾ وتقديره: إن يشأ يسكن الريح أسكنها أو إن يشأ أن يُسكنها سكنت، وليس المعنى إن وقعت منه

مشيئة أسكن لامحالة، لأنّه قد وقعت منه مشيئة لأشياء كثيرة ولم تسكن الريح. و«الجواري» السفن في قول مجاهد والسدّي، و«الأعلام» الجبال في قولهما، وقوله: ﴿فيظللن رواكد على ظهره﴾ قال ابن عبّاس: معناه: تظلّ السفن واقفة على ظهر الماء، قال الشاعر:

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه علم في رأسه نار[١]

وقوله: ﴿إنّ في ذلك﴾ يعني: في تسخير البحر وجريان السفن فيها لآيات أي: حججاً واضحات ﴿لكل صبّار﴾ على أمر الله ﴿شكور﴾ على نعمه، وإنّما أضاف الآيات إلى كلّ صبّار وإن كانت دلالات لغيرهم أيضاً من حيث هم الّذين انتفعوا بها دون غيرهم، ممّن لم ينظر فيها.

وقوله: ﴿أو يوبقهنّ بما كسبوا﴾ معناه: يهلكهنّ بالغرق في قول ابن عبّاس والسدّي ومجاهد ﴿بما كسبوا﴾ أي: جزاءً على ما فعلوه من المعاصي ﴿ويعف عن كثير﴾ إخبار منه تعالى أنّه يعفو عن معاصيهم لايعاجلهم الله بعقوبتها.

وقوله: ﴿ويعلم الّذين يجادلون في آياتنا مالهم من محيص﴾ إخبار منه تعالى أنّ الّذين يجادلون في إبطال آيات الله تعالى ويدفعونها سيعلمون أنّه ليس لهم محيص أي: ملجأ يلجؤون إليه، في قول السدّي.

قوله تعالى:

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ

(١) ديوان الخنساء: ٤٩.

بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

خمس آيات بلا خلاف.

قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿كبير الإثم﴾ على التوحيد. الباقون ﴿كبائر﴾ على الجمع جمع التكسير. ومن وحّد قال: إنّه اسم جنس يقع على القليل والكثير. وقال قوم: أراد الشرك فقط[١]. ومن جمع، فلأنّ أنواع الفواحش واختلاف أجناسها كثيرة.

يقول الله تعالى مخاطباً لمن تقدّم وصفه: ﴿وما أُوتيتم﴾ يعني: إنّ الّذي أُوتيتموه وأُعطيتموه ﴿من شيء﴾ من الأموال ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي: هو شيء ينتفع به عاجلاً لا بقاء له ولا محصول له. و«المتاع» يخبر به عن الامتاع ويعبّر به عن الأثاث، ففي ذلك تزهيد في الدنيا وحثّ على عمل الآخرة. ثمّ قال: ﴿وما عند الله﴾ يعني: من الثواب في الجنّة ﴿خير وأبقى﴾ من هذه المنافع العاجلة الّتي هي قليلة ويفنى، لأنّها باقية دائمة وهذه فانية منقطعة. ثمّ بيّن أنّها حاصلة ﴿للّذين آمنوا﴾ بتوحيد الله وتصديق رسله ﴿وعلى ربّهم يتوكّلون﴾ أي: يفوّضون أمرهم إليه تعالى دون غيره فالتوكّل على الله، تفويض الأمر إليه باعتقاد أنّها جارية من قِبَله على أحسن التدبير مع الفزع إليه بالدعاء في كلّما ينوب. والتوكّل واجب، الترغيب فيه كالترغيب في جملة الإيمان.

وقوله: ﴿والّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ يحتمل أن يكون ﴿الّذين﴾ في موضع جرّ بالعطف على قوله: ﴿للّذين﴾ فكأنّه قال:

---

(١) معاني القرآن ٣: ٢٥.

وما عند الله خير وأبقى للمؤمنين المتوكّلين على ربّهم المجتنبين كبائر الإثم والذنوب. و«الفواحش» جمع فاحشة وهي أقبح القبيح. ويحتمل أن يكون في موضع رفع بالابتداء ويكون الخبر محذوفاً، وتقديره: الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴿وإذا ما غضبوا﴾ ممّا يفعل بهم من الظلم والإساءة ﴿هم يغفرون﴾ ويتجاوزون عنه ولا يكافونهم عليه، لهم مثل ذلك[١]. والعفو المراد في الآية هو ما يتعلّق بالإساءة إلى نفوسهم الّذي لهم الاختصاص بها فمتى عفوا عنها كانوا ممدوحين، فأمّا ما يتعلّق بحدود الله ووجوب حدوده فليس للإمام تركها ولا العفو عنها، ولا يجوز له أن يعفو عن المرتدّ وعمّن يجري مجراه.

ثمّ زاد في صفاتهم فقال: ﴿والّذين استجابوا لربّهم﴾ في ما دعاهم إليه ﴿وأقاموا الصلاة﴾ على حقّها ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ أي: لا ينفردون بأمر حتّى يشاوروا غيرهم، لأنّه قيل: ما تشاور قوم إلّا وُفّقوا لأحسن ما يحضرهم[٢] ﴿وممّا رزقناهم ينفقون﴾ في طاعة الله وسبيل الخير.

ثمّ قال: ﴿والّذين إذا أصابهم البغي﴾ من غيرهم وظلم من جهتهم ﴿هم ينتصرون﴾ يعني: ممّن بغى عليهم من غير أن يعتدوا فيها فيقتلوا غير القاتل ويجنوا على غير الجاني. وفي قوله: ﴿والّذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ ترغيب في إنكار المنكر.

ثمّ قال: ﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾ قال أبو نجيح والسدّي: معناه: إذا قال أخزاه الله متعدّياً قال له مثل ذلك أخزاه الله. ويحتمل أن يكون المراد

---

(١) «لهم مثل ذلك» خبر «الّذين».

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٠١. فيه: بدل «وفّقوا» «هدوا».

ما جعل الله لنا إلّا الاقتصاص منه من ﴿النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأُذن والسنّ بالسنّ والجروح قصاص﴾[١] فإنّ للمجنيّ عليه أن يفعل بالجاني مثل ذلك من غير زيادة وسمّاه سيّئة للازدواج، كما قال: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾[٢] وقال: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[٣] ثمّ مدح العافي عمّا له أن يفعله، فقال: ﴿فمن عفا وأصلح﴾ عمّا له المؤاخذة فيه ﴿فأجره﴾ في ذلك وجزاؤه ﴿على الله﴾ فإنّه يثيبه على ذلك.

وقوله: ﴿إنّه لا يحبّ الظالمين﴾ قيل في معناه وجهان:

أحدهما: إنّي لم أُرغبكم في العفو عن الظالم لأنّي أُحبّه، بل لأنّي أُحبّ الإحسان والعفو.

والثاني: إنّي لا أُحبّ الظالم لتعدّيه ما هو له إلى ما ليس له في القصاص ولا غيره.

وقيل الكبائر: الشرك بالله، وقتل النفس الّتي حرّم الله، وقذف المحصنات، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الحرام[٤].

وعندنا كلّ معصية كبيرة، وإنّما تسمّى صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها لا أنّها تقع محبطة، لأنّ الإحباط باطل عندنا. وقيل: إنّ هذه الآيات نزلت في قوم من المهاجرين والأنصار[٥].

قوله تعالى:

وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى

---

(١) المائدة: ٤٥. (٢) النحل: ١٢٦. (٣) البقرة: ١٩٤.

(٤) راجع تفسير الطبري ٤: ٤٠، الكشف والبيان ٨: ٣٢٢. (٥) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٤٦.

ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِى ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَـٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قوله: ﴿ولمن انتصر من بعد ظلمه﴾ إخبار من الله تعالى أنّ من انتصر لنفسه بعد أن كان ظلم وتُعدُّي عليه، فأخذ لنفسه بحقّه، فليس عليه من سبيل. قال قَتادة: بعد ظلمه في ما يكون فيه القصاص بين الناس في النفس أو الأعضاء أو الجراح، فأمّا غير ذلك فلا يجوز أن يفعل لمن ظلمه ولا ذمّ له على فعله. وقال قوم معناه: إنّ له أن ينتصر على يد سلطان عادل بأن يحمله إليه ويطالبه بأخذ حقّه منه، لأنّ السلطان هو الّذي يقيم الحدود ويأخذ من الظالم للمظلوم، ويمكن أن يستدلّ بذلك على أنّ من ظلمه غيره بأخذ ماله كان له إذا قدر أن يأخذ من ماله بقدره فلا إثم عليه، والظالم هو الفاعل للظلم.

وقد بيّنّا حكم الظالم في غير موضع، فلمّا بيّن أنّ للمظلوم أن يقتصّ منه، وأنّه متى أخذ بحقّه لم يكن عليه سبيل، بيّن ﴿إنّما السبيل على الّذين يظلمون الناس﴾ ويأخذون ما ليس لهم ويتعدّون عليهم ﴿ويبغون﴾ عليهم ﴿في الأرض بغير الحقّ﴾ لأنّه متى سعى فيها بالحقّ لم يكن مذموماً به إن طلب بذلك ما أباحه الله له ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ إخبار منه تعالى أنّ من قدّم وصفه لهم عذاب مُوجع مُؤلم.

ثمّ مدح تعالى من صبر على الظلم ولم ينتصر لنفسه ولا طالب به ويغفر لمن أساء إليه بأن قال: ﴿ولمن صبر وغفر إنّ ذلك لمن عزم الأُمور﴾ أي: من ثابت الأُمور الّتي أمر الله بها فلم ينسخ. و ﴿عزم الأُمور﴾ هو الأخذ بأعلاها في باب نيل الثواب والأجر واحتمال الشدائد على النفس وإيثار رضا الله على ما هو مباح. وقيل: ﴿إنّ ذلك لمن عزم الأُمور﴾ جواب القسم الّذي دلّعليه ﴿لمن صبر وغفر﴾ كماقال: ﴿لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم﴾[1] وقيل: بل هي في موضع الخبر كأنّه قال إنّ ذلك منه لمن عزم الأُمور، وحسن ذلك مع طول الكلام[2].

وقوله: ﴿ومن يضلل الله فما له من وليّ من بعده﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: إنّ من أضلّه الله عن طريق الجنّة إلى عذاب النار فليس له ناصر ينصره عليه ويرفعه عنه من بعد ذلك بالتخليص منه.

والثاني: أنّ من حكم الله بضلاله وسمّاه ضالاًّ عن الحقّ فما له من وليّ ولا ناصر يحكم بهدايته ويسمّيه هادياً.

ثمّ قال: ﴿وترى الظالمين لمّا رأوا العذاب يقولون هل إلى مردّ من سبيل﴾ إخبار منه تعالى إنّك يا محمّد ترى الظالمين إذا شاهدوا عذاب النار يقولون هل إلى الرجوع والردّ إلى دار التكليف من سبيل تمنّياً منهم لذلك والتجاءً إلى هذا القول لما ينزل بهم من البلاء مع علمهم بأنّ ذلك لا يكون، لأنّ معارفهم ضروريّة.

ثمّ قال: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين منالذلّ ينظرون من طرف خفيّ﴾ قال ابن عبّاس: من طرف ذليل. وقال الحسن وقتادة: يسارقون النظر،

---

(١) الحشر: ١٢.

(٢) تفسير الطبري ١١: ١٥٨.

لأنّهم لا يجترؤون أن ينظروا إلى النار بجميع أبصارهم لما يرون من هول النار وألوان العذاب. وقيل: يرون النار بقلوبهم، لأنّهم يحشرون عمياً[١]

﴿وقال الّذين آمنوا﴾ يعني: الّذين صدّقوا الله ورسوله ذلك اليوم إذا رأوا حصول الظالمين في النار وأليم العقاب ﴿إنّ الخاسرين الّذين خسروا أنفسهم﴾ باستحقاق النار ﴿وأهليهم﴾ لما حيل بينهم وبينهم ﴿يوم القيامة ألا إنّ﴾ هؤلاء ﴿الظالمين في عذاب مقيم﴾ أي: دائم لا زوال له. وقد منعوا من الانتفاع بنفوسهم وأهليهم ذلك اليوم.

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

لمّا أخبر الله تعالى أنّ الظالمين أنفسهم بارتكاب المعاصي وترك الواجبات في عذاب مقيم دائم غير منقطع، أخبر في الآية الّتي بعدها أنّهم لم يكن لهم أولياء في ما عبدوه من دون الله، ولا فيمن أطاعوه في معصية الله أي: أنصار ينصرونهم من دون الله ويرفعون عنهم عقابه. وقيل: المراد من يعبدونه من دون الله أو يطيعونه في معصية الله لا ينفعهم يوم القيامة.

---

(١) تفسير الطبري ١١: ١٥٩، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٠٢.

فالفائدة بذلك اليأس من أيّ فرج إلّا من قِبَل الله، فلهذا من كان هلاكه بكفره لم يكن له ناصر يمنع منه.

ثمّ قال: ﴿ومن يضلل الله﴾ أي: من أضلّه الله عن طريق الجنّة وعدل به إلى النار ﴿فما له من سبيل﴾ يوصله إلى الجنّة والثواب. ويحتمل أن يكون المراد ومن يحكم الله بضلاله ويسمّيه ضالاً لم يكن لأحد سبيل إلى أن يحكم بهدايته.

ثمّ قال تعالى لخلقه: ﴿استجيبوا لربّكم﴾ يعني: أجيبوه إلى ما دعاكم إليه ورغّبكم فيه من المصير إلى طاعته والانقياد لأمره ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له من الله مالكم من ملجأ يومئذ﴾ أي: لا مرجع له بعد ما حكم به. وقيل معناه: لا يتهيّأ لأحد ردّه ولا يكون لكم ملجأ تلجؤون إليه في ذلك اليوم. والملجأ والمحرز نظائر[1] ﴿ومالكم من نكير﴾ أي: تعيير إنكار. وقيل: معناه: من نصير ينكر ما يحلّ بكم[2].

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فإن أعرضوا﴾ يعني: هؤلاء الكفّار وعدلوا عمّا دعوناهم إليه ولا يستجيبون إليه ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: حافظاً تمنعهم من الكفر ﴿إن عليك﴾ أي: ليس عليك ﴿إلّا البلاغ﴾ وهو إيصال المعنى إلى أفهامهم وتبيّن لهم ما فيه رشدهم، فالّذي يلزم الرسول دعاؤهم إلى الحقّ، ولا يلزمه أن يحفظهم من اعتقاد خلاف الحقّ. ثمّ أخبر تعالى عن حال الإنسان وسرعة تنقّله من حال إلى حال فقال: ﴿وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة﴾ وأوصلنا إليه نعمة ﴿فرح بها وإن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم﴾ أي: عقوبة جزاءً بما قدّمته أيديهم من المعاصي ﴿فإنّ الإنسان

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٢٤٩. (٢) النكت والعيون ٥: ٢١٠.

كفور﴾ يعدّد المصائب ويجحد النعم.

وقوله: ﴿لله ملك السماوات والأرض﴾ ومعناه: له التصرّف في السماوات والأرض وما بينهما وسياستهما بما تقتضيه الحكمة حسب ما يشاء ﴿ويخلق ما يشاء﴾ من أنواع الخلق ﴿يهب لمن يشاء﴾ من خلقه ﴿إناثاً﴾ يعني: البنات بلا ذكور ﴿ويهب لمن يشاء﴾ من خلقه ﴿الذكور﴾ بلا إناث ﴿أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً﴾ قال ابن عبّاس والحسن وقتادة والضحّاك والسدّي: معناه: أن يكون حمل المرأة مرّة ذكراً ومرّة أُنثى. ويحتمل أن يكون المراد أن يرزقه توأماً ذكراً وأُنثى أو ذكراً وذكراً وأُنثى وأُنثى، وهو قول ابن زيد[1] ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ فالعقيم من الحيوان الّذي لا يكون له ولد ويكون قد عقم فرجه عن الولادة بمعنى منع ﴿إنّه عليم﴾ بمصالحهم ﴿قدير﴾ أي: قادر على خلق ما أراد من ذلك.

قوله تعالى:

وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَآءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

[أقول][2] قرأ نافع وابن عامر في رواية الداحوني عن صاحبه ﴿أو يرسل... فيوحي﴾ بالرفع على تقدير أو هو يرسل فيوحي، ويكون المعنى يراد به الحال بتقدير إلّا مُوحياً أو مرسلاً، وذلك كلامه إيّاهم. الباقون بالنصب

---

(١) تفسير الطبري ١١: ١٦٢.

(٢) من الحجريّة.

ويرسل فيوحي على تأويل المصدر، كأنّه قال إلّا أن يوحي أو يرسل.

ومعنى ﴿أو﴾ في قوله: ﴿أو يرسل رسولاً﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: العطف، فيكون إرسال الرسول أحد أقسام الكلام كما يقال عتابك السيف كأنّه قيل إلّا وحياً أو إرسالاً.

الثاني: أن يكون «إلّا أن» كقولك لأُلزمنّك أو تعطيني حقّي، فلا يكون الإرسال في هذا الوجه كلاماً. ولا يجوز أن يكون ﴿أو يرسل﴾ فيمن نصب عطفاً على قوله: ﴿أن يكلّمه الله﴾ لأنّك لو حملته على ذلك لكان المعنى وما كان لبشر أن يكلّمه الله أو أن يرسل رسولاً، ولم يخل قولك: ﴿أو يرسل رسولاً﴾ من أن يكون المراد به أو يرسله رسولاً أو يكون المراد أو يرسل إليه رسولاً، والتقديران جميعاً فاسدان، لأنّا نعلم أنّ كثيراً من البشر قد أُرسل رسولاً، وكثيراً منهم أُرسل إليه رسولاً، فإذا بطل ذلك صحّ ما قدّرناه أوّلاً، ويكون التقدير: ما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا أن يوحي وحياً أو يرسل رسولاً فيوحي. ويجوز في قوله: ﴿إلّا وحياً﴾ أمران:

أحدهما: أن يكون استثناء منقطعاً.

والآخر: أن يكون حالاً، فإن قدّرته استثناء منقطعاً لم يكن في الكلام شيء تُوصل به «من» لأنّ ما قبل الاستثناء لا يعمل في ما بعده، لأنّ حرف الاستثناء في معنى حرف النفي، ألا ترى أنّك إذا قلت: قام القوم إلّا زيداً، فالمعنى قام القوم لا زيد. فكما لا يعمل ما قبل حرف النفي في مابعده كذلك لا يعمل ما قبل الاستثناء ـ إذا كان كلاماً تامّاً ـ في ما بعده إذ كان بمعنى النفي، وكذلك لا يجوز أن يعمل ما بعد «إلّا» في ما قبلها، فإذا كان كذلك لم يتّصل الجارّ بما قبل «إلّا» ويمتنع أن يتّصل به الجارّ من

وجه آخر، وهو أنّ قوله: ﴿أو من وراء حجاب﴾ من صلة ﴿يوحي﴾ الّذي هو بمعنى «أن يوحي» فإذا كان كذلك لم يجز أن يحمل الجارّ الّذي هو في قوله: ﴿من وراء حجاب﴾ على ﴿أو يرسل﴾ لأنّك تفصل بين الصلة والموصول بما ليس منهما. ألا ترى أنّ المعطوف على الصلة من الصلة إذا حملت العطف على ما ليس في الصلة فصلت بين الصلة والموصول بالأجنبيّ الّذي ليس منها، فإذا لم يجز حمله على ﴿يكلّمه﴾ في قوله: ﴿ما كان لبشر أن يكلّمه الله﴾ ولم يكن بدّ من أن يعلّق الجارّ بشيء، ولم يكن في اللفظ شيء يحمل عليه أُضمرت «بما يكلّم» وجعلت الجارّ في قوله: ﴿أو من وراء حجاب﴾ متعلّقاً بفعل مراد في الصلة محذوف حذفاً للدلالة عليه، ويكون في المعنى معطوفاً على الفعل المقدّر صلة. لأنّ الموصول يوحي، فيكون التقدير: ما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا أن يوحى إليه، أو يكلّمه من وراء حجاب، فحذف «يكلم» من الصلة. لأنّ ذكره قد جرى وإن كان خارجاً من الصلة. فحسن لذلك حذفه من الصلة.

ومن رفع ﴿أو يرسل رسولاً﴾ فإنّه يجعل ﴿يرسل﴾ حالاً والجارّ في قوله: ﴿أو من وراء حجاب﴾ يتعلّق بمحذوف، ويكون في الظرف ذكر من ذي الحال، ويكون قوله: ﴿إلّا وحياً﴾ على هذا التقدير مصدراً وقع موقع الحال، كقولك جئت ركضا أو أتيت عدواً. ومعنى: ﴿أو من وراء حجاب﴾ فيمن قدّر الكلام استثناء منقطعاً أو حالاً: يكلّمهم غير مجاهر لهم بكلامه، يريد أنّ كلامه يسمع ويحدث من حيث لا يرى، كما ترى سائر المتكلّمين، ليس إنّ ثَمَّ حجاباً يفصل موضعاً من موضع، فيدلّ ذلك على تحديد المحجوب.

ومن رفع ﴿يرسل﴾ كان ﴿يرسل﴾ في موضع نصب على الحال.

والمعنى هذا كلامه كما تقول: تحيّتك الضرب وعتابك السيف[١].

يقول الله تعالى: إنّه ليس لبشر من الخلق أن يكلّمه الله إلّا أن يوحي إليه وحياً ﴿أو من وراء حجاب﴾ معناه: أو بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب، لأنّه تعالى لا يجوز عليه ما لايجوز إلّا على الأجسام من ظهور الصورة للأبصار ﴿أو يرسل رسولاً﴾ فإن جعلناه عطفاً على إرسال الرسول، كان أحد أقسام الكلام كما قلناه في قولهم: عتابك السيف، كأنّه قال إلّا وحياً أو إرسالاً، وإن لم تجعله عطفاً لم يكن أحد أقسامه، ويكون كقولهم: لأُلزمنّك أو تعطيني حقّي، فلا يكون الإرسال في هذا الوجه كلاماً، فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة أقسام:

أولها: أن يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب، كما خاطب الله به موسى عليه السلام.

الثاني: بوحي يأتي به الملك إلى النبيّ من البشر كسائر الأنبياء.

الثالث: بتأدية الرسول إلى المكلّفين من الناس.

وقيل في الحجاب ثلاثة أقوال:

أحدها: حجاب عن إدراك الكلام لا المكلّم وحده.

الثاني: حجاب لموضع الكلام.

الثالث: إنّه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب ﴿فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ معناه: إنّ ذلك الرسول الّذي هو الملك يوحي إلى النبيّ من البشر بأمر الله ما شاءه الله ﴿إنّه عليّ حكيم﴾ معناه: إنّ كلامه المسموع منه لا يكون مخاطبة يظهر فيها المتكلّم بالرؤية، لأنّه العليّ عن الإدراك بالأبصار وهو

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٦٥.

الحكيم في جميع أفعاله وفي كيفيّة خطابه لخلقه.

وقال السدّي: معنى الآية: أنّه لم يكن لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً بمعنى إلّا إلهاماً بخاطر أو في منام أو نحوه من معنى الكلام إليه في خفاء ﴿أو من وراء حجاب﴾ يحجبه عن إدراك جميع الخلق إلّا عن المتكلّم الّذي يسمعه كما سمع موسى كلام الله ﴿أو يرسل رسولاً﴾ يعني: به جبرائيل.

وقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ معناه: مثل ما أوحينا إلى من تقدّم من الأنبياء أوحينا إليك كذلك[١] الوحي من الله إلى نبيّه روح من أمره وهو نور يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم بصاحبه إلى الجنّة والصراط المستقيم الطريق المؤدّي إلى الجنّة، وهو صراط الله الّذي له ما في السماوات وما في الأرض ملك له يتصرّف فيه كيف يشاء، وهو صراط من تصير الأُمور إليه، ولا يبقى لاحد أمر ولا نهي ولا ملك ولاتصرّف، وهو يوم القيامة. وقوله: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ يعني: ما كنت قبل البعث تدري ما الكتاب ولا ما الايمان قبل البلوغ ﴿ولكن جعلناه﴾ يعني: الروح الّذي هو القرآن ﴿نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ يعني: من المكلّفين، لأنّ من ليس بعاقل وإن كان عبد الله، فلايمكن هدايته لأنّه غير مكلّف.

ثمّ قال: ﴿وانك لتهدي﴾ يا محمّد ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي: طريق مفض إلى الحقّ، وهو الايمان، وإنّما جرّ ﴿صراط الله﴾ بأنّه بدل من قوله: ﴿صراط مستقيم﴾ ثمّ قال: ﴿ألا إلى الله تصير الأُمور﴾ أي: إليه ترجع الأُمور والتدبير وحده يوم القيامة.

---

(١) في الحجريّة بدل «كذلك» «الثالثة».

## سورة الزخرف

هي مكّية في قول مجاهد وقَتادة، وهي تسع وثمانون آية بلا خلاف في جملتها[١].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾.

خمس آيات في الكوفي وأربع في ما سواه، عدّ الكوفيون ﴿حم﴾ ولم يعدّه الباقون.

قرأ نافع وحمزة والكسائي وخلف ﴿إن كنتم﴾ بكسر الهمزة جعلوه شرطاً مستأنفاً واستغنى عمّا تقدّم، كقولك: أنت عالم إن فعلت، فكأنّه قال: إن كنتم قوماً مسرفين نضرب. الباقون بفتحها جعلوه فعلاً ماضياً أي: إذا[٢] كنتم، كما قال: ﴿أن جاءه الأعمى﴾[٣] والمعنى إذ جاءه الأعمى، فموضع

(١) في الحجريّة زيادة: قوله تبارك وتعالى. (٢) في الخطّية: إذ. (٣) عبس: ٢.

﴿أن﴾ نصب عند البصريّين، وجرّ عند الكسائي لأنّ التقدير أفنضرب الذكر صفحاً لأن كنتم، وبأن كنتم قوماً مسرفين. و«المسرف» الّذي ينفق ماله في معصية الله، ولا إسراف في الطاعة.

قد بيّنّا معنى ﴿حم﴾ في ما مضى، واختلاف المفسّرين فيه، فلا معنى لإعادته.

وقوله: ﴿والكتاب﴾ خفض بالقسم. وقيل: تقديره: وربّ الكتاب[١] والمراد بالكتاب القرآن والمبين صفة له. وإنّما وصف بذلك لأنّه أبان عن طريق الهُدى من الضلالة، وكلّ ما تحتاج إليه الأُمّة في الديانة. و«البيان» هو الدليل الدالّ على صحّة الشيء أو فساده. وقيل: هو ما يظهر به المعنى للنفس عند الإدراك بالبصر والسمع، وهو على خمسة أوجه: باللفظ، والخطّ، والعقد بالأصابع، والإشارة إليه، والهيئة الظاهرة للحاسّة، كالإعراض عن الشيء والإقبال عليه، والتقطيب وضدّه وغير ذلك. وأمّا ما يوجد في النفس من العلم، فلا يسمّى بياناً على الحقيقة وكلّ ما هو بمنزلة الناطق بالمعنى المفهوم فهو مبين.

وقوله: ﴿إنّا جعلناه قرآناً عربياً﴾ إخبار منه تعالى أنّه جعل القرآن الّذي ذكره عربيّاً بأن جعله على طريقة العرب في مذاهبها في الحروف والمفهوم. ومع ذلك فإنّه لا يتمكّن أحد منهم من إنشاء مثله والإتيان بما يقاربه في علوّ طبقته في البلاغة والفصاحة، إمّا لعدم علمهم بذلك أو صرفهم على حسب اختلاف الناس فيه. وهذا يدلّ على جلالة موقع التلبية في التمكين به[٢] والتعذّر مع فقده. وفيه دلالة على حدوثه لأنّ

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢١٤.

(٢) وفي الحجريّة والمطبوعة: موقع التسمية في التمكّن به. وعلى التعبيرين لم يتّضح لنا معناه.

المجعول هو المُحدَث. ولأنّ ما يكون عربيّاً لا يكون قديماً لحدوث العربيّة. فإن قيل: معنى جعلناه سمّيناه لأنّ الجعل قد يكون بمعنى التسمية. قلنا: لا يجوز ذلك هاهنا، لأنّه لو كان كذلك لكان الواحد مِنّا إذا سمّاه عربيّاً فقد جعله عربيّاً ويكون عربيّاً، وكان يجب لو كان القرآن على ما هو عليه وسمّاه الله أعجميّاً أن يكون أعجميّاً أو[١] كان يكون بلغة العَجَم وسمّاه عربيّاً أن يكون عربيّاً، وكلّ ذلك فاسد.

وقوله: ﴿لعلّكم تعقلون﴾ معناه: جعلناه على هذه الصفة لكي تعقلوا وتفكّروا في ذلك فتعلموا صدق من ظهر على يده.

وقوله: ﴿وإنّه﴾ يعني: القرآن ﴿في أُمّ الكتاب لدينا﴾ يعنى: اللوح المحفوظ الّذي كتب الله فيه ما يكون إلى يوم القيامة لما فيه من مصلحة ملائكته بالنظر فيه وللخلق فيه من اللطف بالإخبار عنه ﴿وأُمّ الكتاب﴾ أصله، لأنّ أصل كلّ شيء أمّه.

وقوله: ﴿لعليّ حكيم﴾ معناه: لعال في البلاغة مظهر ما بالعباد إليه الحاجة ممّا لا شيء أولى منه، يحسن طريقه[٢] ولا شيء أحسن منه. والقرآن بهذه الصفة عَلِمه مَن عَلِمه وجَهله مَنْ جَهله لتفريطه فيه و﴿حكيم﴾ معناه: مظهر المعنى[٣] الّذي يعمل عليه المؤدّي إلى العلم والصواب. والقرآن حكمة من هذا الوجه لأنّه مظهر للحكمة البالغة، عند تدبّره وإدراكه.

ثمّ قال لمن جحده ولم يعتبر به على وجه الإنكار عليهم: ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ معناه: أنعرض عنكم جانباً بإعراضكم عن القرآن

---

(١) في الخطّية: لو. (٢) الواو لا يرد في الخطّية. (٣) في الحجريّة: للمعنى.

والتدبّر له والتفكّر فيه ﴿أن كنتم قوماً مسرفين﴾ على نفوسكم بترككم النظر فيه والاعتبار بحججه. ومن كسر الهمزة جعله مستأنفاً شرطاً، ومن فتحها جعله فعلاً ماضياً أي: إذ كنتم كما قال: ﴿أن جاءه الأعمى﴾ [(١)] بمعنى: إذ جاءه الأعمى، فموضع «أن» نصب عند البصريّين وجرّ عند الكسائي، لأنّ التقدير: الذكر صفحاً لأن كنتم وبأن كنتم. قال الشاعر:

أتجزَعُ أن بان الخليطُ المُودّعُ ... وحبل الصفا من عزة المتقطّع [(٢)]

و«المسرف» الّذي ينفق ماله في معصية الله، لأنّ من أنفقه في طاعة أو مباح لم يكن مسرفاً وقال عليّ عليه السلام: «لا إسراف في المأكول والمشروب» و «صفحاً» نصب على المصدر، لأنّ قوله ﴿أفنضرب عنكم الذّكر﴾ يدلّ على أن أصفح عنكم صفحاً وكان قولهم: صفحت عنه أي: أعرضت وولّيته صفحة العنق. والمعنى: أفنضرب ذكر الانتقام منكم والعقوبة لكم لأن كنتم قوماً مسرفين، كما قال: ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ [(٣)] ومن كسر فعلى الجزاء واستغنى عن جوابه بما تقدّم كقولهم: أنت ظالم إن فعلت، كأنّه قال إن كنتم مسرفين نضرب. وقال المبرّد: المعنى متى فعلتم هذا طلبتم أن نضرب الذكر عنكم صفحاً. قال الفرّاء: تقول العرب: أضربت عنك وضربت عنك بمعنى: تركتك وأعرضت عنك[(٤)]. وقال الزجّاج: المعنى أفنضرب عنكم الذكر أي نهملكم فلا نعرّفكم ما يجب عليكم لأن أسرفتم[(٥)]. وأصل ضربت عنه الذكر أنّ الراكب إذا ركب دابّة فأراد أن يصرفها عن جهة ضربها بعصاء أو سوط لتعدل به إلى جهة أُخرى يريدها

---

(١) عبس: ٢.
(٢ و ٤) معاني القرآن ٣: ٢٨.
(٣) القيامة: ٣٦.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٠٦.

ثمّ يوضع الضرب موضع الصرف والعدل. وصفحاً مصدر أُقيم مقام الفاعل، ونصب على الحال. والمعنى أفنضرب عنكم تذكيرنا إيّاكم الواجب صافحين أومعرضين، يقال صفح فلان بوجهه عنّي، أي: أعرض، قال كُثَيِّر:

صفوحٌ فما تلقاك إلّا بخيلة فمن ملّ منها ذلك الوصل ملّت[١]

و«الصفوح» في صفات الله معناه: العفو يقال: صفح عن ذنبه إذا عفا. وقال بعضهم: المعنى أفظننتم أن نضرب عنكم هذا الذكر الّذي بيّنّا لكم فيه أمر دينكم صفحاً، فلا نلزمكم العمل بما فيه، ولا نؤاخذكم لمخالفتكم إيّاه إن كنتم قوماً مسرفين على أنفسكم[٢] وجرى ذلك مجرى قول أحدنا لصاحبه وقد أنكر فعله أأتركك تفعل ما تشاء، أغفل عنك إذا أهملت نفسك، ففي ذلك إنكار ووعيد شديد.

قوله تعالى:

وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

يقول الله تعالى مخبراً: ﴿وكم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين﴾ يعني: في الأُمم الماضية ﴿وكم﴾ موضوعة للتكثير في باب الخبر، وهي ضدّ «رُب» لأنّها للتقليل.

ثمّ أخبر عن تلك الأُمم الماضية أنّه كان ما يجيئهم نبيّ من قِبل الله إلّا كانوا يستهزؤن به بمعنى: يسخرون منه. فـ«الاستهزاء» إظهار خلاف الإبطان

(١) ديوان كُثَيِّر: ٥٥. (٢) راجع النكت والعيون ٥: ٢١٦.

استصغاراً أو استحقاراً فالأُمم الماضية كفرت بالأنبياء واحتقروا ما أتوا به، وظنّوا أنّه من المخاريق الّتي لايعمل عليها لجهلهم وفرط عنادهم، فلذلك حملوا أنفسهم على الاستهزاء بهم، وهو عائد بالوبال عليهم.

فإن قيل: لم بعث الله الأنبياء مع علمه بأنّهم يستهزؤن بهم ولا يؤمنون عنده؟ قيل: يجوز أن يكون فيهم قوم آمنوا وإن قلّوا. وإنّما أخبر الله بالاستهزاء عن الأكثر، ولذلك قال في موضع: ﴿ومن آمن وما آمن معه إلّا قليل﴾ وأيضاً فكان يجوز أن يكون لولا إرسالهم لوقع منهم من المعاصي أضعاف ما وقع عند إرسالهم، فصار إرسالهم لطفاً في كثير من القبائح فلذلك وجب وحسن، على أنّ في إرسالهم تمكينهم ممّا كلّفوه، لأنّه إذا كان هناك مصالح لا يمكنهم معرفتها إلّا من جهة الرسل وجب على الله أن يبعث إليهم الرسل ليعرّفوهم تلك المصالح، فإذا لم يؤمنوا بهم وبما معهم من المصالح أتوا [بالقبائح][1] من قبل نفوسهم، والحجّة قائمة عليهم.

وقوله: ﴿فأهلكنا أشدّ منهم بطشاً﴾ إخبار منه تعالى أنّه أهلك الّذين هم أشدّ بطشاً من هؤلاء المشركين الّذين كانوا في عصر النبيّ ﷺ، فلذلك قال: ﴿أو مضى مثل الأوّلين﴾ أي: وهو مثل لهؤلاء الباقين، ومعناه إنّكم قد سلكتم في تكذيب الرسل مسلك من كان قبلكم فاحذروا أن ينزل بكم من الخزي ما نزل بهم. قال الحسن: أشدّ قوّة من قومك.

ثمّ قال: ﴿ولئن سألتهم﴾ يعني الكفّار: ﴿من خلق السماوات والأرض﴾ بأن أنشأها واخترعها لم يكن جوابهم في ذلك إلّا أن يقولوا ﴿خلقهنّ﴾ يعني: السماوات والأرض ﴿العزيز﴾ الّذي لا يغالب ولا يقهر ﴿العليم﴾

---

(١) من المطبوعة.

بمصالح الخلق وهو الله تعالى، لأنّهم لا يمكنهم أن يحيلوا في ذلك على الأجسام والأوثان لظهور فساد ذلك، وليس في ذلك ما يدلّ على أنّهم كانوا عالمين بالله ضرورة، لأنّه لا يمتنع أن يكونوا عالمين بذلك استدلالاً، وإن دخلت عليهم شبهة في أنّه يستحقّ العبادة سواه. وقال الجبائي: لا يمتنع أن يقولوا بذلك تقليداً لأنّهم لو علموه ضرورة لعلموا أنّه لا يجوز أن يُعبد معه غيره وهو الّذي يليق بمذهبنا في الموافاة.

ثمّ وصف العزيز العليم الخالق للسماوات والأرض فقال: هو ﴿الّذي جعل لكم الأرض مهداً وجعل لكم فيها سبلاً﴾ تسلكونها لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في أسفاركم. وقيل: معناه لتهتدوا إلى الحقّ في الدين والاعتبار الّذي جعل لكم بالنظر فيها[1].

قوله تعالى:

وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][2]: يقول الله تعالى: إنّ الّذي جعل لكم الأرض مهداً لتهتدوا إلى مراشدكم في دينكم ودنياكم هو ﴿الّذي نزّل من السماء ماء﴾ يعني: غيثاً ومطراً ﴿بقدر﴾ أي: على قدر الحاجة لا زيادة عليها فيفسد ولا ناقصاً عنها فيضرّ ولا ينفع، بل هو مطابق للحاجة وبحسبها، وذلك يدلّ على أنّه واقع

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٥٢.

(٢) من الحجريّة.

من مختار يجعله على تلك الصفة قد قدّره على ما تقتضيه الحكمة لعلمه بجميع ذلك.

وقوله: ﴿فأنشرنا به بلدة ميتاً﴾ أي: أحييناها بالنبات بعد أن كانت ميتاً بالقحل والجفاف تقول: أنشر الله الخلق فنشروا أي: أحياهم فحَيِيوا. ثمّ قال: ﴿وكذلك تخرجون﴾ أي مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة فأحياها بالنبات مثل ذلك يخرجكم من القبور بعد موتكم، وإنّما جمع بين إخراج النبات وإخراج الأموات لأنّ كلّ ذلك متعذّر على كلّ قادر إلّا القادر لنفسه الّذي لا يعجزه شيء، ومن قدر على أحدهما قدر على الآخر بحكم العقل.

وقوله: ﴿والّذي خلق الأزواج كلّها﴾ معناه: الّذي خلق جميع الأشكال من الحيوان والجماد فمن الحيوان الذكر والأُنثى ومن غير الحيوان ممّا هو متقابل[1] كالحلو والحامض والحلوا والمرّ والرطب واليابس وغير ذلك من الأشكال. وقال الحسن: الأزواج الشتاء والصيف، والليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والأرض، والجنّة والنار.

وقوله: ﴿وجعل لكم من الفلك﴾ يعني: السفن ﴿والأنعام﴾ يعني: الإبل والبقر وما جرى مجراهما من الدوابّ والحمير الّتي تصلح للركوب.

ثمّ بيّن أنّه خلق ذلك وغرضه ﴿لتستووا على ظهوره﴾ وإنّما وحّد الهاء في قوله ﴿على ظهوره﴾ لأنّها راجعة إلى «ما» كما قال: ﴿ممّا في بطونه﴾[2] وفي موضع آخر ﴿بطونها﴾[3] ردّها إلى الأنعام، فذكّر في «ما» وانثّ في الأنعام. وقال الفرّاء: [يقول القائل: كيف قال: ﴿على

---

(١) في الخطّية: كالمتقابل. (٢) النحل: ٦٦. (٣) المؤمنون: ٢١.

ظهوره﴾ فأضاف الظهور إلى واحد؟ يقال له: إنّ ذلك الواحد في معنى جمع بمنزلة الجند والجيش والجميع. فإن قال: فهلّا قلت: لتستووا على ظهره فجعلت الظهر واحداً إذا أضفته إلى واحد؟ قلت: إنّ الواحد فيه معنى الجمع فردّت الظهور إلى المعنى. ولم تقل: ظهره، فيكون كالواحد الّذي معناه ولفظه واحد.][1]

ومعنى الآية أن غرضه تعالى أن تنتفعوا بالاستواء على ظهورها ﴿ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه﴾ فتشكروه على تلك النعم ﴿وتقولوا﴾ معترفين بنعم الله ومنزّهين له عن صفات المخلوقين ﴿سبحان الّذي سخّر لنا هذا﴾ يعني: هذه الأنعام والفلك ﴿وما كنّا له مقرنين﴾ أي: مطيقين، يقال: أنا لفلان مقرن أي: مطيق أي: أنا قرن له، ويقال: أقرن يقرن إقراناً إذا أطاق وهو من المقارنة كأنّه يطيق حمله في تصرّفه. وقيل ﴿مقرنين﴾ أي: مطيقين أي: يقرن بعضها ببعض حتّى يسيّرها إلى حيث يشاء[2]. وليقولوا أيضاً ﴿وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون﴾ أي: راجعون إليه يوم القيامة.

فإن قيل: قوله: ﴿ولتستووا على ظهوره﴾ يفيد أنّ غرضه بخلق الأنعام والفلك أن يستووا على ظهورها، وإنّه يريد ذلك منهم. والاستواء على الفلك والأنعام مباح، ولا يجوز أن يريده الله تعالى؟!

قيل: يجوز أن يكون المراد بقوله:﴿لتستووا على ظهوره﴾ في المسير إلى ما أمر الله بالمسير إليه من الحجّ والجهاد وغير ذلك من العبادات، وذلك يحسن إرادته، وإنّما لا يحسن إرادة ما هو مباح محض. وأيضاً، فإنّه

---

(١) مابين المعقوفتين نقلناه من المصدر (معاني القرآن ٣: ٢٨) لاختلاف في نسختي الخطّية والحجريّة.

(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٢١٨.

تعالى قال: ﴿ثمّ تذكروا نعمة ربّكم﴾ أن تعترفوا بنعم الله بالشكر عليها وتقولوا ﴿سبحان الّذي سخّر لنا هذا﴾ وذلك طاعة يجوز أن يكون مراداً تتعلّق الإرادة به.

وقوله: ﴿وجعلوا له من عباده جزءاً﴾ إخبار منه تعالى أنّ هؤلاء الكفّار جعلوا لله من عباده جزءاً. وقيل فيه وجهان:

أحدهما: أنّهم جعلوا لله جزءاً من عبادته لأنّهم أشركوا بينه وبين الأصنام.

وقال الحسن: زعموا أنّ الملائكة بنات الله وبعضه فالجزء الّذي جعلوه له من عباده هو قولهم: «الملائكة بنات الله»[١] ثمّ قال تعالى مخبراً عن حال الكافر لنعم الله فقال: ﴿إنّ الإنسان لكفور﴾ لنعم الله جاحد لها ﴿مبين﴾ أي: مظهر لكفره غير مستتر به.

قوله تعالى:

أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][٢]: قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿أو من ينشّأ﴾ بضمّ الياء وتشديد الشين. الباقون بفتح الياء والتخفيف. وقرأ ابن كثير ونافع وابن‌عامر ﴿عند الرحمن﴾ بالنون. الباقون ﴿عباد﴾ على الجمع. وقرأ نافع

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٢١٩.
(٢) من الحجريّة.

﴿أأشهدوا﴾ بضمّ الألف وفتح الهمزة من «أشهدت» الباقون ﴿أشهدوا﴾ من «شهدت» من قرأ ﴿ينشّأ﴾ بالتشديد جعله في موضع مفعول لأنّه تعالى قال: ﴿إنّا أنشأناهنّ إنشاء﴾ [١] فأنشأت ونشأت بمعنى إذا ربيت. وتقول: نشأ فلان ونشأه غيره وغلام ناشئ أي: مدرك. وقيل في قوله: ﴿ثمّ أنشأناه خلقاً آخر﴾ [٢] قال هو نبات شعره وإبطه [٣] ومن خفّف جعل الفعل لله، لأنّ الله أنشأهم فنشؤوا، ويقال للجوار [٤] المِلاح: النَشَأ قال نُصَيْب [٥]:

ولولا أن يـقال صـبا نُـصَيب ... لقُلْتُ بنفسي النَشَأ الصغار [٦]

ومن قرء عباد فجمع «عبد» فهو كقوله: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون﴾ [٧] فـأراد الله أن يكـذّبهم فـي قـولهم: إنّ الملائكة بنات الله، وبيّن أنّهم عباده. ومن قرأ ﴿عند﴾ بالنون، فكقوله ﴿إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته﴾ [٨] وقال سعيد بن جبير: قلت لابن عبّاس في مصحف ﴿عباد﴾ فقال: حكّه. ووجه قراءة نافع ﴿أأشهدوا﴾ أنّه جعله من أشهد يشهد جعلهم مـفعولين، وقـال تـعالى: ﴿ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ [٩] من قرأ بفتح الهمزة جعله من شهد يشهد فهؤلاء الكفّار إذا لم يشهدوا خلق السـماوات والأرض ولا خـلق أنفسهم مـن أيـن عـلموا أنّ المـلائكة بـنات الله وهـم لم يشـهدوا ذلك، ولم يخبرهم عنه مخبر؟!.

لمّا أخبر الله تعالى عن الكفّار أنّهم جعلوا له من عباده جـزءاً عـلى

---

(١) الواقعة: ٣٥. (٢) المؤمنون: ١٤. (٣) النكت والعيون ٤: ٤٨.
(٤) في الخطّية: للجواري. (٥) في الحجريّة: نصيّب. (٦) كتاب العين، مادّة: نشأ، ٤: ٨٠.
(٧) النساء: ١٧٢. (٨) الأعراف: ٢٠٦. (٩) الكهف: ٥١.

مافسّرناه، وحكم عليهم بأنّهم يجحدون نعمه ويكفرون أياديه، فسّر ذلك وهو أنّهم قالوا: ﴿أم اتّخذ ممّا يخلق بنات وأصفاكم بالبنين﴾ في هذا القول حجّة عليهم لأنّه ليس بحكيم من يختار لنفسه أدون المنزلتين ولغيره أعلاهما، فلو كان على ما يقول المشركون من جواز اتّخاذ الولد عليه لم يتّخذ لنفسه البنات ويصفيهم بالبنين فغلطوا في الأصل الّذي هو جواز اتّخاذ الولد عليه، وفي البناء على الأصل باتّخاذ البنات، فنعوذ بالله من الخطاء في الدين. ومعنى ﴿أصفاكم﴾ خصّكم وآثركم بالذكور واتّخذ لنفسه البنات.

ثمّ قال تعالى: ﴿وإذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً﴾ يعني: إذا ولد لواحد منهم بنت حسب ما أضافوها إلى الله تعالى ونسبوها إليه على وجه المثل لذلك ﴿ظلّ وجهه مسودّاً﴾ أي: متغيّراً ممّا يلحقه من الغمّ بذلك حتّى يسودّ وجهه ويربدّ ﴿وهو كظيم﴾ قال قَتادة معناه: حزين. وفى هذا أيضاً حجّة عليهم لأنّ من اسودّ وجهه بما يضاف إليه ممّا لا يرضى فهو أحقّ أن يسودّ وجهه بإضافة مثل ذلك إلى من هو أجلّ منه، فكيف إلى ربّه.

ثمّ قال تعالى على وجه الإنكار لقولهم: ﴿أو من ينشّؤ في الحلية﴾ قال ابن عبّاس ﴿أو من ينشّوء في الحلية﴾ المراد به المرأة. وبه قال مجاهد والسدّي، فهو في موضع نصب والتقدير: أو من ينشّؤ في الحلية يجعلون. ويجوز أن يكون الرفع بتقدير: أُولئك ولده على ما قالوا هم بناته يعني: من ينشّؤ في الحلية على وجه التزيّن بها يعني: النساء في قول أكثر المفسّرين. وقال أبو زيد: يعني: الأصنام[1]. والأوّل أصحّ ﴿وهو في الخصام غير مبين﴾

---

(١) تفسير الطبري ١١: ١٧٤. فيه: ابن زيد.

في حال الخصومة، فهو ناقص عمّن هو بخلاف هذه الصفة من الشبيه على ما يصلح للجدال ودفع الخصم الألدّ بحسن البيان عند الخصومة، فعلى هذا يلزمهم أن يكونوا بإضافة البنات قد أضافوا أدنى الصفات إليه.

ثمّ قال تعالى: ﴿وجعلوا) يعني: هؤلاء الكفّار ﴿الملائكة الّذين هم عباد الرحمن﴾ متذلّلون له خاضعون له. ومن قرأ بالنون أراد الّذين هم مصطفون عند الله ﴿إناثاً﴾ فقال لهم على وجه الإنكار: ﴿أشهدوا خلقهم﴾ ثمّ قال: ﴿ستكتب شهادتهم﴾ بذلك ﴿ويسألون﴾ عن صحّتها. وفائدة الآية أنّ من شهد بما لا يعلم فهو حقيق بأن يوبّخ ويذمّ على ذلك وشهادته بما هو متكذّب به على الملائكة أعظم من الفاحشة، للإقدام على تنقّصهم في الصفة، وإن كان في ذلك على جهالة.

ثمّ حكى عنهم إنّهم قالوا: ﴿لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ كما قالت المجبّرة: بأنّ الله تعالى أراد كفرهم، ولو لم يشأ ذلك لما كفروا، فقال الله لهم على وجه التكذيب: ﴿مالهم بذلك من علم أن هم إلّا يخرصون﴾ أي: ليس يعلمون صحّة ما يقولونه وليس هم إلّا كاذبين. ففي ذلك إبطال مذهب المجبّرة في أنّ الله تعالى يريد القبيح من أفعال العباد، لأنّ الله تعالى قطع على كذبهم في أنّ الله تعالى يشاء عبادتهم للملائكة، وذلك قبيح لا محالة وعند المجبّرة الله تعالى شاءه. وقد نفاه تعالى عن نفسه وكذّبهم في قولهم فيه.

قوله تعالى:

أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن

نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَـٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١]: قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم ﴿قال أولو جئتكم﴾ على أنّه فعل ماض، وتقديره: قال النذير. الباقون ﴿قل﴾ على الأمر على وجه الحكاية لما أوحى الله إلى النذير. قال كأنّه قال أوحينا إليه أي: فقلنا له ﴿قل أولو جئتكم﴾ وقرأ أبو جعفر ﴿جئناكم﴾ بالنون على وجه الجمع.

لمّا حكى الله تعالى تخرّص من يضيف عبادة الأصنام والملائكة إلى مشيئة الله، وبيّن أنّه لا يشاء ذلك قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾ والمعنى: التقرير لهم على خطئهم بلفظ الاستفهام، والتقدير: أهذا الّذي ذكروه شيء تخرصوه وافتروه ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾؟! فإذا لم يمكنهم ادّعاء أنّ الله أنزل بذلك كتاباً عُلم أنّه من تخرّصهم ودلّ على حذف حرف الاستفهام ﴿أم﴾ لأنّها المعادلة.

ثمّ قال: ليس الأمر على ما قالوه ﴿بل قالوا﴾ يعني: الكفّار ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة والسدّي: يعني: على ملّة وسمّيت الديانة أُمّة لاجتماع الجماعة على صفة واحدة فيها. وقرئ ﴿على إمّة﴾ بكسر الهمزة والمراد به الطريقة[٢] ﴿وإنّا على آثارهم﴾ أي: على آثار آبائنا ﴿مهتدون﴾ نهتدي بهداهم.

ثمّ قال مثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر

---

(١) من الحجريّة.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٠٨.

كذلك لم نرسل من قبلك في قرية ومجمع من الناس نـذيراً لأنّ «مـن» زيادة ﴿إلّا قال مترفوها﴾ وهم الّذين آثروا الترفة على طلب الحجّة، وهم المتنعّمون الرؤساء ﴿إنّا وجدنا آباءنا على أمّة﴾ يعني: على ملّة ﴿وإنّا على آثارهم مقتدون﴾ نقتدي بهم فأحال الجميع على التقليد للآباء فحسب دون الحجّة، والتقليد قبيح بموجب العقل لأنّه لو كان جائزاً للزم فيه أن يكون الحقّ في الشيء ونقيضه، فيكون عابد الوثن يقلّد أسلافه، وكـذلك يـقلّد أسلافه اليهودي والنصراني والمجوسي، وكلّ فريق يعتقد أنّ الآخر عـلى خطأ وضلال. وهذا باطل بلا خلاف، فإذاً لابدّ من الرجوع إلى حجّة عقل أو كتاب منزل من قِبَل الله.

فقال الله تعالى للنذير: ﴿قل﴾ لهم ﴿أوَ لو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم﴾ فهل تقبلونه؟ وفي ذلك حسن التلطّف في الاستدعاء إلى الحقّ، وهو أنّه لو كان ما يدعونه حقّاً وهدى على ما تدّعونه، لكان ما جئتكم به من الحقّ أهدى من ذلك وأوجب أن يتّبع ويرجع إليه، لأنّ ذلك إذا سلموا أنّه أهدى ممّا هم عليه بطل الردّ والتكذيب، وإذا بطل ذلك لزم اتّباعه في ترك ما هم عليه.

ثمّ حكى ما قالوا في الجواب عن ذلك فإنّهم قالوا: ﴿إنّا بما أُرسلتم به﴾ معاشر الأنبياء ﴿كافرون﴾ ثمّ أخـبر تـعالى فـقال: ﴿فانتقمنا منهم﴾ بـأن أهلكناهم وعجّلنا عقوبتهم ﴿فانظر﴾ يا محمّد ﴿كيف كان عاقبة المكذّبين﴾ لأنبياء الله والجاحدين لرسله.

قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ

سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][1]: يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: واذكر يا محمّد ﴿إذ قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾ حين رآهم يعبدون الأصنام والكواكب ﴿إنّني براء ممّا تعبدون﴾ أي: بريء من عبادتكم الأصنام والكواكب، فقوله: ﴿براء﴾ مصدر وقع موقع الوصف، لا يثنّى ولا يجمع ولا يؤنّث، نقول نحن البراء منك والغلا.

ثمّ استثنى من جملة ما كانوا يعبدونه الله تعالى فقال: ﴿إلّا الّذي فطرني﴾ معناه: إنّي بريء من كلّ معبود سوى الله تعالى الّذي فطرني أي: خلقني وابتدأني، وتقديره: إلّا مَن الّذي فطرني. وقال قتادة: كانوا يقولون الله ربّنا مع عبادتهم الأوثان ﴿فإنّه سيهدين﴾ في ما بعد. والمعنى إنّه سيهديني إلى طريق الجنّة بلطف من ألطافه يكون داعياً إلى أن أتمسّك به حتّى يؤديني إليها، وإنّما قال ذلك ثقة بالله تعالى ودعاء لقومه إلى أن يطلبوا الهداية من ربّه. والتبرّي من كلّ معبود من دون الله واجب بحكم العقل، كما يجب ذمّه على فعل القبيح لما في ذلك من الزجر عن القبيح والردع عن الظلم، فكذلك يجب قبول قول من أخلص عبادة الله، كما يجب مدحه على فعله.

وقوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ معناه: جعل هذه الكلمة الّتي قالها إبراهيم كلمة باقية في عقبه بما أوصى به ممّا أظهره الله من قوله إجلالاً له وتنزيهاً له ورفعاً لقدره بما كان منه من جلالة الطاعة والصبر على أمر الله.

---

(١) من الحجريّة.

وقال قَتادة ومجاهد والسدّي: معنى قوله: ﴿وجعلها كلمة باقية في عقبه﴾ قوله: لا إله إلّا الله لم يزل في ذرّيته من يقولها. وقال ابن زيد: هو الإسلام بدلالة قوله: ﴿هو سمّاكم المسلمين﴾[١]. وقال ابن عبّاس: في عقبه من خلفه. وقال مجاهد: في ولده وذرّيته. وقال السدّي: في آل محمّد عليهم السلام. وقال الحسن: عقبه، ولده إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿لعلّهم يرجعون﴾ قال الحسن: معناه: راجع إلى قوم إبراهيم. وقال الفرّاء: معناه: ﴿لعلّهم يرجعون﴾ عمّا هم عليه إلى عبادة الله[٢]. وقال قتادة: معناه: لعلّهم يعترفون ويذكرون الله.

وقال الله تعالى: إنّا لم نعاجل هؤلاء الكفّار بالعقوبة ﴿بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتّى جاءهم الحقّ﴾ يعني: القرآن ﴿ورسول مبين﴾ أي: مظهر للحقّ، يعني: محمّداً صلّى الله عليه وآله.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولمّا جاءهم الحقّ﴾ يعني: القرآن ﴿قالوا هذا سحر﴾ وهو حيلة خفيّة توهم المعجزة ﴿وإنّا به﴾ يعني: بالقرآن ﴿كافرون﴾ أي: جاحدون لكونه من قِبَل الله تعالى وإنّما كان من نسب الحقّ والدين إلى السحر كافراً بالله، لأنّه بمنزلة من عرف نعمة الله وجحدها في عظيم الجرم، فسمّي باسمه ليدلّ على ذلك.

قوله تعالى:

وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

---

(١) الحجّ: ٧٨. الكشف والبيان ٨: ٣٣٢، النكت والعيون ٥: ٢٢٢. (٢) معاني القرآن ٣: ٣١.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَالِكَ لَمَّا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][١]: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿سقفاً﴾ على التوحيد بفتح السين. الباقون ﴿سقفاً﴾ بضمّ السين والقاف على الجمع. وقرأ حمزة والكسائي ﴿لمّا متاع الحياة الدنيا﴾ مشدّدة الميم. الباقون خفيفة. من شدّد الميم جعل «لمّا» بمعنى «إلّا» ومن خفّف جعل «ما» صلة إلّا ابن عامر فإنّه خفّف وشدّد. قال أبو عليّ: من خفّف جعل «إن» المخفّفة من الثقيلة وأدخل اللام للفصل بين النفي والإيجاب، كقوله: ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾[٢] ومن نصب بها مخفّفة، فقال إن زيداً لمنطلق استغنى عن اللام، لأنّ النافية لا ينتصب بعدها الاسم، و«ما» زائدة. والمعنى: وإن كلّ ذلك لمتاع الحياة[٣].

حكى الله عن هؤلاء الكفّار الّذين حكى عنهم أنّهم قالوا لمّا جاءهم الحقّ الّذي هو القرآن ﴿لولا نزّل﴾ إن كان حقّاً ﴿على رجل من القريتين عظيم﴾ يعني بالقريتين مكّة والطائف، ويعنون بالرجل العظيم من أحد القريتين في قول ابن عبّاس الوليد بن المغيرة المخزومي القرشي من أهل مكّة، أو حبيب بن عمرو بن عمير [من الطائف وهو][٤] الثقفي. وقال مجاهد: يعني: بالّذي من أهل مكّة عقبة بن ربيعة، والّذي من أهل الطائف ابن عبد ياليل. وقال قتادة: الّذي من أهل مكّة يريدون الوليد بن المغيرة،

---

(١) من الحجريّة.
(٢) الأعراف: ١٠٢.
(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٧٦.
(٤) لا يوجد في الخطّية.

والّذي من أهل الطائف عروة بن مسعود الثقفي. وقال السدّي: الّذي من أهل الطائف كنانة بن عمرو. وإنّما قالوا ذلك لأنّ الرجلين كانا عظيمي قومهما وذوي الأموال الجسيمة فيهما، فدخلت الشبهة عليهم فاعتقدوا أنّ من كان كذلك كان أولى بالنبوّة. وهذا غلط لأنّ الله تعالى يقسم الرحمة بالنبوّة كما يقسم الرزق في المعيشة على حسب ما يعلم من مصالح عباده فليس لأحد أن يتحكّم في شيء من ذلك. فقال تعالى على وجه الإنكار عليهم والتهجين لقولهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربّك﴾ أي: ليس لهم ذلك بل ذلك إليه تعالى.

ثمّ قال تعالى: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً﴾ وقيل: الوجه في اختلاف الرزق بين الخلق في الضيق والسعة زيادة على ما فيه من المصلحة إنّ في ذلك تسخير بعض العباد لبعض بإحواجهم إليهم، لما في ذلك من الأحوال الّتي تدعو إلى طلب الرفعة وارتباط النعمة ولما فيه من الاعتبار بحال الغنى والحاجة، وما فيه من صحّة التكليف على المثوبة.

ثمّ قال تعالى: ﴿ورحمة ربّك خير ممّا يجمعون﴾ يعني: رحمة الله ونعمه من الثواب في الجنّة خير ممّا يجمعه هؤلاء الكفّار من حطام الدنيا.

ثمّ أخبر تعالى عن هوان الدنيا عليه وقلّة مقدارها عنده بأن قال: ﴿ولولا أن يكون الناس أمّة واحدة﴾ أي: لولا أنّهم يصيرون كلّهم كفّاراً ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضّة ومعارج عليها يظهرون﴾ استحقاراً للدنيا وقلّة مقدارها ولكن لا يفعل ذلك، لأنّه يكون مفسدة. والله تعالى لا يفعل ما فيه مفسدة. ثمّ زاد على ذلك وكنّا نجعل لبيوتهم زيادة

على كون سقفهم فضّة، و«السُقُف» بالضمّ جمع سَقف مثل رَهنٍ ورُهُـن. وقال مجاهد: كلّ شيء من السماء فهو سَقف، وكلّ شيء من البيوت فهو سُقُف بضمّتين، ومنه قوله: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾[١] قـال الفـرّاء: قوله ﴿لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً﴾ يحتمل أن تكون اللام الثانية مؤكّدة للأولى، ويحتمل أن تكون الثانية بمعنى «على» كأنّه قال لجـعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفاً، كما تقول: جعلت لك لقومك العطاء أي: جـعلته لأجـلك[٢] [﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً﴾ جـمع سـرير ﴿عليها يتّكئون﴾ من فضّة أيضاً وحذف لدلالة الكلام عليها. وقوله: ﴿وزخرفاً﴾ قال ابن عبّاس: هو الذهب. وبه قال الحسن وقتادة والضحّاك. وقال ابـن زيد: هو الفرش ومتاع البيت[٣]. والمزخرف المزيّن. وقال الحسن: المزخـرف المنقوش والسُقُف جمع سُقُوف كرُهُون ورُهُن. وقيل: هـو جـمع سَـقف ولا نظير له. والأوّل أولى، لأنّه على وزن زبور وزُبُـر.][٤] و«المـعارج» الدَرَج في قول ابن عبّاس وقَتادة، وهي المراقي. قال جندب[٥] بن المثنّى:

يا رَبِّ ربَّ البيت ذِي المعارِجِ[٦]

﴿ومعارج﴾ درجاً[٧] ﴿عليها يظهرون﴾ أي: يصعدون. وقال ابن عبّاس والحسن وقتادة والسدّي: لولا أن يكون الناس أُمّة واحدة أي: يجتمعون كلّهم على الكفر. وقال ابن زيد: معناه: يصيرون كلّهم أمّة واحـدة عـلى

---

(١) الأنبياء: ٣٢. (٢) معاني القرآن ٣: ٣١. (٣) النكت والعيون ٥: ٢٢٥.
(٤) والظاهر ما بين المعقوفتين ينقل إلى ما بعد كلمة «طلب الدنيا». (٥) في الحجريّة: جندب.
(٦) أنشده أبوعبيدة في مجاز القرآن ٢: ٢٠٤. (٧) وفي الخطّية: أبواباً.

طلب الدنيا[١].

ثمّ قال: ﴿وإن كلّ ذلك لمّا متاع الحياة الدنيا﴾ معناه: ليس كلّ ذلك يعني: ما ذكره من الذهب والفضّة والزخرف إلّا متاع الحياة الدنيا الّذي ينتفع به قليلاً ثمّ يفنى وينقطع.

ثمّ قال: والعاقبة ﴿عند ربّك﴾ الثواب الدائم ﴿للمتّقين﴾ الّذين يتّقون معاصيه ويفعلون طاعاته فصار كلّ عمل ما للدنيا صغيراً بالإضافة إلى ما يعمل للآخرة، لأنّ ما يعمل للدنيا منقطع وما يعمل للآخرة دائم.

قوله تعالى:

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَـٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَـٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][٢]: قرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وحفص عن عاصم ﴿جاءنا﴾ بالتوحيد. الباقون ﴿جاءانا﴾ على التثنية. من قرأ على التثنية أراد الكافر وقرينه من الشياطين كقوله: ﴿وإذا النفوس زوّجت﴾[٣] أي: قرنت بنظيرها. ومن أفرد قال: لأنّ الكافر هو الّذي أُفرد بالخطاب في الدنيا وأُقيمت عليه الحجّة بإنفاذ الرسول إليه فاجتزئ بالواحد عن الاثنين، كما قال ﴿لينبذنّ في الحطمة﴾[٤] والمراد لينبذانّ يعني: هو وما له. وقرأ يعقوب

---

(١) تفسير الطبري ١١: ١٨٥.
(٢) من الحجريّة.
(٣) كوّرت: ٧.
(٤) الهمزة: ٤.

والعليمي ﴿يقيّض﴾ بالياء على لفظ الخبر عن الغائب. الباقون بالنون على وجه الخبر عن الله تعالى.

يقول الله تعالى: ﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن﴾ أي: يعرض عن ذكر الله لإظلامه عليه بجهله، يقال: عشا يعشو عشواً وعشوّاً إذا ضعف بصره وأظلمت عينه كأنّ عليها غشاوة. قال الشاعر:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد حطباً جزلاً وناراً تأجّجا[١]

وإذا ذهب بصره قيل: عشي يعشى عَشاء، ومنه رجل أعشى وامرأة عشواء، فعشى يعشي مثل عمي يعمى، وعشا يعشو إذا نظر نظراً ضعيفاً. وقرئ ﴿من يعش﴾ بفتح الشين ومعناه: يعمى، يقال: عشا إلى النار إذا تنوّرها فقصدها، وعشا[٢] عنها إذا أعرض قاصداً لغيرها كقولهم: مال إليه ومال عنه. وقيل: معناه: بالعين من يعرض عن ذكره.

وقوله: ﴿نقيض له شيطاناً﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الحسن: نخلّي بينه وبين الشيطان الّذي يغويه ويدعوه إلى الضلالة فلا نمنعه منه.

الثاني: وقيل: نجعل له شيطاناً قريناً، يقال قيّض له كذا وكذا أي: سهّل ويسّر.

الثالث: قال قتادة: نقيّض له شيطاناً في الآخرة يلزمه حتّى يصير به إلى النار فحينئذ يتمنّى البعد عنه. وأمّا المؤمن فيوكّل به ملك فلا يفارقه حتّى يصير به إلى الجنّة.

[وقال الحسن: نصدّه إلى ذات الشمال لا يألوا خَتلَه وإنّما خذلناه

---

(١) ديوان الحُطَيئة: ٥١. تفسير الطبري ١١: ١٨٨. الكتاب لسيبويه ٣: ٨٦. مع اختلاف في المصرع الثاني.

(٢) في الخطّية والحجريّة: عشى.

وخلينا بينه وبين الشيطان بما استوجبه من العقاب، وإنّما جاز تقييض الشيطان للمُعرض][1] عن ذكر الله حتّى يغويه لأنّه إذا كان ممّن لا يفلح فلو لم يغوه الشيطان لفعل من قِبَل نفسه مثل ذلك الفساد الّذي يفعله بإغواء الشيطان أو أعظم منه فلم يمنع لطفاً، وقيّض له الشيطان عقاباً. وفي ذلك غاية التحذير من الإعراض عن حجج الله وآياته.

ثمّ قال تعالى: ﴿وإنّهم﴾ يعني: الشياطين ﴿ليصدّونهم﴾ يعني: الكفّار ﴿عن السبيل﴾ يعني: عن سبيل الحقّ الّذي هو الإسلام ﴿ويحسبون أنّهم مهتدون﴾ إلى طريق الحقّ.

وقوله: ﴿حتّى إذا جاءنا﴾ من قرأ على التثنية أراد حتّى إذا جاء الشيطان ومن أغواه يوم القيامة إلى الموضع الّذي يتولّى الله حساب الخلق فيه وجزاءهم. ومن قرأ على التوحيد فالمراد حتّى إذا جاء الكافر إلى الله وعلم ما يستحقّه من العقاب ضرورة قال ذلك الوقت لقرينه ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: أنّه عنّى المشرق والمغرب إلّا أنّه غلب أحدهما، كما قيل: سنّة العُمَرين. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السَماءِ عَلَيكُمُ    لنا قَمَراهَا والنجُومُ طوالِعُ[2]

يعني: الشمس والقمر، وقال المفضّل: أراد النبيّ محمّد وإبراهيم عليهما السلام وقال الآخر:

وبصرة الأزّد منّا والعراق لنا    والموصلان ومنا مصر والحرم[3]

---

(١) ما بين المعقوفتين في الخطّية. مع اختلاف كثير في الحجريّة.

(٢) شرح ديوان الفرزدق ٢ : ٧٣.

(٣) معاني القرآن ٣: ٣٤، تفسير الطبري ١١: ١٨٩. فيهما: فَبَصْرة.

يعني: الموصل والجزيرة.

الثاني: أنّه أراد مشرق الشتاء ومشرق الصيف، كما قال ﴿ربّ المشرقين وربّ المغربين﴾ (١) وإنّما أراد ﴿ياليت بيني وبينك بعد المشرقين﴾ مسافة فلم أرك ولا اغتررت بك ﴿فبئس القرين﴾ كنت أنت، يقول لهذا الشيطان الّذي أغواه.

فقال الله تعالى: ﴿ولن ينفعكم اليوم﴾ يعني: هذا الندم ﴿إذ ظلمتم﴾ نفوسكم بارتكاب المعاصي ﴿أنّكم في العذاب مشتركون﴾ أي: لأنّكم في العذاب شركاء، فلذلك لا ينفعكم هذا القول. وقيل: إنّ المراد لا يسلّيكم عمّا أنتم فيه من أنواع العذاب، أنّ أعداءكم شركاؤكم فيها لأنّه قد يتسلّى الإنسان عن محنة يحصل فيها إذا رأى أنّ عدوّه في مثلها، فبيّن الله تعالى أنّ ذلك لا ينفعكم يوم القيامة ولا يسلّيكم عن العذاب ولا يخفّف عنكم ذلك يوم القيامة (٢).

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿أفأنت﴾ يا محمّد ﴿تسمع الصمّ أو تهدي العمي﴾ شبّه الكفّار في عدم انتفاعهم بما يسمعونه من إنذار النبيّ ﷺ ووعظه بالصمّ الّذين لا يسمعون، وفي عدم انتفاعهم بما يرونه بالعمي الّذين لا يبصرون شيئاً ﴿ومن كان في ضلال﴾ عن الحقّ ﴿مبين﴾ أي: بيّن ظاهر لا شبهة فيه. ومن لا يطلب الحقّ ولا يجتهد فيه لسبقه إلى الباطل واغتباطه به، فهو الّذي يمتنع هدايته ولا حيلة فيه ولا طريق إلى إرشاده وصار بمنزلة الأصمّ والأعمى عنه.

وقرأ ابن عامر وحده ﴿ولن ينفعكم اليوم... إنّكم﴾ بكسر الهمزة، جعل تمام الآية والوقف على قوله: ﴿إذ ظلمتم﴾ ثمّ استأنف ﴿إنّكم﴾ وفتح

---

(١) الرحمن: ١٧.

(٢) راجع معاني القرآن وإعرابه ٣: ٤١٢.

الباقون، جعلوا ﴿أن﴾ اسماً في موضع رفع.

قوله تعالى:

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][١]: قوله: ﴿فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم﴾ معناه: إن نذهب بك، فلمّا دخلت «ما» على حرف الشرط أشبه القسم في التأكيد والإيذان بطلب التصديق، فدخلت النون في الكلام لذلك لأنّ[٢] النون تلزم في جواب القسم ولا تلزم في الجزاء لأنّه شبّه به، وإنّما وجب بإذهاب نبيّ إهلاك قومه من الكفّار لأنّه علامة اليأس من فلاح أحد منهم، كما أسرى لوط بأهله وموسى بقومه وغيرهما من النبيّين. وكأنّه قال: فإمّا نذهبنّ بك على سنّتنا فيمن قبلك فيكون إذهابه به إخراجه من بين الكفّار. وقال قوم: إنّما أراد إذهابه بالموت، ويكون قوله: ﴿فإنّا منهم منتقمون﴾ على هذا ما كان من نقم الله على أهل الكفر أكرم بها نبيّه حيث أعلمه ما كان من النقمة في أمّته بعده ذهب إليه الحسن وقتادة[٣] وهو الّذي روي عن أهل البيت عليهم السلام ورووا أنّ التأويل: فإنّا بعليّ منهم منتقمون[٤] وقال الأوّلون: إنّ ذلك في المشركين، وقوّوا ذلك بأنّ الله ذكر ذلك عقيب ذكر المشركين، قالوا: وهو ما كان من نقم الله على المشركين يوم بدر بعد إخراج النبيّ من مكّة وإنّه

---

(١) من الحجريّة.
(٢) في الخطّية: إلّا أنّ.
(٣) تفسير الطبري ١١: ١٩٠.
(٤) مناقب ابن مغازلي: ٢٧٤ و٣٢١.

استعلى عليهم وأسر منهم مع قلّة أصحابه وضعف عددهم وكثرة الكفّار وشدّة شوكتهم وكثرة عدّتهم، فقتلوهم كيف شاؤوا وأسروا من أحبّوا وكان ذلك مصداقاً لما قاله لهم.

وقوله: ﴿أو نرينّك الّذي وعدناهم فإنّا عليهم مقتدون﴾ يعني: ما أراهم بهم يوم بدر في ما قدّمناه. وبيّن تعالى أنّه على ذلك قادر وكان كما قال. ومن قال بالتأويل الأخير قال معنى ﴿أو نرينّك﴾ أو نعلمنّك ما وعدناهم وفعلنا بهم.

ثمّ قال لنبيّه: ﴿فاستمسك بالّذي أُوحي إليك﴾ من إخلاص العبادة لله تعالى واتّباع أوامره والانتهاء عمّا نهى عنه ﴿إنّك على صراط مستقيم﴾ وصف الإسلام بأنّه صراط مستقيم لأنّه يؤدّي إلى الحقّ المطلوب حيث يستقيم بصاحبه حتّى يوصله إليه.

وقوله: ﴿وإنّه لذكر لك ولقومك﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: إنّ هذا القرآن شرف لك بما أعطاك الله ـ عزّ وجلّ ـ من الحكمة ولقومك بما عرّضهم له من إدراك الحقّ به وأنزله على رجل منهم[١].

الثاني: إنّه حجّة تؤدّي إلى العلم لك ولكلّ أُمّتك. والأوّل أظهر. وقال الحسن: ولقومك: لأُمّتك. وقيل: إنّه لذكر لك ولقومك يذكرون به الدين ويعلمونه[٢] وسوف تسألون عمّا يلزمكم من القيام بحقّه والعمل به[٣].

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا﴾ قال قتادة والضحّاك: سل من أرسلنا يعني: أهل الكتابين التوراة والإنجيل. وقال ابن زيد: إنّما يريد الأنبياء الّذين جمعوا ليلة الإسراء. وهو الظاهر، لأنّ من

---

(١ و٣) تفسير الطبري ١١: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) النكت والعيون ٥: ٢٢٧.

قال بالأوّل يحتاج أن يقدّر فيه محذوفاً، وتقديره: واسئل أُمم من أرسلنا من قبلك. وقيل: المراد سلهم فإنّهم وإن كانوا كفّاراً، فإنّ تواتر خبرهم تقوم به الحجّة. وقيل: الخطاب وإن توجّه إلى النبيّ ﷺ فالمراد به الأُمّة كأنّه قال واسألوا من أرسلنا كما قال: ﴿يا أيّها النبيّ إذا طلّقتم النساء﴾[1] وقوله: ﴿اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ معناه: سلوا من ذكرناه هل جعل الله في ما مضى معبوداً سواه يعبده قوم من الأصنام أو غيرها، فإنّهم يقولون لكم إنّا لم نأمرهم بذلك ولا تعبّدناهم به.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][2]: هذا قسم من الله تعالى بأنّه أرسل موسى رسولاً بالآيات الباهرة والحجج اللائحة إلى فرعون وأشراف قومه وخصّ الملاء بالذكر وإن كان مرسلاً إلى غيرهم، لأنّ من عداهم تبع لهؤلاء، فقال موسى له ﴿إنّي رسول من ربّ العالمين﴾ الّذي خلق الخلق أرسلني إليكم.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿فلمّا جاءهم بآياتنا﴾ يعني: موسى جاء إلى فرعون وملائه بالآيات والحجج ﴿إذا هم منها﴾ يعني: من تلك الآيات ﴿يضحكون﴾ جهلاً منهم بما عليهم من ترك النظر فيها، وما لم من النفع

---

(١) الطلاق: ١.

(٢) من الحجريّة.

بحصول علمهم بها. وفي الخبر عن ضحك أُولئك الجهّال عند ظهور الآيات زجر عن مثل حالهم ودعاء إلى العلم الّذي ينافي الجهل. وفيه أيضاً أنّه لا ينبغي أن يلتفت إلى تضاحك أمثالهم من الأدلّة إذا كان الإنسان على يقين من أمره. والأنبياء كلّهم يشتركون في الدعاء إلى الله وإخلاص عبادته وطاعته في جميع ما يأمر به أو ينهى عنه، ودعوتهم إلى محاسن الأفعال ومكارم الأخلاق وإن اختلفت شرائعهم وتباينت مللهم ونسخت بعضها بعضاً.

وقوله: ﴿وما نريهم من آية إلّا هي أكبر من أُختها﴾ معناه: إنّه تعالى لا يريهم يعني: فرعون وقومه معجزة ولا دلالة إلّا وهي أكبر من الأُخرى عند إدراك الإنسان لها لما يهوله من أمرها، فيجد نفسه يقتضي أنّها أكبر كما يقول الإنسان: هذه العلّة الّتي نزلت بي أعظم من كلّ علّة، وهو يريد أنّ لها مزيّة أعظم منها إلّا أنّه ذهب هول الأُولى بانصرافها وحكم الثانية بحضورها. وقال قوم: المعنى وما نريهم من آية إلّا هي أهول في صدورهم من الّتي مضت قبلها[١].

ثمّ قال تعالى: ﴿وأخذناهم بالعذاب﴾ إذ عصوا فيها، وكفروا بها ﴿لعلّهم يرجعون﴾ إلى طاعته وإنّما جاز أخذهم بالعذاب ليرجعوا مع العلم بأنّهم لا يرجعون لإمكان أن يرجعوا إليه، لأنّ كلّما في المعلوم أنّه لا يقع لا يجوز أن يفعل العالم شيئاً من أجل أنّه سيقع ولكن يجوز أن يفعل شيئاً لإمكان أن يقع. والمعنى هاهنا لعلّهم يرجعون إلى طريق الحقّ الّذي ذهبوا عنه إلى طريق الباطل.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٣٥.

ثمّ حكى تعالى ما قال فرعون وملاءه لموسى عند ذلك فإنّهم ﴿قالوا يا أيّها الساحر ادع لنا ربّك بما عهد عندك إنّا لمهتدون﴾ وقال قوم: إنّما قالوا له يا أيّها الساحر لجهلهم بنبوّته وصدقه واعتقادهم أنّه سَحَرهم بذلك. وقال قوم: كان الساحر عندهم هو العالم ولم يكن صفة ذمّ(١). وقال الحسن: إنّما قالوا ذلك على وجه الاستهزاء بموسى، كما قال المشركون: ﴿يا أيّها الّذي نزّل عليه الذكر إنّك لمجنون﴾(٢) وقال الزجّاج: وجه ذلك أنّه جرى ذلك على ألسنتهم على عادتهم فيه قبل ذلك(٣). وقال قوم: أرادوا يا أيّها الفطن ويا أيّها العالم، لأنّ السحر عندهم دقّة النظر والعلم بالشيء كالسحر الحلال، يقال فلان يسحر بكلامه(٤). وقال قوم: وخاطبوه بما تقدّم تشبيهاً له بالساحر، فقالوا له: ﴿ادع لنا ربّك بما عهد عندك﴾ معناه: أن آمنّا ادع لنا ربّك ليكشف عنّا العذاب في قول مجاهد. فإنّه متى كشف عنّا ذلك اهتدينا ورجعنا إلى الحقّ الّذي يدعونا إليه. وفي الكلام حذف لأنّ تقديره: فدعا موسى وسأل ربّه وضرع إليه أن يكشف عنهم العذاب، فكشف الله عنهم ذلك فإذا هم عند ذلك ينكثون، ومعناه: ينقضون ما عقدوا على أنفسهم. وقال قَتادة: معناه: يغدرون. وإنّما أخبر الله تعالى وقصّ خبر موسى وماجرى له تسلية للنبيّ ﷺ والمعنى: إنّ حال موسى مع قومه وحالك مع قومك سواء، فاصبر إنّ أمرك يؤول إلى الاستعلاء، كما آل أمر موسى عليه السلام.

قوله تعالى:

وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى

---

(١) تفسير الطبري ١١: ١٩٤.
(٢) الحجر: ٦.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤١٤.
(٤) الكشف والبيان ٨: ٣٣٨.

مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢)
فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ
فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ
أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ (٥٦)* وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا
قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ
خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَآءُ
لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠).

عشر آيات [كوفي وشامي. وإحدى عشرة في ما عداه، عدّوا ﴿مهين﴾ ولم يعدّه الكوفيّون والشاميّون.][1].

[أقول][2]: قرأ حفص عن عاصم ﴿أسورة﴾ بغير ألف. الباقون ﴿أساورة﴾ بألف.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿سلفاً﴾ بضمّ السين واللام. الباقون بفتحهما. فمن قرأ بالضمّ فيهما أراد جمع سليف أي: جمع قد مضى من الناس. ومن قرأ ﴿أسورة﴾ أراد جمع سوار. ومن قرأ ﴿أساورة﴾ أراد جمع إسوار. وقال أبو عبيدة: وقد يكون أسوار جمع أسورة[3]. ومن قرأ ﴿سلفاً﴾ بضمّ السين واللام جعله جمع سليف. وقال أبو عليّ: ويجوز أن يكون جمع ﴿سَلَف﴾ مثل أسَد وأُسُد، ووَثَن ووُثُن. ومن فتح فلأنّ «فَعَلا» جاء في حروف يراد بها الكثرة، فكأنّه اسم من أسماء الجمع، كقولهم: خادم وخدَم[4]. والفتح أكثر. وقد روي بضمّ السين. وقرأ الكسائي ونافع

---

(١) مابين المعقوفتين ليس في الخطّيّة. (٢) من الحجريّة.

(٣) كذا، والموجود فيه غير هذا. راجع مجاز القرآن ١: ٤٠١.

(٤) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٧٨.

وابن‌عامر ﴿يصدّون﴾ بضمّ الصاد بمعنى يعرضون أي: يـعدلون. البـاقون بفتح الياء وكسر الصاد، بمعنى: يضجّون. وقيل: هما لغتان[١].

لمّا حكى الله تعالى عن قوم فرعون أنّه حين كشـف العـذاب عـنهم نكثوا عهدهم وعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿نادى فرعون في قومه﴾ الّذين اتّبعوه على دينه وقال لهم: ﴿يا قوم﴾ على وجه التقرير لهم ﴿أليس لي ملك مصر﴾ أتصرّف فيها كما أشاء لا يمنعني أحد منه ﴿وهذه الأنهار﴾ كالنيل وغيرها ﴿تجري من تحتي﴾أي: من تحت أمري. وقيل: إنّها كانت تجري تحت قصره، وهو مشرف عليها ﴿أفلا تبصرون﴾ أنّ ما أدّعيه حقّ وأنّ ما يقوله موسى باطل. وقيل: قوله: ﴿من تحتي﴾ معناه: إنّ النيل كانت تجري منه أنهار تحت قصره. وقيل: ﴿من تحتي﴾ من بين يديه.لارتـفاع سريره[٢].

ثمّ قال لهم فـرعون: ﴿أم أنا خير من هذا الّذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ وقال قوم: معنى «أم» بل. فكأنّه قال: بل أنا خير من موسى[٣] وقال قوم: مخرجها مخرج المنقطعة، وفيها معنى المعادلة كقولك «أفـلا تـبصرون أم أنتم بصراء» لأنّهم لو قالوا نعم أنت خير لكان بمنزلة قولهم نحن بصراء، ولذلك لو قالوا عن بصراء لكان بمنزلة قولهم أنت والأصل في المـعادلة على أيّ الحالين أنتم، أعلى حال البُصراء أم على خلاف حالهم. ولا يجوز أن يكون المعنى على أيّ الحالين أنتم، أعلى حال البُصراء أم على حالي في أنّي خير من هذا الّذي هو مهين، وإنّما المعادلة تفصيل ما أجمله[٤].

---

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٢٣٤.

(٢ و٣) راجع النكت والعيون ٥: ٢٣٠.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤١٥.

وقيل «أم» هاهنا بتقدير: أنا خير من هذا الّذي هو مهين أم هو إلّا أنّه ذكر بـ«أم»[١] لاتّصال الكلام بما قبله. وحكى الفرّاء «أمّا أنا» وهذا شاذّ على أنّه جيّد المعنى[٢]. و«المهين» الضعيف في قول قتادة والسدّي. وقيل معناه فقير. وقيل: يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج إليه ليس له من يكفيه[٣] ولا يكاد يبين. وقال الزجّاج: للثغة كانت في لسانه[٤]. وقال قتادة: كانت في لسانه آفة. وبه قال السدّي. وقيل: إنّه كان احترق لسانه بالجمر الّذي وضعه في فيه[٥] حين أراد أن يعتبر فرعون عقله لما لطم وجهه، وأراد أن يأخذ غير النار فصرف جبرائيل يده إلى النار، فدفع عنه القتل، وقال الحسن: كان في لسانه ثقل، فنسبه إلى ما كان عليه أوّلاً.

وقوله: ﴿فلولا أُلقي عليه أساورة من ذهب﴾ معناه: هلّا إن كان صادقاً في نبوّته طرح عليه أسورة من ذهب. فمن قرأ ﴿أساورة﴾ بألف أراد جمع أسورة وأسورة جمع سوار وهو الّذي يلبس في اليد. وأمّا إسوار، فهو الرامي الحاذق بالرمي، ويقال أُسوار بالضمّ، ومن جعله جمع الأسورة أراد أساوير، فجعل الهاء عوضاً عن الياء. مثل الزنادقة، فلذلك صرفه، لأنّه صار له نظير في الآحاد. ومثله في الجمع الزنادقة. و«الإسوار» الرجل الرامي الحاذق بالرمي من رجال العجم[٦].

وقوله: ﴿أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ قال قتادة: ومعناه: متتابعين، وقال السدّي: معناه: يقارن بعضهم بعضاً. وقيل معناه: متعاضدين

---

(١) وفي الخطّية: تام مكان بأم.
(٢) معاني القرآن ٣: ٣٥.
(٣ و٥) راجع النكت والعيون ٥: ٢٣٠.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤١٥.
(٦) راجع تفسير الطبري ١١: ١٩٧.

متناصرين كلّ واحد منهم مع صاحبه ممالياً له على أُموره. وقال مجاهد: معناه: مقترنين يمشون معه[١].

وقوله: ﴿فاستخفّ قومه﴾ يعني: فرعون استخفّ عقول قومه، فأطاعوه في ما دعاهم إليه، لأنّه احتجّ عليهم بما ليس بدليل، وهو قوله: ﴿أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي﴾ ولو عقلوا وفكروا لقالوا ليس في ملك الإنسان ما يدلّ على أنّه محقّ لكون ملوك يخالفونك مبطلين عندك، وليس يجب أن يأتي مع الرسل ملائكة، لأنّ الّذي يدلّ على صدق الجميع المعجز دون غيره.

ثمّ أخبر الله تعالى عنهم بأنّهم كانوا قوماً فاسقين خارجين عن طاعة الله إلى معصيته. ثمّ قال ﴿فلمّا أُسفونا انتقمنا منهم﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة والسدّي وابن زيد: معنى «أسفونا» أغضبونا، لأنّ الله تعالى يغضب على العصاة بمعنى يريد عقابهم، ويرضى عن المطيعين بأن يريد ثوابهم بمايستحقّونه من طاعاتهم ومعاصيهم كما يستحقّون المدح والذمّ. وقيل «الأسف» هو الغيظ من المغتمّ إلّا أنّه هاهنا بمعنى الغضب. ثمّ بيّن تعالى بماذا انتقم منهم، فقال: ﴿فأغرقناهم أجمعين﴾ ثمّ قال: ﴿فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ فـ«السلف» المتقدّم على غيره قبل مجيء وقته، ومنه السلف في البيع. والسلف نقيض الخلف. ومن قرأ بضمّ السين واللام فهو جمع سليف من الناس، وهو المتقدّم أمام القوم. وقيل: معناه ﴿جعلناهم سلفاً﴾ متقدّمين ليتّعظ بهم الآخرون[٢]. وقال قتادة: جعلناهم سلفاً إلى النار ومثلاً أي: عظة للآخرين. و«المثل» بيان عن أنّ حال الثاني كحال الأوّل بما قد صار

---

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٢٣١.

(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤١٦.

في الشهرة كالعَلَم، فحال هؤلاء المشركين كحال من تقدّم في الإشراك بما يقتضي أن يجروا مجراهم في الإهلاك إن أقاموا على الطغيان.

ثمّ قال الله تعالى: ﴿ولمّا ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدّون﴾ قيل: المراد بذلك لمّا ضرب الله المسيح مثلاً بآدم في قوله: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾(١) اعترض على النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك قوم من كفّار قريش، فأنزل الله تعالى هذه الآية. ووجه الاحتجاج في أمر المسيح بآدم أنّ الّذي قدر أن ينشئ آدم من غير ذَكَر قادر على إنشاء المسيح من غير ذَكَر، فلاوجه لاستنكاره من هذا الوجه(٢). وقيل: إنّه لمّا ذكر المسيح بالبراءة من الفاحشة وإنّه كآدم في الخاصية، قالوا: هذا يقتضي أن نعبده كما عبده النصارى. وقيل: إنّه لمّا نزل قوله: ﴿إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم﴾(٣) قالوا قد رضينا أن يكون آلهتنا مع المسيح(٤). وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله إنّه قال يوماً لعليّ عليه السلام: «لولا أنّي أخاف أن يقال فيك ما قالت النصارى في عيسى لقلت فيك قولاً لا تمرّ بملاء إلّا أخذوا التراب من تحت قدميك»(٥) أنكر ذلك جماعة من المنافقين، وقالوا: لم يرض أن يضرب له مثلاً إلّا بالمسيح عليه السلام فأنزل الله الآية.

وقوله: ﴿يصدّون﴾ بكسر الصاد وضمّها لغتان. وقد قرئ بهما مثل يشِدّ ويشُدّ وينِمّ وينُمّ من النميمة. وقيل: معنى يصِدّون بكسر الصاد يضجّون، أي: ضجّوا سروراً منهم بأنّهم عبدوا الأوثان كما عبد النصارى المسيح ومن ضمّها أراد يُعرضون.

---

(١) آل عمران: ٥٩. (٢) النكت والعيون ٥: ٢٣٣. (٣) الأنبياء: ٩٨.
(٤) تفسير الطبري، ١١: ٢٠٠. (٥) الإرشاد للمفيد ١: ١١٧. مع اختلاف.

ثمّ حكى عن الكفّار أنّهم ﴿قالوا ءآلهتنا خير أم هو﴾ قال السدّي: يعنون أم المسيح. وقال قَتادة: يعنون أم محمّد صلى الله عليه وآله وقيل: معنى سؤالهم في قوله: ﴿ءآلهتنا خير أم هو﴾ إنّهم ألزموا ما لا يلزم على ظنّ منهم وتوهّم، كأنّهم قالوا: ومثلنا في ما نعبد مثل المسيح، فأيّهما خير، أعبادة آلهتنا أم عبادة المسيح، على أنّه إن قال عبادة المسيح أقرّ بعبادة غير الله، وكذلك إن قال عبادة الأوثان. وإن قال ليس في عبادة المسيح خير، قصّر به عن المنزلة الّتي أُبين لأجله من سائر العباد. وجوابهم عن ذلك إنّ اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام عليه لا يوجب العبادة له كما لا يوجب أنّه قد أُنعم بأعلى مرتبة النعمة. ووجه اتّصال سؤالهم بما قبله أنّه معارضة لالهيّة الأوثان بالهيّة المسيح كمعارضة إنشاء المسيح عن غير ذَكَر بإنشاء آدم عليه السلام من غير ذَكَر. ثمّ قال لنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله ما ضربوه يعني المسيح مثلاً ﴿إلّا جدلاً﴾ أي: خصومة لك ودفعاً لك عن الحقّ، لأنّ المجادلة لاتكون إلّا وأحد المجادلين مبطلاً. والمناظرة قد تكون بين المحقّين، لأنّه قد يعارض ليظهر له الحقّ. ثمّ قال تعالى: ﴿بل هم قوم خصمون﴾ أي: جدلون في دفع الحقّ بالباطل.

ثمّ وصف المسيح عليه السلام فقال: ﴿إن هو إلّا عبد أنعمنا عليه﴾ أي: ليس هو سوى عبد خلقناه وأنعمنا عليه ﴿وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل﴾ قال السدّي وقتادة: يعني: موعظة وعبرة لهم يعتبرون به ويتّعظون به.

ثمّ قال: ﴿ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة﴾ أي: بدلاً منكم معاشر بني آدم ملائكة في الأرض ﴿يخلفون﴾ بني آدم غير أنّه أنشأ بني آدم لإسباغ النعمة عليهم. وروى قالون عن نافع ﴿آلهتنا﴾ بهمزة واحدة بعدها مدّة.

الباقون بهمزتين على أُصولهم، غير أنّه لم يفصل أحد بين الهمزتين بألف، وإنّما حقّقهما أهل الكوفة وروح. وليّن الباقون الثانية. وقال أبو عبد الله بن خالويه: هي ثلاث ألفات، الأُولى للتوبيخ والتقرير بلفظ الاستفهام والثانية ألف الجمع والثالثة أصليّة. والأصل ﴿ء آلهتنا﴾ فصارت الهمزة الثانية مدّة ثمّ دخلت ألف الاستفهام.

قوله تعالى:

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

الضمير في قوله: ﴿وإنّه لعلم للساعة﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى عيسى عليه السلام لأنّ ظهوره يُعلم به مجيء الساعة، لأنّه من أشراطها، وهو قول ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة والضحّاك والسدّي وابن زيد. وقيل: إنّه إذا نزل المسيح رفع التكليف لئلّا يكون رسولاً إلى أهل ذلك الزمان في ما يأمرهم به عن الله وينهاهم عنه. وقيل: إنّه عليه السلام يعود غير مكلّف في دولة المهديّ وإن كان التكليف باقياً على أهل ذلك الزمان. وقال قوم: إنّ الضمير يعود إلى القرآن يعلمكم بقيامها ويخبركم عنها وعن أحوالها. وهو قول الحسن[1]. والفائدة بالعلم بالساعة أنّه يجب التأهّب لها من أجل أنّها تقوم للجزاء لا محالة، وفي الشكّ فيها فتور في العمل لها، ويجب لأجلها

(١) النكت والعيون ٥: ٢٣٥.

اجتناب القبائح الّتي يستحقّ بها الذمّ والعقاب واجتناء المحاسن الّتي يستحقّ بها المدح والثواب. وروي عن ابن عبّاس شاذّاً أنّه من العَلَم ـ بفتح العين واللام ـ بمعنى: أنّه علامة ودلالة على الساعة وقربها.

ثمّ خاطب الأُمّة فقال: ﴿فلا تمترنّ بها﴾ أي: لا تشكّنّ فيها. و«المرية» الشكّ، ويدلّ على أنّ المراد به جميع الأُمّة قوله: ﴿واتّبعوني هذا صراط مستقيم﴾ أي: ما أخبرتكم به من البعث والنشور والثواب والعقاب ﴿صراط مستقيم﴾.

ثمّ نهاهم فقال: ﴿ولا يصدّنّكم الشيطان﴾ أي: لا يمنعكم الشيطان عن اتّباع الطريق المستقيم الّذي بيّنه الّذي يفضي بكم إلى الجنّة، ولا يعدل بكم إلى الطريق المؤدّي إلى النار ﴿إنّه لكم عدوّ مبين﴾ فالعداوة طلب المكروه والمكيدة والإيقاع في كلّ مهلكة من أجل العداوة الّتي في هلاك صاحبها شفاء لما في صدره منها.

ثمّ أخبر تعالى عن حال عيسى عليه السلام حين بعثه الله نبيّاً فقال: ﴿ولمّا جاء عيسى بالبيّنات﴾ يعني: بالمعجزات. قال قتادة يعني: بالإنجيل ﴿قال﴾ لهم ﴿قد جئتكم بالحكمة﴾ أي: بالّذي من عمل به من العباد نجا ومن خالفه هلك. وقوله تعالى: ﴿ولأُبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه﴾ قال مجاهد: يعني: من أحكام التوراة. وقال قوم: تقديره: قد جئتكم بالإنجيل، وبالبيّنات الّتي يعجز عنها الخلق. والّذي جاء به عيسى هو بعض مااختلفوا فيه، وبيّن لهم فيه. وقال قوم: البعض يراد به هاهنا الكلّ كأنّه قال: ولأبيّن لكم جميع ما تختلفون فيه[١]. وقيل: أراد به من أمر دينكم

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤١٧.

دون أمر دنياكم[١]. والاختلاف أصل كلّ عداوة. والوفاق أصل كلّ ولاية لأنّ الخلاف يوجب البغضة، ثمّ يقوى بالكثرة حتّى يصير عداوة، ثمّ قال لهم: يعني: عيسى عليه السلام ﴿فاتّقوا الله﴾ بأن تجتنبوا معاصيه وتفعلوا طاعاته ﴿وأطيعون﴾ في ما أدعوكم إليه من العمل بطاعة الله.

ثمّ قال لهم أيضاً: ﴿إنّ الله﴾ الّذي يحقّ له العبادة ﴿هو ربّي وربّكم فاعبدوه﴾ خالصاً ولا تشركوا به معبوداً آخر. ثمّ قال ﴿هذا صراط مستقيم﴾ يفضي بكم إلى الجنّة وثواب الله.

وقوله: ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ قال السدّي: يعني: اليهود والنصارى. وقال قتادة: يعني: الفِرق الّذين تحزّبوا في أمر عيسى عليه السلام فقال الله تعالى: ﴿فويل للّذين ظلموا﴾ نفوسهم بارتكاب معاصي الله ﴿من عذاب يوم أليم﴾ وهو يوم القيامة.

قوله تعالى:

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][٢]: يقول الله تعالى مخاطبا لخلقه وموبّخاً لهم: ﴿هل ينظرون﴾ أي: هؤلاء الكفّار، ومعناه: هل ينتظرون ﴿إلّا الساعة﴾ يعني: القيامة. وقيل معناه: هل ينتظر بهم لأنّهم لم يكونوا ينتظرونها، فأضاف إليهم مجازاً. وقيل: سمّيت القيامة الساعة لقرب أمرها كأنّها تكون في ساعة[٣]. ثمّ

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٣٦، تفسير الطبري ١١: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٢) من الحجريّة.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤١٧.

يحصل أهل الجنّة في الجنّة وأهل النار في النار، وقيل: سمّيت بذلك لأنّها ابتداء أوقات الآخرة، فهي ابتداء تجديد الساعات.

وقوله: ﴿بغتة﴾ أي: فجأة، وإنّما كانت الساعة بغتة مع تقديم الإنذار بها، لأنّهم مع الإنذار لا يدرون وقت مجيئها، كما لا يدري الإنسان وقت الرعد والزلازل، فتأتي بغتة وإن علم أنّها تكون.

ثمّ قال تعالى: ﴿الأخلّاء﴾ وهو جمع خليل ﴿يومئذٍ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين﴾ يعني: من كانت خلّته في دار الدنيا في غير طاعة الله بل كانت في معصية الله، فإنّ تلك الخلّة تنقلب عليه عداوة، لأنّ صاحبها يتبيّن فساد تلك الخلّة يوم القيامة وإنّما كان كذلك، لأنّ كلّ واحد من المتخالّين في غير طاعة الله يزيّن لصاحبه خلاف الحقّ ويدعوه إلى ما يوبقه ويورثه سوء العاقبة بدل ما كان يلزمه من النصيحة له في الدعاء إلى ترك القبيح وفعل الحسن ثمّ استثنى من جملة الأخلّاء الّذين أخبر عنهم أنّهم يصيرون أعداءاً ﴿المتّقين﴾ لأنّ من كانت مخالّته في طاعة الله وعلى ما أمر الله به فأنّها تتأكّد ذلك اليوم ولا تنقلب عداوة.

ثمّ أخبر تعالى بما يقال للمؤمنين المطيعين من عباده فإنّه يناديهم فيقول لهم: ﴿يا عبادي﴾ وخصّهم بأنّهم عباده من حيث أطاعوه واجتنبوا معاصيه ﴿لا خوف عليكم اليوم﴾ من العقاب ﴿ولا أنتم تحزنون﴾ من فوت الثواب. ثمّ وصف عباده وميّزهم من غيرهم فقال: ﴿الّذين آمنوا بآياتنا﴾ يعني: الّذين صدقوا بحجج الله فاتّبعوها ﴿وكانوا مسلمين﴾ أي: مستسلمين لما أمرهم الله به منقادين له.

ثمّ بيّن أنّه يقال لهم: ﴿أدخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم﴾ اللاتي كنّ مؤمنات

﴿تحبرون﴾ أي: تسرّون فيها، و«الحبور» السرور الّذي يظهر في بشرة الوجه أثره، وحبرته حسنة بما يظهر أثر السرور به. وقال قتادة وابن زيد: معنى: ﴿تحبرون﴾ تنعمون. قال السدّي: معناه: تكرمون، والمراد بالأزواج من كان مستحقّاً للثواب ودخل الجنّة. وقيل: المراد بالأزواج اللاتي يزوّجهم الله بهنّ من الحور العين في الجنّة[1].

قوله تعالى:

يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][2]: قرأ نافع وابن عامر وحفص عن عاصم ﴿ما تشتهيه الأنفس﴾ بـ«هاء». الباقون ﴿تشتهي﴾ بلا هاء. وحذف الهاء من الصلة إذا كانت للمفعول حسن، كقوله تعالى: ﴿أهذا الّذي بعث الله رسولاً﴾[3] ومن أثبتها فلأنّه الأصل.

لمّا استثنى الله تعالى المتّقين من جملة الأخلّاء الّذين تنقلب خلّتهم عداوة وأنّ خلّتهم باقية وأنّه يقال لهم ولأزواجهم اُدخلوا الجنّة محبورين، أخبر بما لهم فيها من أنواع اللذات، فقال: ﴿يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب﴾ وتقديره: تنقل ألوان الطعام إليهم في صحاف الذهب. ثمّ يؤتون بأكواب الشراب على جهة الاستمتاع في جميع تلك الأحوال. و«الصحاف» الجامات الّتي يؤكل فيها ألوان الأطعمة واحدها صحفة.

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٣٨. (٢) من الحجريّة. (٣) الفرقان: ٤١.

والّذي يطوف بذلك الوصف أو الوصايف من الحور العين الّذين يخلقهم الله في الجنّة واكتفى بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب. وواحد الأكواب كوب وهو إناء على صورة الإبريق لا أُذن له ولا خرطوم قال الأعشى:

صِليفِيّةً طَيّباً طَعْمُها    لَها زَبَدٌ بينَ كُوبٍ وَدَنّ[1]

وهو كالكأس للشراب. وقال السدّي: «الصحاف» القصاع.

وقوله تعالى: ﴿وفيها﴾ يعني: في الجنّة ﴿ما تشتهى الأنفس وتلذّ الأعين﴾ وإنّما أضاف الالتذاذ إلى الأعين وهو للإنسان لأنّ المناظر الحسنة سبب من أسباب اللذّة، فإضافتها إلى هذه الجهة أحسن وأبلغ لما فيه من البيان مع الإيجاز، لأنّه الموضع الّذي يلتذّ الإنسان به عند رؤيته بعينه.

ثمّ قال: ﴿وأنتم فيها﴾ يعني: في الجنّة وفي هذه الأنواع من اللذّات ﴿خالدون﴾ أي: مؤبّدون. وقوله: ﴿وتلك الجنّة الّتي أُورثتموها بما كنتم تعملون﴾ قال الحسن: ورّث الله تعالى الّذين أطاعوه وقبلوا أمره ونهيه منازل الّذين عصوه ولم يقبلوا أمره ونهيه. ويجوز أن يكون المراد لما كانت الجنّة جزاء على أعمالهم الّتي عملوها وعقيب ذلك عبّر عن ذلك بأنّهم أورثوها.

ثمّ بيّن مالهم في الجنّة أيضاً فقال: ﴿لكم﴾ معاشر المتّقين ﴿فيها﴾ يعني: في الجنّة ﴿فاكهة كثيرة﴾ أي: ثمار عظيمة ﴿منها تأكلون﴾.

ثمّ أخبر تعالى عن حال أهل النار والعصاة فقال: ﴿إنّ المجرمين﴾ يعني: الّذين عصوا الله ﴿في عذاب جهنّم﴾ وعقابها ﴿خالدون﴾ أي: دائمون

(١) ديوان الأعشى: ٢٠٨ حرف النون. في الحجريّة: صريفية.

﴿لا يفتّر عنهم العذاب﴾ وأصل الفتور ضعف الحرارة ﴿وهم فيه﴾ يعني: في العذاب ﴿مبلسون﴾ أي: يائسون من رحمة الله وفرجه وهو قول قتادة. و«الإبلاس» اليأس من الرحمة من شدّة الحيرة. يقال أبلس فلان إذا تحيّر عند انقطاع الحجّة.

قوله تعالى:

وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْاْ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][1]: لمّا بيّن الله تعالى ما يفعله بالفسّاق والمجرمين من أنواع العذاب بيّن أنّه لم يظلمهم بذلك لأنّه تعالى غنيّ عن ظلمهم عالم بقبح الظلم، ومن كان كذلك لا يفعل القبيح، والظلم قبيح. وبيّن أنّهم هم الّذين ظلموا أنفسهم بارتكابهم المعاصي وفعل القبائح. ثمّ حكى تعالى ما ينادي به هؤلاء العصاة في حال العذاب، فإنّهم ينادون مالكاً خازن النار فيقولون: ﴿يا مالك ليقض علينا ربّك﴾ أي: ليميتنا حتّى نتخلّص من العذاب، فيقول مالك مجيباً لهم: ﴿إنّكم ماكثون﴾ أي: لابثون فيها. وقال ابن عبّاس والسدّي: إنّما يجيبهم مالك خازن جهنّم بذلك بعد ألف سنة، وقال عبد الله بن عمر: بعد أربعين سنة. وقال نوف: بعد مائة عام.

ثمّ أخبر تعالى إنّه جاء الخلق بالحقّ في ما أخبر به من حال أهل الجنّة وأهل النار. و﴿لكنّ أكثركم﴾ معاشر الخلق ﴿كارهون للحقّ﴾. وإنّما

---

(١) من الحجريّة.

لا يكره ذلك المؤمنون منكم.

ثمّ قال: ﴿أم أبرموا أمراً فإنّا مبرمون﴾ أي: أجمعوا على التكـذيب أي: عزموا عليه فإنّا مجمعون على الجزاء لهم بـالتعذيب وهـو قـول قـتادة، ويكون ذلك على وجه الازدواج، لأنّ العزم لا يجوز عليه تعالى، ومـثله ﴿وجزاء سيّئة سيّئة مثلها﴾ (١) وقيل: معناه أم أحكموا أمراً في المخالفة، فإنّا محكمون أمراً في المجازاة.

ثمّ قـال: ﴿أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم﴾ أي: يـظنّ هـؤلاء الكفّار أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم أي: ما يخفونه بينهم وما يعلنونه. ثمّ قال تعالى: ﴿بلى﴾ نسمع ذلك وندركه ومـع ذلك ﴿رسلنا لديهم يكتبون﴾ قال السدّي وقتادة: معناه: إنّ رسلنا الّذين هـم الحـفظة لديـهم يكـتبون مايفعلونه ويقولونه.

وقد روي إنّ سبب نزول هذه الآية ما هو معروف في الكتب لا نطول بذكره.

قوله تعالى:

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

قيل في معنى قوله: ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين﴾ أقوال:

---

(١) الشورى: ٤٠.

أحدها: فأنا أوّل الآنفين من عبادته، لأنّ من كان له ولد لا يكون إلّا جسماً محدثاً، ومن كان كذلك لا يستحقّ العبادة، لأنّه لا يقدر على النعم الّتي يستحقّ بها العبادة تقول: العرب عبدت فصمتّ قال الفرزدق:

واعبد ان يهجى كُلَيْب بدارم[1]

وقال آخر:

ألا هـذيت أمّ الوليـد وأصـبحت لما أبصرت في الرأس منّي تعبد[2]

الثاني: ما قاله ابن زيد وابـن أسـلم وقَـتادة: إنّ «إن» بـمعنى «مـا» وتقديره: ما كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين لله.

الثالث: هو أنّه لو كان له ولد لعبدته على ذلك كـما تـقول لو دعت الحكمة إلى عبادة غير الله لعبدته لكنّها لا تدعو إلى عبادة غـيره، وكـما تقول: لو دلّ الدليل على أنّ له ولداً لقلت به، لكنّه لا يدلّ، فهذا تحقيق نفي الولد لأنّه تعليق محال بمحال.

الرابع: قال السدّي: لو كان له ولد لكنت أوّل من عـبده بـأنّ له ولداً، لكن لا ولد. وهذا قريب من الوجه الثالث.

الخامس: إن كان لله ولد على قولكم، فأنا أوّل من وحّده وعبده على أن لا ولد له ذهب إليه مجاهد، وإنّما لم يجز على الله تـعالى الولد لأنّـه لايخلو من أن يضاف إليه الولد حقيقة أو مجازاً، وحقيقته أن يكون مخلوقاً من مائه أو مولوداً على فراشه، وذلك مستحيل عليه تـعالى. ومـجازه أن يضاف إليه على وجه التبنّي وإنّما يجوز فيمن يجوز عليه حقيقته، ألا ترى

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٤١، مجاز القرآن ٢: ٢٠٦ مع اختلاف، الصحاح ٢: ٥٠٣. فيه: أهجو كليبا. مادّه عبد.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٢١٦، فيه: هويت.

أنّه لا يقال تبنّى شابّ شيخاً لما لم يمكن أن يكون له ولد حقيقة، وإنّما جاز أن يضاف إلى شيخ شابّ على أنّه تبنّاه لما كان حقيقته مقدورة فيه، وكذلك لا يقال تبنّى إنسان بهيمة لما كان يستحيل أن يكون مخلوقاً من مائه أو على فراشه. فلمّا استحال حقيقته على الله تعالى استحال عليه مجازه أيضاً. وإنّما جاز أن يقال روح الله، ولم يجز أن يقال ولد الله لأنّ روح الله بمعنى ملك الله الروح، وإنّما أُضيف إليه تشريفاً. وإن كانت الأرواح كلّها لله بمعنى أنّه مالك لها. ولا يعرف مثل ذلك في الولد.

ثمّ نزّه نفسه تعالى عن اتّخاذ الولد فقال: ﴿سبحان ربّ السماوات والأرض﴾ يعني: الّذي خلقهنّ ﴿ربّ العرش﴾ أي: خالقه ومدبّره ﴿عمّا يصفون﴾ من اتّخاذ الولد، لأنّ من قدر على خلق ذلك وإنشائه مستغن عن اتّخاذ الولد.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله على وجه التهديد للكفّار: ﴿فذرهم﴾ أي: أُتركهم ﴿يخوضوا﴾ في الباطل ﴿ويلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون﴾ بمعنى: يوعدون فيه بالعذاب الأبدي.

وقال تعالى: ﴿وهو الّذي في السماء إله﴾ أي: يحقّ له العبادة في السماء ويحقّ له العبادة في الأرض، وإنّما كرّر لفظة إله في قوله: ﴿وفي الأرض إله﴾ لأحد أمرين:

أحدهما للتأكيد ليتمكّن المعنى في النفس لعظمه في باب الحقّ.

الثاني إنّ المعنى هو في السماء إله، يجب على الملائكة عبادته، وفي الأرض إله يجب على الآدميّين عبادته ﴿وهو الحكيم﴾ في جميع أفعاله ﴿العليم﴾ بجميع المعلومات.

﴿وتبارك﴾ وهو مأخوذ من البرك وهو الثبوت، ومعناه: جلّ الثابت الّذي لم يزل ولا يزال. وقيل: معناه: جلّ الّذي عمّت بركة ذكره[١] ﴿الّذي له ملك السماوات والأرض﴾ أي: الّذي له التصرّف فيهما بلا دافع ولا منازع ﴿وما بينهما وعنده علم الساعة﴾ يعني: علم يوم القيامة، لأنّه لا يعلم وقته على التعيين غيره ﴿واليه ترجعون﴾ يوم القيامة فيجازي كلّاً على قدر عمله.

فمن قرأ بالتاء خاطب الخلق. ومن قرأ بالياء ردّ الكناية إلى الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم.

قوله تعالى:

وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ أربع آيات بلا خلاف.

[أقول][٢]: قرأ عاصم وحمزة ﴿وقيله﴾ بكسر اللام على تقدير: وعنده علم الساعة وعلم قيله. والباقون بالنصب. وقال الأخفش: ردّاً على قوله: ﴿أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم... وقيله﴾[٣] وهو نصب على المصدر. وقال قوم: معناه: أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ولعلمهم وقيله، لأنّه لمّا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ كان تقديره: ويعلم قيله. وقرأ قتادة ﴿وقيله﴾ بالرفع جعله ابتداء[٤].

يقول الله تعالى مخبراً: إنّ الّذي يدعونه الكفّار إلهاً ويوجّهون عبادتهم

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٦٦. (٢) من الحجريّة. (٣) الزخرف: ٨٠.

(٤) راجع الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٨٢، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٢١.

إليه من الأصنام والأوثان وغيرها لا يملكون من دون الله الشفاعة. وهي مسألة الطالب العفو عن غيره وإسقاط الضرر عنه، لأنّ حقيقة الشفاعة ذلك. وعند قوم يدخل فيها المسألة في زيادة المنافع. ثمّ استثنى من جملتهم من شهد بالحقّ وهم عالمون بذلك وهم الملائكة وعيسى وعزير. وقيل: المعنى: ولا يشفع الملائكة وعيسى وعزير إلّا من شهد بالحقّ، وهو يعلم الحقّ ذكره مجاهد، وقال قوم: ﴿إلّا من شهد بالحقّ﴾ الملائكة وعيسى وعزير لهم عند الله شهادة بالحقّ[١]. وقيل: المعنى إلّا من يشهد بأنّه أهل العفو عنه ﴿وهم يعلمون﴾ ذلك. وهؤلاء أصحاب الصغائر والّذين تابوا من الكبائر.

ثمّ قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم﴾ يا محمّد يعني: هؤلاء الكفّار ﴿من خلقهم﴾ وأخرجهم من العدم إلى الوجود ﴿ليقولنّ الله﴾ لأنّهم يعلمون ضرورة أنّ الأصنام لم تخلقهم. فقال الله تعالى معنفاً لهم: ﴿فأنّى يؤفكون﴾ مع علمهم بأنّ الله هو خالقهم، فكيف ينقلبون عن عبادته إلى عبادة غيره.

وقوله: ﴿وقيله يا ربّ﴾ من نصبه احتمل أن يكون بقوله: ﴿إلّا من شهد بالحقّ﴾ وقال: ﴿قيله يا ربّ إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ على وجه الإنكار عليهم. وقيل: المعنى: أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم... وقيله. وقال الزجّاج: الاختيار ﴿وعنده علم الساعة﴾ ويعلم ﴿قيله﴾[٢] ومن جرّ فعلى تقدير: وعنده علم الساعة وعلم قيله يا ربّ[٣]. وقيل: معنى ﴿وقيله﴾ أنّه شكا محمّد ﷺ شكوة إلى ربّه[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٢١٨.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٢١.
(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٨٢ ـ ٣٨٣.
(٤) النكت والعيون ٥: ٢٤٣.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فاصفح عنهم﴾ أي: أُعف عنهم. قال قتادة: وكان ذلك قبل أمره إيّاه بقتالهم ﴿وقل سلام﴾ رفع على تقديره: وهو عليكم سلام أي: ما سلم به من شرّهم وأذاهم. وقال الحسن: يعني ﴿وقل سلام﴾ احلم عنهم ثمّ هدّدهم فقال ﴿فسوف تعلمون﴾ بالتاء على وجه الخطاب. الباقون بالياء على الخبر عن الكفّار الّذين مضى ذكرهم.

# سورة الدخان

وهي مكّية في قول قتادة ومجاهد، وهي تسع وخمسون آية في الكوفي، وسبع في البصري، وستّ في المدنيّين والشامي وسنذكر اختلافهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٦).

ستّ آيات في الكوفي وخمس في الباقين.

[أقول][(١)]: قد بيّنّا معنى ﴿حم﴾ في ما مضى واختلاف الناس فيه وأنّ أقوى الوجوه انه اسم للسورة. وإنّما كرّر ذكر ﴿حم﴾ لأنّه ينبئ عن استفتاح السورة بذكر الكتاب على وجه التعظيم إذ على ذلك جميع الحواميم، فهو اسم عَلَم للسورة مضمّن بمعنى الصفة من وجهين:

---

(١) من الحجريّة.

أحدهما أنّها من الحروف العربيّة. والآخر أنّه استفتحت بذكر الكتاب على طريق المدحة.

وقوله: ﴿والكتاب المبين﴾ فالمراد بالكتاب القرآن، وجرّه بأنّه قسم. وقال قوم: تقديره وربّ الكتاب المبين[١] وإنّما أقسم به لينبئ عن تعظيمه، لأنّ القسم يؤكّد الخبر بذكر المعظّم منعقداً بما يوجب أنّه حقّ كما أنّ تعظيمه حقّ. وإنّما وصف بأنّه مبين وهو بيان مبالغة في وصفه بأنّه بمنزلة الناطق بالحكم الّذي فيه من غير أن يحتاج إلى استخراج الحكم من مبيّن غيره، لأنّه يكون من البيان ما لايقوم بنفسه دون مبيّن حتّى يُظهر المعنى فيه.

وقوله: ﴿إنّا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ إخبار منه تعالى أنّه أنزل القرآن في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر، في قول قتادة وابن زيد. وقال قوم: هي ليلة النصف من شعبان[٢]. والأوّل أصحّ، لقوله تعالى: ﴿شهر رمضان الّذي أُنزل فيه القرآن﴾[٣] وقيل: هي في كلّ شهر رمضان فيها تقسم الآجال والأرزاق وغيرهما من الألطاف، في قول الحسن. وقيل: أُنزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر. ثمّ أُنزل نجوماً على النبيّ ﷺ[٤] وقيل: ينزل في ليلة القدر قدر ما يحتاج إليه في تلك السنة. وقيل: المعنى إنّ ابتداء إنزاله في ليلة مباركة، ووصفها بأنّها مباركة لأنّ فيها يقسم الله تعالى نعمه على عباده من السنة إلى السنة. والبركة نماء الخير، وضدّه الشؤم وهو نماء الشرّ، فالليلة الّتي أُنزل فيها كتاب الله مباركة، فإنّ الخير ينمى فيها على ما دبّره الله لها من علوّ الخير الّذي قسّمه فيها.

---

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٢١٤.

(٢) النكت والعيون ٥: ٢٤٤.

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) تفسير السمرقندي ٨: ٢٤٩.

وقوله: ﴿إنّا كنّا منذرين﴾ فالإنذار الإعلام بموضع الخوف ليتّقى وموضع الأمن ليرتجى [فالله تعالى قد أنذر العباد بأتمّ الإنذار من طريق العقل والسمع وقوله:][1] ﴿فيها يفرق كلّ أمر حكيم﴾ فحكيم ـ هاهنا ـ بمعنى محكم، وهو ما بيّنّاه من أنّه تعالى يقسّم في هذه الليلة الآجال والأرزاق وغيرها.

وقوله: ﴿امراً من عندنا﴾ يحتمل أن يكون نصباً على الحال، وتقديره أنزلناه آمرين. ويحتمل أن يكون على المصدر وتقديره: يفرق كلّ أمر فرقاً، ووضع «امراً» موضعه[2].

وقوله: ﴿إنّا كنّا مرسلين﴾ إخبار منه تعالى أنّه يرسل الرسل ﴿رحمة﴾ أي نعمة. ونصبه على المصدر واختار الأخفش النصب على الحال أي أنزلناه آمرين راحمين[3]. ويجوز أن يكون نصباً على أنّه مفعول له أي أنزلناه للرحمة[4]. وسمّيت النعمة «رحمة» لأنّها بمنزلة ما يبعث على فعله رقّة القلب على صاحبه ومع داعي الحكمة إلى الإحسان إليه يؤكّد أمره.

وقوله: ﴿إنّه هو السمع العليم﴾ معناه إنّه يسمع ما يقوله خلقه من المبطلين والمحقّين فيجيب كلّاً منهم على ما يعلمه من مصلحته من إرساله الرسل إليه وإنعامه عليه.

قوله تعالى:

رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ

(١) ما بين المعقوفتين لا يوجد في الحجريّة.
(٢) معاني القرآن ٣: ٢٩.
(٣) معاني القرآن ٢: ٦٩١.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٢٤.

تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][١]: قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ﴿ربِّ السماوات﴾ خفضاً بدلاً من قوله: ﴿رحمة من ربّك... ربّ السماوات﴾ الباقون بالرفع على الاستئناف. ويجوز أن يكون خبر «إنّ» في قوله: ﴿إنّه هو السميع العليم﴾. لمّا ذكر الله تعالى أنّه ـ جلّ وعزّ ـ السميع العليم، وصف نفسه أيضاً بأنّه الّذي خلق السماوات والأرض ودبّرهما، ودبّر ما فيهما ﴿إن كنتم موقنين﴾ بهذا الخبر محقّقين له. وقيل: إنّ وجه الاحتجاج بذكر ربّ السماوات والأرض ـ هاهنا ـ أنّ الّذي دبّرهما على ما فيه مصالح العباد هو الّذي دبّر الخلق بإرسال الرسول رحمة منه بعباده على ما فيه مصالحهم[٢]. ومعنى ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كنتم ممّن يطلب اليقين، فهذا طريق اليقين يلج الصدور بالعلم، وهو حال يجده الإنسان من نفسه عند التعقّل. ولهذا يقال: من وجد برد اليقين [كان من المتّقين][٣]. ولذلك لا يوصف الله تعالى باليقين وإن وصف بأنّه عالم وعليم.

ثمّ بيّن تعالى أنّه لا أحد يستحقّ العبادة سواه بقوله: ﴿لا إله إلّا هو﴾ وأنّه ﴿يحيي﴾ الخلق بعد موتهم [﴿ويميت﴾ أي][٤] ويميتهم بعد إحيائهم ﴿ربّكم﴾ الّذي خلقكم ودبّركم ﴿وربّ آبائكم﴾ الّذي خلقهم ودبّرهم ﴿الأوّلين﴾ الّذين سبقوكم وتقدّموكم.

ثمّ أخبر تعالى عن الكفّار فقال ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه ﴿بل هم في شكّ﴾ يعني بما أخبرناك به ووصفنا الله تعالى به ﴿يلعبون﴾ مع ذلك

(١) من الحجريّة. (٢) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٢٤. (٣ و ٤) لا يوجد في الحجريّة.

ويسخرون.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿فارتقب﴾ قال قتادة: فانتظر ﴿يوم تأتي السماء بدخان مبين﴾ والدخان الظلمة الّتي كانت تغشى أبصار المشركين من قريش لشدّة الجوع وحين دعا عليهم النبيّ ﷺ فقال «اللّهم سنين كسنين يوسف عليه السلام» في قول ابن مسعود والضحّاك. وقال ابن عبّاس والحسن وهو المرويّ عن النبيّ ﷺ إنّ الدخان آية من أشراط الساعة تدخل في مسامع الكافر والمنافق حتّى يكون كالرأس الحينئذ ونصيب المؤمن منه مثل الزكمة[١].

و ﴿يغشى الناس﴾ يعني الدخان يغشى الناس. ثمّ حكى تعالى بأنّ هؤلاء الكفّار يقولون عند ذلك ﴿هذا عذاب أليم﴾ أي مؤلم موجع. و«الغشي» اللباس [الّذي يغمر][٢] الشيء، لأنّ الإنسان قد يلبس الإزار ولا يغشيه. فإذا غمّه كان قد غشاه. والغاشية من الناس الجماعة يغشون، وغاشية السرج من ذلك، ومنه قوله: ﴿يغشى الليل النهار﴾[٣] والعذاب استمرار الألم ووصفه بـ﴿أليم﴾ مبالغة في سببه، لأجل استمراره وصار بالعرف عبارة عن العقاب، لأنّ الألم الّذي يفعل للعوض والاعتبار، كأنّه لا يعتدّ به لما يؤول إليه من النفع.

قوله تعالى:

رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٢٥، الكشف والبيان ٨: ٣٥٠.

(٢) في الحجريّة: يغمّ.

(٣) الأعراف: ٥٤. الرعد: ٣.

عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول][1]: لمّا أخبر الله تعالى أنّ الدخان يغشى الناس عذاباً لهم وعقاباً للكفّار، وحكى أنّهم يقولون هذا عذاب أليم، حكى أيضاً أنّهم يقولون ويدعون ﴿ربّنا﴾ اصرف ﴿عنّا العذاب﴾ الّذي أنزلته من الدخان ﴿إنّا﴾ موقنون بأنّه لا إله غيرك، وأن لا يستحقّ العبادة سواك. فقال تعالى: ﴿أنّي لهم الذكرى﴾ قال ابن عبّاس معناه ﴿كيف﴾؟ وقال غيره: معناه: من أين لهم الذكرى[2] ﴿وقد جاءهم رسول مبين﴾ وحثّهم على ذلك فلم يقبلوا منه، وهذا زمان سقوط التكليف لكونهم ملجئين فلا تقبل لهم التوبة.

وقوله: ﴿ثمّ تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون﴾ قال مجاهد: المعنى: ثمّ تولّوا عن محمّد صلى الله عليه وآله وقالوا هو معلّم يعلّمه غيره، ونسبوه إلى الجنون، وأنّه مجنون. ثمّ قال تعالى: [﴿إنّا كاشفوا العذاب قليلاً﴾][3] على وجه التبكيت لهم [على] شدّة عنادهم إنّا لو كشفنا عنكم العذاب ورفعناه عنكم ﴿إنّكم عائدون﴾ فمن قال إنّ العذاب بالدخان عند رفع التكليف قال ﴿إنّكم عائدون﴾ في العذاب، وهو قول قتادة. ومن ذهب إلى أنّه في الدنيا مع بقاء التكليف، قال: معناه ﴿إنّكم عائدون﴾ في الضلال، وهو قول جماعة[4].

وقوله: ﴿يوم نبطش البطشة الكبرى﴾ «فالبطش» الأخذ بشدّة وقع الألم، بطش به يبطش بطشاً، ومثله عرش يعرش ويعرش، وهو باطش، وأكثر مايكون بوقوع الضرب المتتابع، فأُجري إفراغ الألم المتتابع مجراه و﴿البطشة الكبرى﴾ قال ابن مسعود ومجاهد وأبو العالية، وروي عن ابن عبّاس وأُبيّ

---

(١) من الحجريّة.
(٢) راجع الكشف والبيان ٨: ٣٥١، تفسير السمرقندي ٣: ٢٦٩.
(٣) لا يوجد في الحجريّة.
(٤) تفسير الطبري ١١: ٢٢٩.

ابن كعب والضحّاك وابن زيد: هو ما جرى عليهم يوم بدر. وفي رواية أُخرى عن ابن عبّاس والحسن أنّه يوم القيامة، وهو اختيار الجبّائي.

وقوله: ﴿إنّا منتقمون﴾ إخبار منه تعالى أنّه ينتقم من هؤلاء الكفّار بإنزال العقوبة بهم، وقد فرّق قوم بين النقمة والعقوبة: بأنّ النقمة ضدّ النعمة، والعقوبة ضدّ المثوبة، فهي مضمّنة بأنّها بعد المعصية في الصفة، وليس كذلك النقمة، وإنّما تدلّ الحكمة على أنّها لا تقع من الحكيم إلّا لأجل المعصية(١).

قوله تعالى:

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول](٢): أقسم تعالى إنّه فتن قبلهم يعني قبل كفّار قوم النبيّ ﷺ ﴿قوم فرعون﴾ أي اختبرناهم، وشدّدنا عليهم بأن كلّفناهم، لأنّ الفتنة شدّة التعبّد في الأخذ بالسرّاء والضرّاء، وأصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغشّ، فهذه الشدّة كشدّة الإحراق للخلاص. وقيل: الفتنة معاملة المختبر ليجازي بما يظهر دون ما يعلم ممّا لم يعلم ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ أي حقيق بالتكرّم في الدعاء إلى الله والبرهان الواضح والدليل القاهر حتّى يسلكوا طريق الهدى المؤدّي إلى ثواب الجنّة ويعدلوا عن طريق الردى المؤدّي إلى العقاب. وقيل: معناه كريم عند الله بما استحقّ بطاعته من

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٤٨.
(٢) من الحجريّة.

الإكرام والإجلال[١].

وقوله ﴿أن أدّوا إليَّ عباد الله﴾ قال الحسن: هو مثل قوله ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾[٢] فـ﴿عباد الله﴾ منصوب بـ﴿أدّوا﴾ وقيل: هو منصوب على النداء، أي يا عباد الله أدّوا ما أمركم به، في قول الفرّاء[٣] ﴿إنّي لكم رسول أمين﴾ على ما اؤدّيه إليكم وأدعوكم إليه. ﴿وأن لا تعلوا على الله﴾ قال ابن عبّاس: معناه أن لا تطغوا عليه بافتراء الكذب عليه. وقال قتادة: معناه أن لا تبغوا عليه بكفر نعمه. وقيل: معناه أن لا تتكبّروا على الله بترك طاعته واتّباع أمره[٤]. وقيل: معناه أن لا تبغوا على أولياء الله بالبغي عليهم[٥]. وقال الحسن: معناه لا تستكبروا عليه بترك طاعته.

﴿إنّي آتيكم بسلطان مبين﴾ أي بحجّة واضحة، لأنّ السلطان الحجّة. و«المبين» الظاهر الّذي مع ظهوره يظهر الحقّ، فكأنّه أظهره.

ثمّ قال لهم: ﴿وإنّي عذت بربّي﴾ الّذي خلقني ﴿وربّكم﴾ الّذي خلقكم ﴿أن ترجمونِ﴾ قال ابن عبّاس وأبو صالح: الرجم الّذي استعاذ منه موسى هو الشتم، كقولهم: هو ساحر كذّاب ونحوه. وقال قَتادة: هو الرجم بالحجارة.

ثمّ قال لهم: ﴿وان لم تؤمنوا لي [فاعتزلون]﴾ أي لم تؤمنوا بي، فاللام بمعنى الباء ومعناه وإن لم تصدّقوني في أنّي رسول الله إليكم وأنّ ما أدعوكم إليه حقّ يجب عليكم العمل به فلا أقلّ من أن تعتزلون بصرف أذاكم عنّي، لأنّكم إن لم تجازوا الإحسان بالإحسان، فلا إساءة. وإنّما

---

(١ و٣) معاني القرآن ٣: ٤٠، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٢٥. (٢) الشعراء: ١٧.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٢٧٠. (٥) راجع النكت والعيون ٥: ٢٤٩.

دعاهم إلى ترك ملابسته بسوء إن أصرّوا على الكفر ولم يقبلوا إلى الايمان لأنّ هذا أمر يدعو إليه العقل ببديهته ولا يحتاج إلى برهان.

قوله تعالى:

فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ثمان آيات بلا خلاف.

[أقول][١]: قرأ أبو جعفر ﴿فاكهين﴾ بغير الف ـ هاهنا ـ وفي المطفّفين[٢]. وفي الطور[٣] وافقه الداجوني وحفص في المطفّفين.

حكى الله تعالى أنّ موسى حين يئس من قومه أن يؤمنوا به ﴿دعا﴾ الله ﴿ربّه﴾ فقال: ﴿إنّ هؤلاء قوم مجرمون﴾ وقيل: إنّه دعا بما يقتضيه سوء أفعالهم وقبح أجرامهم وسوء معاملتهم له، فكأنّه قال: اللّهمّ عجّل لهم بمايستحقّونه بأجرامهم ومعاصيهم بما به يكونون نكالاً لمن بعدهم، وما دعا بهذا الدعاء إلّا بعد إذن الله له في الدعاء عليهم[٤].

وقوله: ﴿فأسر بعبادي﴾ الفاء وقعت موقع الجواب، وتقديره فدعا فأُجيب بأن قيل له: ﴿فأسر بعبادي﴾ فهي عطف وقع موقع جواب الدعاء. وأمره الله تعالى بأن يسير بأهله والمؤمنين به لئلّا يروهم إذا خرجوا نهاراً، وأعلمه [﴿إنّكم متبعون﴾ ][٥] أنّه سيتبعهم فرعون وقومه ويخرجون خلفهم، وأمره بأن يترك ﴿البحر رهواً﴾ أي ساكناً على ما هو به من كثرته

---

(١) من الحجريّة. (٢) الآية: ٣١. (٣) الآية: ١٨.

(٤) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٣٤. (٥) لا يوجد في الحجريّة.

إذا قطعه، ولا يرده إلى ما كان ويقال: عيش رآه إذا كان خفضاً وادعاً. وقال قوم: معناه اترك البحر يبساً. وقيل: طريقاً يابساً(١). وقال ابن الأعرابي: معناه واسعاً ما بين الطاقات. وقال خالد ابن خيبري: معناه: دمثاً أي سهلاً ليس برمل(٢) ولا حَزْن. ذكره الأزهري يقال: جاء الخيل رهواً أي متتابعة. وقال ابن الأعرابي: الرهو من الخيل والطير السراع . وقال العُكْلي: المرهي من الخيل الّذي تراه كأنّه لا يُسرع، وإذا طُلب لا يدرَك، ويقال: أعطاه سهواً رهواً أي كثيراً لا يحصى(٣). وإنّما قيل ذلك، لأنّه كان أمره أوّلاً أن يضرب البحر بعصاه ليفلق فيه طرقاً لقومه [ثمّ] أمر[ه] بأن يتركه على الحالة الأُولى ليغرق فيه فرعون وجنده، قال الشاعر:

طير رأت بازياً نضح الدماء به وأمّة أُخرجت رهواً إلى عيد(٤)

أي سكوناً على كثرتهم.

ثمّ أخبره عن فرعون وقومه [بـ﴿إنّهم جند مغرقون﴾ أي](٥) سيغرقهم الله. وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره انّ موسى سار بقومه وتبعه فرعون وجنده وأنّ الله أهلكهم وغرقهم.

ثمّ أخبر عن حالهم بأن قال: ﴿كم تركوا من جنّات﴾ يعني من بساتين لهم تركوها لم تنفعهم حين نزل بهم عذاب الله ﴿وعيون﴾ جارية لم تدفع عنهم عقاب الله ﴿وزروع﴾ جمع زرع ﴿ومقام كريم﴾ قيل: هو المجلس الشريف(٦). وقيل: مقام الملوك والأُمراء والحكماء(٧). وقيل: المنازل

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) في الحجريّة: رمثا... برمك.
(٣) راجع معجم تهذيب اللغة ٢: ١٤٨٣ ـ ١٤٨١. بادّورها.
(٤) معاني القرآن ٣: ٤١.
(٥) ليس في الحجريّة. وفيه: أنّ فرعون.
(٦) الكشف والبيان ٨: ٣٥٢.
(٧) النكت والعيون ٥: ٢٥١.

الحسنة[١]. وقال قتادة: يعني مقام حسن بهج. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: هي المناظر. وقيل: المنابر[٢]. وقيل: المقام الكريم هو الّذي يعطي اللذّة، كما يعطي الرجل الكريم الصلة[٣] ﴿ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ فالنعمة ـ بفتح النون ـ التنعيم [و] بكسرها منفعة يستحقّ بها الشكر وإن كانت مشقّة، لأنّ التكليف نعمة وإن كانت فيه مشقّة. ومعنى الآية: انّهم كانوا متمتّعين. فالفاكه المتمتّع [بها] بضروب اللذّة، كما يتمتّع الآكل بضروب الفاكه، يقال: فكِه يفكَه فكَهاً، فهو فاكه، وفَكّه وتفكّه يتفكّه تفكّهاً، فهو متفكّه.

وقوله: ﴿كذلك وأورثناها قوماً آخرين﴾ فتوريثه النعمة إلى الثاني بعد الأوّل بغير مشقّة كما يصير الميراث إلى أهله على تلك الصفة، وتوريث العلم شبّه بذلك، لأنّ الأوّل تعب في استخراجه وتوطئة الدلالة المؤدّية إليه، ووصل إلى الثاني وهو رافه وادع، لم يكلّ لطول الفكر وشدّة طلب العلم، فلمّا كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد هلاكهم إلى غيرهم، كان ذلك توريثاً من الله لهم. قال قتادة: يعني بقوم آخرين «بني إسرائيل» لأنّ بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون على ما قيل، وكذلك قال في موضع آخر: ﴿وأورثناها بني إسرائيل﴾[٤].

وقوله: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: قال الحسن فما بكى عليهم ـ حين أهلكهم الله ـ أهل السماء وأهل الأرض، لأنّهم مسخوط عليهم مغضوب عليهم بإنزال الخزي بهم.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٤١.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٢٣٦.
(٣) النكت والعيون ٥: ٢٥١.
(٤) الشعراء: ٥٩.

الثاني: إنّ التقدير أنّ السماء والأرض لو كانتا ممّن تبكي على أحد إذا هلك لما بكتا على هؤلاء، لأنّهم ممّن أهلكهم الله بالاستحقاق وأُنزل عليهم رجزاً بما كانوا يكفرون. والعرب تقول: إذا أرادت [أن][١] تعظّم موت إنسان: أظلمت الشمس وكسف القمر لفقده وبكت السماء والأرض، وإنّما يريد المبالغة قال الشاعر:

الريح تبكي شجوها والبرق يلمع في الغمامة[٢]

وقال آخر:

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر[٣]

الثالث: إنّهم لم يبك عليهم ما يبكى على المؤمن إذا مات، مصلّاه ومصعد علمه، ذكره ابن عبّاس وابن جبير. ومعناه لم يكن لهم عمل صالح. وقال السُدّي: لمّا قتل الحسين عليه السلام بكت السماء عليه وبكاؤها حمرة أطرافها[٤]. وقال الحسن: ما بكى عليهم المؤمنون [و]الملائكة، بل كانوا بهلاكهم مسرورين.

وقوله: ﴿وما كانوا منظرين﴾ أي عوجلوا بالعقوبة ولم يمهلوا.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ

---

(١) ليس في الحجريّة. (٢) تفسير القرطبي ١٦: ١٤٠.

(٣) الكشف والبيان ٥: ٢٥٣، ديوان جرير: ٢٥٣.

(٤) راجع النكت والعيون ٥: ٢٥٢، تفسير الطبري ١١: ٢٣٧.

بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾.

سبع آيات كوفي وستّ في ما عداه، عدّ الكوفيون ﴿ليقولون﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول][١]: أقسم الله تعالى أنه نجّى أي خلص بني إسرائيل الّذين آمنوا بموسى من العذاب المهين الّذي كان يفعله بهم فرعون وقومه لأنّهم كانوا استعبدوهم، وكانوا يكلّفونهم المشاقّ ويحملوهم القذارات ويكلّفونهم كنسها وتنظيفها وغير ذلك، فخلصهم الله تعالى حين أهلك فرعون وقومه ووفقهم للإيمان بموسى.

ثمّ أخبر تعالى إنّ فرعون ﴿كان عالياً من المسرفين﴾ أي متجبّراً متكبّراً من المسرفين في الأرض الّذين يتجاوزون حدّ ما يجوز فعله إلى ما لايجوز فعله استكباراً وعلوّاً وعتوّاً، يقال: أسرف يسرف إسرافاً فهو مسرف، ومثله الإفراط، وضدّه الإقتار. وإنّما وصف المسرف بأنّه عال، وإن كان وصف عال قد يكون صفة مدح، لأنّه قيّده بأنّه عال في الإسراف، لأنّ العالي في الإحسان ممدوح والعالي في الإسراف مذموم، وإطلاق صفة عال تعظيم، وإذا أُطلق فالمدح به أولى.

ثمّ أخبر تعالى مقسماً بأنّه اختارهم يعني موسى وقومه ﴿على علم على العالمين﴾ فالاختيار هو اختيار الشيء على غيره بالإرادة له لتفضيله عليه. ومثله الإيثار، وليس في مجرّد الإرادة تفضيل شيء على غيره، لأنّه قد يمكن أن يريد شيئاً من غير أن يخطر بباله ما هو فيه أولى منه في العقل، فلا يكون اختياره تفضيلاً[٢]. وإمّا أن يريد الأولى ولا يدري أنّه

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الحجريّة: ممدوحاً.

أولى، فيختاره عليه لجهله بأنّه أولى أو يختاره وهو يعلم أنّه [غير] أولى، ويختاره لحاجته إليه من جهة تعجّل النفع به، ومن اختار الأدون في الصلاح على الأصلح كان منقوصاً مذموماً، لأنّه بمنزلة من اختار القبيح على الحسن.

وقيل: المعنى اخترناهم على عالمي زمانهم[١] بدلالة قوله لأُمّة نبيّنا: ﴿كنتم خير أُمّة أخرجت للناس﴾[٢] وذلك يوجب أنّه ما اختارهم على من هو خير منهم، وإنّما اختارهم على من هو في وقتهم من العالمين. وقال قتادة ومجاهد: على عالمي زمانهم. وإنّما قال: ﴿اخترناهم على علم على العالمين﴾ بما جعل فيهم من الأنبياء الكثيرين، فهذه خاصّة لهم ليست لغيرهم، لما في العلوم من مصالح المكلّفين بأنبيائهم.

ثمّ بيّن ما به اختارهم بأن قال: ﴿وآتيناهم﴾ يعني: أعطيناهم ﴿من الآيات﴾ يعني: الدلالات والمعجزات ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ قال الحسن: يعني: ما فيه النعمة الظاهرة[٣]. قال الفرّاء: البلاء قد يكون بالعذاب، وقد يكون بالنعمة، وهو ما فعل الله بهم من إهلاك فرعون وقومه، وتخليصهم منه وإظهار نعمه عليهم شيئاً بعد شيء[٤].

ثمّ أخبر تعالى عن كفّار قوم نبيّنا صلى الله عليه وآله فقال: ﴿إنّ هؤلاء ليقولون إن هي إلّا موتتنا الأُولى﴾ أي ليس هذا إلّا الموتة الأُولى ﴿و[ما نحن﴾ أي][٥] لسنا بعدها بمبعوثين ولا معادين ﴿بمنشرين﴾ ويقولون: ﴿فأتوا بآبائنا﴾ الّذين ماتوا قبلنا وأعيدوهم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنّ الله تعالى يقدر على إعادة

---

(١) تفسير السمرقندي ٣: ٢٧١. (٢) آل عمران: ١١٠. (٣) الكشف والبيان ٥: ٢٥٤.
(٤) معاني القرآن ٣: ٤٢. (٥) مابين المعقوفتين لا يوجد في الحجريّة.

الأموات وإحيائهم لأنّ من قدر على النشأة الثانية قدر على إعادة الآباء، وهذا باطل لأنّ النشأة الثانية إنّما وجبت للجزاء لا للتكليف، فلا تلزم إعادة الآباء ولا تجب.

قوله تعالى:

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَـٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ أربع آيات بلا خلاف.

[أقول][1]: إن قيل: لِم لم يجابوا عن شبهتهم في الآية، ولم يبيّن لهم أنّ ذلك لا يلزم، وما الوجه في جوابهم؟ ﴿أهم خير أم قوم تبّع﴾ قلنا: من تجاهل في الحجاج الّذي يجري مجرى الشغب الّذي لا يعتقد بمثله مذهب لنفي الشبهة فيه، فإنّه ينبغي أن يعدل عن مقابلته إلى الوعظ له بما هو أعود عليه، فلذلك عدل تعالى معهم إلى هذا الوعيد الشديد، وقال [«أهم»] هؤلاء الكفّار ﴿خير أم قوم تبّع والّذين من قبلهم﴾ فإنّا ﴿أهلكناهم﴾ لمّا جحدوا الآيات وكفروا بنعم الله وارتكبوا معاصيه فما الّذي يؤمّن هؤلاء من مثل ذلك. وقيل: تبّع الحميري كان رجل من حِمْيَر سار بالجيوش إلى الحيرة حتّى حيّرها، ثمّ أتى سمرقند فهدمها، وكان يكتب باسم الّذي مَلَكَ بحراً وبرّاً وضحّاً وريحاً، ذكره قتادة. وقال سعيد بن جبير وكعب الأحبار: ذمّ الله قومه، ولم يذمّه ونهى أن يسبّ. وحكى الزجّاج: أنّ تبّعاً كان مؤمناً، وأنّ قومه كانوا كافرين. وقيل: إنّه نظر إلى كتاب على قبرين بناحية حِمير: هذا قبر رَضْوى وقبر حيّ ابني تبّع لا يشركان بالله

---

(١) من الحجريّة.

شيئاً[١]. وقيل: سمّي تبّعاً، لأنّه تبع من كان قبله من ملوك اليمن. والتبابعة اسم ملوك اليمن[٢].

ثمّ قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين﴾ أي لم نخلق ذلك لا لغرض حِكَمي بل خلقناهم لغرض حِكَمي، وهو أن ننفع به المكلّفين ونعرّضهم الثواب وننفع[٣] الحيوان بالمنافع لهم فيها واللذّات. وفي الآية دلالة على من أنكر البعث، لأنّه لو كان على ما توهّموه أنّه لا يجربه إلى الجزاء في دار أُخرى مع ما فيه من الألم لكان لعباً، لأنّه ابتدأ باختيار ألم لا يجر[٤] به إلى عوض.

ثمّ قال تعالى: ﴿وما خلقناهما﴾ يعني: السماوات والأرض ﴿إلّا بالحقّ﴾ قال الحسن معناه: إلّا للحقّ الّذي يصل إليه في دار الجزاء. وقيل فيه قولان آخران:

أحدهما: ما خلقناهما إلّا بداعي العلم إلى خلقهما، والعلم لا يدعو إلّا إلى الصواب.

الثاني: وما خلقناهما إلّا على الحقّ الّذي يستحقّ به الحمد خلاف الباطل الّذي يستحقّ به الذمّ.

ثمّ قال: ﴿ولكنّ أكثرهم لا يعلمون﴾ بصحّة ما قلناه لعدولهم عن النظر فيه، والاستدلال على صحّته. وفي ذلك دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضروريّة، لأنّها لو كانت لما نفى تعالى علمهم بذلك.

ثمّ قال تعالى: ﴿إنّ يوم الفصل [ميقاتهم أجمعين]﴾ يعني: اليوم الّذي

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٢٧. فيه: حُبّى ابنتي.
(٢) النكت والعيون ٥: ٢٥٦.
(٣) في الحجريّة في الموضعين: ننتفع.
(٤) في الحجريّة في الموضعين: يجري.

يفصل فيه بين المحقّ والمبطل بما يضطرّ كلّ واحد منهما إلى حاله من حقّه أو باطله فيشفي صدور المؤمنين ويقطع قلوب الكافرين بما يرون من ظهور الأمر وانكشافه، وهو يوم القيامة، وبيّن أنّه ميقات الخلق أجمعين، وهو من له ثواب وعوض أو عليه عقاب يوصله إليه.

قوله تعالى:

يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾.

عشر آيات كوفي وبصري وتسع في ما عداه، عدّ الكوفيّون والبصريّون «الزقّوم» ووافقهم عليه الشاميّون والمدني الأوّل. وعدّ أيضاً العراقيّون «يغلي في البطون» ووافقهم عليه المكّيّون والمدني الأخير.

قرأ ﴿يغلي﴾ بالياء كثير وابن عامر وحفص عن عاصم. الباقون بالتاء. من قرأ بالياء ردّه إلى المُهل . ومن قرأ بالتاء ردّه إلى الشجرة. قال أبو عليّ: من قرأ بالياء حمله على الطعام، لأنّ الطعام هو الشجرة في المعنى ألا ترى أنّه خبر الشجرة، والخبر هو المبتدأ بعينه إذا كان مفرداً في المعنى. ولا يحمل على «المهل» لأنّ المهل إنّما ذكر ليشبه به في الذوق، لأنّ التقدير إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم تغلي في البطون كالمهل على الحميم[1].

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٨٧. فيه: بدل «الذوق» الذوب.

لمّا ذكر الله تعالى أنّ يوم الفصل ميقات الخلق يحشرهم الله فيه ويفصل بينهم بالحقّ أيّ يوم هو؟ فوصفه أنّه ﴿يوم لا يغني فيه مولى عن مولى شيئاً﴾ لأنّ الله تعالى أيأس من ذلك، لما علم فيه من صلاح العباد، ولولا ذلك لجاز أن يغرى. والمعنى: إنّه ليس لهم من ينتصر لهم من عقاب الله تعالى، فلا ينافي ذلك ما نقوله: من أنّه يشفع النبيّ والأئمّة والمؤمنون في إسقاط كثير من عقاب المؤمنين، لأنّ الشفاعة لا تحصل إلّا بأمر الله وإذنه. والمراد في الآية أنّه ليس لهم من يغني عنهم من غير أن يأذن الله له فيه على وجه الدفع عنه والنصر له، وبيّن ذلك بقوله: ﴿ولاهم ينصرون﴾ والمولى ـ هاهنا ـ الصاحب الّذي شأنه أن يتولّى معونة صاحبه على أُموره، فيدخل في ذلك ابن العمّ والحليف وغيره ممّن هذه صفته وقد استثنى ما أشرنا إليه بقوله: ﴿إلّا من رحم الله﴾ فإنّ من يرحمه الله إمّا أن يسقط عقابه ابتداءً أو يأذن في إسقاط عقابه بالشفاعة فيه.

ثمّ وصف نفسه بأنّه القادر الّذي لا يغلب ولا يقهر بدفع العقاب عمّن يريد فعله به ﴿الرحيم﴾ أي المنعم لمن يريد العفو عنه بإسقاط عقابه.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم﴾ الّذي يستحقّ العقاب بمعاصيه وعنى به ـ هاهنا ـ أبو جهل، فالزقّوم ما أكل بتكرّه شديد له، لأنّه يحشو به فمه ويأكله بشره شديد، ولهذا حكي عن أبي جهل أنّه أُتي بتمر وزَبْد، فقال: نحن نتزقّم هذا أي نملأ به أفواهنا فما يضرّنا.

ثمّ شبّه ذلك بأنّه مثل المُهل، وهو الشيء الّذي يذاب في النار حتّى يشتدّ حرّه كالفضّة والرصاص وغيرهما ممّا يُماع بالنار، وهو مُهل، لأنّه يُمهل في النار حتّى يذوب. وقال ابن عبّاس: المُهل ما أُذيب بالنار

كالفضّة، وهو قول ابن مسعود. وروي عن ابن عبّاس أيضاً أنّ المهل دردي الزيت في النار. ثمّ وصف «المهل» بأنّه ﴿يغلي في البطون﴾ من حرارته، كما يغلي ﴿الحميم﴾ وهو الماء المغليّ على النار، فالمهل يغلي في بطون أهل النار، كما يغلي الماء بحرّ الإيقاد و«الغلي» ارتفاع المائع من الماء ونحوه بشدّة الحرارة. و«الحميم» الحارّ ومنه أحمّ الله ذلك من لقاء أي أدناه وقرّبه لأنّ ما حمّ فللإسراع وما برد فللإبطاء، ومنه حمّم ريش الطائر إذا قرب خروجه.

ثمّ بيّن أنّه تعالى يأمر الملائكة بأن يأخذوا الكافر وأن يعتلوه ﴿إلى سواء الجحيم﴾ يعني إلى وسطه. و«العتل» زعزعة البدن بالجفاء والغلظة للإهانة. فمعنى ﴿اعتلوه﴾ اعملوا به هذا العمل، ومنه العُتُلّ، وهو الجافي الغليظ يقال: عتله يعتِله ويعتله عتلاً إذا ساقه دفعاً وسحباً. قال الفرزدق:

ليس الكرام بنا حليك إباءهم حتّى تُرَدّ إلى عطيّة تُعتَل[١]

و «سواء الجحيم» وسطه، في قول قتادة. وسمّي وسط الشيء سواء، لاستواء المسافة بينه وبين أطرافه المحيطة به، والسواء العدل كقولهم: هذا سواء بيننا وبينكم أي عدل.

ثمّ بيّن تعالى أنّه يأمرهم بأن يصبّوا فوق رأس الكافر ﴿من عذاب الحميم﴾. وهو ما فسّرناه. ثمّ يخاطبه فيقول له: ﴿ذق إنّك أنت العزيز الكريم﴾ على وجه التهجين له بما كان يدّعي له ممّا ليس به أي أنت كذلك عند نفسك وقومك.

ويجوز أن يكون على معنى النقيض، كأنّه قيل: إنّك أنت الذليل المهين

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٢٤٥، فيه: أباهم

إلّا أنّه قيل: على تلك الجهة للتبعيد منها على وجه الاستخفاف به. وقيل: إنّ الآية نزلت في أبي جهل، وقد كان قال: (أنا أعزّ من بها وأكرم) ـ ذكره قتادة ـ وقيل: المعنى أنت الّذي كنت تطلب العزّ في قومك والكرم بمعصية الله. وقيل: المعنى إنّك أنت العزيز في قومك، الكريم عليهم، فما أغنى عنك[١].

ثمّ قال: ﴿إنّ هذا﴾ يعني العذاب ﴿ما كنتم به تمترون﴾ أي تشكّون فيه في دار الدنيا. وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال المعارف ضرورة.

وقرأ الكسائي «ذق أنّك» بفتح الهمزة بمعنى لأنّك أنت العزيز أو بأنّك الباقون ـ بكسر الهمزة ـ على وجه الابتداء بالخبر عنه، ويكون التقدير ذق العذاب. ثمّ ابتدأ إنّك. وقرأ «فاعتلوه» ـ بضمّ التاء ـ ابن كثير ونافع وابن عامر. الباقون بكسر التاء وهما لغتان على ما حكيناه[٢].

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَـٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ تسع[٣] آيات بلا خلاف.

[أقول][٤]: قرأ ابن عامر ونافع ﴿في مقام﴾ بضمّ الميم، وهو موضع

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٥٨، معاني القرآن ٣: ٤٣.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٣٧٢، معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٢٨، الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٨٧.

(٣) في الحجريّة: سبع.

(٤) من الحجريّة.

الإقامة. الباقون بفتح الميم، وهو موضع القيام.

لمّا أخبر الله تعالى عن الكفّار وما يفعله بهم من أنواع العقاب، أخبر عن حال المطيعين وما أعدّه لهم من الثواب، فقال: ﴿إنّ المتّقين﴾ يعني الّذين يجتنبون معاصيه لكونها قبائح، ويفعلون طاعاته لكونها طاعة ﴿في مقام أمين﴾ أي موضع إقامة ـ فيمن ضمّ الميم ـ ومن فتحها يريد أنّهم في موضع قيامهم، ووصفه بأنّهم في ﴿مقام أمين﴾ من كلّ ما يخاف، وليس هذا في الدنيا، لأنّه لا يخلو منها أحد من موقف خوف من مرض أو أذى أو غير ذلك.

ثمّ بيّن ذلك المقام فقال: ﴿في جنّات﴾ يعني بساتين تجنّها الأشجار ﴿وعيون﴾ ماء نابعة فيها «يلبسون من سندس وإستبرق» فالسندس الحرير، في قول الحسن. والإستبرق الديباج الغليظ ـ في قول قتادة ـ وإنّما رغّبهم في ذلك بحسب ما كانوا يعرفونه، وإن كان ـ هاهنا ـ ما هو أرفع منها وأحسن ﴿متقابلين﴾ أي يقابل بعضهم بعضاً بالمحبّة، لا متدابرين بالبغضة. ثمّ قال ومثل ما فعلنا بهم: ﴿كذلك وزوّجناهم بحور عين﴾ فالحور جمع حوراء من الحَوَر، وهو شدّة البياض. وقال قتادة ﴿بحور﴾ أي ببيض، ومنه الحور لبياضه، وحوّرته أي بيضته من حار يحور أي رجع إلى الحالة الأُولى كما يرجع إلى حال الأبيض، ومنه المِحْوَر «والعين» جمع عيناء وهي الواسعة العين الحسنة، وكذلك لهم في حكم الله. وقال الحسن: العيناء الشديدة السواد سواد العين، الشديدة البياض بياضها «يدعون فيها بكلّ فاكهة آمنين» أي يستدعون أيّ ثمرة شاؤوا غير خائفين فوتها. ثمّ قال: ﴿لا يذوقون فيها﴾ يعني في الجنّة ﴿الموت إلّا الموتة الأُولى﴾ شبّه الموت

بالطعام الّذي يذاق وينكره عند المذاق. ثمّ نفى ذلك، وأنّه لا يكون ذلك في الجنّة، وإنّما خصّهم بأنّهم لا يذوقون الموت مع أنّ جميع الحيوان يوم القيامة لا يذوقون الموت، لما في ذلك من البشارة لهم بانتهاء ذلك إلى الحياة الهنيئة في الجنّة، فأمّا من يكون فيها هو كحال الموت في الشدّة، فلا يطلق له هذه الصفة، لأنّه يموت موتات كثيرة بما يلاقي ويقاسي من الشدّة، وأمّا غير المكلّفين، فليس ممّا يعقل، فتلحقه هذه البشارة وإن عمّ ذلك أهل الجنّة.

وقوله: ﴿إلّا الموتة الأُولى﴾ قيل: إنّ ﴿إلّا﴾ بمعنى «بعد» كأنّه قال بعد الموتة الأُولى. وقيل: معنى ﴿إلّا﴾ «سوى» كأنّه قال: سوى الموتة الأُولى. وقيل: إنّها بمعنى ﴿لكنّ﴾ وتقديره لكنّ الموتة الأُولى قد ذاقوها[1]. وقال الجُبّائي: هذا حكاية حال المؤمنين في الآخرة، فلمّا أخبرهم بذلك في الدنيا، وهم لم يذوقوا بعد الموت جاز أن يقال لا يذوقون الموت في المستقبل إلّا الموتة الأُولى يخرجون بها من دار التكليف، وهذا ضعيف، لأنّ في ذلك خبر عن حكمهم في الجنّة وأنّهم لا يذوقون فيها الموت ثمّ استثنى من ذلك الموتة الأُولى، وكيف يردّ إلى دار الدنيا؟! وحقيقة «إلّا» إخراج بعض عن كلّ وحقيقة «بعد» إخراج الثاني عن الوقت الأوّل.

وقوله: ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ أي يصرف عنهم عذاب النار، وليس في ذلك ما يدلّ على أنّ الفاسق الملي لا يعذّب ويخرج من النار، من حيث إنّه لا يكون قد وقي النار، لأنّه يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون ذلك مخصوصاً بمن لا يدخل النار ممّن لا يستحقّه

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٤٩ ـ ٢٥٠.

أو بمن عفي عنه.

والثاني: أن يكون المراد ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ على وجه التأييد أو على الوجه الّذي يعذّب عليه الكفّار.

ثمّ بيّن أنّ ذلك فضل من الله، ونصبه على المصدر، وتقديره فضل فضلاً منه تعالى. وأخبر بأنّ ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ يعني الفلاح العظيم.

ثمّ قال لنبيّهﷺ: ﴿إنّما يسّرناه بلسانك [لعلّهم يتذكّرون]﴾ يعني باللغة العربيّة ليفقهوه ويتفكّروه فيه، فيعلموا أنّ الأمر على ما قلناه. ثمّ أمرهﷺ فقال ﴿فارتقب﴾ أي انتظر يا محمّد مجيء ما وعدتك به «إنّهم منتظرون» أيضاً وهو قول قَتادة، وإنّما قال فيهم: ﴿إنّهم منتظرون﴾ لأنّهم في مثل حال المنتظر في أنّه سيأتيه عاقبة حاله كما يأتي المنتظر.

# سورة الجاثية

مكّية في قول قَتادة ومجاهد، وهي سبع وثلاثون آية في الكوفي وستّ في البصري والمدنيّين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ اللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾.

خمس آيات في الكوفي وأربع في الباقي، عدّ الكوفيون ﴿حم﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول][1]: قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿لآيات﴾ بالكسر في الثلاث مواضع. الباقون بالرفع في الثاني والثالث. من خفض التاء فعلى أنّه في موضع نصب ردّاً على «إنّ» وإنّما كسرت التاء، لأنّها تاء جمع التأنيث. وقال المبرّد: هذا لحن بعد الواو لأنّه عطف على عاملين على «إنّ»

(١) من الحجريّة.

و «في» بحرف الواو، لأنّه يكون عطف «واختلاف» على «في» وعطف على «إنّ» بهذه الواو وحدها، فأمّا «آيات» الثانية فأجاز عطفها على الأُولى، لأنّ معها «في» وتقديره إنّ في خلقكم(١). قال ابن خالويه: ليس ذلك لحناً، لأنّ من رفع أيضاً فقد عطف على عاملين، فيكون عطف جملة على جملة. ويحتمل أن يكون عطف على موضع «إنّ» لأنّ موضعها الرفع، والأخفش كان يجيز العطف على عاملين ، فيقول مررت بزيد في الدار والحجرة عمرو، ويحتجّ بقول الشاعر:

أكلّ امرئ تحسبين امرأ ونار تأجّج للحرب ناراً(٢)

عطف على ما عملت فيه «كلّ» وما عملت فيه «تحسبين» وأجود من العطف على عاملين أن يجعل ﴿آيات﴾ الثانية بدلاً من الأوّل، فيكون غير عاطف على عاملين، وتقديره إنّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين لآيات، كما تقول: ضربت زيداً زيداً، فلا يحتاج إلى حرف العطف. ومن رفع آيات الثانية حملها على الابتداء والخبر، وجعل الثالثة تكرير الثانية بالرفع، قال الزجّاج: لأنّه يرفع ﴿آيات﴾ عطفاً على ما قبلها كما خفض ﴿واختلاف﴾ عطفاً على ما قبلها(٣). وقال أبو عليّ: وجه قراءة الكسائي أنّه لم يحمل على موضع «إنّ» كما حمله من رفع «آيات» في الموضعين أو قطعه واستأنف، لكنّه حمله على لفظ «إنّ» دون موضعها، فحمل «آيات» في الموضعين على نصب «إنّ» في قوله ﴿إنّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين﴾ ويكون على تقدير إنّ، وإن كانت محذوفة من

---

(١ و ٢) الكامل ١: ٣٧٥. ٢: ١٠٠٢. فيه: بدل «تأجّج» توقد. الكتاب ١: ٦٦.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٣١.

اللفظ ويجعلها في حكم المثبت فيه، لأنّ ذكره قد تقدّم في قوله ﴿إنّ في السماوات﴾ وقوله ﴿وفي خلقكم﴾ فلمّا تقدّم الجارّ في هذين الموضعين قدّر في الإثبات في اللفظ، وإن كان محذوفاً منه كما قدّر سيبويه في قوله:

اكلّ امرئ تحسبن امرءاً [ونار تأجّج للجر ناراً][1]

وقيل: «كلّ» في حكم الملفوظ به واستغني عن إظهاره بتقدّم ذكره، وكذلك فعلت العرب في الجارّ ألا ترى أنّهم لم يجيزوا «من تمرر أمرر» وأجازوا «بمن تمرر أمرر» و «على أيّهم تنزل أنزل» فحذف الجارّ حسن لتقدّم ذكر الجارّ، وعلى هذا قول الشاعر:

إنّ الكريم وأبيك يعتمل إن لم يجد يوماً على من يتّكل[2]

لمّا ذكر «على» و «إن» كانت زائدة ـ في قول سيبويه ـ حسن حذف الجارّ من الصلة، ولو لم تذكر لم يجزه[3]. وحكي في بعض القراءات عن أُبيّ إنّه قرأ في المواضع الثلاث «لآيات في خلقكم وما يبثّ من دابّة لآيات» وكذلك الآخر فدخول اللام يدلّ على أنّ الكلام محمول على «إنّ» وإذا كان محمولاً عليها حسن النصب على قراءة حمزة والكسائي وصار كلّ موضع من ذلك كأن «إنّ» مذكورة فيه بدلالة دخول اللام، لأنّ هذه اللام إنّما تدخل على خبر «إنّ» أو اسمها، وحكي أنّ ابيّاً قرأ «لآيات» بالرفع مع إدخال اللام عليها، وهذا لا يجيزه أكثر النحويّين كالكسائي وغيره، كما لا يجوز في الدار لزيد، وأجازه الفرّاء وأنشد لحميد بن ثور:

إنّ الخلافة بعدهم لذميمة وخلائف طرف لممّا أحقر[4]

(١) ما بين المعقوفتين لا يوجد في الحجريّة. فيه: امرء. البيت.

(٢) العين: ٥٧٩، مادّة «عمل».

(٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٨٩.

(٤) معاني القرآن ٣: ٤٥. تفسير الطبري ١١: ٢٥٢.

وحكى الفرّاء أنّه يقول العرب «إنّ» لي عليك مالاً وعلى أبيك مال بالرفع والنصب. وحكى أبو عليّ: إنّه يجوز أن يعمل الثاني على التأكيد للأوّل وكذلك في الثالث، ولا يكون عطفاً على عاملين، كما قال بعض شبوخنا في قوله: ﴿ألم يعلموا أنّه من يحادد الله ورسوله فإنّ له﴾[1] حمل الثاني على أنّه تأكيد للأوّل[2].

قد ذكرنا في ما تقدّم أنّ «حم» اسم للسورة، وأنّه أجود الأقوال. قال الرمّاني: وفي تسمية السورة بـ«حم» دلالة على أنّ هذا القرآن المعجز كلّه من حروف المعجم، لأنّه سمّي به ليدلّ عليه بأوصافه، ومن أوصافه أنّه مفصّل قد فصّلت كلّ سورة من أُختها. ومن أوصافه أنّه هدى ونور، فكأنّه قيل: هذا اسمه الدالّ عليه بأوصافه. ثمّ وصف تعالى الكتاب بأنّه تنزيل من الله في مواضع من السور[3] لاستفتاحه بتعظيم شأنه على تصريف القول بما يقتضي ذلك فيه من إضافته إلى الله تعالى من أكرم الوجوه وأجلّها وما يتّفق الوصف فيه يقتضي أنّه كالأوّل في علوّ المنزلة وجلالته عند الله وإذا أفاد هذا المعنى باقتضائه له لم يكن تكريراً، ويقول القائل: اللّهمّ اغفر لي اللّهمّ ارحمني اللّهمّ عافني اللّهمّ أوسع عليّ في رزقي فيأتي بما يؤذن أنّ تعظيمه لربّه منعقد بكلّ ما يدعو به.

وقوله: ﴿من الله﴾ يدلّ على أنّ ابتداءه منه تعالى ﴿العزيز﴾ ومعناه: القادر الّذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ معناه: العالم. وقد يكون بمعنى أنّ أفعاله حكمة وصواب.

---

(١) التوبة: ٦٣.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٨٩.

(٣) كما في سور: الزمر والمؤمن والأحقاف.

ثمّ أخبر تعالى إنّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين الّذين يصدّقون بالله ويقرّون بتوحيده وصدق أنبيائه، وإنّما أضاف الآيات إلى المؤمنين وإن كانت أدلّة للكافرين أيضاً، لأنّ المؤمنين انتفعوا بها دون غيرهم من الكفّار. والآيات هي الدلالات والحجج. وفي السماوات والأرض دلالات على الحقّ من وجوه كثيرة، منها أنّه يدلّ بخلقها على أنّ لها خالقاً، وأنّه قادر لا يعجزه شيء وأنّه مخالف لها فلا يشبهها، وعلى أنّه عالم بما فيها من الإتقان والانتظام. وفي استحالة تعلّق القدرة بها دلالة على أنّ صانعها قديم غير محدث وبوقوفها مع عِظَمها وثقل أجرامها بغير عمد ولا سند يدلّ على أنّ القادر عليها قادر على الإتيان بما لا يتناهى ولا يشبه أحد من القادرين وأنّه خارج عن حدّ الطبيعة.

ثمّ بيّن تعالى أنّ في خلقنا آيات، والوجه في الدلالة في خلقنا ضروب كثيرة: منها خلق النفس على ما هو به من وضع كلّ شيء موضعه لما يصلح له. وفي ذلك دلالة على أنّ صانعه عالم لأنّه فعل الحواسّ الخمس على البنية الّتي تصلح له ممّا يختصّ كلّ واحد منها بإدراك شيء بعينه، لا يشركه فيه الآخر، لأنّ العين لا تصلح إلّا لإدراك المبصرات وكذلك الفمّ يصلح للذوق، والأنف للشمّ، والبشرة للمسّ، وكلّ شيء من ذلك يختصّ بما لا يشركه فيه الآخر، وفي ذلك أوضح دلالة على أنّ صانعها عالم بها، وأنّه لا يشبهه شيء، ولو لم يكن إلّا خلق العقل الّذي يهدي إلى كلّ أمر، ويتميّز به العاقل من كلّ حيوان، ولا يشبهه شيء في جلالته وعِظَم منزلته لكان فيه كفاية على جلالة صانعه وعِظَم خالقه. وقيل: معنى اختلاف الليل والنهار تعاقبهما. وقيل: زيادتهما ونقصانهما،

وإنزال الماء من السماء من الغيث والمطر وإحياء الأرض بالنبات بعد الجدب والقحط فيثبت الله بذلك رزق الحيوان(١).

وقوله: ﴿وبثّ فيها من كلّ دابّة﴾ أي فرّق فيها من جميع الحيوان بأن خلقها وأوجدها، وتصريف الرياح بأن يجعلها تارة جنوباً وتارة شمالاً ومرّة دبوراً ومرّة صباً، في قول الحسن. وقال قتادة: يجعلها رحمة مرّة وعذاباً أُخرى(٢). وقال الحسن: كثافة السماء مسيرة خمسمائة عام ومابين كلّ سماء إلى سماء فتق مسيرة خمسمائة عام وبين كلّ أرضين فتق مسيرة خمسمائة عام، وكثافة الأرض مسيرة خمسمائة عام.

قوله تعالى:

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول](٣): قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تؤمنون» بالتاء على وجه الخطاب للكفّار على تقدير قل لهم يا محمّد. الباقون بالياء على وجه الإخبار عنهم والتعجّب منهم.

لمّا أخبر الله تعالى عن القرآن بأنّه تنزيل من الله وأنّ في السماوات والأرض آيات ودلالات لمن نظر فيها تدلّ على الحقّ وأنّ في أنفس الخلق وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات وبثّ أنواع الحيوان أدلّة

---

(١) راجع النكت والعيون ٥: ٢٦٠. (٢) تفسير الطبري ١١: ٣٥٣. (٣) من الحجريّة.

لخلقه تدلّهم على توحيد الله وحكمته لمن أنعم النظر فيها، بيّن هاهنا أنّ ما ذكره أدلّة الله الّتي نصبها لخلقه المكلّفين لإزاحة علّتهم وأنّه يتلوها بمعنى يقرؤها على نبيّه محمّد ليقرءها عليهم بالحقّ دون الباطل. والتلاوة الإتيان بالثاني في أثر الأوّل في القراءة، فتلاوة الحروف بعضها بعضاً تكون في الكتابة والقراءة، وفلان يتلو فلاناً أي يأتي بعده، وفلان يتلو القرآن أي يقرؤه، والحقّ الّذي يتلى به الآيات هو كلام مدلوله على ما هو به في جميع أنواعه. والفرق بين حديث القرآن وآياته أنّ حديثه قصص يستخرج منه عِبَر تدلّ على الحقّ من الباطل، والآيات هي الأدلّة الّتي تفصل بين الصحيح والفاسد فهو مصروف في الأمرين ليسلك الناظر فيه الطريقين، لما له في كلّ واحد منهما من الفائدة في القطع بأحد الحالين في أُمور الدين.

ثمّ قال على وجه التهجين لهم: إنّ هؤلاء الكفّار إن لم يصدّقوا بما تلوناه فبأيّ شيء بعده يؤمنون.

ثمّ قال مهدّداً لهم: ﴿ويل لكلّ أفّاك أثيم﴾ فالويل قيل: إنّه واد سائل من جهنّم صديد أهلها[1]. وقيل: إنّ «الويل» كلمة يتلقّى بها الكفّار والفسّاق تتضمّن استحقاقهم العقاب. و«الأفّاك» الكذّاب ويطلق ذلك على من يكثر كذبه أو يعظم كذبه وإن كان في خبر واحد، ككذب مسيلمة في ادّعاه النبوّة. والأثيم ذو الإثم، وهو صاحب المعصية الّتي يستحقّ بها العقاب.

ثمّ وصف هذا الأفّاك الأثيم، فقال: ﴿يسمع آيات الله﴾ أي حججه

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٢٥٤.

﴿تتلى عليه﴾ أي تقرأ ﴿ثمّ [يصرّ﴾ أي][1] يقيم مصرّاً على كفره ﴿مستكبراً﴾ متجبّراً عن النظر في آيات الله لا ينظر فيها ولا يعتبر بها ﴿كأن لم يسمعها﴾ أصلاً.

ثمّ أمر نبيّه ﷺ أن يبشّر مَن هذه صفته [فقال ﴿فبشّره﴾][2] بعذاب اليم﴾ أي مؤلم موجع. ثمّ عاد تعالى إلى وصفه تعالى فقال: ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً﴾ اتّخذها هزواً أي إذا علم هذا الأفّاك الأثيم من حجج الله تعالى وأدلّته شيئاً وسمعها ﴿اتّخذها هزواً﴾ أي سخر منها وتلهّى بها، كما فعل أبوجهل حين سمع قوله: ﴿إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم﴾[3] ثمّ قال: ﴿أولئك﴾ يعني: من هذه صفته ﴿لهم عذاب مهين﴾ أي مذلّ لهم.

ثمّ قال: ﴿من ورائهم جهنّم﴾ أي من بين أيديهم يعني: يوم القيامة «جهنّم» معدّة لهم. وإنّما قيل: لما بين أيديهم «من ورائهم» والوراء [هو الخلف، لأنّه يكون مستقبل أوقاتهم بعد تقضّيهم، ومعناه: ما توارى عنهم قد يكون قداماً وخلفاً فهو لهذه العلّة يصلح فيه الوجهان، ثمّ قال تعالى: ﴿ولا يغني عنهم﴾][4] إذا جعلوا في جهنّم ما كسبوه في دار الدنيا من جمع الأموال ﴿ولا﴾ [شيئاً][5] يغني عنهم أيضاً ﴿ما اتّخذوا من دون الله أولياء﴾ يتولّونهم ويحبّونهم لينصروهم ويدفعوا عنهم ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ ووصفه بأنّه عظيم، لأنّه مؤبّد نعوذ بالله منه.

قوله تعالى:

هَـٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴿١١﴾ ٱللَّهُ

---

(١ و٢ و٤ و٥) مابين المعقوفتين لم يرد في الحجريّة.

(٣) الدخان: ٤٤.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][1]: قرأ ابن كثير وحفص ﴿من رجز أليمٌ﴾ بالرفع جعلاه صفة للعذاب. الباقون بالخفض جعلوه صفة للرجز، فكأن قال: من رجز أليم. و«الرجز» هو العذاب فلذلك صحّ وصفه بأنّه أليم. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي ﴿لنجزي﴾ قوماً بالنون على وجه الإخبار من الله عن نفسه بأنّه يجازيهم، الباقون بالياء ردّاً إلى ﴿الله﴾ على الإخبار عنه.

معنى قوله: ﴿هذا هدى﴾ أي هذا القرآن الّذي تلوناه والكلام الّذي ذكرناه ﴿هدى﴾ أي دلالة موصلة إلى الفرق بين ما يستحقّ به الثواب والعقاب [ويفرق بين الثواب والعقاب][2] ويفرق به بين الحقّ والباطل من أمر الدين والدنيا. ثمّ قال تعالى: ﴿والّذين كفروا بآيات الله﴾ وجحدوها ﴿لهم عذاب﴾ من عند الله جزاء على كفرهم ﴿من رجز اليم﴾.

ثمّ نبّه تعالى خلقه على وجه الدلالة على توحيده، فقال ﴿الله الّذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره﴾ ووجه الدلالة من تسخير البحر لتجري الفلك فيه بأمره، لنبتغي بتسخيره من فضل الله، فهو محسن في فعله يستحقّ الشكر به على وجه لا يجوز لغيره، وإن أحسن، لأنّه أعظم

---

(١) من الحجريّة.

(٢) من الحجريّة.

من كلّ نعمة. وبيّن أنّه إنّما فعل ذلك لكي يشكروه على نِعَمه. ثمّ قال: ﴿وسخّر﴾ [أيضاً أي:][1] ﴿لكم﴾ معاشر الخلق ﴿ما في السماوات وما في الأرض جميعاً﴾ من شمس وقمر ونجم وهواء وغيث وغير ذلك وجعل السماء سقفاً مزيّناً وجوهراً كريماً وسخّر الأرض للاستقرار عليها ومايخرج من الأقوات منها من ضروب النبات والثمار والبرّ فيها إلى غير ذلك ممّا لا يحصى كثرة من ضروب نِعَمه ممّا لا يحاط به علماً، وسهّل الوصول إلى الانتفاع به تفضّلاً ﴿منه﴾ على خلقه. ثمّ بيّن ﴿إنّ في ذلك﴾ يعني في ما بيّنه ﴿لآيات﴾ ودلالات ﴿لقوم يتفكّرون﴾ فيه ويعتبرون به.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿قل للّذين آمنوا يغفروا للّذين لا يرجون أيّام الله﴾ أي لا يخافون عذاب الله إذا أنالوكم[2] الأذى والمكروه، ولا يرجون ثوابه بالكفّ عنكم. وقيل: معناه لا يرجون ثواب الله للمؤمنين، إنّ الله يعرّفهم عقاب سيّئاتهم بما عملوا من ذلك وغيره. ومعنى ﴿يغفروا﴾ هاهنا يتركوا مجازاتهم على أذاهم ولا يكافوهم ليتولّى الله مجازاتهم. وقال ابن عبّاس وقَتادة وابن زيد والضحّاك: هو من المنسوخ. وقال أبو صالح: نسخها قوله: ﴿أُذن للّذين يقاتلون بأنّهم ظلموا﴾[3] و ﴿يغفروا﴾ جواب أمر محذوف دلّ عليه الكلام. وتقديره: قل لهم اغفروا يغفروا وصار «قل لهم» على هذا الوجه يغني عنه[4]. وقال الفرّاء: معناه في الأصل حكاية بمنزلة الأمر كقولك: قل للّذين آمنوا اغفروا، وإذا ظهر الأمر مصرّحاً فهو مجزوم لأنّه

---

(١) من الحجريّة.
(٢) في الحجريّة: إذا نالوكم.
(٣) الحجّ: ٣٩.
(٤) النكت والعيون ٥: ٢٦٢.

أمر وإذا كان على الخبر مثل قـوله ﴿قل للّذين آمنوا يغفروا﴾ ﴿قل لعبادي الّذين آمنوا يقيموا الصلاة﴾ [١] فهذا مجزوم تشبيهاً بالجزاء [٢].

وقوله: ﴿ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما: قل لهم يغفروا لهم، فإنّ الله يجازيهم يعني الكفّار، فإنّهم إليه يرجعون.

الثاني: أن يكون المعنى ليجزيهم الله يعني المؤمنين، ويعظم أجـرهم على احتمالهم وصبرهم ولن يفوتوه يعني الكافرين بل إليه مرجعهم.

ثمّ قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً﴾ يعني طاعة وخـيراً ﴿فلنفسه﴾ لأنّ ثواب ذلك عائد عليه ﴿ومن أساء﴾ بأن فعل المعصية ﴿فعليها﴾ أي عـلى نفسه لأنّ عقاب معصيته يناله دون غيره. ثمّ قال: ﴿ثمّ إلى ربّكم ترجعون﴾ الّذي خلقكم ودبّركم تردّون يوم القيامة إليه أي إلى حيث لا يملك أحد الأمر والنهي والضرّ والنفع غيره، فيجازي كلّ إنسان على قدر علمه.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

خمس آيات بلا خلاف.

---

(١) إبراهيم: ٣١.

(٢) معاني القرآن ٣: ٤٥.

[أقول][(١)]: هذا قسم به من الله تعالى بأنّه أعطى بني إسرائيل الكتاب يعني: التوراة وآتاهم الحكم، وهو العلم بالفصل بين الخصمين وبين المحقّ والمبطل، يقال: حكم في الأمر يحكم حكماً، وحكّمته في أمري تحكيماً، وأحكم العمل إحكاماً، واستحكم الشيء استحكاماً، وحاكمته إلى الحاكم محاكمة ﴿ورزقناهم من الطيّبات﴾ فالرزق العطاء الجاري على توقيت وتوظيف في الحكم، وإنّما قلنا في الحكم، لأنّه لو حكم بالعطاء الموقّت في الأوقات الدائرة على الاستمرار لكان رازقاً وإن اقتطعه ظالم عن ذلك العطاء. ثمّ قال: ﴿وفضّلناهم على العالمين﴾ والتفضيل جعل الشيء أفضل من غيره بإعطائه من الخير ما لم يعط غيره أو بالحكم لأنّه[(٢)] أفضل منه، فالله تعالى فضّل بني إسرائيل بما أعطاهم على عالَمي زمانهم. قال الحسن : فضّلهم الله على أهل زمانهم وقال قوم: فضّلهم بكثرة الأنبياء منهم على سائر الأمم، وإن كانت أُمّة محمّد ﷺ أفضل في كثرة المطيعين لله، وكثرة العلماء منهم، كما تقول هذا أفضل في علم النحو، وذاك في علم الفقه، فأُمّة محمّد ﷺ أفضل في علوّ منزلة نبيّها عند الله على سائر الأنبياء، وكثرة العلماء منهم والعاملين بالحقّ لقوله تعالى: ﴿كنتم خير أُمّة أُخرجت للناس﴾[(٣)] فأُولئك خالف أكثرهم أنبياءهم ووافق كثير من هؤلاء علماءهم وأخذوا عنهم واقتبسوا من نورهم، والفضل الخير الزائد على غيره وأُمّة محمّد ﷺ أفضل بفضل نبيّها.

ثمّ قال: ﴿وآتيناهم﴾ يعني أعطيناهم ﴿بيّنات من الأمر﴾ أي دلالات وبراهين واضحات من الأمر ثمّ قال: ﴿فما اختلفوا﴾ أي لم يختلفوا ﴿إلّا من

(١) من الحجريّة. (٢) في الحجريّة: أنّه. (٣) آل عمران: ١١٠.

بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ فالاختلاف اعتقاد كلّ واحد من النفسين ضدّ ما يعتقده الآخر إذا كان اختلافاً في المذهب، وقد يكون الاختلاف في الطريق بأن يذهب أحدهما يمنة، والآخر يسرة، وقد يكون الاختلاف في المعاني بأن لا يسدّ أحدهما مسدّ الآخر في ما يرجع إلى ذاته. واختلاف بني إسرائيل كان في ما يرجع إلى المذاهب.

وقوله: ﴿بغياً بينهم﴾ نصب على المصدر، ويجوز أن يكون على أنّه مفعول له أي: اختلفوا للبغي وطلب الرياسة. ومعنى «البغي» الاستعلاء بالظلم، وهو خلاف الاستعلاء بالحجّة. والبغي يدعو إلى الاختلاف لما فيه من طلب الرفعة بما لا يرجع إلى حقيقة ولا يسوغ في الحكمة، وإنّما كان ذلك طلباً للرياسة والامتناع من الانقياد للحقّ بالأنفة، ثمّ قال: ﴿إنّ ربّك﴾ يا محمّد ﴿يقضي بينهم يوم القيامة﴾ أي: يحكم ويفصل بين المحقّ منهم والمبطل في ما كانوا فيه يختلفون في دار التكليف، وقيل: «الحكم» العلم بالفصل بين الناس في الأُمور.

ثمّ قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ثمّ جعلناك﴾ يا محمّد ﴿على شريعة من الأمر﴾ فالشريعة السنّة الّتي من سلك طريقها أدّته إلى البُغية كالشريعة الّتي هي طريق إلى الماء، وهي علامة منصوبة على الطريق إلى الجنّة كأداء هذا إلى الوصول إلى الماء، فالشريعة العلامات المنصوبة من الأمر والنهي المؤدّية إلى الجنّة. ثمّ قال: ﴿فاتّبعها﴾ يعني اعمل بهذه الشريعة ﴿ولا تتبع أهواء الّذين لا يعلمون﴾ الحقّ ولا يفصلون بينه وبين الباطل.

ثمّ أخبر النبيّ ﷺ فقال: ﴿إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾ يعني هؤلاء الكفّار لا يغنون عنك شيئاً ﴿وإنّ الظالمين﴾ نفوسهم ﴿بعضهم أولياء

بعض﴾ بفعل المعاصي ﴿والله وليّ المتّقين﴾ الّذين يجتنبون معاصيه ويفعلون طاعاته.

ثمّ قال: ﴿هذا﴾ يعني: هذا الّذي ذكرناه ﴿بصائر للناس﴾ أي ما يتبصّرون به واحدها بصيرة ﴿وهدى﴾ أي ودلالة واضحة ﴿ورحمة﴾ أي ونعمة من الله عليهم ﴿لقوم يوقنون﴾ بحقيقة ذلك. وإنّما أضافه إلى المؤمنين لأنّهم الّذين انتفعوا به دون الكفّار الّذين لم يفكّروا فيه.

قوله تعالى:

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][1]: قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿سواء﴾ نصباً. الباقون بالرفع. وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿غشوة﴾ على التوحيد. الباقون ﴿غشاوة﴾ على الجمع. من رفع ﴿سواء﴾ جعله مبتدأ وما بعده خبراً عنه، ويكون الوقف على قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ تامّاً. ويجعل الجملة في موضع النصب لأنّها خبر لـ«جعل» ورفع ﴿سواء﴾ لأنّه اسم جنس لا يجري على

(١) من الحجريّة.

ما قبله كما لا تجري[١] الصفة المشبّهة بالمشبّهة إذا كانت لسبب الأوّل كذلك نحو قولك: مررت بزيد خير منه أبوه. فمثل هذا في الحال والخبر والصفة سبيله واحد إذا كانت لسبب الأوّل. ومن نصب ﴿محياهم ومماتهم﴾ جعل ﴿سواء﴾ في موضع ﴿مستو﴾ وعامله تلك المعاملة، فجعل في موضع المفعول الثاني من ﴿نجعلهم﴾ والهاء والميم المفعول الأوّل، وإن جعلت ﴿كالّذين آمنوا﴾ المفعول الثاني نصب ﴿سواء﴾ على الحال وهو وقف حسن. ويرفع ﴿محياهم﴾ بمعنى: استوى محياهم ومماتُهم. ومن قرأ ﴿غشوة﴾ جعله كالرجفة والخطفة. ومن قرأ ﴿غشاوة﴾ جعله مصدراً مجهولاً، والفعلة المرّة الواحدة، وقال قوم: هما لغتان بمعنى واحد. وحكي الضمّ أيضاً. وقيل في الضمير في قوله ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ قولان:

أحدهما: إنّه ضمير للكفّار دون الّذين آمنوا.

والثاني: أنّه ضمير للقبيلين. فمن جعل الضمير للكفّار قال: ﴿سواء﴾ على هذا القول مرتفع بأنّه خبر ابتداء متقدّم، وتقديره محياهم ومماتهم سواء أي محياهم محيا سواء ومماتهم كذلك، فعلى هذا لا يجوز النصب في «سواء» لأنّه إثبات الخبر بأنّ محياهم ومماتهم يستويان في الذمّ والبعد من رحمة الله. ومن قال: الضمير يرجع إلى القبيلين قال: يجوز أن ينتصب «سواء» على أنّه مفعول ثان لأنّه ملتبس بالقبيلين جميعاً، وليس كذلك الوجه الأوّل، لأنّه للكفّار دون المؤمنين، فلا يلتبس بالمؤمن حيث كان للكفّار دونهم[٢].

يقول الله تعالى على وجه التوبيخ للكفّار على معاصيهم بكفرهم بلفظ

---

(١) في الحجريّة زيادة: صفة كما أنّ.

(٢) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٣٩٣.

الاستفهام: ﴿أم حسب﴾ ومعنى «أم»: يحتمل أن تكون الهمزة وتقديره أ﴿حسب الّذين اجترحوا السيّئات﴾ والحسبان هو الظنّ. وقد بيّنّاه في ما مضى. والاجتراح الاكتساب اجترح السيّئة اجتراحاً أي اكتسبها من الجراح، لأنّ له تأثيراً كتأثير الجراح. ومثله الاقتراف، وهو مشتقّ من قرف القرحة. و«السيّئة» الّتي يسوء صاحبها، وهي الفعلة القبيحة الّتي يستحقّ بها الذمّ، والحسنة هي الّتي يسرّ صاحبها باستحقاق المدح بها عليها، ووصفها بهذا يفيد هذا المعنى. وقال الرُمّاني: القبيح ما ليس للقادر عليه أن يفعله. والحسن هو ما للقادر عليه أن يفعله، قال: وكلّ فعل وقع لا لأمر من الأُمور، فهو لغو لا ينسب إلى الحكمة ولا السفه. والجعل تصيير الشيء على صفة لم يكن عليها، وهو انقلاب الشيء عمّا كان قادراً عليه. والمعنى: أيظنّ هؤلاء الكفّار المرتكبون للمعاصي الّذين اكتسبوا القبائح أن يحكم لهم بحكم المؤمنين المعترفين بتوحيد الله المصدّقين لرسله العاملين بطاعته؟!.

ثمّ أخبر عن الكفّار فقال: ﴿سواء محياهم ومماتهم﴾ أي هم متساوون حال كونهم أحياء وحال كونهم أمواتاً، لأنّ الحيّ متى لم يفعل الطاعات فهو بمنزلة الميّت. وقال مجاهد: المؤمن يموت على إيمانه ويبعث عليه، والكافر يموت على كفره ويبعث عليه. ثمّ قال: ﴿ساء ما يحكمون﴾ أي بئس الشيء الّذي يحكمون به في هذه القصّة. وإنّما قال: ﴿يحكمون﴾ مع أنّ الحكم مأخوذ من الحكمة، وهي حسنة، لأنّ المراد على ما يدّعون من الحكمة، كما قال: ﴿حجّتهم داحضة عند ربّهم﴾[1] وقوله: ﴿وما كان حجّتهم إلّا

---

(١) الشورى: ١٦.

أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين﴾ [١].

ثمّ قال تعالى: ﴿وخلق الله السماوات والأرض بالحقّ﴾ أي للحقّ لم يخلقهما عبثاً، وإنّما خلقهما لمنافع خلقه بأن يكلّفهم فيها ويعرّضهم للثواب الجزيل ﴿ولتجزى كلّ نفس بما كسبت﴾ من ثواب طاعة أو عقاب على معصية ﴿وهم لا يظلمون﴾ أي لا يبخسون حقوقهم.

ثمّ قال: ﴿أفرأيت من اتّخذ﴾ يا محمّد ﴿إلهه هواه﴾ وإنّما سمّي الهوى إلهاً من حيث إنّ العاصي يتبع هواه ويرتكب ما يدعوه إليه ولم يريد[٢] أنّه يعبد هواه أو يعتقد أنّه يحقّ له العبادة، لأنّ ذلك لا يعتقده أحد. قال الحسن: معناه: اتّخذ إلهه بهواه، لأنّ الله يحبّ أن يعرف بحجّة العقل لابالهوى. وقال سعيد بن جبير: كانوا يعبدون العزّى وهو حجر أبيض حيناً من الدهر، فإذا وجدوا ما هو أحسن منه طرحوا الأوّل وعبدوا الآخر. وقال ابن عبّاس: معناه أفرأيت من اتّخذ دينه ما يهواه لأنّه يتّخذه بغير هدى من الله ولا برهان. وقوله: ﴿وأضلّه الله على علم﴾ معناه: حكم الله بضلاله عالماً بعدوله عن الحقّ. ويحتمل أن يكون المعنى: يعدل الله به عن طريق الجنّة إلى طريق النار جزاء على فعله، عالماً بأنّه يستحقّ ذلك ﴿وختم على سمعه وقلبه﴾ وقد فسّرناه في ما مضى. ومعناه: أنّه يجعل عليهما علامة تدلّ على كفره وضلاله واستحقاقه للعقاب، لا أنّه يفعل فيهما ما يمنع من فعل الايمان والطاعات ﴿وجعل على بصره غشاوة﴾ شبّهه بمن كان على عينه غشاوة تمنعه من الابصار، لأنّ الكافر إذا كان لا ينتفع بما يراه ولا يعتبر به، فكأنّه لم يره. ثمّ قال: ﴿فمن يهديه﴾ إلى طريق الجنّة

(١) الجاثية: ٢٥.

(٢) كذا، والظاهر: لم يُرد.

أو من يحكم بهدايته ﴿من بعد﴾ أن حكم ﴿الله﴾ بخلافه ﴿أفلا تذكرّون﴾ أي أفلا تتفكّرون فتعلمون أنّ الأمر على ما قلناه.

ثمّ حكى تعالى عن الكفّار أنّهم ﴿قالوا [ما هي إلّا حياتنا الدنيا﴾ أي:][(١)] ليس الحياة إلّا هذه الحياة الّتي نحن فيها في دار الدنيا ﴿نموت ونحيا﴾ وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه على التقديم والتأخير وتقديره: ونحيا ونموت من غير رجوع ولا بعث على ما تدّعون.

والثاني: أن يكون المراد نموت ويحيا أولادنا كما يقال ما مات من خلف ابناً مثل فلان.

والثالث: أن يكون المعنى يموت بعضنا ويحيا بعضنا، كما قال تعالى: ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾ [(٢)] أي ليقتل بعضكم بعضاً. ثمّ حكى أنّهم يقولون: ﴿وما يهلكنا إلّا الدهر﴾ يعنون: مرور الليل والنهار والشهور والأعوام[(٣)].

ثمّ أخبر تعالى [فقال ﴿وما لهم بذلك من علم﴾ أي][(٤)] ليس لهم بما يقولونه علم [﴿إن هم إلّا يظنّون﴾ أي][(٥)] وليس هم في ما يذكرونه إلّا ظانّين وإنّما الأمر فيه بخلافه. ثمّ قال تعالى: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات﴾ أي إذا قرئت عليهم حججنا الظاهرة [﴿ماكان حجتهم إلّا أن قالوا﴾ يعني:][(٦)] لم يكن لهم في مقابلتها حجّة إلّا قولهم ﴿ائتوا بآبائنا﴾ الّذين ماتوا وبادوا ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنّ الله يعيد الأموات ويبعثهم يوم القيامة. وإنّما لم يجبهم الله إلى ذلك، لأنّهم قالوا ذلك متعنّتين مقترحين لا طالبين الحجّة.

---

(١) ليس في الحجريّة. (٢) البقرة: ٥٤. (٣) النكت والعيون ٥: ٢٦٦.
(٤) ما بين المعقوفتين، ليس في الحجريّة، وفيه زيادة: إنّه. (٥ و٦) ليس في الحجريّة.

قوله تعالى:

قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول][1]: يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد ﴿الله يحييكم﴾ في دار الدنيا، لأنّه لا يقدر على الإحياء أحد سواه تعالى لأنّه قادر لنفسه ﴿ثمّ يميتكم﴾ بعد هذا ﴿ثمّ يجمعكم إلى يوم القيامة﴾ بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء، وإنّما احتجّ بالإحياء في دار الدنيا، لأنّ من قدر على فعل الحياة في وقت قدر عليها في كلّ وقت. ومن عجز عنها في وقت وتعذّرت عليه في كلّ وقت مع كونه حيّاً ومع ارتفاع الموانع عجز عنها في كلّ وقت. ثمّ بيّن أنّ يوم القيامة ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شكّ في كونه ﴿ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون﴾ ما قلناه لعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحّة ذلك. ثمّ قال تعالى: ﴿ولله ملك السماوات والأرض ويوم تقوم﴾ أي وله الملك يوم تقوم ﴿الساعة﴾ الّذي ﴿يخسر فيه المبطلون﴾ ثواب الله. والمبطل هو من فعل الباطل وعدل عن الحقّ.

ثمّ أخبر تعالى عن حال يوم القيامة فقال: ﴿وترى كلّ أُمّة جاثية﴾ فالأُمّة الجماعة الّتي على مقصد، واشتقاقه من أمّه يؤمّه أمّاً إذا قصده،

---

(١) من الحجريّة.

والأُمم أُمم الأنبياء ﴿جاثية﴾ وقال مجاهد والضحّاك وابن زيد: معناه باركة مستوفزة على رُكَبها والجثوّ البروك. والجثو البروك على طرف الأصابع، فهو أبلغ من الجثو.

وقوله: ﴿كلّ أُمّة تدعى إلى كتابها﴾ قيل معناه: إلى كتابها الّذي كان يستنسخ لها ويثبت فيه أعمالها. وقال بعضهم: كتابها الّذي أُنزل على رسولها ـ حكي ذلك عن الجاحظ ـ والأوّل الوجه[1].

ثمّ حكى إنّه يقال لهم: ﴿اليوم تجزون ما كنتم تعملون﴾ من طاعة أو معصية على الطاعة بالثواب وعلى المعصية بالعقاب. ثمّ قال تعالى: ﴿هذا كتابنا﴾ يعني: الّذي أستنسخ ﴿ينطق عليكم بالحقّ﴾ جعل ثبوت ما فيه وظهوره بمنزلة النطق، وإنّه ينطق بالحقّ دون الباطل. ثمّ قال تعالى: ﴿إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ قال الحسن: نستنسخ ما حفظت عليكم الملائكة الحفظة. وقيل: الحفظة تستنسخ ما هو مدوّن عندها من أحوال بني آدم الجزائية في قول ابن عبّاس ـ. وروي عن عليّ عليه السلام «أنّ لله ملائكة ينزلون في كلّ يوم يكتبون فيه أعمال بني آدم»[2] ومعنى نستنسخ نستكتب الحفظة ما يستحقّونه من ثواب وعقاب وتُلقي ما عداه ممّا أثبته الحفظة، لأنّهم يثبتون جميعه.

ثمّ قسم تعالى الخلق فقال: ﴿فأمّا الّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا بوحدانيّته وصدّقوا رسله وعملوا الأعمال الصالحات ﴿فيدخلهم ربّهم في رحمته﴾ من الثواب والجنّة. ثمّ بيّن أنّ ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي الفلاح الظاهر.

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٦٨.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٢٦٧.

قوله تعالى:

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ سبع آيات بلا خلاف.

[أقول][(١)]: قرأ حمزة وحده ﴿والساعة لا ريب فيها﴾ نصباً عطفاً على ﴿إنّ وعد﴾ وتقديره: إنّ وعد الله حقّ وإنّ الساعة آتية. الباقون بالرفع على الاستئناف أو عطفاً على موضع ﴿إنّ﴾.

لمّا أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين العاملين بطاعة الله وأنّه يدخلهم الجنّة أخبر عن حال الكفّار، فقال: ﴿وأمّا الّذين كفروا﴾ أي جحدوا وحدانيّتي وكذّبوا رسلي، يقال لهم: ﴿أفلم تكن آياتي﴾ وحججي ﴿تتلى عليكم﴾ قال الزجّاج: جواب «أمّا» محذوف والفاء في «أفلم» دلالة عليه بتقدير فيقال لهم: ﴿أفلم﴾[(٢)] ومثله قوله: ﴿فأمّا الّذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾[(٣)] وتقديره فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾ وقال قوم: جواب «أمّا» الفاء في ﴿أفلم تكن آياتي﴾ إلّا أنّ الألف تقدّمته، لأنّ لها

---

(١) من الحجريّة.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٣٥.
(٣) آل عمران: ١٠٦.

صدر الكلام[١].

وقوله ﴿فاستكبرتم﴾ فالاستكبار هو طلب التعظيم في أعلى المراتب [فهو صفة ذمّ في العباد وكذلك متكبّر، لأنّها تقتضي التعظيم في أعلى المراتب، ولا يستحقّ التعظيم في أعلى المراتب إلّا][٢] لمن لا يجوز عليه صفة النقص بوجه من الوجوه ﴿وكنتم قوماً مجرمين﴾ أي عاصين، فالإجرام الانقطاع إلى الفساد، وأصله قطع الفعل عمّا تدعو إليه الحكمة. ثمّ حكى تعالى أنّه ﴿إذا قيل إنّ وعد الله حقّ﴾ أي ما وعدوا به من الثواب والعقاب كائن لامحة ﴿و﴾ أنّ ﴿الساعة [لا ريب فيها﴾ أي][٣] لا شكّ في حصولها ﴿قلتم﴾ معاشر الكفّار ﴿ما ندري ما الساعة﴾ أي لا نعرفها ﴿إن نظنّ إلّا ظنّاً﴾ ليس نعلم ذلك ﴿و[ما نحن بمستيقنين﴾ أي][٤] لسنا بمستيقنين ذلك.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿وبدا لهم سيّئات ما عملوا﴾ ومعناه: ظهر لهم جزاء معاصيهم الّتي عملوها في دار التكليف من العقاب ﴿وحاق بهم﴾ أي حلّ بهم جزاء ﴿ماكانوا به يستهزؤن﴾ بإخبار الله وإخبار نبيّه ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿اليوم ننساكم﴾ أي نترككم في العقاب ـ في قول ابن عبّاس ـ ونحرّمكم ثواب الجنّة ﴿كما نسيتم﴾ أي كما تركتم التأهّب لـ﴿لقاء يومكم هذا﴾ فلم تعملوا الطاعات وارتكبتم المعاصي. وقال مجاهد: كنسيانكم يومكم ﴿ومأواكم النار﴾ أي مستقرّكم جهنّم ﴿ومالكم من ناصرين﴾ يدفعون عنكم عذاب الله ولا لكم من مستنقذ من عذاب الله. ثمّ بيّن تعالى لِمَ فعل بهم ذلك بأن قال: ﴿ذلكم بأنّكم اتّخذتم آيات الله هزواً﴾ يعني حججه وآياته ﴿هزواً﴾ أي سخريّة تسخرون منها ﴿وغرّتكم الحياة الدنيا﴾ أي خدعتكم

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٢٦٨.

(٢ و٣ و٤) مابين المعقوفتين لا يوجد في الحجريّة.

زينتها ومعناه اغتررتم بها، ﴿ [فاليوم][(١)] لا يُخرَجون منها﴾ يعني من النار.

وقرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً «يخرجون» بفتح الياء وبضمّ الراء. الباقون بضمّ الياء وفتح الراء. ومن فتح الياء، فلقوله: ﴿يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها﴾[(٢)] ومن ضمّ فلقوله: ﴿ولا هم يُستعتَبون﴾ وطابق بينهما. ومعنى ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يطلب منهم العتبى والاعتذار، لأنّ التكليف قد زال. وقيل: معناه لا يقبل منهم العتبى. وقيل: الوجه في ظهور أحوالهم وسيّئاتهم في الآخرة التبكيت بها والتقريع بالتكذيب لما كان يمكّنهم معرفته لظهور حججه على خلقه.

ثمّ قال تعالى: ﴿فللّه الحمد ربّ السماوات وربّ الأرض ربّ العالمين﴾ أي الشكر التامّ والمدحة الّتي لا يوازيها مدحة لله الّذي خلق السماوات والأرض ودبّرهما وخلق العالمين ﴿وله الكبرياء في السماوات والأرض﴾ أي له السلطان القاهر وله العظمة العالية الّتي هي في أعلى المراتب لا يستحقّها سواه ﴿وهو العزيز﴾ أي القادر الّذي لا يغالب ﴿الحكيم﴾ في جميع أفعاله. وقيل: «عزيز» في انتقامه من الكفّار «حكيم» في ما يفعل بهم وبالمؤمنين من الثواب[(٣)].

---

(١) ما بين المعقوفتين لا يوجد في الحجريّة وفيها: لأنّها لا تغرّ اليوم.

(٢) المائدة: ٣٧.

(٣) النكت والعيون ٥: ٢٦٩، تفسير الطبري ١١: ٢٦٩.

# سورة الأحقاف

مكّية بلا خلاف، وهي خمس وثلاثون آية في الكوفي وأربع وثلاثون في البصري والمدنيّين عدّ أهل الكوفة ﴿حم﴾ آية ولم يعدّه الباقون. والباقي لا خلاف فيه.

[قوله تعالى:][1] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾.

خمس آيات في الكوفي وأربع في ما عداه، عدّ الكوفي ﴿حم﴾ ولم يعدّه الباقون.

[أقول:][2] وقد بيّنّا معنى قوله: ﴿حم﴾ واختلاف العلماء في ذلك،

---

(١ و٢) من الحجريّة.

وبيّنّا أيضاً تأويل قوله: ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ فلا وجه لإعادته. وقيل: الوجه في تكرير ذلك الإبانة عن أنّ هذه السورة حالها حال السورة الّتي قبلها في أنّه تعالى نزّلها وشرّفها وكرّمها في الإضافة إلى العزيز الحكيم. و«العزيز» القادر الّذي لا يغالب ولا يقهر. وقيل: هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الحكيم في أفعاله(١). وقد يكون الحكيم بمعنى العالم بتصريف الأمور الّذي لا يوقعها إلّا على مقتضى العلم في التدبير وهو صفة مدح، وضدّه السفيه، وضدّ العزيز الذليل.

ثمّ قال تعالى مخبراً: إنّا ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق﴾ ومعناه إنّا لم نخلق السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ، ومعناه: إنّه لم توجد السماوات والأرض وما بينهما من الأجناس إلّا للحقّ وتعريض الخلق لضروب النعم وتعريض المكلّفين للثواب الجزيل ولم نخلقها عبثاً ولا سدى بل عرّضناهم للثواب بفعل الطاعات وزجرناهم بالعقاب عن فعل المعاصي، وقدّرنا لهم أوقات نبعثهم إليها وأوقات نجازيهم فيها ﴿وأجل مسمّى﴾ أي مذكور للملائكة في اللوح المحفوظ.

ثمّ قال: ﴿والّذين كفروا﴾ بوحدانيّة الله تعالى وجحدوا ربوبيّته ﴿عمّا انذروا﴾ به ﴿معرضون﴾ وعمّا خوفوا [العمل](٢) من خلافه بالعقاب ﴿معرضون﴾ أي عادلون عن الفكر فيه والاعتبار به.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ يا محمّد ﷺ لهؤلاء الكفّار الّذين يعبدون الأصنام ويدعون مع الله إلهاً آخر: ﴿أرأيتم ما تدعون من دون الله﴾ آلهة وتوجّهون عبادتكم إليها بأيّ شيء استحقّوا ذلك؟ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾

---

(١) النكت والعيون ٥: ٢٦٩.

(٢) في الحجريّة: به.

فاستحقّوا بخلق ذلك العبادة والشكر ﴿أم لهم شرك في السماوات﴾ أي في خلقها، فإنّهم لا يقدرون على ادّعاء ذلك.

ثمّ قال لهم: ﴿ائتوني بكتاب من قبل هذا﴾ يعني هاتوا بكتاب أنزله الله يدلّ على صحّة قولكم قبل هذا القرآن ﴿أو أثارة من علم﴾ يعني شيء يستخرج منه فيثار فيعلم به ما هو منفعة لكم، وهو قول الحسن. وقال مجاهد: معناه: أو علماً تأثرونه عن غيركم ـ ويؤدّي أثره. وهما لغتان: أثره وأثاره، ومنه الحديث المأثور أي المرفوع ـ يدلّ على صحّة ما تذهبون إليه. وقال أبو بكر وابن عبّاس: معناه أو بقيّة من علم يشهد بصحّة قولكم وصدق دعواكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ما تذكرونه وتذهبون إليه. ويقال: أثر الشيء أثارة مثل قبح قباحة وسمح سماحة، قال الراعي:

وذات أثارة أكلت عليه[١]

يعني ذات بقيّة من شحم. ثمّ قال تعالى: ﴿ومن أضلّ﴾ أي من أضلّ عن طريق الصواب ﴿ممّن يدعو من دون الله﴾ أي يضرّع إليه ويوجّه عبادته إلى ﴿من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ مع ظهور الدلالة على توحيد الله ووضوح آثار نعمه على خلقه ﴿وهم﴾ مع ذلك ﴿عن دعائهم﴾ إيّاهم ﴿غافلون﴾ أي ذاهبون عن الفكر فيه، لأنّهم لا يعقلون ولا يفقهون. والغفلة ذهاب المعنى عن نفس العاقل بمعنى يمتنع به إدراكه. وضدّه اليقظة، وهو حضور المعنى لنفس العاقل بما يجد إدراكه، وإنّما كنّى عن الأصنام بالواو والنون مع أنّها لا تعقل لما أضاف إليها ما يكون من العقلاء، كنّى عنها بكناياتهم، كما قال: ﴿والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين﴾[٢] وقوله: ﴿كلّ

(١) تفسير الطبري ١١: ٢٧٣، النكت والعيون ٥: ٢٧١.

(٢) يوسف: ٤.

في فلك يسبحون﴾ (١).

قوله تعالى:

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلاخلاف.

[أقول:](٢) لمّا قال تعالى إنّه لا أحد أضلّ عن طريق الحقّ ممّن يدعوا من لايستجيب له، يعني الأصنام الّتي عبدوها وإنّهم عن دعائهم غافلون أيضاً، ذكر أنّه ﴿إذا حشر الناس﴾ يوم القيامة وبعثهم الله للثواب والعقاب ﴿كانوا لهم أعداء﴾ يعني هذه الأوثان الّتي عبدوها ينطقهم الله حتّى يجحدوا أن يكونوا دعوا إلى عبادتها أو شعرت بذكر(٣) من أمرها ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ يعني: يكفرون بعبادة الكفّار لهم ويجحدون ذلك. ثمّ وصفهم أيضاً فقال: ﴿وإذا تتلى عليهم﴾ يعني: هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم ﴿آياتنا﴾ أي أدلّتنا الّتي أنزلناها من القرآن ونصبناها لهم. والآية الدلالة الّتي تدلّ على ما يتعجّب منه، قال الشاعر:

(١) يس: ٤٠.
(٢) من الحجريّة.
(٣) في الحجريّة: بذالك.

بآيـة يَـقْدُمون الخـيل زَوْراً كأنّ على سنابكها مداماً[١]

ويروى مناكبها و ﴿بيّنات﴾ أي واضحات ﴿قال الّذين كفروا﴾ بوحدانيّة الله وجحدوا نـعمه ﴿للحقّ لمّا جاءهم﴾ يـعني: القـرآن، والمـعجزات الّـتي ظهرت على يد النبيّ ﷺ: ﴿هذا سحر مبين﴾ أي حيلة لطيفة ظاهرة، ومن اعتقد أنّ السحر حيلة لطيفة لم يكفر بلا خلاف. ومن قال إنّه معجزة كان كافراً، لأنّه لا يمكنه مع هذا القول أن يفرق بين النبيّ والمتنبّي.

ثمّ قال الله: ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون اختلقه واخترعه فقال الله تعالى له: ﴿قل﴾ لهم ﴿إن﴾ كنت ﴿افتريته﴾ واخترعته ﴿فلا تملكون لي من الله شيئاً﴾ أي إن كان الأمر على ما تقولون إنّي ساحر ومفتر لا يمكّنكم أن تمنعوا الله منّي إذا أراد إهلاكي على افترائـي عـليه ﴿هو أعلم بما تفيضون فيه﴾ يقال: أفاض القوم في الحديث إذا مضوا فيه، وحديث مستفيض أي شائع، من قولكم هذا سحر وافتراء، ثمّ قـل لهـم: ﴿كفى به﴾ يـعني بـالله ﴿شهيداً بيني وبينكم﴾ يشهد للمحقّ منّا والمـبطل ﴿وهو الغفور﴾ لذنـوب عباده ﴿الرحيم﴾ بكثرة نعمه عليهم. وفي ذلك حثّ لهـم عـلى المـبادرة بالتوبة والرجوع إلى طريق الحق، ثمّ قال لمحمّد: ﴿قل﴾ يـا مـحمّد ﷺ ﴿ما كنت بدعاً من الرسل﴾ فالبدع الأوّل في الأمر يقال: هو بدع من قـوم أبداع قال عديّ بن زيد:

فـلا أنـا بـدع مـن حـوادث تـعتري

رجالاً عرت من بعد بؤس واسعد[٢]

---

(١) الكتاب ٣: ١١٨، فيه: تقدمون. وقد مرّ ذيل الآية ١٠٤ من سورة هود.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٢٧٥، النكت والعيون ٥: ٢٧٢.

قال ابن عبّاس ومجاهد وقَتادة: معناه: ما كنت بـأوّل رسـول بـعث وقــوله: ﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾ قـال الحسـن: مـعناه: لا أدري ما يأمرني الله تعالى فيكم من حرب أو سلم أو تعجيل عقابكم أو تأخيره. وقال قل لهم: ﴿إن أتّبع إلّا ما يوحى إليّ﴾ أي لست أتّبع في أمركم من حرب أو سلم أو أمر أو نهي إلّا ما يوحي الله إليّ ويأمرني بـه ﴿وما أنا إلّا نذير مبين﴾ أي لست إلّا مخوّفاً من عقاب الله ومحذّراً من معاصيه ومرغّباً في طاعاته. وقيل: إنّ أصحاب النبيّ ﷺ شكوا إليه ما يلقون من أهل مكّة من الأذى، فقال لهم: «إنّي رأيت في المنام أنّي أُهاجر إلى أرض ذات نـخل وشجر» ففرحوا بذلك، فلمّا تـأخّر ذلك، قـالوا: يـا رسـول الله مـا نـرى ما بشّرتنا به فأنزل الله الآية[1]. وقوله: ﴿مبين﴾ معناه مظهر لكم الحقّ فيه.

ثمّ قال: ﴿قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿أرأيتم إن كان من عند الله﴾ يـعني هـذا القرآن ﴿وكفرتم به﴾ يعني بالقرآن ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ قال ابن عبّاس ومجاهد وقتادة والضـحّاك والحسـن وعـون بـن مـالك الأشجعي صحابي وابن زيد: نزلت الآية في عبد الله بن سلام، وهو الشاهد من بني إسرائيل، فروي أنّ عبد الله بن سلام جاء إلى النبيّ ﷺ وقال: يا رسول الله سل اليهود عنّي فهم يقولون هو أعلمنا، فإذا قالوا ذلك قلت لهم إنّ التوراة دالّة على نبوّتك وأنّ صفاتك فيها واضحة، فلمّا سألهم عن ذلك، قالوا ذلك، فحينئذٍ أظهر ابن سلام إيمانه وأوقفهم على ذلك، فـقالوا هـو شرّنا وابن شرّنا[2]. وقال الفرّاء: هو رجل من اليهود[3]. وقال مسـروق:

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٢٨٦.
(٢) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٧٨.
(٣) معاني القرآن ٣: ٥١.

الشاهد من بني إسرائيل هو موسى عليه السلام شهد على التوراة كما شهد النبيّ صلى الله عليه وآله على القرآن، قال: لأنّ السورة مكّية وابن سلام أسلم بالمدينة[١].

وقوله: ﴿فآمن واستكبرتم﴾ عن الإيمان به وجواب ﴿إن كان من عند الله﴾ محذوف. قال الزجّاج: تقديره ﴿فآمن واستكبرتم﴾ فلا تؤمنون[٢]. وقال غيره: تقديره فآمن واستكبرتم إنّما تهلكون. وقال الحسن: جوابه فمن أضلّ منكم[٣].

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ ويحتمل أمرين:

أحدهما: أنّه لا يهديهم إلى الجنّة لاستحقاقهم العقاب.

والثاني: أنّه لا يحكم بهداهم لكونهم ضُلّالاً ظالمين. ولا يجوز أن يكون المراد لا يهديهم إلى طريق الحقّ، لأنّه تعالى هدى جميع المكلّفين بأن نصب لهم الأدلّة على الحقّ ودعاهم إلى اتّباعه ورغّبهم في فعله. وقد قال: ﴿وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى﴾[٤] فبيّن أنّه هداهم إلى الحقّ وإن اختاروا هُم الضلال.

قوله تعالى:

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٢٧٩.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٤: ٤٤٠. فيه: أتؤمنون.
(٣) النكت والعيون ٥: ٢٧٤.
(٤) فصّلت: ١٧.

أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:](١) قرأ ابن كثير ـ في إحدى الروايتين عنه ـ ونافع وأبو جعفر وابن عامر ويعقوب ﴿لتنذر﴾ بالتاء على وجه الخطاب. ويجوز أن يكون مردوداً إلى اللسان وهو مؤنّث. الباقون بالياء على وجه الإخبار عن الكتاب أو القرآن. وقرأ أهل الكوفة ﴿إحساناً﴾ بألف. الباقون ﴿حسناً﴾ بضمّ الحاء بلا ألف. وقرأ ابن كثير ونافع والكسائي وأبو عمرو ﴿كرهاً﴾ بفتح الكاف. الباقون بضمّها، وهما لغتان. وقرأ يعقوب ﴿وفصله﴾ بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف. الباقون ﴿وفصاله﴾ بكسر الفاء وإثبات ألف، وهما لغتان وبإثبات الألف كلام العرب. وفي الحديث «لا رضاع بعد فصال»(٢) وروى بعد «فطام»(٣).

أخبر الله تعالى عن الكفّار الّذين جحدوا وحدانيّة الله وكذّبوا نبيّه محمّد ﷺ أنّهم قالوا ﴿للّذين آمنوا﴾ وصدّقوا رسوله: ﴿لو كان﴾ هذا الّذي يدعوننا هؤلاء المسلمون إليه: محمّد ومن اتّبعه ﴿خيراً﴾ أي نفعاً عاجلاً أو آجلاً يظهر لنا ذلك ﴿ما سبقونا﴾ يعني الكفّار الّذين آمنوا به ﴿إليه﴾ أي إلى اتّباعه لأنّا كنّا بذلك أولى وبه أحرى. وحكي أنّ أسلم وغِفار وجهينة ومزينة لمّا أسلموا قال بنو عامر بن صعصعة وغطفان وأسد وأشجع هذا القول(٤)

---

(١) من الحجريّة.
(٢) الكافي ٨: ١٩٦.
(٣) مقنعه: ٥٠٣.
(٤) معاني القرآن ٣: ٥١.

فحكاه الله. والسبق المصير إلى الشيء قبل غيره، وكذلك السابق إلى الخير والتابع فيه. فقال الله تعالى: ﴿وإذ لم يهتدوا به﴾ يعني هؤلاء الكفّار بهذا القرآن ولا استبصروا به ولا حصل لهم العلم بأنّه مرسَل داع إلى الله ﴿فسيقولون هذا إفك قديم﴾ أي كذب متقدّم حيث لم يهتدوا به، وصفه بالقديم للمبالغة في التقدّم، أي ليس أوّل من ادّعى الكذب في ذلك بل قد تقدّم أشباهه. والقديم في عرف اللغة هو المتقدّم الوجود، وفي عرف المتكلّمين هو الموجود الّذي لا أوّل لوجوده.

ثمّ قال تعالى: ﴿ومن قبله﴾ يعني من قبل القرآن ﴿كتاب موسى﴾ يعني: التوراة ﴿إماماً ورحمة﴾ أي جعلناه إماماً ورحمة، وأنزلناه إماماً يهتدى به ورحمة أي نعمة على الخلق. ثمّ قال: ﴿وهذا﴾ يعني القرآن ﴿كتاب مصدّق﴾ لذلك الكتاب ﴿لساناً عربيّاً﴾ نصبه على الحال، ويجوز أن يكون حالاً من هذا الكتاب، ويجوز أن يكون حالاً لما في ﴿مصدّق﴾ من الضمير. وقوله: ﴿لينذر الّذين ظلموا﴾ أي ليخوّفهم، ويعلّمهم استحقاق العقاب على المعاصي واستحقاق الثواب على الطاعات. فمن قرأ بالتاء جاز أن يكون خطاباً للنبيّ صلى الله عليه وآله ويجوز أن يكون ردّاً على اللسان على ماقدّمناه، وهو مؤنّث. ومن قرأ بالياء ردّه إلى الكتاب الّذي هو القرآن. وقوله: ﴿وبشرى للمحسنين﴾ معناه: أن يكون هذا القرآن بشارة لمن فعل الصالحات واختار الحسنات، ويجوز في ﴿بشرى﴾ أن يكون رفعاً عطفاً على ﴿مصدّق﴾ ويجوز أن يكون نصباً لوقوعه موقع ﴿وبشيراً﴾ فيكون حالاً، كما تقول: أتيتك لأزورك وكرامة لك وقضاء لحقّك.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إن الّذين قالوا﴾ بلسانهم: ﴿ربّنا الله﴾ واعتقدوا ذلك

بقلوبهم ﴿ثمّ استقاموا﴾ على ذلك لم يعدلوا عنه[١] ﴿فلا خوف عليهم﴾ من العقاب في الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾ من أهوال القيامة.

ثمّ أخبر عنهم فقال: ﴿أُولئك﴾ يعني من تقدّم ذكرهم ﴿أصحاب الجنّة﴾ أي الملازمون لها ﴿خالدين﴾ متنعّمون ﴿فيها جزاء﴾ لهم [﴿بما كانوا يعلمون﴾][٢] في الدنيا من الطاعات.

ثمّ قال تعالى: ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ أي أمرناه بأن يحسن إلى والديه إحساناً. فمن قرأ بألف فالمعنى أن يحسن فعله معهما حسناً، فالحسن والحَسن . لغتان، يقال: حسن يحسن حسناً ومن قرأ «إحساناً» جعله مصدر أحسن «وكرهاً» بفتح الكاف المصدر وبضمّها الاسم. وقيل هما لغتان. وقوله: ﴿حملته أُمّه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ قال الحسن وقتادة ومجاهد: أي بمشقّة. ثمّ قال: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهراً﴾ نبّه بذلك على ما يستحقّه الوالدان من الإحسان إليهما ومعاملتهما من حيث إنّهما تكفّلا به وربّياه، وأنّه ﴿حملته أُمّه كرهاً ووضعته كرهاً﴾ أي بمشقّة في حال الولادة وأرضعته مدّة الرضاع. ثمّ بيّن أنّ أقلّ مدّة الحمل وكمال مدّة الرضاع ثلاثون شهراً، وأنّهما تكفّلا به حتّى بلغ حدّ الكمال ﴿حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة﴾ قيل: أكثر الفصال وأكثر مدّة الرضاع أربعة وعشرون شهراً وأقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر، والمعنى وصيّة بذلك ليكون إذا بلغ أشدّه أي حال التكليف وحال الأربعين، قال هذا القول علّمه الله إيّاه. وقال قتادة وابن عبّاس: أشدّه ثلاث وثلاثون سنة. وقال الشعبي: هو وقت بلوغ الحلم. وقال الحسن: أشدّه وقت قيام الحجّة عليه. ثمّ ﴿قال ربّ أوزعني أن

---

(١) في الحجريّة زيادة: بأنّه.

(٢) في الحجريّة: على ما كانوا يعملونه.

أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديَّ﴾ فالإيزاع المنع من الانصراف عن الشيء فإيزاع الشكر المنع من الانصراف عنه باللطف، ومنه قولهم يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن. ومنه قول الحسن: لابدّ للسلطان من وزعة. قال النابغة:

على حين عاتبت المشيب على الصبا

فقلت ألمّا تصح والشيب وازع[١]

أي مانع. وقيل: إيزاع الشكر هو إلهام الشكر وقيل الإغراء بالشكر[٢] ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذرّيّتي إنّي تبت إليك وإنّي من المسلمين﴾ تمام ما علّمه الله للإنسان ووصّاه أن يدعو به إذا بلغ أشدّه: أن يقول: إنّي تائب إلى الله من المعاصي وإنّي من جملة المسلمين لأمر الله.

قوله تعالى:

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

---

(١) ديوان النابغة: ٨٠. فيه أصْحُ.

(٢) النكت والعيون ٥: ٢٧٧.

[أقول:][١] قرأ ﴿نتقبّل﴾ ﴿ونتجاوز﴾ بالنون فيهما حمزة والكسائي وخلف، على وجه الإخبار من الله عن نفسه ولقوله ﴿ووصّينا﴾ الباقون بالياء فيهما، على ما لم يسمّ فاعله. وروى هشام ﴿أتعدانّي﴾ بنون مشدّدة. الباقون بنونين. وقرأ ابن كثير وأهل البصرة وعاصم إلّا الكسائي عن أبي‌بكر والحلواني عن هشام ﴿وليوفّيهم﴾ بالياء. الباقون بالنون. وقرأ ابن‌ذكوان وروح ﴿أ أذهبتم﴾ بهمزتين مخفّفتين على الاستفهام. وقرأ ابن‌كثير وأبو جعفر وهشام بتخفيف الأُولى وتليين الثانية وفصل بينهما بألف أبو جعفر والحلواني عن هشام. الباقون بهمزة واحدة على الخبر.

لمّا أخبر تعالى بما أوصى به الإنسان أن يعمله ويقوله عند بلوغ أشدّه أخبره بعده بما يستحقّه من الثواب إذا فعل ما أمره به تعالى فقال: ﴿أولئك﴾ يعني الّذين فعلوا ما وصّيناهم به من التائبين المسلمين هم ﴿الّذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا﴾ من قرأ بالنون أضاف الفعل إلى الله وأنّه أخبر عن نفسه بأنّه يفعل بهم. ومن قرأ بالياء والضمّ فيهما لم يذكر الفاعل لأنّه معلوم أنّ المراد به أنّ الله الّذي يتقبّل الطاعات ويجازي عليها. وقوله: ﴿أحسن ما عملوا﴾ يعني ما يستحقّ به الثواب من الواجبات والمندوبات، لأنّ المباحات وإن كانت حسنة لا يستحقّ بها الثواب ولا توصف بأنّها متقبّلة، لأنّه لا يتقبّل إلّا ما ذكرناه من واجب أو ندب.

ثمّ قال: ﴿ونتجاوز عن سيّئاتهم﴾ الّتي اقترفوها فلا نؤاخذهم بها إذا تابوا منها أو أردنا أن نتفضّل عليهم بإسقاطها. وقوله: ﴿في أصحاب الجنّة﴾ أي هم في أصحاب الجنّة ﴿وعد الصدق﴾ أي وعدهم وعد الصدق

---

(١) من الحجريّة.

لا الكذب، فهو نصب على المصدر ﴿الّذي كانوا يوعدون﴾ به في دار الدنيا إذا أطاعوا الله.

ثمّ أخبر تعالى عن حال [﴿الّذي قال﴾ أي الّذي][١] يقول ﴿لوالديه أُفّ لكما﴾ ومعناه: أنّه في موضع ضجر منهما[٢] وقيل: معناه نتناً وقذراً لكما[٣] كما يقال عند شمّ الرائحة الكريهة. وقال الحسن: هو الكافر الفاجر العاقّ لوالديه المكذّب بالبعث وأنّه يتأفّف بهما إذا دَعواه إلى الإقرار بالبعث والنشور. وقال قوم: نزلت الآية في عبدالرحمن بن أبي بكر قبل أن يسلم[٤].

ثمّ بيّن أنّه يقول لهما: ﴿أتعدانني أن أُخرج﴾ من القبر وأُحيا وأُبعث ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي مضت أُمم قبلي وماتوا فما أُخرجوا ولا أُعيدوا ﴿وهما﴾ يعني والديه ﴿يستغيثان الله﴾ ويقولان له ﴿ويلك آمن إنّ وعد الله حقّ﴾ والبعث والنشور والثواب والعقاب حقّ ﴿فيقول﴾ في جوابهما: ﴿ما هذا إلّا أساطير الأوّلين﴾ أي ليس هذا إلّا أخبار الأوّلين سطروها، وليس لها حقيقة، فقال تعالى: [﴿أُولئك][٥] الّذين حقّ عليهم القول﴾ باستحقاق العقاب وإدخالهم النار [﴿في أُمم﴾ أي][٦] مع أُمم وجماعات ﴿قد خلت من قبلهم من الجنّ والإنس﴾ على مثل حالهم ومثل اعتقادهم. وقال قتادة: قال الحسن: الجنّ لا يموتون. قال قتادة: فقلت ﴿أولئك الّذين حق عليهم القول...﴾ الآية تدلّ على خلافه. ويجوز أن يكون الحسن أراد أنّهم لا يموتون في دار الدنيا ويبقون إلى وقت قيام الساعة.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس في الحجريّة، فيه زيادة: مَن.

(٢) في الحجريّة: ضجرا منكما.

(٣) تفسير الطبري ١١: ٢٨٧.

(٤) النكت والعيون ٥: ٢٧٩.

(٥ و٦) لا يوجد في الحجريّة.

ثمّ يميتهم الله كما أنّ ذلك سبيل [كلّ][1] خلق من الملائكة.

ثمّ قال تعالى مخبراً عن حالهم: ﴿إنّهم﴾ يعني الّذين وصفهم ﴿كانوا قوماً خاسرين﴾ في أُمورهم، لأنّهم خسروا الثواب الدائم وحصل لهم العقاب المؤبّد. ثمّ قال: ﴿ولكلّ درجات ممّا عملوا﴾ أي لكلّ مطيع درجات ثواب، وإن تفاضلوا في مقاديرها.

وقوله: ﴿وليوفّيهم﴾ من قرأ بالياء معناه ليوفّيهم الله. ومن قرأ بالنون فعلى وجه الأخبار من الله عن نفسه أنّه يوفّيهم ثواب أعمالهم من الطاعات [﴿وهم لا يظلمون﴾ أي][2] من غير أن ينقص منه شيئاً.

ثمّ قال تعالى: ﴿ويوم يعرض الّذين كفروا على النار﴾ يعني يوم القيامة ﴿أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا﴾ أي يقال لهم على وجه التهجين والتوبيخ: ﴿أذهبتم طيّباتكم﴾ أي أنفقتم ذلك في ملاذّ الدنيا، وفي معاصي الله، ولم تستعملوها في طاعاته. فمن خفّف الهمزتين أراد بألف الاستفهام التوبيخ. ومن ليّن الثانية كرّه الجمع بين الهمزتين. ومن قرأ على الخبر، فعلى تقدير يقال لهم: ﴿أذهبتم﴾ أو يكون حذف إحداهما تخفيفاً ويكون المحذوفة الأصليّة، لأنّ همزة الاستفهام أُدخلت لمعنى.

وقوله: ﴿واستمتعتم بها﴾ يعني بالطيّبات. ثمّ حكى ما يقال لهم بعد ذلك فإنّه يقال لهم: ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ يعني عذاب الهوان، في قول مجاهد ﴿بما كنتم تستكبرون في الأرض﴾ أي جزاء بما كنتم تطلبون التكبّر والتجبّر على الناس [﴿بغير الحقّ﴾ أي][3] بغير استحقاق ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي تخرجون من طاعة الله إلى معاصيه.

---

(١ ـ ٣) مابين المعقوفتين ليس في الحجريّة.

قوله تعالى:

وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:](١) قرأ عاصم وحمزة وخلف ﴿لا يرى﴾ بالياء مضمومة، على ما لم يسمّ فاعله ﴿إلّا مساكنهم﴾ برفع النون. الباقون بالتاء ونصب النون. من ضمّ الياء فعلى ما لم يسمّ فاعله. ومن فتح التاء فعلى الخطاب، والمعنيان متقاربان.

يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿واذكر﴾ يا محمّد ﴿أخا عاد﴾ يعني هوداً عليه السلام ﴿إذ أنذر قومه﴾ أي خوّفهم من الكفر بالله وحذّرهم معاصيه ودعاهم إلى طاعته ﴿بالأحقاف﴾ قال ابن عبّاس: هو واد بين عمّان ومهوة(٢) وقال ابن إسحاق: الأحقاف الرمل في ما بين عمّان إلى حضرموت. وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر بالشجر من اليمن. وقال الحسن : الأحقاف أرض خلالها رمال. وقال الضحّاك: جبل بالشام يسمّى بذلك، قال العجّاج:

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في المصادر: مهرة. كما في تفسير الطبري ١١: ٢٩٠، النكت والعيون ٥: ٢٨٢.

بات إلى أرطات حِقْف أحقفا[١]

أي رمل مشرف، وقال ابن زيد: الحقف الرمل يكون كهيئة الجبل. وقال المبرّد: الحقف هو الكثيب المكثر غير العظيم وفيه اعوجاج، قال العجّاج:

سماوة الهلال حتّى احقوقفا[٢]

وهو انحناؤه. وقوله: ﴿وقد خلت النذر﴾ أي مضت الرسل ﴿من بين يديه ومن خلفه﴾ أي قدّامه ووراءه ﴿ألّا تعبدوا إلّا الله﴾ أي أنذرهم وخوّفهم بأن لا تعبدوا إلّا الله. وقال لهم: ﴿إنّي أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ يعني عذاب يوم القيامة.

ثمّ حكى ما أجاب به قومه وأنّهم ﴿قالوا أجئتنا﴾ يا هود ﴿لتأفكنا﴾ أي لتلفتنا وتصرفنا ﴿عن﴾ عبادة ﴿آلهتنا﴾ بالكذب والإفك ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت﴾ صادقاً ﴿من الصادقين﴾ فإنّا لا نصدّقك في ما تقوله، فقال هود لهم: ﴿إنّما العلم عند الله﴾ يريد العلم بوقت إنزال العذاب بكم عند الله، وهو العالم به ولا أعلمه مفصّلاً ﴿وأُبلّغكم ما أُرسلت به﴾ أي أُؤدّي إليكم ما بعثت به إليكم من الدعاء إلى عبادة الله وإخلاص القربة إليه، فلست أراكم تقبلون ذلك ﴿ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾ أي تفعلون مايفعله الجهّال.

وقوله: ﴿فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم﴾ معناه: فلمّا رأوا العذاب وشاهدوه أظلّ عليهم ﴿قالوا هذا عارض﴾ أي سحاب ﴿ممطرنا﴾ والعارض المارّ بمعنى أنّه لا يلبث من خير أو شرّ. فلمّا رأوا العارض ظنّوا أنّه عارض خير بالمطر، فقيل لهم ليس الأمر كما ظننتم ﴿بل هو [ما استعجلتم﴾

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢١٣، والطبري ١١: ٢٩١. فيهما: أرطاة. (٢) العين: ١٩٠ مادّة (حقف).

أي هو][1] عارض من العذاب الّذي استعجلتموه وطلبتموه مكذّبين ﴿به﴾ وقال «عارض» نكرة و «ممطرنا» معرفة، وإنّما وصفه به لأنّ التقدير ممطر إيّانا، كقولك: مررت برجل مثلك أي مثل لك ثمّ فسّره فقال: ﴿هو ريح فيها عذاب أليم﴾ أي مؤلم، وسمّي السحاب عارضاً، لأخذه في عرض السماء، وقال الأعشى:

يا من رأى عارضاً قد بتّ أرمقه    كأنّما البرق في حافاته الشُعَل[2]

وقيل: كانت الريح ترفع الظعينة بحملها حتّى ترى كأنّها جرادة ـ في قول عمرو بن ميمون ـ.

وقوله تعالى: ﴿تدمّر كلّ شيء﴾ أي تخرّب وتلقي بعض الأشياء على بعض حتّى تهلك، قال جرير:

وكان لهم كبكر ثمود لمّا رغا    ظَهراً فدمّر هم دمارا[3]

وقوله: ﴿فأصبحوا﴾ يعني أهل الأحقاف ﴿لايُرى إلّامساكنهم﴾ وماعداها قد هلك. فمن فتح التاء نصب النون من ﴿مساكنهم﴾ على وجه الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله. ومن ضمّ الياء ضمّ النون، وتقديره فأصبحوا لا يرى شيء في مساكنهم. وقرأ الحسن بالتاء والضمّ. وقال النحويّون: القراءة بالياء[4] ضعيفة في العربيّة، لأنّ العرب تذكّر ما قبل «إلّا» في الجحد، فتقول: ما قام إلّا أُختك، لأنّ المحذوف «أحد» وتقديره ما قام أحد إلّا أُختك قامت.

ثمّ قال تعالى مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف وجازيناهم بالعذاب ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ الّذين سلكوا مسلكهم.

---

(١) لا يوجد في الحجريّة.
(٢) شرح ديوان الأعشى: ١٥٠. مع اختلاف.
(٣) تفسير الطبري ١١: ٢٩٣، شرح ديوان فرزدق ١: ٥٧٤. قاله في هجاء جرير.
(٤) كذا في النسخ، والظاهر «بالتاء» راجع تفسير الطبري ١١: ٢٩٤.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] يقول الله تعالى على وجه القسم في خبره أنّه مكّن هؤلاء الكفّار الّذين أخبر عنهم بأنّه أهلكهم أنّه مكّنهم من الطاعات ومن جميع ما أمرهم به من أنّه جعلهم قادرين متمكّنين بنصب الدلالة على توحيده، ومكّنهم من النظر فيها، ورغّبهم في ذلك بما ضمن لهم من الثواب وزجرهم عمّا يستحقّ به العقاب، ولطف لهم وأزاح عللهم في جميع ذلك، لأنّ التمكين عبارة عن إعطاء[٢] جميع مالا يتمّ الفعل إلّا معه. ثمّ قال: ﴿وجعلنا لهم سمعاً﴾ يسمعون به الأدلّة ﴿وأبصاراً﴾ يشاهدون بها الآيات ﴿وأفئدة﴾ يفكّرون بها ويعتبرون بالنظر فيها ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ أي لم ينفعهم جميع ذلك، لأنّهم لم يعتبروا بها ولا فكّروا فيها ﴿إذ كانوا يجحدون بآيات الله﴾ وأدلّته «وحاق بهم» أي حلّ بهم عذاب ﴿ما كانوا به يستهزؤن﴾ ويسخرون منه.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) في الحجريّة: فعل (إعطاء خ ل).

وقوله: ﴿ما إن مكّناكم فيه﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: معناه في ما لم نمكّنكم فيه. وقال المبرّد: «ما» الأولى بمعنى «الّذي» و«إن» بمعنى «ما» وتقديره في الّذي ما مكّناكم، والمراد بالآية وعيد كفّار قريش وتهديدهم وأنّ الله قد مكّن قوم عاد بما لم يمكن[١] هؤلاء منه، من عظيم القوّة وشدّة البطش والقدرة على جميع ما يطلبونه، وأنّهم مع تمكينهم لم‌ينفعهم ذلك لمّا نزل بهم عذاب الله حين كفروا به وجحدوا ربوبيّته ولم‌يغنهم جميع ذلك.

ثمّ قال: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ يعني قوم هود وصالح، لأنّهم كانوا مجاورين لبلاد العرب وبلادهم حول بلادهم، فإذا أهلكهم الله بكفرهم كان ينبغي أن يعتبروا بهم ﴿وصرّفنا الآيات﴾ وتصريف الآيات تصيير[ها في الجهات وتصريف][٢] الشيء [تصييره][٣] في الجهات، وتصريف المعنى تصييره تارة مع هذا الشيء وتارة مع ذلك، وتصريف الآيات تصييرها تارة في الإعجاز وتارة في الإهلاك، وتارة في التذكير بالنِعَم وتارة في وصف الأبرار، وتارة في وصف الفجّار، ليجتنب مثل فعلهم ﴿لعلّهم يرجعون﴾ أي لكي يرجعوا إلى طاعته.

ثمّ قال: ﴿فلولا نصرهم الّذين اتّخذوا من دون الله قربانا آلهة﴾ ومعناه: فهلّا نصرهم الّذين اتّخذوا آلهة من دون الله من الأصنام، توبيخاً لهم على فعلهم وإعلاماً بأن من لا يقدر على نصرة أوليائه كيف تصحّ عبادته ﴿قرباناً آلهة﴾ أي يقربون إليهم قرباناً وسمّوها آلهة.

ثمّ قال: لم ينصرونهم ﴿بل ضلّوا عنهم﴾ وأخبر أنّ ﴿ذلك إفكهم وماكانوا

---

(١) في الحجريّة: ممّا لم يكن.

(٢ و٣) ما بين المعقوفتين لا يوجد في الحجريّة.

يفترون﴾ أي كذبهم الّذي كذبوه، والّذي كانوا يفترونه ويخترعونه.

ثمّ قال لنبيّه ﷺ: واذكر يا محمّد ﴿إذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن فلمّا حضروه﴾ يعني القرآن أو النبيّ ﴿قالوا﴾ بعضهم لبعض: ﴿أنصتوا فلمّا قضي﴾ أي حين فرغ من تلاوته ﴿ولّوا إلى قومهم منذرين﴾ لهم مخوّفين من معاصي الله. وقال قوم: إنّ الله تعالى أمر نبيّه أن يقرأ القرآن على الجنّ، وأمره بأن يدعوهم إلى عبادته[1]. وقال قوم: هم يسمعون من قِبَل نفوسهم لقراءة القرآن[2] فلمّا رجعوا ﴿قالوا﴾ لقومهم: ﴿يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه﴾ يعني: التوراة ﴿يهدي إلى الحقّ﴾ أي يرشد إليه ﴿ويهدي إلى طريق مستقيم﴾ من توحيد الله ومعرفة نبيّه المؤدّي إلى الجنّة. وقال ابن عبّاس وسعيد بن جبير: صرفوا إليه بالرجم بالشهب، فقالوا عند ذلك: إنّ هذا الأمر كبير. وقال قتادة: صرفوا إليه من جهة. وفي رواية عن ابن عبّاس من نصيبين. وقيل: إنّ نصيبين من أرض اليمن. وقال رزين بن حبيش: كانوا تسعة نفر، وقال ابن عبّاس: كانوا سبعة نفر. وقال قوم: صرفوا إليه بالتوفيق[3].

قوله تعالى:

يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

---

(١ و٣) راجع النكت والعيون ٥: ٢٨٥ ـ ٢٨٦، تفسير السمرقندي ٣: ٢٩٣.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٢٩٦.

قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ يعقوب «يقدر» بالياء جعله فعلاً مستقبلاً. الباقون ـ بالباء ـ اسم فاعل.

لمّا حكى الله تعالى أنّ نفراً من الجنّ استمعوا القرآن وتدبّروه ورجعوا به إلى قومهم مخوّفين لهم من معاصي الله وأنّهم قالوا إنّا سمعنا كتاباً ـ يعني القرآن ـ أُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يعني: التوراة يهدي إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم، حكى أنّهم قالوا أيضاً ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله﴾ يعنون محمّداً ﷺ إذ دعاهم إلى توحيده وخلع الأنداد دونه. وقال قوم: يجوز أن يكون المراد كلّ من دعا إلى الله تعالى. والإجابة موافقة الفعل للدعاء إليه بأنّه عمل من أجله، ولهذا لا تكون موافقة الكافر ـ وإن كان إذا دعا به ـ إجابة له إذ لم يعمل من أجل دعائه إليه، وإنّما عمل لأمر آخر. وعلى هذا قال بعضهم: إنّه لا يجيب الله دعاء الكافر لأنّ فيه إجلالاً له كما لا يعمل شيئاً لأنّ فيه مفسدة.

فإن قيل: لو أنّ الكافر دعا إلى حقّ هل تلزم إجابته ؟

قلنا: يجب العمل بما يدعو إليه، ولا تلزم إجابته، وإنّما يجب العمل به، لأنّه حقّ. وقيل: يجوز إجابته إذا لم يكن فيه مفسدة.

وقالوا لهم: ﴿آمنوا به﴾ أي آمنوا بالله ﴿يغفر لكم من ذنوبكم﴾ «من»

---

(١) من الحجريّة.

زائدة، والمعنى يغفر لكم ذنوبكم ﴿ويجركم من عذاب أليم﴾ فالإجارة من النار جعلهم في جوار الأولياء المباعدين من النار. وفي الدعاء: اللّهمّ أجرني من النار واللّهمّ أعذني منها.

ثمّ قالوا أيضاً: ﴿ومن لا يجب داعي الله﴾ تاركاً له إلى خلافه ﴿فليس بمعجز﴾ أي بفائت «في الأرض وليس له من دونه أولياء» ينصرونهم ويدفعون عنهم العذاب إذا نزل بهم، ويجوز أن يكون ذلك من كلام الله ابتداء. ثمّ قال ﴿أُولئك﴾ يعني: الّذين لا يجيبون داعي الله ﴿في ضلال﴾ أي في عدول عن الحقّ ﴿مبين﴾.

ثمّ قال تعالى منبّهاً لهم على قدرته على الإعادة والبعث: ﴿أوَ لم يروا﴾ أي أوَ لم يعلموا ﴿أنّ الله الّذي خلق السماوات والأرض﴾ وأنشأهما ﴿ولم يعي بخلقهنّ﴾ أي لم يصبه في خلق ذلك إعياء ولا تعب ﴿بقادر﴾ فالباء زائدة وموضعه رفع بأنّه خبر «أنّ» ودخول الباء في خبر «أنّ» جائز إذا كان أوّل الكلام نفياً نحو ما ظننت أنّ زيداً بقائم، ولو قلت: إنّ زيداً بقائم، لا يجوز، لأنّه إثبات ﴿على أن يحيي الموتى﴾ ثمّ قال: ﴿بلى﴾ هو قادر عليه ﴿إنّه على كلّ شيء قدير﴾ ثمّ قال: ﴿ويوم يعرض الّذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ﴾ أي يقال لهم على وجه الاحتجاج عليهم أليس هذا الّذي جزيتم به حقّ لا ظلم فيه لأنّكم شاهدتموه الآن «قالوا بلى وربّنا» فيحلفون على ذلك، فيقال لهم عند ذلك: ﴿ذوقوا العذاب﴾ جزاء ﴿بما كنتم تكفرون﴾ أي بما كنتم تجحدون من نعمه وتنكرون من وحدانيّته.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فاصبر﴾ يا محمّد على أذى هؤلاء الكفّار على ترك إجابتهم لك ﴿كما صبر أُولوا العزم من الرسل﴾ قبلك على أُممهم. وقال قوم:

أُولوا العزم هم الّذين يثبتون على عقد القيام بالواجب واجتناب المحارم، فعلى هذا الأنبياء كلّهم أُولوا العزم، ومن قال ذلك جعل «من» هاهنا للتبيين لا للتبعيض. ومن قال: إنّ أُولى العزم طائفة من الرسل وهم قوم مخصوصون قال: «من» هاهنا للتبعيض، وهو الظاهر في روايات أصحابنا وأقوال المفسّرين. ويريدون بأُولي العزم من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدّم من الأنبياء، قالوا وهم خمسة أوّلهم نوح ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ محمّد صلّى الله عليه وآله (١).

ثمّ قال: ﴿ولا تستعجل لهم﴾ العقاب ﴿كأنّهم يوم يرون ما يوعدون﴾ من يوم القيامة لقرب مجيئه ﴿لم يلبثوا إلاّ ساعة من نهار﴾ [من قلّة لبثهم في الدنيا]. وقوله «بلاغ» [قيل في معناه قولان:

أحدهما: ذلك اللبث بلاغ. والآخر: هذا القرآن بلاغ](٢).

ثمّ قال: ﴿فهل يهلك﴾ بهذا النوع من الإهلاك على وجه الاستحقاق ﴿إلاّ القوم الفاسقون﴾ الّذين خرجوا من طاعة الله إلى معصيته ومن ولايته إلى عداوته.

---

(١ و٢) النكت والعيون ٥: ٢٨٨ ـ ٢٨٩. ما بين المعقوفتين ليس في الحجريّة.

# سورة محمّد صلى الله عليه وآله

هي مدنيّة كلّها إلّا آية واحدة، قال ابن عبّاس وقتادة: فالآية الواحدة نزلت حين خرج النبيّ صلى الله عليه وآله من مكّة وجعل ينظر إلى البيت، وهو يبكي حزناً عليه فنزل قوله: ﴿فكأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك الّتي أخرجتك...﴾ الآية. وهي ثمان وثلاثون آية في الكوفي، وتسع وثلاثون في المدنيّين، وأربعون في البصري.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَـٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا
فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَاْ
بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ .

خمس آيات كوفي وستّ في ما عداه.

[أقول:][(١)] قرأ أهل البصرة وحفص عن عاصم ﴿والّذين قتلوا﴾ على مالم يسمّ فاعله بضمّ القاف وكسر التاء. الباقون «قاتلوا» بألف من المفاعلة. وقرئ شاذّاً «قتّلوا» بفتح القاف وتشديد التاء. من قرأ بألف كان أعمّ فائدة، لأنّه يدخل فيه من قَتَل. ومن قرأ بغير ألف لم يدخل في قراءته القاتل الّذي لم يُقتَل وكلاهما لم يضلّ الله أعمالهم، فهو أكثر فائدة. ومن قرأ بغير ألف خصّ هذه الآية بمن قُتل. وقال: علم أنّ الله لم يضلّ أعمال مَن قاتَل بدليل آخر ولأنّ من قاتل لم يضلّ عمله بشرط ألّا يحبط عند من قال بالإحباط، وليس من قُتل كذلك، لأنّه لا يضلّ الله أعمالهم على وجه بلا شرط، ولأنّه لا يُقتَل إلّا وقد قاتل فصار معناهما واحد.

قال مجاهد عن ابن عبّاس: إنّ قوله: ﴿الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله﴾ نزلت في أهله مكّة. وقوله: ﴿والّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ في الأنصار.

يقول الله تعالى مخبراً: بأنّ الّذين جحدوا توحيد الله وعبدوا معه غيره وكذّبوا محمّداً نبيّهﷺ في الّذي جاء به وصدّوا من أراد عبادة الله والإقرار بتوحيده وتصديق نبيّه عن الدين، ومنعوه من الإسلام ﴿أضلّ أعمالهم﴾ ومعناه: حكم الله على أعمالهم بالضلال عن الحقّ والعدول من الاستقامة، وسمّاها بذلك لأنّها عملت على غير هدى وغير رشاد. والصدّ عن سبيل الله هو الصرف عن سبيل الله بالنهي عنه والمنع منه. والترغيب في خلافه، وكلّ ذلك صدّ، فهؤلاء كفروا في أنفسهم ودعوا غيرهم إلى مثل كفرهم.

---

(١) من الحجريّة.

والإضلال الإهلاك حتّى يصير بمنزلة ما لم يعمل، وليس في الآية ما يدلّ على القول بصحّة الإحباط إذا حملناها على ما قلناه. ومن قال بالتحابط بين المستحقّين لابدّ أن يترك ظاهر الآية.

ثمّ قال: ﴿والّذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ يعني: صدقوا بتوحيد الله والإقرار بنبوّة نبيّه وأضافوا إلى ذلك الأعمال الصالحات ﴿و[آمنوا][1] بما﴾ أُنزل ﴿على محمّد﴾ من القرآن والعبادات وغيرها ﴿وهو الحقّ من ربّهم﴾ الّذي لا مرية فيه ﴿كفّر﴾ الله ﴿عنهم سيّئاتهم﴾ وقوله: ﴿وهو الحقّ﴾ يعني القرآن ـ على ما قاله قوم ـ وقال آخرون: إيمانهم بالله وبالنبيّ صلى الله عليه وآله ﴿هو الحقّ من ربّهم﴾ أي بلطفه لهم فيه وحثّه عليه وأمره به[2]. ومعنى تكفير السيّئات هو الحكم بإسقاط المستحقّ عليها من العقاب، فأخبر تعالى أنّه متى فعل المكلّف الإيمان بالله والتصديق لنبيّه أسقط عقاب معاصيه حتّى يصير بمنزلة ما لم يفعل. وقوله: ﴿وأصلح بالهم﴾ قال قتادة: معناه وأصلح حالهم في معائشهم وأمر دنياهم. وقال مجاهد: وأصلح شأنهم، والبال لا يجمع، لأنّه أبهم أخواته من الحال والشأن.

ثمّ بيّن تعالى لِمَ فعل ذلك ولم قسمهم هذين القسمين فقال: ﴿ذلك بأنّ الّذين كفروا﴾ فعلنا ذلك بهم وحكمنا بإبطال أعمالهم جزاءً على أنّهم ﴿اتّبعوا الباطل﴾ والمعاصي، وفعلنا بالمؤمنين من تكفير سيّئاتهم لأنّهم ﴿اتّبعوا الحقّ﴾ الّذي أمر الله باتّباعه. وقيل الباطل هو الشيطان ـ هاهنا ـ والحقّ هو القرآن، ويجوز أن يكون التقدير الأمر ذلك، وحذف الابتداء[3].

ثمّ قال تعالى: ﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ أي هؤلاء الّذين

---

(١) في الحجريّة: صدّقوا.

(٢ و٣) النكت والعيون ٥: ٢٩١ ـ ٢٩٢.

حكمنا بهلاكهم وضلالهم بمنزلة من دعاه الباطل فاتّبعه، والمؤمن بمنزلة من دعاه الحقّ من الله فاتّبعه ويكون التقدير يضرب الله للناس صفات أعمالهم بأن بيّنها وبيّن ما يستحقّ عليها من ثواب وعقاب.

ثمّ خاطب تعالى المؤمنين فقال: ﴿فإذا لقيتم﴾ معاشر المؤمنين ﴿الّذين كفروا﴾ بالله وجحدوا ربوبيّته من أهل دار الحرب ﴿فضرب الرقاب﴾ ومعناه: اضربوهم على الرقاب، وهي الأعناق ﴿حتّى إذا أثخنتموهم﴾ أي أثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم ﴿فشدّوا الوثاق﴾ ومعناه: أحكموا وثاقهم في الأمر. ثمّ قال: ﴿فإمّا منّاً بعد وإمّا فداء حتّى تضع الحرب أوزارها﴾ ومعناه: أثقالها.

وقوله: ﴿فإمّا منّاً بعد﴾ نصب على المصدر، والتقدير إمّا أن تمنّوا منّاً وإمّا أن تفدوا فداء. وقال قتادة وابن جريج: الآية منسوخة بقوله: ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ [١] وقوله: ﴿فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم﴾ [٢] وقال ابن عبّاس والضحّاك: الفداء منسوخ. وقال ابن عمر والحسن وعطا وعمر ابن عبد العزيز: ليست منسوخة. وقال الحسن: يكره أن يفادى بالمال، ويقال يفادي الرجل بالرجل. وقال قوم: ليست منسوخة، والإمام مخيّر بين الفداء والمنّ والقتل بدلالة الآيات الأُخر [٣]. ﴿حتّى تضع الحرب أوزارها﴾ أي أثقالها. وقال قتادة: حتّى لا يكون مشرك. وقال الحسن: إن شاء الإمام أن يستفد [٤] الأسير من المشركين، فله ذلك بالسنّة. والّذي رواه أصحابنا أنّ الأسير إن أُخذ قبل انقضاء الحرب والقتال

---

(١) التوبة: ٥.
(٢) الأنفال: ٥٨.
(٣) النكت والعيون ٥: ٢٩٤.
(٤) في الحجريّة: يستفتد.

بأن تكون الحرب قائمة والقتال باق، فالإمام مخيّر بين أن يقتلهم أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ويتركهم حتّى ينزفوا، وليس له المنّ ولا الفداء. وإن كان أُخذ بعد وضع الحرب أوزارها وانقضاء الحرب والقتال كان مخيّراً بين المنّ والمفاداة. إمّا بالمال أو النفس، وبين الاسترقاق، وضرب الرقاب، فإن أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وصار حكمه حكم المسلم.

وقوله: ﴿ذلك﴾ أي الّذي حكمنا به هو الحقّ الّذي يجب عليكم اتّباعه ﴿ولو يشاء الله لا نتصر منهم﴾ وأهلكهم بإنزال العذاب عليهم ﴿ولكن ليبلو بعضكم ببعض﴾ ويختبرهم ويتعبّدهم بقتالهم إن لم يؤمنوا.

ثمّ أخبر تعالى أنّ ﴿الّذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلّ أعمالهم﴾ قال قتادة: هم الّذين قتلوا يوم أُحد. ومن قرأ ﴿قاتلوا﴾ أراد قاتلوا سواء قُتلوا أو لم يقتلوا لن يهلك الله أعمالهم ولا يحكم بضلالهم وعدولهم عن الحقّ.

ثمّ قال: ﴿سيهديهم﴾ يعني إلى طريق الجنّة ﴿ويصلح بالهم﴾ أي شأنهم أو حالهم، وليس في ذلك تكرار البال، لأنّ المعنى يختلف، لأنّ المراد بالأوّل أنّه يصلح حالهم في الدين والدنيا وبالثاني يصلح حالهم في النعيم، فالأوّل سبب النعيم، والثاني نفس النعيم.

قوله تعالى:

وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] لمّا أخبر الله تعالى أنّه سيهدي المؤمنين إلى طريق الجنّة، ويصلح حالهم فيها، بيّن أنّه أيضاً ﴿يدخلهم الجنّة عرّفها لهم﴾ وقيل في معنى ﴿عرّفها لهم﴾ قولان:

أحدهما: بأنّه عرّفها لهم بأن وصفها على ما يشوّق إليها، ليعملوا بما يستوجبونها به من طاعة الله واجتناب معاصيه.

والثاني: ﴿عرّفها لهم﴾ بمعنى طيّبها بضروب الملاذّ، مشتقّاً من العرف، وهي الرائحة الطيّبة الّتي تتقبّلها النفس تقبل ما تعرفه ولا تنكره. وقال أبوسعيد الخدري وقتادة ومجاهد وابن زيد: معناه أنّهم يعرفون منازلهم فيها كما كانوا يعرفون منازلهم في الدنيا. وقال الحسن: وصف الجنّة في الدنيا لهم، فلمّا دخلوها عرفوها بصفتها[2].

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ بتوحيد الله وصدّقوا رسوله ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾ ومعناه: إن تنصروا دينه بالدعاء إليه، وأضافه إلى نفسه تعظيماً كما قال: ﴿من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾[3] وقيل: معناه ﴿تنصروا الله﴾ تدفعوا عن نبيّه ﴿ينصركم﴾ الله، أي يدفع عنكم أعداءكم في الدنيا عاجلاً، وعذاب النار آجلاً[4] ﴿ويثبّت أقدامكم﴾ في حال الحرب. قيل: ويثبّت أقدامكم يوم الحساب.

ثمّ قال: ﴿والّذين كفروا﴾ بنعم الله وجحدوا نبوّة نبيّه ﴿فتعساً لهم﴾ أي خزياً لهم وويلاً لهم، فالتعس الانحطاط والعثار عن منازل المؤمنين ﴿وأضلّ أعمالهم﴾ أي أهلكها وحكم عليها بالضلال. وإنّما كرّر قوله:

---

(١) من الحجريّة.
(٢ و٤) النكت والعيون ٥: ٢٩٤ ـ ٢٩٥.
(٣) البقرة: ٢٤٥، الحديد: ١١.

﴿وأضلّ أعمالهم﴾ و ﴿أحبط أعمالهم﴾ تأكيداً، ومبالغة في الزجر عن الكفر والمعاصي وكرّر ذكر النعيم إذا ذكر المؤمنين مبالغة في الترغيب في الطاعات. وإنّما عطف قوله: ﴿وأضلّ﴾ وهو «فعل» على قوله: ﴿فتعساً﴾ وهو اسم، لأنّ المعنى أتعسهم الله وأضلّ أعمالهم فلذلك حسن العطف.

ثمّ بيّن تعالى لِمَ فعل ذلك، فقال: فعلنا ﴿ذلك﴾ جزاء لهم على معاصيهم ﴿بأنّهم كرهوا ما أنزل الله﴾ من القرآن والأحكام وأمرهم بالانقياد لها، فخالفوا ذلك ﴿فأحبط أعمالهم﴾ من أجل ذلك أي حكم ببطلانها، لأنّها وقعت على خلاف الوجه المأمور به.

ثمّ نبّههم على الاستدلال على صحّة ما دعاهم إليه من توحيده وإخلاص العبادة له، فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم﴾ حين أرسل الله إليهم الرسل فدعوهم إلى توحيده وإخلاص العبادة له، فلم يقبلوا منهم وعصوهم وعملوا بخلافه، فأهلكهم الله جزاءً على ذلك ﴿ودمّر عليهم﴾ مثل ما فعل بعاد وثمود وقوم لوط وأشباههم. ثمّ قال: ﴿وللكافرين﴾ بك يا محمّد إن لم يقبلوا ما تدعوهم إليه ﴿أمثالها﴾ أي أمثال تلك العقوبات أي هم يستحقّون مثلها، وإنّما يؤخّر عذابهم تفضّلاً منه.

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ

بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَـٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾.

ستّ آيات بصري، وخمس في ما عداه، عدّ البصريون ﴿للشاربين﴾ ولم يعدّه الباقون.

قرأ ابن كثير ﴿أسن﴾ على وزن «فعل». الباقون على وزن «فاعل» ومعناهما واحد، لأنّ المعنى من ماء غير متغيّر.

لمّا أخبر الله تعالى أنّه أهلك الأُمم الماضية بكفرهم وأنّ للكافرين أمثالها بيّن أنّه لِمَ كان كذلك؟ فقال: ﴿ذلك﴾ أي الّذي فعلناه في الفريقين ﴿بأنّ الله مولى الّذين آمنوا﴾ ينصرهم ويدفع عنهم لأنّ الله مولى كلّ مؤمن ﴿وأن الكافرين لا مولى لهم﴾ ينصرهم من عذابه إذا نزل بهم ولا أحد يدفع عنهم لا عاجلاً ولا آجلاً.

ثمّ أخبر تعالى أنّه ﴿يدخل الّذين آمنوا﴾ بتوحيده وصدّقوا نبيّه ﴿وعملوا الصالحات﴾ مضافة إليها ﴿جنّات﴾ أي بساتين تجنّها الأشجار ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ وقيل: إنّ أنهار الجنّة في أخاديد من الأرض فلذلك قال من تحتها.

ثمّ قال: ﴿والّذين كفروا﴾ بتوحيده وكذّبوا رسله ﴿يتمتّعون﴾ في دار الدنيا ويلتذّون فيها ﴿ويأكلون﴾ المآكل فيها ﴿كما تأكل الأنعام﴾ أي مثل ما تأكل الأنعام والبهائم، لأنّهم لا يعتبرون ولا ينظرون ولا يفكّرون ولا يفعلون ما أوجبه الله عليهم، فهم بمنزلة البهائم. وقيل: إنّ المعنيّ بذلك

الإخبار عن خسّتهم في أكلهم بأنّهم يأكلون للشره والنهم، لأنّهم جهّال[١]. ثمّ قال: ﴿والنار مثوى لهم﴾ أي موضع مقامهم الّذي يقيمون فيه.

ثمّ قال لنبيّهﷺ مهدّداً لكفّار قومه: ﴿وكأيّن من قرية هي أشدّ قوّة من قريتك﴾ يعني مكّة ﴿الّتي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم﴾ الآن فما الّذي يؤمن هؤلاء أن يفعل بهم مثل ذلك. ومعنى ﴿وكأيّن﴾ «وكم» والأصل فيها ﴿أيّ﴾ قرية إلّا أنّها إذا لم تضف تؤنّث. ثمّ قال على وجه التهجين للكفّار والتوبيخ لهم: ﴿أفمن كان على بيّنة من ربّه﴾ أي حجّة واضحة. قال قتادة: يعني محمّداًﷺ. وقال قوم: يعني به المؤمنين الّذين عرفوا الله تعالى وأخلصوا العبادة[٢] ﴿كمن زيّن له سوء عمله﴾ من المعاصي زيّنها لهم الشيطان وأغواهم بها ﴿واتّبعوا أهواءهم﴾ أي شهواتهم في ذلك، وماتدعوهم إليه طباعهم.

ثمّ أخبر تعالى عن وصف الجنّة الّتي وعد المتّقين بها، فقال: ﴿مثل الجنّة﴾ أي وصف الجنّة ﴿الّتي وعد المتّقون﴾ بها ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ أي غير متغيّر لطول المُقام ﴿وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه﴾ لمثل ذلك ﴿وأنهار من خمر لذّة للشاربين﴾ يلتذّون بشربها ولا يتأذّون بها ولا بعاقبتها ﴿وأنهار من عسل مصفّى﴾ من كلّ أذى ﴿ولهم فيها من كلّ الثمرات ومغفرة من ربّهم﴾ تلحقهم أي لا يلحقهم في الجنّة توبيخ بشيء من معاصيهم، لأنّ الله قد تفضّل بسترها عليهم فصارت بمنزلة ما لم يعمل بإبطال حكمها.

وقوله: ﴿مثل الجنّة﴾ مرفوع بالابتداء، وخبره محذوف، وتقديره

---

(١) راجع الكشف والبيان ٩: ٣١.

(٢) النكت والعيون ٥: ٢٩٦.

ما يتلى عليكم مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون، ولو جعل المثل مقحماً جاء الخبر المذكور عن الجنّة كأنّه قيل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها كذا وفيها كذا.

وقوله: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ أي يتساوى من له نعيم الجنّة على ما وصفناه ومن هو في النار مؤبّدا!؟ ومع ذلك ﴿سقوا ماء حميماً﴾ أي حارّاً ﴿فقطّع أمعاءهم﴾ من حرارتها، ولم يقل أمّن هو في الجنّة لدلالة قوله: ﴿كمن هو خالد﴾ عليه. وقيل: معنى قوله: ﴿كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطّع أمعاءهم﴾ أي هل يكون صفتهما وحالهما سواء؟! ويتماثلان فيه؟! فإنّه لا يكون ذلك أبداً[١].

قوله تعالى:

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَـٰهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴿١٨﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] قرأ ابن كثير في إحدى الروايتين ﴿أنفا﴾ على وزن «فعل» الباقون ﴿آنفا﴾ بالمدّ على وزن «فاعل» قال أبو عليّ الفارسي: جعل

---

(١) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٣٠١.

(٢) من الحجريّة.

ابن‌كثير ذلك مثل «حاذر وحَذِر، وفاكه وفكه» والوجه الرواية الأُخرى[١].

حكى الله تعالى لنبيّه ﷺ أنّ من الكفّار من إذا جاء إلى النبيّ ﷺ واستمع لقراءة القرآن منه وسمع ما يؤدّيه إلى الحقّ من الوحي وما يدعوه إليه، فلا يصغي إليه ولا ينتفع به حتّى إذا خرج من عنده لم يدر ما سمعه ولا فهمه، ويسألون أهل العلم الّذين آتاهم الله العلم والفهم من المؤمنين ﴿ماذا قال آنفاً﴾ أي أيّ شيء قال الساعة؟ وقيل: معناه قريباً مبتدئاً[٢]. وقيل: إنّهم كانوا يتسمّعون للخطبة يوم الجمعة وهم المنافقون[٣] والآنف الجائي بأوّل المعنى ومنه الاستئناف، وهو استقبال الأمر بأوّل المعنى، ومنه الأنف لأنّه أوّل ما يبدو من صاحبه، ومنه الأنفة رفع النفس عن أوّل الدخول في الرتبة. وإنّما قال: ﴿ومنهم من يستمع إليك﴾ فردّه إلى لفظة «من» وهي موحّدة. ثمّ قال: ﴿حتّى إذا خرجوا﴾ بلفظ الجمع بردّه إلى المعنى، لأنّ «من» يقع على الواحد والجماعة.

ثمّ قال تعالى: ﴿أولئك الّذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي وسم قلوبهم وجعل عليها علامة تدلّ على أنّهم كفّار لا يؤمنون، وهو كالختم وأنّ صاحبه لا يؤمن فطبع الله على قلوب هؤلاء الكفّار ذمّاً لهم على كفرهم أي لكونهم عادلين عن الحقّ وأخبر أنّهم ﴿اتّبعوا﴾ في ذلك ﴿أهواءهم﴾ وهو شهوة نفوسهم وما مال إليه طبعهم دون ما قامت عليه الحجّة يقال: هوى يهوي هوى فهو هاو. واستهواه هذا الامر أي دعاه إلى الهوى.

ثمّ وصف تعالى المؤمنين فقال: ﴿والّذين اهتدوا﴾ إلى الحقّ، ووصلوا

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٤٠٤.

(٢) النكت والعيون ٥: ٢٩٨.

(٣) معاني القرآن ٣: ٦٠، تفسير السمرقندي ٣: ٣٠١.

إلى الهدى والإيمان ﴿زادهم هدى﴾ فالضمير في زادهم يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: زادهم الله هدى بما ينزل عليهم من الآيات والأحكام، فإذا أقرّوا بها وعرفوها زادت معارفهم.

الثاني: زادهم ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله هدى.

الثالث: زادهم استهزاء المنافقين إيماناً[١].

والوجه في إضافة الزيادة في الهدى إلى الله هو ما يفعله تعالى بهم من الألطاف الّتي تقوّي دواعيهم إلى التمسّك بما عرفوه من الحقّ وتصْرفهم عن العدول إلى خلافه. ويكون ذلك تأكيداً لما عملوه من الحقّ وصارفاً لهم عن تقليد الرؤساء من غير حجّة ولا دلالة. ثمّ قال: ﴿وآتاهم﴾ على زيادة الهدى ﴿تقواهم﴾ أي خوفاً من الله من معاصيه ومن ترك مفترضاته بما فعل بهم من الألطاف في ذلك. وقيل معناه: ﴿آتاهم﴾ ثواب ﴿تقواهم﴾[٢] ولا يجوز أن يكون المراد خلق لهم تقواهم لأنّه يبطل أن يكون فعلهم.

ثمّ قال: ﴿فهل ينظرون إلّا الساعة﴾ أي ليس ينتظرون إلّا القيامة ﴿أن تأتيهم بغتة﴾ أي فجأة، فقوله: ﴿أن تأتيهم﴾ بدل من الساعة، وتقديره إلّا الساعة إتيانها بغتة، فإن حذف الساعة كان التقدير هل ينظرون إلّا إتيانهم الساعة بغتة. ثمّ قال تعالى: ﴿فقد جاء أشراطها﴾ أي علاماتها. وقيل: منها انشقاق القمر في وقت النبيّ صلى الله عليه وآله ومنها مجيء محمّد صلى الله عليه وآله بالآيات لأنّه آخر الأنبياء[٣]، فالأشراط العلامات واحدها شرط، قال جرير:

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٠.

(٢ و٣) النكت والعيون ٥: ٢٩٨ ـ ٢٩٩، معاني القرآن ٣: ٦١.

ترى شَرَطَ المِعْزَى مهور نسائهم ... وفي شَرَط المعزى لهنّ مهور[١]

وأشرط فلان لنفسه إذا علمها بعلامة، وقال أوس بن حجر:

فأشرط فيها نفسه وهو مقصم ... وألقى بأسباب له وتوكّلا[٢]

والفاء في قوله ﴿فقد جاء أشراطها﴾ عطف جملة على جملة فيها معنى الجزاء، والتقدير إن تأتهم بغتة، فقد جاء أشراطها. وقد قرئ شاذّاً عن أبي‌عمرو ﴿إلّا إن﴾ والقراءة بفتح (أن) وقال المبرّد: هذا لا يجوز لأنّه تعالى أخبر أنّه لا تأتي الساعة إلّا بغتة، فكيف تعلّق بشرط. وقال تعالى: ﴿فأنّى لهم﴾ أي من أين لهم ﴿إذا جاءتهم﴾ يعني الساعة ﴿ذكراهم﴾ أي ما يذكّرهم أعمالهم من خير أو شرّ، فإنّه لا ينفعهم في ذلك الوقت الإيمان والطاعات لزوال التكليف عنهم.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله والمراد به جميع المكلّفين: ﴿فاعلم﴾ يا محمّد ﴿أنّه لا إله إلّا الله﴾ أي لا معبود يحقّ له العبادة إلّا الله. وفي ذلك دلالة على أنّ المعرفة بالله اكتساب، لأنّها لو كانت ضرورية، لما أمر بها ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ فالخطاب له والمراد به الأُمّة لأنّه صلى الله عليه وآله لا ذنب له يستغفر منه، ويجوز أن يكون ذلك على وجه الانقطاع إليه تعالى.

ثمّ قال ﴿والله يعلم متقلّبكم ومثواكم﴾ أي الموضع الّذي تتقلّبون فيه وكيف تتقلّبون وموضع استقراركم، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم طاعة كانت أو معصية. وقيل: يعلم متقلّبكم في أسفاركم ومثواكم في أوطانكم، وقيل: متقلّبكم في أعمالكم ومثواكم في نومكم[٣].

ثمّ قال تعالى حكاية عن المؤمنين أنّهم كانوا يقولون: ﴿لولا نزّلت

---

(١) ديوان جرير: ٢٠٣ مع اختلاف.
(٢) ديوان أوس بن حجر: ٨٧.
(٣) النكت والعيون ٥: ٣٠٠.

سورة﴾ أي هلّا نزّلت سورة لأنّهم كانوا يأنسون بنزول الوحي ويستوحشون من إبطائه فقال الله تعالى حاكياً عن حالهم عند نزول السورة فقال: و﴿إذا أُنزلت سورة محكمة﴾ أي ليس فيها متشابه ولا تأويل ﴿وذكر فيها القتال﴾ أي أوجب عليهم القتال ﴿رأيت الّذين في قلوبهم مرض﴾ أي نفاق وشكّ ﴿ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت﴾ لثقل ذلك عليهم وعظمه في نفوسهم ﴿فأولى لهم﴾ قال قتادة: هو وعيد وكأنّه قال العقاب أولى بهم، وهو ما يقتضيه قبح أحوالهم. وروي عن ابن عبّاس أنّه قال: قال الله تعالى ﴿فأولى﴾ ثمّ استأنف فقال: ﴿لهم طاعة وقول معروف﴾ يعني للمؤمنين فصارت أولى للّذين في قلوبهم مرض. وقيل: المعنى: ﴿أولى لهم طاعة وقول معروف﴾ من أن يجزعوا عن فرض الجهاد عليهم. وقال الجُبّائي: معنى الكلام ينظرون إليك نظر المغشّى عليه من الموت فأولى لهم أن يعاقبوا ﴿فلو صدقوا الله﴾ في ما أمرهم به ﴿لكان خيراً لهم﴾ ودخل بين الكلامين ﴿طاعة وقول معروف﴾ وليس من قصّته وإنّما هي من صفة المؤمن يأمره الله أن يطيعه، ويقول له قولا معروفاً. وقرأ ابن مسعود ﴿سورة محدثة﴾ وهو شاذّ.

قوله تعالى:

طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][(١)] قرأ أبو عمرو ﴿وأُملي لهم﴾ على ما لم يسمّ فاعله. الباقون ﴿وأملى لهم﴾ بمعنى الشيطان أملى لهم، ويجوز أن يريد أنّ الله أملى لهم كما قال: ﴿إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم﴾[(٢)] وقرأ يعقوب مثل أبي عمرو إلّا أنّه أسكن الياء بمعنى الإخبار عن الله عن نفسه وأبو عمرو جعله لما لم يسمّ فاعله. وقرأ رويس ﴿تولّيتم﴾ بضمّ التاء والواو وكسر اللام. الباقون بفتحهما. وقوله: ﴿طاعة وقول معروف﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قولوا أمرنا طاعة وقول معروف. قال مجاهد: أمر الله بذلك المنافقين. وقيل: هو حكاية عنهم أنّهم يقولون: «طاعة وقول معروف» مثل فرض الجهاد، لأنّه يقتضيه قوله: ﴿فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم﴾.

الثاني: طاعة وقول معروف أمثل أي أولى بالحقّ من أقوال هؤلاء المنافقين. وقيل: طاعة وقول معروف خير لهم من جزعهم عند نزول فرض الجهاد، ذكره الحسن[(٣)]. والطاعة موافقه الإرادة الداعية إلى الفعل بطريق الترغيب فيه. والقول المعروف هو القول الحسن، وسمّي بذلك لأنّه معروف صحّته، وكذلك الأمر بالمعروف أي المعروف أنّه حقّ. والباطل منكر، لأنّه تنكر صحّته، فعلى هذا المعنى وقع الاعتراف والإنكار.

وقوله: ﴿فإذا عزم الأمر﴾ معناه: إذا انعقد الأمر بالإرادة أنّه يفعله فإذا عقد على أنّه يفعل قيل عزم الأمر على طريق البلاغة. وقيل معنى عزم أي جدّ الأمر[(٤)] ﴿فلو صدقوا الله﴾ يعني في ما أمرهم به من القتال وامتثلوا أمره ﴿لكان خيراً لهم﴾ لأنّهم كانوا يصلون إلى نعيم الأبد.

---

(١) من الحجريّة. (٢) آل عمران: ١٧٨.

(٣) راجع النكت والعيون ٥: ٣٠١، تفسير الطبري ١١: ٣١٩.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٣.

ثمّ خاطبهم فقال: ﴿فهل عسيتم﴾ يا معشر المنافقين ﴿إن تولّيتم﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: ﴿إن تولّيتم﴾ الأحكام وجعلتم ولاة ﴿أن تفسدوا﴾ في الأرض بأخذ الرشا. وقيل: معناه: إن أعرضتم عن كتاب الله أن تعودوا إلى ما كنتم من أمر الجاهليّة أن يقتل بعضكم بعضاً كما كنتم تفعلونه.

والثاني: إن تولّيتم الأمر أن يقطع بعضكم رحم بعض، ويقتل بعضكم بعضاً كما قتلت قريش بني هاشم، وقتل بعضهم بعضاً. وقيل: المعنى: إن أعرضتم عن كتاب الله والعمل بما فيه من وجوب القتال ﴿أن تفسدوا في الأرض﴾ بأن تعملوا فيها بالمعاصي ﴿وتقطّعوا أرحامكم﴾ فلا تصلونها، فإنّ الله تعالى يعاقبكم عليه بعذاب الأبد ويلعنكم[١].

ثمّ قال: ﴿أولئك الّذين لعنهم الله﴾ أي: أبعدهم الله عن رحمته ﴿فأصمّهم وأعمى أبصارهم﴾ أي سمّاهم عمياً وصمّاً، وحكم عليهم بذلك، لأنّهم بمنزلة الصمّ والعمي من حيث لم يهتدوا إلى الحقّ ولا أبصروا الرشد، ولم يُرد الإصمام في الجارحة والإعماء في العين، لأنّهم كانوا بخلافه صحيحي العين صحيحي السمع.

ثمّ قال موبّخاً لهم: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ معناه: أفلا يتدبّرون القرآن بأن يتفكّروا فيه ويعتبروا به أم على قلوبهم قفل يمنعهم من ذلك تنبيهاً لهم على أنّ الأمر بخلافه. وليس عليها ما يمنع من التدبّر والتفكّر والتدبّر في النظر في موجب الأمر وعاقبته، وعلى هذا دعاهم إلى تدبّر القرآن.

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٣٢٠، النكت والعيون ٥: ٣٠١.

وفي ذلك حجّة على بطلان قول من يقول لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلّا بخبر وسمع.

وفيه تنبيه على بطلان قول الجهّال من أصحاب الحديث أنّه ينبغي أن يروى الحديث على ما جاء وإن كان مختلّاً في المعنى، لأنّ الله تعالى دعا إلى التدبّر والتفقّه، وذلك مناف للتجاهل والتعامي.

ثمّ قال: ﴿إن الّذين ارتدّوا على أدبارهم﴾ أي رجعوا عن الحقّ والإيمان ﴿من بعد ما تبيّن لهم الهدى﴾ أي ظهر لهم الطريق الواضح المفضي إلى الجنّة. وليس في ذلك ما يدلّ على أنّ المؤمن على الحقيقة يجوز أن يرتدّ، لأنّه لا يمتنع أن يكون المراد من رجع عن إظهار الإيمان بعد وضوح الأمر فيه وقيام الحجّة بصحّته. ثمّ قال: ﴿الشيطان سوّل لهم﴾ أي زيّن لهم ذلك. وقيل: معناه أعطاهم سؤلهم من خطاياهم[1] ﴿وأملى لهم﴾ أي أمهلهم الشيطان، وأملى لهم بالإطماع والاغترار.

وقيل: المعنى وأملى الله لهم أي أخّرهم فاغترّوا بذلك[2]. ومن قرأ على ما لم يسمّ فاعله احتمل الأمرين أيضاً.

وقيل: الآية نزلت في اليهود، لأنّهم عرفوا صفات النبيّ ﷺ في التوراة فلمّا جاءهم كفروا به. وقيل: نزلت في المنافقين حين صدّوا عن القتال معه من بعد ما علموا وجوبه في القرآن[3].

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾

---

(١ و٣) النكت والعيون ٥: ٣٠٣ و٣٠٢. (٢) معاني القرآن ٣: ٦٣.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:](١) قرأ أهل الكوفة إلّا أبا بكر ﴿إسرارهم﴾ بكسر الهمزة على أنّه مصدر. الباقون بفتحها على أنّه جمع سرّ.

لمّا أخبر الله تعالى عن حال المرتدّين على أعقابهم والراجعين عن إظهار الحقّ خلافه، بيّن لم فعلوا ذلك، فقال: ﴿ذلك بأنّهم﴾ يعني الشياطين ﴿قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله﴾ من القرآن وما أمرهم به من الأمر والنهي والحلال والحرام وشبّهوا عليهم ذلك ومالوا إلى خلافه. وقيل: هذا قول اليهود للمنافقين: ﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي نفعل بعض ما تريدونه من الميل إليكم وإعطاء شهواتكم(٢).

ثمّ قال: ﴿والله يعلم اسرارهم﴾ أي بواطنهم فمن فتح الهمزة. ومن كسرها أراد يعلم ما يسرّونه. ثمّ قال: ﴿فكيف إذا توفّتهم الملائكة﴾ والمعنى: كيف حالهم إذا توفّتهم الملائكة، وحذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم ﴿يضربون وجوههم وأدبارهم﴾ على وجه العقوبة لهم في القبر ويوم القيامة.

ثمّ بيّن تعالى لم يفعل الملائكة بهم ذلك، فقال: ﴿ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله﴾ يعني المعاصي الّتي يكرهها الله ويعاقب عليها ﴿وكرهوا رضوانه﴾ أي كرهوا سبب رضوانه من الإيمان والطاعات والامتناع من القبائح ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي: حكم بأنّها باطلة محبَطة لا يستحقّ عليها الثواب.

---

(١) من الحجريّة.

(٢) راجع النكت والعيون ٥: ٣٠٣.

ثمّ قال: ﴿أم حسب الّذين في قلوبهم مرض﴾ أي نفاق وشكّ يظنّون ﴿أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ أي أحقادهم مع المؤمنين ولا يظهرها ولا يبدي عوراتهم للنبيّ صلى الله عليه وآله.

﴿ولو نشاء لأريناكهم﴾ يعني المنافقين بأعيانهم، ولو شئت لعرّفتكهم حتّى تعرفهم. ثمّ قال: ﴿فلعرفتهم بسيماهم﴾ أي بعلاماتهم الّتي نصبها الله لكم، يعرّفهم بها يعني الأمارات الدالّة على سوء نيّاتهم. ثمّ قال: ﴿ولتعرفنّهم في لحن القول﴾ أي في فحوى أقوالهم ومتضمّنها. ومنه قوله صلى الله عليه وآله: «ولعلّ بعضكم ألحن بحجّته»[1] أي أذهب بها في الجهات لقوّته على تصريف الكلام. و«اللحن» الذهاب عن الصواب في الإعراب، و«اللحن» ذهاب الكلام إلى خلاف جهته. ثمّ قال: ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ الطاعات منها والمعاصي، فيجازيكم بحسبها.

قوله تعالى:

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][2] قرأ أبو بكر عن عاصم ﴿وليبلونّكم حتّى يعلم... ويبلو أخباركم﴾ بالياء فيهنّ ردّاً على اسم الله في قوله: ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ الباقون بالنون على وجه الإخبار من الله عن نفسه. وقرأ حمزة وأبو بكر

---

(١) معاني الأخبار: ٣٩١.

(٢) من الحجريّة.

عن عاصم ﴿إلى السلم﴾ بكسر السين. الباقون بفتحها، وهما لغتان على ما بيّناه في ما تقدّم في الإسلام والمصالحة[١].

يقول الله تعالى مقسماً: إنّا نبلو هؤلاء الكفّار، ومعناه نختبرهم بما نكلّفهم من الأُمور الشاقّة، فالابتلاء والاختبار واحد. وقوله: ﴿حتّى نعلم المجاهدين منكم﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: حتّى نعلم جهادكم موجوداً لأنّ الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك، لأنّكم لا تستحقّون الثواب على ما يعلم الله أنّه يكون.

الثاني: حتّى نعاملكم معاملة من كأنّه يطلب أن يعلم.

وقيل: معناه حتّى يعلم أوليائي المجاهدين منكم[٢]، وأضافه إلى نفسه تعظيماً لهم وتشريفاً، كما قال:﴿إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله﴾[٣] يعني يؤذن أولياء الله. وقيل: معناه حتّى يتميّز المعلوم في نفسه، لأنّهم إنّما يتميّزون بفعل الإيمان[٤]. وقيل: المعنى حتّى تعلموا أنتم، وأضافه إلى نفسه تحسّناً كما أنّ الإنسان العالم إذا خولف في أنّ النار تحرق الحطب يحسن أن يقول: نجمع بين النار والحطب لنعلم هل تحرق أم لا، ولا يجوز أن يكون المراد حتّى نعلم بعد أن لم نكن عالمين، لأنّه تعالى عالم في ما لم يزل بالأشياء كلّها، ولو تجدّد كونه عالماً لاحتاج إلى علم محدث كالواحد منّا، وذلك لا يجوز أن يكون غرضاً بالتكليف، لكن يجوز أن يكون الغرض ظهور حقّ الذمّ على الإساءة[٥] وإنّما جاز في وصف الله الابتلاء، لأنّ

---

(١) انظر ٣: ٢٨٢. (٢) تفسير الطبري ١١: ٣٢٥. (٣) الأحزاب: ٥٧.

(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٣٠٥، مجاز القرآن ٢: ٢١٥.

(٥) راجع معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٦.

المعنى أنّه يعامل معاملة المبتلي المختبر مظاهرة في العدل بالجزاء لها. والجهاد احتمال المشقّة في قتال المشركين وأعداء دين الله. وأفضل الأعمال علم الدين والجهاد في سبيل الله، لأنّ علم الدين به يصحّ العمل بالحقّ والدعاء إليه والجهاد داع إلى الحقّ مع المشقّة فيه. والصابر هو الحابس نفسه عمّا لا يحلّ له، وهي صفة مدح. ومع ذلك ففيها دليل على حاجة الموصوف بها، لأنّه إنّما يحبس نفسه ويمنعها ممّا تشتهيه أو تنازع إليه من القبيح ﴿ونبلو أخباركم﴾ أي نختبر أخباركم ونعلم المطيع من العاصي.

ثمّ أخبر تعالى ﴿إنّ الّذين كفروا﴾ بوحدانيّته وجحدوا نبوّة نبيّه ﴿وصدّوا﴾ أي منعوا غيرهم ﴿عن﴾ اتّباع «سبيل الله» بالقهر تارة وبالإغراء أُخرى ﴿وشاقّوا الرسول﴾ أي عاندوه وباعدوه بمعاداته ﴿من بعدما تبيّن لهم الهدى﴾ ووضح لهم سبيله ﴿لن يضرّوا الله﴾ بذلك ﴿شيئاً﴾ وإنّما ضرّوا نفوسهم [﴿وسيحبط أعمالهم﴾ ويستحقّون][1] عليها العقاب. و«الهدى» الدلالة المؤدّية إلى الحقّ. و«الهادي» الدالّ على الحقّ.

وفي الآية دلالة على أنّ هؤلاء الكفّار كان قد تبيّن لهم الهدى فارتدّوا عنه أو يكون ظهر لهم أمر النبيّ، فلم يقبلوه. وقيل: تبيّن لهم الهدى، لأنّهم كانوا قد عرفوا الإيمان ورجعوا عنه[2].

ثمّ خاطب المؤمنين فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ بالله وصدّقوا رسوله ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي افعلوا الطاعات الّتي أمركم الله بها وأمركم بها رسوله ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ بأن توقعوها على خلاف الوجه المأمور به فيبطل ثوابكم عليها وتستحقّون العقاب.

---

(١) في الحجريّة: لأنّه حبطت أعمالهم واستحقّوا.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٢٥.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿إنّ الّذين كفروا﴾ أي جحدوا وحدانيّة الله وكذّبوا رسوله ﴿وصدّوا عن سبيل الله﴾ بالمنع والإغراء والدعاء إلى غيره ﴿ثمّ ماتوا وهم كفّار﴾ أي في حال كفرهم ﴿فلن يغفر الله لهم﴾ معاصيهم بل يعاقبهم عليها. ثمّ قال: ﴿فلا تهنوا﴾ أي لا تتوانوا. وقال مجاهد وابن زيد: لا تضعفوا ﴿وتدعوا إلى السلم﴾ يعني المصالحة ﴿وأنتم الأعلون﴾ أي وأنتم القاهرون الغالبون، في قول مجاهد. ﴿والله معكم﴾ أي ناصركم والدافع عنكم فلا تميلوا مع ذلك إلى الصلح والمسالمة بل جاهدوا واصبروا عليه. وقوله: ﴿ولن يتركم أعمالكم﴾ أي لن ينقصكم أُجور أعمالكم، يقال: وتره يتره وتراً إذا نقصه. وهو قول مجاهد. وقال ابن عبّاس وقتادة وابن زيد والضحّاك: لن يظلمكم وأصله القطع، فمنه الترة القطع بالقتل. ومنه الوتر المنقطع بانفراده عن غيره. وقوله: ﴿وتدعوا﴾ يجوز أن يكون جزماً عطفاً على ﴿تهنوا﴾ أي لا تهنوا ولا تدعوا إلى السلم، ويجوز أن يكون في موضع نصب على الظرف[1].

قوله تعالى:

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

(١) في الحجريّة: الصرف.

[أقول:][1] يقول الله تعالى مزهّداً لخلقه في الانعكاف على الدنيا، ومرغّباً لهم في التوفّر على عمل الآخرة ﴿إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ وإنّما زهّدهم في الدنيا لكونها فانية ورغّبهم في الآخرة لكونها باقية، فمن اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً ومنقوصاً. ومعنى ﴿الحياة الدنيا لعب ولهو﴾ أي: ذات لعب ولهو، لأنّ غالب أمر الناس في الدنيا اللعب واللهو، وذلك عبث وغرور وانصراف عن الحدّ الّذي يدوم به السرور والحبور. وقيل: شبّهت باللعب واللهو لانقطاعها عن صاحبها بسرعة، فالتقدير على هذا إنّما الحياة الدنيا كاللعب واللهو في سرعة الانقضاء، والآخرة كالحقيقة في اللزوم والامتداد، فإحداهما كالحقيقة، والأُخرى كالمخرّقة. ثمّ قال: ﴿وإن تؤمنوا﴾ بوحدانيّته وتصديق رسوله ﴿وتتّقوا﴾ معاصيه ﴿يؤتكم أُجوركم﴾ على ذلك وثوابكم على طاعتكم ﴿ولا يسألكم أموالكم﴾ أن تدفعوها إليه. وقيل: ﴿لا يسألكم أموالكم﴾ كلّها وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم. وقيل: المعنى ﴿لا يسألكم أموالكم﴾ بل أمواله، لأنّه تعالى مالكها والمنعم بها[2].

ثمّ بيّن تعالى لِمَ لا يسألهم أموالهم، فقال: ﴿إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾ فالإحفاء الإلحاح في المسألة حتّى ينتهى إلى مثل الحفاء، والمشي بغير حذاء، أحفاه بالمسألة يحفيه إحفاء. وقيل: «الإحفاء» طلب الجميع[3] ﴿تبخلوا﴾ أي تمنعونه. والبخل قال قوم: هومنع الواجب[4]. وقال الرمّاني: البخل منع النفع الّذي هو أولى في العقل، قال: ومن زعم أنّ

---

(١) من الحجريّة.
(٢) النكت والعيون ٥: ٣٠٦.
(٣) النكت والعيون ٥: ٣٠٧.
(٤) تفسير الطبري ١١: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

البخل منع الواجب عورض بأنّ البخل منع ما يستحقّ بمنعه الذمّ، لأنّ البخيل مذموم بلا خلاف، وقد يمنع الواجب الصغير فلا يجوز وصفه بأنّه بخيل ﴿ويخرج أضغانكم﴾ لأنّ في سؤال الأموال بالإحفاء خروج الأضغان وهي الأحقاد الّتي في القلوب والعداوات الباطنة. وقيل: «الأضغان» هي المشاقّ الّتي في القلوب، ولذلك ذكر الإخراج. وقيل: ويخرج الله المشقّة الّتي في قلوبكم بسؤال أموالكم[١]. وإنّما قدّم المخاطب على الغائب في قوله: ﴿أن يسألكموها﴾ لأنّه ابتدأ بالأقرب مع أنّه المفعول الأوّل، ويجوز مع الظاهر أن يسألها جماعتكم، لأنّه غائب مع غائب، فالمتّصل أولى بأن يليه من المنفصل.

ثمّ قال: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ وإنّما كرّر التنبيه في موضعين للتوكيد، فقال: ﴿ها أنتم هؤلاء﴾ وقيل: «ها» للتقريب، ودخل على المضمر لمشاكلة المبهم في أنّه معرفة تصلح صيغته لكلّ مكنّى عنه على جهة جماعة المخاطب، كما يصلح «هؤلاء» لكلّ خاصّ مشار إليه، ولم يجز مع الظاهر لبعده من المبهم. وقال بعضهم: العرب إذا أرادت التقريب جعلت المكنّى بين «ها» وبين «ذا» فيقولون ها أنت ذا قائماً، لأنّ التقريب جواب الكلام فربّما أعادت «ها» مع «ذا» وربّما اجتزأت بالأُولى وحذفت الثانية، ولا يقدمون «أنتم» على «ها» لأنّ «ها» جواب، فلا يقرب بها بعد الكلمة[٢]. وقوله: ﴿تدعون لتنفقوا في سبيل الله﴾ لينيلكم الجزيل من ثوابه وهو غنيّ عنكم وعن جميع خلقه ﴿فمنكم من يبخل﴾ فلا ينفق ماله في سبيل الله. ثمّ قال: ﴿ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه﴾ أي عن داعي نفسه، لا عن داعي ربّه لأنّ

---

(١ و٢) تفسير الطبري ١١: ٣٢٨ ـ ٣٢٩.

الله قد صرفه عن البخل بالنهي عنه والذمّ له. ثمّ قال: ﴿والله الغنيّ﴾ الّذي ليس بمحتاج لا إليكم ولا إلى أحد ﴿وأنتم الفقراء إليه وإن تتولّوا﴾ أي إن تعرضوا عن أمره ونهيه ولا تقبلونهما، ولا تعملون بما فيهما ﴿يستبدل قوماً غيركم﴾ قال قوم: يستبدل الله بهم من في المعلوم أنّهم يخلقون بعد(١) ويجوز أن يكونوا من الملائكة. وقيل: هم قوم من اليمن، وهم الأنصار. وقيل: مثل سلمان وأشباهه من أبناء فارس(٢). ولم يجز الزجّاج أن يستبدل الملائكة، لأنّه لا يعبّر بالقوم عن الملائكة(٣). ﴿لا يكونوا أمثالكم﴾ لأنّهم يكونون مؤمنين مطيعين، وأنتم كفّار عاصون. وقال الطبري: لا يكونوا أمثالكم في البخل والإنفاق في سبيل الله(٤) ولمّا نزلت هذه الآية فرح النبيّ ﷺ وقال: هي أحبّ إليّ من الدنيا(٥).

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٣٢٩.
(٢) النكت والعيون ٥: ٣٠٧.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٧.
(٤) تفسير الطبري ١١: ٣٢٩.
(٥) النكت والعيون ٥: ٣٠٨.

# سورة الفتح

مدنيّة بلا خلاف، وهي تسع وعشرون آية بلا خلاف.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا (١) لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا (٢) وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا (٣) هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا (٤) لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا (٥) خمس آيات.

[أقول:][1] يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ قال البلخي: الفتح يكون في القتال وبالصلح، وبإقامة الحجج، ويكون المعنى ﴿إنّا فتحنا لك﴾ بحجج الله وآياته ﴿فتحاً مبيناً﴾ لينصرك الله بذلك على من ناواك. وقال قتادة: نزلت هذه الآية عند رجوع النبيّ صلى الله عليه وآله من الحديبية، بشّر[2] في ذلك الوقت بفتح مكّة، وتقديره ﴿إنّا فتحنا لك﴾ مكّة. وقال

(١) من الحجريّة.

(٢) في الحجريّة: فرجع النبيّ صلى الله عليه وآله من الحديبيّة وبشّر.

البلخي عن الشعبي في وقت الحديبية بويع النبيّ ﷺ بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وبلغ الهدي محلّه. والحديبية بئر، فروي أنّها غارت فمجّ النبيّ ﷺ فيها فظهر ماؤها حتّى امتلأت به. وقال قَتادة: معنى ﴿فتحنا﴾ قضينا لك بالنصر. وقيل: معناه أعلمناك علماً ظاهراً في ما أنزلناه عليك من القرآن وأخبرناك به من الدين، وسمّي العلم فتحاً، كما قال: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ [1] أي علم الغيب. وقال: ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح﴾ [2] وقال الزجّاج: معناه أرشدناك إلى الإسلام، وفتحنا لك الدين [3] بدلالة قوله: ﴿ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ [4] وقال مجاهد: ﴿فتحنا لك فتحاً مبينا﴾ يعني: نحره بالحديبية وحلقه. وقال قتادة: معناه: قضينا لك قضاءً بيّناً. وفي الحديبية مضمض رسول الله ﷺ في البئر وقد غارت فجاشت بالرواء. والفتح هو القضاء من قولهم: اللّهمّ افتح لي. وقوله تعالى: ﴿ربّنا افتح بيننا وبين قومنا بالحقّ وأنت خير الفاتحين﴾ [5] و«الفتح» الفرج المزيل للهمّ. ومنه فتح المسألة إذا انفرجت عن بيان ما يؤدّي إلى المطلوب، ومنه فتح عليه القراءة، لأنّه متعلّق بالسهو، وينفتح بالذكر والفتح المبين هو الظاهر، وكذلك جرى فتح مكّة.

وقوله: ﴿ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر﴾ قيل: جعل غفرانه جزاء عن ثوابه على جهاده في فتح مكّة. وقيل في معناه أقوال:

أحدها: ما تقدّم من معاصيك قبل النبوّة وما تأخّر عنها.

---

(١) الأنعام: ٥٩. (٢) النكت والعيون ٥: ٣٠٩.
(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ١٩. (٤) الأحزاب: ٧٣. (٥) الأعراف: ٨٩.

الثاني: ما تقدّم قبل الفتح وما تأخّر بعده.

الثالث: ما قد وقع منك وما لم يقع على طريق الوعد بأنّه يغفره له إذا كان[١].

الرابع: ما تقدّم من ذنب أبيك آدم، وما تأخّر عنه[٢].

وهذه الوجوه كلّها لا تجوز عندنا، لأنّ الأنبياءعليهم السلام لا يجوز عليهم فعل شيء من القبيح لا قبل النبوّة ولا بعدها، لا صغيرها ولا كبيرها، فلا يمكن حمل الآية على شيء ممّا قالوه، ولا صرفها إلى آدم لأنّ الكلام فيه كالكلام في نبيّنا محمّدصلى الله عليه وآله. ومن حمل الآية على الصغائر الّتي تقع محبَطة فقوله فاسد، لأنّا قد بيّنّا أنّ شيئاً من القبائح لا يجوز عليهم بحال. على أنّ الصغائر تقع مكفَّرة محبَطة لا يثبت عقابها، فكيف يمتنّ الله تعالى على النبيّصلى الله عليه وآله أنّه يغفرها له وهو تعالى لو آخذه بها لكان ظالماً وإنّما يصحّ التمدّح بما له المؤاخذة أو العفو عنه، فإذا غفر استحقّ بذلك الشكر. وللآية وجهان من التأويل:

أحدهما: ليغفر لك ما تقدّم من ذنب أُمّتك، وما تأخّر بشفاعتك ولمكانك. وأضاف الذنب إلى النبيّ وأراد به أُمّته، كما قال: ﴿واسأل القرية﴾[٣] يريد أهل القرية فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه وذلك جائز لقيام الدلالة عليه، كما قال: ﴿وجاء ربّك﴾[٤] والمراد وجاء أمر ربّك.

الثاني: أراد يغفر ما أذنبه قومك إليك من صدّهم لك عن الدخول إلى مكّة في سنة الحديبية، فأزال الله ذلك وستر عليك تلك الوصمة بما فتح

(١) النكت والعيون ٥: ٣١٠.
(٢) الكشف والبيان ٩: ٤٢.
(٣) يونس: ٨٢.
(٤) الفجر: ٢٢.

عليك من مكّة ودخلتها في ما بعد، ولذلك جعله جزاءً على جهاده في الدخول إلى مكّة. والذنب مصدر تارة يضاف إلى الفاعل وتارة إلى المفعول، فيكون ـ هاهنا ـ مضافاً إلى المفعول. والذنب وإن كان غير متعدٍّ إلى مفعول جاز أن يحمل على المصدر الّذي هو في معناه، والصدّ متعدٍّ كما قال الشاعر:

جئني بمثل بني بدر لقومهم أو مثلَ أُسرة منظور بن سيّار[١]

لمّا كان معنى «جئني» هات أعطني عطف «أو مثل» على المعنى فنصبه، ومثله كثير في اللغة.

وقوله: ﴿ويتمّ نعمته عليك﴾ فإتمام النعمة فعل ما يقتضيها من تبقيتها على صاحبها والزيادة منها، فالله تعالى قد أنعم على النبيّ صلى الله عليه وآله وتمّمها بنصره على أعدائه الرادّين لها المكذّبين بها حتّى علا بالحجّة والقهر لكلّ من ناواه. وقيل يتمّ نعمته عليك بفتح مكّة وخيبر والطائف. وقيل بخضوع من تكبّر وطاعة من تجبّر[٢].

وقوله: ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ أي يرشدك إلى الطريق الّذي إذا سلكته أدّاك إلى الجنّة، لا يعدل بك إلى غيرها ﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ فالنصر العزيز هو الّذي يمنع من كلّ جبّار عنيد وعات أثيم. وقد فعل الله تعالى ذلك بنبيّه محمّد صلى الله عليه وآله فصار دينه أعزّ الأديان وسلطانه أعظم السلطان.

وقوله: ﴿هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ وهو ما يفعل الله تعالى بهم من اللطف الّذي يحصل لهم عنده بصيرة بالحقّ تسكن إليها نفوسهم ويجدون الثقة بها بكثرة ما ينصب الله لهم من الأدلّة الدالّة على

(١) ديوان جرير: ٢٤٢. قد مرّ في ٥: ٢٤٦.

(٢) النكت والعيون ٥: ٣١٠.

الحقّ فهذه النعمة التامّة للمؤمنين خاصّة. فأمّا غيرهم فتضطرب نفوسهم لأوّل عارض من شبهة ترد عليهم، لأنّهم لا يجدون برد اليقين في قلوبهم. وقيل: السكينة ما تسكن إليه قلوبهم من التعظيم لله ورسوله والوفاء له[١].

وقوله: ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾ أي ليزدادوا معارف أُخر بما أوجب الله عليهم زيادة على المعرفة الحاصلة، فبيّن الله تعالى ما لنبيّه عنده وللمؤمنين ليزدادوا ثقة بوعده. وقوله: ﴿ولله جنود السماوات والأرض﴾ قيل: معناه أنصار دينه ينتقم بهم من أعدائه[٢]. وقيل: معناه إنّ جميع الجنود عبيده ﴿وكان الله عليماً﴾ بالأشياء قبل كونها وعالماً بعد كونها ﴿حكيماً﴾ في أفعاله لأنّها كلّها محكمة وصواب.

وقوله: ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار﴾ إنّما لم يدخل واو العطف في ﴿ليدخل﴾ إعلاماً بالتفصيل، كأنّه قال إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله، إنّا فتحنا لك فتحاً ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات أي بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ﴿خالدين فيها﴾ أي مؤبّدين لا يزول عنهم نعيمها ﴿ويكفّر عنهم سيّئاتهم﴾ أي عقاب معاصيهم الّتي فعلوها في دار الدنيا ﴿وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً﴾ أي الظفر، والصلاح بما طلبوه من الثواب العظيم.

قوله تعالى:

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٠، فيه: والوقار.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٣٥.

أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دائرة السوء﴾ بضمّ السين. الباقون بفتحها، وقد فسّرناه في ما تقدّم. فالسَوء المصدر والسُوء الاسم. وقال قوم بالفتح الفساد مثل قوله: ﴿وظننتم ظنّ السوء﴾[٢] لأنّهم ظنّوا أنّ النبيّ ﷺ لا يعود إلى موضع ولادته أبداً[٣]. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزّروه ويوقّروه ويسبّحوه﴾ بالياء أربعهنّ، على وجه الإخبار من الله عزّ وجلّ عن نفسه.

لمّا أخبر الله تعالى عن نفسه أنّه يدخل المؤمنين والمؤمنات جنّات، ووصفها أخبر في هذه الآية أنّه يعذّب المنافقين والمنافقات وهم الّذين يظهرون الإيمان ويبطنون الشرك. و«النفاق» إسرار الكفر وإظهار الإيمان، فكلّ نفاق هو إظهار خلاف الإبطان. وأصله من نافقاء اليربوع، وهو أن يجعل لسربه بابين يظهر أحدهما ويخفي الآخر، فإذا أتي من الظاهر خرج من الآخر، فالمنافق يقوي الباطل على الحقّ بالظنّ له، وإلقاء خلافه لتضبيعه الدليل المؤدّي إليه، ﴿والمشركين والمشركات﴾ وهم الّذين يعبدون مع الله غيره، ويدخل في ذلك جميع الكفّار. ثمّ وصفهم فقال: ﴿الظانّين بالله﴾ يعني الّذين يظنّون بالله ﴿ظنّ السوء﴾ أي يتوهّمون أنّ الله ينصرهم على رسوله، وذلك قبيح لا يجوز وصف الله بذلك. ثمّ قال تعالى: ﴿عليهم

---

(١) من الحجريّة. (٢) الآية: ١٢ من هذه السورة. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٠.

دائرة السوء﴾ فالدائرة هي الراجعة بخير أو شرّ قال حميد بن ثور:

ودائرات الدهر أن تدورا[(١)]

ومن قرأ ﴿دائرة السوء﴾ بضمّ السين، أراد دائرة العذاب. ومن قرأ بالفتح، أراد ما عاد عليهم من قتل[(٢)] المؤمنين وغنمهم أموالهم، فهذا حسن. وقيل: ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي جزاء ظنّهم السوء من العذاب[(٣)]. ومن ضمّ أراد الشرّ، ويقال: رجل سوء ـ بالفتح ـ أي رجل فساد. ثمّ قال: ﴿وغضب الله عليهم﴾ أي لعنه لهم وعذابه ﴿ولعنهم﴾ أي أبعدهم من رحمته. وقوله: ﴿وأعدّ لهم جهنّم﴾ يجعلهم فيها. ثمّ قال: ﴿وساءت مصيراً﴾ أي ساءت جهنّم مآلاً ومرجعاً، لما فيها من أنواع العقاب .

وقوله: ﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً﴾ قد فسّرناه، وإنّما أُعيد ذكر ﴿ولله جنود...﴾ لأنّه متّصل بذكر المنافقين أي وله الجنود الّتي يقدر على الانتقام منكم بها، وذكر أوّلاً، لأنّه متّصل بذكر المؤمنين أي له الجنود الّتي يقدر أن يغنيكم بها. و«العزيز» القادر الّذي لا يقهر. وقيل: ﴿هو العزيز﴾ في انتقامه من أعدائه «الحكيم» في جميع أفعاله[(٤)].

ثمّ خاطب نبيّه محمّدﷺ فقال: ﴿إنّا أرسلناك﴾ يا محمّد ﴿شاهداً﴾ يعني على أُمّتك بالبلاغ والدعاء إلى إخلاص عبادته، أو شاهداً بما عملوه من طاعة ومعصية، و ﴿شاهداً﴾ نصب على حال مقدّر على القول الأوّل، وعلى حال غير مقدّرة على القول الثاني. ﴿ومبشّراً﴾ نصب على الحال

---

(١) مجاز القرآن ١: ١٦٩. نسبه إلى حميد بن الأرقط قد مرّ ٥: ٣٥٢، تفسير الطبري ٥: ٦١٩. نسبه إلى الراجزء.

(٢) في الحجريّة: ومن قِبَل.

(٣) النكت والعيون ٥: ٣١٢.

(٤) راجع تفسير السمرقندي ٣: ٣١٣.

الحاصلة. والمعنى ومبشّراً بالجنّة لمن أطاع ﴿ونذيراً﴾ أي مخوّفاً من النار لمن عصى، ذكره قتادة. ثمّ بيّن الغرض بالإرسال، فقال: أرسلناك بهذه الصفة ﴿لتؤمنوا﴾ ومن قرأ بالياء، أي ليؤمنوا هؤلاء الكفّار ﴿بالله﴾. ومن قرأ بالتاء وجّه الخطاب إلى الخلق أي أرسلته إليكم ﴿لتؤمنوا بالله﴾ فتوحّدوه ﴿ورسوله﴾ فتصدّقوه. و ﴿تعزّروه﴾ أي تنصروه، فالهاء راجعة إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وقال المبرّد: معنى ﴿تعزّروه﴾ تعظّموه يقال: عزّرت الرجل إذا كبّرته بلسانك «وتوقّروه» أي تعظّموه يعني النبيّ صلى الله عليه وآله في قول قتادة. وقال ابن عبّاس: ﴿تعزّروه﴾ من الإجلال ﴿وتوقّروه﴾ من الاعظام.

وقوله: ﴿وتسبّحوه﴾ يعني الله تعالى أي تنزّهوه عمّا لا يليق به ﴿بكرة وأصيلاً﴾ أيبالغداة والعشيّ. وقيل: معناه تصلّوا له بالغدوات والعشيّات[1].

وقوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله﴾فيه دلالة على بطلان قول المجبّرة: إنّ الله[2] تعالى يريد من الكفّار الكفر، لأنّه تعالى بيّن أنّه أراد من جميع المكلّفين الطاعة، ولم يرد أن يعصوا.

ثمّ قال: ﴿إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله﴾ فالمراد بالبيعة المذكورة ـ هاهنا ـ بيعة الحديبية، وهي بيعة الرضوان في قول قتادة ومجاهد. والمبايعة معاقدة على السمع والطاعة، كالمعاقدة في البيع والشراء بما قد مضي فلا يجوز الرجوع فيه. وقيل: إنّها معاقدة على بيع أنفسهم بالجنّة للزومهم في الحرب النصرة.

وقوله: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: عقد الله في هذه البيعة فوق عقدهم لأنّهم بايعوا الله ببيعة

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٣٢٨.

(٢) في الحجريّة: إنّه.

نبيّه ﷺ. والآخر: قوّة الله في نصرة نبيّه ﷺ فوق نصرتهم[١].

وقيل: يد الله في هدايتهم، فوق أيديهم بالطاعة[٢].

وقوله: ﴿فمن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ و«النكث» النقض للعقد الّذي يلزم الوفاء به، فبيّن تعالى أنّ من نقض هذه المبايعة، فإنّما ينكث على نفسه، لأنّ ما في ذلك من استحقاق العقاب عائد عليه ﴿ومن أوفى﴾ يقال: أوفى بالعقد، ووفّى. وأوفى لغة الحجاز. وهي لغة القرآن ﴿بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾ أي إذا أوفى بالبيعة ونصر دينه ونبيّه آتاه الله في ما بعد أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً. ومن ضمّ الهاء في ﴿عليه﴾ وهو حفص، فلأنّها الأصل. ومن كسرها فللمجاورة للياء.

قوله تعالى:

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ خمس آيات.

[أقول:][٣] قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً ﴿كلم الله﴾ على الجمع. الباقون

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٣٢٩. (٢) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٢. (٣) من الحجريّة.

﴿كلام الله﴾ على التوحيد، لأنّه يدلّ على الكثير من حيث هو اسم جنس، قال أبو عليّ: «كلام الله» يقع على ما يفيد، والكلم يقع أيضاً على الكلام، وعلى ما لا يفيد(١). والكلم جمع كلمة.

وقرأ حمزة والكسائي «ضرّاً» بالفتح. الباقون بالضمّ. فمن قرأ بالفتح أراد المصدر. ومن قرأ بالضمّ أراد الاسم. وقيل بالفتح ضدّ النفع وبالضمّ سوء الحال(٢) كقوله: ﴿مسّني الضُرّ﴾(٣) ويقال: ضرّني الشيء وأضرّني، ولا يقال: أضرّبي، وضرّه يضرّه وضاره يضيره(٤) بمعنى واحد.

هذا إخبار عن الله تعالى لنبيّه ﷺ أنّه ﴿سيقول لك﴾ يا محمّد ﴿المخلّفون من الأعراب﴾ قال ابن إسحاق ومجاهد: لمّا أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى مكّة عام الحديبية أحرم بعمرة ودعا الأعراب الّذين حول المدينة إلى الخروج، فتثاقلوا ـ أسلم وغِفار وجهينة ومزينة ـ فأخبر الله تعالى بذلك. والمخلّف هو المتروك في المكان خلف الخارجين عن البلد، وهو مشتقّ من المتخلّف(٥) وضدّه المتقدّم. تقول خلّفته كما تقول قدّمته تقديماً، وإنّما تخلّفوا لتثاقلهم عن الجهاد وإن اعتذروا بشغل الأموال والأولاد. والأعراب الجماعة من عرب البادية، وعرب الحاضرة ليسوا بأعراب، ففرّقوا بينهما، وإن كان اللسان واحد(٦).

وقوله: ﴿شغلتنا أموالنا وأهلونا﴾ إخبار بما اعتلّوا به، فالشغل قطع العمل عن عمل، لا يمكن الجمع بينهما لتنافي أسبابهما كالكتابة والرمي عن القوس والله لا يشغله شأن عن شأن لأنّه لا يعمل بآلة. وقوله: ﴿فاستغفر

---

(١) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٤٠٩.
(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٣١٤.
(٣) الأنبياء: ٨٣.
(٤) في الحجريّة: ضارّه يضرّه.
(٥) في الحجريّة: المخلف.
(٦) كذا في النسخ، والظاهر «واحداً».

لنا﴾ حكاية ما قالوه للنبيّ وسألوه أن يستغفر لهم و«الاستغفار» طلب المغفرة بالدعاء مع التوبة عن المعاصي فهؤلاء سألوا الدعاء بالمغفرة، وفي قلوبهم خلاف ما أظهروه بأفواههم ففضحهم الله وهتك أستارهم، وأبدى ما نافقوا به في جهادهم، فقال: ﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾.

ثمّ قال للنبيّ صلى الله عليه وآله: ﴿قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً﴾ لا يقدر أحد على دفعه ﴿أو أراد بكم نفعاً﴾ لا يقدر أحد على إزالته ﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾ أي عالماً نافعاً لكم لا يخفى عليه شيء منها. ثمّ قال له قل لهم: ﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً﴾ أي ظننتم أنّهم لا يرجعون ويُقتَلون ويصطلمون؛ وهو قول قتادة. ﴿وزيّن ذلك في قلوبكم﴾ زيّنه الشيطان ذلك وسوّله لكم ﴿وظننتم ظنّ السَّوء﴾ في هلاك النبيّ والمؤمنين، وأنّ الله ينصر عليهم المشركين ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ والبور الفاسد وهو معنى الجمع وترك جمعه في اللفظ لأنّه مصدر وصف به قال حسّان:

لا ينفع الطُول من نُوك القلوب      وقد يهدي الإلهُ سبيلَ المعشر[١]

البور والبوار الهلاك وبارت السلعة إذا كسدت والبائر من الفاكهة مثل الفاسدة. وقال قتادة ﴿بوراً﴾ أي فاسدين. وقال مجاهد: هالكين.

ثمّ قال تعالى مهدّداً لهم: ﴿ومن لم يؤمن بالله ورسوله﴾ أي لم يصدّق بهما ﴿فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً﴾ أي ناراً تسعرهم وتحرقهم. ثمّ قال: ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾ بأن يتصرّف فيهما كما يشاء لا يعترض[٢] أحد

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٣٤١، النكت والعيون ٥: ٣١٤، فيهما: المعشر البور.

(٢) في الحجريّة: لا يتعرّض.

عليه فيها ﴿يغفر لمن يشاء﴾ معاصيه ﴿ويعذّب من يشاء﴾ إذا استحقّ العقاب بارتكاب القبائح ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي ساتراً على عباده معاصيهم إذا تابوا لا يفضحهم بها، رحيماً بإسقاط عقابهم الّذي استحقّوها بالتوبة على وجه الابتداء.

ثمّ قال تعالى: ﴿سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها﴾ يعني غنائم خيبر ﴿ذرونا نتّبعكم﴾ أي اتركونا نجيء معكم، فقال الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدّلوا كلام الله قل﴾ لهم يا محمّد: ﴿لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل﴾ قال مجاهد وقتادة: يعني ما وعد به أهل الحديبية أنّ غنيمة خيبر لهم خاصّة. فأرادوا تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها فمنعهم الله من ذلك. وقال ابن زيد: أرادوا بذلك قوله: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً﴾[١] وهذا غلط لأنّ هذه الآية نزلت في الّذين تأخّروا عن تبوك بعد خيبر وبعد فتح مكّة، فقال الله تعالى لهم: ﴿لن تخرجوا معي أبداً﴾ لأنّ النبيّ ﷺ لم يخرج بعد ذلك في قتال ولا غزو إلى أن قبضه الله تعالى[٢]. ثمّ قال: ﴿كذلك قال الله من قبل﴾ أي مثل ذلك حكم الله وقال ابن زيد: غنيمة خيبر لأهل الحديبية خاصّة لا يشركهم فيها أحد . ثمّ حكى ما قالوه بأنّهم [﴿فسيقولون﴾][٣] عند ذلك ليس الامر كذلك ﴿بل تحسدوننا﴾ فقال ليس الأمر على ما قالوه ﴿بل كانوا لا يفقهون﴾ الحقّ وما يدعون إليه ﴿إلّا قليلاً﴾ وقيل: معناه لا يفقهون الحقّ إلّا القليل منهم[٤] وهم المعاندون. وقال بعضهم: لا يفقهون إلّا فقهاً قليلاً أو الأشياء قليلاً[٥]. وإنّما قالوا:

---

(١) التوبة: ٨٣. (٢) تفسير الطبري ١١: ٣٤٣. (٣) في الحجريّة: قالوا.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٣١٦. (٥) تفسير الطبري ١١: ٣٤٤.

﴿تحسدوننا﴾ لأنّ المسلمين لمّا توجّهوا إلى خيبر وأخذوا غنائمها، قال المخلّفون ﴿ذرونا نتّبعكم﴾ قالوا: نعم على أن لا شيء لكم من الغنيمة، فقالوا عند ذلك: ﴿تحسدوننا) فقال تعالى: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلّا قليلاً﴾.

قوله تعالى:

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ * لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][(١)] قرأ أهل المدينة، وابن عامر ﴿ندخله﴾ و﴿نعذّبه﴾ بالنون على وجه الإخبار من الله عن نفسه. الباقون بالياء ردّاً على اسم الله. يقول الله تعالى لنبيّه: ﴿قل للمخلّفين من الأعراب﴾ أي لهؤلاء المخلّفين الّذين تخلّفوا عنك في الخروج إلى الحديبية ﴿ستدعون﴾ في ما بعد ﴿إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ قال ابن عبّاس: أُولوا البأس الشديد أهل فارس. وقال ابن أبي ليلى والحسن: هم الروم. وقال سعيد بن جبير وعكرمة وقتادة: هم هوازن بحنين. وقال الزهري: هم بنو حنيفة مع

---

(١) من الحجريّة.

مسيلمة الكذّاب، وكانوا بهذه الصفة.

واستدلّ جماعة من المخالفين بهذه الآية على إمامة أبي بكر، من حيث إنّ أبا بكر دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم، وكانوا قد حرموا القتال مع النبيّ ﷺ بدليل قوله: ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً﴾.[١]

وهذا الّذي ذكروه غير صحيح من وجهين:

أحدهما: أنّه غلط في التاريخ ووقت نزول الآية.

والثاني: أنّه غلط في التأويل، ونحن نبيّن فساد ذلك أجمع، ولنا في الكلام في تأويل الآية وجهان:

أحدهما: أنّه تنازع في اقتضائها داعياً يدعو هؤلاء المخلّفين غير النبيّ ﷺ ويبيّن أنّ الداعي لهم في ما بعد كان النبيّ ﷺ على ما حكيناه عن قَتادة وسعيد بن جبير في أنّ الآية نزلت في أهل خيبر. وكان النبيّ ﷺ هو الداعي إلى ذلك.

والآخر: أن يسلم أنّ الداعي غيره، ونبيّن أنّه لم يكن أبا بكر ولا عمر بل كان أمير المؤمنين عليه السلام.

فأمّا الوجه الأوّل فظاهر، لأنّ قوله: ﴿سيقول لك المخلّفون﴾ إلى قوله: ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ قد بيّنّا أنّه أراد به الّذين تخلّفوا عن الحديبية بإجماع المفسّرين ثمّ قال: ﴿سيقول المخلّفون إذا انطلقتم...﴾ إلى آخر الآية، فبيّن أنّ هؤلاء المخلّفين سألوا أن يخرجوا إلى غنيمة خيبر فمنعهم الله من ذلك، وأمر نبيّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قل لن تتّبعونا...﴾ إلى هذه القرية[٢] لأنّ الله

---

(١) التوبة: ٨٣.

(٢) في الحجريّة: القراءة.

تعالى حكم من قبل بأنّ غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية وأنّه لاحظّ فيها لمن لم يشهدها، وهذا هو معنى قوله: ﴿يريدون أن يبدلّوا كلام الله﴾ وقوله: ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ ثمّ قال: ﴿قل للمخلّفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أُولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ وإنّما أراد الرسول سيدعوهم في ما بعد إلى قتال قوم بهذه الصفة، وقد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة. وقال قوم: أُولي بأس شديد، كموتة وحنين وتبوك وغيرها[1] فمن أين يجب أن يكون الداعي لهم غير النبيّ ﷺ. فأمّا قولهم إنّ معنى قوله: ﴿كذلكم قال الله من قبل﴾ هو أنّه أراد قوله: ﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً﴾[2] مملوء بالغلط الفاحش في التاريخ، لأنّا قد بيّنّا أنّ هذه الآية الّتي في التوبة نزلت بـ«تبوك» سنة تسع وآية سورة الفتح نزلت سنة ستّ، فكيف تكون قبلها. وينبغي لمن تكلّم في تأويل القرآن أن يرجع إلى التاريخ ويراعي أسباب نزول الآية على ما روي، ولا يقول على الآراء والشهوات. وتبيّن أيضاً أنّ هؤلاء المخلّفين غير أُولئك وإن لم يرجع إلى تاريخ ونقول قوله. ﴿فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يعذّبكم عذاباً أليماً﴾ فلم يقطع على طاعة ولا على معصية بل ذكر الوعد والوعيد على ما يتعلّق به من طاعة أو معصية، وحكم المذكورين فيهم في سورة التوبة بخلافه، لأنّه تعالى قال بعد قوله ﴿إنّكم رضيتم بالقعود أوّل مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ إلى قوله: ﴿وهم كافرون﴾[3] فاختلاف أحكامهم يدلّ على اختلافهم، وقد

---

(١) راجع تفسير الطبري ١١: ٣٤٥. الكشف والبيان ٩: ٤٦.

(٢) التوبة: ٨٣.

(٣) التوبة: ٨٣ ـ ٨٥.

حكينا عن سعيد بن جبير أنّه قال: هذه الآية نزلت في هوازن يوم حنين. وقال الضحّاك: هم ثقيف، وقال قتادة: هم هوازن وثقيف. وأمّا الوجه الّذي يسلم معه أنّ الداعي غير النبيّ صلى الله عليه وآله فهو أن نقول الداعي أمير المؤمنين عليه السلام لأنّه قاتل بعده أهل الجمل وصفّين وأهل النهروان، وبشّره النبيّ صلى الله عليه وآله بقتالهم، وكانوا أُولي بأس شديد. فإن قالوا من قاتلهم عليّ عليه السلام كانوا مسلمين، وفي الآية قال: ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ كيف تتناولهم الآية؟!

قلنا: أوّل ما نقوله: إنّهم غير مسلمين عندنا، ولا عند جميع من خالفنا من المعتزلة، لأنّ عندهم صاحب الكبيرة ليس بمؤمن، ولا مسلم. وأمّا مذهبنا في تكفير من قاتل عليّاً عليه السلام معروف ـ وقد ذكرناه في كتب الإمامة ـ لقوله صلى الله عليه وآله: «حربك يا عليّ حربي»[1] وغير ذلك من الأخبار والأدلّة الّتي ذكرناها في غير موضع واستوفينا ما يتعلّق بذلك في كتاب الإمامة. ويمكن على تسليم أنّ الداعي أبو بكر وعمر، أن يقال: ليس في الآية ما يدلّ على مدح الداعي ولا على إمامته، لأنّه قد يدعو إلى الحقّ من ليس عليه، ويجب ذلك من حيث كان واجباً من أجل دعاء الداعي، وأبو بكر دعاهم إلى الدفاع عن الإسلام، وهذا واجب على كلّ واحد بلادعاء داع. ويمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿ستدعون﴾ دعاء الله لهم بإيجاب القتال عليهم، لأنّه إذا دلّهم على وجوب قتال المرتدّين ودفعهم عن بيضة الإسلام، وقد دعاهم إلى القتال ووجبت عليهم طاعته، والكلام في هذه الآية كالّتي قبلها في أنّا إذا قلنا لا تدلّ على إمامة الرجلين، لا يكون طاعتين عليهما، بل لا يمتنع أن يثبت فضلهما وإمامتهما بدليل

---

(١) الانتصار: ٤٧٩.

غير الآية، لأنّ المحصّلين من العلماء يذهبون إلى إمامتهما من جهة الأخبار لا من جهة الآية.

وقوله: ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ بالرفع معناه: أنّ أحد الأمرين لابدّ أن يقع لا محالة، وتقديره: أوهم يسلمون. وقرئ شاذاً بالنصب، والوجه فيه حتّى يسلموا ولو نصبه، فقال: أو يسلموا، لكان دالاً على أنّ ترك القتال من أجل الإسلام.

وقوله: ﴿ليس على الأعمى حرج...﴾ الآية، «فالأعمى» هو من لا يبصر بجارحة العين. و«الأعرج» الّذي برجله آفة تمنعه من المشي مأخوذ من رفعها عند محاولة المشي بغيرها، ومنه العروج الصعود إلى السماء، والمريض من به علّة تمنعه من الحركة من اضطراب في البدن حتّى يضعف وتحصل فيه آلام، بيّن الله تعالى أنّه ليس على وجه هؤلاء الّذين بهم هذه الآفات من ضيق ولا حرج في ترك الحصول مع المؤمنين والحضور معهم في الجهاد. قال قتادة: كلّ ذلك في الجهاد. ثمّ قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في ما أمره به ونهاه عنه ﴿يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار ومن يتولّ﴾ عن اتّباعهما وامتثال أمرهما ونهيهما ﴿يعذّبه﴾ الله ﴿عذاباً أليماً﴾ فمن قرأ بالياء ردّه إلى الله. ومن قرأ بالنون أراد الإخبار من الله عن نفسه.

وقوله: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ إخبار من الله تعالى أنّه رضي عن الّذين بايعوا تحت الشجرة النبيَّ ﷺ وكانوا مؤمنين في الوقت الّذي بايعوه ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من إيمان ونفاق فرضي عن المؤمنين وسخط على المنافقين. وقيل معناه فعلم ما في

قلوبهم من صدق النيّة في القتال وكراهتهم له، لأنّه بايعهم على القتال، ذكره مقاتل.[١] ﴿فأنزل السكينة عليهم﴾ يعني على المؤمنين، و«السكينة» الصبر لقوّة البصيرة ﴿وأثابهم فتحاً قريباً﴾ قال قتادة وابن أبي‌ليلى: يعني فتح خيبر. وقال قوم: فتح مكّة[٢] ﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ فالغنيمة ملك أموال أهل الحرب من المشركين بالقهر والغلبة في حكمه تعالى، وكان القتال من أجلها. و«المغانم» هاهنا يراد به غنائم خيبر.

وقوله: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ يعني سائر الغنائم. وقال قوم: أراد بها أيضاً غنائم خيبر[٣]. وقوله: ﴿فعجّل لكم هذه﴾ يعني الصلح. وسمّيت بيعة الرضوان، لقول الله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾ وقال ابن عبّاس: كان سبب بيعة الرضوان بالحديبية تأخّر عثمان حين بعثه النبيّ صلى الله عليه وآله إلى قريش أنّهم قتلوه، فبايعهم على قتال قريش. وقال ابن‌عبّاس: كانوا ألفاً وخمسمائة نفس. وقال جابر: كانوا ألفاً وأربعمائة نفس، وقال ابن‌أوفى ألفاً وثلاثمائة. والشجرة‌الّتي‌بايعوا تحتها هي السمرة.

واستدلّ بهذه الآية جماعة على فضل أبي بكر، فإنّه لا خلاف أنّه كان من المبايعين تحت الشجرة. وقد ذكر الله أنّه رضي عنهم، وأنّه أنزل السكينة عليهم وأنّه علم ما في قلوبهم من الإيمان، وأثابهم فتحاً قريباً.

والكلام على ذلك مبنيّ على القول بالعموم، وفي أصحابنا من قال لا صيغة للعموم ينفرد بها. وبه قال كثير من المخالفين، فمن قال بذلك كانت الآية عنده مجملة لا يعلم المعنيّ بها، وقد بايع النبيّ صلى الله عليه وآله جماعة من المنافقين بلا خلاف، فلابدّ من تخصيص الآية على كلّ حال. على أنّه

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣١٦.

(٢ و٣) تفسير الطبري ١١: ٣٥٠ و٣٥١.

تعالى وصف من بايع تحت الشجرة بأوصاف قد علمنا أنّها لم تحصل في جميع المبايعين، فوجب أن يختصّ الرضا بمن جمع الصفات لأنّه قال: ﴿فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً﴾ ولا خلاف بين أهل النقل أنّ الفتح الّذي كان بعد بيعة الرضوان بلا فصل هو فتح خيبر. وأنّ رسول الله ﷺ عند ذلك قال: «لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّاراً غير فرّار»[1] لا يرجع حتّى يفتح الله على يده فدعا عليّاً فأعطاه الراية، وكان الفتح على يده، فوجب أن يكون هو المخصوص بحكم الآية، ومن كان معه في ذلك الفتح لتكامل الصفات فيهم. على أنّ ممّن بايع بيعة الرضوان طلحة والزبير، وقد وقع منهما من قتال عليّ عليه السلام ما خرجا به عن الإيمان وفسقا عند جميع المعتزلة ومن جرى مجراهم، ولم يمنع وقوع الرضاء في تلك الحال من مواقعة المعصية في ما بعد، فما الّذي يمنع من مثل ذلك في غيره. وليس إذا قلنا: أنّ الآية لا تختصّ بالرجلين، كان طعناً عليهما بل إذا حملناها على العموم دخلاً، وكلّ مبايع مؤمن معهما، فكان ذلك أولى.

وقوله: ﴿ومغانم كثيرة تأخذونها﴾ يعني ما غنمتموه من خيبر من أنواع الغنائم ﴿وكان الله عليماً﴾ بمصالح عباده ﴿حكيماً﴾ في جميع أفعاله. ثمّ قال: ﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجّل لكم هذه﴾ يعني غنائم خيبر. والباقي كلّ ما يغنمه المسلمون من دار الحرب ﴿وكفّ أيدي الناس عنكم﴾ يعني أسداً وغطفان، فإنّهم كانوا مع خيبر فصالحهم النبيّ ﷺ فكفّوا عنه. وقيل: يعني اليهود كفّ أيديهم عنكم بالمدينة من قبل الحديبية ومجيء قريش،

(١) رسائل الشريف المرتضى ٤: ١٠٤.

فلم يغلبوكم[١] ﴿ولتكون آية للمؤمنين﴾ يستدلّون بها على صحّة قولكم ﴿ويهديكم﴾ أي ويرشدكم ﴿صراطاً مستقيماً﴾ يفضي بكم إلى الحقّ وما يؤدّي إلى الثواب. والواو في قوله ﴿ولتكون﴾ معناه إنّا وعدناكم الغنائم لكفّ أيدي الناس عنكم وليكون ذلك آية للمؤمنين إذا وقع الخبر على ما أخبر به، لأنّه علم غيب لا يعلمه إلّا الله .

قوله تعالى:

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) خمس آيات [بلا خلاف

أقول:][٢] قرأ أبو عمرو ﴿بما يعملون بصيراً﴾ بالياء على الخبر. الباقون بالتاء على الخطاب. لمّا ذكر الله تعالى أنّه وعد المؤمنين مغانم كثيرة يأخذونها وأنّه عجّل لهم هذه منها، يعني غنائم خيبر وعدهم بالغنائم الأخر، فقال: ﴿وأخرى لم تقدروا عليها﴾ أي وغنيمة أُخرى، عن ابن عبّاس والحسن إنّها فارس والروم. وقال قتادة: هي مكّة ﴿قد أحاط الله بها﴾ أي قدر الله عليها وأحاط بها علماً فجعلهم بمنزلة ما قد أُدير حولهم بما يمنع

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣١٧، تفسير الطبري ١١: ٣٥٢.

(٢) من الحجريّة.

أن يفلت أحد منهم ﴿وكان الله على كلّ شيء قديراً﴾ أي ما يصحّ أن يكون مقدوراً له، فهو قادر عليه. ثمّ قال: ﴿ولو قاتلكم الّذين كفروا﴾ يعني من قريش يا معشر المؤمنين ﴿لولّوا الأدبار﴾ منهزمين بخذلانه إيّاهم ونصرة الله إيّاكم، ومعونته لكم، في قول قتادة. ﴿ثمّ لا يجدون﴾ يعني الكفّار ﴿وليّاً﴾ يواليهم ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم.

وقوله: ﴿سنّة الله الّتي قد خلت من قبل﴾ معناه: سنّة الله جارية في خذلانه أهل الكفر ونصرة أهل الإيمان في ما مضى من الأُمم السالفة، ونصره هو أمره بالقتال ﴿ولن تجد﴾ يا محمّد ﴿لسنّة الله تبديلاً﴾ أي لن تجد لسنّة الله ما يدفعها «فالسنّة» الطريقة المستمرّة في معنى، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وآله: «من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها. ومن سنّ سنّة سيّئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها»[١] و«التبديل» رفع أحد الشيئين وجعل الآخر مكانه في ما حكم أن يستمرّ على ما هو به، ولو رفع الله حكماً يأتي بخلافه لم يكن تبديلاً لحكمه، لأنّه لا يرفع شيئاً إلّا في الوقت الّذي تقتضي الحكمة رفعه. وقال ابن عبّاس: كان المشركون بعثوا أربعين رجلاً ليصيبوا من المسلمين، فأتى بهم رسول الله، فخلّى سبيلهم، وهو المراد بقوله: ﴿وهو الّذي كفّ أيديهم عنكم﴾ بالرعب ﴿وأيديكم عنهم﴾ بالنهي نزلت في أهل الحديبية وأهل مكّة، لا في أهل خيبر. وقيل لم ينهوا عن قتالهم، لأنّهم لا يستحقّون القتل بكفرهم وصدّهم لكن للإبقاء على المؤمنين الّذين في أيديهم «ببطن مكّة من بعد أن أُظفركم عليهم» يعني فتح مكّة[٢] ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ يدبّركم بحسب ما يقتضيه

---

(١) مصنّفات الشيخ المفيد (الفصول المختارة) ٢: ١٣٦.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٥٦.

مصالحكم.

وقوله: ﴿هم الّذين كفروا﴾ أي بوحدانيّة الله، وهم كفّار قريش ﴿وصدّوكم عن المسجد الحرام﴾ في الحديبية، وصدّوكم أن تعتمروا وتطوفوا بالبيت ﴿والهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه﴾ أي المحلّ الّذي يحلّ نحره فيه. والمعكوف المحبوس أي منعوا الهدي أيضاً ليذبح بمكّة، لأنّ هدي العمرة لا يذبح إلّا بمكّة كما لا يذبح هدي الحجّ إلّا بمنى. ثمّ قال: ﴿ولولا رجال مؤمنون﴾ بالله ومصدّقون بالنبيّ ﴿ونساء مؤمنات﴾ مثل ذلك بمكّة ـ في قول قتادة ـ ﴿لم تعلموهم﴾ أي لم تعلموا بإيمانهم ﴿أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم﴾ أي ينالكم إثم لأجلهم من غير علم منكم بذلك ـ في قول ابن زيد ـ وقال قوم: معناه عنت. وقال ابن إسحاق: هو غرم الدية في كفّارة قتل الخطأ عتق رقبة مؤمنة ومن لم يطق فصيام شهرين، وهو كفّارة قتل الخطأ في الحرب[1]. وجواب لولا محذوف، وتقديره ولولا المؤمنون الّذين لم تعلموهم لوطئتم رقاب المشركين بنصرنا إيّاكم. والمعكوف الممنوع من الذهاب في جهة بالإقامة في مكانه، ومنه الاعتكاف، وهو الإقامة في المسجد للعبادة، وعكف على هذا الأمر يعكف عكوفاً إذا أقام عليه. وقوله: ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيّلوا﴾ أي لو تميّز المؤمنون منهم، وقيل لو تفرّقوا[2] والمعنى واحد ﴿لعذّبنا الّذين كفروا منهم﴾ يعني من أهل مكّة ﴿عذاباً أليماً﴾ بالسيف والقتل والأليم المؤلم، وكان النبيّ ﷺ: ساق سبعين بدنة في عام الحديبية، ودخل في العام المقبل لعمرة القضاء في الشهر الّذي صدّ فيه ونزل قوله: ﴿الشهر

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٢٠.

(٢) النكت والعيون ٥: ٣٢٠.

الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾[١] ذكره قتادة.

قوله تعالى:

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴿٢٩﴾ أربع آيات. بلا خلاف.

[أقول:][٢] قرأ ابن كثير إلّا ابن فليح ﴿شطأه﴾ بفتح الطاء ومثله ابن ذكوان. الباقون بإسكانها. وقرأ أهل الشام ﴿فازره﴾ مقصور، الباقون بالمدّ، وهما لغتان من فعل الشيء وفعله غيره نحو كسبت مالاً وكسّبني غيري، ونزحت البئر ونزحتها. ويقال: أزر النبت وآزره غيره. وقوله ﴿إذ جعل﴾ متعلّق بقوله: ﴿لعذبنا الّذين كفروا منهم عذاباً أليماً إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة﴾ يعني الأنفة. ثمّ فسّر تلك الأنفة، فقال: ﴿حميّة الجاهلية﴾ الأُولى يعني عصبتهم لآلهتم من أن يعبدوا غيرها. وقال الزهري: هي أُنفتهم

---

(١) البقرة: ١٩٤.

(٢) من الحجريّة.

من الإقرار لمحمّد بالرسالة. والاستفتاح بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» على عادته في الفاتحة، حيث أراد ان يكتب كتاب العهد بينهم. ودخولهم مكّة لأداء العمرة[١].

ثمّ قال تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته على رسوله﴾ أي فعل بهﷺ من اللطف والنعمة ما سكنت إليه نفسه وصبر على الدخول تحت ما أرادوه منه ﴿وعلى المؤمنين﴾ أي ومثل ذلك فعل بالمؤمنين ﴿وألزمهم كلمه التقوى﴾ قال ابن عبّاس وقتادة: كلمة التقوى قول: لا إلّا إلّا الله محمّد رسول الله. وقال مجاهد: هي كلمة الإخلاص ﴿وكانوا أحقّ بها وأهلها﴾ يعني المؤمنين كانوا أهلها وأحقّ بها. قال الفرّاء: ورأيتها في مصحف الحارث بن سويد التميمي من أصحاب عبد الله «وكانوا أهلها أحقّ بها» وهو تقديم وتأخير، وكان مصحفه دفن أيّام الحجّاج[٢]. وقيل: إنّ التقدير كانوا أحقّ بنزول السكينة عليهم وأهلاً لها. وقيل: المعنى فكانوا أحقّ بمكّة أن يدخلوها وأهلها[٣]. وإنّما قال: ﴿أحقّ﴾ لأنّه قد يكون حقّ أحقّ من حقّ غيره، لأنّ الحقّ الّذي هو طاعة يستحقّ به المدح أحقّ من الحقّ الّذي هو مباح لا يستحقّ به ذلك ﴿وكان الله بكلّ شيء عليماً﴾ لمّا ذمّ الكفّار تعالى بحميّة الجاهليّة ومدح المؤمنين بالسكينة ولزوم الكلمة الصادقة بيّن علمه ببواطن أُمورهم وما ينطوي عليه ضمائرهم إذ هو العالم بكلّ شيء من المعلومات.

وقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام﴾ قسم من الله تعالى أنّ النبيّﷺ صادق في قوله: أنّه رأى في المنام أنّه يدخل

---

(١ و٣) النكت والعيون ٥: ٣٢٠ و٣٢١. (٢) معاني القرآن ٣: ٦٨.

هو والمؤمنون المسجد الحرام، وأنّه لابدّ من كون ذلك. وقوله: ﴿إن شاء الله آمنين﴾ قال قوم تقييد لدخول الجميع أو البعض. وقال قوم: ليس ذلك شرطاً لأنّه بشارة بالرؤيا الّتي رآها النبيّ صلى الله عليه وآله وطالبه الصحابة بتأويلها وحقّقها. قوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ﴾ ثمّ استؤنف على طريق الشرح والتأكيد ﴿لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله﴾ على ألفاظ الدين، كأنّه قيل بمشيئة الله، وليس ينكر أن يخرج مخرج الشرط ما ليس فيه معنى الشرط، كما يخرج مخرج الأمر ما ليس في معنى الأمر لقرينة تصحب الكلام[١]. وقال البلخي: معنى ﴿إن شاء الله﴾ أي أمركم الله بها[٢]، لأنّ مشيئة الله تعالى بفعل عباده هو أمره به . وقال قوم: هو تأديب لنا، كما قال ﴿ولا تقولنّ لشيء...﴾[٣] الآية.

وقوله: ﴿آمنين﴾ أي بلا خلاف عليكم ﴿محلّقين رؤوسكم ومقصّرين﴾ أي منكم من يحلق رأسه ومنكم من يقصّر ﴿لا تخافون﴾ أحداً في ذلك، وكذلك جرى الأمر في عمرة القضاء وفي السنة الثانية للحديبية. وروي أنّ عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وآله حيث قاضى أهل مكّة يوم الحديبية، وهمّ بالرجوع إلى المدينة: أليس وعدتنا يا رسول الله أن تدخل المسجد الحرام محلّقين ومقصّرين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «قلت لكم إنّا ندخلها العام»؟! فقال: لا، فقال صلى الله عليه وآله: «فإنّكم تدخلونها إن شاء الله» فلمّا كان في القابل في ذي القعدة خرج النبيّ صلى الله عليه وآله لعمرة القضاء، ودخل مكّة مع أصحابه في ذي القعدة واعتمر، وأقام بمكّة ثلاثة أيّام، ثمّ رجع إلى المدينة[٤].

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٢٢.
(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٣٢٠.
(٣) الكهف: ٢٣، راجع الكشف والبيان ٩: ٦٤.
(٤) راجع كتاب المغازي للواقدي ٢: ٦٠٦.

ثمّ قال: ﴿فعلم﴾ يعني علم الله ﴿ما لم تعلموا﴾ أنتم من المصلحة في المقاضاة وإجابتهم إلى ذلك. وقيل المعنى فعلم النبيّ ﷺ من دخولهم إلى سنة ما لم تعلموا معاشر المؤمنين. وقيل: فعلم أنّ بمكّة رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لم تعلموهم[١] ﴿فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾ قال ابن زيد: يعني بذلك فتح خيبر. وقال الزهري: هو فتح الحديبية[٢].

ثمّ قال تعالى: ﴿هو الّذي أرسل رسوله﴾ يعني محمّداً ﷺ ﴿بالهدى﴾ يعني الدليل الواضح، والحجّة البيّنة ﴿ودين الحقّ﴾ يعني الإسلام وإخلاص العبادة ﴿ليظهره على الدين كلّه﴾ قيل بالحجج والبراهين. وقيل: لأنّ الإسلام ظاهر على الأديان كلّها. وقيل: إنّه إذا خرج المهديّ صار الإسلام في جميع البشر، وتبطل الأديان كلّها[٣].

ثمّ قال: ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ بذلك من إظهار دين الحقّ على جميع الأديان.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿محمّد رسول الله﴾ ﷺ أرسله إلى خلقه ﴿والّذين معه﴾ من المؤمنين يعني المصدّقين بوحدانيّة الله المعترفين بنبوّته الناصرين له ﴿أشدّاء على الكفّار﴾ لأنّهم يقاتلونهم ويجاهدونهم بنيّة صادقة ﴿رحماء بينهم﴾ أي يرحم بعضهم بعضاً ويتحنّن بعضهم على بعض ﴿تراهم ركّعاً سجّداً﴾ لقيامهم بالصلاة والإتيان بها، فهم بين راكع وساجد ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾ أي يلتمسون بذلك زيادة نعيمهم من الله ويطلبون مرضاته من طاعة وترك معصية ﴿سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ قال ابن عبّاس: أثر صلاتهم يظهر في وجوههم. وقال الحسن: هو السمت

---

(١ و٣) تفسير الطبري ١١: ٣٦٧ و٣٦٩.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٦٨، الكشف والبيان ٩: ٦٤.

الحسن. وقال قوم: هو ما يظهر في وجوههم من السهر بالليل[١]. وقال مجاهد: معناه علامتهم في الدنيا من أثر الخشوع. وقيل: علامة نور يجعلها الله في وجوههم يوم القيامة، في قول الحسن وابن عبّاس وقتادة وعطيّة[٢]. و﴿ذلك مثلهم في التوراة﴾ أي وصفهم، كأنّه مثلهم في التوراة ﴿ومثلهم في الانجيل﴾ أي وصفهم الله في الإنجيل ﴿كمثل زرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ﴾ يشبههم بالزرع الّذي ينبت في حواليه نبات ويلحق به، فالشطأ فراخ الزرع الّذي ينبت في جوانبه ومنه شاطئ النهر جانبه، يقال أشطأ الزرع، فهو مشطئ إذا أفرخ في جوانبه ﴿فآزره﴾ أي عاونه فشدّ فراخ الزرع لأُصول النبت وقوّاها يقال أزرت النبت وآزره غيره بالمدّ، ويقال أزر النبت وازرتُه مثل رجع ورجعتُه وقال أبو الحسن: هما لغتان. وقال أبو عبيدة: أزره ساواه فصار مثل الأمّ، وفاعل «آزر» الشطأ أي أزر الشطأ الزرع، فصار في طوله ﴿فاستغلظ﴾ أي صار غليظاً باجتماع الفراخ مع الأُصول ﴿فاستوى﴾ معه أي صار مثل الأُمّ ﴿على سوقه﴾ وهو جمع ساق وساق الشجرة حاملة الشجر، وهو عوده الّذي يقوم عليه، وهو قصبته[٣]. ومثله قوي الحبّة بمايخرج منها، كما قوي النبيّ صلى الله عليه وآله بأصحابه[٤].

وقوله: ﴿يعجب الزرّاع﴾ يعني الّذين زرعوا ذلك ﴿ليغيظ بهم الكفّار﴾ قيل: معناه ليغيظ بالنبيّ وأصحابه الكفّار المشركين. ووجه ضرب هذا المثل بالزرع الّذي أخرج شطأه هو أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله حين ناداهم إلى دينه كان ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتّى كثر جمعه وقوي أمره كالزرع يبدو

(١) معاني القرآن ٣: ٦٩.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٧٠، النكت والعيون ٥: ٣٢٣.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢١٨.
(٤) راجع معاني القرآن ٣: ٦٩.

بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد حال حتّى يغلظ ساقه وفراخه، وكان هذا من أصحّ مثل وأوضح بيان(١) وقال البلخي: هو كقوله: ﴿كمثل غيث أعجب الكفّار نباته﴾(٢) يريد بالكفّار ـ هاهنا ـ الزرّاع واحدهم كافر، لأنّه يغطّي البذر، وكلّ شيء غطّيته فقد كفرته. ومنه قولهم: تكفر بالسلاح. وقيل: ليل كافر لأنّه يستر بظلمته كلّ شيء قال الشاعر:

في ليلة كفر النجومَ غمامُها(٣)

أي غطّاها. ثمّ قال: ﴿وعد الله الّذين آمنوا﴾ يعني من عرف الله ووحّده وأخلص العبادة له وآمن بالنبيّ ﷺ وصدّقه ﴿وعملوا﴾ مع ذلك الأعمال ﴿الصالحات منهم﴾ قيل: إنّه بيان يخصّهم بالوعد دون غيرهم. وقيل يجوز أن يكون ذلك شرطاً فيمن أقام على ذلك منهم(٤) لأنّ من خرج عن هذه الأوصاف بالمعاصي فلا يتناوله هذا الوعد ﴿مغفرة﴾ أي ستراً على ذنوبهم الماضية ﴿وأجراً﴾ أي ثواباً ﴿عظيماً﴾ يوم القيامة.

وقرأ ابن كثير وحده ﴿على سؤقه﴾ بالهمزة. الباقون بلا همزة، وهو الأصحّ. قال أبوعليّ: من همز فعلى قولهم: «أحبّ المؤفدين إلىموسى»(٥) واستعمال السوق في الزرع مجاز.

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

(٢) الحديد: ٢٠.

(٣) مرّ في ١: ٣٧٩. ديوان لبيد بن ربيعة: ٢٢٠.

(٤) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٢٩ ـ ٣٠.

(٥) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٤١١. فيه: لَحبَّ المؤقدان إليّ موسى.

# سورة الحجرات

مدنيّة إلّا آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿يا أيّها الناس إنّا خلقناكم...﴾ إلى آخرها. وقال قوم: كلّها مدنيّة، وهي ثمان عشر آية بلا خلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ يعقوب ﴿لا تقدّموا﴾ بفتح التاء والدال. الباقون بضمّ التاء وكسر الدال من التقديم. وقيل: إنّهما لغتان. قدّم وتقدّم مثل عجّل وتعجّل. وقال ابن عبّاس والحسن: الآية ﴿لا تقدّموا﴾ في الحكم أو في

(١) من الحجريّة.

الأمر قبل كلامهﷺ بفتح الدال والتاء. وقال الحسن: ذبح قوم قبل صلاة العيد يوم النحر، فأُمروا بإعادة ذبيحة أُخرى. وقال الزجّاج: المعنى لا تقدّموا أعمال الطاعة قبل الوقت الّذي أمر الله والنبيّﷺ به حتّى قيل: لا يجوز تقديم الزكاة قبل وقتها(١). وقال قوم: كانوا إذا سألوا عن شيء قالوا فيه قبل النبيّﷺ نهوا عن ذلك(٢). والأولى حمل الآية على عمومها فيقال: كلّ شيء إذا فعل كان خلافاً لله ورسوله فهو تقدّم بين أيديهما فيجب المنع من جميع ذلك.

هذا خطاب من الله تعالى للمؤمنين الّذين اعترفوا بتوحيده وإخلاص عبادته وأقرّوا بنبوّة نبيّه محمّدﷺ ينهاهم أن يتقدّموا بين يدي النبيّﷺ بأن يفعلوا خلاف ما أمر به أو يقولوا في الأحكام قبل أن يقول أو يخالفوا أوقات العبادة، فإنّ جميع ذلك تقدّم بين يديه، وأمرهم أن يتّقوا الله بأن يجتنبوا معاصيه ويفعلوا طاعاته ﴿إنّ الله سميع﴾ لما يقولونه ﴿عليم﴾ بما ينطوون عليه ويضمرونه. ثمّ أمرهم ثانياً بأن قال: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ﴾ على وجه الاستخفاف [به]ﷺ فإنّ مجاهد وقتادة قالا: جاء أعراب أجلاف من بني تميم، فجعلوا ينادون من وراء الحجرات: يا محمّد اخرج إلينا، ولو أنّ إنساناً رفع صوته على صوت النبيّﷺ على وجه التعظيم له والإجابة لقوله لم يكن مأثوماً. وقد فسّر ذلك بقوله: ﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾ فإنّ العادة جارية أنّ من كلّم غيره ورفع صوته فوق صوته أنّ ذلك على وجه الاستخفاف به، فلذلك نهاهم عنه. وجهر الصوت أشدّ من الهمس، ويكون شديداً وضعيفاً ووسطاً.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣١. (٢) الكشف والبيان ٩: ٧١.

و«الجهر» ظهور الصوت بقوّة الاعتماد، ومنه الجهارة في المنطق. ويقال: نهاراً جهاراً، وجاهر بالأمر مجاهرة. ونقيض الجهر «الهمس».

ثمّ بيّن تعالى أنّهم متى فعلوا ذلك بأن يرفعوا الصوت على صوت النبيّ صلى الله عليه وآله على الوجه الّذي قلناه أن يحبط أعمالهم، والتقدير لا ترفعوا أصواتكم لأن لا تحبط. قال الزجّاج: ويكون اللام لام العاقبة[1] والمعنى يحبط ثواب ذلك العمل، لأنّهم لو أوقعوه على وجه الاستحقاق لاستحقّوا به الثواب، فلمّا فعلوه على خلاف ذلك استحقّوا عليه العقاب، وفاتهم ذلك الثواب فذاك إحباط أعمالهم، فلا يمكن أن يستدلّ بذلك على صحّة الإحباط في الآية على ما يقوله أصحاب الوعيد، ولأنّه تعالى علّق الإحباط في الآية بنفس العمل، وأكثر من خالفنا يعلّقه بالمستحقّ على الأعمال، وذلك خلاف الظاهر.

ثمّ مدح تعالى من كان بخلاف من يرفع الصوت بين يدي النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: ﴿إنّ الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله﴾ إعظاماً للنبيّ وإجلالاً له، والغضّ الحطّ من منزلة على وجه التصغير له بحالة، يقال: غضّ فلان عن فلان إذا ضعف حاله عن حال من هو أرفع منه، وغضّ بصره إذا ضعف عن حدّة النظر، وغضّ صوته إذا ضعف عن الجهر، وقال جرير:

فغُضَّ الطرف إنّك من نُمَير فلا كعباً بلغْتَ ولا كِلاباً[2]

ثمّ قال: ﴿أُولئك﴾ يعني الّذين يغضّون أصواتهم عند رسول الله هم ﴿الّذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾ أي لإخلاص التقوى فعاملهم معاملة المختبَر كما يمتحن الذهب لإخلاص جيّده. وقيل: ﴿امتحن الله قلوبهم

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٢.

(٢) ديوان جرير: ٦٣.

للتقوى﴾ أخلصها، في قول مجاهد وقتادة. وقال قوم: معناه أُولئك الّذين علم الله التقوى في قلوبهم، لأنّ الامتحان يراد به العلم، فعبّر عن العلم بالامتحان[١].

ثمّ قال تعالى: ﴿لهم مغفرة﴾ من الله لذنوبهم ﴿وأجر عظيم﴾ على أفعالهم وطاعاتهم.

ثمّ خاطب النبيّ صلى الله عليه وآله على وجه الذمّ لمن يرفع صوته من أجلاف الاعراب على النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿إنّ الّذين ينادونك﴾ يا محمّد ﴿من وراء الحجرات﴾ وهي جمع حجرة. وكلّ «فعلة» بضمّ الفاء يجمع بالألف والتاء، لأنّه ليس بجمع سلامة محضة إذ ما يعقل من الذكر ألحق به، لأنّه أشرف المعنيين، فهو أحقّ بالتفضيل، قال الشاعر:

أمـا كـان عـبّاد كـفياً لدارم بلى ولأبيات بها الحجرات[٢]

أي بلى ولبني هاشم. وقرأ أبو جعفر الحجرات بفتح الجيم. قال المبرّد: أبدل من الضمّة الفتحة استثقالاً لتوالي الضمّتين. ومنهم من أسكن مثل «عضُد وعضْد» وقال أبو عبيدة: جمع حجرة[٣] وغرفة يقال: حجرات وغرفات.

ثمّ قال: ﴿أكثرهم لا يعقلون﴾ لأنّهم بمنزلة البهائم لا يعرفون مقدار النبيّ صلى الله عليه وآله وما يستحقّه من التوقير والتعظيم. وقيل: إنّ الّذين رفعوا أصواتهم على النبيّ صلى الله عليه وآله قوم من بني تميم[٤]. وفي قراءة ابن مسعود «أكثرهم بنو تميم لا يعقلون».

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٣.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٣٨١. فيه: كفيئاً.
(٣) مجاز القرآن ٢: ٢١٩.
(٤) معاني القرآن وإعرابه ٣: ٧٠.

ثمّ قال: ﴿ولو أنّهم صبروا﴾ فلم ينادوك ﴿حتّى تخرج إليهم﴾ من منزلك ﴿لكان خيراً لهم﴾ من أن ينادونك من وراء الحجرات ﴿والله غفور رحيم﴾ أي ساتر لذنوبهم إن تابوا منها لأنّ ذلك كفر لا يغفره الله إلّا بالتوبة.

قوله تعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][(١)] قوله ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ خطاب من الله ـ عزّ وجل ـ للمؤمنين بأنّه ﴿إذا جاءكم فاسق﴾ وهو الخارج من طاعة الله إلى معصيته ﴿بنبأ﴾ أي بخبر عظيم الشأن ﴿فتبيّنوا﴾ صدقه من كذبه ولا تبادروا إلى العمل بمتضمّنه ﴿أن تصيبوا قوماً بجهالة﴾ لأنّه ربما كان كاذباً وخبره كذباً، فيعمل به فلا يؤمن بذلك. وقال ابن عبّاس ومجاهد ويزيد بن رومان وقتادة وابن أبي ليلى: نزلت الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، لمّا بعثه رسول الله ﷺ في صدقات بني المصطلق خرجوا يتلقّونه فرحاً به وإكراماً له، فظنّ أنّهم همّوا بقتله، فرجع إلى النبيّ ﷺ

---

(١) من الحجريّة.

فقال: إنّهم منعوا صدقاتهم، وكان الأمر بخلافه.

وفي الآية دلالة على أنّ خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل، لأنّ المعنى إن جاءكم فاسق بالخبر الّذي لا تأمنون أن يكون كذباً فتوقّفوا فيه، وهذا التعليل موجود في خبر العدل، لأنّ العدل على الظاهر يجوز أن يكون كاذباً في خبره، فالأمان غير حاصل في العمل بخبره. وفي الناس من استدلّ به على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان راويه عدلاً، من حيث إنّه أوجب تعالى التوقّف في خبر الفاسق، فدلّ على أنّ خبر العدل لا يجب التوقّف فيه. وهذا الّذي ذكروه غير صحيح، لأنّه استدلال بدليل الخطاب ودليل الخطاب ليس بدليل عند جمهور العلماء. ولو كان صحيحاً فليست الآية بأن يستدلّ بدليلها على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً بأولى من أن يستدلّ بتعليلها في دفع الأمان من أن يصاب بجهالة إذا عمل بها على أنّ خبر العدل مثله، على أنّه لا يجب العمل بخبر الواحد، وإن كان راويه عدلاً.

فان قيل: هذا يؤدّي إلى أن لا فائدة في إيجاب التوقّف في خبر الفاسق إذا كان خبر العدل مثله في الفائدة.

قلنا: والقول بوجوب العمل بخبر الواحد يوجب أنّه لا فائدة في تعليل الآية في خبر الفاسق الّذي يشاركه العدل فيه، فإذا تقابلا سقط الاستدلال بها على كلّ حال وبقي الأصل في أنّه لا يجوز العمل بخبر الواحد إلّا بدليل.

ومن قرأ ﴿تبيّنوا﴾ أراد تعرفوا صحّة متضمّن الخبر الّذي يحتاج إلى العمل عليه، ولا تقدموا عليه من غير دليل. يقال: تبيّن الأمر إذا ظهر،

وتبيّن هو[١] نفسه بمعنى واحد. ويقال أيضاً: تبيّنته إذا عرفته. ومن قرأ ﴿فتثبّتوا﴾ بالتاء والثاء، أراد توقّفوا فيه حتّى يتبيّن لكم صحّته.

وقوله: ﴿فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ معناه: متى عملتم بخبر الواحد وبان لكم كذب راويه أصبحتم نادمين على ما فعلتموه.

ثمّ خاطبهم يعني المؤمنين فقال: ﴿واعلموا﴾ معاشر المؤمنين ﴿أنّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتّم﴾ ومعناه لو فعل ما تريدونه في كثير من الأُمور ﴿لعنتّم﴾ أي أصابكم عنت ومكروه. يقال: أعنتُّ الرجل إذا حملت عليه عامداً لما يكره، يقال: أعنتُّه فعنت، وسمّي موافقته لما يريدونه طاعة لهم مجازاً لأنّ الطاعة يراعى فيها الرتبة، فلا يكون المطيع مطيعاً لمن دونه، وإنّما يكون مطيعاً لمن فوقه إذا فعل ما أمره به. ألا ترى أنّه لا يقال في الله تعالى: انّه مطيع لنا إذا فعل ما أردناه. ويقال فينا إذا فعلنا ما أراده الله: إنّه مطيع. والنبيّ صلى الله عليه وآله فوقنا فلا يكون مطيعاً لنا، فإطلاق ذلك مجاز.

وقوله: ﴿ولكن الله حبّب إليكم الايمان﴾ بما وعد من استحقاق الثواب عليه ﴿وزيّنه في قلوبكم﴾ بنصب الأدلّة على صحّته ﴿وكرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ بما وصفه من العقاب عليه، وهو قول الحسن. وفي الآية دلالة على أنّ أضداد الإيمان ثلاثة كفر وفسوق وعصيان.

ثمّ قال: ﴿أُولئك﴾ يعني الّذين وصفهم الله بالإيمان، وزيّن الإيمان في قلوبهم وأنّه كره إليهم الفسوق وغيره ﴿هم الراشدون﴾ أي المهتدون إلى طريق الحقّ الّذين أصابوا الرشد.

---

(١) في الحجريّة: فتبيّن عن.

ثمّ قال: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي فعل الله ذلك بهم فضلاً منه على خلقه ونعمة مجدّدة، وهو نصب على المفعول له، في قول الزجّاج.[١] ﴿والله عليم﴾ بالأشياء كلّها ﴿حكيم﴾ في جميع أفعاله.

ثمّ قال: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾ يقتل بعضهم بعضاً ﴿فأصلحوا بينهما﴾ حتّى يصطلحا. وقرأ يعقوب ﴿بين إخوتكم﴾ حمله على أنّه جمع «أخ» إخوة لأنّ الطائفة جمع. ومن قرأ على التثنية ردّه إلى لفظ الطائفتين. وقرأ زيد بن ثابت وابن سيرين وعاصم الجحدري ﴿بين أخويكم﴾ والمعاني متقاربة.

وقوله: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين﴾ لا يدلّ على أنّهما إذا اقتتلا بقيا على الايمان، ويطلق عليهما هذا الاسم، بل لا يمتنع أن يفسق أحد الطائفتين أو يفسقا جميعاً، وجرى ذلك مجرى أن تقول: وإن طائفة من المؤمنين ارتدّت عن الإسلام فاقتلوها. ثمّ قال: ﴿فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا الّتي تبغي حتّى تفيء﴾ أي فإن بغت إحدى الطائفتين على الأُخرى بأن تطلب ما لا يجوز لها وتقابل[٢] الأُخرى ظالمة لها متعدّية عليها ﴿فقاتلوا الّتي تبغي﴾ لأنّها هي الظالمة المتعدّية دون الأُخرى ﴿حتّى تفيء إلى أمر الله﴾ أي حتّى ترجع إلى أمر الله وتترك قتال الطائفة المؤمنة. ثمّ قال: ﴿فإن فاءت﴾ أي رجعت وتابت وأقلعت وأنابت إلى طاعة الله ﴿فأصلحوا بينهما﴾ يعني بينها وبين الطائفة الّتي كانت على الإيمان ولم تخرج عنه بالقول، فلا تميلوا على واحدة منهما ﴿وأقسطوا﴾ أي أعدلوا ﴿إنّ الله يحبّ المقسطين﴾ يعني العادلين، يقال: أقسط إذا عدل،

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٥.
(٢) في الحجريّة: يقاتل.

وقسط إذا جار. قال الله تعالى: ﴿وأمّا القاسطون فكانوا لجهنّم حطباً﴾[١].

وقيل: إنّ الآية نزلت في قبيلتين من الأنصار وقع بينهما حرب وقتال، ذكره الطبري[٢].

ثمّ أخبر تعالى: ﴿إنّما المؤمنون﴾ الّذين يوحّدون الله تعالى ويعملون بطاعاته ويقرّون بنبوّة نبيّه ويعملون بما جاء به ﴿إخوة﴾ يلزمهم نصرة بعضهم بعضاً ﴿فأصلحوا بين أخويكم﴾ يعني إذا رجعا جميعاً إلى الحقّ وما أمر الله به ﴿واتّقوا الله﴾ أي اجتنبوا معاصيه وافعلوا طاعته واتّقوه في مخالفتكم ﴿لعلّكم ترحمون﴾ معناه لكي ترحمون لأنّ «لعلّ» بمعنى الشكّ والشكّ لا يجوز على الله تعالى. قال الزجّاج: سمّوا المؤمنين إذا كانوا متّفقين في دينهم بأنّهم إخوة، لاتّفاقهم في الدين ورجوعهم إلى أصل النسب لأنّهم لآدم وحوّاء[٣].

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (١١) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَـٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا

(١) الجنّ: ١٥. (٢) تفسير الطبري ١١: ٣٨٧. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٣٦.

يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ أهل البصرة ﴿لا يألتكم﴾ بالهمزة. الباقون ﴿لا يلتكم﴾ بلا همزة، وهما لغتان، يقال: ألت يألت إذا نقص، ولات يليت مثل ذلك. وفي المصحف بلا ألف، وقال الشاعر:

وليـلة ذات نـدى سريْتُ ولم يلتني عن سراها ليت[٢]

ومعنى الآية لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً، ومنه قوله: ﴿وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾[٣] أي ما نقصناهم. وقرأ يعقوب ﴿ميتاً﴾ بالتشديد. الباقون بالتخفيف. والتشديد الأصل، وهو مثل سيّد وسيد.

يقول الله مخاطباً للمؤمنين الّذين وحّدوه وأخلصوا العبادة له وصدّقوا نبيّه وقبلوا ما دعاهم الله إليه: ﴿لا يسخر قوم من قوم﴾ ومعناه لا يهزأ به ويتلهّى منه. وقال مجاهد: لا يسخر غنيّ من فقير لفقره بمعنى لا يهزأ به، والسخريّة بالاستهزاء. ولو سخر المؤمن من الكافر احتقاراً له لم يكن بذلك مأثوماً. فأمّا في صفات الله فلا يقال إلّا مجازاً كقوله: ﴿فانّا نسخر منكم كما تسخرون﴾[٤] معناه إنّا نجازيكم جزاء السخريّة.

ثمّ قال: ﴿عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾ لأنّه ربما كان الفقير المهين في ظاهر الحال خيراً عند الله وأجلّ منزلة وأكثر ثواباً من الغنيّ الحسن الحال.

---

(١) من الحجريّة.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٤٠٢، مجاز القرآن ٢: ٢٢١.
(٣) طور: ٢١.
(٤) هود: ٣٨.

وقال الجُبّائي: يجوز أن يكونوا خيراً منهم في منافع الدنيا، وكثرة الانتفاع بهم. وقوله: ﴿ولا نساء من نساء﴾ أي ولا يسخر نساء من نساء على هذا المعنى ﴿عسى أن يكنّ خيراً منهنّ﴾ ويقال: هذا خير من هذا بمعنى أنفع منه في ما يقتضيه العقل، وكذلك كان نسب رسول الله ﷺ خير من نسب غيره. ثمّ قال: ﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾ فاللمز هو الرمي بالعيب لمن لا يجوز أن يؤذى بذكره، وهو المنهيّ عنه. فأمّا ذكر عيبه، فليس بلمز، وروي أنّه ﷺ قال: «قولوا في الفاسق ما فيه كي يحذره الناس»[1] وقال الحسن في صفة الحجّاج: أخرج الينا نباتاً قصيراً قل ما عرفت فيها إلّا عنه في سبيل الله ثمّ جعل يطبطب بشعيرات له، ويقول: يا با سعيد. ولو كان مؤمناً لما قال فيه ذلك. وقال ابن عبّاس وقتادة: معناه لا يطعن بعضكم على بعض كما قال: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾[2] لأنّ المؤمنين كنفس واحدة، فكأنّه بقتله أخاه قاتل نفسه.

وقوله: ﴿ولا تنابزوا بالألقاب﴾ قال أبو عبيدة: الأنباز والألقاب واحد[3]. فالنبز القذف باللقب، نهاهم الله أن يلقب بعضهم بعضاً. وقال الضحّاك: معناه كلّ اسم أو صفة يكره الإنسان أن يدعى به، فلا يدع به. وإنّما يدعى بأحبّ أسمائه إليه. وقوله: ﴿بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان﴾ لا يدلّ على أنّ المؤمن لا يكون فاسقاً لأنّ الإيمان والفسق لا يجتمعان، لأنّ ذلك يجري مجرى أن يقال: بئس الحال الفسوق مع الشيب على أنّ الظاهر يقتضي أنّ الفسوق الّذي يتعقّب الإيمان بئس الاسم، وذلك لا يكون

---

(١) كتاب المجروحين ١: ٢٢٠، مع اختلاف.

(٢) النساء: ٢١.

(٣) مجاز القرآن ٢: ٢٢٠.

إلّا كفراً، وهو بئس الاسم.

ثمّ قال: ﴿ومن لم يتب﴾ يعني من معاصيه ويرجع إلى طاعة الله ومات مصرّاً ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ الّذين ظلموا نفوسهم بأن فعلوا ما يستحقّون به العقاب.

ثمّ خاطبهم أيضاً فقال: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا﴾ أي صدّقوا بوحدانيّته ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنّ﴾ وإنّما قال ﴿كثيراً﴾ لأنّ في جملته ما يجب العمل عليه، ولا يجوز مخالفته. وقوله: ﴿إنّ بعض الظنّ إثم﴾ فالظنّ الّذي يكون إثماً إنّما هو ما يفعله صاحبه وله طريق إلى العلم بدلاً منه ممّا يعمل عليه، فهذا ظنّ محرّم لا يجوز فعله، فأمّا ما لا سبيل له إلى دفعه بالعلم بدلاً منه فليس بإثم، فلذلك كان بعض الظنّ إثم، دون جميعه. والظنّ المحمود قد بيّنه الله ودلّ عليه في قوله: ﴿لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾[(١)] وقيل: يلزم المؤمن أن يحسن الظنّ به ولا يسيء الظنّ في شيء يجد له تأويلاً جميلاً، وإن كان ظاهره القبيح. ومتى فعل ذلك كان ظنّه قبيحاً.

وقوله: ﴿ولا تجسّسوا﴾ أي لا تتّبعوا عثرات المؤمن، في قول ابن‌عبّاس ومجاهد وقتادة. وقال أبو عبيدة: التجسّس والتحسّس واحد وهو التبحّث، يقال: رجل جاسوس، والجاسوس والناموس واحد[(٢)]. وقيل: للمؤمن حقّ على المؤمن ينافي التجسّس عن مساوئه. وقيل: يجب على المؤمن أن يتجنّب ذكره المستور عند الناس بقبيح، لأنّ عليهم أن يكذّبوه ويردّوا عليه، وإن كان صادقاً عند الله، لأنّ الله ستره عن الناس،

(١) النور: ١٢.
(٢) مجاز القرآن ٢: ٢٢٠.

وإنّما دعى الله تعالى المؤمن إلى حسن الظنّ في بعضهم ببعض للألفة والتناصر على الحقّ، ونهوا عن سوء الظنّ لما في ذلك من التقاطع والتدابر.

وقوله: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ فالغيبة ذكر العيب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه. ويروى في الخبر «إذا ذكرت المؤمن بما فيه ممّا يكرهه الله فقد اغتبته، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه»[1].

وقوله: ﴿أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ معناه أنّ من دعي إلى أكل لحم أخيه فعافته نفسه، فكرهته من جهة طبعه، فإنّه ينبغي إذا دعي إلى عيب أخيه فعافته نفسه من جهة عقله، فينبغي أن يكرهه، لأنّ داعي العقل أحقّ بأن يتّبع من داعي الطبع لأنّ داعي الطبع أعمى وداعي العقل بصير، وكلاهما في صفة الناصح، وهذا من أحسن ما يدلّ على ما ينبغي أن يجتنب من الكلام. وفي الكلام حذف، وتقديره ﴿أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً﴾ فيقولون: لا، بل عافته نفوسنا، فقيل لكم ﴿فكرهتموه﴾ فحذف لدلالة الكلام عليه. وقال الحسن: معناه فكما كرهتم لحمه ميتاً فاكرهوا غيبته حيّاً، فهذا هو تقدير الكلام.

وقوله: ﴿واتّقوا الله﴾ معطوف على هذا الفعل المقدّر، ومثله ﴿ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك﴾[2] والمعنى ألم نشرح، قد شرحنا فحمل الثاني على معنى الأوّل، لأنّه لا يجوز أن يقول ألم وضعنا عنك.

ثمّ قال: ﴿واتّقوا الله﴾ باجتناب معاصيه وفعل طاعاته ﴿إنّ الله توّاب﴾ أي قابل لتوبة من يتوب إليه ﴿رحيم﴾ بهم.

ثمّ قال: ﴿قالت الأعراب آمنّا﴾ قال قَتادة: نزلت الآية في أعراب

---

(١) الكافي ٢: ٣٥٨ / ٦. مع اختلاف.

(٢) الانشراح: ١ ـ ٢.

مخصوصين أنّهم قالوا: ﴿آمنّا﴾ أي صدّقنا بالله وأقررنا بنبوّتك يا محمّد، وكانوا بخلاف ذلك في بواطنهم، فقال الله تعالى لنبيّه: ﴿قل﴾ لهم ﴿لن تؤمنوا﴾ على الحقيقة في الباطن ﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي استسلمنا خوفاً من السبي والقتل، وهو قول سعيد بن جبير وابن زيد. ثمّ بيّن فقال: ﴿ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ بل أنتم كفّار في الباطن. ثمّ قال لهم: ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ وترجعوا إلى ما يأمرانكم به من طاعة الله والانتهاء عن معاصيه ﴿لا يلتكم من أعمالكم شيئاً﴾ أي لا ينقصكم من جزاء أعمالكم شيئاً ﴿إنّ الله غفور رحيم﴾ أي ساتر لذنوبهم إذا تابوا رحيم بهم في قبول توبتهم.

ثمّ وصف المؤمن على الحقيقة فقال: ﴿إنّما المؤمنون﴾ على الحقيقة ﴿الّذين آمنوا بالله﴾ وصدّقوا وأخلصوا بتوحيده ﴿ورسوله﴾ أي وأقرّوا بنبوّة نبيّه ﴿ثمّ لم يرتابوا﴾ أي لم يشكّوا في شيء من أقوالهما ﴿وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ ثمّ قال: ﴿أُولئك هم الصادقون﴾ في أقوالهم دون من يقول بلسانه ما ليس في قلبه.

وقوله: ﴿يا أيّها الناس﴾ خطاب للخلق كافّة من ولد آدم يقول لهم: ﴿إنّا خلقناكم﴾ بأجمعكم ﴿من ذكر وأُنثى﴾ يعني آدم وحوّا عليهما السلام وقال مجاهد: خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة بدلالة الآية ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل﴾ فالشعوب النسب الأبعد والقبائل الأقرب، في قول مجاهد وقَتادة. وقيل: الشعوب أعمّ والقبائل أخصّ[١]. وقال قوم: الشعوب الأفخاذ والقبائل أكثر منهم[٢]. والشعوب جمع شعب، وهو الحيّ العظيم،

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٢٠.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٣٢٩.

والقبائل مأخوذ من قبائل الرأس، وقبائل الحقبة الّتي يضمّ بعضها إلى بعض. فأمّا الحيّ العظيم المستقرّ بنفسه فهو شعب[1]، قال ابن أحمر:

من شَعب همدان أو سعد العشيرة أو
خوْلان أو مذحج جوّاله طرباً[2]

والقبائل جمع قبيلة. وقوله: ﴿لتعارفوا﴾ معناه جعلكم كذلك لتعارفوا، فيعرَف بعضكم بعضاً. ومن قرأ بالياء مشدّدة أدغم إحداهما في الأُخرى. ومن خفّف حذف إحداهما. ثمّ قال: ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ لمعاصيه وأعملكم بطاعته.

قال البلخي: اختلف الناس في فضيلة النسب، فأنكرها قوم، وأثبتها آخرون. والقول عندنا في ذلك أنّه ليس أحد أفضل من مؤمن تقيّ، فإنّ الحسب والنسب والشرف لا يغنيان في الدين شيئاً، لأنّ لهما فضلاً كفضل الخزّ على الكرباس والكتّان على البهاري وكفضل الشيخ على الشابّ. فإنّ الطبائع مبنيّة والإجماع واقع على أنّ شيخاً وشابّاً لو استويا في الفضل في الدين لقدّم الشيخ على الشابّ وزيد في تعظيمه وتبجيله، وكذلك الأب والابن لو استويا في الفضل في الدين لقدّم الأب، وكذلك السيّد وعبده. وهذا ممّا لا خلاف فيه بين العقلاء، وكذلك لو أنّ رجلين استويا في الدين ثمّ كان أحدهما له قرابة برسول الله أو بالخيار الصالحين لوجب أن يقدّم المتّصل برسول الله وبالصالح، ويزاد إكرامه في تعظيمه وتبجيله، وكذلك إذا

(١) راجع معاني القرآن ٣: ٧٢.

(٢) الطبري ١١: ٣٩٧ نسبه إلى ابن أحمر الباهلي، وفيه: «هاجروا له» بدل «جواله». مجاز القرآن ٢: ٢٢٠.

استويا وكان في آباء أحدهما أنبياء ثلاثة وأربعة، وكان في آباء الآخر نبيّ واحد كان الأوّل مستحقّاً للتقديم، وكذلك لو كان لأحدهم أب نبيّ إلّا أنّه من الأنبياء المتقدّمين، وكان أبو الآخر هو النبيّ الّذي بعث إلينا كان الثاني أعظم حقّاً وأحقّ بالتقديم، وكذلك لو كان أحدهما له آباء معروفون بالفضل والأخلاق الجميلة والأفعال الشريفة وبالوقار وبالنجدة والأدب والعلم كانت الطبايع مبنيّة على تقديمه على الآخر. فإن قيل: الطبائع مبنيّة على تقديم ذوي المال فيجب أن يكون الغنى وكثرة المال شرفاً. قلنا: كذلك هو لا ننكر هذا ولا ندفعه. فان قيل: إذا كان لأحدهما مال لا يبذل، والآخر قليل المال يبذل[1] قدر ما يملكه من الحقوق ويضعه في مواضعه ؟ قلنا الباذل أفضل من الّذي لا يبذل. وإنّما تكلّمنا في الرجلين إذا استويا في خصالهما وفضل أحدهما كثرة المال وكان واضعاً له في موضعه باذلاً له في حقوقه وكذلك لو أنّ رجلاً كان ذا حسب وشرف في آبائه إلّا أنّه كان فاسقاً أو سخيفاً أو وضيعاً في نفسه كان الّذي لا حسب له وهو عفيف نبيل أفضل منه بالأوصاف الّتي لا تخفى. وكان حسب ذلك السخيف ممّا يزيده وبالاً، ومعنى الحسب أنّه يحسب لنفسه آباء أشرافاً فضلاً، وعمومة وأخوة. انتهى كلام البلخي .

وقوله: ﴿إنّ الله عليم خبير﴾ يعني بمن يعمل طاعاته ويتّقي معاصيه ﴿خبير﴾ بذلك لا يخفى عليه شيء من ذلك. ثمّ وصف المؤمنين الّذين تقدّم ذكرهم فقال: ﴿أُولئك هم الصادقون﴾ على الحقيقة الّذين يستحقّون ثواب الله تعالى.

---

(١) في الحجريّة: بذّالاً.

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ ثلاث آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ ابن كثير وحده ﴿بما يعملون﴾ بالياء على الغيبة. الباقون بالتاء على الخطاب.

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الكفّار: ﴿أتعلّمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكلّ شيء عليم﴾ فالتعليم تعريض من لا يعلم حتّى يعلم بإفهام المعنى أو خلق العلم له في قلبه، فعلى هذا لا يجوز أن يعلم العالم لنفسه الّذي يعلم المعلومات كلّها بنفسه، ولا يحتاج إلى من يعلّمه ولا إلى علم يعلم به، كما أنّه من يكون قديماً بنفسه استغنى عن موجد يوجده، وإنّما يحتاج إلى التعليم من يجوز أن يعلم وألّا يعلم، ومن يخفى عليه شيء دون شيء. ففي الآية دلالة على أنّ العالم بكلّ وجه لا يجوز أن يُعلَّم. والمعنيّ بالآية هم الّذين ذكرهم في الآية الأولى وبيّن أنّهم منافقون لقول الله لهم: ﴿أتعلّمون الله بدينكم﴾ إنّا آمنّا بالله وبرسوله، وهو تعالى يعلم منكم خلاف ذلك من الكفر والنفاق، فلفظه لفظ الاستفهام والمراد به الإنكار.

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال: ﴿يمنّون عليك أن أسلموا﴾ فالمنّ القطع بإيصال النفع الموجب للحقّ، ومنه قوله: ﴿فلهم أجر غير ممنون﴾[٢] أي غير

---

(١) من الحجريّة.
(٢) التين: ٦.

مقطوع، ومنه قولهم: المنّة تكدّر الصنيعة. وقيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنّة. ومن لا أحد إلّا وهو محتاج إليه، فليس في منّه تكدير النعمة، لأنّ الحاجة لازمة لامتناع أن يستغني عنه بغيره. وأكثر المفسّرين على أنّ الآية نزلت في المنافقين. وقال الحسن: نزلت في قوم من المسلمين قالوا: أسلمنا يا رسول الله قبل أن يسلم بنو فلان، وقاتلنا معك بني فلان. وقال الفرّاء: نزلت في أعراب من بني أسد قدموا على النبيّ ﷺ بعيالاتهم طمعاً في الصدقة، وكانوا يقولون أعطنا، فإنّا أتيناك بالعيال والأثقال وجاءتك العرب على ظهور رواحلها، فأنزل الله فيهم الآية[1]. ثمّ قال: ﴿بل الله يمنّ عليكم﴾ بأنواع نعمه و﴿أن هداكم للإيمان﴾ وأرشدكم إليه بما نصب لكم من الأدلّة عليه ورغبكم فيه ﴿إن كنتم صادقين﴾ في إيمانكم الّذي تدّعونه. ومتى كنتم صادقين يجب أن تعلموا أنّ المنّة لله عليكم في إيمانكم، لا لكم على الله ورسوله.

وموضع ﴿أن أسلموا﴾ نصب بـ﴿يمنّون﴾ وهو مفعول به. وقيل: موضعه الجرّ، لأنّ تقديره بأن أسلموا.

ثمّ قال: ﴿إنّ الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون﴾ من طاعة ومعصية وإيمان وكفر في باطن أو ظاهر لا يخفى عليه شيء من ذلك.

(١) معاني القرآن ٣: ٧٣.

# سورة ق

مكّية بلا خلاف، وهي خمس وأربعون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا
شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ
مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

[خمس آيات بلا خلاف.

أقول:][1] لم يعدّ أحد ﴿ق﴾ آية، وكذلك نظائره مثل ﴿ن﴾ و﴿ص﴾ لأنّه من المفرد، وكلّ مفرد فإنّه لا يعدّ لبعده عن شبه الجملة. وأمّا المركّب فما أشبه الجملة ووافق رؤس الآي، فإنّه يعدّ مثل ﴿طه﴾ و ﴿حم﴾ و﴿ألم﴾ وما أشبه ذلك. و «قاف» قيل: هو اسم للجبل المحيط بالأرض. وقيل: هو اسم من أسماء السورة ومفتاحها على ما بيّنّاه في حروف المعجم. وهو الأقوى. وقيل: ﴿ق﴾ من قضى الأمر و ﴿حم﴾ من حمّ أي دنا[2].

---

(١) من الحجريّة.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٣٣١.

وقوله: ﴿والقرآن﴾ قسم من الله تعالى بالقرآن. وجواب القسم محذوف، وتقديره: لحقّ الأمر الّذي وعدتم به أنّكم لمبعوثون، تعجّبوا فقالوا: ﴿أئذا متنا وكنّا تراباً﴾ ! وقيل: تقديره: وربّ القرآن. واستدلّ بذلك على حدوثه، وهو خلاف الظاهر. والمجيد العظيم الكرم. ووصف القرآن ونعته بأنّه مجيد، معناه أنّه عظيم القدر عالي الذكر. ويقال مجّد الرجل ومجد مجداً وهما لغتان إذا عظم كرمه وأمجد كرم فعاله. والمجيد في اسم الله تعالى العظيم الكرم، ومجّده خلقه: عظّموه بكرمه، ورجل ماجد عظيم الكرم. وتماجد القوم تماجداً، وذلك إذا تفاخروا بإظهار مجدهم. والمجد مأخوذ من قولهم : مجدت الإبل مجوداً، وذلك إذا عظمت بطونها لكثرة أكلها من كلأ الربيع. وأمجد القوم إبلهم وذلك في الربيع، كأنّهم أصابوا أكلاً عظيماً كريماً، قال الشاعر:

رفعت مجد تميم باهلال لها ... رفع الطراف على العَلْياء بالعمد[1]

وقوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ إخبار منه تعالى عن حال الكافرين الّذين بعث الله إليهم النبيّ ﷺ من كفّار قريش وغيرهم مخوّفاً لهم من معاصيه وترك طاعاته باستحقاق العقاب على ذلك وأنّه تعالى سيبعثهم ويجازيهم على ذلك بعد الموت، فقال الكافرون جواباً لهذا القول: هذا شيء عجيب. والتعجّب بَثير النفس تعظيم الأمر الخارج عن العادة الّذي لا يقع بسببه معرفة، يقال عجب عجباً وتعجّب تعجبّاً، فالّذي يتعجّب منه عجب. وقيل: العجب هو كلّ ما لا يعرف علّته ولا سببه، وأفحش العجب التعجّب ممّا ليس بعجب على

(١) ديوان ذي الرُمَّة: ٦٩، الكامل ١: ٧٢.

طريق الإنكار للحقّ، لأنّه يجتمع فيه سببا القبيح، فهؤلاء تعجّبوا من مجيء النذير من الله تعالى إليهم فقد فحشوا غاية التفحّش، مع أنّه ممّا يعظم ضرر الجهل به. ثمّ قالوا أيضاً في الجواب عن ذلك أإذا متنا وخرجنا من كوننا أحياء وكنّا تراباً يبعثنا الله!؟ وحذف لدلالة الكلام عليه. ثمّ قالوا: ﴿ذلك رجع بعيد﴾ أي يبعد عندنا أن نبعث بعد الموت، لأنّ ذلك غير ممكن.

فقال الله تعالى: ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ أي علمنا الّذي تأكل الأرض من لحومهم، لا يخفى علينا شيء منه ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ أي ممتنع الذهاب بالبلى والدروس، كلّ ذلك ثابت فيه ولا يخفى منه شيء وهو اللوح المحفوظ. ثمّ قال: ﴿بل كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهم﴾ يعني بالنبيّ والقرآن الّذي جاء به دالاًّ على صدقه، وبالبعث والنشور، الّذي أنذرهم به ﴿فهم في أمر مريج﴾ أي مختلط ملتبس وأصله إرسال الشيء مع غيره في المرج من قولهم: مرج الخيل الذكور مع الأُناث وهو مرج بالخيل أي المسرح الّذي يمرج فيه، و ﴿مرج البحرين﴾[١] أرسلهما في مرج ﴿يلتقيان﴾[٢] ولا يختلطان.

قوله: ﴿من مارج من نار﴾[٣] أي مرسل الشعاع بانتشاره. قال أبو ذؤيب:

فجالت فالتمستُ به حشاها ... فخرّ كأنّه غصن مريج[٤]

أي قد التبس بكثرة تشعّبه ومرجت عهودهم وأمرجوها أي خلطوها، ولم يفوا بها. وقال أبو عبيدة: مرج أمر الناس إذا اختلط[٥] قال أبو ذؤيب:

---

(١ و٢) الرحمن: ١٩. (٣) الرحمن: ١٥.

(٤) تفسير الطبري ١١: ٤٠٨، الكشف والبيان ٩: ٩٤. فيهما بدل غصن «خوط».

(٥) مجاز القرآن ٢: ٢٢٢.

«فخرّ كأنّه خوط مريج» أي سهم مختلط الأمر باضطرابه، فهؤلاء الكفّار حصلوا في أمر مختلط ملتبس من أمر النبيّ ﷺ فقالوا تارة هو مجنون وأُخرى هو كاهن وأُخرى هو شاعر، فلم يثبتوا على شيء واحد، فلذلك كانوا في أمر مريج .

قوله تعالى:

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ستّ آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] لمّا حكى الله تعالى عن الكفّار أنّهم كذّبوا بالحقّ الّذي هو القرآن وجحدوا البعث والنشور والثواب والعقاب، وتعجّبوا من ذلك نبّههم الله تعالى على ذلك وبيّن لهم الطريق الّذي إذا نظروا فيه علموا صحّته، فقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها﴾ ومعناه أفلم يفكّروا في بناء هذه السماء وعظمها، وحسن تزيينها فيعلموا أنّ لها بانياً بناها وصانعاً صنعها وأنّه لابدّ أن يكون قادراً عليها، وأنّه لا يعجزه شيء، لأنّه لا يقدر على مثل ذلك إلّا القادر لنفسه الّذي لا يجوز عليه العجز ويعلمه، لأنّه عالم بما يرون من إحكام الصنعة فيها وانّه الّذي لا يخفى عليه خافية. وقوله: ﴿وزيّناها﴾ يعني أحسنّا صورتها بما خلقنا فيها من النجوم الثاقبة والشمس والقمر، وأنّه ﴿مالها من فروج﴾ أي ليس فيها فتوق يمكن السلوك

(١) من الحجريّة.

فيها وإنّما يسلكها الملائكة بأن يفتح لها أبواب السماء إذا عرجت إليها.

ثمّ قال: ﴿والأرض مددناها﴾ أي بسطناها، وتقديره: ومددنا الأرض مددناها، كما قال: ﴿والقمر قدّرناه﴾[1] فيمن نصب، ولو رفع كان جائزاً، والنصب أحسن ـ هاهنا ـ لكونه معطوفاً على ﴿بنيناها﴾ فعطف الفعل على الفعل أحسن.

ثمّ قال: ﴿وألقينا فيها رواسي﴾ أي طرحنا جبالاً تمنعها من الحركة ليتمكّن استقرار الحيوان عليها ﴿وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج﴾ قال ابن زيد: البهيج الحسن المنظر والبهجة الحسن الّذي له روعة عند الرؤية، كالزهرة والأشجار الملتفّة والرياض الخضرة في الأنواع المتشاكلة والمباري المصطفّة خلالها الأنهار الجارية.

وقوله: ﴿تبصرة وذكرى لكلّ عبد منيب﴾ أي فعلنا ذلك وخلقناه على ما وصفناه ليتبصّر به ويتفكّر به كلّ مكلّف كامل العقل يريد الرجوع إلى الله والإنابة إليه.

ثمّ قال: ﴿ونزّلنا من السماء ماءً مباركاً﴾ يعني مطراً وغيثاً ﴿فأنبتنا به﴾ بذلك الماء ﴿جنّات﴾ أي بساتين فيها أشجار تجنّها ﴿وحبّ الحصيد﴾ يعني البرّ والشعير، وكلّ ما يحصد ـ في قول قتادة ـ لأنّ من شأنه أن يحصد، والحبّ هو الحصيد، وإنّما أضافه إلى نفسه، كما قال: ﴿لحقّ اليقين﴾[2] وكما قالوا: مسجد الجامع وغير ذلك. وقوله: ﴿والنخل﴾ عطف على ﴿جنّات﴾ فلذلك نصبه، و ﴿باسقات﴾ أي عاليات يقال: بسقت النخلة بسوقاً. قال ابن نوفل لابن هبيرة:

---

(١) يس: ٣٩.

(٢) الحاقّة: ٥١.

يـا بـن الّذين بـفضلهم بسقت على قيس فزاره[١]

وقال ابن عبّاس ﴿باسقات﴾ طوال النخل، وبه قال مجاهد وقتادة ﴿لها طلع نضيد﴾ أي لهذه النخل الّتي وصفها بالعلوّ ﴿طلع نضيد﴾ نـضد بـعضه على بعض، في قول مجاهد وقتادة.

وقوله: ﴿رزقاً للعباد﴾ أي خلقنا ما ذكرنا من حبّ الحـصيد والطـلع النضيد رزقاً للعباد وغذاء لهم، وهو نصب على المصدر أي رزقناهم رزقاً، ويجوز أن يكون مفعولاً له أي لرزق العباد والرزق هو ما للحيّ الانتفاع به على وجه ليس لغيره منعه منه، والحرام ليس برزق، لأنّ الله تعالى منع منه بالنهي والحظر وكلّ رزق فهو من الله تعالى إمّا بأن يفعله أو يفعل سـببه، لأنّه ممّا يريده. وقد يرزق الواحد منّا غيره، كما يقال: رزق السلطان الجند.

وقوله: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً﴾ أي أحيينا بذلك الماء الّذي أنـزلنا مـن السماء بلدة ميتاً أي جدباً قحطاً، لا تنبت شيئاً، فأنبتت وعاشت. ثمّ قال: ﴿كذلك الخروج﴾ أي مثل ما أحيينا هذه الأرض الميتة بالماء، مـثل ذلك نحيي الموتى يوم القيامة فيخرجون من قبورهم لأنّ من قدر على أحدهما قدر على الآخر، وإنّما دخلت على القوم شبهة من حيث إنّهم رأوا العادة جارية بإحياء الأرض المـوات بـنزول المـطر عـليها، ولم يـروا إحـياء الأموات، فظنّوا أنّه يخالف ذلك، ولو أنعموا النظر لعلموا أنّ القادر عـلى أحدهما قادر على الآخر.

قوله تعالى:

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤١٠، مجاز القرآن ٢: ٢٢٣، في الحجريّة: قراره.

لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ أربع آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ تسلية له عن كفر قومه وتركهم الايمان به مهدّداً لكفّار قومه: إنّه كما كذّبوك يا محمّد هـؤلاء وجـحدوا نبوّتك مثل ذلك كذّب قبلهم من الأُمم الماضية قـوم نـوح فـأهلكهم الله وأغرقهم وأصحاب الرسّ، وهم أصحاب البئر الّذين قتلوا نـبيّهم ورسّـوه فيها، في قول عكرمة. وقال الضحّاك: الرسّ بئر قتل فيها صاحب ياسين. وقيل: الرسّ بئر لم يطو بحجر ولا غيره. قال الجعدي

تنابلة يحفرون الرساسا[2]

و ﴿ثمود﴾ هم قوم صالح حيث كذّبوه ونحروا ناقة الله الّتي أخرجها آية له من الجبل ﴿وعاد﴾ وهم قوم هود، فكذّبوه فأهلكهم الله ﴿وفرعون وإخوان لوط﴾ أي كذّب فرعون موسى، وقوم لوط لوطاً، وسمّاهم إخوته لكونهم من نسبه ﴿وأصحاب الأيكة﴾ وهم قوم شـعيب، والأيكـة الغـيظة ﴿وقوم تبّع﴾ روي في الحديث «لا تلعنوا تبّعاً، فإنّه كان أسلم»[3] وإنّما ذمّ الله قومه.

ثمّ أخبر تعالى عنهم كلّهم فقال: ﴿كلّ كذّب الرسل﴾ المـبعوثة إليـهم، وجحدوا نبوّتهم ﴿فحقّ وعيد﴾ فاستحقّوا بماوعدهم به من العقاب، فإذا كانت منازل الأُمم الخالية إذا كذّبوا الرسل الهلاك والدمار، وأنتم معاشر الكفّار قد سلكتم مسلكهم في التكذيب فحالكم كحالهم في استحقاق مثل ذلك.

---

(١) من الحجريّة. (٢) تفسير الطبري ٩: ٣٩٠، مجاز القرآن ٢: ٢٢٣، جمهرة اللغة ١: ٨١.
(٣) تفسير الطبري ١١: ٤١٣.

ثمّ قال الله تعالى على وجه الإنكار عليهم، بلفظ الاستفهام: ﴿أفعيينا بالخلق الأوّل﴾ قال الحسن: الخلق الأوّل آدم، وقد يكون ذلك المراد لإقرارهم به وأنّهم ولده. يقال: عييت بالأمر إذا لم يعرف وجهه وأعييت إذا تعبت، وكلّ ذلك من التعب في الطلب. والمعنى إنّا كما لم نعي بالخلق الأوّل لا نعيا بخلقهم على وجه الإعادة، والعيّ عجز بانقلاب المعنى على النفس. ثمّ قال: ﴿بل هم في لبس من خلق﴾ فاللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له ﴿من خلق جديد﴾ وهو القريب الإنشاء، يقال: بناء جديد وثوب جديد، وخلق جديد وأصله القريب العهد، بالقطع للبس لأنّه من جددته أجدّه جدّاً إذا قطعته فهو [كَفُرْتُ العهد بالقطع للبس][(١)].

قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ خمس آيات.

[أقول:][(٢)] يقول الله تعالى مقسماً: إنّه خلق الإنسان أي اخترعه وأنشأه مقدّراً. والخلق الفعل الواقع على تقدير وترتيب. والمعنى أنّه يوجده على ما تقتضيه الحكمة من غير زيادة ولا نقصان. وأخبر أنّه يعلم ما يوسوس به صدر الإنسان. فالوسوسة حديث النفس بالشيء في خفى، ومنه قوله: ﴿فوسوس إليه الشيطان﴾[(٣)] ومنه الوسواس كثرة حديث النفس

---

(١) لم يتبيّن لنا معناه.
(٢) من الحجريّة. فيه: أربع آيات بلا خلاف.
(٣) طه: ١٢٠.

بالشيء من غير تحصيل قال رؤبة:

وسوس يدعو مخلصاً ربّ الفلق[١]

ثمّ أخبر تعالى أنّه أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد. قال ابن عبّاس ومجاهد: «الوريد» عرق في الحلق وهما وريدان في العنق: من عن يمين وشمال، وكأنّه العرق الّذي يرد إليه ما ينصب من الرأس، فسبحان الله الخلّاق العليم الّذي أحسن الخلق والتدبير، وجعل حبل الوريد العاتق، وهو يتّصل[٢] من الحلق إلى العاتق هذا العرق الممتدّ للإنسان من ناحيتي حلقه إلى عاتقه، وهو الموضع الّذي يقع الرداء عليه لأنّه يطلق الرداء من موضعه. قال رؤبة :

كأن وريديه رِشاء خُلْب[٣]

أي ليف. وقال الحسن: الوريد الوتين، وهو عرق معلّق به القلب، فالله تعالى أقرب إلى المرء من قلبه. وقيل: المعنى ونحن أقرب إليه ممّن كان بمنزلة حبل الوريد في القرب في أنّي أعلم به. وقيل: معناه أقرب إليه بما يدركه من حبل الوريد لو كان مدركاً. وقيل: ونحن أملك به من حبل الوريد في الاستيلاء عليه[٤] وذلك أنّ حبل الوريد في حيّز غير حيّزه. والله تعالى مدرك له بنفسه ومالك له بنفسه.

وقوله: ﴿إذ يتلقّى المتلقيان﴾ «إذ» متعلّقة بقوله: ﴿ونحن أقرب إليه﴾ حين يتلقّى المتلقّيان، يعني الملكين الموكّلين بالإنسان ﴿عن اليمين وعن الشمال

---

(١) مرّ في ٦: ٣٤٩، معجم تهذيب اللغة ٤: ٣٨٩٤ مادّة «وسوس» النكت والعيون ٥: ٣٤٦.

(٢) في الحجريّة: ينفصل. (٣) مجاز القرآن ٢: ٢٢٣، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٤٤. فيه: أخلب.

(٤) النكت والعيون ٥: ٣٤٧.

قعيد﴾ أي عن يمينه وعن شماله. وإنّما وحّد «قعيد» لأحد وجهين:

أحدهما: أنّه حذف من الأوّل لدلالة الثاني عليه، كما قال الشاعر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف[١]

أي نحن بما عندنا راضون، فتقدير الآية: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد.

الثاني: أنّه يكون القعيد على لفظ الواحد، ويصلح للإثنين والجمع كالرسول لأنّه من صفات المبالغة، وفيه معنى المصدر، كأنّه قيل: ذوا المراقبة. وقال مجاهد: القعيد الرصيد. وقيل: عن اليمين ملك يكتب الحسنات، وعن الشمال ملك يكتب السيّئات، في قول الحسن ومجاهد[٢]. وقال الحسن: حتّى إذا مات طويت صحيفة عمله وقيل له يوم القيامة: ﴿إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾[٣] فقد عدل ـ والله ـ عليه من جعله حسيب نفسه. وقال الحسن: الحفظة أربعة: ملكان بالنهار وملكان بالليل.

وقوله: ﴿ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد﴾ أي لا يتكلّم بشيء من القول إلّا وعنده حافظ يحفظ عليه، فالرقيب الحافظ والعتيد المعدّ للزوم الأمر.

وقوله: ﴿وجاءت سكرة الموت بالحقّ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: جاءت السكرة بالحقّ من أمر الآخرة حتّى عرفه صاحبه واضطرّ إليه. والآخر: وجاءت سكرة الموت بالحق الّذي هو الموت[٤]. وروي أنّ أبا بكر وابن مسعود كانا يقرءان «وجاءت سكرة الحقّ بالموت»

---

(١) مرّ في ١: ١٢٤ و١٦٩.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٤١٦.

(٣) الإسراء: ١٤.

(٤) النكت والعيون ٥: ٣٤٧ و٣٤٨.

وهي قراءة أهل البيت عليهم السلام[١]. و «سكرة الموت» غمرة الموت الّتي تأخذه عند نزع روحه فيصير بمنزلة السكران.

وقوله: ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي يقال له عند ذلك هذا الّذي كنت منه تهرب وتروغ. وقوله: ﴿ونفخ في الصور﴾ قيل فيه وجهان:

أحدهما: أنّه جمع صورة ينفخ الله في الصور بأن يحييها يوم القيامة.

الثاني: أنّ الصور قرن ينفخ إسرافيل فيه النفخة الأُولى فيموت الخلق، والنفخة الثانية فيحيون يوم القيامة[٢] وهو يوم الوعيد الّذي وعد الله أن يعاقب فيه من يكفر به ويعصى أمره، ويثيب من يؤمن به ويمتثل.

قوله تعالى:

وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ خمس آيات.

[أقول:][٣] يقول الله تعالى: إنّ يوم الوعيد الّذي بيّنه تجيء كلّ نفس من المكلّفين ﴿معها سائق﴾ يسوقها ﴿وشهيد﴾ يشهد عليها، وهما ملكان أحدهما يسوقه ويحثّه على السير، والآخر يشهد عليه بما يعلمه من حاله ويشاهده منه وكتبه عليه، فهو يشهد بذلك على ما بيّنه الله ودبّره.

وقوله: ﴿لقد كنت في غفلة﴾ أي يقال له: ﴿لقد كنت في غفلة﴾ أي في سهو ونسيان ﴿من هذا﴾ اليوم، فالغفلة ذهاب المعنى عن النفس، وضدّه اليقظة.

---

(١) راجع تفسير القمّي ٢: ٣٢٤. معاني القرآن وإعرابه ٥: ٤٥.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٢٣٧.

(٣) من الحجريّة.

وقوله: ﴿فكشفنا عنك غطاءك﴾ أي أزلنا الغطاء عنك حتّى ظهر لك الأمر، وإنّما تظهر الأُمور في الآخرة بما يخلق الله فيهم من العلوم الضروريّة، فيصير بمنزلة كشف الغطاء عمّا يرى، والمراد به جميع المكلّفين: برّهم وفاجرهم، لأنّ معارف الجميع ضروريّة.

وقوله: ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ معناه أنّ عينك حادّة النظر لا يدخل عليها شكّ ولا شبهة. وقيل: المعنى فعلمك بما كنت فيه من أحوال الدنيا نافذ ليس يراد به بصر العين، كما يقال: فلان بصير بالنحو أو بالفقه[1]. وقال الرماني: حديد مشتقّ من الحدّ، ومعناه منيع من الإدخال في الشيء ما ليس منه والإخراج عنه ما هو منه، وذلك في صفة رؤيته للأشياء في الآخرة.

وقوله: ﴿وقال قرينه﴾ قال الحسن وقَتادة وابن زيد: يعني الملك الشهيد عليه. وقال بعضهم: قرينه من الشياطين. والأوّل الوجه. ﴿هذا ما لديّ عتيد﴾ أي معدّ محفوظ.

﴿ألقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد﴾ إنّما قيل: ألقيا، لأنّ المأمور به إلقاء كلّ كافر في النار اثنان من الملائكة. وقيل: يجوز أن يكون على لفظ الإثنين والمأمور واحد، لأنّه بمنزلة إلقاء اثنين في شدّته، كما قال الشاعر:

فإن تزجراني يابن عفّان أنزجر وإن تَدَعاني أحْم عِرْضاً ممنّعا[2]

والأوّل أظهر. وحكى الزجّاج عن بعض النحويّين: أنّ العرب تأمر الواحد بلفظ الاثنين تقول: قوما، واقعدا. قال الحجّاج: «يا حَرَسي اضربا عنقه» وإنّما قالوا ذلك، لأنّ أكثر ما يتكلّم به العرب فيمن تأمر به بلفظ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٤٥.

(٢) النكت والعيون ٥: ٣٥٠.

الاثنين نحو:

خليلَيّ مُرّابي على أُمّ جندب(١)

وقوله:

قِفْانبكِ من ذكري حبيب ومنزل(٢)

وقال المبرّد: هذا فعل مبنيّ للتأكيد، كـأنّـه قـال: ألق ألق. والعـنيد: الذاهب عن الحقّ وسبيل الرشد. ﴿منّاع للخير﴾ الّذي أمر الله به من بـذل المال في وجوهه من الزكاة وغيرها، لأنّه صفة ذمّ تعمّ منع الخير الّـذي يجب بذله. ويدخل فيه الأوّل على وجهه التبع ﴿معتد﴾ أي متجاوز للحقّ في قوله وفعله ﴿مريب﴾ أي آتٍ من المنكر بما يشكّك في أمره.

قوله تعالى:

ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:](٣) قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم ﴿يوم يقول﴾ بـالياء بـمعنى يقول الله تعالى ﴿لجهنّم﴾ الباقون بالنون على وجه الإخبار مـن الله عـن نفسه. و ﴿يوم﴾ مـتعلّق بـقوله: ﴿ما يبدّل القول لديّ وما أنا بظلّام للعبيد﴾ وقيل: إنّه متعلّق بمحذوف بتقدير ﴿أذكر﴾ يا محمّد يوم. وقـوله: ﴿الّذي جعل﴾ موضعه الجرّ، لأنّه من صفة ﴿كفّار عنيد منّاع للخير معتد مريب... الّذي

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٤٦، تفسير الطبري ١١: ٤٢٢، معاني القرآن ٣: ٧٨، ديوان امرئ القيس: ٦٤.
(٢) ديوان امرئ القيس: ٢٩.
(٣) من الحجريّة.

جعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي اتّخذ مع الله معبوداً آخر من الأصنام والأوثان، ووجّه قرباته إليه. و«الجعل» تكوين الشيء على غير ما كان بقادر عليه. فمن جعل مع الله إله آخر فقد صيّر ذلك الشيء على غير ما كان عليه. باعتقاده أنّه إله آخر مع الله، وذلك جهل منه عظيم وذهاب عن الصواب بعيد. فيقول الله للملكين الموكّلين به يوم القيامة: ﴿ألقياه﴾ أي اطرحاه ﴿في العذاب الشديد﴾ والإلقاء الرمي بالشيء إلى جهة السفلى. وقولهم: ألقي عليه مسألة، بمعنى طرحها عليه مشبه بذلك. وأصل اللقاء المماسّة، والالتقاء من هذا ففي الإلقاء طلب مماسّة الشيء الأرض بالرمي. ﴿قال قرينه ربّنا ما أطغيته﴾ قال ابن عبّاس: قرينه ـ هاهنا ـ شيطانه. وبه قال مجاهد وقتادة والضحّاك. وسمّي قرينه لأنّه يقرن به في العذاب، وهو غير قرينه الّذي معه يشهد عليه، والقرين نظير الشيء من جهة مصيره بإزائه.

حكى الله عن شيطانه الّذي أغواه أنّه يقول: ﴿ما أطغيته﴾ فالإطغاء الإخراج إلى الطغيان، وهو تجاوز الحدّ في الفساد إطغاء وطغى يطغى طغياناً، فهو طاغ. والأوّل مُطغ. وقال الحسن: ما أطغيته باستكراه، وهو من دعاه إلى الطغيان. والمعنى لم أجعله طاغياً ﴿ولكن كان﴾ هو بسوء اختياره ﴿في ضلال﴾ عن الإيمان ﴿بعيد﴾ عن اتّباعه. ومثله قوله: ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي﴾[1]. فيقول الله تعالى لهم: ﴿لا تختصموا لديّ ﴾ أي لا يخاصم بعضكم بعضاً عندي ﴿وقد قدّمت إليكم بالوعيد﴾ في دار التكيف، فلم تنزجروا وخالفتم أمري ﴿ما يبدّل القول

(١) إبراهيم: ٢٢.

لديّ﴾ معناه: إنّ الّذي قدّمته إليكم في الدنيا من أنّي أُعاقب من جحدني وكذّب برسلي وخالفني في أمري لا يبدّل بغيره، ولا يكون خلافه ﴿وما أنا بظلّام للعبيد﴾ أي لست بظالم لأحد في عقابي لمن استحقّه، بل هو الظلّام لنفسه بارتكاب المعاصي الّتي استحقّ بها ذلك. وإنّما قال بظلّام للعبيد على وجه المبالغة ردّاً لقول من أضاف جميع الظلم إليه ـ تعالى الله عن ذلك ـ.

وقوله: ﴿يوم تقول لجهنّم﴾ من قرأ بالنون فعلى وجه الإخبار من الله عن نفسه. ومن قرأ بالياء ـ وهو نافع وأبو بكر ـ فعلى تقدير يقول الله لجهنّم: ﴿هل امتلأت﴾ من كثرة من أُلقي فيك من العصاة ﴿فتقول﴾ جهنّم: ﴿هل من مزيد﴾ أي ما من مزيد ؟ أي ليس يسعني أكثر من ذلك. وقال قوم: هذا خطاب من الله لخزنة جهنّم على وجه التقريع والتقرير لهم هل امتلأت جهنّم، فتقول الخزنة هل من مزيد[١] ؟ وقال قوم ـ وهو الأظهر ـ: أنّ الكلام خرج مخرج المثل أي أنّ جهنّم من سعتها وعِظَمها في ما يظهر من حالها بمنزلة الناطقة الّتي إذا قيل لها هل امتلأت فتقول هل من مزيد أي لم أمتلئ أي في سعة كثيرة[٢] ومثله قول الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قَطْني     مهلا رويداً قد ملأتَ بطني[٣]

والحوض لم يقل شيئاً، وإنّما أخبر عن امتلائها وأنّها لو كانت ممّن نطق لقالت قطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني. وكذلك القول في الآية.

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٢٦.
(٢) النكت والعيون ٥: ٣٥٣.
(٣) مرّ في ٢: ٤٩٨، الصحاح ٣: ١١٥٣، العين: ٦٧٢.

وقال الحسن وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء: معنى هل من مزيد ما من مزيد، وأنّه بمعنى لا مزيد، وأنكروا أن يكون طلباً للزيادة، لقوله: ﴿لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين﴾ [١] وقال بعضهم: هذا ليس بمنكر من وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك حكاية عن الحال الّتي قبل دخول جميع أهل النار فيها ولم تمتلأ بعد وإن امتلأت في ما بعد.

والآخر: أن يكون طلب الزيادة بشرط أن يزاد في سعتها. وقال قوم: هل من مزيد بمنزلة قول النبيّ ﷺ يوم فتح مكّة وقد قيل له: ألا تنزل دارك؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من ربع» [٢] لأنّه كان قد باع دور بني هاشم لمّا خرجوا إلى المدينة. وإنّما أراد أن يقول: لم يترك لنا داراً. وقال أنس بن مالك: هل من مزيد طلباً للزيادة. وقال مجاهد: هو بمعنى الكفاية.

قوله تعالى:

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:] [٣] لمّا حكى الله تعالى ما أعدّه للكافرين والعصاة من جهنّم وعظم موضعها وسعتها أخبر عمّا أعدّه للمتّقين المجتنبين لمعاصيه الفاعلين لطاعاته فقال: ﴿وأُزلفت الجنّة للمتّقين﴾ والإزلاف التقريب إلى الخير، ومنه الزلفة، والزلفى. ويقولون: أزدلف إليه أي اقترب، والمزدلفة قريب من الموقف. وهو المشعر وجمع. ومنه قول الراجز:

ناجٍ طواه الأين ممّا وجفا طيّ الليالي زُلَفاً فزلَفا

---

(١) هود: ١١٩. (٢) المبسوط للسرخسي ١٠: ٥٢. (٣) من الحجريّة.

سماؤه الهلال حتّى احْقَوقفا[١]

والجنّة الّتي وعد الله المتّقين بها هي البستان الّذي يجمع من اللذّة أرفع كلّ نوع في الزينة من الأبنية الفاخرة بالياقوت والزمرّد وفاخر الجوهر، ومن الأنهار والأشجار وطيْب الثمار ومن الأزواج الكرام والحور الحسان وكريم الخدم من الولدان الّذين هم زينة لكلّ ناظر ومتعة لكلّ مبصر، قد أمن أهلها العلّة وأنواع الأذى من فضول الأطعمة والأشربة، نسأل الله حسن الاستعداد لها بالعمل الصالح المقرّب منها الموجب لرضوان مالكها.

وقوله: ﴿غير بعيد﴾ أي ليس ببعيد مجيء ذلك، لأنّ كلّ آت قريب، ولذلك قال الحسن: كأنّك بالدنيا لم تكن وبالآخرة لم تزل.

ثمّ قال: ﴿هذا ما توعدون﴾ من قرأ بالتاء فعلى الخطاب أي هذا الّذي ذكرناه هو ما وعدتم به من الثواب ﴿لكلّ أوّاب﴾ أي رجّاع إلى الله تائب إليه ﴿حفيظ﴾ لما أمر الله به يتحفّظ من الخروج إلى ما لا يجوز من سيّئة تدنّسه أو خطيئة تحطّ منه وتشينه. وقال ابن زيد: الأوّاب التوّاب، وهو من آب يؤوب أوباً إذا رجع.

وقوله: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ فالخشية انزعاج القلب عند ذكر السيّئة وداعي الشهوة حتّى يكون في أعظم حال من طلبه سبع يفترسه أو عدوّ يأتي على نفسه أو طعام مسموم يدعى إلى أكله، هذه خشية الرحمن الّتي تنفعه والّتي دعا إليها ربّه. ومعنى ﴿بالغيب﴾ أي في باطنه وسريرته ﴿وجاء بقلب منيب﴾ أي راجع إلى الله من أناب ينيب إنابة. وموضع ﴿مَن﴾ يحتمل وجهين من الإعراب:

---

(١) الصحاح ٣: ١٣٧٠، الكتاب ١: ٣٥٩.

أحدهما: الجرّ على البدل من ﴿كلّ﴾ كأنّه قيل لمن خشي.

والثاني: الرفع على الاستئناف كأنّه قال: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ يقال لهم: ﴿ادخلوها بسلام﴾ أي بأمان من كلّ مكروه ويحيّون بذلك على وجه الإكرام.

وقوله: ﴿ذلك يوم الخلود﴾ أي الوقت الّذي يبقون فيه في النعيم مؤبّدين لا إلى غاية.

وقوله: ﴿لهم ما يشاؤن فيها﴾ أي ما يريدونه ويشتهونه يجعل لهم فيها ﴿ولدينا مزيد﴾ من نعم الله الّذي يعطيهم زيادة على مقدار استحقاقهم بعملهم.

قوله تعالى:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن
مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾
فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ ﴿وإدبار﴾ بكسر الألف ابن كثير ونافع وأهل الحجاز وحمزة على المصدر من أدبر إدباراً، وتقديره: وقت إدبار السجود. والمصادر تجعل ظرفاً على إرادة إضافة أسماء الزمان إليها وحذفها، كقولهم جئتك مقدم الحاج وخفوق النجم ونحو ذلك، يريدون في ذلك كلّه وقت كذا وكذا فحذفوه. الباقون بفتح الألف على أنّه جمع «دُبْر».

---

(١) من الحجريّة.

يقول الله تعالى مخبراً: ﴿وكم أهلكنا﴾ ومعناه وكثيراً أهلكنا، وذلك أنّ «كم» تكون استفهاماً تارة في معنى الخبر للتكثير وإنّما خرجت عن الاستفهام إلى التكثير لتكون نقيضة ﴿ربّ﴾ في التقليل وكانت أحقّ به، لأنّها «اسم» مع احتمالها للتقليل، فأمّا «رُبّ» في الكلام، فهي حرف يجري مجرى حرف النفي، لأنّ التقليل أقرب إلى النفي، وإنّما وجب لـ«كم» صدر الكلام في الخبر إعلاماً بأنّها خرجت عن الاستفهام مع أنّها نقيضة «ربّ» الّتي هي بمنزلة حروف النفي، ودخلت «مِن» على مفسّر «كم» لأنّها في الخبر بمنزلة عدد يفسّر بالمضاف كقولك عشر أثواب، وعشرة من الأثواب. فجاز حرف الإضافة كما جازت الإضافة، وليس كذلك عشرون درهماً، وجاز أن يفسّر في الخبر بالواحد وبالجمع. و«القرن» المقدار من الزمان الّذي يقترن بالبقاء فيه أهله على مجرى العادة. وقال قوم: هو مائة وعشرون سنة. وقيل: ثمانون سنة. وقال آخرون: هو سبعون سنة. وقال قوم: أربعون سنة. وقيل: ثلاثون سنة. وقيل: عشر سنين[١] ﴿هم أشدّ منهم بطشاً﴾ أي الّذين أهلكناهم مثل هؤلاء الكفّار كانوا أشدّ قوّة من هؤلاء وأكثر عدّة كقوم عاد وغيرهم فلم يتعذّر علينا ذلك، فما الّذي يؤمن هؤلاء من مثل ذلك.

وقوله: ﴿فنقّبوا في البلاد﴾ أي فتحوا مسالك في البلاد بشدّة بطشهم، فالتنقيب التفتيح بما يصلح للسلوك من نقض البنية، ومنه «النقب» الفتح الّذي يصلح للمسلك، وقد يفتح الله على العباد في الرزق بأن يوسّع عليهم في رزقهم، ولا يصلح فيه النقب. وكلّ نقب فتح. وليس كلّ فتح نقباً،

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٤٨.

فالنقب نقض موضع بما يصلح للسلوك. وقال مجاهد: نقّبوا في البلاد أي ضربوا في الأرض ضرب جاعل المسالك بالنقب، قال امرؤ القيس:

لقد نقّبتُ في الآفاق حتّى رضيتُ من الغنيمة بالإياب[١]

وقوله: ﴿هل من محيص﴾ أي هل من محيد، وهو الذهاب في ناحية عن الأمر للهرب منه، حاص يحيص حيصاً فهو حائص مثل حاد يحيد حيداً فهو حائد. والمعنى: إنّ أولئك الكفّار الّذي وصفهم بشدّة البطش لمّا نزل بهم عذاب الله لم يكن لهم مهرب ولا محيص عنه. وقيل: هل من محيد من الموت، ومنجاً من الهلاك[٢].

قال الزجّاج: هؤلاء الكفّار طوّفوا في البلاد، فلم يجدوا مخلصاً من الموت[٣].

وقوله: ﴿إنّ في ذلك لذكرى﴾ يعني في ما أخبرته وقصصته لك لذكرى أي ما يتفكّر فيه ويعتبر به ﴿لمن كان له قلب﴾ قيل: معنى القلب ـ هاهنا ـ العقل من قولهم أين ذهب قلبك، وفلان ذاهب القلب، وفلان قلبه معه[٤] وإنّما قال: ﴿لمن كان له قلب﴾ لأنّ من لايعيي الذكر لا يعتدّ بماله من القلب.

وقوله: ﴿أو ألقى السمع وهو شهيد﴾ قال ابن عبّاس: معناه استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع، فهو شهيد لما يسمع ويفقهه غير غافل عنه، وهو قول مجاهد والضحّاك وسفيان، يقال ألق إلي سمعك أي استمع. وقال قتادة: وهو شهيد على صفة النبيّ صلى الله عليه وآله في الكتب السالفة، وهذا في أهل الكتاب. والأوّل أظهر.

---

(١) ديوان امرئ القيس: ٧٣، فيه: بدل «نقّبت» طوفت، مجاز القرآن ٢: ٢٢٤.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٤٣٢. (٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٤٨. (٤) معاني القرآن ٣: ٨٠.

ثمّ أقسم الله تعالى فقال: ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام﴾ وقد مضى تفسير مثله في غير موضع[١] ﴿وما مسّنا من لغوب﴾ أي من نصب وتعب، في قول ابن عبّاس ومجاهد. و«اللغوب» الاعياء. قال قتادة: أكذب الله تعالى بذلك اليهود، فإنّهم قالوا: استراح الله يوم السبت، فهو عندهم يوم الراحة. وقيل: إنّما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام مع قدرته على أن يخلقهما في وقت، لأنّ في ذلك لطفاً للملائكة حين شاهدوه يظهر حالاً بعد حال. وقيل: لأنّ في الخبر بذلك لطفاً للمكلّفين في ما بعد إذا تصوّروا أنّ ذلك يوجد شيئاً بعد شيء مع أدب النفس به في ترك الاستعجال إذا جرى في فعل الله لضروب من التدبير.

ثمّ قال لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿فاصبر﴾ يا محمّد ﴿على ما يقولون﴾ من قولهم : هو ساحر وكذّاب ومجنون، واحتمل ذلك حتّى يأتي الله بالفرج ﴿وسبّح بحمد ربّك﴾ أي نزّهه عمّا لا يليق به ﴿قبل طلوع الشمس﴾ صلاة الفجر ﴿وقبل الغروب﴾ صلاة العصر في قول قتادة وابن زيد.

﴿ومن الليل﴾ يعني صلاة الليل يدخل فيه صلاة المغرب والعتمة. وقال ابن زيد: هو صلاة العتمة ﴿وأدبار السجود﴾ الركعتان بعد المغرب، في قول الحسن بن عليّ عليهما السلام ومجاهد والشعبي وإبراهيم. وقال الحسن: ﴿وقبل الغروب﴾ صلاة الظهر والعصر. وقال: الركعتان بعد المغرب تطوّعاً. وقيل: التسبيح بعد الصلاة، عن ابن عبّاس ومجاهد. وقيل: النوافل، عن ابن زيد. وأصل التسبيح التنزيه لله عن كلّ ما لا يجوز في صفة، وسمّيت الصلاة

---

(١) انظر ٦: ٤٠٩.

تسبيحاً لما فيها من التسبيح، يقال: سبحان ربّي العظيم. وروي أيضاً أراد بـ﴿أدبار السجود﴾ الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل طلوع الفجر[1]. وروي في الشواذّ عن أبي عمرو أنّه قرأ ﴿فنقبوا﴾ بتخفيف القاف، وهي لغة في التشديد. ورجل نِقاب أي حاذق فطن عالم، كان ابن عبّاس نقاباً. و«النقبة» الحرب، ونقب خفّ البعير إذا انتقب. وقرئ على لفظ الأمر، وهو شاذّ.

قوله تعالى:

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][2] قرأ ابن كثير ﴿يوم تشقّق﴾ مشدّدة الشين على معنى تتشقّق وحذف إحدى التائين ثمّ أدغم إحدى التائين في الشين لتقارب مخرجهما الباقون بمعنى تشقّق. والتشقّق التفطير.

يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ والمراد به جميع المكلّفين: ﴿واستمع﴾ أي اصْغ إلى النداء. وتَوقَّعْه ﴿يوم ينادي المناد﴾ فالنداء الدعاء بطريقة: يا فلان، وكأنّ الناس يُدعَون فيقال لهم: يا معشر الناس قوموا إلى الموقف للجزاء والحساب. وقيل: ينادي المنادي من الصخرة الّتي في بيت المقدس، فلذلك قال: ﴿من مكان قريب﴾ فيقول: يا أيّها العظام البالية قومي لفصل القضاء وما أُعد من الجزاء[3] في قول قتادة. ﴿من مكان قريب﴾ أي يسمع

---

(١) الكافي ٣: ٤٤٤ / ١١. (٢) من الحجريّة. (٣) النكت والعيون ٥: ٣٥٨.

الخلق كلّهم على حدّ واحد، فلا يخفى على أحد لا قريب ولا بعيد.

وقوله: ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحقّ﴾ فالصيحة المرّة الواحدة من الصوت الشديد ونقيضها الخمدة، تقول صاح يصيح صياحاً وصيحة فهو صائح، وتصايح وتصايحوا في الأمر تصايحاً، وصيّح تصييحاً، وصايحه مصايحة، وهذه الصيحة هي النفخة الثانية للحشر إلى أرض الموقف ﴿ذلك يوم الخروج﴾.

وقوله: ﴿إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ إخبار منه تعالى عن نفسه بأنّه هو الّذي يحيي الخلق بعد أن كانوا جماداً أمواتاً. ثمّ يميتهم بعد أن كانوا أحياء ثمّيحييهم يومالقيامة، وإلى الله يصيرون ويرجعون يوم القيامة.

﴿يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً﴾ أي إلينا المصير في اليوم الّذي تشقّق الأرض عن الأموات ﴿سراعاً﴾ أي بسرعة لا تأخير فيها. ثمّ قال: ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي سهل علينا غير شاقّ. والحشر الجمع بالسوق من كلّ جهة.

ثمّ قال: ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ يعني هؤلاء الكفّار من جحدهم نبوّتك وإنكارهم البعث والنشور، لا يخفى علينا من أمرهم شيء ﴿وما أنت عليهم﴾ يا محمّد ﴿بجبّار﴾ قال الحسن: ما أنت عليهم بربّ تجازيهم بأعمالهم، وإنّما أنا المجازي لهم. وقيل: وما أنت عليهم بفظّ في دعائهم إلى توحيد الله وإخلاص عبادته. والجبّار العالي السلطان بأنّه قادر على إذلال جميع العصاة بحسب الاستحقاق، وهذه الصفة لا تصحّ إلّا لله تعالى وحده، فإن وصف بها الإنسان كان ذمّاً[1] لأنّه جعل لنفسه من المقدرة ما ليس

(١) النكت والعيون ٥: ٣٥٩.

لها، وأنشد الفضل:

عصينا عَـزْمة الجـبّار حـتّى صَبَحْنا الجوف ألفاً مُعْلمينا[١]

وقيل: ﴿وما أنت بجبّار﴾ أي لا تتجبّر عليهم. قال الفرّاء: يجوز أن يكون لا يجبرهم على الإسلام، يقال: جبرته على الأمر وأجبرته بمعنى واحد. وقال غيره: لم يسمع «فعّال» من «أفعلت» إلّا «درّاك» من «أدركت»[٢] ويكون الجبّار العالي السلطان على كلّ سلطان باستحقاق، ويكون العالي السلطان بادّعاء.

ثمّ قال: ﴿فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ إنّما خصّ بالتذكير من يخاف وعيد الله، لأنّه الّذي ينتفع به وإن كان تذكيره متوجّهاً إلى جميع المكلّفين. قال الزجّاج: إنّما قال الله للنبيّ ﷺ ذلك قبل أن يأمره بالقتال[٣].

---

(١) تفيسر الطبري ١١: ٤٤٠، الكشف والبيان ٩: ١٠٨. فيها نسبه إلى المفضّل. في الحجريّة: الخوف أنفا بدل «الجوف ألفاً».

(٢) معاني القرآن ٣: ٨١، راجع النكت والعيون ٥: ٣٥٩.

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٥٠.

# سورة الذاريات

مكّية بلا خلاف. وهي ستّون آية بلا خلاف.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا (١) فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا (٢) فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا (٣) فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ (٦) وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) أربع عشر آية بلا خلاف.

[أقول:](١) روي عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وابن عبّاس ـ رحمة الله عليه ـ ومجاهد أنّ ﴿الذاريات﴾ الرياح، يقال: ذرت الريح التراب تذروه ذرواً وهي ذارية إذا طيرته، وأذرت تذري إذراء بمعنى واحد. وسأل ابن الكوّا أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب على المنبر ما ﴿الذاريات ذرواً﴾ قال: الرياح، قال: ما ﴿الحاملات وقراً﴾ فقال:

---

(١) من الحجريّة.

السحاب. فقال: ما ﴿الجاريات يسراً﴾ قال: السفن. والمعنى أنّها تجري سهلاً، فقال: ما ﴿المقسّمات أمراً﴾ قال: الملائكة[١]. وهو قول ابن عبّاس ومجاهد والحسن، وهذا قسم من الله تعالى بهذه الأشياء. وقال قوم: التقدير القسم بربّ هذه الأشياء لأنّه لا يجوز القسم إلّا بالله[٢]. وقد روي عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّه لا يجوز القسم إلّا بالله. والله تعالى يقسم بما يشاء من خلقه[٣].

وقيل: الوجه في القسم بالذاريات تعظيم ما فيها من العبرة في هبوبها تارة وسكونها أُخرى، وذلك يقتضي مُسكناً لها ومحرّكاً لا يشبه الأجسام، وفي مجيئها وقت الحاجة لتنشئة السحاب وتذرية الطعام ما يقتضي مصرّفاً لها قادراً عليها، وما في عصوفها تارة ولينها أُخرى ما يقتضي قاهراً لها ولكلّ شيء سواها.

والوجه في القسم بالحاملات وقراً، ما فيه من الآيات الدلالة على محمّل حملها الماء وأمسكه من غير عماد وأغاث بمطره العباد وأحيى البلاد وصرفه في وقت الغنى عنه بما لو دام لصاروا إلى الهلاك، ولو انقطع أصلاً لأضرّ بهم جميعاً.

والوجه في القسم بالجاريات يسراً ما فيها من الدلائل وبتسخير البحر الملح والعذب بجريانها وتقدير الريح لها بما لو زاد لغرق ولو ركد لأهلك، وبما في هداية النفوس إلى تدبير مصالحها وما في عظم النفع بها في

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٣٢٧. مع اختلاف.

(٢) تفسير السمرقندي ٣: ٣٤١، معاني القرآن وإعرابه ٥: ٥١.

(٣) الكافي ٧: ١/٤٤٩. مع اختلاف.

ما ينقل من بلد إلى بلد بها.

والوجه في القسم بالملائكة ما فيها من اللطف وعظم الفائدة وجلالة المنزلة بتقسيم الأُمور بأمر الله تعالى من دفع الآفة عن ذا وإسلام ذاك ومن كتب حسنات ذا وسيّئات ذاك، ومن قبض روح ذا وتأخير ذاك. ومن الدعاء للمؤمنين ولعن الكافرين، ومن استدعائهم إلى طريق الهدى وطلب ما هو أولى بصدّ داعي الشيطان والهوى عدوّ الإنسان.

وقوله: ﴿إنّ ما توعدون لصادق﴾ جواب القسم. ومعناه: إنّ الّذي وعدتم به من الثواب والعقاب والجنّة والنار وعد صدق لابدّ من كونه.

﴿وإن الدين لواقع﴾ معناه: إنّ الجزاء لكائن يوم القيامة، وهذا يفيد أنّ من استحقّ عقاباً فإنّه يجازى به، ويدخل في ذلك كلّ مستحقّ للعقاب، كأنّه قال: إنّ جميع الجزاء واقع بأهله يوم القيامة في الآخرة.

ثمّ استأنف قسماً آخر فقال: ﴿والسماء ذات الحبك﴾ فالحبك الطرائق الّتي تجري على الشيء كالطرائق الّتي ترى في السماء. وترى في الماء الصافي إذا مرّت عليه الريح، وهو تكسّر جار فيه. ويقال للشَعر الجعد حبك والواحد حبيك وحبيكة. و«الحبك» أثر الصنعة في الشيء واستوائه، حبكه يحبِكه ويحبُكه حَبْكاً ﴿والسماء ذات الحبك﴾ أي ذات حسن الطرائق، وحبك الماء طرائقه، قال زهير:

مكلّل بأُصول النجم تنسِجه ريح خريق لضاحي مائه حبك[1]

وتحبّكت المرأة بنطاقها إذا شدّته في وسطها، وذلك زينة لها، وحبك السيف إذا قطع اللحم دون العظم. وقال الحسن وسعيد بن جبير: ذات

---

(١) ديوان زهير بن أبي سُلمى: ٥٠، ومجاز القرآن ٢: ٢٢٥.

الحبك ذات الزينة بالنجوم والصنعة والطرائق الحسنة. وقيل: «الحبك» النسج الحسن، يقال: ثوب محبوك.

وقوله: ﴿إنّكم لفي قول مختلف﴾ معناه: إنّكم في الحقّ لفي قول مختلف، لا يصحّ إلّا واحد منه، وهو أمر النبيّ ﷺ وما دعا إليه، وهو تكذيب فريق به وتصديق فريق. ودليل الحقّ ظاهر، وفائدته أنّ أحد الفريقين في هذا الاختلاف مبطل، لأنّه اختلاف تناقض فاطلبوا الحقّ منه بدليله وإلّا هلكتم.

وقوله: ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ معناه: يصرف عنه من صرف، ومنه قوله: ﴿أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ (١) أي لتصرفنا، وتصدّنا. وإنّما قيل: ﴿يؤفك﴾ عن الحقّ لأنّه يمكن فيه ذلك من غيره ولا يمكن من نفسه، لأنّ الحقّ يدعو إلى نفسه ولا يصرف عنها إلى خلافه.

وقوله: ﴿قتل الخرّاصون﴾ معناه: لعن الكذّابون، ومثله ﴿قتل الإنسان ما أكفره﴾ (٢) و«الخرّاص» الكذّاب. وأصله الخرص وهو القطع من قولهم: خرص فلان كلامه واخترصه إذا افتراه، لأنّه اقتطعه من غير أصل. والخرص جريد يشقّق ويتّخذ منه الحصر، قال الشاعر:

ترى قِصدَ المرّان فيهم كأنّه ... تَذَرُّع خِرصان بأيدي شواطب (٣)

و«الخرص» حلقة القرط المنقطعة عن ملاصقة الأذن، و«الخريص» الخليج من البحر، و«الخرص» الخرز من العدد والكيل، ومنه خارص النخل، وهو خارزه وجمعه خراص.

---

(١) الأحقاف: ٢٢. (٢) عبس: ١٧.

(٣) مرّ في ٦: ٢١١ مع اختلاف يسير، ديوان قيس بن الخطيم: ٨٥.

وقوله: ﴿الّذين هم في غمرة ساهون﴾ صفة للخرّاصين، وموضعه رفع، وتقديره: في غمرة ساهون عن الحقّ كقوله: ﴿طبع الله على قلوبهم﴾[1] و«الغمرة» المرّة من علوّ الشيء على ما هو فائض فيه، غمره الماء يغمُره غمراً وغمرة، فهو غامر له، والإنسان مغمور، ويقال: غمره الشغل وغمره الموت وغمره الحياء وغمره الجهل، وأصل الغمرة من الغمر وهو السيّد الكثير العطاء، لأنّه يغمر بعطائه. والغمر الفرس الكثير الجري، لأنّه يغمر بجريه. والغمر الّذي لم يجرّب الأُمور. والغمر الحقد. والغمرة رائحة الزهومة في اليد. وغمار الناس مجتمعهم. وغمرة المرأة ما تطلي به من الطيب وغيره ممّا يحسن اللون. والغمر القدح الصغير، والغمر النبت الصغار، لأنّه تغمره الكبار. والمعنى أنّ هؤلاء الكفّار لجهلهم بما يجب عليهم معرفته ساهون عمّا يلزمهم العلم به أي غافلون عن الحقّ متعامون عنه.

﴿يسألون أيّان يوم الدين﴾ يعني يسأل هؤلاء الكفّار الّذين وصفهم بالجهل والغمرة: متى يوم الجزاء؟! على وجه الإنكار لذلك لا على وجه الاستفادة لمعرفته، فأجيبوا بما يسوءهم من الحقّ الّذي لا محالة أنّه نازل بهم.

فقيل: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ أي يحرقون بالنار ويعذّبون فيها، وأصل الفتنة تخليص الذهب بإحراق الغِشّ الّذي فيه، فهؤلاء يفتنون بالإحراق كما يفتن الذهب. ومنه قوله: ﴿وفتنّاك فتوناً﴾[2] أي أخلصناك للحقّ، ورجل مفتون بالمرأة أي مخلص بحبّها، وهي صفة ذمّ. «وفتنّاهم» أي اختبرناهم بما يطلب به خلاصهم للحقّ. وقيل: يفتنون أي يحرقون كما يفتن الذهب في النار، في قول مجاهد والضحّاك. وقوله: ﴿يوم هم﴾ يصلح

(١) التوبة: ٩٣.
(٢) طه: ٤٠.

أن يكون في موضع رفع، لأنّك أضفته إلى شيئين، ويصلح فيه النصب على الظرف والبناء، وكلّه على جواب ﴿أيّان﴾.

وقوله: ﴿ذوقوا فتنتكم هذا الّذي كنتم به تستعجلون﴾ معناه: أنّه يقال للكفّار الّذين يعذّبون بها: هذا الّذي كنتم به تستعجلون في دار التكليف استبعاداً له، فقد حصلتم الآن فيه وعرفتم صحّته.

قوله تعالى:

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ تسع آيات بلا خلاف.

[أقول:][1] قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم ﴿لحقّ مثل﴾ بالرفع على أنّه صفة للحقّ الباقون بالنصب، ويحتمل نصبه وجهين:

أحدهما: قول الجرمي أن يكون نصباً على الحال، كأنّه قيل: حقّ مشبهاً لنطقكم في الثبوت.

الثاني: قال المازني إنّ «مثل» مبنيّ، لأنّه مبهم أُضيف إلى مبنيّ، كما قال الشاعر:

لم يمنع الشرب منها غيرَ أن نطقت   حمامة في غُصون ذات أو قال[2]

وقال: فجعل ﴿مثل﴾ مع ﴿ما﴾ كالأمر الواحد، كما قال: ﴿لا ريب فيه﴾[3] وقولهم: خمسة عشر، فيكون على هذا «ما» زائدة وأضاف «مثل»

---

(١) من الحجريّة.
(٢) الكتاب ٢: ٣٢٩، مرّ في ٤: ٤٣٩.
(٣) البقرة: ٢.

إلى ﴿أنّكم تنطقون﴾ فبناه على الفتح حين أضافه إلى المبنيّ، ولو كان مضافاً إلى معرب لم يجز البناء نحو: مثل زيد. وقيل: يجوز أن يكون نصباً على المصدر، وكأنّه قال: إنّه لحقّ حقّاً كنطقكم[١].

لمّا حكى الله تعالى حكم الكفّار وما أعدّه لهم أنواع العذاب، أخبر بما أعدّه للمؤمنين المطيعين الّذين يتّقون معاصي الله خوفاً من عقابه، ويفعلون ما أوجبه عليهم فقال: ﴿إنّ المتّقين في جنّات وعيون﴾ أي في بساتين تجنّها الأشجار ﴿وعيون﴾ ماء تجري لهم في جنّة الخلد، فهؤلاء ينعّمون وأُولئك يعذّبون ﴿آخذين ما آتاهم ربّهم﴾ من كرامته وثوابه بمعنى آخذين ما أعطاهم الله من ذلك ونصب (آخذين) على الحال ﴿إنّهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾ يفعلون الطاعات وينعمون على غيرهم بضروب الإحسان.

ثمّ وصفهم فقال: ﴿كانوا﴾ يعني المتّقين الّذين وعدهم بالجنّات ﴿قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ في دار التكليف أي كان هجوعهم قليلاً، في قول الزهري وإبراهيم. وقال الحسن: «ما» صلة، وتقديره: كانوا قليلاً يهجعون. وقال قتادة: لا ينامون عن العتمة ينتظرونها لوقتها، كأنّه قيل: هجوعهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة والعبادة. وقال الضحّاك: تقديره كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلاً. ثمّ ابتدأ فقال: ﴿من الليل ما يهجعون﴾ وتكون «ما» بمعنى النفي، والمعنى إنّهم كانوا يحيون الليل بالقيام في الصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك. ولا يجوز أن تكون «ما» جحداً لأنّه لا يقدّم عليها معمولها. والهجوع النوم، في قول قتادة وابن عبّاس وإبراهيم والضحّاك.

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ أي يطلبون من الله المغفرة والستر لذنوبهم،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٥٤.

في قول الحسن وابن زيد. وقال مجاهد: معناه: يصلّون في السحر.

وقوله: ﴿وفي أموالهم حقّ﴾ وهو ما يلزمهم لزوم الديون من الزكوات وغير ذلك أو ما التزموه من مكارم الأخلاق، فهو الّذي رغّب الله فيه بقوله: ﴿وفي أموالهم حقّ للسائل والمحروم﴾ فالسائل هو الّذي يسأل الناس، والمحروم وهو المحارف، في قول ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك. وقال قَتادة والزهري: «المحروم» هو المتعفّف الّذي لا يسأل. وقال إبراهيم: «المحروم» الّذي لا سهم له في الغنيمة. وقيل: «المحروم» الممنوع الرزق بترك السؤال أو إذهاب مال أو سقوط سهم أو خراب ضيعة إذا صار فقيراً من هذه الجهة[١]. وقال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم. وفرّق قوم بين الفقير والمحروم بأنّه قد يحرّمه الناس بترك الإعطاء، وقد يحرم نفسه بترك السؤال، فإذا سأل لا يكون ممّن حرم نفسه بترك السؤال، وإنّما حرمه الغير ، وإذا لم يسأل فقد حرم نفسه وحرّمه الناس.

وقوله: ﴿وفى الأرض آيات﴾ أي دلالات واضحات وحجج نيّرات ﴿للموقنين﴾ الّذين يتحقّقون بتوحيد الله، وإنّما أضافها إلى الموقنين، لأنّهم الّذين نظروا فيها وحصل لهم العلم بموجبها وآيات الأرض جبالها ونباتها ومعادنها وبحارها، ووقوفها بلا عمد لتصرّف الخلق عليها.

وقوله: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾ معناه وفى أنفسكم أفلا تتفكّرون بأن تروها مصرّفة من حال إلى حال ومنتقلة من صفة إلى أُخرى، فكنتم نطفاً فصرتم أحياء ثمّ كنتم أطفالاً فصرتم شباباً، ثمّ صرتم كهولاً وكنتم ضعفاء فصرتم أقوياء، فهلّا دلّكم ذلك على أنّ لها صانعاً صنعها ومدبّراً

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٥٩، الكشف والبيان ٩: ١١٢.

دبّرها يصرّفها على ماتقتضيه الحكمة ويدبّرها بحسب ماتوجبه المصلحة. وقيل: المعنى أفلا تبصرون بقلوبكم نظر من كأنّه يرى الحقّ بعينه.

وقوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ ينزله الله إليكم بأن يرسل عليكم الغيث والمطر فيخرج به من الأرض أنواع ما تقتاتونه وتلبسونه وتنتفعون به ﴿وما توعدون﴾ به من العذاب ينزله الله عليكم إذا استحققتموه، وقال الضحّاك: وفي السماء رزقكم يعني المطر الّذي هو سبب كلّ خير وهو من الرزق الّذي قسمه الله وكتبه للعبد في السماء. وقال مجاهد: وما توعدون يعني من خير أو شرّ. وقيل: وما توعدون الجنّة، لأنّها في السماء الرابعة.

ثمّ قال تعالى: ﴿فو ربّ السماء والأرض﴾ قسماً منه تعالى ﴿إنّه لحقّ﴾ ومعناه إنّ ما وعدتكم به من الثواب والعقاب والجنّة والنار لابدّ من كونه «مثل ما تنطقون» أي مثل نطقكم الّذي تنطقون به فكما لا تشكّون في ما تنطقون، فكذلك لا تشكّوا في حصول ما وعدتكم به. وقيل الفرق بين قوله: ﴿حقّ مثل ما إنكم تنطقون﴾ وبين «ما تنطقون» مثل الفرق بين أحقّ منطقك وبين أحقّ إنّك تنطق أي أحقّ إنّك ممّن ينطق، ولم يثبت له نطقاً. والأوّل قد أثبته إلّا أنّه قال: أحقّ هو أم باطل، ذكره الفرّاء. ومعنى الآية أنّ هذا القرآن وأمر محمّد صلى الله عليه وآله وما توعدون به من أرزاقكم حقّ ككلامكم، كقول القائل: إنّه لحقّ مثل ما أنت هاهنا أي كما أنت هاهنا. وقال الفرّاء: وإنّما جمع بين «ما» و «إنّ» مع أنّه يكتفى بأحدهما، كما يجمع بين اللائي والّذين، وأحدهما يجزئ عن الآخر. قال الشاعر:

من النفر اللائي والّذين إذا هم     يهاب اللئام حلقة الباب قعقعوا[1]

---

(١) البيان والتبيين ٤: ١٦، مع اختلاف.

فجمع بين اللائي والّذين، ولو أفرده بـ«ما» لكان المنطق في نفسه حقّاً، ولم يُرد ذلك، وإنّما أراد أنّه لحقّ كما حقّ أنّ الآدمي ناطق، ألا ترى أنّ قولك أحقّ منطقك معناه أحقّ هو أم كذب، وقولك أحقّ إنك تنطق معناه إنّ للإنسان النطق لا لغيره، فأُدخلت «أنّ» ليفرق بين المعنيين. قال: وهذا أعجب الوجهين إليّ[١].

قوله تعالى:

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ سبع آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] يقول الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿هل أتاك﴾ يا محمّد ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ قال الحسن: يعني المكرمين عند الله. وقيل: أكرمهم إبراهيم[٣] برفع مجالسهم في الإكرام والإعظام الّذي يسرّ بالإحسان. والإجلال هو الإعظام بالإحسان، وكذلك يلزم إعظام الله وإجلاله في جميع صفاته، ولا يجوز مثل ذلك في الإكرام، ولكن الله يكرم أنبياءه والمؤمنين على طاعتهم.

وقوله: ﴿إذ دخلوا عليه﴾ يعني حين دخلوا على إبراهيم ﴿فقالوا﴾ له: ﴿سلاماً﴾ على وجه التحيّة له أي أسلم سلاماً ﴿فقال﴾ لهم جواباً عن ذلك: ﴿سلام﴾ وقرئ سلم، فلمّا ارتاب عليه السلام بهم قال: ﴿قوم منكرون﴾ أي أنتم

---

(١) تفسير الطبري ١١: ٤٦٢. (٢) من الحجريّة. (٣) معاني القرآن و إعرابه ٥: ٥٤.

قوم منكرون، والإنكار بنفي صحّة الأمن ونقيضه الإقرار، ومثله الاعتراف. وإنّما قال: منكرون، لأنّه لم يكن يعرف مثلهم في أضيافه، وسمّاهم الله أضيافاً، لأنّهم جاؤوه في صفة الأضياف وعلى وجه مجيئهم. ومعنى ﴿سلاماً﴾ أي أسلم سلاماً، وقوله: ﴿قال سلام﴾ أي سلام لنا.

وقوله: ﴿فراغ إلى أهله﴾ أي ذهب إليهم خفياً، فالروغ الذهاب في خفى، راغ يروغ روغاً وروغاناً، وراوغه مراوغة ورواغاً، وأراغه على كذا إذا أراده عليه في خفى أنفاً من ردّه. وقوله: ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فالعجل واحد البقر الصغير مأخوذ من تعجيل أمره بقرب ميلاده، وسمّي عجولاً وجمعه عجاجيل. وقال قتادة: كان عامّة مال نبيّ الله إبراهيم عليه السلام البقر. والسمين الكثير الشحم على اللحم، سمن يسمن سمناً، وسمّنه تسميناً وأسمنه إسماناً وتسمّن تسمّناً، ونقيض السمن الهزال.

وقوله: ﴿فقرّبه إليهم﴾ أي أدناه لهم وقدّمه بين أيديهم وقال لهم: كلوه، فلمّا رآهم لا يأكلون عرض عليهم فـ﴿قال ألا تأكلون﴾ وفي الكلام حذف، لأنّ تقديره فقدّمه إليهم فأمسكوا عن الأكل فقال ألا تأكلون، فلمّا امتنعوا من الأكل ﴿أوجس منهم خيفة﴾ أي خاف منهم وظنّ أنّهم يريدون به سوء، فالايجاس الإحساس بالشيء خفياً، أوجس يوجس إيجاساً وتوجّس توجّساً. ومنه قوله ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾[(١)] فقالت حينئذٍ له الملائكة: ﴿لا تخف﴾ يا إبراهيم فإنّا رسل الله وملائكته أرسلنا الله إلى قوم لوط لنهلكهم. وقيل: إنّهم دعوا الله فأحيا العجل له فعلم إبراهيم عند ذلك إنّهم من الملائكة عليهم السلام ﴿وبشّروه﴾ عند ذلك ﴿بغلام عليم﴾ أي يكون عالماً

---

(١) طه: ٦٧.

إذا كبر وبلغ. قال مجاهد: المبشّر به إسماعيل. وقال غيره: هو إسحاق، لأنّه من سارة، وهذه القصّة لها لا لهاجر، سمعت البشارة امرأته سارة.

﴿فأقبلت في صرّة﴾ يعني في صيحة، في قول ابن عبّاس ومجاهد وسفيان. وقال مجاهد وسفيان أيضاً في رنّة ﴿فصكّت وجهها﴾ قال ابن عبّاس: لطمت وجهها. وقال السدي: ضربت وجهها تعجّباً، وهو قول مجاهد وسفيان. فالصكّ الضرب باعتماد شديد ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ فالتقدير أنا عجوز عقيم كيف ألد؟! والعقيم الممتنعة من الولادة لكبر أو آفة. وقال الحسن: العقيم العاقر. وأصل العقم الشدّة ممّا جاء في الحديث «يعقم أصلاب المشركين»[1] أي يشدّ، فلا يستطيعون السجود، وداء عقام إذا أعيا، أي اشتدّ حتّى أيأس أن يبرأ، ومعاقم الفرس مفاصله يشدّ بعضها إلى بعض، والعقم والعقمة ثياب معلمة أي شدّت بها الأعلام، وعقمت المرأة، فهي معقومة وعقيم، وقالوا عقمت أيضاً ورجل عقيم مثل المرأة من قوم عقيمين والريح العقيم الّتي لا تنشئ السحاب للمطر، والملك عقيم يقطع الولاء لأنّ الابن يقتل أباه على الملك، فقالت الملائكة عند ذلك لها: ﴿كذلك﴾ أي مثل ما بشرّناك به ﴿قال ربّك﴾ ما بشّرناك به فلا تشكّ فيه ﴿إنّه هو الحكيم﴾ في أفعاله ﴿العليم﴾ بخفايا الأمور لا يخفى عليه خافية والمعنى كما أنّ إخبارنا وبشارتنا لا شكّ فيه، كذلك قال الله ما بشّرناك به.

قوله تعالى:

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن

---

(١) ترتيب كتاب العين: ٥٦٦ مادّة «عقم».

كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ سبع آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] لمّا سمع إبراهيمعليه السلام بشرى الملائكة له بالغلام العليم، وعلم أنّهم ليسوا ببشر ولا أضياف ﴿قال﴾ لهم: ﴿فما خطبكم أيّها المرسلون﴾ أي ما شأنكم. والخطب هو الأمر الجليل، فكأنّه قال: قد بُعثتم لأمر جليل، فما هو؟ ومنه الخطبة، لأنّها كلام بليغ لعقد أمر جليل تستفتح بالتحميد والتمجيد. والخطاب أجلّ من الإبلاغ.

وقوله: ﴿أيّها﴾ لا يثنّى ولا يجمع لأنّه مبهم يقتضي البيان عنه ما بعده من غير أن يلزم ما قبله، كما يلزم «الّذي وهذا» كقولك مررت بالرجلين هذين، فتبعه في تثنيته كما تبعه في إعرابه.

فأجابته الملائكة فـ﴿قالوا إنّا أُرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ عاصين لله كافرين لنعمه استحقّوا العقاب والهلاك ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسوّمة عند ربّك للمسرفين﴾ فالمسرف المكثر من المعاصي، وهو صفة ذمّ، لأنّه خروج عن الحقّ. ونقيض الإسراف الإقتار، وهو التقصير عن بلوغ الحقّ. وليس في الإكثار من طاعة الله سرف، ولا في نعمه إقتار، لأنّه سائغ على مقتضى الحكمة، وإرسال الرسول إطلاقه بالأمر إلى المصير إلى من أُرسل إليه، فالملائكة أُمروا بالمصير إلى قوم لوط لإهلاكهم، وإرسال الحجارة إطلاقها. وليست برسل ولكن مرسلة. والمسوّمة المعلمة بعلامات ظاهرة للحاسّة، لأنّ التسويم كالسيماء في أنّه يرجع إلى العلامة الظاهرة من قولهم: عليه سيماء الخير. ومنه قوله: ﴿يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من

---

(١) من الحجريّة.

الملائكة مسوّمين﴾ [١] و«المجرم» القاطع للواجب بالباطل، فهؤلاء أجرموا بقطع الايمان بالكفر. وأصل الصفة القطع. وقال ابن عبّاس: التسويم نقطة في الحجر الأسود بيضاء، أو نقطة سوداء في الحجر الأبيض. وقيل: كان عليها أمثال الخواتيم [٢] وقوله: ﴿حجارة من طين﴾ أي أصلها الطين لاحجارة البرد الّتي أصلها الماء. و«المسوّمة» هي المعلمة بعلامة يعرفها بها الملائكة أنّها ممّا ينبغي أن يرمى بها الكفرة عند أمر الله بذلك. وقيل: حجارة من طين كأنّها آجر [٣] في قول ابن عبّاس. وقال الحسن: مسوّمة بأنّها من حجارة العذاب. وقيل: مسوّمة بأن جَعل على كلّ حجر اسم من يهلك به [٤].

وقوله: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ أي أخرجنا من كان في قرية لوط من المؤمنين، نحو لوط وأهله وخلّصناهم من العذاب والإهلاك.

وقوله: ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ يدلّ على أنّ الإسلام هو الإيمان والإيمان هو التصديق بجميع ما أوجب الله التصديق به. والإسلام هو الاستسلام لوجوب عمل الفرض الّذي أوجبه الله وألزمه. والمسلم هو المخلص لعمل الفرض على ما أمر الله به، لأنّ صفة «مسلم» كصفة مؤمن في أنّها مدح. والبيت الّذي وجده في تلك القرية من المؤمنين هم أتباع لوط، ووجدان الضالّة هو إدراكها بعد طلبها، ووجدت الموجدة إدراك ما يوجب العتاب واللائمة في القلب، ووجدت المال جدة أدركت ملكاً لي كثيراً، ووجدت زيداً الصالح بمعنى علمته، ووجدت الضالّة وجداناً. والبيت هو البناء المهيّأ للإيواء إليه والمبيت فيه.

---

(١) آل عمران: ١٢٥. (٢) مجاز القرآن ٢: ٢٢٧. (٣ و ٤) تفسير السمرقندي ٣: ٣٤٥.

وقوله: ﴿وتركنا فيها آية﴾ فالترك في الأصل ضدّ الفعل ينافي الأخذ في محلّ القدرة عليه، والقدرة عليه قدرة على الأخذ. والمعنى في الآية أبقينا فيها آية، ومثله قوله: ﴿وتركهم في ظلمات﴾[١] بمعنى لم ينفها مع أنّه قادر على نفيها، وفلان ترك السوق أي قطعها بأن صار لا يمضي إليها. ومعنى «تركنا فيها آية» بمنزلة ما فعل ضدّ ما تنافيه الآية. وقيل: إنّ الآية اقتلاع البلدان لا يقدر عليه إلّا الله تعالى.

وقوله: ﴿للّذين يخافون العذاب الأليم﴾ إنّما خصّ الخائفين من العذاب الأليم بالآية لأنّهم الّذين يعتبرون بها وينتفعون بها.

قوله تعالى:

وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾

ثمان آيات بلا خلاف.

[أقول:][٢] قرأ الكسائي «الصعقة» الباقون «الصاعقة». فالصعقة مصدر صعق يصعق صعقاً وصعقة واحدة. والصاعقة الاسم تقول: صاقعة وصاعقة مقدّماً ومؤخّراً[٣] وصواعق وصواقع، وقيل: هما لغتان.

قوله: ﴿وفي موسى﴾ عطف على قوله ﴿وتركنا فيها آية﴾ فكأنّه قال: وتركنا في موسى آية حين ﴿أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين﴾ أي بحجّة ظاهرة.

---

(١) البقرة: ١٧. (٢) من الحجريّة. (٣) الحجّة للقرّاء السبعة ٣: ٤٢٢.

﴿فتولّى بركنه﴾ قال ابن عبّاس وقتادة ومجاهد: معناه بقوّته. وقيل: معناه تولّى بما كان يتقوّى به من جنده وملكه[١]. والركن الجانب الّذي يعتمد عليه. والمعنى: إنّ فرعون أعرض عن حجّة موسى ولم ينظر فيها بقوّته في نفسه ﴿وقال ساحر﴾ أي هو ساحر ﴿أو مجنون﴾ فالسحر حيلة توهم المعجزة بحال خفية. وأصله خفاء الأمر، فمنه السحر الوقت الّذي يخفى فيه الشخص. و«السحر» الرئة لخفاء سببها في الترويح عن القلب بها. والسحارة لخفاء السبب في تلوّن خيطها. والمجنون الّذي أصابته جنّة فذهب عقله. وقال الزجّاج «أو» هاهنا بمعنى الواو، والتقدير ساحر ومجنون[٢]. وقال غيره: في ذلك دلالة على عظم جهل فرعون، لأنّ الساحر هو اللطيف الحيلة وذلك ينافي صفة المجنون المختلط العقل، فكيف يوصف شخص واحد بهاتين الصفتين.

فقال الله تعالى مخبراً عن نفسه: ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناه﴾ يعني إنّا نبذنا فرعون وجنوده ﴿في اليمّ﴾ أي طرحناه في البحر كما يلقى الشيء في البرّ ﴿وهو مليم﴾ أي آت بما يلام عليه من الكفر والجحود والعتوّ والتجبّر والتكبّر واحد. و«الملوم» الّذي وقع به اللوم، و«المليم» الّذي أتى بما يلام عليه.

وقوله: ﴿وفي عاد﴾ عطف أيضاً على قوله: ﴿وتركنا فيها﴾ أي وتركنا في عاد أيضاً آية أي دلالة فيها عظة ﴿إذ أرسلنا﴾ أي أطلقنا ﴿عليهم الريح العقيم﴾ وهي الّتي عقمت عن أن تأتي بخير من تنشئة سحاب أو تلقيح شجرة أو تذرية طعام أو نفع حيوان، فهي كالممنوعة من الولادة. وجمع

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ٥: ٥٦. (٢) راجع تفسير الطبري ١١: ٤٦٨، مجاز القرآن ٢: ٢٢٧.

الريح أرواح ورياح، ومنه راح الرجل إلى منزله أي رجع كالريح، والراحة قطع العمل المتعب. وقال ابن عبّاس: الريح العقيم الّتي لا تلقح الشجر ولا تنشئ السحاب. وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «نصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور»[١].

وقوله: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه﴾ أي لم تترك هذه الريح شيئاً تمرّ عليه ﴿إلّا جعلته كالرميم﴾ وهو السحيق الّذي انتفى رمّه بانتفاء ملاءمة بعضه لبعض، وأمّا رمّه يرُمّه رمّاً فهو رامّ له والشيء مرموم فهو المصلح بملاءمة بعضه لبعض، وهو أصل الرميم الّذي رمّه بنقصه. وقيل: الرميم الّذي ديس من يابس النبات[٢]. وقيل: الرميم العظم البالي المنسحق[٣].

وقوله: ﴿وفي ثمود إذ قيل لهم﴾ أيضاً عطف على قوله: ﴿وتركنا فيها آية... وفي ثمود﴾ وهم قوم صالح لمّا كفروا وجحدوا نبوّة صالح وعقروا ناقة الله واستحقّوا الإهلاك فـ﴿قيل لهم تمتّعوا حتّى حين﴾ أي انتفعوا في أسباب اللذّات من المناظر الحسنة والروائح الطيّبة والأصوات السجيّة وكلّ ما فيه منفعة على هذه الصفة ﴿حتّى حين﴾ أي إلى حين قدر الله إبقاءكم إليه. وقيل: إلى حين آجالكم إن أطعتم الله[٤] في قول الحسن.

﴿فعتوا عن أمر ربّهم﴾ فالعتوّ الامتناع عن الحقّ، وهو الجفاء عنه ترفّعاً عن اتّباع الداعي إليه ﴿فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون﴾ أي أرسل الله إليهم الصاعقة الّتي أهلكتهم وأحرقتهم وهم يبصرونها.

﴿فما استطاعوا من قيام﴾ أي لم يقدروا على النهوض به ﴿وما كانوا

---

(١) الجعفريّات: ١٩٣.
(٢) تفسير الطبري ١١: ٤٦٩.
(٣) الكشف والبيان ٩: ١١٨.
(٤) تفسير السمرقندي ٣: ٣٦٤.

منتصرين﴾ أي طالبين ناصراً يمنعهم من عذاب الله ـ عزّ وجلّ ـ وقرأ الكسائي «الصعقة» بغير ألف. وقد بيّنّاه.

قوله تعالى:

وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ عشر آيات بلا خلاف.

[أقول:][١] قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ﴿وقوم نوح﴾ جرّاً عطفاً على قوله: ﴿وفي عاد﴾ وتقديره وفي قوم نوح آية. الباقون بالنصب على تقدير وأهلكنا قوم نوح، ويحتمل أن يكون على تقدير فأخذت صاعقة العذاب قوم نوح، إذ العرب تسمّي كلّ عذاب مهلك صاعقة. الثالث على تقدير: واذكر قوم نوح، كقوله: ﴿وإبراهيم الّذي وفّى﴾[٢] و«القوم» الجماعة الّذين من شأنهم أن يقوموا بالأمر، وإضافتهم إليه تقتضي أنّه منهم في النسب. ولم يفرد لـ«قوم» واحد. ثمّ بيّن لمّا أهلكهم فقال: ﴿إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾ خارجين من طاعة الله ـ عزّ وجلّ ـ إلى الكفر بالله فاستحقّوا لذلك الإهلاك.

وقوله: ﴿والسماء بنيناها بأيد﴾ معناه بقوّة، في قول ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وابن زيد. و«الأيد» القوّة. ووجه اتّصال قوله: ﴿والسماء بنيناها

---

(١) من الحجريّة. (٢) النجم: ٣٧.

بأيد﴾ بما قبله هو أنّ في قوم نوح آية وفي السماء أيضاً آية، فهو متّصل به في المعنى.

وقوله: ﴿وإنّا لموسعون﴾ وقيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال الحسن: التوسعة في الرزق بالمطر. الثاني: قال ابن زيد: بقوّة وإنّا لموسعون السماء. الثالث: إنّا لقادرون على الاتّساع بأكثر من اتّساع السماء[1]. و«الاتّساع» الإكثار من إذهاب الشيء في الجهات بما يمكن أن يكون أكثر ممّا في غيره، يقال أوسع يوسع إيساعاً، فهو موسع. والله تعالى قد أوسع السماء بما لا بناء أوسع منه وإيساع الرحمة هو الإكثار منها بما يعمّ.

وقوله: ﴿والأرض فرشناها﴾ عطف على قوله: ﴿والسماء بنيناها﴾ وتقديره: وبنينا السماء بنيناها وفرشنا الأرض فرشناها أي بسطناها ﴿فنعم الماهدون﴾ والماهد الموطئ للشيء المهيّء لما يصلح الاستقرار عليه، مهَد يمهَد مهداً، فهو ماهد، ومهّد تمهيداً، مثل وطّأ توطئة.

وقوله: ﴿ومن كلّ شيء خلقنا زوجين﴾ معناه خلقنا من كلّ شيء اثنين مثل الليل والنهار، والشمس والقمر والأرض والسماء، والجنّ والإنس، في قول الحسن ومجاهد. وقال ابن زيد: ﴿خلقنا زوجين﴾ الذكر والأُنثى. وفي ذلك تذكير بالعبرة في تصريف الخلق والنعمة في المنفعة والمصلحة ﴿لعلّكم تذكّرون﴾ معناه لتتذكّروا وتفكّروا فيه وتعتبروا به.

وقوله: ﴿ففرّوا إلى الله﴾ أي فاهربوا إلى الله من عقابه إلى رحمته بإخلاص العبادة له. وقيل: معناه ففرّوا إلى الله بترك جميع ما يشغلكم عن

---

(١) النكت والعيون ٥: ٣٧٣.

طاعته ويقطعكم عمّا أمركم به[١] ﴿إنّي لكم منه نذير﴾ مخوّف من عقابه ﴿مبين﴾ عمّا أوجب عليكم من طاعته.

ثمّ نهاهم فقال: ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تعبدوا معه معبوداً آخر من الأصنام والأوثان ﴿إنّي لكم منه نذير مبين﴾ أي من الله مخوّف من عقابه مظهر ما أوجب عليكم وأمركم به. وقيل: الوجه في تكرار ﴿إنّي لكم منه نذير مبين﴾ هو أنّ الثاني منعقد بغير ما انعقد به الأوّل إذ تقديره إنّي لكم منه نذير مبين في الامتناع من جعل إله آخر معه، وتقدير الأوّل إنّي لكم منه نذير مبين في ترك الفرار إليه بطاعته فهو كقولك: أُنذرك أن تكفر بالله أنذرك أن تتعرّض لسخط الله. ويجوز أن يقول الله: ولا تجعلوا مع الله قديماً آخر، كما قال: ﴿ولا تجعلوا مع الله إلهاً﴾ لأنّ جعلهم ذلك باعتقادهم إلهاً معه أو إظهارهم أنّه مذهب لهم. ولا يجوز أن يقول: لا تكونوا قدماء مع الله لأنّه نهي عمّا لا يمكن، وهو محال. وكذلك لا يجوز أن يقول: لا تصيروا قدماء ولا آلهة، لأنّه محال. و«النذير» هو المخبر بما يحذر منه ويصرف عنه وهو يقتضي المبالغة. والمنذر صفة جارية على الفعل تقول: أنذر يُنذِر إنذاراً فهو منذر، ونذره أي علم به واستعدّ له. و«المبين» الّذي يأتي ببيان الحقّ من الباطل.

ثمّ قال مثل ما أتى هؤلاء الكفّار نبيّ فكذّبوه ﴿كذلك ما أتى الّذين من قبلهم﴾ من الأمم ﴿رسول إلّا قالوا﴾ هو ﴿ساحر أو مجنون﴾ فالساحر هو الّذي يحتال بالحيل اللطيفة. والمجنون الّذي به جنون. وإنّما قال الجهّال ذلك في الرسل لأنّ الإقدام عندهم على إنكار عبادة الأوثان لا يكفي فيه

---

(١) الكشف والبيان ٩: ١١٩.

الشبهة دون الجِنّة، فالمجنون المُعطى على عقله بما لا يتوجّه للإدراك به. فكذلك شبّه حال قريش في التكذيب بحال الأُمم حتّى قالوا: ساحر أو مجنون. وإنّما جاز منهم الاتّفاق على تكذيب الرسل من غير تواص ولا تلاق، لأنّ الشبهة الداعية إليه واحدة.

وقوله: ﴿أتواصوا﴾ فالتواصي هو إيصاء بعض القوم إلى بعض بوصيّة، والوصيّة التقدمة في الأمر بالأشياء المهمّة مع النهي عن المخالفة، كالوصيّة بقضاء الدين وردّ الوديعة والحجّ والصدقة وغير ذلك، فكأنّ هؤلاء الجهّال قد تواصوا بعبادة الأوثان بما هم عليه من الملازمة وشدّة المحافظة وصورة الكلام صورة الاستفهام والمراد به الإنكار والتوبيخ.

وقوله: ﴿بل هم قوم طاغون﴾ معناه لم يتواصوا بذلك لكنّهم طاغون طغوا في معصية الله وخرجوا عن الحدّ.

ثمّ قال للنبيّ ﷺ: ﴿فتولّ عنهم﴾ أي أعرض عنهم يا محمّد، في قول مجاهد. ﴿فما أنت بملوم﴾ في كفرهم وجحودهم بل اللائمة والذمّ عليهم من حيث لا يقبلون ما تدعوهم إليه، وليس المراد أعرض عن تذكيرهم ووعظهم، وإنّما أراد أعرض عن مكافأتهم ومقابلتهم ومباراتهم وما أنت في ذلك بملوم ﴿وذكّر﴾ بالموعظة ﴿فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين﴾ الّذين يتّعظون بمواعظ الله ويستدلّون بآياته. قال حسين بن صمصم.

أما بنو عبس فإنّ هجينهم ولّى فوارسُه وأفلت أعورا[١]

قوله تعالى:

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ

---

(١) مجاز القرآن ٢: ٢٢٨، تفسير الطبري ١١: ٤٧٤.

أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ خمس آيات بلا خلاف.

[أقول:][(١)] هذا إخبار من الله تعالى أنّه لم يخلق الجنّ والإنس إلّا لعبادته، فإذا عبدوه استحقّوا الثواب، واللام لام الغرض، ولا يجوز أن يكون لام العاقبة لحصول العلم بأنّ كثيراً من الخلق لا يعبدون الله. وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة القائلين: بأنّ الله خلق كثيراً من خلقه للكفر به والضلال عن دينه وخلقهم ليعاقبهم بالنيران، لأنّه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى تناقض ولا اختلاف. وقوله: ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم﴾ [(٢)] قد بيّنّا في ما مضى أنّ اللام لام العاقبة. والمعنى إنّه خلق الخلق كلّهم لعبادته وتصير عاقبة كثير منهم إلى جهنّم بسوء اختيارهم من الكفر بالله وارتكاب معاصيه.

فإن قيل: أليس قد خلق الله كثيراً من خلقه لطفاً لغيرهم، فكيف يكون خلقهم لعبادته؟!

قلنا: ما خلقه الله تعالى على ضربين: مكلّف، وغير مكلّف. فما ليس بمكلّف خلقه للطف المكلّفين، جماداً كان أو حيواناً. وما هو مكلّف خلقه لعبادته وإن كان في خلقه أيضاً لطف للغير، وكأنّه يكون خلقه للأمرين ويكون بمنزلة ما خلقته إلّا ليعبد مع عبادة غيره لأنّ عبادة غيره ممّا هو غرض في خلقه، ولولا ذلك لم يكن في خلق النبيّ عليه لطف لغيره، فالتقدير ما خلقته إلّا لعبادته مع عبادة غيره به، وهو بمنزلة قول القائل

---

(١) من الحجريّة.

(٢) الأعراف: ١٧٩.

ما أدّبت ولدي إلّا ليصلح جميعهم أي بتأديبي له مع تأديب غيره الّذي يدعوه إلى خلافه. وليس المعنى ما خلقت كلّ مكلّف إلّا ليعبد هو فقط.

وفي الآية دلالة على أنّه تعالى لا يريد المباح، لأنّه ليس من العبادة.

وقوله: ﴿ما أُريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ معناه نفي الإيهام عن خلقهم لعبادته أن يكون ذلك لفائدة تقع وتعود عليه تعالى، فبيّن أنّه لفائدة النفع العائد على الخلق دونه تعالى لاستحالة النفع عليه ودفع المضارّ، لأنّه غنيّ بنفسه لا يحتاج إلى غيره، وكلّ الناس محتاجون إليه. ومن زعم أنّ التأويل ما أُريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم، فقد ترك الظاهر من غير ضرورة. وقال ابن عبّاس: معنى ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾: إلّا ليتقرّبوا لي بالعبوديّة طوعاً وكرهاً.

ثمّ بيّن تعالى أنّه ـ جلّ و عزّ ـ هو الرازق لعباده فقال: ﴿إنّ الله هو الرزّاق﴾ والخلق له يرزقونه ﴿ذو القوّة﴾ صاحب القدرة ﴿المتين﴾ ومعناه: أنّه القويّ الّذي يستحيل عليه العجز والضعف، لأنّه ليس بقادر بقدرة، بل هو قادر لنفسه، ولأنّه ليس بجسم، والجسم هو الّذي يحلقه ضعف. ومن خفض ﴿المتين﴾ ـ وهو يحيى ابن وثاب ـ جعله صفة للقوّة. وذكّره لأنّه ذهب إلى الحبل والشيء المفتون يريد القوّة، قال الشاعر:

لكلّ دهر قد لبستُ أثوبا ... من ريطة واليمنية المُعصّبا[1]

فذكر لأنّ اليمنية ضرب من الثياب وصنف منها، ومن فسّر ﴿المتين﴾ بالشديد فقد غلط، لأنّ الشديد هو الملتفّ بما يصعب معه تفكيكه. ووصف القوّة بأنّها أشدّ يؤذن بالمجاز، وأنّه بمعنى أعظم.

---

(١) معاني القرآن ٣: ٩٠. فيه: اليمنة.

ثمّ أخبر تعالى بأنّ ﴿للّذين ظلموا﴾ نفوسهم بارتكاب المعاصي ﴿ذنوباً﴾ أي نصيباً وأصله الدلو الممتلئ ماء، كما قال الراجز:

لنا ذَنوب ولكم ذَنوب      فإن أبيتم فلنا القليب[1]

وقال علقمة:

وفي كلّ حيّ قد خَبطتَ بنعمة      فحقّ لشاش من نَداك ذَنوب[2]

أي نصيب، وإنّما قيل للدلو: ذنوب، لأنّها في طرف الحبل، كأنّها في الذنب. وقيل: معناه لهم بلاء وويل. والذنوب الدلو العظيمة يؤنّث ويذكّر. وقوله: ﴿مثل ذنوب أصحابهم﴾ أي مثل نصيب أصحابهم من الكفّار الّذين تقدّموهم ﴿فلا تستعجلون﴾ قل لهم لا تستعجلون بإنزال العذاب عليهم، فإنّهم لا يفوتون.

ثمّ قال: ﴿فويل للّذين كفروا﴾ وحدانيّتي وجحدوا نبوّة رسولي ﴿من يومهم الّذي يوعدون﴾ فيه بإنزال العذاب بالعصاة وهو يوم القيامة، والويل كلمة يقولها العرب لكلّ من وقع في مهلكة.

---

(١) مرّ في ٤: ٢٢، الكشف والبيان ٩: ١٢٢، معجم اللغة ٢: ١٢٩٥.

(٢) تفسير الطبري ١١: ٤٧٧، الكتاب ٤: ٤٧١.

# فهرس الآيات


| رقم الآية | | الصفحة |
|---|---|---|
| | **الفاتحة (١)** | |
| ١ ـ ٣ | الحمدلله... إيّاك نعبد | ٢٨٦ |
| | **البقرة (٢)** | |
| ٢ | لا ريب فيه... هدىً للمتّقين | ٧٨ و ٦١٩ |
| ٩ | يخادعون الله والّذين آمنوا... | ٣٤٣ |
| ١٧ | وتركهم في ظلمات | ٦٢٨ |
| ٢٨ | كيف تكفرون بالله وكنتم... | ٢٧٩ |
| ٣٠ | إنّي جاعل في الأرض خليفةً | ٢١١ |
| ٥٤ | فاقتلوا أنفسكم | ٤٩٠ |
| ٦١ | فادع لنا ربّك يخرج لنا... | ٢٠ |
| ١١٧ | كن فيكون | ٣٣٠ |
| ١٨٥ | شهر رمضان الّذي... | ٤٥١ |
| ١٩٤ | الشهر الحرام... فمن اعتدى... | ٣٩٢ و ٥٦٦ |

| | | |
|---|---|---|
| ٢٤٦ | من ذا الّذي يقرض الله... | ٥٢٤ |
| ٢٥٣ | منهم من كلّم الله | ٨٧ |
| ٢٥٥ | ولا يحيطون بشيء من علمه | ٢٧٥ |
| ٢٦٠ | فصرهنّ إليك | ٩٧ |
| ٢٧٤ | الّذين ينفقون أموالهم... | ٣٨٦ |


## آل عمران (٣)


| | | |
|---|---|---|
| ٢١ | فبشّرهم بعذاب أليم | ١٢٢ و٢٠٦ |
| ٣٧ | وكفّلها زكريّا | ١٨٤ |
| ٣٩ | ونبيّاً من الصالحين | ١٥٣ |
| ٥٤ | ومكروا ومكر الله | ١٩ و١١٩ |
| ٥٩ | إن مثل عيسى عند الله | ٤٩ و٤٣٥ |
| ٩٢ | لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا... | ١٩٢ |
| ١٠٦ | فأمّا الّذين اسودّت وجوههم... | ٤٩٣ |
| ١١٠ | كنتم خير أُمّة أخرجت للناس | ٤٦٣ و٤٨٤ |
| ١٢٥ | يمددكم... الملائكة مسوّمين | ٦٢٧ |
| ١٣٤ | والكاظمين الغيظ | ٢٨٤ |
| ١٥٤ | إنّ الأمر كلّه لله | ٣٠٣ |
| ١٧٨ | إنّما نملي لهم ليزدادوا... | ٥٣٣ |
| ١٨٥ | كلّ نفس ذائقة الموت | ٢٤١ |
| ١٨٨ | بمفازة من العذاب | ٢٥٩ |

النساء (٤)

| | | |
|---|---|---|
| ٣ | فانكحوا ما طاب لكم من النساء | ٢٢٨ |
| ٢١ | ولا تقلتوا أنفسكم | ٥٨٢ |
| ١١٩ | ولآمرنّهم فليبتكن آذان الأنعام | ٢١ |
| ١٤٢ | يخادعون الله وهو خادعهم | ١٩ |
| ١٧٢ | لن يستنكف المسيح أن يكون... | ٤١٢ |
| ١٧٦ | يبيّن الله لكم أن تضلّوا | ٢٥٦ |

المائدة (٥)

| | | |
|---|---|---|
| ٣٧ | يريدون أن يخرجوا من النار... | ٤٩٥ |
| ٤٥ | النفس بالنفس والعين بالعين... | ٣٩٢ |
| ١١٦ | أ أنت قلت للناس اتّخذوني... | ٣٣ |

الأنعام (٦)

| | | |
|---|---|---|
| ١ | الحمدلله الّذي خلق السموات... | ٢٦٩ |
| ٢٣ | والله ربّنا ما كنّا مشركين | ٣٠٥ |
| ٢٤ | انظر كيف كذبوا على أنفسهم | ٢٩ |
| ٢٨ | ولو ردّوا لعادوا لما نهوا... | ٢٧٩ |
| ٣٨ | طائر يطير بجناحيه | ١٨٦ |
| ٦٠ | وهو الّذي يتوفّاكم بالليل... | ٢٤٩ |
| ٦١ | توفّته رسلنا | ٢٤٨ |
| ٥٩ | وعنده مفاتح الغيب | ٥٤٥ |

| | | |
|---|---|---|
| ٧٦ | فلما جنّ عليه الليل رأى... | ١٤١ |
| ١٥٧ | فقد جاءكم بيّنة من ربّكم | ٦٣ |
| ١٦٤ | ولا تزر وازرة وزر أُخرى | ٣٧٤ |


## الأعراف (٧)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٨ | ربّنا إنّا أطعنا سادتنا... | ٢٠٨ |
| ٤٤ | أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا... | ٢٩٤ |
| ٥٠ | أن أفيضوا علينا من الماء... | ٢٩٤ |
| ٥٤ | إن ربّكم... ثمّ استوى على... يغشى... | ٣٢٩ و ٣٣١ و ٤٥٤ |
| ٨٩ | ربّنا افتح بيننا وبين قومنا | ٥٤٥ |
| ١٠٢ | وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين | ٤١٩ |
| ١١٧ | فإذا هي تلقف ما يأفكون | ١٤٥ |
| ١٧٥ | فانسلخ منها | ٩٠ |
| ١٧٧ | ساء مثلاً القوم الّذين | ١٧٠ |
| ١٧٩ | ولقد ذرأنا لجهنّم | ٦٣٥ |
| ١٩٥ | ألهم أرجل يمشون بها أم... | ٦٦ |
| ٢٠٦ | إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون... | ٤١٢ |


## الأنفال (٨)


| | | |
|---|---|---|
| ٨ | ليحقّ الحقّ | ٢١٥ |
| ١٢ | فاضربوا فوق الأعناق | ٢١٤ |
| ٤٨ | زيّن لهم الشيطان أعمالهم | ٢٩٨ |
| ٥٨ | فإمّا تثقفنّهم في الحرب... | ٥٢٢ |

التوبة (٩)

| | | |
|---|---|---|
| ٥ | فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم | ٥٢٢ |
| ٣٤ | والّذين يكنزون الذهب والفضّة... | ٨٨ |
| ٦٣ | ألم يعلموا أنّه من يحادد الله... | ٤٧٦ |
| ٧٢ | ورضوان من الله أكبر | ٨٤ |
| ٨٠ | فيسخرون منهم سخر الله منهم | ١١٩ |
| ٨٣ ـ ٨٥ | فإن رجعك... لن تخرجوا... وهم كافرون | ٥٥٥ و٥٥٧ و٥٥٨ |
| ٩٣ | طبع الله على قلوبهم | ٦١٨ |
| ١١٢ | والناهون عن المنكر | ٢٦٧ |

يونس (١٠)

| | | |
|---|---|---|
| ٣ | إنّ ربّكم... ثمّ استوى على العرش | ٣٢٩ و٣٣١ |
| ٤٦ | فإلينا مرجعهم ثمّ الله شهيد | ٢٢٤ |
| ٨٢ | ويحقّ الله الحقّ | ٢١٥ |

هود (١١)

| | | |
|---|---|---|
| ٢١ | وما ألتناهم من عملهم من شيء | ٥٨١ |
| ٣٨ | فانّا نسخر منكم كما تسخرون | ٥٨١ |
| ٤٣ | لا عاصم اليوم من أمر الله... | ٢٩٥ |
| ٥٤ | إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء | ٢٤٥ |
| ٦٦ | القوي العزيز | ٢٨٦ |
| ٧٢ | يا ويلتى أألد وأنا عجوز | ١٢٠ |
| ١١٩ | لأملأنّ جهنّم من الجنّة... | ٦٠٥ |

### يوسف (١٢)


| | | |
|---|---|---|
| ٤ | والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين | ٤٩٨ |
| ١٠ | السيّارة | ٢٨٦ |
| ٧٠ | فلمّا جهّزهم بجهازهم... | ١٤٩ |
| ٨٢ | وسئل القرية | ١٤٠ |
| ١٠٠ | من بعد أن نزغ... | ٣٤٧ |


### الرعد (١٣)


| | | |
|---|---|---|
| ٢ | ثمّ استوى على العرش | ٣٢٩ |
| ٣ | يغشى الليل النهار | ٤٥٤ |
| ٥ | وإن تعجب فعجب قولهم | ١١٧ |
| ٦ | وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس... | ٢٥٥ |
| ٣٣ | أفمن هو قائم على كلّ... | ٢٢٧ |


### إبراهيم (١٤)


| | | |
|---|---|---|
| ٣ | الّذين يستحبّون اليحاة... | ١٩١ |
| ٢٢ | وما كان لي عليكم من سلطان... | ٢٤٢ و٦٠٣ |
| ٢٥ | تؤتي أكلها كلّ حين... | ٢١٧ |
| ٣١ | قل لعبادي الّذين آمنوا... | ٤٨٣ |
| ٤٣ | مهطعين مقنعي رءوسهم | ٧٦ |


### الحجر (١٥)


| | | |
|---|---|---|
| ٦ | يا أيّها الّذي نُزّل عليه الذكر | ٤٣٠ |
| ٣٩ | ربّ بما أغويتني | ١٢٥ |

### النحل (١٦)


| | | |
|---|---|---|
| ١٥ | وألقى في الأرض رواسي... | ٢٥٦ |
| ٢١ | أموات غير أحياء | ١٠٥ |
| ٣٠ | ولنعم دار المتّقين | ٢٠٤ |
| ٤٨ | يتفيؤا ظلاله | ٩٧ |
| ٥٢ | وله الدين واصباً | ١١٦ |
| ٦٦ | ممّا في بطونه | ٤٠٩ |
| ١٢٤ | وإنّ ربّك ليحكم بينهم | ١٦٨ |
| ١٢٦ | وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل... | ٣٩٢ |


### الإسراء (١٧)


| | | |
|---|---|---|
| ١٤ | إقرأ كتابك كفى بنفسك... | ٥٩٩ |
| ١٥ | ولا تزر وازرة وزر أُخرى | ٣٧٤ |
| ٦٢ | لأحتنكن ذرّيته إلّا قليلاً | ٢١ |
| ٧١ | كلّ أناس بإمامهم | ٢٩٤ |
| ٩٧ | ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم... | ٢١ |


### الكهف (١٨)


| | | |
|---|---|---|
| ١٨ | وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد | ٢٤٥ و ٣٠٢ |
| ٢٣ | ولا تقولنّ لشيء | ٥٦٨ |
| ٤٨ | وعرضوا على ربّك صفاً | ١٩١ |
| ٥١ | ما أشهدتهم خلق السماوات... | ٤١٢ |
| ١٠٣ | بالأخسرين أعمالاً | ٣١٢ |

مريم (١٩)

| | | |
|---|---|---|
| ٩٠ | تكاد السموات يتفطّرن منه | ٣٦٩ |

طه (٢٠)

| | | |
|---|---|---|
| ٤٠ | وفتناك | ١٦٧ و١٦٨ |
| ٦٧ | فأوجس في نفسه خيفة موسى | ٦٢٤ |
| ٦٩ | وألق ما في يمينك | ١٤٥ |
| ٧١ | ولأُصلّبنكم في جذوع النخل | ٣١٨ |
| ٨٥ | وأظلّهم السامريّ | ١٣٦ |
| ١٢٠ | فوسوس إليه الشيطان | ٥٩٧ |
| ١٢٤ | ونحشره يوم القيامة أعمى | ٣٣٤ |

الأنبياء (٢١)

| | | |
|---|---|---|
| ١٨ | بل نقذف بالحقّ على... | ٣٧ |
| ٣٢ | وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً | ٤٢١ |
| ٣٥ | كلّ نفس ذائقة الموت | ٢٤١ |
| ٤٠ | تأتيهم بغتة | ٩٦ |
| ٤٩ | وهم من الساعة مشفقون | ٢٠١ |
| ٥٧ | وتالله لأكيدن أصنامكم | ١٤٤ |
| ٦٣ | بل فعله كبيرهم هذا | ١٤٢ |
| ٨٣ | مسّني الضُرّ | ٥٥٣ |
| ٨٧ | فظنّ أن لن نقدر عليه | ٣١ |

| | | |
|---|---|---|
| ٩٨ | إنّكم وما تعبدون من دون... | ١٠٨ و ٤٣٥ |
| ١٠١ و ١٠٢ | إنّ الّذين سبقت... لا يسمعون... | ١٠٨ |


### الحج (٢٢)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٩ | أُذن للّذين يقاتلون بأنهم ظلموا | ٤٨٢ |
| ٧٢ | قل أفأنُبّئكم بشرٍّ من... | ٢٠١ |
| ٧٥ | ولقد أخترناهم على علمٍ... | ١٨٦ |
| ٧٨ | هو سمّاكم المسلمين | ٤١٨ |


### المؤمنون (٢٣)


| | | |
|---|---|---|
| ١٤ | ثمّ أنشأناه خلقاً آخر | ٤١٢ |
| ٢١ | بطونها | ٤٠٩ |
| ٣٥ | أيعدكم أنكم إذا متمّ... | ٢٣٤ |
| ٥٠ | وجلعنا ابن مريم وأُمّه آية | ٢٤٠ |


### النور (٢٤)


| | | |
|---|---|---|
| ١٢ | لولا إذ سمعتموه ظنّ... | ٥٨٣ |
| ٤١ | والطير صافّات | ١١٤ |


### الفرقان (٢٥)


| | | |
|---|---|---|
| ٤١ | أهذا الّذي بعث الله رسولاً | ٨٧ و ٤٤١ |
| ٥٩ | ثمّ استوى على العرش | ٣٢٩ |

الشعراء (٢٦)

| | | |
|---|---|---|
| ١ | طسم | ٣٦١ |
| ١٧ | أن أرسل معنا بني إسرائيل | ٤٥٧ |
| ٣٦ | أرجه وأخاه وابعث في... | ٢٩٠ |
| ٥٩ | وأورثنا بني إسرائيل | ٤٦٠ |

النمل (٢٧)

| | | |
|---|---|---|
| ١٩ | اوزعني | ٣٣٦ |
| ٥٩ | الله خير أمّا يشركون | ٩ |

القصص (٢٨)

| | | |
|---|---|---|
| ١ | طسم | ٣٦١ |

العنكبوت (٢٩)

| | | |
|---|---|---|
| ٥٧ | كلّ نفس ذائقة الموت | ٢٤١ |
| ٦٢ | الله يبسط الرزق... | ٣١ |

الرّوم (٣٠)

| | | |
|---|---|---|
| ٥١ | ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفّراً | ٦٧ |

لقمان (٣١)

| | | |
|---|---|---|
| ٧ | وإذا تتلى عليه آياتنا ولّى... | ٧٥ |

### السجدة (٣٢)


| | | |
|---|---|---|
| ٤ | ثمّ استوى على العرش | ٣٢٩ |
| ٩ | خلق الأرض في يومين | ٣٣١ |
| ١١ | وقل يتوفّاكم ملك الموت | ٢٤٨ |


### الأحزاب (٣٣)


| | | |
|---|---|---|
| ٥٧ | إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله | ٥٣٨ |
| ٦٧ و٦٨ | ربّنا إنّا أطعنا... ربّنا آتهم ضعفين... | ٢٠٨ |


### سبأ (٣٤)


| | | |
|---|---|---|
| ٩ | أفلم يروا... إنّ نشأ نخسف بهم | ١٢ و٧٧ |
| ٣١ | لولا أنتم لكنّا مؤمنين | ٢٤١ |


### فاطر (٣٥)


| | | |
|---|---|---|
| ١ | أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع | ٣٦ |
| ١٨ | ولا تزر وازرة وزر أُخرى | ٣٧٤ |


### يس (٣٦)


| | | |
|---|---|---|
| ٣٩ | والقمر قدّرناه | ٥٩٤ |
| ٤٠ | كلّ في فلك يسبحون | ٤٩٩ |
| ٤١ | أنّا حملنا... الفلك المشحون | ٥٠ و١٣٩ |


### الصافات (٣٧)


| | | |
|---|---|---|
| ٥٥ | فاطّلع فرآه في سوء الجحيم | ١٨٣ |

| | | |
|---|---|---|
| ٧٩ | سلام على نوح في العالمين | ١٥٤ |
| ٨٩ | إني سقيم | ١٤٢ |
| ٩٣ | فراغ عليهم ضرباً باليمين | ١٢٣ |
| ١٤٠ | الفلك المشحون | ٥٠ |
| ١٤٧ | وأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون | ٢٨٩ |
| ١٥٣ | أصطفى البنات | ٩ |
| ١٦٥ | وإنّا لنحن الصافّون | ١١٤ |

### ص (٣٨)

| | | |
|---|---|---|
| ٢١ | إذ تسوّروا المحرب | ١٣ |
| ٣٢ | حتّى توارت بالحجاب | ١٣٩ |
| ٥٠ | مفتّحة لهم الأبواب | ٢٦٦ |
| ٦٤ | إنّ ذلك لحقّ تخاصم... | ٣٧ و١٧٣ |
| ٧٥ | بيديّ أستكبرت | ٩ |
| ٨٢ | فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين | ٢١ |

### الزمر (٣٩)

| | | |
|---|---|---|
| ٧ | ولا تزر وازرة وزر أُخرى | ٣٧٤ |
| ١٥ | ذلك هو الخسران المبين | ٣١٨ |
| ٢٠ | لكن الّذين اتّقوا ربّهم... | ٣١ |
| ٢٤ | أفمن يتقّى بوجهه سوء العذاب | ٢٢٧ |
| ٣٠ | إنّك ميّت وإنهم ميّتون | ١٤١ |

| | | |
|---|---|---|
| ٥٦ | يا حسرتى على ما فرّطت... | ١٢٠ |
| ٧١ و٧٣ | حتّى إذا جاؤها... وفتحت | ١٤٩ |

**غافر (٤٠)**

| | | |
|---|---|---|
| ٢٨ | أتقتلون رجلاً أن يقول... | ٢٩٢ |
| ٤٦ | أدخلو آل فرعون أشدّ العذاب | ٢٩١ |

**فصّلت (٤١)**

| | | |
|---|---|---|
| ١٧ | وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا... | ٥٠٢ |

**الشورى (٤٢)**

| | | |
|---|---|---|
| ١٦ | حجّتهم داحضة... | ١٦٠ و ٢٧٤ و ٣٢٠ و٤٨٨ |
| ١٩ | القويّ العزيز | ٢٨٦ |
| ٤٠ | وجزاء سيّئة سيّئة مثلها | ٢٥٤ و٢٧٦ و ٣٨١ و ٤٤٤ |
| ٥٢ | وكذلك أوحينا إليك... | ٢٨١ |

**الزخرف (٤٣)**

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦ | ومن يعش عن ذكر الرحمن... | ٣٤٠ |
| ٧٢ | وتلك الجنّة الّتي أورثتموها... | ٦٠ |
| ٨٠ | أم يحسبون أنّا لا نسمع... | ٤٤٧ |

**الدخان (٤٤)**

| | | |
|---|---|---|
| ٣٢ | أخترناهم على علم على العالمين | ٨٠ و١٨٦ |

٤٤ إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم ٤٨٠
٤٩ ذق إنّك أنت العزيز الكريم ٢٣٩ و ٣٢١

**الجاثية (٤٥)**

٢٥ وما كان حجّتهم إلّا أن قالوا ٤٨٩

**الأحقاف (٤٦)**

١٥ اوزعني ٣٣٦
٢٢ أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ٦١٧

**الفتح (٤٨)**

١٢ وظننتم ظنّ السوء ٥٤٩

**الحجرات (٤٩)**

١٠ إنّما المؤمنون إخوة ١٤٢

**ق (٥٠)**

٣٨ وما مسّنا من لغوب ٦٢

**الذاريات (٥١)**

١٣ يوم هم على النار يفتنون ١٣٤
٤٧ والسماء بنيناها بأيدٍ ١٨٠

**الطور (٥٢)**

١٦ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا... ٣٤٠

### النجم (٥٣)

| | | |
|---|---|---|
| ٣٧ | وإبراهيم الّذي وفى | ٦٣١ |
| ٥٧ | أزفت الآزفة | ٢٨٣ |

### الرحمن (٥٥)

| | | |
|---|---|---|
| ١٥ | من مارج من نار | ٥٩٢ |
| ١٧ | ربّ المشرقين وربّ المغربين | ٤٢٥ |
| ١٩ | مرج البحرين يلتقيان | ٥٩٢ |
| ٤٤ | يطوفون بينها وبين... | ١٣٦ |

### الواقعة (٥٦)

| | | |
|---|---|---|
| ٧ | وكنتم أزواجاً ثلاثةً | ١٢٢ |
| ٣٥ | إنّا أنشأناهنّ إنشاء | ٤١٢ |
| ٦٣ و ٦٤ | أفرأيتم ما تحرثون * أ أنتم تزرعونه... | ٨٦ |

### الحديد (٥٧)

| | | |
|---|---|---|
| ٤ | ثمّ استوى على العرش | ٣٢٩ |
| ١١ | من ذا الّذي يقرض الله... | ٥٢٤ |
| ١٣ | يوم يقوم المنافقون... | ٧٦ |
| ٢٠ | كمثل غيث أعجب الكفّار نباته | ٥٧١ |

### الحشر (٥٩)

| | | |
|---|---|---|
| ١٢ | لئن أُخرجوا لا يخرون معهم | ٣٩٤ |

**المنافقون (٦٣)**

٦ سواء عليهم أستغفرت لهم ٩

**التغابن (٦٤)**

٥ فذاقوا وبال أمرهم ٢٣٩

**الطلاق (٦٥)**

١ يا أيّها النبيّ إذا طلّقتم النساء ٤٢٨

٧ ومن قدر عليه رزقه ٣١

**التحريم (٦٦)**

٥ مسلمات مؤمنات قانتات... ٢٦٧

١٢ وصدّقت بكلمات ربّها ٢٧٤

**الملك (٦٧)**

٢٠ إن الكافرون إلّا في غرور ١٦٨

**القلم (٦٨)**

٣٠ أقبل بعضهم على بعض يتلاومون ٢٤٢

**الحاقّة (٦٩)**

١١ إنّا لمّا طغا الماء... الجارية ١٢٤

٣٠ ـ ٣١ خذوه فغلوه... ثمّ الجيم صلّوه ٧٦

٥١ لحقّ اليقين ٦٨ و ٥٩٤

**الجنّ (٧٢)**

١٥ وأمّا القاسطون فكانوا... ٥٨٠

**المزمل (٧٣)**

٢٠ وما تقدّموا لأنفسكم من خير... ٢٨٨

**المدثر (٧٤)**

٥ والرجز فاهجر ٦

٣٥ إنّها لإحدى الكُبَر ١٥٦

**القيامة (٧٥)**

٣٦ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ٤٠٥

**الإنسان (٧٦)**

٢٤ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ٢٨٩

**المرسلات (٧٧)**

١١ أقتت ٣٩

**النازعات (٧٩)**

٢٧ ـ ٣٠ أ أنتم أشدّ... ذلك دحاها ٣٢٩

**عبس (٨٠)**

٢ أن جاءه الأعمى ٤٠٢ و٤٠٥

١٧ قتل الإنسان ما أكفره ٦١٧

التكوير (٨١)
٧ وإذا النفوس زوّجت ٤٢٢

الطارق (٨٦)
٤ وما يغني عنه ماله إذا تردّى ١٣١

الفجر (٨٩)
٢٢ واسأل القرية ٥٤٦

الشمس (٩١)
٢ والقمر إذا تلاها ١١٤
٧ و٨ ونفس وما سوّاها... فألهمها ١٧٣

الليل (٩٢)
٤ وما يغني عنه ماله... ١٣١

الضحى (٩٣)
٣ ما ودّعك ربّك وما قلى ٨٧

الشرح (٩٤)
١ و٢ ألم نشرح... ووضعنا عنك ٥٨٤

التين (٩٥)
٦ فلهم أجر غير ممنون ١٥٣ و٥٨٨

### العلق (٩٦)


| | | |
|---|---|---|
| ١٥ و١٦ | لنسفعاً بالناصية... ناصية | ١١٣ |
| ١٨ | سندع الزبانية | ٣٨٢ |


### البيّنة (٩٨)


| | | |
|---|---|---|
| ١ و٢ | حتّى تأتيهم البيّنة... رسول من الله | ٦٣ |


### الزلزلة (٩٩)


| | | |
|---|---|---|
| ٥ | بأنّ ربّك أوحى لها | ٣٧٣ |
| ٧ و٨ | شراً يره... و... خيراً يره | ٢٢٥ |


### العصر (١٠٣)


| | | |
|---|---|---|
| ١ ـ ٣ | والعصر إنّ... وعملوا الصالحات | ٢٤٣ |


### الهمزة (١٠٤)


| | | |
|---|---|---|
| ٤ | لينبذنّ في الحطمة | ٤٢٢ |


### المسد (١١١)


| | | |
|---|---|---|
| ١ | تبّت يدا أبي لهب | ٢٩٨ |

# فهرس الأشعار والأرجاز


| صدر البيت | القافية | الشاعر | الصفحة |
|---|---|---|---|
| | [الألف] | | |
| ربّة محرابٍ | أرتقي سُلّما | وضّاح اليمن | ١٣ |
| فصبّحت | السماءِ خارجا | ... | ١٤ |
| تمدّ بالأعناق | أنّنا نشليها | أبو زيد | ٢٣ |
| يقول الأرذلون | ما تنسى عليّا | أبو الأسود الدؤلي | ٢٦ |
| أثعلبة | والخشايا | الأعشى | ٢٦ |
| فهي تنوش | اجواز الفلا | | ٣٩ |
| أبني حنفية | أن أغضبا | ... | ٧٣ |
| لا ابتغي الحمد | أجمع واصبا | أبو الأسود الدؤلي | ١١٦ |
| ترى الناس | الناس أوقفوا | أنشده الفرّاء | ١٢٢ |
| فمن يلق | الغيّ لائما | | ١٢٤ |
| وما زالت | بالأول الأوّل | | ١٢٧ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| لعمري لئن | آل أبجرا | الأُبيرد الرياحي | ١٢٨ |
| هم القائلون | الأمر معظما | أنشد الزجّاج | ١٣٠ |
| يقول أهل | إسرائينا | | ١٥٥ |
| تلك المكارم | أبوالا | ... | ١٦٠ |
| فأنبت يقطيناً | ضاحيا | أُميّة بن أبي الصلت | ١٦٢ |
| تذكر حبّ | القرينا | | ١٧٣ |
| ألف الصفوف | كسيرا | | ١٩٠ |
| وأعرضت | مصلتينا | عمرو بن كلثوم | ١٩١ |
| حتّى إذا | ظلامها | لبيد | ١٩٢ |
| فما قومي | الرقابا | ... | ٢٠٥ |
| من القاصرات | منها لأثّرا | امرؤ القيس | ٢٠٥ |
| فأقسم لو | مدفعا | | ٢٢٧ |
| حتّى إذا | الشردا | عبد مناف بن ربيع | ٢٦٨ |
| رجلان من | عرياناً | | ٢٩٠ |
| ولا ينسني | الإزارا | ... | ٣١٥ |
| أكفكف عبرةً | ذباحا | النابغة | ٣٣٥ |
| تذكّرت لما | تعذّرا | الشمّاخ | ٣٤٠ |
| متى تأته | تأجّجا | | ٤٢٣ |
| أكلّ امرئ | للحرب ناراً | | ٤٧٤ |
| أكل امرئ | للجر ناراً | | ٤٧٥ |
| بآية يقدمون | مداماً | | ٥٠٠ |
| وكان لهم | دمارا | جرير | ٥١٢ |
| فأشرط | له وتوكّلا | أوس بن حجر | ٥٣١ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| فغض الطرف | ولا كلاباً | جرير | ٥٧٤ |
| من شعب | طرباً | ابن أحمر | ٥٨٦ |
| فإن تزجراني | ممنّعا | | ٦٠١ |
| ناجٍ طواه | فزلفا | ... | ٦٠٥ |
| عصينا عزمة | معلمينا | الفضل | ٦١٣ |
| من النفر | قعقعوا | | ٦٢٢ |
| أما بنو عبس | اعورا | حسين بن صمصم | ٦٣٤ |
| لكلّ دهر | المعصبّا | | ٦٣٦ |

[الهمزة]

| | | | |
|---|---|---|---|
| طلبوا صلحنا | حين بقاء | أبي زبُيد | ١٧٤ |
| أيّها المبتغي | والفناءُ | ... | ٢١٣ |

[الباء]

| | | | |
|---|---|---|---|
| إذا قصرت | فنضارب | قيس | ٨ |
| يومان | تأويب | | ١٠ و٦٢ |
| كنّا إذا | الظنابيب | | ٩٣ |
| وقالت له | لمّا يثقب | ... | ١٠٣ و١١١ |
| بأنّك شمس | منهنّ كوكب | النابغة | ١١٥ |
| أذاع به | بثقوبٍ | أبو الأسود | ١١٦ |
| ولا يحسبون | لازبٍ | النابغة | ١١٨ |
| عسيب الكرب | فرج قريب | ... | ١٣٧ |
| كليني لهمٍّ | الكواكب | النابغة | ١٩٩ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| وأسفل منّي | متطيّب | عوف بن الجزع | ٢٠٠ |
| أبرزوها | كواعب أتراب | ابن أبي ربيعة | ٢٠٥ |
| وجدنا لكم | ومعرب | الكميت | ٢٧١ |
| وأرغب فيها | لست أُرغب | | ٣٧٠ |
| وداع دعايا | مجيب | ... | ٣٨٣ |
| لقد نقّبت | بالإياب | امرؤ القيس | ٦٠٩ |
| ترى قصد | شواطب | ... | ٦١٧ |
| لنا ذنوب | فلنا القليب | الراجز | ٦٣٧ |
| وفي كلّ | نداك ذنوب | علقمة | ٦٣٧ |

[التاء]

| | | | |
|---|---|---|---|
| صفوح فما | الوصل ملّت | كُثَيِّر | ٤٠٦ |
| الريح تبكي | في الغمامة | | ٤٦١ |
| أما كان | الحجرات | | ٥٧٥ |
| وليلة ذات | سراها ليت | | ٥٨١ |

[الجيم]

| | | | |
|---|---|---|---|
| فجالت | غصن مريج | أو ذؤيب | ٥٩٢ |

[الحاء]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ونحن على | كالإبل القماح | | ٧٥ |
| وما أدري | شراح | | ١٣٠ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ليبك يزيد | الطّوائح | ... | ٣٦٢ |

[الدال]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ولكنّما | وموحد | ... | ٤٣ |
| كيف الرشاد | وأقياداً | الأفوه الأودي | ٧٥ |
| يشطّ غداً | غدٍ أبعدُ | | ١٨٣ |
| طال الثّواء | مرّة مود | ... | ٢٤٣ |
| إنّ الّذي | يا أُمّ خالد | الأشهب بن رميلة | ٢٤٤ |
| إذا المرؤ | عليه شديد | | ٢٦٣ |
| سعد بن زيد | من أحد | | ٣٧٠ |
| ألا هذيت | منّي تعبد | | ٤٤٥ |
| طيرت رأت | إلى عيد | | ٤٥٩ |
| فلا أنا بدع | يؤمن واسعد | عديّ بن زيد | ٥٠٠ |
| رفعت مجد | بالعمد | | ٥٩١ |

[الراء]

| | | | |
|---|---|---|---|
| رايت القوافي | تولّجه الإبر | | ٥ |
| كدمي العاج | مستنير | عدي بن زيد | ١٣ |
| أيادي سبا | يعدك منظر | كُثَيِّر | ١٨ |
| تمنى نئيشاً | أُمور | ... | ٣٩ |
| يا رسول المليك | إذ أنا بُور | ابن الزبعري | ٤٨ و٥٨ |
| وعزّرتني | تأمر | الحطيئة | ٩٩ |
| دعوت لما | يدي مسور | ... | ١٠٧ |
| حين لا ينفع | الصادق النحرير | عديّ بن زيد | ١٤٣ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| دعوت لما | يدي مسور | | ٢١٣ |
| له زجل | أو زميرُ | ... | ٢٦٦ |
| وقتلى كمثل | سيل منهر | أوس بن حجر | ٣٧٠ |
| وإنّ صخراً | رأسه نار | ... | ٣٨٩ |
| ولولا أن | النشأ الصغار | نُصيب | ٤١٢ |
| والشمس طالعة | الليل والقمر | | ٤٦١ |
| إنّ الخلافة | لممّا أحقر | حميد بن ثور | ٤٧٥ |
| ترى شرط | لهنّ مهور | جرير | ٥٣١ |
| جئني بمثل | منظور بن سيّار | ... | ٥٤٧ |
| لا ينفع الطول | سبيل المعشر | حسان | ٥٥٤ |

[السين]

| | | | |
|---|---|---|---|
| الواردون | الجواميس | جرير | ١٩ |

[الشين]

| | | | |
|---|---|---|---|
| اقحمني جار | القدر المنؤش | رؤبة | ٣٩ |

[الصاد]

| | | | |
|---|---|---|---|
| كأنَّ سراته | فوقهنّ دليصُ | امرؤ القيس | ٥٧ |
| أمن ذكر | خطوة وتبوص | امرؤ القيس | ١٧٣ |

[العين]

| | | | |
|---|---|---|---|
| وعليهما | السوابغ تبّع | | ١١ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| أتجزع أن | المتقطّع | | ٤٠٥ |
| أخذنا بأفاق | والنجوم طوالع | ... | ٤٢٤ |
| على حين | والشيب وازع | النابغة | ٥٠٦ |

[ الفاء ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| نحنُ بما | والرأي مختلف | ... | ٨٩ و٥٩٩ |
| منجرد | أعرفُ | الراجز | ١٣٤ |
| وجاءَ قريعُ | وهي زفّف | الفرزدق | ١٤٤ |
| ولبس عباءة | لبس الشفوف | | ٣٨٧ |

[ القاف ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ألا يا زيد | خمر الطريق | ... | ١٠ |
| تروحُ على | العراقيَّ تَفهَقُ | الأعشى | ١٤ |
| ولا الملك | ويأفق | الأعشى | ١٧٩ |
| ثمّ استوى | ودمٍ مهراق | | ٣٢٩ |

[ الكاف ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| خدوداً جفت | مسَّ الأرائك | ذو الرمّة | ١٠٠ |
| قالت له | أُخلّي عنك | ... | ١٣١ |
| مكلّل بأصول | مائه حبّك | زهير | ٦١٦ |

[ اللام ]

| | | | |
|---|---|---|---|
| ليت الشبابُ | البديء الأول | | ٧ |
| إذا دببت | اللهو والغزل | | ١٥ |

| | | | |
|---|---|---|---|
| عسلان الذئب | عليه فنسل | ... | ٩٨ |
| وإن تك | ثيابك تنسل | امرؤ القيس | ١٣٤ |
| أحمّ الله | الشهر الحلال | ... | ١٣٥ و٢٠٧ |
| فاذهبي | أشغالي | الأعشى | ١٧٧ |
| أفمن بكاء | ظهر المحملِ | ... | ١٧٨ |
| ما أُم غُفْرٍ | الأعصَمُ الوقلُ | ابن أحمر | ١٩٤ |
| قانتاً لله | الناس اعتزل | ... | ٢٢٨ |
| أُعطىَ فلم | خول المَّول | أو النجم | ٢٢٨ |
| قد يُدرك | المستعجل الزَّللُ | ... | ٢٩٢ |
| ليس الكرام | عطيّة تعتل | الفرزدق | ٤٦٨ |
| إنّ الكريم | من يتّكل | ... | ٤٧٥ |
| يا من رأى | حافاته الشُعَل | الأعشى | ٥١٢ |


[الميم]


| | | | |
|---|---|---|---|
| فقي ذاك | عليه العَرِمْ | الأعشى | ١٨ |
| لقد لمُتنا | بنائم | ... | ٢٩ |
| أفي الطوفِ | لم يرم | الأعشى | ١٣١ و٣٣٩ |
| اسهري ما | لذاك وقومي | | ١٤١ |
| وافتحى الباب | ليل بهيم | ... | ١٤١ |
| سفهاً عذلت | غير حكيم | لبيد | ١٦١ |
| هيا ظبية | أُمٌّ سالم | ... | ٢٢٦ |
| يذكرني | قبل التقدّم | شريح بن أوفى العبسي | ٢٧١ |
| فإن يهلك | والبلد الحرام | النابغة | ٣٨٧ |
| وبصرة الأزّد | مصر والحرم | | ٤٢٤ |

[النون]

| | | | |
|---|---|---|---|
| وهي زهراء | من جوهر مكنون... | | ١٢٨ |
| وكلّ فتى | الدنيا المنون | | ١٧٥ |
| فاعمل لما | الأُمور تُدان | | ٢٠٢ |
| إذا ما رايةٌ | باليمين | | ٢٦٣ |
| فأجهشت | حين رآني | | ٣٣٠ |
| فقلت له | وطيب زمان | ... | ٣٣١ |
| صليفيّةً | كوبٍ ودنّ | الأعشى | ٤٤٢ |

[الهاء]

| | | | |
|---|---|---|---|
| أقبل سيل | الجنّة المغلّه | الراجز | ١٨ |
| وصدقتني | كذابُه | | ٢١ |
| وجدنا الوليد | كاهله | ... | ٢٠٢ |
| فاليوم قد | ليس بالتّسفه | رؤبة | ٣٣٤ |
| يابن الّذين | قيس فزاره | ابن نوفل | ٥٩٥ |

[الياء]

| | | | |
|---|---|---|---|
| وما أدري | أيهما يليني | | ٧٤ |
| امتلأ الحوض | ملأت بطني | | ١٠٣ و٣٣٠ و٦٠٤ |
| فرفعت رجلاً | العراء ثيابي | | ١٦٢ |
| إذ يتّقون | تضايق مقدمي | | ٢٣٨ |
| تراه كالثّغام | إذا قليني | ... | ٢٥٩ |
| ألا أيّهذا | أنت مخلدي | طرفه | ٢٦١ |

# فهرس المباحث العامّة

ردود على المجبّرة ٣٨، ١٤٥، ١٨٨، ١٨٩،٢٢٥، ٢٥٨، ٢٩٤، ٣٣٦، ٣٥٩، ٣٧٦، ٤١٤، ٥٥١، ٦٣٥

ردود على من يقول: إنّ المعارف ضروريّة ٤٦، ١٧٦، ٢٥١، ٣٥٥، ٤٦٥، ٤٦٩

دليل صحّة القياس العقلي والنظر، دون القياس الشرعي ١٠٩

جواب من يسأل إذا كان الجناحان يكفيان ما معنى خلق الثلاثة فأكثر ٤٣

دليل على أنّه لا أحد إلّا وقد بعثالله إليهم رسولاً وقد أقامالحجّة علىالجميع ٥٦

جواب من يتوهّم أنّ تعجّب الكفّار من البعث يوم القيامة ينافي القول بعذاب القبر ٩٦

دليل على عدم جواز المغفرة بلا توبة، وبشفاعة النبيّ والمؤمنين ٢٥٤

ردّ على من يقول بالإحباط من أصحاب الوعيد ٢٦١، ٥٧٦

حوار حول الاستدلال على صحّة الرجعة ٢٧٨

دليل على صحّة عذاب القبر ٣٠٢

وجوه في الاستدلال في آيات الله على حكمته وصفاته ٣٤٩

دليل على أنّ إسقاط العقاب عند التوبة تفضّل منه تعالى ٣٨٢

دليل على حدوث القرآن وكونه معجزاً ٤٠٣

جواب من يسأل لما بعث الله الأنبياء لمن يستهزئ بهم ولا يؤمن ٤٠٧
دليل على فساد التقليد ٤١٦
جواب من يسأل لِمَ لم يجابوا الكفّار عن شبهتهم بإعادة آبائهم ٤٦٤
أدلّة على أنّ قدرة الله لا نهاية لها وأنّه حكيم ٤٧٧
ردّ على من يقول: لا يجوز تفسير شيء من ظواهر القرآن إلّا بالسمع ٥٣٥
ردّ على الجهّال من أصحاب الحديث الّذين يقبلون المضطرب المتن ٥٣٥
ردّ على من يجوّز الارتداد على المؤمن على الحقيقة ٥٣٥
ردّ على من يجوّز القبيح على الأنبياء ٥٤٦
ردّ على من يتوهّم صحّة خلافة أبي‌بكر وعمر بآية ١٧ من سورة الفتح ٥٥٧، ٥٥٩
ردّ على من يستدلّ بـ«لقد رضي الله عن المؤمنين» على فضل أبي‌بكر ٥٦٠
دليل على أنّ المقصود هو علي عليه السلام في «وأثابهم فتحاً قريباً» ٥٦١
دليل على أنّ خبر الواحد لا يفيد علماً ولا يوجب عملاً ٥٧٧
ردّ على من يستدلّ بـ«إن جاءكم فاسق...» على صحّة العمل بخبر الواحد ٥٧٧

## فهرس المواضيع


| | |
|---|---|
| سورة سبأ | ٣ |
| سورة فاطر | ٤١ |
| سورة يس | ٧١ |
| سورة الصافّات | ١١٢ |
| سورة ص | ١٧١ |
| سورة الزمر | ٢١٨ |
| سورة المؤمن | ٢٧٠ |
| سورة حم السجدة | ٣٢٢ |
| سورة الشورى | ٣٦١ |
| سورة الزخرف | ٤٠٢ |
| سورة الدخان | ٤٥٠ |
| سورة الجاثية | ٤٧٣ |
| سورة الأحقاف | ٤٩٦ |
| سورة محمّد | ٥١٩ |
| سورة الفتح | ٥٤٤ |
| سورة الحجرات | ٥٧٢ |
| سورة ق | ٥٩٠ |
| سورة الذاريات | ٦١٤ |